

١٧١

الجمال

في تفسير القرآن الكريم

السيد علي عجايب بفتح الميم وآخره

تأليف

الأستاذ الحكيم شيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
مع الله المسلمين بحياة آمين

الجمال

طبع مطبعة

مصطفى السباعي الجبلي وأولاده بمصر

وحقوق الطبع محفوظة

وباشترط طبعه - محمد أمين عمران

جادي الأولى - ١٣٥١ هـ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الرحمن

هي مدنية

آياتها ٧٨ - نزلت بعد الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي
الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ *
فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ

مِنْ نَارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ *
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * يَنْهَمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ *
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ * كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ
 آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ *
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ * يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ
 عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَإِذَا
 أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ
 لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ
 بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنُّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَذِهِ جَهَنَّمُ
 الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ * وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا
 أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ * مُتَكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَّا الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ
 آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ *
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
 وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ

رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
 فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ *
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ * مُتَكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ أَشْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول : في تفسير البسملة .

القسم الثاني : في عجائب عالم الدنيا من أول السورة إلى قوله تعالى : يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران .

القسم الثالث : في عجائب عالم الآخرة من قوله تعالى : فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ، إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

هذه السورة فصلت كثيرا من رحمت الله عز وجل لمخلوقاته ، فكأنها تفسير للارحة في البسملة المكررة في كل سورة ، فمن رحمته :

- (١) أنزال الديانات ونشرها بين الأمم ، وآخرها دين الاسلام وكتابه القرآن .
- (٢) وخلق الأجسام والعقول الانسانية .
- (٣) وإلهامها العلم والفهم والنطق والحكم .
- (٤) فيدرس هذا الانسان الذي قرأ الدين المنزل نظام الشمس والقمر والكواكب والمجرات والسدم وحسابهن وأقدارهن وأبعادهن .
- (٥) ثم ينظر نظرة أخرى في نتائج هذه العوالم العلوية فيجد نوعي النبات من التي لاساق لها وهي المسماة بالنجم ، والتي لها ساق وهي المسماة بالشجر .

(٦) ثم اذا فرغ من هذين ونظر تبصرة وتذكرة اعتراه الدهش من الحساب المتقن فيهما كما تقدم في هذا التفسير فماذا يرى ؟ يرى ميزانا منصوبا ، وحسابا معقولا ، ويفهم كيف انتظام هذا العالم من علوى وسفلى في الفلك بالرياضيات ، وفي النبات بعلم الطبيعة ، والمواليذ الثلاثة ، والكيمياء العضوية ومنى درس ذلك ارتسمت تلك المزايا في نفسه ، وامتزجت بعقله وعواطفه ، وشعر في نفسه بأن

النظام صفة من صفاته لكثرة ممارسته النظام الذي به تترى الملكات الانسانية فيحكم بالعدل ويعاشر بالانصاف ، وتكون حياته كلها موزونة لما شاهده من الكمال والميزان ، وذلك يصبح كالغريزة له ، ومن ذلك كيله وميزانه للناس ببيع وشراء وأخذ وإعطاء ، وهذه نعم لا حصر لها ، وجمال لا يوازيه جمال .

(٧) ثم ينظر فيرى أن العوالم الأرضية المذكورة وما فيها من الفاكهة والريحان الخ وما تقدمها من الكواكب جميعها منتجات ظهور الحيوان والانسان المخلوق من طين فنفطة فعلقة إلى أن يصير بشرا سويا ، فتزيد النعم في قلبه ظهورا ، ويزداد شكرا وحبا ، وإذا كان نفس الانسان لن يراها أحد فهذا دليل على جواز وجود عوالم عاقلة لانراها جاء بها الدين ، وهذه العوالم هي الجان .

(٨) وبعد أن يدرس ما تقدم اجالا يأخذ في التفصيل كالمشرق والمغرب اللذين أمرهما يرجع إلى علم الفلك المتقدم ، وكالبحر الملح والعذب اللذين يرجعان للعالم الأرضي المتقدم ذكره ، ولما كان البحر يحوى لؤلؤا ومرجانا خصصهما بالذكر تبيانا للمسلمين الناعمين نوما عميقا ، كأن ربنا يقول لكم أيها المسلمون : يا عبادي : ألم يكف في هذه السورة أن أذكر لكم الشمس وحسابها استغناء بها عن المشرقين وعن المغربين ؟ ألم يكف ذكر الأرض وأنى وضعتها للأنام عن ذكر ما عليها من الريحان وما فيها من البحار ؟ ألم يكف ذكر البحار عما فيها من الدر والمرجان ، وما عليها من الجوار المنشآت في البحر كالأعلام .

إذن الله عز وجل يقول لنا : لا تكتفوا أيها المسلمون بالمعرفة العامة ، فلتقرءوا الأجزاء بعد الاجال ، ولتقرءوا الجزئيات بعد الكلّيات ، أليس من العجب أن يتسدى السورة باسمه [الرحمن] ويسند إليه التعليم ، إذن هذه السورة جاءت لتبين طريقة التعليم التي يتبعها المسلمون في المستقبل ، وهذه الطريقة أشبه بالتي قالها ابن خلدون في المقدمة ، وذلك أنه رأى المسلمين في زمانه قد نصب معين العلم عندهم فأخذ يفند آراءهم ، ولكنه أيس من اصلاحهم في ذلك ، واعتقد أن الداء عضال وقد صدق ، ولكن هذا الداء قد أخذ يزول اليوم والمسلمون استيقظوا استيقاظا لاسبيل لردّه ، ولارادّ لارتقائه وبلوغه أوج الكمال ، فقد ندد على طريقة التعليم ، وعلى الكتب الصعبة ، وعلى مضايقة التلميذ وحشور رأسه بأقوال متناقضة واختلاف كثير .

ثم قال : إن التعليم يكون على ثلاث درجات : فأولا يؤتى بالقواعد العامة اجالا ، ثم يعاد مرة أخرى بطريقة أوسع ، ثم يعاد مرة ثالثة ، وهناك تترى الملكات ، والذي في الآية هو هذا فلم يذكر الله الأرض مكتفيا بها ، ولا يذكر ما فيها من الأشجار والبحار ، ثم انتقل الكلام من الشجر والنجم العامين إلى أفرادهما المفصلات كالفاكهة ، وزاد الأمر تفصيلا بذكر النخل والحب والعصف والريحان .

ها هنا استكمل النظام الذي يتبع في التعليم الأوّل في العالم الانساني ، وهو أولا دراسة العوالم العلوية والسفلية في المدارس الابتدائية والثانوية ، فلا بد أن تدرس هذه العوالم اجالا ثم تفصيلا ، فالاجال هو العلم الذي يسمونه [علم الأشياء] وهذا العلم يشارله بالجل في أول السورة ، ثم تدرس في نفس المدارس الثانوية نفس تلك العلوم ، وهذا هو التفصيل بعد الاجال المتقدم ، ثم ان الذين يختصون بهذه العلوم أي أولئك الذين يدخلون القسم العلمي في المدارس العالية الذين يختصون أنفسهم لدراسة هذه العلوم يدرسون هذه العلوم بطريقة أوسع .

إلى هنا تمت دراسة الحياة الدنيا ، وما هذه الدنيا إلا لوح كتبت فيه هذه الأرقام ، وإذا تعلم الأطفال

ما كتب يجب محوه لكتابة غيره . هاهنا أخذ يذكّر بناء هذه العوالم وأنها مظاهر جلالة وجلاله ، وهي الحجب السدولة بيننا وبينه ، ومتى فهمنا الدرس الذي أعطاه لنا عرفنا كيف نقايله ونرى وجهه الكريم ، وههنا يذكر بعد الشقة بين هذا الإنسان الضعيف وبين صانع العالم جلّ جلاله فإن يتمتع ببقائه والسعادة بجواره إلا بعد أن يسأل عما قرأه في اللوح الذي نشره له في الدنيا ، والدين الذي أنزله ، فكما أنعم عليه بالسموات والأرض في الحياة الدنيا بحاسبه على تلك النعم يوم القيامة كما أن التاميز بعد الدراسة ينتج فيما تعلمه ، فكما أن العبد كان يسأل ربه في الدنيا المعونة وقد آتى الناس من كل ماسألوه هكذا يسألهم هو يوم القيامة عما عملوه ، فالسؤال يختلف باختلاف السائل والمسئول .

ثم أخذ هاهنا يصف النعم والعذاب في الجنات والنيران مما يبهز العقول لذة وجمالا ، ويهتت الأكباد شقاء ونكالا ، ذلك خلاصة ما انتظم في هذه السورة من معان وما جاء فيها من حكم ، ورجات مفصلات وآيات مبدئات ، ورقائق ساحرات ، وحور مقصورات ، وجواهر مكنونات ، وعلوم مخزونات ، وقضايا عجيبات . نهج المسلمون المنهج الحسن في الأعصر الأولى ، ثم تبدل التعليم في العصور المتأخرة شيئا فشيئا ، فأخذوا يذوقون علوم الحكمة في بلاد الشرق بالدولة العباسية وفي بلاد المغرب الأقصى والبلاد الأندلسية ، وأخذ الملوك يترافون إلى العاتقة بمقاطعة العلماء كما فعل بعض ملوك المغرب في أواخر القرن السادس الهجري في دولة الموحدين إذ نفي ابن رشد ، وكما فعل بعض ملوك العباسيين كذلك في بغداد فيما يقرب من ذلك التاريخ ، فانزوى العلم في بلاد الاسلام ففرّ هاربا إلى أوروبا مع تلاميذ ابن رشد المسلمين واليهود كما مرّ . فضلا في هذا التفسير ، وهؤلاء دخلوا في حيز بعض ملوك ألمانيا ، وتغلغل العلم في بلاد أوروبا فقامت قومتها ثم رجعت إلينا عقابا من الله على ما فرطنا .

يارباه ، يارباه : لبيك ، لبيك ، يارباه : نحن أذنبنا واليك تبنا ، كننا نجهل طريقة التعليم والآن أخذنا نرجع إلى سواء الصراط فيها بتعليمك ، ولقد عرفنا أن رحمتك التي وسعت كل شيء لم تخل المسلمين المتأخرين قبلنا مما يحفظ عليهم دينهم .

رباه عرفنا أن المسلمين لما غمّ عليهم الأمر وذهبت الحكمة من بلادهم تستر العقلاء فيهم بالتصوّف وحجبوا عن العلوم التي جعلت أساء العلم التصوّف ، فرأينا الامام محي الدين بن عربي ذا العلم الواسع يؤلف في التصوّف وهو متضلّع من علم الحكمة ، ولكنه لا ينطق باسم الفلسفة ، بل يسمى ذلك تصوّفا ، ثم رأينا المسلمين بعد ذلك يتبدل التعليم عندهم شيئا فشيئا إلى أن تجاوز سننك المعروف في هذه السورة ، فأنت يارباه ذكرت لنا العوالم التي نعيش فيها ، ولكن رجال التصوّف والأسرار لما نشروا آراءهم جعلوها عويصة مع أنك أنت أريتنا الجلال الذي يراه الخالص والعام ، وأن ما ذكره العارف بالله الاستاذ [عبد الكريم الجيلي] المتوفى سنة ٨٩٩ هجرية في رسالته « الكهف والرقم » ، في شرح فوائده بسم الله الرحمن الرحيم « بيان طرق التعليم عند متأخري الصوفية لأهم الاسلام المسكينة .

إنه رحمه الله ابتداء هذه الرسالة بخطبة يصف بها الله عز وجل بنعوت الجلال والجلال ، وأخذ يذكر أنه استخار الله تعالى في املاء كتابه هذا لمن طلبه وهو عماد الدين التونسي ، ثم أخذ يطلب من القراء أن يفهموا العبارات والاشارات ، والتصريحات والكنيات ، والتقديم والتأخير في رسالته . ثم أخذ يذكر أن سرّ الكتب المنزلة كلها في القرآن ، وما في القرآن في الفاتحة ، وما في الفاتحة في البسملة ، وما في البسملة في الباء ، وكل ما في الباء في النقطة التي تحت الباء ، ولا جرم أن هذا القول يجري اليوم على كل لسان في بلاد الاسلام بشيعة رجال الصوفية كبرا عن كابر .

ثم أخذ يبين أن البسملة يتكلم فيها قوم من جهة علوم النحو والصرف واللغة ، وقوم من حيث منافعها وأسرارها ، ولكن هو يتكلم عما فيها من المعاني التي تليق بجناب الحق ، وهذه المعاني التي سيقولها في الرسالة أقيت على قلبه ، وههنا بيت القصيد ، وهو أن النقطة التي تحت الباء فيها السرّ كله منها اشتقّ الأسرار والعلوم . وأخذ يذكر أن من الحروف ما لا يعرف إلا بالنقط ، هكذا العوالم لم يعرفها لنا إلا الله ، فأنه الذي فصل العوالم به عرفت العوالم كما عرفت الحروف بالنقط ، وههنا أخذ يتوسع في هذه المعاني ، وأخذ يبين أن النقطة في الحروف المهمة متحدة بالحرف كالألف والdal مثلا فلذلك لم تكن للألف نقطة ، والآب أقلها نقطتان ، وهذا القول مأخوذ من علم الهندسة ، يعرفه من قرأ مبادئها ، ولما وصل إلى هذا أخذ يذكر أنها ظاهرة في جميع الحروف ، فالجيم ألف معوجة الطرفين ، والdal منحنية الوسط ، وانتقل منها إلى أن الحقيقة المحمدية خالق العالم بأسره منها ، معتمدا في ذلك على حديث جابر وهو ليس من الصحيح ، فهو أولا يقول : إن النقطة في الحروف سواء أكانت منفصلة كما في الحروف المعجمة ، أو متصلة كما في الحروف المهمة كالحق سبحانه وتعالى فهو مع كل أحد بكامله كما أن النقطة مع كل حرف بكاملها ، ولما كانت الألف مركبة من نقطتين كانت كالحقيقة المحمدية التي ورد فيها ذلك الحديث المتقدم ، وأن الله خلق العالم كله من النور المحمدي ولذلك قدّم الألف على جميع الحروف كما قدّم صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء .

ثم أخذ يجعل هذه النقط إشارات إلى الأحاديث مثل : « مارأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله أو بعده أو معه » روايات ، ورجع ذلك إلى حال النقط المختلفة ، ومن النقط ما تكون بيضاء كالنقطة البيضاء في قلب الميم والواو وأمثالها ، وهذه نص عبارته ، فانه محل مارأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه ، ولهذا تجوّف ، لأنه ظهر في جوفه شيء غيره ، فدائرة رأس الميم محل مارأيت شيئا ، ونقطته البيضاء محل إلا ورأيت الله فيه ، والألف محل : « إن الذين يبايعونك » الخ .

وأخذ يفصل الكلام في الحروف على هذا النحو وجعله فصولا ، ففصل مثلا لتطويل الباء بعد اسقاط الألف ، ثم آخر للصلق الباء بالسين في البسملة ، وآخر يقول فيه : إن السين عبارة عن سرّ الله وهو الانسان ثم أخذ يفسر الآيات من أول [يس] وآية آخر التوبة ، ثم رجع إلى الألف ، ثم إلى الميم ، ورجع إلى عددها بالجل وهو ٤٠ وقال إن هذا العدد هو عين كمال الاعتدال في كل شيء ، وهو الموافق لعدد مراتب الوجود وهي :

ذات ساذج (١) العماء (٢) الأحدية (٣) الواحدية (٤) الألوهية (٥) الرجانية (٦) الربوبية (٧) العرش : وهو الجسم الكلي (٨) القلم الأعلى : وهو العقل الأوّل (٩) اللوح المحفوظ : النفس الكلية (١٠) الكرسي : وهو العقل الكلي ، وقال هو القاب (١١) الهيولي (١٢) الهباء (١٣) فلك العناصر (١٤) الفلك الأطلسي (١٥) فلك البروج (١٦) فلك زحل (١٧) فلك المشتري (١٨) فلك المريخ (١٩) فلك الشمس (٢٠) فلك الزهرة (٢١) فلك عطارد (٢٢) فلك القمر (٢٣) فلك الأثير (٢٤) فلك النار (٢٥) فلك الهواء (٢٦) فلك الماء (٢٧) فلك التراب (٢٨) فلك المولدات (٢٩) فلك الجوهر البسيط (٣٠) فلك العرض اللازم (٣١) المركبات : وهي المعدن (٣٢) النباتات (٣٣) الجمادات (٣٤) الحيوانات (٣٥) الانسان (٣٦) عالم الصور : منه ما يلحق بالدنيا (٣٧) عالم المعاني : منه ما يلحق بها البرزخ (٣٨) عالم الحقائق : ويلحق بها القيامة (٣٩) الجنة والنار (٤٠) الكتيب الأبيض الذي يخرج إليه أهل الجنة .

هذه زبد الكتاب ، فلي نظر شبان السامعين في زماننا الذين يدرسون أمثال هذا التفسير حال الأمم الإسلامية المسكينة كيف حجبوا عن العلوم واضطر رجال الصوفية والصالحون أن يفتقلوا بهم من الجرهر إلى العرض

ومن الحقيقة إلى المجاز ، ومن الأصل إلى الفرع ، ماهو الأصل ؟ هو هذا العالم ، هو المذكور في سورة الرحمن وهذا العالم تدل عليه الحروف ، والحروف لا حصر لأشكالها من اللاتينية والعربية والصينية والهيروغليفية وغيرها ، ولما كانت الحروف عندنا نحن المسلمين هي العربية قالوا هذه محل السرّ مع أن الشجر والحجر والقمر كلها جمال وأسرار ، وهذه جملة لتدل عليها ، ثم انتقلوا من الحروف إلى الذات العلية وأخذوا يتفنون ومن أعجب هذا التفنن أن حرف الميم يشير من حيث شكاه إلى حديث : « مارأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه » ومن حيث عدّه إلى أن مراتب الموجودات (٤٠) وهذا أمر عجب ، وهاهنا عمدوا إلى العلوم التي نقلت عندهم عن علماء اليونان ، والمعروف عندهم الكواكب السبعة وفلك البروج والفلك الأطلسي فأتى بها كلها وزاد عليها أشياء كالذات الساذج والواحدية والأحادية ونحوها ، ثم كرر في بعضها فذكر المولدات وهي نفس المعادن والنبات والحيوان ، ومن العجب أن يجعل للعرض اللازم فلما يجعل المركبات هي المعادن مع أن هذا عند القدماء خطأ بل المركبات تشمها وتشمل الحيوان والانسان ، ومن أعجب العجب أن يجعل الجمادات قسما وحدها ، وهذه كلها خطأ محض في التقسيم والتعليم ، وهذا دليل على أن القوم رحمهم الله كانوا يجتهدون ولو بطريق التقريب في أن يجعلوا هناك معارف مبنية على هذه الحروف من حيث عددها مثلا ، لأن المراتب اذا كانت أربعين وعدد الميم أربعون أحدثت عند الجهال إيمانا وتصديقا ويقولون هذا من الأسرار ، ثم اذا ثبت في ذهنه ذلك أصبح يرى أن كل العلوم قشور لا قيمة لها ، ويحتقر ما سوى ذلك ، ويعيش ويموت مؤمنا موحدا ولكنه يجهل مقاصد دين الاسلام ومقاصد الأنبياء وان كان هو صالحا ، ثم يرى الأمة كلها دون مرتبته ، لأنه فهم حقائق الوجود والناس دونه ، وأن علماء الدين وشيوخ الاسلام محجربون ، أما هو وأمثاله فلهم الواصلون أو شبه واصلين .

أما أقول ان القوم كانوا يكتبون ذلك وهم يتقربون إلى الله به ، وقد فعلوا ما قدروا عليه في زمانهم ، وقد قلنا إن العلم هرب من الشرق إلى الغرب قبل ذلك بزمان ، فاذا كان موت الشيخ الجليل رحمه الله في أواخر القرن التاسع فذلك في إبان سقوط دول الاسلام وقد فارق العلم بلادهم قبل ذلك لأن ابن رشد كان قبل ذلك بثلاثة قرون ، فاذا رحل العلم إلى أوروبا قبل هذا الكتاب بثلاثة قرون فأهل الصلاح معذورون اذا تفننوا في بقايا العلم وألصقوها بالحروف الهجائية متبعين في ذلك الباطنية الذين جعلوا الأسرار في الحروف قبل ظهور حسن بن الصباح في [قاعة الموت] في أواخر القرن الخامس الهجري كجدة مناه في غير هذا المكان ، فكانوا يحسبون جعلها ويجعلونها أسراراً مع أنها تقبل الضدين ، ولكنهم جعلوها آلة في أيديهم يتصرفون فيها كما يشاءون (انظر هذا المقام في (سورة الكهف) عند آية - وما كنت متخذ المضلين عضدا - ففي غضون الكلام هناك إشارة لبعض ذلك) .

الله أكبر : ظهر الحق واستبان السبيل ، نحمدك ياربنا ، نحمدك على التعليم ، وعلى تنوير أمة الاسلام في زماننا . الله أكبر : سيقوم الشبان بعدنا ويقرءون جميع كتب القدماء ، وينقدونها ، ويعرفون غنها من سمينها .

الله أكبر : ان هذا النوع من التعليم يربط القلوب ويقفلها فلا تقبل إلا ما كان من قبيل هذه الأحوال وما بعد ذلك وهم باطل ، بذلك ضاعت أمم الاسلام وذات قرونا وقرونا ، وما أشبه هذا التعاليم من حيث تحكمه في العقول بما قدامناه في (سورة سبأ) عند ذكر المهدي محمد بن تومرت ، ذلك العالم الذي أداه اجتهاده إلى أن المسلمين في زمانه لا يحكمون إلا بطريق الاعتقاد ، وأنه المهدي المنتظر ، وجعل له دولة ، وقال إن هذه الدولة سبقي إلى آخر الزمان ، ويظهر المسيح عليه السلام ويقابل آخرها ، ولكن هذه الدولة دالت بعد

نيف وقرن من الزمان ، انظر قصته هناك في ﴿سورة سبأ﴾ كما قدمناه ، ولكن هناك نقطة لم تتضح ، فساد كرها هنا ليظهر للمسلمين في زماننا كيف كان بحكم آباؤهم ، وكيف كان الشيوخ لا يجدون طريقا للحكمهم إلا إيهامهم ، وهذا الإيهام يتناقله الحكم بطرق مختلفة ، ويتناقله كثير من الصوفية إلى الآن اعتقاداً منهم أن هذا أمر لابد منه ، فإذا رأينا المهدي محمد بن تومرت يقتل سبعين ألف مسلم لأنهم على خلاف رأيه بالحيلة والخداع ، فهكذا نرى الأساتذة المحترمين في الأمة بعد ذلك يعمدون إلى ألفاظ من العلوم ويجعلونها في كتاب ويربطونها بالسملة ، وينشرونها باسم أنها أسرار فير بطون القلوب ويقرؤها الجهال من أيام تأليفها إلى الآن أي في مدة ٤ قرون ونصف قرن وهم يظنون أنها علوم ولا علم فيها وإنما هي أخلاط وضعت مع إيهامها للطلاب أنها أسرار ، وإذا نجح المهدي محمد بن تومرت في أنه نظم دولته والدولة نعت الناس ثم انتهت ، وإذا نجح الجليلي رحمه الله في كتابه ، وأن الناس قرءوه وآمنوا بالله ، وناموا على ذلك وهم جهال بكل علم وفق ، فليس معنى هذا أن ذلك ينفع في زماننا . كلا والله . فلا الحاكم الذي يفشنا بلوهم اليوم بمن سبيل كدوك بني عثمان في أواخر أيامهم ، ولا ذلك الذي يدعى أنه واصل لله تعالى وهو خال من علوم الحكمة يصلح أن يقول آمم الاسلام الآن .

لاظم اليوم يا أمم الاسلام . أيها المسلمون : أنا في هذا المقام قرنت إيهام المهدي محمد بن تومرت بإيهام الملوك العثمانيين في أواخر الدولة ، وإيهام شيوخ الصوفية كالجيلي رحمه الله ، لأن العلم والحكم من واحد فالحاكم لا يقدر على إيقاع الوهم على العلماء وإنما الوهم يقع على الجهال ، ولقد جمع الأمرين مع المهدي محمد بن تومرت الذي اجتهد فإخفاً ، وهاك بعض حديثه الذي أشرت إليه من كتاب [زحلان] تحت عنوان « ذكر قيام محمد بن تومرت أنه المهدي المنتظر » . إذ ذكر أنه من جبل السوس ، وادعى أنه شريف علوي حسني ، قرأ علوماً بالمغرب وارتحل إلى المشرق ، وقابل الامام الغزالي رحمه الله ، ورأى مرتين أنه شرب ماء البحر ، فقام في نفسه أنه المهدي ، فأخذ في الزهد وفي الذكر والعبادة ، وكان يقتصر على رغيف كل يوم وعلى الزيت ، ومن أتباعه عبد الله الونشريسي ، وكان هذا عالماً متضلعا في العلوم ، فأمره أن يكتب ما عنده من العلوم ، وأن يجعل نفسه أصم أبكم كالمجاذيب حتى يأتي الوقت الذي تظهر فيه علومه كمجزة لتتميم ما يريد ، فبقى أبكم بين الناس أبداً ، ولما به يجري على صدره ، ولا يتكلم إلا مع الشيخ في خلونه ، ثم انهم دخلوا مراکش وثاروا ثائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا ذلك ذريعة لقلب الدولة وحضر بين يدي أمير المسلمين في مراکش ، وكان وزيره مالك بن وهب رجلاً حازماً فأشار على أمير المسلمين بقتله لأنه لا يريد بالوعظ إلا الملك ، ولكن الملك عفا عنه ، وذهب هو ومن معه إلى السوس ، وذلك سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وكان من أمره ما كان ، وتقدم ذكره في ﴿سورة سبأ﴾ وقد بقيت دولتهم نحو مائة سنة وكانوا يزعمون أن هذه الدولة ستبقى حتى ينزل عيسى ابن مريم وأنه هو المهدي المنتظر إلى آخر ما هناك

ولقد كان من أصحاب المهدي عمر بن يحيى الهنتاني ، قيل أنه يقفه نسبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه صار بعد المهدي من وزراء عبد المؤمن ، وأعطى بنو عبد المؤمن أولاد عمر المذكور ولاية تونس ، فكانوا يسمون الحفصيين ، استمر ملك تونس فيهم إلى سنة تسعمائة وأحدى وثمانين ، فانتزع الملك منهم الدولة العثمانية ، وكانوا يلقبون بالحفصيين ، وكانت مدة ملكهم تونس ثلاثمائة وثمانية وسبعين سنة ، وهم من فروع دولة محمد بن تومرت ، واختاف الناس في أمر ابن تومرت فقال بعض العلماء : أنه أراد اظهار الحق فاجتهد وأخطأ . وقال بعضهم : أنه كان على الأمة شراً من الحجاج وبزيد ، والله أعلم بحقيقة الحال اهـ

ملخص هذا المقام : أن الرحمة التي ذكرت في بسملة ﴿سورة الرحمن﴾ يدخل فيها عجائب السموات والأرض وما بينهما المذكورات في السورة ، وفيها كيفية تعليم الانسان ، لأن السورة مبدوءة به ، وأنه يكون

بالترجيح الأعم فالأخص ، وأن هذه الطريقة ذكرها ابن خلدون ، وأقول الآن : ان اخوانا رجال [دار السلام] قد اتبعوها في تعليم اللغة العربية ونجحوا ، وقلبوا تعاليم الأمم الإسلامية في ذلك ، واذا كانت رحمة الله عز وجل قد انتشرت في زماننا في طريقة التعليم ، فقد ذكرنا بما كان عليه التعليم في القرن المظلمة الإسلامية أيام أن طردوا العلم قتل من بينهم ، فأتينا بكتاب [الكهف والرقيم] في شرح فوائد بسم الله الرحمن الرحيم [للجيل رحمة الله عليه ، فأيناه رجع المسافر كلها إلى باب البسملة ، مم إلى نقطتها والنقطة في مقابلة الذات العلية إلى آخر ما قال وانتهى أمره إلى الميم من البسملة فأدخل في عددها وهو ٤٠ ٤٠ مرتبة وهذه المراتب عبارة عن الكواكب المعروفة في زمانهم ونظام طبقات العوالم على حسب ذلك الزمن مع تحريف وتكرار واختلاط ، فذكرنا نظام هذا العلم بنظام الملك فوجدناهما فرسى رهان ، فالملوك العثمانيون في أواخر أيامهم يوهمون الشعوب بعظمهم الجوفاء في قصورهم ، وبعض رجال الصوفية والمهدين يستحلون الأكاذيب مجتهدين خطأ أن هذا هو الباب الموصل لحفظ الأمة في زمانهم ، ولكن الأمة الآن قد أخرجها الله من هذه الجهالات والظلمات ، ومتى استنارت بالعلم طردت كل دجال فلا يعالها ولا يحكمها ، لأن الحق أحق أن يتبع .

لقد كان أمثال المهدي محمد بن تومرت ومن مثله (من المذكورين في سورة الشعراء عند ذكر السحر وهم المشعوذون الذين اتخذوا الشعوذة سببا في المآث) أشبه بالطبيب يستعمل كيّ المريض ، فترى ابن تومرت يردم البئر على الثلاثة الذين شهدوا للونشريسى وأعدم سبعين ألفا قتلا ظمأ ليكون أتباعه كالغنم تتبع راعيها وهكذا فعل [حسن ابن الصباح] في قلعة الموت بجهات أصبهان ، فكان يحرم على أصحابه العلم ليبقوا جهلاء والله يقول : « الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان » وهكذا فعل ملوك العثمانيين إذ منعوا العلم عن المسلمين ، وقد أخبرني شاب حجازي منذ أيام في هذه السنة ١٩٣١ م الموافقة سنة ١٣٥٠ هـ أنهم ما عرفوا شيئا من العلم ولا من أخبار العالم ، ولا من اللغة العربية التي هي لغتهم إلا بعد ذهاب دولة السلطان [حسين الهاشمي] لأنه كان أولا تابعا لتركيا ، وهي أوجبت أن لا يقرأ النحو إلا باللغة التركية ، وبعد أن خلع طاعتها حرم الجرائد ، ولما زالت تلك الدولة تعلم الناس وقرءوا الجرائد ، هكذا أخبرني ، فالإنسانية في مثل هذه الحال تنزل إلى درجة تحت درجة الحيوان في النظام ، لأننا قرأنا نظام جمهوريات النمل والنحل مثلا فلم نثر على هذه الفضالات والأكاذيب والخداع ، إذن الإنسان أمكنه أن يعيش وهو أدنى من الحيوان منزلة مع بقاء عقله محفوظا ولكنه مغمور في الجهالة ، وهذه الحال التي عاش بها المسلمون قرونا بعد العصور الأولى جعلها الله درسا للمسلمين الذين يأتون بعدنا ، وهذا التفسير قد جعله الله مملوءا من العبر والمبتدأ والخبر ليكون تذكرة لهم فلن يفتقروا فيما وقع فيه آبائهم ، ولن يضحك عليهم أحد بعد اليوم ، وسيتعلم الرجال والنساء ، ويدرسون علوم الأمم ولغاتهم كل بحسب طاقته ، فالرحمة هنا من وجهين : الوجه الأول أن الأمة مع جهالها أمكنها أن تعيش وإن كانت في نظامها أنزل من نظام الحيوان . الوجه الثاني أن هذه الشقاوة التي حلت بالآباء بسبب الجهل تكون مهازا يسوق الأبناء إلى العلم الصحيح ، والحكم الصحيح ، والتباعد عن الدجل والكذب والبهتان .

إن الأمة تعتبر كلها أولها وآخرها كنفس واحدة شاء الناس أم أبوا ، نخطأ الآباء يحترس منه الأبناء ، وعلم الآباء نافع للأبناء ، الأمة الواحدة في نفس هذه الحياة نفس واحدة ، فنراها في الحرب وفي النصر وفي العز وفي النذل مشتركة ، ويظهر لي أن هذا النوع الانساني يرى في هذا العالم وفي عوالم أخرى في البرزخ ليصل إلى درجة أن تكون الأنفس كلها نفسا واحدة ، وأهل الأرض اليوم جهال بهذه القضية متشاكسون

والله هو الولي الجيد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وهذه من أسرار التعليم في قوله تعالى : « الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان » كتب ليلة الجمعة ١٥ جادى الأولى سنة ١٣٥١ هجرية ، وفرغت منها بعد نصف الليل .

بهجة العلم في هذا المقال وهو تفسير البسملة في سورة الرحمن

قد لخصت الكتاب الذى ألفه [الجبلى] رحة الله عليه منذ ٤٥٠ سنة تقريباً فظهر منه أن العلم إذ ذاك عبارة عن بقايا علوم وآثار منها واشتات ، فانه ذكر رهوس المسائل الفلسفية القديمة مثل الأفلاك التسعة المعروفة عندهم ، وترتيب العالم السفلى ، وهذا ملخص الفلسفة القديمة مع انضمام المعدن والنبات والحيوان فضم ذلك كله بالاسم لا بالشرح ، وزاد عليه ألفاظاً مبهمه وجعلها مراتب الوجود ، والأمم الاسلامية في هذه اقرون تجهل علم الفلسفة القديم لأنها معتصة وفائتها ضعيفة ، ولأن الترك إذ ذاك تحت امرة بنى عثمان قد قتلوا الأمم الاسلامية تقتيلاً ، وأناموهم فناموا نوماً عميقاً ، لذلك أخذ المتعلمون منهم ذلك باعتباره سرّاً مصوناً ، وما هو بالسر المصون ، وإنما هى كلمات من شظايا العلوم أضيف إليها شظايا من آراء الباطنية ، وهى الحروف وأسرارها ، وضم هذا إلى ذلك ، ووصل به آيات قرآنية ، وأضاف إليه معرفة الله بواسطة الألف وما بعدها من الحروف ، وجعل ذلك أشبه برموز ، كل ذلك إبعاداً للمسلمين عن معرفة الله بالعلم والحكمة ، وزخزحتهم عن الطبيعة الجيلة إلى حروف صنعها الانسان ، وماهى الحروف ؟ إن هى إلا رسوم دوتها قدماء المصريين وتبعهم اليونانيون فالأمم كلها كاللاتينيين والعرب ، ألم تر إلى الميم فاتها عند قدماء المصريين على صورة من اسم البومة ، وإلى التاء فاتها مأخوذة من حبة ساقية ، وترى حرف الميم فى العربية ، وفى اللغات الفرنجية له نوع شبه بالبومة وكذا التاء بالحية ، فهل فى شرعة الانصاف أن ينحاز المسلمون إلى رسوم اخترعها الانسان ويبتعدوا عن صنع ربهم ؟ ويجهلوا مواطن حياتهم ، ومعرفة ربهم ، ألساء مثلاً القوم المتأخرون . رباه ، رباه : فهمنا والله ما حاق بنا من الجهل ، أنت رحمن وأنت رحيم ، علمتنا العلوم ومنها القرآن ، اتنا معاشر المسلمين فى جهلنا العلوم فى القرون المتأخرة أشبه بالأمم كلها فى جهلها المركب فى أمر الماء كل ، الناس يأكلون الطعام مطبوخاً ، وهذا كأنه اجاع النوع الانسانى وهو خطأ فاحش أظهره الأطباء فى زماننا إذ يقولون إن النار تضيع منه قوة الحياة ، إذن كل ما طبخ من الطعام ، أو قلى أو شوى صار فى ذهاب قوة الحياة منه على رأى الأطباء فى زماننا أشبه بكل ما هو متعفن ، أو أصبح نبيذاً أو خراً ، فإن الأطباء اليوم بالاجماع يقولون بضرر ذلك كله ، إذن كل ما غير الطعام غالباً ضارّ بالانسان ، بل الفاكهة والخضر التى ليست طازجة تقلّ منفعتها .

هذا ملخص كلام الأطباء فى زماننا ، ولقد شرحته عشرات المرات فى هذا التفسير ، فهكذا أمور دين الاسلام ، إن المسلمين فى القرون المتأخرة جهلوا العلوم ومقصودها ، فراحوا يفتنون ما هو النافع منها ويكتفون بالخشالات والقمامات والفضلات والرجيع والفتات فتركوها للناس فعاشوا بها زماناً ونسوا عهد آبائهم حتى اذا أراد الله ظهور المجد الاسلامى أظهر العلم كرة أخرى ، وعلمنا تلك العلوم فبحثنا فأفيناها على ما ذكرناه فبينما فى هذا الكتاب .

واعلم أن من رحة الله الواسعة ما تقدم فى أول [سورة القتال] من صور الحشرات المرسومات هناك التى تعيش على العقونات ، فإذا كان الله واسع الفضل حلماً فانه لا يذير العقونات ولا الرطوبات بل فائدة بل خلق لها خلقاً يلائمها ويناسبها بها يعيش كما خلق عقولا فى الانسان نسبها إلى العقول العالية فيه كنسبة الحشرات إلى أعلى الحيوان تعيش بالغيبة والغميمة والآراء الجزئية ، فهكذا فى الأمم الاسلامية المتأخرة لما حرمت العلوم

والمعارف سخر الله لها من جمودها لقيامات العلم فعاثوا عليها عيش الحشرات على العفونات ، وعيش صغار العقول من الناس على الأحوال الجزئية ، والأخبار العادية ، سنة الله في خلقه وهو الرءوف الرحيم .
واعلم أيديكم الله أيها الذكي أن الشيخ الجليل وأمثاله قوم صلحاء يريدون الخير بالأمة ، وقد كتبوا ما رأوا أنه خير في زمانهم ، وبكتابتهم صلاح قوم وصاروا أتقياء ، ولكن ليس ذلك بمنعنا من أن نظهر الحقيقة ونقول هذه ليست والله بأسرار هي تنف من العلوم ، وهما هي هذه العلوم فلندرس نفس العلوم لبقاها ورجيعها وقاماتها ، فن ذا الذي يكتب من الفاكهة بقشرها ، أو من الكتاب بعنوانه ، أو من الجوهر بالعرض ، فرحم الله الجليل ، ورحم الله علماء الاسلام والصوفية أجمعين ، ولكن الاحترام لهم شيء والرجوع إلى الحقيقة شيء آخر ، وحسن النية ليس كل شيء ، فلا بد من العمل كما لا بد من النية ، وهم لم يكن لديهم من العلم إلا ما رأته من رموز وإشارات ترجع إلى علم الفلسفة القديم ، وقد جاء في هذا الكتاب قديم الفلسفة وحديثها ، فالحمد لله إذ وفقني لهذا الكتاب ، أتركه للمسلمين بعدى وقد فك فعلا عقولهم وانطلقوا بقرءون علوم الأمم ، وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة ، والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الأحد ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٠ م

مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها

اعلم أن السور المتقدمة من [سورة ق] إلى [سورة القمر] قد مر فيها الكلام على العالم العلوي والسفلي ، فهو في سورة ق بحث على النظر في السموات والأرض ، وبناء الأولى وتزيينها ، وأنها لا فروج فيها ، وفي الثانية لفت النظر إلى مآها ، وخلق الجبال فيها ، وأنبت النبات فيها ، وجعلها بصائر لذوى العقول وذكر المطر وما يترتب عليه من الجنات والحب والنخل ، وعجيب الثمر وعموم نفع هذه المخلوقات لنوع الانسان وفي [سورة الذاريات] خصص المطر المذكور في [ق] والرياح بالذكر ليحث الناس على دراسة الآثار العلوية من رياح ومطر وكيف تهب ، وما سبب هبوبها ، وما آثاره ؟ وجعلها في صورة القسم تعظيما لعلمها ، وتفخيا لقدر العالمين بها ، وفي [سورة الطور] عمم القسم بما في السماء وما تحت الأرضين ، من بيت معمور ، وسقف مرفوع ، وبحر مسجور ، وبما بينهما من علم منشور ، وحكمة ماثورة ، وآيات مقروءة ، ودروس معلومة ، ومدنية مشكورة ، فأصبح بهذا العلم بكل شيء مطلوباً ، والنظر في الحقائق كلها مرغوباً ، وفي [سورة النجم] ذكر ابداع الوحي ، وعجائب الخلق ، إذ لم يبق بعد ذكر العوالم كلها علوها وسفليها واعظام قدرها وقدر العلم بها والعالم بها لما أن الله أقسم بها إلا أن يذكر أول نفس عالمة بها ، قارئة لنظامها ، مطلعة على بدائعها ، تشويقاً للنفوس ، وتعليماً للأمم ، فأبان أن نبينا ﷺ اطلع بطريق الوحي لا بطريق التعليم على آيات ربه الكبرى ، وقد رأى ما لم يره أهل الأرض قاطبة من عجائب الله ، فأول سورة النجم أشبه بضرب مثل لمن علم ذلك من أهل الأرض ، كأن الله عز وجل يقول : أضرب لكم مثلاً بنبي آخر الزمان ، فقد اطلع على ما يمكن أن يصل إليه أعلى انسان في الأرض وانتهى إلى سدة المنتهى ، فأما ما وراء ذلك فانه خاص بي ، ولما أن ضرب هذا المثل وضحت مسألة العلوم والتثليل فلم يبق إلا الانذار لمن هو غافل عنها ، فجاءت سورة القمر التي أعقبت سورة النجم للناسبة اللفظية والاشراقية على سبيل الترقى ، فأبان فيها أن الغافلين من أهل الأرض يجب أن يندروا باقتراب يوم الحساب فيقال لهم : أيها الناس : اذا غفلتم عما أوصى الله وعن العلم الذي ذكرناه ، واعظام العالمين به فاني أنذركم يوم الحساب وقربه ، والدليل على ذلك ما ترون من انشقاق القمر من الأرض كما قاله علماء العصر الحاضر ، ويمثل لذلك بانشقاقه على جبل حراء واطلاعه عليه ، فان هذا كقائمة ليوم الحساب : « يوم تنشق السماء فتكون وردة كالدهان » .

ولاريب أن ذكر الساعة لا يراد منه إلا تخويفهم وزجرهم بقرب تلك الحقائق وبمقدماتها ، فهم يزجرون

بالقيامة وعذابها وبعذاب الدنيا ، فإن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، والجاهل في الدنيا جاهل في الآخرة ، والأمم الجاهلة في الدنيا جاهلة يوم القيامة ، فاقتراب القيامة يتقدمه الشقاق القمر قديما ، أوزمن النبوة ، أو يوم القيامة ، أو جميع ذلك ، فهنا أمران : ساعة تقرب ، ومقدمات تسبها ، ولذلك جاءت أحاديث قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط وآل فرعون ، متفقات على أن العذاب في الدنيا يتبعه العذاب في الآخرة على وفاق ما في أول السورة من اقتراب الساعة ومقدمتها الشقاق القمر (وبعبارة أخرى) إن العذاب مبدؤه في الحياة ونهايته في الآخرة التي لانهاية لها ، فإذا ذكر الله اقتراب الساعة وتقدم الشقاق القمر عليها كالمقدمة لها فهكذا ذكر قصص الأولين وكيف أتبعوا في هذه الدنيا لعنة وبوم القيامة ، ثم أتى بما هو كالنتيجة لذلك من أن كفار مكة سيهزم جمعهم ويولون الدبر ، وأن الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وأمر ، ثم جعل ذلك كله في قاعدة وهي « وكل أمر مستقر » وأخرى وهي « إنا كل شيء خلقناه بقدر » أي أنا خلقنا كل شيء مرتبا مقدرًا على مقتضى الحكمة ، وجعل تلك القصص بينهما بحيث يكون ما في القصص كله من الحكمة البالغة ، ومن الأمور المرتبة ، ومن استقرار كل أمر ، فاذن تكون نتيجة هذا كله وأوله وآخره أن هناك قانونا عاما ، وهو أن كل أمر يسير إلى غاية لا يتعداها ، فمن كان في هذه أعمى بالجهالة فهو في الآخرة أعمى بالندامة والعذاب الأليم ، وهذه هي الحكمة التامة والظام الأعلى بحيث يشمل العالم كله أوله وآخره ، فإذا كان الجاهل هذا شأنه أتبعه بالعالم فقال « إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر » فوصف المتقين بأنهم منعمون في الجنات والأنهار ، ثم أخذ يرتقي بهم في المعارف والعلوم رجوعا إلى ما ذكر في السور السابقة فقال هم أهل أن يكونوا في مقاعد صدق مقرين عند ملك تعالى أمره في ملكوته ، وعظم اقتداره في خلقه ، وعلوم أن ملوك الأرض الضعاف لا يحظى بالقرب منهم غالبا إلا الذين نالوا حظا عظيما من الأخلاق ومن العلوم ، فكيف تكون حال من يحظى بالقرب من ملك الملوك ، إن ذلك يكون في أعلى درجات العلم والحكمة والأخلاق ، وكلما كان أعلى منزلة علمية كان أقرب إلى رب البرية ، وههنا آن الأوان أن نبش في [سورة الرحمن] ومناسبتها لما قبلها من سور القرآن ، ههنا أخذ يبين الصفات التي تؤهل المتقين ليكونوا في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، لذلك أخذ يشرح ماصنعه ذلك الملك المقتدر وما أفاده برحمته لأهل الأرض فأفاد أنه [أولا] علم القرآن إذ أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو باغه لأمته ، ولا جرم أن ما أوحى به إلى النبي ﷺ أصبح يرثه الخلف عن السلف جيلا بعد جيل ، وهذا من رحمته [وثانيا] ذكر خلقه للإنسان ، ونظام جسمه ، وعجائب اتقانه [وثالثا] أبان أنه علمه النطق وافهام غيره ، وهذا لا يتم إلا بنفس وعقل وعجائب تقدم كثير منها في التفسير [ورابعا] أبان تسخير الشمس والقمر ونحوهما له [وخامسا] أبان تسخير الزرع والشجر له [وسادسا] أبان أنه رفع السماء وأقام الخلق بالحكمة والنظام [وسابعا] ذكر الأرض وما فيها من النخل والفاكهة ، وما يشم منه رائحة طيبة [وثامنا] خلق الإنسان من طين مطبوخ [وتاسعا] خلق الجن من نار [وعاشرا] كونه رب مشرق الصيف والشتاء وغربيهما [وحادي عشر] أنه أرسل البحر الملح والخلو متجاورين لا يختلطان ، [وثاني عشر] أن اللؤلؤ والرجان يخرجان من البحر الملح والخلو [وثالث عشر] السفن الجارية في البحار [ورابع عشر] أن كل هذا سيفنى ويبقى وجه الله [وخامس عشر] أن كل أهل السموات وأهل الأرض مفتقرون إليه فيسألونه .

فهذه هي النعم التي ذكرها الله لنا وتوابعها ولوازمها ، ولكنه لم يذكرها بدون أن يتقدم في أولها أنه علم القرآن ، وأنه علم الإنسان البيان ، وهذا الإنسان المتصف بذلك قد ذكر عقب قوله : « في مقعد صدق

عند ملك مقتدر» فكأنه يقول : إن الملك المقتدر الذي يكون لكم مقعد صدق عنده هو نفسه كثير الرحمة ، وأهم شيء من الرحمة أن تقرأوا العلوم التي رخص لجلتها بالقرآن ، فهذا الملك المقتدر الذي أتم سكونون في حضرته وتقرّبون من مقامه كثير الرحمة للعباد ، أنزل لهم الكتب السماوية وأهمها هذا القرآن ليقرأه الناس ، وإنما أنزله لهم لأنهم مخلوقون على هيئة تقبل علومه ، ألم تر أنه قد ألهم لغات يبين بها مراده وأعطى علوما عقلية وغيرها ليعرفها بديانها ، ويقرأها بلسانه ، ويحفظها بجهته ، فإذا كان هذا شأن الانسان الذي يرجى أن يكون له مقعد صدق عند ملكه المقتدر ، فمن حقه أن يقرأ علوم هذه الكائنات فيدرس الفلك ونظامه ، والتشريح وأحكامه ، والشجر وأحكامه ، والأرض وعجائبها ، والمزارع وغرائبها ، وأصول الانسان وغرائب عالم الأرواح ، والبحار وماءها ، وما جرى فوقها من سفن ، وما نبت تحتها من المرجان ، أو الدرر الحسان ، وأن يبحث هذا العالم بحثا مدققا حتى يعلم أنه كله ذوافقار الى من يعينه ويحفظه ويبقيه .

إن الانسان اذا كان مقعده صدقا عند ملكه فعليه أن يتخلق بأخلاق الله ، وأخلاق الله الكمال المطلق فليكن كاملا على قدر امكانه ، ألا ترى أنه وضع البزاق والنظام العام لأجل أن لا نطغى في ميزاننا ، وزن كل شيء وقدره تقديرا من حركات الأفلاك ونظام النبات والأشجار والأزهار والأوراق ونظام الأثمار وهيثانها وطعومها لأجل أن تقدر الأشياء وزنا وكيلا ومساحة وشهادة بالأقوال الصادقة والشهادات الحقة ، والموازن المنتظمة ، والمساكيل الماسة ، فنفعل كما فعل ، فإذا رأينا نظام حركات الأفلاك فلننظم حركاتنا ، وإذا رأينا هندس وزوق الأشكال فلنحسن ظواهرنا ، وإذا رأينا جعل كل نبات وكل حيوان بمساحة خاصة ووزن خاص وقدر معلوم فلنعامل في بيعنا وشرائنا بالمساكيل والموازن واتقاييس الحقة ، فهذا هو الصدق الذي نتصف به حتى نستعد أن نكون في مقعد الصدق ، ومن جلس في مجالس الملوك وهو غير أهل لها نبذوه وطردوه .

تفيد [سورة الرحمن] أن العلوم كلها من خصائص الانسان من كواكب محسوبة ، وشموس منتظمة المسير ، وأقمار بديعة ، وكواكب مضبوطة ، فالحساب فيها لا يعرف إلا بالحساب والهندسة والجبر ، وذكر الشجر والنجم والنخل والماكة والرياحين المشمومة يرجع لعلم النبات ، وذكر خلق الانسان يرجع لعلم النفس والتشريح ، وذكر الأرض يتضمن المعادن ، وأما علم الحيوان فهو مفهوم من المقام إذ الحيوان بين النبات والانسان ، والحيوان خادم الانسان مخدوم بالنبات فكأنه ذكر بذكر الطرفين ، ولم يبق من العلوم الفلسفية في سورة الرحمن إلا علوم الطب والبيطرة والكيمياء وخواص المادة وما أشبه ذلك ، وكل هذا يرجع إلى ماهومذكور ، نعلم الزراعة وعلم الطب وعلم البيطرة للنبات والانسان والحيوان ، فالعلوم كلها تضمنتها هذه الآيات ، وقد صرح فيها بالسفن والمرجان والثور ، وبالاختصاران الله أبان أن هذه العلوم كلها من رحمة الله ، وأنه هو الذي غرس في قلب الانسان حبها ، والغرام بها ، وهياها لمعرفة ، ولا جرم أن ذلك يؤهل الانسان لمقعد الصدق عند ملكه المقتدر ، وليس معنى هذا أن كل واحد في الأمة يعرفها بل يكون لها شيوخ في الأمة ، ويكون لكل طائفة اختصاص بعلم من العلوم ودراسة طائفة من تلك العلوم باعتبار أنها فرض كفاية وكل علم من العلوم له نفع ، وكل صناعة لها فائدة في كل جيل من أجيال الانسان يحرم على المسلمين أن يهملوه بحيث يأثم الجميع اذا لم يكن فيهم من يقوم به ويكفهم أمره ، وهذه هي مصيبة أمة الاسلام الآن ، واليه الإشارة بقوله : « خلق الانسان علمه البيان » فالقصد المجموع لا كل فرد فان هذا مستحيل ، ولتعلم الطائفة الخاصة الراقية من كل فن طرفا ، وليختص كل فن بعد ذلك ، ذلك هو الصراط المستقيم في سعادات الأمم . انتهى الكلام على المقدمة .

القسم الثاني في عجائب عالم الدنيا

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرحمن ، علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان) أى علم محمد القرآن ومحمد علم أمته ، خلق جنس الانسان وبينه عن سائر الحيوان بالبيان ، وهو التعبير عما في الضمير وافهام الغير لما أدركه ، وهذه الجمل الثلاث خلت من العاطف وجعلت أخبارا مترادفة للرحمن على نهج تعداد النعم كما تقول زيد أغناك بعد فقره ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعله أحد بأحد ، فما تنكر من إحسانه ، كأن كل واحد من هذه المعدودات يصح أن يكون كافيا في حفظ الجليل ، وانكاره وحده كاف في نعت المنكر بكفران النعمة (الشمس والقمر) بحريان (بحسبان) بحساب معلوم مقدر في بروجهما ومنازلهما ، وعلى مقتضى هذا النسق تنظم أمور المخلوقات السفلية والفصول والسنون وجدارل الحساب ، ولما كان النبات الذي ينجم من الأرض المسمى بالنجم ، وهو ما لا ساق له ، والشجر وهو الذي له ساق [فالأول كالخططة والثاني كالنخل] من جملة العوالم المرتبة على سير الشمس والقمر وحسابهما ، وبذلك الحساب انتظم أمر سائر النبات بحيث يزرع في فصل مخصوص ، ويحصد ويؤخذ ثمره في فصل مخصوص ، وينمو على مقتضى حركات الشمس والقمر والنجوم أردنه الله تعالى بذلك فقال (والنجم والشجر يسجدان) ينقادان لله فيما يريد منهما طبعاً كما ينقاد المكافون اختياراً ، وهذا الانقياد ظاهر ، ألا ترى أن الشجر والزرع لا يخرجان عن نظام سير الكواكب ولا يفتران عن نهج الشمس في مسيرها ، ثم انظر أيضاً كيف كان الشكل والهيئة واللون والمقدار والطعوم والروائح جارية بقدر ، سائرة لغاية ، كل هذا سجود وطاعة للخالق الذي نظمها ، واعلم أن ظاهر الظن يقتضى أن يقال : « علمه البيان » ، أجرى الشمس والقمر بحسبان ، أسجد النجم والشجر ، ورفع السماء ، ووضع الميزان الخ ولكنه عدل عنه ليجتاز البيان عن المبين [بالفتح] .

وايضاحه أن النوع الانساني عرف اللغات والفهم والافهام ، وأودع في غريزته الاستعداد لكل العلوم ، فاللغات المختلفة في الأرض التي أبانها بعضهم إلى أربعة آلاف لغة كلها علمها الله للانسان للبيان والفهم والافهام ، فكل قوم لهم لغة ، ولكل قوم كتابة ، فماذا يكتبون ، وماذا يقرءون ، وما الذي عنه يعبرون ؟ فلذلك ذكر الشمس والقمر وما بعدهما تبياناً للمعبر عنه والمبين بعد أن ذكر البيان ، هذا هو السبب في تغيير نظم العبارة ، وانما بدأ بالشمس لأنها مبدأ الحياة على وجه الأرض وبدونها لا حياة فيها كما تقدم شرحه (والسما رفعتها) خلقها مرفوعة محلا ومراتب (ووضع الميزان) العدل والنظام الذي مر شرحه في أغلب سور القرآن بحيث كان حساب سير الكواكب ، وحساب أجزاء النبات الداخلة في تركيبه ، وحساب الأحجار المساقطة المحسوبة بالتربيع كما تقدم في [سورة آل عمران] وحساب الجسسين المجاذيين كالفيليتين على سطح الماء المتقاربتين بحساب التربيع أيضاً وحساب البندولين المختلفين طولاً بحيث يكون الأقصر أسرع اضطراباً من الأطول على نسبة عكسية تريعية ، وهكذا مما شرحناه لك في هذا التفسير وهكذا نظريات [نيوتن] و [كمبر] التي أبانت المثلثات المساحية عند جرى الكواكب بحيث تكون متكاثرة في الأزمان المتساوية مع اختلاف الأقواس المقطوعة صيفاً وشتاء ، فيكون القوس الذي تقطعه الشمس في الشتاء وهي مسرعة أكبر من القوس الذي تقطعه في الصيف وهي في الرأس مبطئة مع أنها متساويان مساحة كما تقدم فيها أيضاً موضحاً مرسوماً فارجع إليه ، كل هذا وكل علم الفلك ، وكل علوم الطبيعة ، وكل نظام الموسيقى الذي تقدم في [سورة يوسف] وكل قواعد العلوم ، وكل قواعد الشعر التي تجري على نسق واحد موسيقى كما في

بحر الطويل اذا لم تدخله العلل ولا الزحافات يكون ١٢ سببا و ٨ أوزان ، والمجموع ٤٨ حرفا ، والسواكن بالنسبة للتحركات هكذا ٥ - ٧ - ١٠ - ١٤ - ٢٠ - ٢٨ فتكون المتحركات ٢٨ والسواكن ٢٠ ومعلوم أن حاصل ضرب الوسطين يساوى حاصل ضرب الطرفين - كل ذلك داخل في الميزان ، إن الميزان هنا لا يفهمه إلا من درس جمع العلوم ، ومن قرأ هذا التفسير كما فقد عرف الميزان ، واذن يكون في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وقوله (ألتفتعوا في الميزان) أى لئلا تطفعوا فيه (١) ولا تعتدوا ولا تجاوزوا الانصاف ، فاذا نظمنا ملكنا بحيث جرى على تلك النسبة المنظمة فإن ذلك يدعوكم لنظام أعمالكم اقتداء بسنننا وسعيها في رقي نظامكم ، وتحسين أعمالكم وأخلاقكم (وأقيعوا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) ولا تنقصوه فإن من حقه أن يسوى ، لأنه المقصود من وضعه ، وإنما كرهه مبالغة في التوصية ، ولأن كل واحد من العدل في الميزان ومن النقص ومن الزيادة مرغوب ذكره للقيام به في الأول وللتنأى عنه في الأخيرين (والأرض وضعها) خفضها مدحوة (الأنام) للخلق (فيها فاكهة) ضروب مما يتفكه به (والنخل ذات الأكمام) أوعية الثمر التي يكون فيها الثمر ، لأن ثمر النخل يكون في غلافه وهو الطلع مالم ينشق ، وكل شيء ستر شيئا فهوكم ، ولذلك قال بعضهم : الأكمام ما يكى أى يغطى من ليف وسعف وكفرتى ، فكل ما يغطى وكل مغطى به يتفكع الناس به كالجدع والجوار والثمرة (والحب ذو العصف) الحب كالخنطة والشعير والذرة والارز ، والنصف ورق النبات اذا يبس والبن (والريحان) هو إما الذى يشم ، وإما الرزق من قوهم خرجت أطاب ريحان الله أى الرزق (فبأى آلاء ربكما تكذبان) أيها الثقلان الإانس والجآن ، الآلاء جمع إلى وهو النعمة وإنما خاطب الثقلين لدلالة الأنام عليهما ، والأنام الخلق ، وكل ذى روح : أى فبأى نعم من هذه النعم المذكورة تكذبان أيها الثقلان ؟ وهذه الآية كررت في أحد وثلاثين موضعا من السورة تقريرا للنعمة وتأكيذا للتدكير بها ، فتراه عدد نعمه على الخلق ، وفصل بين كل نعمتين بما يذكركم بها ويقررها ، فاذا قال الرجل لمن أحسن إليه بنعمة وهو يكفر بها : ألم تكن فقيرا فأغنيك ، أفنتكرك هذا ؟ ألم تكن عريانا فكسوتك ، أفنتكرك هذا ؟ ألم تكن حاملا فعززتك ، أفنتكرك هذا ؟ وهذا كثير في كلام العرب شائع ، هكذا يقول الله هنا : ألم أخلق الإنسان وأعلمه البيان : وأنظم الشمس والقمر بحسبان ، وأنوع الشجر ، وأبدع الثمر ، وأعمهما في البدو والخضر ، لمن آمن ومن كفر ، وأسقيهما نارة بالمطر ، وآتته بالجدول والنهر ؟ أفنتكرون أيها الناس والجآن هذه النعم ؟ فبأيها أنتم مكذبون ؟ أبالشجر أم القمر أم خلقكم الخ ؟ .

ولما كانت النعم المذكورة بعضها يحتاج لزيادة شرح وإيضاح لخلق الإنسان ، وحساب الشمس والقمر ، وكأسباب نمو الزرع والشجر ، وهذه الثلاثة مجامع ما تقدم أعقبه سبحانه بما يبينها على ألف والنشر المرتب فقال في الأول (خلق الإنسان من صصال) من طين يابس له صلصلة بحيث يصوت اذا نقر (كالخمار) أى الخرف وهو الطين المطبوخ ، وهذا إيضاح لخلق الإنسان ، ويانه أنه كما أن الطين المطبوخ مركب من مادة أرضية وحرارة سوتة وأنضجته لتحفظ كيانه ، هكذا هذا الإنسان له شهوة الطعام والشراب والتزاوج لتبقى بنيته وتديم حياته بالمادة الأرضية التي اجتذبتها النباتات من الأرض ، وله قوة غضبية تورثه الشجاعة والقوة ليحافظ على بقاءه وحياته ، ويمنع عن نفسه عادات الكواسر ، ومهاجمات الجيوش والأعداء المحيطة به من كل جانب ، وهذه في الإنسان تقابل طبخ الطين ليصير فخارا إذا لبقاء للطين بغير طبيخه بالنار لتستمسك أجزاؤه ويبقى بناؤه ، هكذا لولا القوة الغضبية ، ومحافضة الإنسان على هيكله المنعوب ، وجسمه المحبوب ، من عادات الكواسر وأهل القسوة من بنى الإنسان هلاك جسمه وأصبح قتيلا في الفلوات تأكله الطير ،

(١) ان مسألة الميزان ونظام الحياة التابعة لنظام الافلاك تقدم في سورة يونس شرحها بأكثر مما ستراه هنا . فهناك ترى رسم الهرم وشرحه فضلا عن حسابيه .

أونهوى بأجزائه الريح بعد تفرقها في مكان سحيق كما نرى الطين إذا لم يطبخ يتفتت وتذروه الرياح ، أو يذوب في أجزاء الأرض ، هذا هو معنى الآية ، وقد تضمن علوم الشهوة وعلوم الغضب المذكورات في سورة [آل عمران] ثم انه من حيث ترتيب خلقه ، خلقه من تراب فصار التراب طينا لازبا أى يلصق باليد لما اختلط بالماء ، ثم صار حيا مسنونا وهو الطين الأسود المتين فلما يبس صار صلصالا ، فاختلفت العبارات في القرآن على مقتضى هذه المراتب (وخلق الجن) الجن (من مارج) من صاف من الدخان ، ثم بينه فقال (من نار) يقول : خلق الله الجن من النار الصافية ، والمارج المختلط بعضه ببعض فيكون اللهب الأحمر والأصفر والأخضر مختلطات ، وكما أن الانسان من عناصر مختلفات هكذا الجن من أنواع من اللهب مختلطات ، ولقد ظهر في الكشف الحديث أن الضوء مركب من ألوان سبعة غير مالم يعلموه ، فلفظ المارج يشير إلى تركيب الأضواء من ألوانها السبعة وإلى أن اللهب مضطرب دائما ، وانما خلق الجن من ذلك المارج المضطرب إشارة إلى أن نفوس الجن لاتزال في حاجة إلى التهذيب والتكميل ، تأمل في مقال علماء الأرواح الذين استحضروها ، إذ أفادتهم أن الروح الكاملة تكون عند استحضارها ساكنة هادئة ، أما الروح الناقصة فانها تكون قلقة مضطربة ، وانظر إلى ما قاله سقراط :

« اعلم أن الظالمين من نوع بنى آدم يعذبون في هذه الحياة ، لأنهم إذا عتوا وظلموا الناس أحسوا من نفوسهم بالآلام تقلقهم ، فالظلم سيف ذو حدين يقتل المظلوم والظالم ، فاذا استغاث المظلومون وتألّموا هكذا الظالمون ، لأن نفوسهم من عالم شريف ، فاذا أحست بالظلم اضطربت وأقلقتهم » وهذا أيضا من سرّ قوله تعالى : « انهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » .

أقول : فاذا مات هؤلاء بقيت نفوسهم في قلق ، فالظالمون قلقون في الحياة وبعد الممات ، فلفظ « مارج » أفادتنا علمين : علم ألوان الطيف من علم الطبيعة ، وعلم أخلاق الجن من علم الأرواح ، أليس هذا من بدائع القرآن وعجائب العلم ، وانظر كيف جمع خصائص النفس الانسانية من حيث شهوة الطعام ونظامه ، وقوة الغضب وعجائبه ، وحفظ الثغور ، ونظام الجيوش ، والدفاع عن الديار ، انظر كيف جمع ذلك كله في الصلصال ، وكيف أبان عذاب الروح الناقصة من الجن . ومثلها الروح الناقصة الانسية بعد موتها ، لأنهم يكونون أشبه بالجن في أخلاقهم ، كل ذلك في لفظ « مارج » ومن هنا فلتعلم حكم القرآن وعجائبه ، وقوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ظاهر .

ولما فرغ من ايضاح خلق الانسان شرع بوضع ما بعده وهو الشمس والقمر بحسبان ، فذكر أنه ربّ مشرق الصيف والشتاء ومغريهما ، وهذه الترتيبية يترتب عليها الفصول الأربعة ، ويتبع ذلك تقلب الهواء وتنوّعه ، وما يلي ذلك من الأمطار والشجر والنبات ، وما يتخلل ذلك من الأنهار الجارية ، ولما كان النبات وهو المذكور بعد الشمس والقمر لا يكون إلا بماء عذب ناجم من السحاب المستمدة من البحار المالحة ، وهذه البحار فيها نعمتان : نعمة في باطنها وهي اللزّ والمرجان ، ونعمة فوقها وهي السفن الجارية كأنها الجبال الطوال أخذ يشرح ذلك كله على سبيل الترتيب فقال (ربّ المشرقين وربّ المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مرج البحرين) أرسلهما ، يقال مرجت الدابة أرسلتها : أى أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين ، فترى العذب يخرج من الجبال كنيل مصر يجري من جبال القمر وراء خط الاستواء فيمرّ شمالا حتى يصبّ في البحر الأبيض المتوسط ، فلا الملح يطغى على العذب فيجعله ملحا ، ولا العذب يجعل البحر الملح مثله (يلتقيان) ومع هذا الالتقاء منعهما الله عما في طبيعتهما بالبرزخ ، وهو ما يحجزهما ويصدّهما عن الاختلاط والامتزاج وهو قوله (بينهما برزخ) حاجز إلهي (لا يبغيان) لا يختلطان ولا يتغيران ، أولا يفرقان الناس

بطغيانهما عليهم (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) اللؤلؤ هو الدرّ الخلق في الصدف ، والمرجان الخرز الأجر ، وهما يخرجان من الملح وحده ، وإنما عبر بقوله « منهما » لأن العذب والملح بحر واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، لأن الأنهار والجداول إنما تكون من ماء الأمطار ، وماء الأمطار من البخار ، والبخار من البحار ، والبحار إليها يرجع ماء الأنهار في جريه فاذن الملح والبخار والسحاب والأنهار كرة واحدة تحيط بالأرض ، وهذه الكرة منها ما يبلغ سبعة من عشرة من محيط الكرة الأرضية وهي البحار كبحر الروم والبحر الأحمر وبحر فارس وبحر الهند وبحر الصين والمحيط الهادى والمحيط الباسفيكى وبحر البلطيق ، فهذه هي الأصل ، فإذا نظرت فوقها رأيت كرة الهواء تحيط بالأرض وبالماء ، وهي دائماً مشبعة بالبخار المستمد من البحار ، ومن هذا البخار تكون السحب فالأمطار فالأنهار الجارية على اليابسة كالنيل ودجلة والفرات ونهر النيجر وزمبيزا وما أشبهها ، وكل هذه الأنهار أصبحت كفروع تتصل بالبحر الملح من جهة مصبها ، وبالجبال من جهة منبعها ، وتستمدّ ماءها من السحاب ، وهو من بخار الهواء المستمد من البحار الملحة ، فإلى البحر الملح إلا كشجرة جداولها الأنهار فوق اليابسة ، وكأن كل نهر غصن ، وكل جدول ورقة ، وكل حقل من الحقول قطعة من الورقة . إذا ثبت هذا علمت معنى قوله تعالى « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » فانه جعلهما بحرا واحدا ، فن جهة العذوبة والملوحة يقال لهما بحران ، ومن جهة خروج الدرّ والمرجان جعلهما بحرا واحدا ، وقيل خرج منهما ، يقال خرجت من بيوت هذه البلدة وهو لم يخرج إلا من بيت واحد (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) أى وله السفن الكبار أى المصنوعات التى رفع خشبها بفضله على بعض ، أو هى التى رفعت شرعها فى الهواء ، وقوله « كالأعلام » أى كالجبال جمع علم ، وهو الجبل الطويل (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وانظر فى الجبال التى شبهت بها السفن فوق الماء كيف كانت هى التى جرى منها الماء فى الأنهار ، وكأن الله لما خلق الجبال فوق الأرض وهى يابسة تحمل الجبل أراد أن يجعل فى البحر ما يشبه الجبال فى البر ، وكأنه يقول : انظروا إلى النواميس الطبيعية كيف خرقتها فان ناموس المادّة ألا يحمل الثقيل إلا الكفيف ، أما اللطيف كالماء فلا يحمل الثقيل ، فها أنا ذا أريتكم العجب ، ووضعت الجبل فوق ظهر الماء بآيات اخترتها ، وعجائب اخترعتها ، وألقيت عليكم دروسا من النواميس تفهمكم أن الجسم اذا كان يزن ما يماثله حجما من الماء استوى مع الماء فلا يرتفع ولا يغرق ، واذا كان الجسم أخف من مقدار حجمه من الماء وزنا طفا فوقه ، وان كان أثقل من وزنه من الماء غرق فيه ، هذا هو القانون الذى وضعته ، والصراط المستقيم الذى اخترته ، والسمة عرفت ذلك بغير زتها ، فاذا أرادت أن تنزل فى أسفل الماء قبضت عوامة فى بطنها مملوءة هواء ، واذا أرادت أن تطفو على وجه الماء نفختها فعظم حجمها خفت فطفت ، وان أرادت أن تساوى سطح الماء توسطت فى نفخها ، وكل سفينة عائمة فى بحر ملح أو عذب على هذه الطريقة ، فانك اذا وزنتها كلها أقيت جميع وزنها يساوى الماء الذى أراحته من مستقرّها فى البحر ، ولو أن الماء المزاح بحجمها كان أخفّ لغرقت ، وجسم الانسان أثقل من مقدار حجمه من الماء ولذلك يغرق فى الماء ، وهذه هى نظرية [ارشميدس] التى أحسّ بأن جسمه وهو فى الماء قد خفّ فاعتقد أن الأشياء وزنها فى الماء أخفّ من وزنها فى الهواء ، وظهر بعد ذلك أن الذى ينقص من وزن الأشياء هو مقدار وزن الماء المساوى لها فى الحجم ، فخرج من الماء وهو لا يبعى ويقول عرفتها عرفتها ، وذلك بعد أن تحير ثلاثة أيام فى معرفة الذهب المغشوش ، وكيف يعرف غشه ، فأنتج له عقله ، ودله فهمه ، على هذه الطريقة ، وأخذ يزن الذهب والمواد الأخرى التى كان الذهب بهامغشوشا حتى عرف الحقيقة ، وسرّ ملكه بذلك ، وأظهر له حقيقة الغش ، فهذه النعم التى ذكرها الله فى هذه السورة

هي جامع ما أنعم به على أهل الأرض ، وكأنه تعالى يتكرره التذكير بها وقوله « فبأي آلاء ربكما تكذبان » يقول : أي عبادي : هل ظننتم أن مجرد الإيمان بكمفكم ؟ فهل خلقت الشمس والقمر والنجم والشجر والزرع والحب ، والأنهار والبحار ، والمرت والرجان لقوم لا يعقلون ، أم خلقتها لقوم يعقلون مني النعمة ؟ وكيف يقبلونها إلا إذا عرفوها .

أيها الناس : اشكروا نعمتي ، ولا تشكروا عليها إلا إذا عرفتموها ، ولا معرفة إلا بالدراسة ، حتى تكونوا عندي في مقام صدق ، أليست هذه النعم من رحمتي ؟ ألم أنزل عليكم القرآن ؟ ألم أطمح النطق والبيان ؟ ألم أجعل حاجتكم في الحياة موقوفة على هذه النعم ، فهل خلقتها لمن لا يعلّمون ؟ أم نظمها لمن لا يقولون ؟ وهذه الآيات وتشكرار الآلاء فيها ٣١ سورة في هذه السورة أشبه بالانذار لآمة الإسلام أنهم ان تركوا هذه النعم فكأنهم أنكروها ودخلوا في الأثم التي ذكرت في سورة القمر ﴿ يقول الله فيها « فكيف كان عدائي ونذر » وهذا وإن لم يذكره القرآن صريحاً لوجه له تلويحاً ، والا فكيف يشكر النعمة جاهل بها ؟ والجاهل بالنعمة كالكاذب ، ثم أردف ذلك كلمة بأنه فإن فقال (كل من عليها فان) أي كل من على الأرض من الحيوانات والركبات من الثقليين وخيرها فان (ويبقى وجه ربك) ذاته بل كل مخلوق الآن من حيث هو فان ومن حيث ربه موجود ، فهو فان من وجه موجود من وجه (ذوالجلال والاکرام) ذوالاستغناء المطلق والفضل العام ، فهو ذوالعظمة والأكبرياء ، وهو مع علوه يعطي جميع خلقه من النعم والاکرام ما يليق بجلالهم جبرها وهو لطيف بهم ، يراعي العالم ويكلاً الجاهل . ويتلف بأذى الحيوان وأصغره ، ولا يعجب نفسه عن مخلوق خلقه ، لا يعجبه عظم الفيل عن التلطف بالقة ، بل أعطاهما أجنحة وحرمة منها وساطها عليه ، وكرم بني آدم . ومع ذلك أغرى الحيوانات اللذنية الصغيرة فتوضعت في جسمه وأوردته الحمام بالحلي والوراء والجدرى وما أشبه ذلك ، ثم أرسل له الأطباء ليدأروه ، فهو لطيف بتلك الحيوانات اللذيقة حيث مكناها من جسم الإنسان واطيف بالإنسان من حيث أنه سخر له الأطباء ، وعلمه علم الطب ، وإذا مات نقاه من حال الجسمية إلى حال الروحية وهي أرق من هذه الحال ، ففتأؤد من أنواع اللطف ، وصره من الفضل .

ينظر الإنسان هذه النجوم التواقب في ظلمات الليل فبراهها مشرقة بهجة بهية ساطعة باهرة تملأ الأنورا وبهجة ، وتشرح الصدور ، وبهذا تتجلى العظمة والأكبرياء ، وبراه بيت الأحياء وذلك النجوم باقية ، والأرض باقية ، والأحوال لم تتغير بحسب ما يظهر للناس ، فهذا مظهر الجلال والعظمة ، جمال في النجوم ، بهجة في الاشتراق ، مناظر باهرة ، أنوار ساطعة ، أجسام عظيمة ، وأحوال تتقلب ، وأحوال تتعاقب ، والناس من بينها يخترقون صعقن ، فهذا لعمر ك هو الجلال والعظمة ، ثم تراه من جهة أخرى يتلطف بالمرئى وبواسيه بالطيب ، وإذا مات أرسله إلى عالم روحى بهيج لطيف ، فهذا بعض الاكرام ، ويقرب من هذا قوله تعالى : « إن بطش ربك لشديد ، انه هو يبدى ويعيد » وهذا عما يقرب من الجلال ، ثم أتبعه بقوله « وهو القور الودود ، ذوالعرش المجيد » وهذا يقرب من معنى الاكرام ، فبينما تراه مستكبراً محدثاً للامور اطلالة اذا هو يتلطف ويرد عبادته ، وبراسهم في مرضهم وفي حال نزعهم ، وبعد موتهم ، وفي حياتهم ، فانظر لأكبرياء ولطف وعظمة وتحنن وارتقاع ودنو ، وهذا قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » وأيضاً « إن ربى لطيف لما يشاء » . وبهذا فهمت قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » فأنتم واضحة في تحليل المركبات ، لولا تحليل أجسامنا وموتنا لبدت هذه الأرض ، ولتعطلت الحياة ، والمادة الأرضية اذا بقيت على حال واحدة كانت القدرة محدودة ، ولكن انبعث الصور الكثيرة وتلاحقها جيل بعد جيل ، وقرنا بعد قرن هوعين العدل ، إن من العدل أن تدرس المادة جميع الاشكال ، وجميع الاشكال

لا تكون دفعة واحدة ، فاذن يجب أن تلبس شكلا وتخلع شكلا آخر ، وهذا هو الحاصل فيها ، هكذا بنو آدم اذا بقى جيلنا الآن وأخذ هذا الجيل يتوالد قرونا وقرونا فلا يمضي قرون معدودة حتى يكون على القدم ألف قدم ، وتمتلئ الأرض بالآدميين فلا يكفيهم حيوان أرضي ولا نبات مأكول ، واذن يأكل الناس بعضهم بعضا وتمتلئ الأرض بالرّم ، فاذن الفناء فيه نعمتان : نعمة الرحمة بتلاحق الأجيال ، ونعمة الخروج من سجن المادّة إلى فسيح الرحمة بعد الموت ، لذلك قال تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ومن الآلاء الجليلة الفناء الذى هو نعمة بتلاحق الأجيال ونحروجنا من سجن هذه الحياة طوعا أو كرها . ولما كان ما ذكرته لك يتضمن الافتقار المتجدّد أوضحه ، فقال (يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) قد علمت أن المادّة كلها تلبس جديدا وتخلق قديما ، وأجسامنا وأجسام الحيوان على هذا المنوال ، فالحيوان والانسان كل فى حاجة إلى بقاء جسمه ، وإلى التغذية والمداواة ، واذا انحلت جسم من الأجسام أخذ يفتقر إلى حال جديدة ، فالتغيرات المستمرة فى المادّة افتقار ، والافتقار المذكور دائم فى كل لحظة ، فالسؤال المذكور سببه الافتقار ، والسؤال إما بنطق ، وإما بتوجه النفس ، وإما بلسان الحال ، فالمادّة الجامدة مفتقرة لبقاء حال يناسبها ، أو تغيرها بما هو أنسب لها ، والنبات فى كل لحظة مفتقر إلى ما يبقى ذاته من ماء وهواء ومواد ، والحيوان جميعه يطلب بهيمته ما يحتاج إليه ، والانسان يسأل نفسه داخلا وبلسانه نطقا ، فعنى الآية أن من فى السموات والأرض مفتقرون إليه فى ذواتهم وصفاتهم ، وسائر ما يهمهم ويعنّ لهم ، كل وقت يحدث أشخاصا ، ويجتدّد أحوالا على ما سبق به قضاؤه ، واقتضاه مراده ، فليس كما قالت اليهود : ان الله لا يقضى يوم السبت شيئا . اذا فهمت هذا عرفت قوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » فكم من سؤال أجبته ، وكم من جديد أحدثته ، وكم من ضعيف فى الحياة أرحته إما بصحة تسعده أو بموت من سجن المادّة يخرجّه (سنفرغ لكم أيها الثقلان) أى سنتجرّد لحسابكم وجزائكم ، وذلك يوم القيامة . واعلم أن هذا على سبيل التمثيل بدليل قوله تعالى : « يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن » أى هو فى كل وقت يحدث أمورا ، ويجتدّد أحوالا ، ومع ذلك لا يشغله شأن عن شأن ، فانك تقول لمن تهدده : لا نفرغنّ لك : أى سأنتجرّد للإيقاع بك من كل ما يشغلنى ، والمراد التوفر على أحداث النكابة به والانتقام منه ، ولا جرم أن شأن الآخرة ما هو إلا شأن من الشئون فلا يشغله عن شىء آخر ، وهو القائل : « إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » والقائل : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » (فبأى آلاء ربكما تكذبان) والثقلان الانس والجآن لثقلهما على الأرض ، ولأنهما مثقلان بالتكاليف (يامعشر الجن والإنس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا) أى ان قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الله ، فارتين من قضائه ، إذ أعطاكم النعم السابقة وعددها عليكم ، ونهبكم إليها ، ثم انه يفنيكم ويميتكم ، وبعد الموت يقصد حسابكم ، وهذا هو أولكم وآخركم ، فأنتم فى الدنيا فى قبضته ، وبعد الموت فى قبضته ، وأنتم ما دمتم ناقصين غير كاملين فان أرواحكم مضطربة معذبة فى قبضته تعالى ، هو يريد رحمتكم بكآلكم ، والا كآل لا يكون إلا بالايقاظ بالعلوم ، وبالنوازل ، وتقلب الأحوال عليكم ، كل هذا من الرحمة المذكورة أول السورة ، ولكنكم بحسب ما يعنّ لكم وأنتم فى حال النقص تشعرون بأنكم معذبون كما يحس التلميذ بقسوة المعلم الذى يريد ابلاغه الكمال ، فان استطعتم أن تهربوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا : أى فخرجوا (لاتنفذون) لاتقدرون على النفوذ (إلا بسلطان) إلا بقوة وقهر ولا قدرة لكم على ذلك ، وأولى من هذا الوجه أن يقال : أيها الثقلان : ان قدرتم أن تنفذوا فى أقطار السموات والأرض لتنظروا صنعنا فانفذوا ولكنكم لاتنفذون إلا بقوة علمية وبمقدمات

نصبتها لكم وهي العلوم والمعارف والتهذيب ، وأهم ذلك حب العلم وحب الخلق واجتماعهما يعطى المرء قوة بها يطلع على العلوم والمجانب ليخرج من سجن هذه المادة (فبأي آلاء ربكم تكذبان) من التنبيه والتحذير والعفو وكال القدرة ، أو المعارج العقلية التي نصبتها الله لارتقاء العقول الانسانية في العلوم العقلية فينفذون بها إلى العوالم العجيبة فوق السموات العلى .

إن النفوس الانسانية لا يقر لها قرار إلا بالاطلاع على عجائب هذه العوالم التي ظهر لنا نورها ، وبدأت لنا أنوار كواكبها بحيث ترى ضوءها من بعد لا يتخيله الوهم بحيث يصل لنا الضوء [الذي يقطع في الثانية ثلثمائة ألف كيلومترا في ألف سنة ، أو مائة ألف سنة ، أو ألف ألف سنة ، بل أكثر من ذلك] فهذا مما يشوق نفوسنا إلى الاطلاع على هذه العوالم المدهشة ، وكيف ننفذ لها ونحن محبوسون في هذه الأرض ؟ بل كيف نتخترق أرواحنا هذه المسافات الشاسعة لو أرادت الصعود لهذه العوالم بعد الموت ، أو عقولنا معرفتها ونحن في الأرض ممنوعون عن ذلك بعوائق ، فإن لكل عالم من العوالم التي فوقنا جوا خاصا وأحوالا ليست تليق إلا لمن استعد لها ، ونحن لا يتسنى لنا اختراق أى جوّ من الأجواء إلا إذا كانت أرواحنا صافية مستعدة لاختراقه ، ومهيئة له ، والنفوس الانسانية في الدنيا لا قبل لها بمعرفة علوم تلك العوالم أيضا معرفة علمية إلا باستعداد خاص عقلي وخلقى ، فالتناس في الدنيا محجوبون إلا من لهم استعداد وعلم وعمل فيعرفون قليلا ، وبعد الموت كذلك إلا النفوس الصافية المستعدة ، ولا يهين للناس السفر في تلك الأقطار إلا الاستعداد لها في هذه الحياة الدنيا بالأخلاق والعلوم والاخلاص ، فقله (يرسل عليكم شواظ) لهب خالص (من نار ونحاس) وهو الدخان (فلا تنتصرون) فلا تمنعان من الله ، ولا يكون لكم ناصر منه ، يقول الله : إذا عجزتم الآن عن أن تنفذوا من الأقطار فأتم عن النفوذ والهرب يوم القيامة أعجز ، فانكم هناك ان هربتم يرسل عليكم لهب ودخان فلا تقدران على الهرب ، إن هذا كله ليفهم الله الناس أنهم في قبضته ، لا يخرجون من حكمه وقضائه .

واعلم أن هذا الذي في الآية له نظير في نفوس الناس اليوم ، فكل امرئ في عاداته ودياناته ومعارفه وأخلاقه وشهوته ووطنه محبوس ، حتى ان من يعيش في خط الاستواء ، ومن يعيش في الجزائر الخضراء قرب القطبين إذا نقل كل منهما من مكانه تألم لذلك بل ربما مات ، وهكذا حيوان البر لا يعيش في البحر وبالعكس ، فحيوان البحر إذا نفذ من أقطاره أرسل عليه نيران الشمس وعنصر الهواء الجاف فأذاقه كأس الجحيم ، وترى الناس فوق الأرض يكرهون الموت ، لأنهم لم يعرفوه ، ولم يروا هناك حياة غير هذه ، وترى القلوب كلها مستعدة للعلوم ، ولكن الشهوات ، وأنواع الغضب ، والعادات المستحكمة تمنعهم من المعرفة والحكمة وتصدهم كما روى : « لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض ، فالشهووات والوسوسة والعوارض في حياتنا تمنعنا من إدراك العوالم فهي تشبه الدخان والنار ، فالنار كالشهووات ، والدخان كالعادات والعقائد المرتبكة المانعة من العلم ، ونحن اذا متنا لانكون هناك إلا في المكان اللائق بنا في الجنة أو فيما هو أعلى منها » ولكل درجات مما عملوا » بحيث لا يتجاوز أحد ما رسم له لأنه يحجب عنه هناك كما يمنع حيوان البحر أن يعيش في البر ، وإياك أن ترى قولى ما هو أعلى من الجنة خارجا عن أقوال العلماء ، فارجع إليه في (سورة البقرة) عن الامام الغزالي فتفكر ، فارسل الله الدخان على أهل المحشر وجسدهم فيه له نظير في كل شيء في الدنيا والآخرة ، وفي معارج الأرواح ، والاستعداد هو الذى يعين منازل الناس في الدنيا والآخرة ، والاستعداد لا يكون إلا بمقدمات ، إنك أيها الذكى لو بحثت اليوم في الناس لوجدتهم جميعا وأنا وأنت في حال مخصوصة بحيث لو تركناها لرأينا العوائق دوننا كما صد الله

والدخان أهل المحشر عن الخروج من القضاء والقدر، فترى كل امرئ لا يعدو ما استعد له، وما اعتاده هذا تراه في نفسك، وفي أهلك، وفي جارك، وفي أمك، وفي أمم الغرب والشرق، كل حكم عليه بما هو بسبيله أشبه بحيوان البرّ وحيوان البحر، وبعد الموت يسبرون جميعا فيما استعدوا له ولا ينفكون عنه جزاء وفاقا وقانونا مطردا، فالعادات أحاطتنا بسياج من هب ودخان لا تجاوزه، ولوقلت لنصرانيّ صلّ صلاة المسلمين لرآه في عذاب وهكذا المجوس وبالعكس، وتفصيل هذا لانهاية له، ولعلنا بعد الموت نطلع على عالم الكواكب بنفس أحجامها، وليس ينال ذلك منا إلا من استعدت أرواحهم لذلك خفت فارتقت، فأما الأرواح الضعيفة فانها لا تنال ذلك لعدم استعدادها، ولا تظن أن هذا يغاير ما قلناه علماؤنا فلتعلم أن العلم هو أعظم نعيم في الجنة بل كل نعيم الجنة بالنسبة له أمر ضعيف. وبالعالم تستأهل النفس للنظر إلى وجه الله الكريم، وما سوى ذلك فهو متاع لا يهتم النفوس الشريفة، والله لا معنى لهذه الحياة إلا بتلك النتيجة العالية الشريفة :

على نفسه قلبك من ضاع عمره لا وليس له منها نصيب ولا سهم

هذا هو نهاية تفسير القسم الثاني إجمالاً مع بعض التفصيل، وفي هذا القسم [لطيفتان : الأولى] في قوله تعالى : « ووضع الميزان » [الثانية] في قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : ووضع الميزان

قد علمت مما ذكرناه في هذا المقام وغيره أن الميزان لا يعرفه إلا من درس العلوم كلها، ولكن الميزان الأرضي من كل ما يقدر به الأجرام الأرضية بمساحة أو بكيل أو بوزن يحتاج إلى بحث مستفيض ليعرف الناس أن هذه مشتقات مقبسات من النظام السماوي والميزان الإلهي، وكيف يعرف الناس أن الذراع الذي يقيسون به الثياب، والمقياس الذي يمسحون به الأرض، والرطل الذي يزنون به المأكولات وما أشبهها كيف يعرفون أن ذلك كله مأخوذ من نفس سير الشمس فعلا لا مجرد قول، ولعمري أن من يقرأ ما سأقوله الآن في هذا الموضوع ليرين العجب العجيب، ويسمع في هذه المقالة ما يدهشه، حيث يرى أن الأردب والقنطار والدرهم ومساحة الفدان ترجع فعلا إلى ميزان السموات (وبعبارة أخرى) إلى مدار الأرض حول الشمس، أو مدار الشمس حول الأرض بحسب الظاهر، وأن هذه كلها مرتبطبات بذلك .

الحقّ والحقّ أقول أن من يفهم ما سأوضحه سيحب غاية الحب ! ويقول : حقا أن هذه معجزة للقرآن مدهشة أكبر من كل معجزة، وكيف لا تكون معجزة والله يقول : «وضع الميزان ألا تظفروا في الميزان» أي وضعنا نظامنا لأجل ألا تظفروا في ميزانكم أي أن ميزانكم مبنى على ميزاننا، وهالك ما قلته من رسالة صغيرة سميتها «التربية العملية في الاسلام» لم تطبع إلى الآن، قد وضعتها على هيئة محاضرة، فهالك ما يناسب المقام هنا منها :

س — قد فهمت ذلك ولكن من أين لنا أن نوقن بأن علوم الرياضيات التي أوجبها أفلاطون مما ينبغي أن تطلبه الأمة الإسلامية لأجل دينها، وأين ذكر الله هذا في القرآن ؟ .

ج — لقد ذكر الله ذلك في القرآن في مواضع كثيرة كقوله تعالى : «والشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم» الآية .

س — أنا أريد أبين من هذا ؟ .

ج — اقرأ كتبنا : جواهر العلوم، وميزان الجواهر، والنظام والاسلام، ونظام العالم والأمم، تجد فيها آيات كثيرة وحسابا رياضيا جبريا وفلكيا حقيقيا، وتقف إذ ذاك على ما أودع في القرآن في نحو ٧٥٠ آية

أبانت أنه ينبغي لأذكاء المسلمين تعلم الرياضيات والطبيعات لا كما فعل أفلاطون وسقراط إذ خصصا التعليم بالرياضيات فانها مناط الحق والصدق ، ولكننا نقول ان يكون المرء حاكما صالحا إلا بالقوة البدنية والنبوغ في الرياضيات والطبيعات ، ولقد كذب الذين قالوا ان العلم يصد عن ضبط مصالح الناس فانما ذلك خاص بالعلم الذي لا يصحب بهذيب وتقويم ، ولا تمرين عضلي ، ولا عشق للحكمة والبحث ، فأما ذلك الذي استوفى تلك الشرائط فما أجدره أن يرفع ذوى النفوس الشريفة إلى مستوى الحكم ، والحكم والعدل في القضية ، والتسوية بين الرعية ، وسأتى لك في هذه الرسالة بفائدة عجيبة خلت منها كتبنا السابقة ، وهي من أعاجيب الدهر وعجائب الحكمة ، بل هي درة بهية ، وآية سنية ، وحكمة جوهريّة ، وشمس إشراقية ، وبديعة نورية ، تلك آية الرحمن ، إذ قال الله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

س — وأى عجب في هذه الآية وأى ابداع ؟ .

ج — فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب المتكبرين ، ألا ترى أنه تعالى يقول : رفعت سمائي وحركتها بالحركات العجيبة ، وقدرتها ووزنتها بالميزان العجيب ، فلا شمس تشرق إلا بنظام ، ولا قمر يطلع إلا بحساب ، ولقد وزنت حركاتها وزنا ، وضبطت سيرها ضبطا ، فلا تأخير ولا تقديم ، ولا نجم ولا شمس ولا قمر يتحرك حركة إلا بحساب وميزان ظهر لكم في تقويمكم السنوي ، وعرفتكموه في نتائجكم المعروفة فهل رأيتم في عملي من خلل ؟ أو اطلعت على تفاوت ، هل نجم النجم قبل إبانته ، أو بدر البدر قبل أوانه ، أو غربت شمس بعد وقتها ، أم أخطأ الليل والنهار ؟ كلا . إن في ذلك لآية لأولى الأبصار لتكون أعمالهم موزونة بهذا الميزان ، فكما نظمت سماواتي ، وقدرت كواكبي ، وأدرتها بحساب ، فهكذا يا عبادي نظمت أعمالكم كما نظمنا ، وإياكم أن تحجموا عمارسنا ، فلا تستأخرون دقيقة أو ثانية ولا تستقدمون .

س — قد فهمت انشاءك ، وعرفت منهاجك ، وعقلت طريقك ، فما أثبت في هذه الآية أكثر مما في غيرها .

ج — على رسلك صبرا ، ولا ترهقني من أمرى عسرا ، فسأ كمل المقال لتطلع على ما يحمله الآكثرون انظر إلى قدماء المصريين ، ألم تر أنهم جعلوا الفدان والأردب والقطار مشتقات من دائرة الشمس السنوية س — وكيف كان ذلك ؟ .

ج — إن الأرض ليس يضبط محيطها كما يضبط مدار الشمس ، فلما كان العالم العلوي أضبط وأبقى جعله أولئك الفلاسفة مقياسا لنا : أي جعلوا منه الرطل المصري والكيل والفدان والقيراط وما أشبه ذلك تصديقا لقوله تعالى : « ألا تطغوا في الميزان » أي انا وزنا السماء وقدرناها وحسبناها وضبطناها في حركاتها ثلاثا تزيدوا في موازينكم كالقناطير والأرطال ، ومكاييلكم كالأردب والكيل ، ومقاييسكم كالفدان والقيراط ، إن هذه كلها مبنية على نظام شمسن ، ولو اختلف نظام مدارها لم يضبط لكم كيل ولا ميزان كما لا تضبط أعمالكم اذا تقدمت كوكب عن أوانه ، أو طلعت الشمس أو القمر قبل إبانتهما .

س — هذا قول عجيب لا أفهمه أوضحه لي ، فإذا عجبت من جهل الناس فلا تعجب اذا عجب الناس من غموض قولك .

ج — حياك الله : مهلا . إن الفرنسيين الذين جعلوا وحدة المقاييس ترجع إلى محيط الأرض إذ جعلوا المتر جزءا من ٤٠ مليون من محيط الدائرة الأرضية قد وقع الخطأ في عملهم ، فانهم رأوا بعد ذلك أن محيط الأرض ليس ٤٠ مليون بل يختلف اختلافا بينا ، فاذا اختلف الناس في المتر فيما بعد فالأم يرجعون ، أما قدماء

والدخان أهل المحشر عن الخروج من القضاء والقدر ، فترى كل امرئ لا يعدو ما استعد له ، وما اعتاده هذا تراه في نفسك ، وفي أهلك ، وفي جارك . وفي أمثلك ، وفي أمم الغرب والشرق ، كل حكم عليه بما هو بسبيله أشبه بحيوان البر وحيوان البحر ، وبعد الموت يسرون جميعا فيما استعدوا له ولا ينفكون عنه جزاء وفاقا وقانونا مطردا ، فالعادات أحاطتنا بسياج من لخب ودخان لا تجاوزه ، ولوقلت لنصراني صل صلاة المسلمين لراه في عذاب وهكذا المجوس وبالعكس ، وتفصيل هذا لانهاية له ، ولعلنا بعد الموت نطلع على عالم الكواكب بنفس أحججها ، وليس ينال ذلك منا إلا من استعدت أرواحهم لذلك تخفت فارتقت ، فأما الأرواح الضعيفة فانها لاتنال ذلك لعدم استعدادها ، ولا تظن أن هذا يغير ما قلناه علماؤنا فلتعلم أن العلم هو أعظم نعيم في الجنة بل كل نعيم الجنة بالنسبة له أمر ضعيف . وبالعالم تستأهل النفس للنظر إلى وجه الله الكريم ، وماسوى ذلك فهو متاع لا يهتم النفوس الشريفة ، والله لا معنى لهذه الحياة إلا بتلك النتيجة العالية الشريفة :

على نفسه فليبك من ضاع عمره * وليس له منها نصيب ولا سهم

هذا هو نهاية تفسير القسم الثاني إجمالا مع بعض التفصيل ، وفي هذا القسم [لطيفتان : الأولى] في قوله تعالى : « ووضع الميزان » [الثانية] في قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : ووضع الميزان

قد علمت مما ذكرناه في هذا المقام وغيره أن الميزان لا يعرفه إلا من درس العلوم كلها ، ولكن الميزان الأرضي من كل ما يقدر به الأجرام الأرضية بمساحة أو بكيل أو بوزن يحتاج إلى بحث مستفيض ليعرف الناس أن هذه مشتقات مقتبسات من النظام السماوي والميزان الإلهي ، وكيف يعرف الناس أن الزراع الذي يقيسون به الثياب ، والمقياس الذي يمسحون به الأرض ، والرطل الذي يزنون به المأكولات وما أشبهها كيف يعرفون أن ذلك كله مأخوذ من نفس سير الشمس فعلا لا مجرد قول ، ولعمري ان من يقرأ ما سأقوله الآن في هذا الموضوع ليرين العجب العجيب ، ويسمع في هذه المقالة ما يدهشه ، حيث يرى أن الأردب والقنطار والبرهم ومساحة الفدان ترجع فعلا إلى ميزان السموات (وبعبارة أخرى) إلى مدار الأرض حول الشمس ، أو مدار الشمس حول الأرض بحسب الظاهر ، وأن هذه كلها مرتبطات بذلك .

الحق والحق أقول أن من يفهم ما سأوضحه سيحجب غاية العجب ! ويقول : حقا ان هذه معجزة للقرآن مدهشة أكبر من كل معجزة ، وكيف لاتكون معجزة والله يقول : « ووضع الميزان ألا تظفوا في الميزان » أي وضعنا نظامنا لأجل ألا تظفوا في ميزانكم أي ان ميزانكم مبنى على ميزاننا ، وهناك ما قلته من رسالة صغيرة سميتها « التربية العملية في الاسلام » لم تطبع إلى الآن ، قد وضعتها على هيئة محاضرة ، فهالك ما يناسب المقام هنا منها :

س — قد فهمت ذلك ولكن من أين لنا أن نوقن بأن علوم الرياضيات التي أوجبها أفلاطون مما ينبغي أن تطلبه الأمة الاسلامية لأجل دينها ، وأين ذكر الله هذا في القرآن ؟ .

ج — لقد ذكر الله ذلك في القرآن في مواضع كثيرة كقوله تعالى : « والشمس تجري مسقرها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » الآية .

س — أنا أريد أبين من هذا ؟ .

ج — اقرأ كتبنا : جواهر العلوم ، وميزان الجواهر ، والنظام والاسلام ، ونظام العالم والأمم ، تجد فيها آيات كثيرة وحسابا رياضيا جبريا وفلكيا حقيقيا ، وتقف إذ ذاك على ما أودع في القرآن في نحو ٧٥٠ آية

أبانت أنه ينبغي لأذكاء المسلمين تعلم الرياضيات والطبيعات لا كما فعل أفلاطون وسقراط إذ خصصا التعليم بالرياضيات فأنها مناط الحق والصدق ، ولكننا نقول لن يكون المرء حاكما صالحا إلا بالقوة البدنية والنبوغ في الرياضيات والطبيعات ، ولقد كذب الذين قالوا ان العلم يصد عن ضبط مصالح الناس فأنما ذلك خاص بالعالم الذي لا يصحب بهذيب وتقويم ، ولا تمرين عضلي ، ولا عشق للحكمة والبحث ، فأنما ذلك الذي استوفى تلك الشرائط فما أجدره أن يرفع ذوى النفوس الشريفة إلى مستوى الحكم ، والحكم والعدل في القضية ، والتسوية بين الرعية ، وسأتى لك في هذه الرسالة بفائدة عجيبة خلت منها كتبنا السابقة ، وهي من أعاجيب الدهر ومعجائب الحكمة ، بل هي درة بهية ، وآية سنية ، وحكمة جوهريّة ، وشمس إشراقية ، وبديعة نورية ، تلك آية الرحمن ، إذ قال الله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

س — وأي عجب في هذه الآية وأي إبداع ؟

ج — فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب المتكبرين ، ألا ترى أنه تعالى يقول : رفعت سمائي وحركتها بالحركات العجيبة ، وقدرتها ووزنتها بالميزان العجيب ، فلا شمس تشرق إلا بنظام ، ولا قمر يطلع إلا بحساب ، ولقد وزنت حركاتها وزنا ، وضبطت سيرها ضبطا ، فلا تأخير ولا تقديم ، ولا نجم ولا شمس ولا قمر يتحرك حركة إلا بحساب وميزان ظهر لكم في تقويمكم السنوي ، وعرفتتموه في نتائجكم المعروفة فهل رأيتم في عملي من خلل ؟ أو اطلعت على تفاوت ، هل نجم النجم قبل إبانته ، أو بدر البدر قبل أوانه ، أو غربت شمس بعد وقتها ، أم أخطأ الليل والنهار ؟ كلا . إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار لتكون أعمالهم موزونة بهذا الميزان ، فكما نظمت سماواتي ، وقدرت كواكبي ، وأدرتها بحساب ، فهكذا يا عبادي نظموا أعمالكم كما نظمنا ، وإياكم أن تحجموا عمارسنا ، فلا تستأخرون دقيقة أو ثانية ولا تستقدمون .

س — قد فهمت انشاءك ، وعرفت منهاجك ، وعقلت طريقك ، فما أتيت في هذه الآية أكثر مما في غيرها .

ج — على رسلك صبرا ، ولا ترهقني من أمرى عسرا ، فسأكمل المقال لتطلع على ما يحمله الأكترون انظر إلى قدماء المصريين ، ألم تر أنهم جعلوا الفدان والأردب والقنطار مشتقات من دائرة الشمس السنوية س — وكيف كان ذلك ؟

ج — إن الأرض ليس يضبط محيطها كما يضبط محيط مدار الشمس ، فلما كان العالم العلوي أضبط وأبقى جعله أولئك الفلاسفة مقياسا لنا : أي جعلوا منه الرطل المصري والكيلو والفدان والقيراط وما أشبه ذلك تصديقا لقوله تعالى : « ألا تطغوا في الميزان » أي أنا وزنا السماء وقدرناها وحسبناها وضبطناها في حركاتها لئلا تزيدوا في موازينكم كالقناطر والأرطال ، ومكاييلكم كالأردب والكيلو ، ومقاييسكم كالفدان والقيراط ، إن هذه كلها مبينة على نظام شمسينا ، ولو اختلف نظام مدارها لم يضبط لكم كيل ولا ميزان كما لا تضبط أعمالكم إذا تقدمت كوكب عن أوانه ، أو طلعت الشمس أو القمر قبل إبانتهما .

س — هذا قول عجيب لا أفهمه أوضحه لي ، فإذا عجبت من جهل الناس فلا تعجب إذا عجب الناس من غموض قولك .

ج — حياك الله : مهلا . إن الفرنسيين الذين جعلوا وحدة المقاييس ترجع إلى محيط الأرض إذ جعلوا المتر جزءا من ٤٠ مليوناً من محيط الدائرة الأرضية قد وقع الخطأ في عملهم ، فأنهم رأوا بعد ذلك أن محيط الأرض ليس ٤٠ مليوناً بل يختلف اختلافا بينا ، فإذا اختلف الناس في المتر فيما بعد فإلام يرجعون ، أما قدماء

المصريين فانهم قاسوا مدار الشمس السنوى بالحساب العالى فبنوا الهرم الاكبر على أن محيطه جزء من مليار جزء من محيط مدار الشمس السنوى : أى جزء من ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط ، وارتفاعه جزء من ألف ألف ألف جزء من البعد بين الشمس والأرض : أى مليار ضعف الارتفاع المذكور يساوى قطر محيط دائرة مساوية لمحيط الهرم ، فالارتفاع نفسه كما تقدم يساوى جزءا من مليار من البعد بين الشمس والأرض ومحيط الهرم يساوى جزءا من مليار من الدائرة التى تدور عليها الشمس التى ذلك البعد نصف قطرها .

وعليه يكون ضلع الهرم مساويا لجزء من ربع مليار من محيط الدائرة الشمسية ، ومعلوم أن الضلع المذكور يساوى ٤٠٠ ذراع بلدى ، أو ٣٦٠ هنداسة ، فيكون الذراع البلدى واحدا من مائة مليار من محيط الدائرة الشمسية : أى جزء من مائة ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط ، ثم ان ربع الذراع البلدى المكعب يسع ألف درهم من الماء المقطر ، وكل اثني عشر درهما أوقية ، وكل ١٢ أوقية رطل ، فالرطل ١٤٤ درهما ، والقنطار مائة رطل ، وعليه تكون المقاييس منها عشرى ومنها ذوالاثني عشر ، والأردب ذراع بلدى مكعب ، فتعجب كيف كان الأردب ذراعا مكعبا منسوباً إلى ضلع الهرم ، فهو جزء من ٤٠٠ منه ، أو واحد من مائة ألف ألف ألف جزء من محيط الدائرة الشمسية ، ألا ترى كيف قسنا ووزنا وكلنا على نسبة محيط الشمس .

إن الفدان عبارة عن $100 \times 100 = 10000$ عشرة آلاف هنداسة ، فطوله ١٠٠ وعرضه ١٠٠ وهونسبة عشرية ، والهنداسة جزء من ٣٦٠ جزءا من ضلع الهرم المنسوب لربع محيط الدائرة الشمسية فأصبح الفدان منسوباً بقياسه للدائرة الشمسية ، أليس هذا بعينه قوله تعالى « ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » فأمر بالاعتدال ، وألا تنقص وألا تزيد في وزننا ، ولا في كيلنا ومساحتنا ، كل ذلك على حسب مدار الشمس .

واعلم أن الذراع النيلى $\frac{1}{4}$ من الهنداسة فيكون ضلع الفدان ١٢٠ ذراعا نيليا ، والفدان ١٤٤٠٠ ذراعا نيليا ، ويكون القيراط ٦٠٠ والسهم ٢٥ والدانق ١٠٠ — فالذراع النيلى والهنداسة كلاهما يسحان الفدان $100 \times 144 = 14400$

هل يدري ذلك الفلاح الذى يبيع قطنه بالقنطار أن للقنطار نسبة إلى مدار الشمس فى السماء ؟ هل يعلم أن القنطار المنقسم إلى أرطال إلى دراهم ، أن تلك الدراهم منسوبة إلى الذراع البلدى الذى اذا كعب ربعه وسع ألف درهم ، واذا كعب هو وسع ٦٤ ألف درهم ، وأن هذا الذراع البلدى جزء من أربع مائة من ضلع قاعدة الهرم ، وأن ضلع قاعدة الهرم جزء من ألف ألف ألف جزء من ربع محيط دائرة الشمس حول الأرض ، وأن هذا المحيط أحد المحيطات التى للشمس العظيمة التى لا يعلم عددها إلا الله ، وهل درى الفلاح الذى يقيس أرضه بالقصبه أن هذا الفدان يساوى عشرة آلاف هنداسة ، وأن الهنداسة جزء من ثلثائة وستين جزء من ذلك الضلع المنسوب لمحيط الشمس .

وهل علم من يبيع أردب قح أنه منسوب إلى الذراع البلدى ، الراجع إلى ضلع الهرم ، المستمد من مدار الشمس ، سبحانه الله ، وأن الشمس وما فوقها إلى ربك منتهاها ، هل علم الناس أن الذراع البلدى اشتق كما اشتق الكيل والوزن وهما من الحساب ذى الاثنى عشر ، وأن المساحة من الهنداسة والذراع النيلى أولهما عشرى والثانى فيه ذوالاثني عشر ، وأن هذا كله راجع إلى مدار الشمس ، الناس فى بلادنا لاهون لاعبون جهلوا الدين وجهلوا نظام المدن ، وعاشوا عالة على الذين حلوا من قبل فى ديارنا ، وعلى الأم حولنا ، جهلوا لأن هذا الأردب ، وهذا القنطار ، وهذا الفدان ، كل ذلك مقادير موزونة محسوبة منظومة راجعة لابتداع

الشمس ونظام سيرها ، كأن الندماء لما رأوا أن الناس غافلون ذكرهم بهذه الموازين العجيبة البديعة في غدوهم ورواحهم وحسابهم وليلهم ونهارهم لئلا يغفلوا عن ذكر ربهم ، وعن ذكر نظام مدنهم ، وعن نظام الفلك ، أليس هذا عجيبا ! إى وربى انه لحق ، إى وربى انه لحق ، لقد وضع صصة بن داهر الحكيم الهندى الشطرنج ، ووضع غيره النرد ، وكان لتلك الأوضاع بهجة تذكر اللاعبين بسير الشمس والقمر والأيام وأعدادها والشهور وأدوارها ، ولكن أعجب من ذلك نظام قدماء المصريين الذين أبزوا مكنون العلم في الأعمال اليومية لا الألعاب الصبائية فتأمل وتعجب ! وانظر كيف تعلم اليونانيون علم المصريين ، ودرسوا هرمهم وحكمتهم وميزانهم وورطلمهم وقنطارهم وأردبهم ، وعرفوا أن ذلك منسوب لضلع الهرم المنسوب لدائرة الشمس ، وأن ذلك كله لم يتم إلا بعلم الحساب والهندسة والجبر العالى وأمثال ذلك فأوضحه أفلاطون في جمهوريته ، وقال : « لن يكون الانسان عدلا مطيعا لله قائما بأمره صادقا في حكمه حتى يبرع في الرياضيات ويتخلق بأخلاق الله » ثم قرأنا ذلك ونظرنا في القرآن فرأيناها أنزلت على النبي العربي بلاتعليم : « والسما رفعها ووضع الميزان ألا تظفوا في الميزان » .

أفليس هذا يكفيك أن توقن أن أمة الاسلام اليوم نائمة نوما عميقا ، جاهلة بما بين يديها وما خلفها ، وأن الله عز وجل أيقظ فريقا منها ليوقظوها من نوم الغفلة والجهالة والغرور ، وأن الحكمة الأفلاطونية الفيثاغورية كانت مصرية كانت بضاعتنا فردت إلينا ، وقد أوحى إلى نبينا بضمونها ، فهلا أعددنا للأمر عدته ، ونهجننا منهج نبينا ﷺ وقد وافق شرعه شرع النبي ادريس عليه السلام الذي علم قدماء المصريين وجاء وفاقاله في ﴿ سورة الرحمن ﴾ « علم القرآن » انتهى ما أردته من رسالتى المسماة « التريية العملية » كتب الساعة ٦ بعد عصر يوم السبت ١٠ أغسطس سنة ١٩١٨ م — [بالغاله : مصر العاصرة] وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ووضع الميزان » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان

قد تقدم الكلام على اللؤلؤ في ﴿ سورة الفاتحة ﴾ وعلى المرجان في سور أخرى مفصلا ، ولكن لابد من فصل قصير نزين به جيد تفسير هذه السورة فنقول :

من ذا الذى كان يظن أن تلك المرجاة التى تزين بها النساء فوق براقعهن ببلادنا المصرية فى القرى بحيث تراها صفا واحدا منظما على برقعها ، منتظما من أعلى إلى أسفل ، ويتبعه قطع من الذهب فيكون المرجان فى الأعلى والذهب فى الأسفل .

أقول : من ذا الذى كان يظن أن تلك المرجاة كانت صنع حيوان صغير جدا ، وأن تلك الحيوانات باجتماعها آلافا وآلافا كوتت مساكن ، وتلك المساكن أشبه بأغصان الأشجار ، ثم تتكامل اجتماعا ، وتتلاحق اتساعا ، وتمتد ذراعا وباعا ، وتتسع انفراجا فى البحر حتى تكون منها جزائر ، وتلك الجزائر أيضا تتكاثر وتتكاثر وعلى مدى الزمان ، تراها فى المحيط الهندى والمحيط الهادى (الباسفيكى) وكيف تراها على شكل الخاتم ، ووسطها فيه ماء لونه يخالف لون المحيط الذى هو أزرق ، وإذا اجتمعت جزائر كوتت حلقة أيضا ، وتعيش الحيوانات فى مأها ساكنة مطمئنة آمنة عاديات الدهر وهيجان المحيط ، وترى شجر [الشكولاته] يكسوها وهو جميل بهيج ، ولورأيت شجر المرجان لرأيت له فروع غبراء كظباء الصحراء ، أو صفراء برتقالية ، أو حراء قرنفلية ، أو زرقاء تتلاعب بها الأمواج ، والريح تعبت بأغصانها ، فانظر كيف تصبح هى أنفسها نفس الصخرات المكونة للجزائر المرجانية ، وتكون منها جزيرة حجرية ، وقد تزيد إلى عشرة إلى مائة إلى

ألف إلى عشرة آلاف إلى مائة ألف جزيرة كالجزائر المعروفة باسم [بلكايف] فهي مائة ألف جزيرة ، وكالجزائر المعروفة باسم [ملايف] فهي ألف جزيرة كلها صخرية صخرية أصلها شجرات نابتات وليست بشجرات إنما هي مساكن بناها الحيوان المرجاني الدقيق الذي سخره الله مع ضعفه لبنى الجزائر في البحر ويحفظها لتكون مسكن الحيوانات بعد ذلك وموطن الأشجار النافعة للإنسان والحيوان ، والجزيرة الواحدة من تلك الجزائر يبلغ محيطها فراسخ عديدة تتكسر أمواج المحيط على جوانبها للناصعة البيضاء « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

فصل في اللؤلؤ

وهل أناك نبأ ما عرفته أنا بعد ما رأيته فيما تقدم رأيت عجبا ! ذلك أن عادة علماء التفسير أن يقولوا إن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر المالح مع أن الله يقول « منهما » وقد أولوه بما علمت وتابعهم عليه ، فانظر كيف جاء العلم الحديث جاريا على نفس ظواهر القرآن ، إذ كشفوا أن اللؤلؤ يكون من الماء العذب ، فانظر ما يقوله الناس اليوم ، فقد جاء في مجلة « السياسة الأسبوعية » بتاريخ يوم السبت ٢٧ رمضان سنة ١٣٤٤ هجرية — ١٠ أبريل سنة ١٩٢٦ م تحت العنوان الآتي مانصه :

تكوين اللؤلؤ

يتكون اللؤلؤ في أنواع كثيرة من الحيوانات الصدفية ، أو المحارية التي تعيش في الماء العذب ، أو في الماء المالح ، وكانت لآلى الماء العذب شهيرة عند الرومانيين ، وهي تستخرج حتى الآن من بعض جهات في أمريكا والصين وغيرها ، وأجل نوع من اللؤلؤ هو ما يتكون في الحيوانات الرخوة الصدفية التي تعيش في البحار الحارة ، والحيوان موجود داخل محارتين منطقتين على بعضهما ، ويوجد منها نحو الثلاثين نوعا ، وأهم هذه الأنواع ثلاثة :

أولا : مليجرينا مرجريتيفر : وهو الاسم العلمي ، وهو حيوان صدف كبير ، يصل قطره إلى قدر ثلاثين سنتيمترا ، ويصل ثقله إلى نحو عشرة الكيلوجرامات ، ويعيش في المحيط الهندي والبحر الأحمر ، وفي بحار الهند ، وسيلان ، وفي الاقيانوسية ، ويوجد اللؤلؤ فيه بنسبة لؤلؤة في كل أربعة حيوانات .

ثانيا : مليجرينا وديانا : وهو حيوان صدف أصغر حجما من الأول لأن قطره يصل إلى اثني عشر سنتيمترا ، وثقله لا يزيد عادة عن مائتي جرام ، وهو يعيش في أغلب البحار الحارة ، وخصوصا في البحر الأحمر والخليج الفارسي .

ثالثا : مليجرينا امبريكانا : وهو حيوان صدف صغير يعيش في البحار الغربية لشواطئ استراليا ، وهو يخالف النوعين السابقين في أنه يعيش في مكانه ملتصقا على الصخور بعضو خاص ، لهذا النوع من الأصداف عضو اسمه [البسوس] توجد هذه الأصداف على شكل جماعات عديدة الأفراد .

واللؤلؤ اللطيف الشكل الجليل الماء (كما يقولون) هو ما يسمى باللؤلؤ الحر ، أو الصافي ، وهو ذو القيمة التجارية الهائلة ، وهو ما يطلق عليه عادة اسم اللؤلؤ ، ولا يستخرج أغلبه الآن إلا من الحيوانات البحرية التي سبق ذكرها . وأغلاها ما كان جيل الماء كروي الشكل ، أو مماثلا للكمثرى في شكلها ، وتختلف ألوانه فنه الأبيض ، وهو أكثر شيوعا بين الناس ، ومنه الرمادي والوردي ، والأخضر والأحمر والأصفر والأسود والأزرق ، واللؤلؤ الأسود نادر جدا وقيمه التجارية كبيرة .

وهناك نوع من اللؤلؤ الحر ذو لوان ذهبي جميل ، يفضل به بعض الغاوين على غيره ، وما يجعل للؤلؤ هذه

القيمة الاقتصادية المعروفة هو لمعانه وماؤه ولونه ، وبمرور الزمن وكثرة الاحتكاك في استعماله وتأثير العرق (وهو سبب غير أكيد) يذهب اللعان والماء ، إذ ييخر كمية من الماء الذي يكون ضمن المواد المكونة لهذا اللؤلؤ فيقول إذ ذاك العارفون : ان اللؤلؤ مات ، وهناك أنواع من اللؤلؤ تموت قبل غيرها بمدة طويلة أو قصيرة رغمها من وجودها في نفس الظروف المفروض أنها هي سبب الموت ، وهذا الاختلاف يرجع إلى ماسماه الاستاذ [دوبوا] ضعف اللؤلؤ أوقوته ، ففي نظر هذا العالم هنالك أمرجة مختلفة في اللؤلؤ تجعل بعضه يتحمل المؤثرات الخارجية ، والبعض الآخر لا يتحملها فيموت البعض قبل البعض الآخر .

وموت اللؤلؤ هو السبب في أن أغلب لآلى المصاغ المحفوظ في المتاحف ذهب ماؤها ، واندثر لمعانها . واللؤلؤ السكرى أو القريب منه هو أغلاء ، وهناك أنواع من اللؤلؤ نصف كروية تسمى بأنصاف اللاآلى وهي أقل قيمة من الأولى ، وتستعمل في أنواع المصاغ الذي لا يرى فيه إلا أنصاف اللاآلى كرس الدبابيس وما شابه ذلك . انتهى ماجاء في المجلة المذكورة ، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثانية ، الحمد لله رب العالمين .

جوهرة في قوله تعالى : يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران

تأمل في هذه الآية من [وجهين : الأول] انه عبر عنها بشواظ من نار وفيما تقدم بقوله : « من مارج من نار » والشواظ والمارج كلاهما اللهب الخالص ، فلماذا جعل الجان مخلوقا من مارج ولم يقل من شواظ ؟ فاعلم أن المارج فيه معنى الاضطراب كما تقدم ، وقد أثبت ذلك هناك ، وهذا الاضطراب يفيد اضطراب الروح كما تقدم في علم الأرواح ، وأيضا اختلاط الألوان الآن . معروف في التحليل فهو من هذا القبيل ، وإنما أعدت الكلام فيه لورود هذا اللفظ هناك ولم يرد منا ، فان ذكره هناك لهذا الغرض ، وهذه الفكرة لم تعلم قط إلا في زماننا هذا فان تحليل الضوء والعلم بأنه مختلط ، والاطلاع على عالم الأرواح الناقصة وانها مضطربة لم يكن إلا في زماننا ، وهذا من أعاجيب القرآن التي لا تدرك إلا بقراءة العلوم ، وليس يعقلها الناس بفن البلاغة المعروف ، فلا أصحاب المعلقات يدركونها ، ولا الذين بعدهم يعلمونها ، فهل لمثل امرئ القيس ، أو لأبي العلاء أو المتنبي أن يتناولوا هذه المعاني في أقوالهم ؟ كلا . فهذه بلاغة لا تخاطر ببالهم ، وأنى لهم علم الروح حتى يخصصوها بلفظ مارج ، وعند ازال العذاب يذكرن الشواظ [الوجه الثاني] أن الشواظ والنحاس الواردين في الآية لهما نظائر في أحوالنا الانسانية اليوم كما تقدم ، ولكنى أريد أن أزيدها أيضا :

- (١) الناس محبوسون في شهواتهم كشرب السخان ، والخمر ، والكوكابين .
- (٢) في أنواع من الطعام .
- (٣) في أنواع من اللباس .
- (٤) في أنواع من الزينة .
- (٥) في أنواع من العادة .
- (٦) في أوطانهم .
- (٧) في ديارهم .
- (٨) في أرضهم لا يخرجون عنها إلى المريح .
- (٩) وكل محبوب عند نفوسنا اذا فارقناه أحسنا بآلام للفراق فنحنق للأوطان ، ولبن نعشقهم ، ونحزن لفراق المألوفات من مال وولد وملك وجاه وما أشبه ذلك ، ولا فراق إلا يصحبه حزن ، والحزن يعبر عنه الناس بالنار ، يحسون بها في باطنهم وقد يتعدى الباطن فيورث الحى والسهر فيقول شاعرهم

منحسرا

يا ليل مالك آخر * يرحى ولا للشوق آخر

يهنيك بدرك حاضر * ياليت بدري كان حاضر

حتى يبين لناطري * من منهما زاه وزاهر

والأشعار كثيرة نبغ فيها أسلافاً ، وكلها تصف الأشجان والفراق ونار البعد والحسرة والتوجع ، فهذه الآية وإن كانت في أمر الآخرة فهي من جوامع الكلم شملت أحوال الناس من حيث طبائعهم في الدنيا والآخرة ، لأن « من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » ومثل هذه المعاني لن يتصورها الشعراء قديماً وحديثاً . انتهى تفسير القسم الثاني من السورة .

القسم الثالث في عجائب عالم الآخرة

قال تعالى (فإذا انشفت السماء فكانت وردة) أي حراء فهي كلون الورد الأحمر (كالدهان) أي مذابة كالدهان ، وهو اسم لما يدهن به بوزن الحزام أوجع دهن (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيومئذ) أي فيوم تنشق السماء (لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) لأنهم يعرفون بسيماهم ، وذلك حينما يخرجون من قبورهم ويحشرون إلى الموقف وبعد ذلك يسألون (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، يعرف المجرمون بسيماهم) هناك ، ولقد عثر النوع الانساني مع قلة علمه على قليل من ذلك فانتفع به في حصر المجرمين وإذلالهم ، فهذه حكومتنا المصرية قد جعلت إدارة خاصة لعلامات المشتبه فيهم ، وذلك أن لكل امرئ خطوطاً خاصة في إبهامه لاتشابه خطوط غيره ، ولا يحصل التباس ، فتم أخذوا صورتها على الورقة لم يفلت ذلك المجرم ، إذ يعرفونه بذلك العلامة التي لا يشاركه فيها سواه في الشرق ولا في الغرب ، وهذا أيضاً في أوروبا وجميع العالم الانساني (١) وهناك بعض العرب في البادية يعرفون الانسان بأثره ويرثها الابن وراثته طبيعية ، وذلك مشهور في طوائف قليلة من الناس وهو من خاصيتهم ، وإذا كان هذا في الدنيا فما بالك بيوم القيامة عند من يعلم الغيب . والحاصل أن لكل امرئ أحوالاً تخصه في جسمه ، وفي عقله وأخلاقه يعرف الناس قليله الآن ، وبقية علمه عند الله يعلمه للملائكة وهم يعرفونهم بسيماهم (فيؤخذ بالنواصي والأقدام) مجموعاً أو يؤخذون بالنواصي تارة والأقدام أخرى (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ، يطوفون بينها وبين النار يحرقون بها) (وبين جيم) ماء حار (آن) ماء حار قد انتهى حره ، فهم يسعون بين الجحيم وبين الجيم ، فإذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الجيم الآتي الذي صار كالهمل ، والمهل هو دردي الزيت : أي عكره (فبأي آلاء ربكما تكذبان) والنعم في هذا نجاة الناجي منه بفضل ورجته وأن في الانذار به تنبيه وإيقاظاً (ولن خاف مقام ربه جنتان) أي قيام ربه عليه يعني اطلاعه عليه ، فإذا هم بمعصية ذكر الله وأنه مطلع عليه فتركها من مخافة الله ، فمثل هذا يراقب الله في السر والعلانية ، فيفعل الخير للناس بجوارحه ، ويحب لهم الخير بقلبه ، ويزداد علماً بملأ قلبه ، فمثل هذا ينال جنتين : جنة روحانية لقلبه ، وجنة جسمانية على شاكلة ما عمل في الدنيا ، فهو في جنات ونعيم ، وقلبه مطلع على جمال الملكوت ناظر لربه ، أو يكون أولاً في الجنات الحسية ، ثم تلتف روحه شيئاً فشيئاً ، وكلما خلعت عاداتها الغليظة لطف ولا تزال تلتف وهي في الجنات الحسية ، ونور علمها يزداد بالجنة الروحية ، وهكذا يستمر ازدياد المعنويات وقص الحسيات حتى تخلص الروح من العوالم كلها وتكون إلى ربها ناظرة ، وهذا هو غاية المراد .

(١) قد تقدم الكلام على هذا المقام موضعاً بالصور والأشكال في هذا التفسير عند آية : « حتى إذا ماجأوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجاودهم بما كانوا يعملون » في سورة فصلت في المجلد التاسع عشر

وهذا التقرير قد رأيت بعض ما يشير إليه في كلام محي الدين بن عربي ، إذ قال : « إن الروحية يكون لها سلطان على الجسمانية » وهذا بعض ما قلناه ونقلناه أيضا عن علماء الأرواح في العصر الحاضر ، وقوله (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان) أي أغصان جمع فتن وهو الغصنة التي تنشعب من فروع الشجر ، ولا جرم أن الفتن هو الذي يورق ويثمر ويمد الظل ، لذلك خصه بالذكر (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان) حيث يشاءون في العلالي وفي الأسافل (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان) أي صنفان ونوعان . وروى أن فاكهة الدنيا كلها لها نظير في الجنة ، وهذا المقام له تحقيق مرت في [سورة البقرة] في أولها (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) الفرش جمع فراش ، والبطائن جمع بطانة ، والاستبرق ديباج ثخين ، ومتكئين حال من الخائفين ، لأن من خاف في معنى الجمع (وجنى الجنة) ثمهما (دان) يناله القوم والقاعد والمضطجع (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف) أي في الجنان [المدلول عليها بالجنين لكل خائف وبتعدد الخائف يتكاثر عدد الجنان] نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم (لم يطمثن أنس قبلهم ولا جان) الطمث الجعاع بالتدمية : أي لا يمس الانسيات أنسى ، ولا يمس الجنيات جنى (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت) صفاء (والمرجان) في حرة الوجنة ، أو أن ألوانهن يابض مشرب بحمرة ، فالياض كاللؤلؤ ، والحرة كالمرجان ، فتعاشق اللونين يحدث منظرا جيلا ، وهو أحسن الألوان (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان) في العمل (إلا الإحسان) في الثواب وهو الجنة (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، ومن دونهما جنتان) أي ومن دون تينك الجنة الموعودتين للخائفين جنتان لمن دونهم من أصحاب اليمين (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان) خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة ، فينبت في هاتين الجنة النبات والرياحين القريبة من وجه الأرض أو المنبسطة عليها ، وأما أولئك فلم أشجار فيها فواكه و فرق بين المقامين (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان) فوارتان بالماء ، ووصف الأوليين أجل (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما فاكهة ونخل ورمان) من عطف الخالص على العام ففصلهما لفضلهما ، وأيضا الرمان فاكهة ودواء ، وثمر النخل فاكهة وطعام فليسا خالصين للتفكه ، ولذلك قال أبو حنيفة رضى الله عنه : « إذا حلف لا يأكل الفاكهة فأكل رطباً أو رماناً لم يحنث » وخالفه أصحابه (فبأي آلاء ربكما تكذبان)

واعلم أن الفاكهة إما عطرية كالنفاحة ، وأما مائية كالبطيخ ، وأما حضية كالليمون ، وأما زيتون وأما سكرية كالتمر ، وأما غير ذلك كشمرا التوت ، وقوله تعالى (فيهن خيرات حسان) أي خيرات [بتشديد الياء] فهن أقل من السابقات لأن هؤلاء لسن أخير ، لأن خير بمعنى أخير لا يجمع ، وحسنهن في الخلق والخلق (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات في الخيام) أي قصرن في خدورهن ، والمرأة القصيرة والقصورة والمقصورة المخدرة (فبأي آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثن أنس قبلهم ولا جان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على رفرف خضر) الرفرف الخضر الوسائد الخضراء رفرفة (وعبقري حسان) العبقري منسوب إلى عبقري تزعى العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون إليه كل شيء عجيب ، وهو جنس يدخل فيه كل أمر غريب كالديباج الجليل والطنافس وغيرها .

ثم اعلم أن العبقري أيضا كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم فهو أعز مما هنا . قل صلى الله عليه وسلم في عمر « فلم أر عبقريا يقرى فريه » ووصف العبقري بالحسان لجله على المعنى (فبأي آلاء ربكما تكذبان تبارك اسم ربك) تعالى اسمه ، وإذا كان الاسم يتعالى فبالك بذاته تعالى (ذو الجلال والإكرام) ذي العظمة والانعام لأوليائه وغيرهم فيعطى كلا ما هو أهله .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سلم من الصلاة لم يقعد إلا مقدار ما يقول « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والاكرام » أخرجه أبو داود والنسائي غير قولها « لم يقعد إلا مقدار ما يقول » .

وروى مسلم عن ثوبان قال : كان صلى الله عليه وسلم اذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال اللهم أنت السلام إلى يا ذا الجلال والاكرام .

لطيفة في قوله تعالى : كل من عليها فإن ، وقوله : تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام لما ذكر الله نعم الدنيا ختمها بفنائها ، وأن الباقي هو الله ، ولما ذكر نعم الآخرة ختمها بأن الله ذو العظمة والانعام على العباد وجميع المخلوقات ، وتكون نتيجة السورة هكذا : الدنيا كلها نعم ولا يبقى سوى المنعم ، والآخرة كلها نعم للخائفين ومن دونهم ، والله هو مستحق للتسبيح والتتزيه : فهو ذو الجلال ، ومستحق للحمد على النعم لأنه ذو الاكرام ، فتكون النتيجة أن هذه الدنيا وما بعدها نتيجتهما العلم ، لأن الحمد لا يكون إلا على العلم بالمحمود عليه ، وبالاختصار أعظم نعيم في الجنة العلم ، وقد رمز له بالاكرام ، إذ لا أعرف إكرام الله إلا اذا درست نعمه ، ومن أعطى انسانا نعمة فوجده يجهل قيمتها لا يعاود النعمة عليه ثانيا ، ولستأ نعرف نعم ربنا لشكرها إلا اذا درسناها في هذه الدنيا ، فانظر إلى أول السورة كيف بدئت بالرحمة والعلم والتعليم ، وختمت بما يشير إلى الحمد ، وما بينهما راجع لهما ، فالشمس والقمر والشجر والميزان العام في السموات والأرض ، وبقية النعم المتقدمة لا تعرف إلا بدراستها ، وبهذه الدراسة يمكننا أن نشكر الله بالقلب بحيث نخلص لله والناس ، وباللسان بالثناء على الله بالحمد ، وبالأفعال بحيث نحسن ونتصرف بالخير بأيدينا .

إن [سورة الرحمن] نزلت إيقاظا للمسلمين أن يكونوا مفكرين حتى يدرسوا النعم واذن يكونون حامدين لربهم الذي أكرمهم ، والسورة فيها تعريض بأن من جهل النعمة كأنه كذبه ، وفي هذا ما هو كالإنذار لمن جهلوا هذه النعم ، والمسلمون اليوم أقل الأمم علما بعلوم الكائنات ، وقد آن أن يرجع لهم مجددهم ويعرفوا نعم ربهم ، ويسابقوا لنيل الخيرات ، والحمد لله رب العالمين اهـ

اللطائف العامة في هذه السورة (١)

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ووضع الميزان » مع قوله : مرج البحرين يلتقيان الخ

اللطيفة الثانية في عجائب الحسبان في سورة الرحمن

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : ووضع الميزان ألا تظفروا في الميزان

مع قوله : مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان

لك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة ، أنت معلم المعلمين ، ومعلم الصالحين ، ومرسل الأنبياء

(١) يقول المؤلف : هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه

السورة للطبع .

والمرسلين ، تباركت وتعاليت ، قد هديتنا وعلمتنا وأعنتنا على إبراز ما وقر في النفس من نعمة العلم والحكمة أنت الرحمن الرحيم ، وبرجتك أذعت العلم بين الأمم ، وأنزلت القرآن ، وأبدعت في خلق الانسان ، وربيته وعلمته البيان ، فعلم خواصه علما يقينا أن الكواكب كلها بحساب ، ودرسوا أنواع النبات فألفوها ذات بهجة ونظام ، ودرسوا العلويات فألفوها حسنة القوام ، جيلة الابداع ، رفيعة المقام ، مشرقة مبهجة منعشة مسعدة للأنام ، ورأوا كل مخلوق ميزان لا نقص فيه ولا خلل ولا زيادة في الميزان ، وبهذا الميزان حفظت الكواكب في مداراتها ، والسيارات في أبراجها ، والحيوانات في مسارجها ، وأزهر النبات ، وأثمر الشجر ، وسعد بالحياة نوع الانسان .

هذه هي الآلاء والنعمة الكبريات ، ولما أفضت على من نعمك العلمية وأردت أن أشرح الميزان ألفت المقام متسعا ، والمجال فسيحا ، بل هو بحر لجي لا يعرف مداه ، ولا يدري منتهاه ، ولقد تذكرت اليوم ما انفق لي في زمان الشباب إذ كنت أفكر في نظام السموات والأرض ، فقرأت للإمام الغزالي جملة هذا معناها : « لا يعرف الميزان إلا من درس جميع العلوم » فطار إذ ذاك لي وحار فسكرى ، وأخذت أنشد المعارف ، وأبحث في كل تليد وطارف ، وأسأل كل عارف وغير عارف ، ودرست ما قدر لي ، ثم ألفت كتاب [جواهر العلوم] وأتبعته بكتاب [ميزان الجواهر] تذكرة بما قاله الامام الغزالي رحمه الله تعالى ، وهل كان بدور بخلدني أو يخطر ببالي أن أعيش حتى هذا الزمان ، وأن أؤيد بروح منك فأفسر القرآن ، وأصل إلى سورة الرحمن كما هي الحال الآن فأفسر آية : « ووضع الميزان ألا تظفروا في الميزان » .

هذا لم يكن ليخطر لي ببال ، ولم تكن نفسي تشرب إلى ذلك المقام ، وفي هذا المقام أنشد قول القائل :

واذا العناية ساعدتك عيونها * نم فالتخاوف كلهن أمان

واصطد بها العناء فهي حبال * واقتد بها الجوزاء فهي عنان

فاذا كنت موقنا أن العناية ساعدتني في التفسير عامة ، فبالعناية الإلهية أبتدى في تفسير هذه الآية التي يشمل معناها جميع ما تضمنه الوجود من النظام ، وأجتزئ بأن أذكر طرفا يسيرا من ذلك النظام :

(١) فأبتدى بذكر حقائق الجاد بوصف بعض الأحجار الثمينة .

(٢) ثم أقفى بالإشارة إلى نظام النبات .

(٣) ثم أذكر بعض الحيوان الذي يعيش في البحر .

(٤) ثم أقفى على آثاره بمجائب خلق الحيوان الذي يعيش في البحر صغيرا ، وفي البر كبيرا ، وهو الضفادع التي يرى العاقل في نموها وتدرجها من المجائب ما تحو له العقلاء سجدا من تلك المادة الهلامية التي تحيط بالبيض وتأخذ في رفعه كلما زاد نموّه حتى تصل به إلى سطح الماء فيكون إذ ذاك قد فقس البيض ، فأما المادة الهلامية فانها تنحل بتدبير آخر وابداع عجيب .

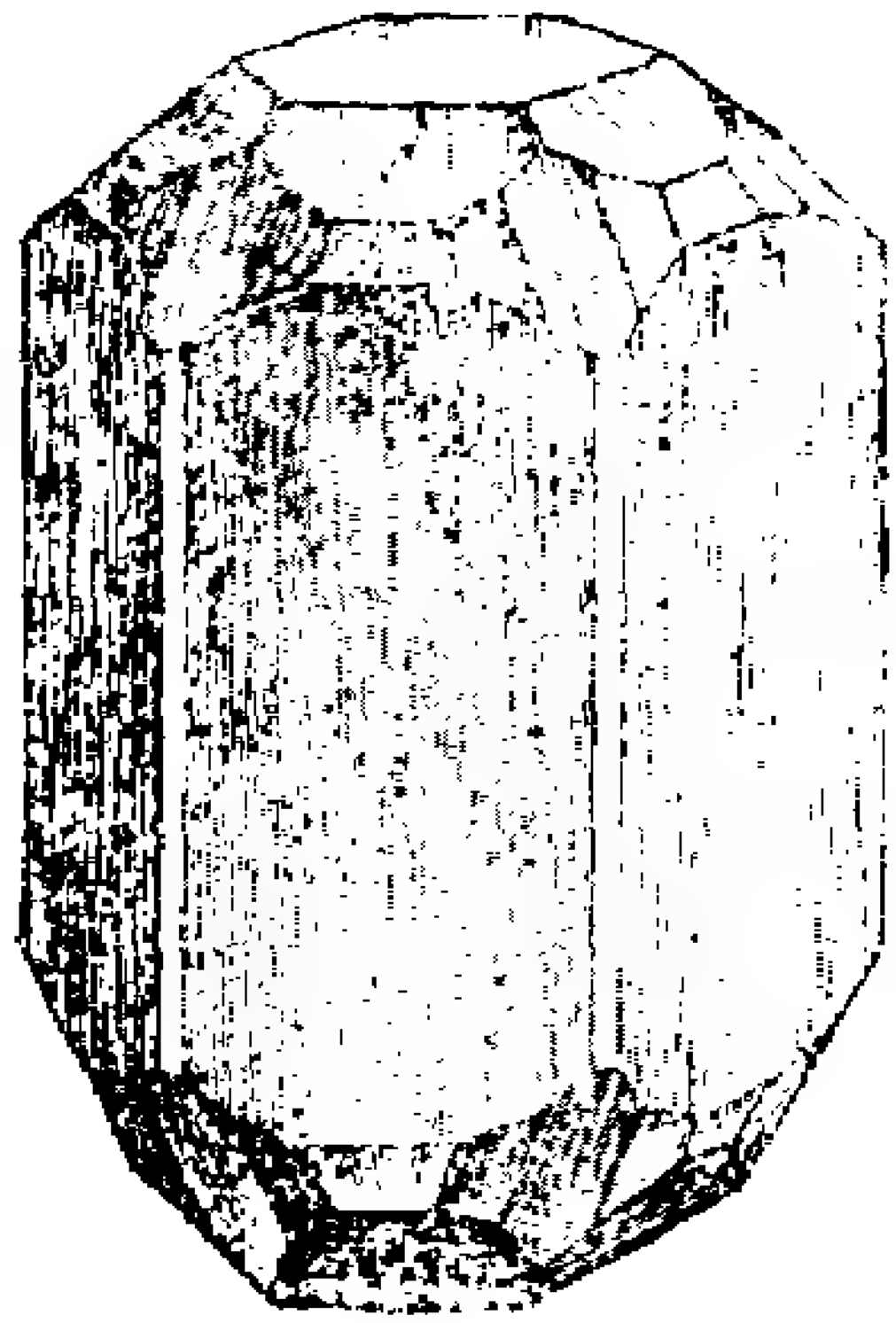
(٥) ثم أقفى بذكر بعض حيوان البر وأبتدى بالمشكبات ، وأبين كيف يبتدى في نسجه وهيئة سيره فيه مما لم يتقدم له نظير حتى تعلم أيها الصديق أن تلك العناية التي أحاطت بأجسام الحيوان نفذت إلى إدراكه وغرائزه فأخذ ينظم أعماله كما نظمت هيئة جسمه وكأنه تلميذ تربي في معهد جسمه المنظم فأخذ ينسج على منواله .

(٦) ثم أتبعه بذكر عجائب النحل وابداعه في عمله مما لم يسبق له نظير فيما مضى ، وكيف كان منه بناءون ونساجون ونجارون وغيرهم .

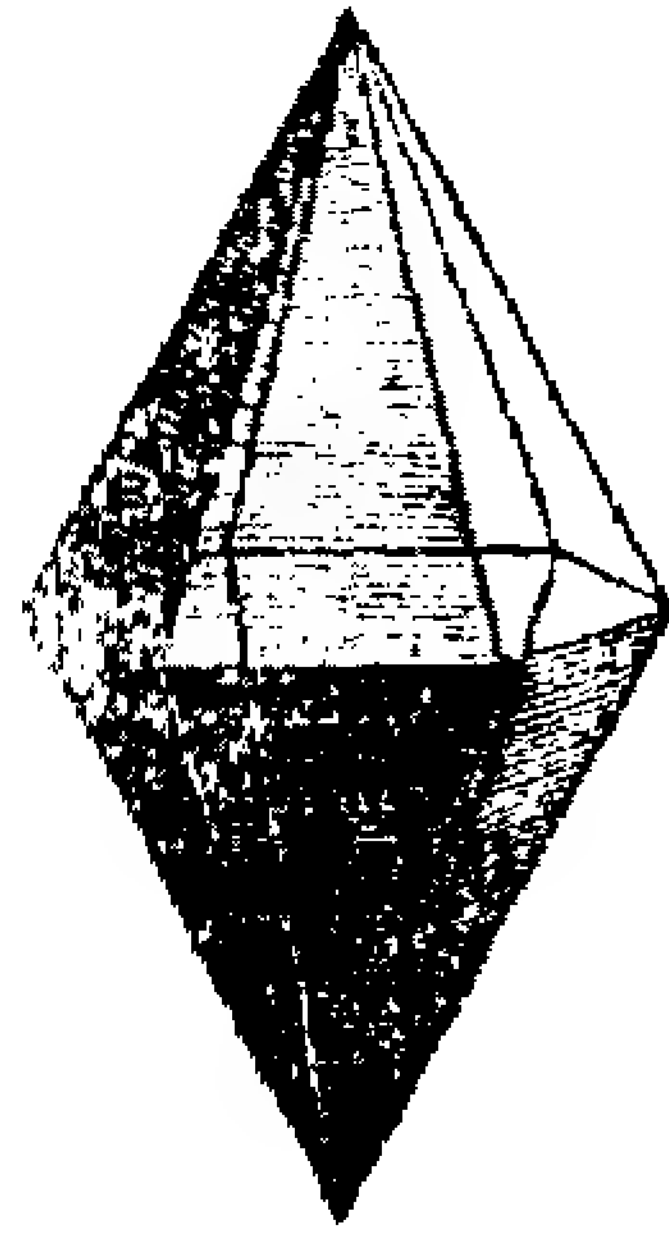
(٧) ثم أذكر ما يقرب منه وهو الزنبور، وكيف يغلف عشه بما يشبه الورق فيكون ذلك العلاف سببا لدفع صفاره داخل خلاياه التي بناها ونظمها .

(٨) ثم أختتم المقام بذكر النمل وعجائبه التي لم يسبق لها نظير مثل النجارين منه والبنائين الذين يبنون أبراجا ستري بعضها قريبا . واليك تفصيل ما أجلناه :

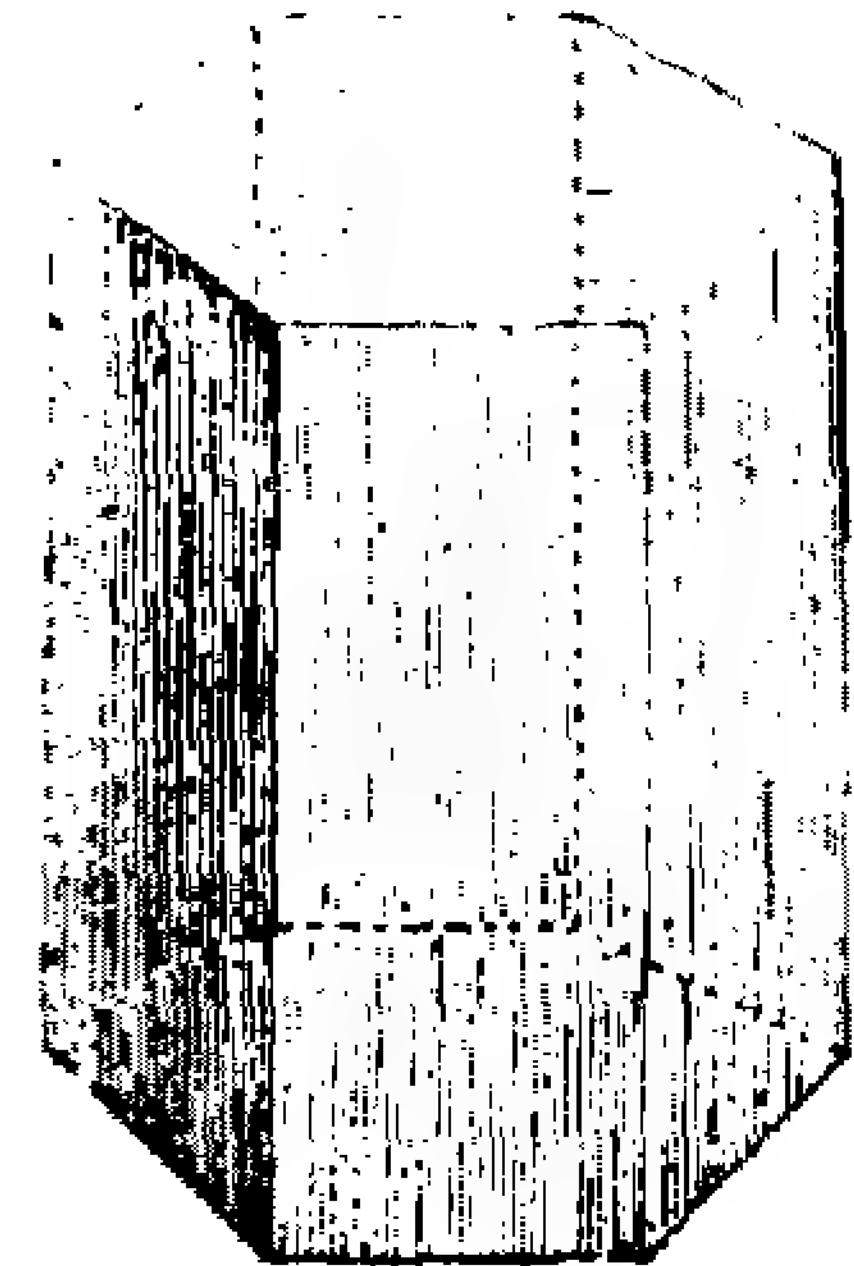
فأولا لا أقف عند ما في الجماد من إبداع وإتقان ونظام مثل [الزمرد] (انظر شكل ١) . ومثل الياقوت الأزرق الباوري (انظر شكل ٢) . ومثل الزمرد الباوري المركب (انظر شكل ٣) . ومثل أحد الأحجار الكريمة المخضر لونه المسمى بالفرنجية [برل °] (انظر شكل ٤) . ومثل الحجر المسمى [كوارتز] (انظر شكل ٥) وهاك أشكالها :



شكل ٣ زمرد بلورى مركب

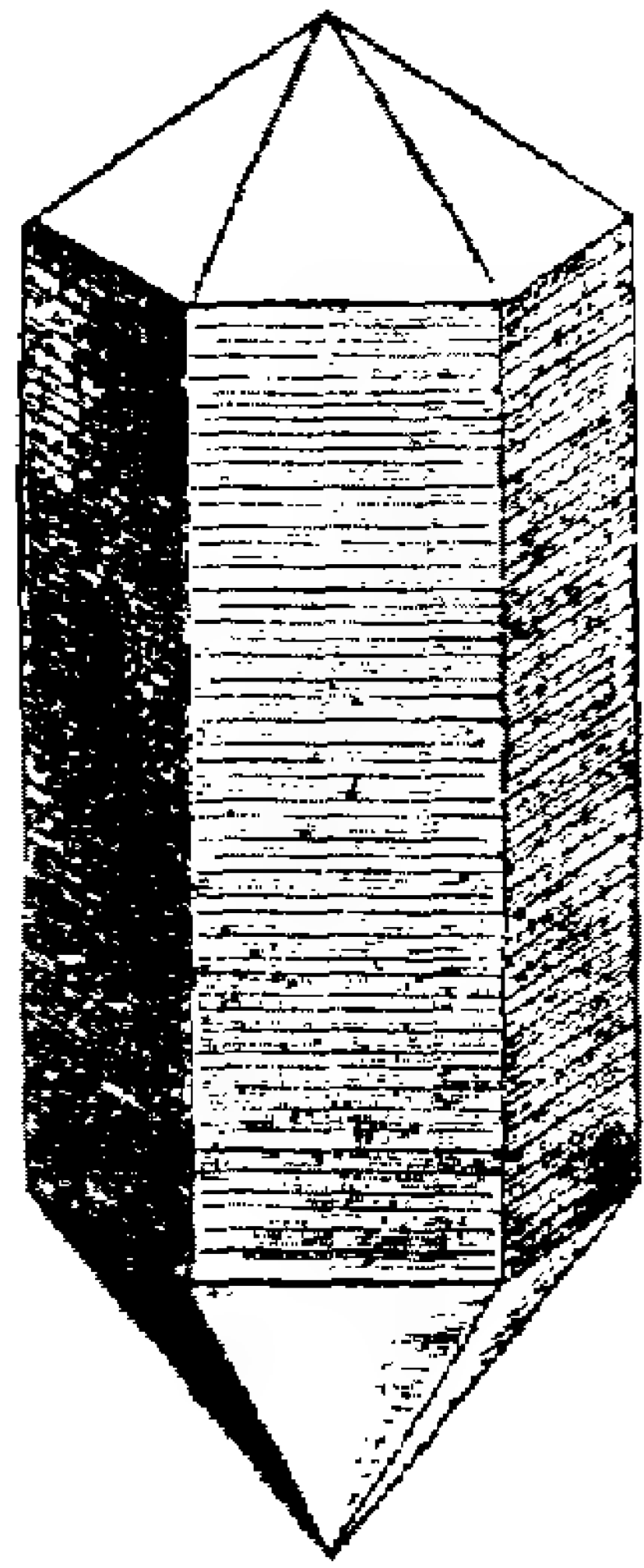


(شكل ٢)



(شكل ١)

الزمرد البلورى



(شكل ٤ - برل البلورى ذى الخطوط الطويلة) (شكل ٥ - كوارتز البلورى ذى الخطوط العرضية المقاطعة)

فهذه الأنواع الخمسة من الأحجار الثمينة تراها ونرى غيرها في الطبيعة على هيئة البلور مستدسة الأشكال منظمة الأوضاع ، بهجة الألوان ، زينة للدنيا ونورا للعلماء المفكرين ، فهل أقف عند هذه وحدها نموذجاً للميزان المنصوب في الأرض والسماء ؟ كلا . بل أقف بذكر الميزان في النبات فأقول :

ثانيا : نرى الحكمة كما سرت في الجماد ونظمته وأحكمته سرت فيما هو أرق منه وأبدع وهو النبات كما تقدم في قوله تعالى في [سورة الحجر] : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء سوزون » . وفي هذا التفسير من وزن النبات ما يذهل الأبواب ، فبأي مقام أذكرك أيها الدكي ؟ :

(١) أبلذكور في سورة [ق] .

(ب) أم بالذكور في [سورة حم فصلت] .

(ج) أم بما قبل ذلك في [سورة يس] .

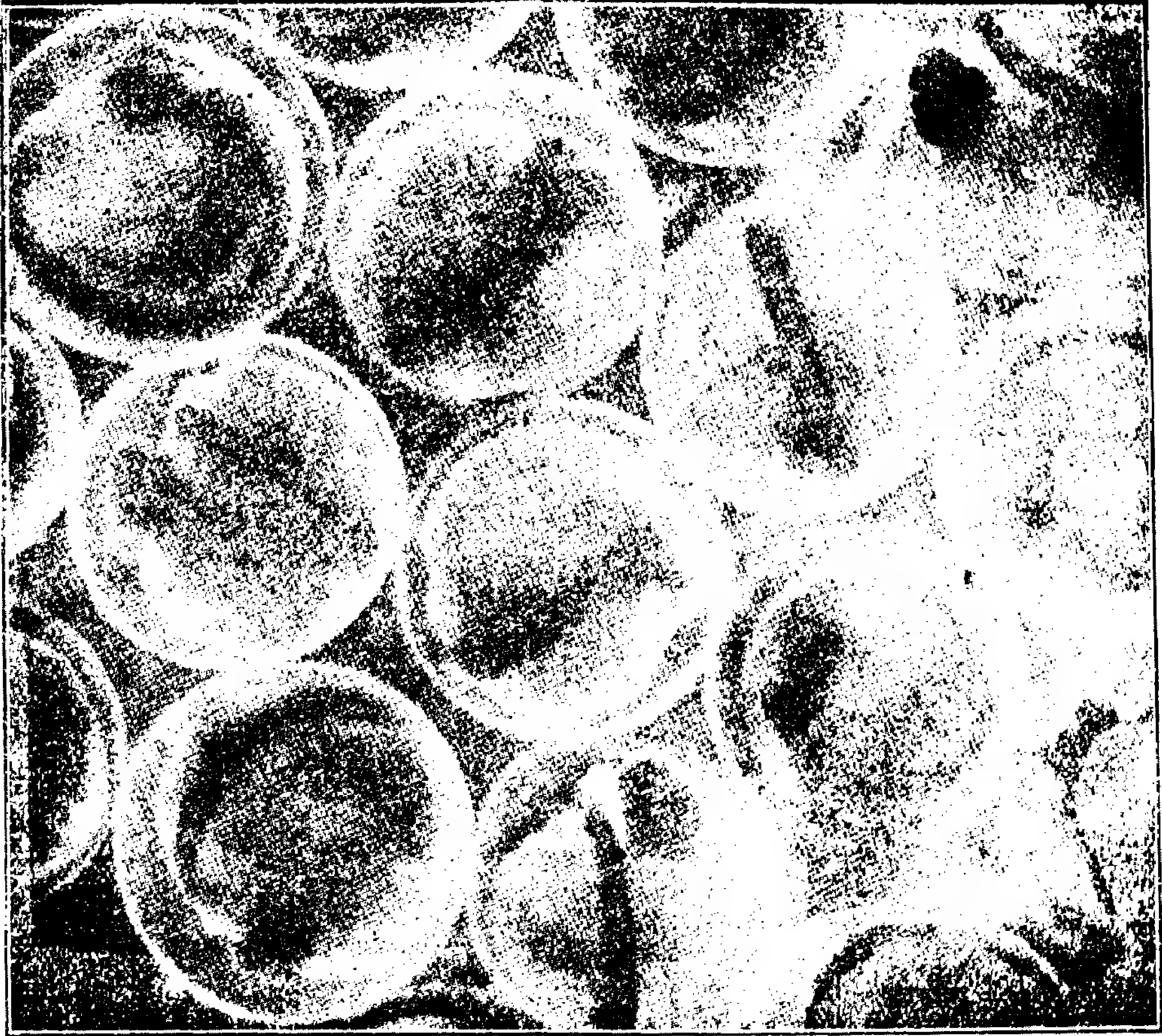
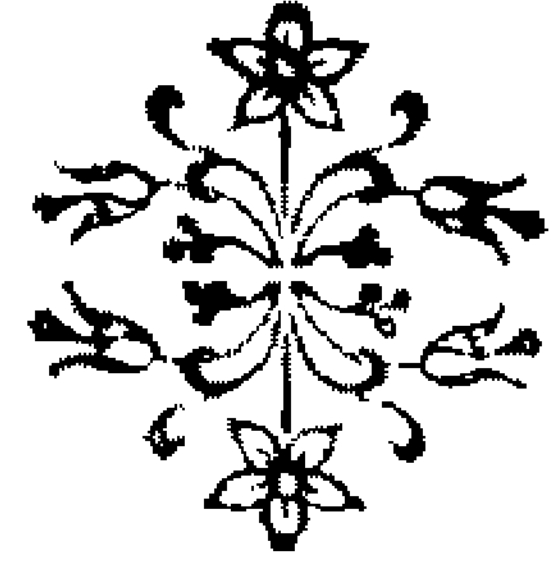
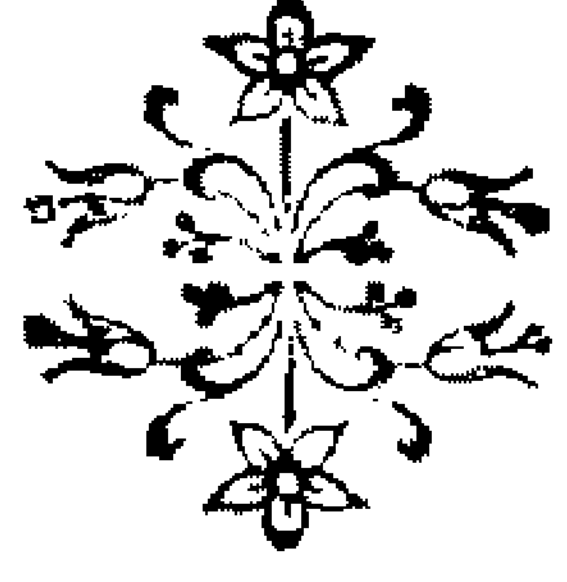
(د) أم بالذكور قبلها في [سورة فاطر والسجدة] من تلك الصور البديعة العجيبة ، والأشجار المونقة البهجة الجميلة ، وأشكالها ، وتشرح سوق الأشجار وانتظام حلقاتها بعدد سنينها من بدائع الحكم المودعة في النبات ، وكيف كان للأشجار طبقة فوق قشرتها تمنع الماء في داخلها أن يبخر ، وتحتها طبقة أخرى تمتد منها شعرات تمنع شدة ضوء الشمس من طغيانها على النبات ، وربما ملئت بسائل حريف أو مر أو نحو ذلك مما يمنع الحيوان عن تعاطي ذلك النبات ، وهناك عجائب الطبقات الخشبية التي جعلت ناقلة الغذاء من الساق إلى فروع وأوراقه ، وعجائب اللحاء التي توصل العصارات التي اكتمل نضجها في الأوراق إلى بقية الأجزاء في النبات ، فلقد تقدم هذا هناك موضعا بصورة العجيبة ، ودروسه المنتظمة ، فقرأه على مكث .

(هـ) أم بما ذكرناه في [سورة الحجر] عند آية : « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » وهناك ترى شجرات مرسومات منتظمات الدوائر الحاصلات من منابت الأوراق ، وفيها بدائع تذهل العقل ، وتبهج النفس ، فبينما نحن نأكل التفاح ، ونفكر به ، ونظن أن هذا هو المقصود منه في حياتنا ونفرح به ونقول الحمد لله ، إذا نحن نرى حياة جديدة ، نرى الأوراق التي لانا به لها قد جعلت كل خمس منها مشكلات لدائرة تامة ، بحيث يكون بين كل ورقتين ٧٢ درجة من ٣٦٠ درجة من الدائرة . وفي كل دائرة تامة شكلان حلزونيان ، ومن عجب أن الورقة الأولى من الدائرة الأولى على خط مستقيم مع الورقة الأولى من الدائرة التي فوقها ، وهكذا الورقة الثانية فيكون هناك فوق نظام الدوائر التامة والأشكال الحلزونية أمر آخر وهو الخطوط المستقيمة المنتظمة فيما بين النظائر في الدوائر ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أصبحت هناك نسبة بين تلك الأشكال الحلزونية ودوائرها مع كل الدوائر الأخرى في نباتات كثيرة وأشكالها الحلزونية ، حتى أنك ترى هناك سلسلة حسابية منتظمة تسرى في كل نبات . ولما كان هذا قد تقدم فلا حاجة لاعادته هنا ، وكفى ما ذكرناه تشويقا لمراجعته . هذا هو الميزان في النبات وهو المقام الثاني .

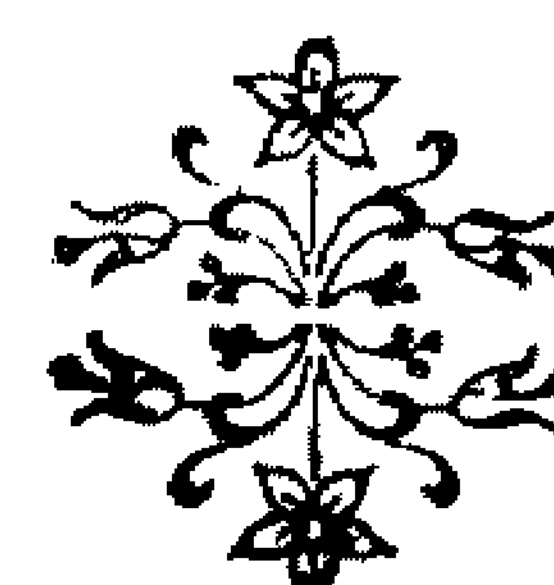
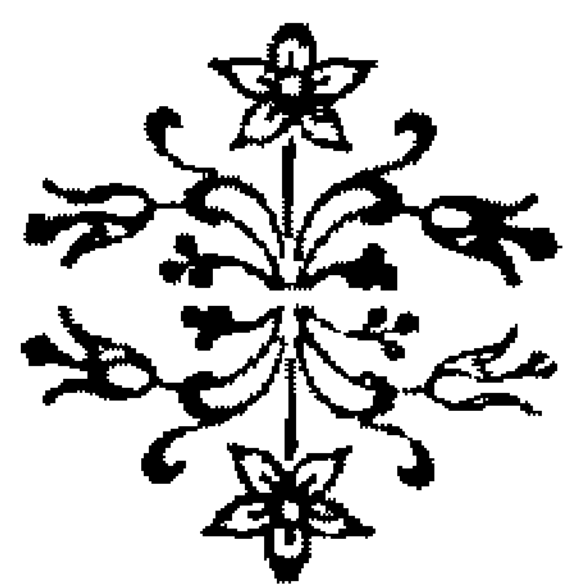
ثالثا : فلأخط خطوة فوق ما تقدم إلى حيوان البحر لأنه مقدم على حيوان البر مكتفيا بذكر سمكة تسمى [بلاس] أو [بليس] بأماله اللام فأقول :

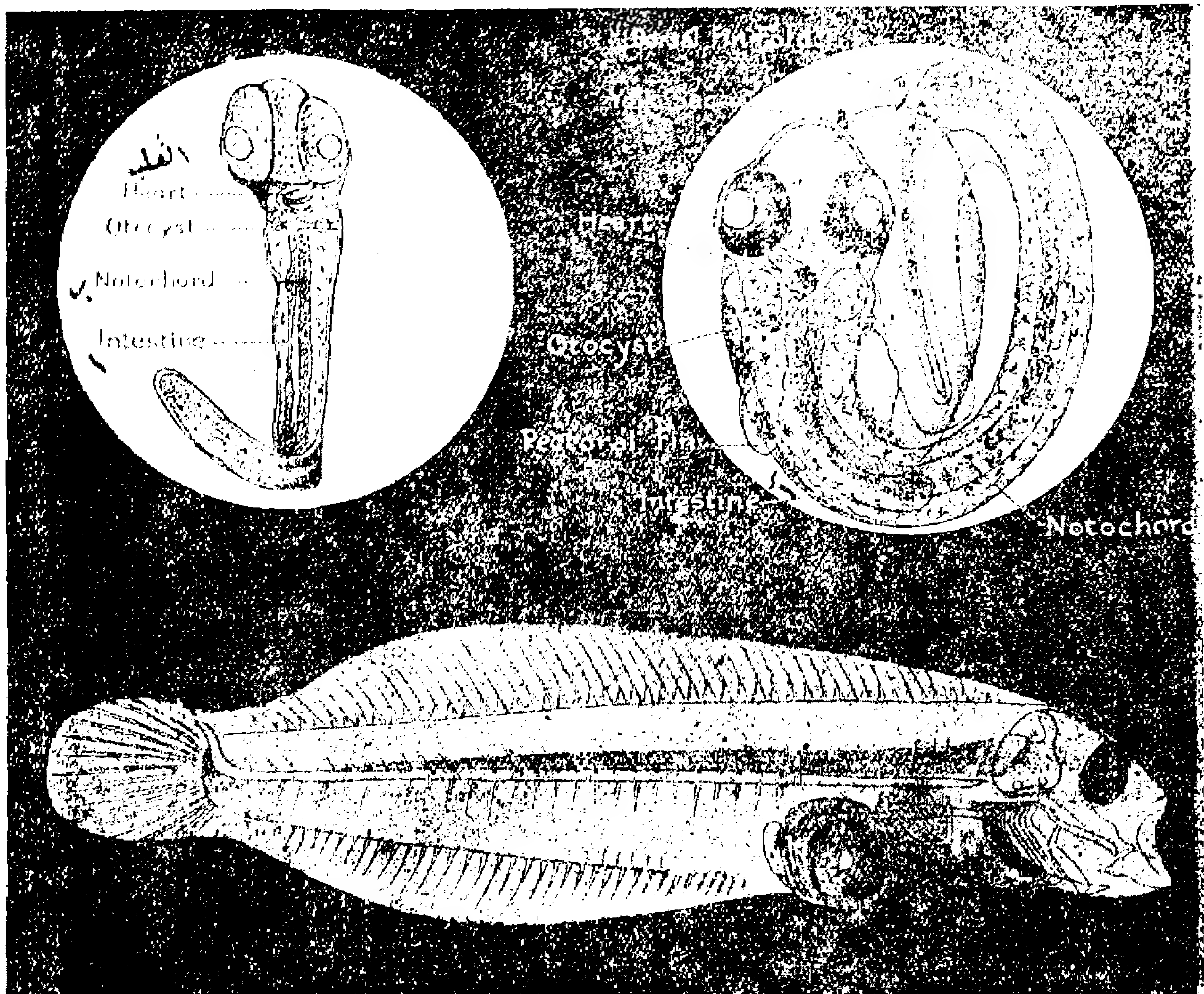
« إن هذا السمك الذي يشبه ما يسمى في بلاد مصرية [القنومه] والواحدة منه تضع نحو نصف مليون بيضة ، وكل بيضة يبلغ قطرها جزءا من ١٢ من البوصة ، وهذا البيض يكون عائما قرب سطح الماء ، ونمو الجنين في البيض يمكن ملاحظة درجاته المختلفة في داخل البيض ، (انظر شكل ٦ في الصفحة التالية وشكل ٧ في صفحة ٣٥) .





(شكل ٦ - نمو سمك پلاس)





(شكل ٧)

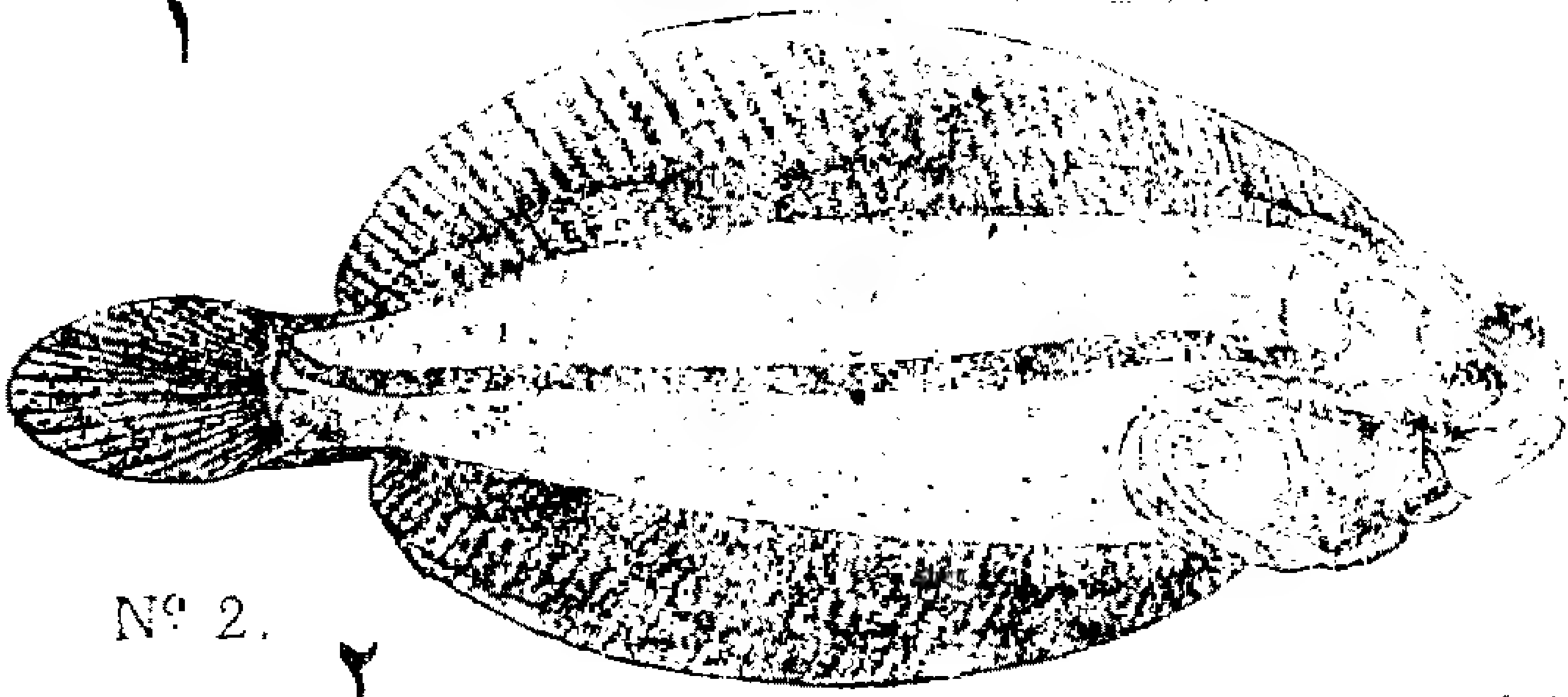
نمو السمك بلاس

- (١) إن الصورة العليا اليسرى ترينا جنين السمكة في اليوم التاسع بعد الاقحاح ، والنقط الصغيرة عبارة عن حواصل ملونة ، والحجم الطبيعي أقل من جزء من ١٢ من البوصة .
- (٢) الصورة العليا اليمنى ترينا الجنين مستعدا للخروج من البيض بعد ١٧ يوما بعد الاقحاح . الخلايا الملونة بالسواد أخذت الآن تظهر .
- (٣) والصورة السفلى ترينا السمكة الصغيرة نحو ثلاثة أسابيع من البوصة ، وهاهي ذه أخذت الآن تأكل [المح] (صفار البيض) وقد التهمت جميعه . ثم انظر شكل ٨ في الصفحة التالية .

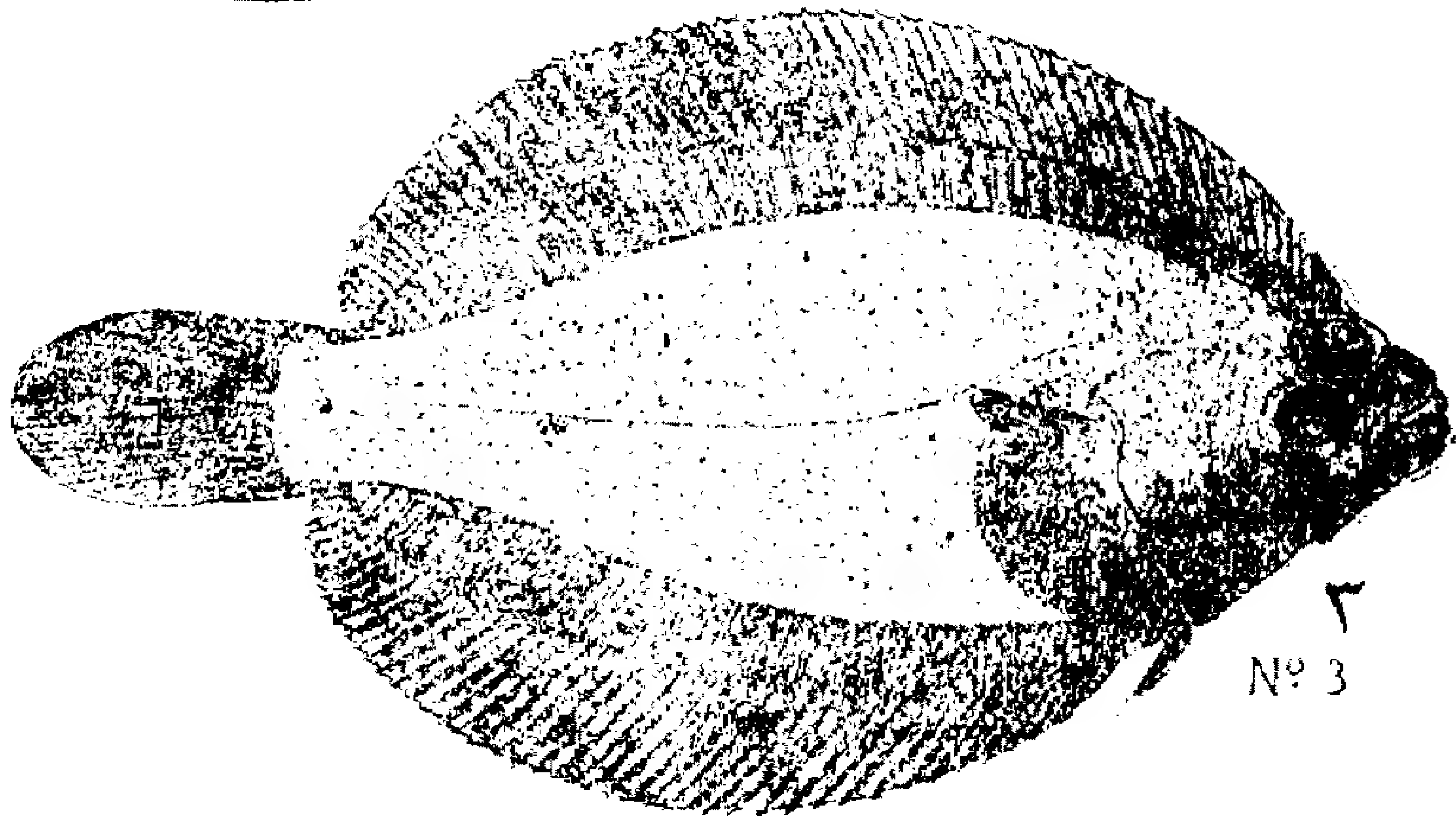




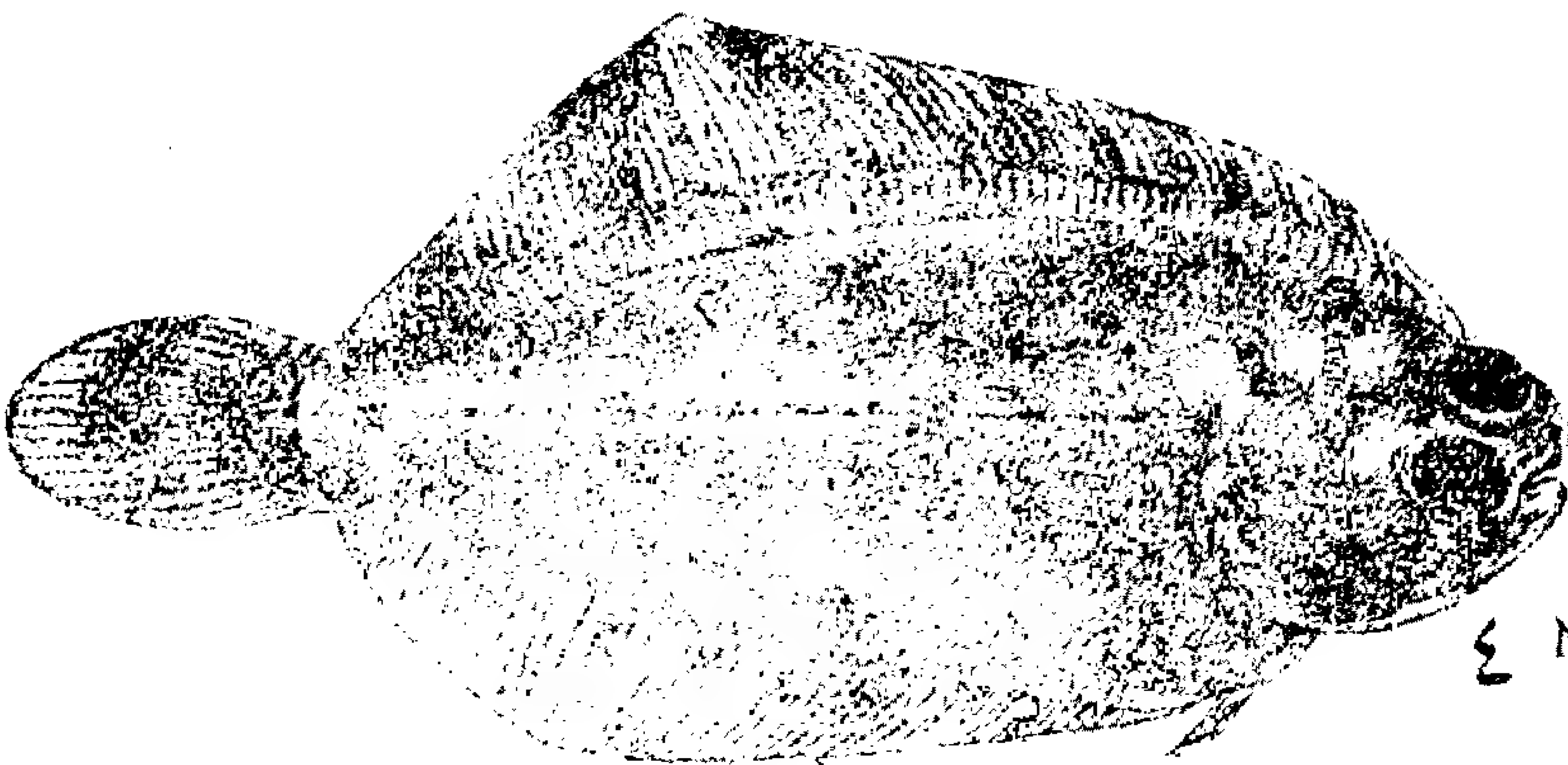
N° 1.



N° 2.



N° 3



N° 4.

(شكل ٨)

- (١) هامى السمكة الصغيرة تامة مع التوازن الممهور فى السمك .
- (٢) ترينا تنبرا واضعا بنجاح . فالجسم أصبح الآن مسطحا من ناحية الى الأخرى . والعين اليسرى صارت مدورة للجهة اليمنى مائلة نحو الجنب . وضوؤها الى الآن لا يصل الى نصف البوصة .
- (٣) سمكة « شابة » (وهو تعبير مجازى) وصلت الآن قاع النهر ، هى استرخت تارة وتقوم أخرى على جنبها الأيسر وقد صار طولها بوصة .
- (٤) سمكة شابة فى قاع البحر وحوصلاتها الملونة قد أخذت تنحو نحو الجانب الأيمن وهى لا تظهر من الجهة اليسرى نحو الجانب الذى هو ففى اللون . أما العينان فانهما جنباً لجنب متجهان الى أعلى نحو الجانب . انتهى المقام الثالث فى السمك .

رابعاً : هل أقف عند السمك في الميزان ؟ كلا . بل هناك ما هو أجلّ منه وهو عالم الحيوان الذي هو أرقى منه ، ولقد مرّ في سور كثيرة في البقرة والأنعام ، وسورة المؤمنين ، وسورة النور ، وسورة السجدة ، وفاطر ، وسورة حم فصلت وغيرها ، وكنت أودّ أن أذكر هنا الحيوان الذي يعيش في البرّ وفي البحر كعالم الضفادع تميها للأقسام ، ولكن ينبغي من ذلك أنه قد تقدّم مفصلاً موضعاً بالصورة في [سورة البقرة] في الطبعة الثانية فانه هناك أوضح وأجل وأبداع مما كتب عنها في [سورة طه] .

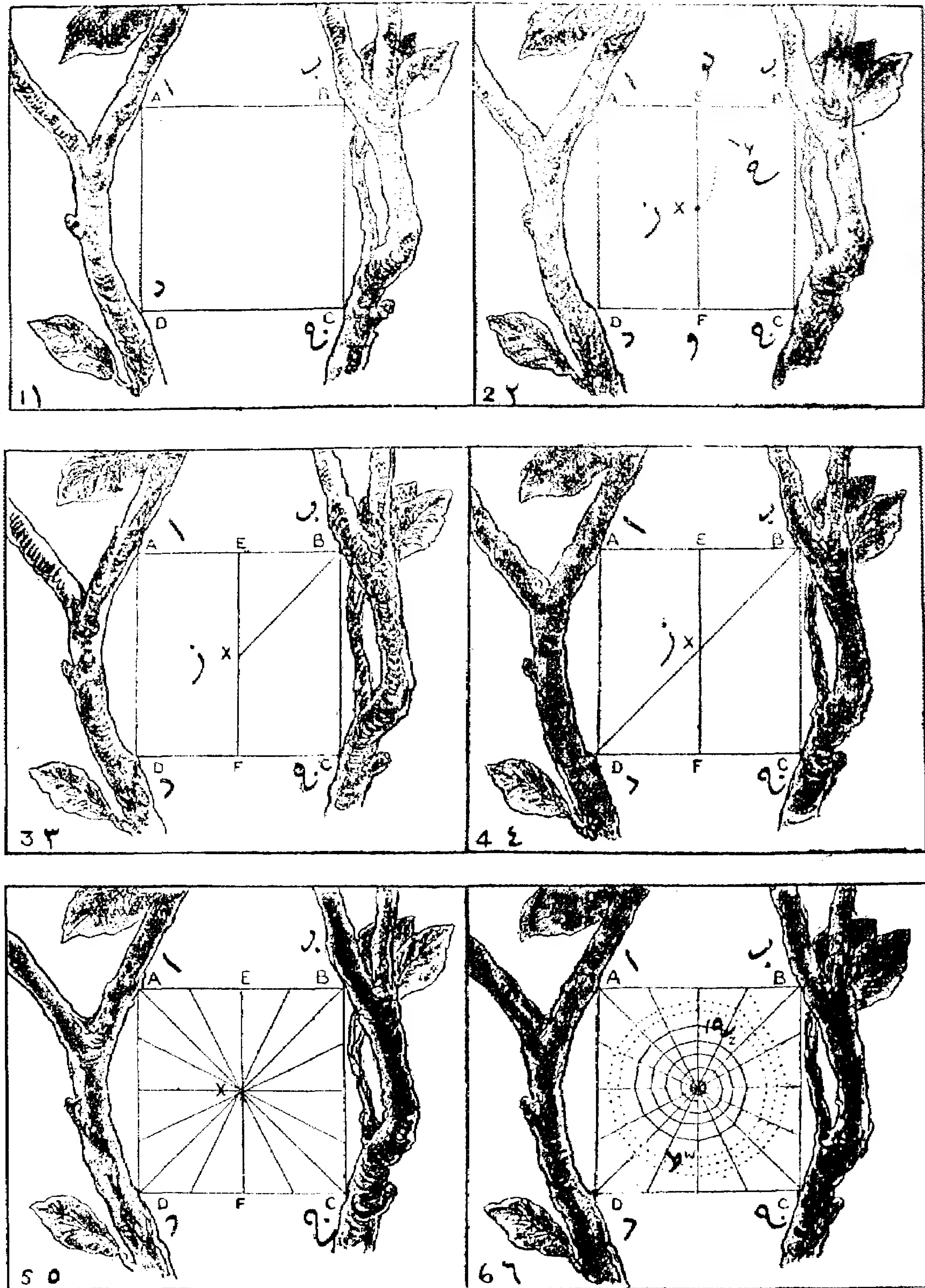
ألا ترى رعاك الله أن فيه نوعي الضفادع وكيفية نموّ أجنحتها ، وحسن إبداعها ، واثقان صنعها ، وكيف يرى بيضها في الماء على هيئة الخطوط المتوازية ، ولقد فاتني هناك أن أذكر أن الذي حببني في شرحها أني حينما نظرت ذلك الرسم خطر لي خاطر كان يسئح لي وأنا تلميذ بدار العلوم ، ذلك أننا كنا نتعلم فنّ الرسم وكنا نرسم خطوطاً منتظمة ، فكنت في أثناء الرسم أتفكر في [أمرين : أولهما] أني في هذا العمل أعتبر نفسي في طاعة لله تعالى ، وهذا كان شأني في جميع الأعمال [ثانيهما] اني كنت أثناء الرسم أحسّ كأنني في عالم السموات الذي هو عالم منظم ، ورسم هذه الخطوط يذكّرني به .

هذا هو الذي كان يدور بخليدي أيام الدراسة ، فلما رأيت رسوم الخطوط لبيض الضفادع المتوازية أذكرني ذلك فرسمتها وشرحتها ، والحمد لله رب العالمين .

ولكني لا أقف في الميزان عند حدّ الحيوانات البرية والبحرية . كلا . فلا تثقل للكلام على العنكبوت وهي من الحيوانات التي لا تعيش في غمرة الماء ، وبهذا نبدأ الكلام على عجائب جديدة لم تكن من قبل وبيان أن ما تقدّم في الأحجار الثمينة والنبات والسمك والضفادع ، ان كل ذلك إلا صنعة لم ترّ صانعها ، فأما هذه الصناعات التي نريد دراستها المبدوعة بصناعة العنكبوت (التي لم يسبق إيضاحها في سورته كما هنا) فان أمرها عجب ! نعم عجب للحكيم ، أما الجهال فهم فريقان : فريق هم السواد الأعظم لا يعرفون من العنكبوت ، ولا من النحل ، ولا من الزناير ، ولا من النمل إلا ما عيس عواطفهم كراهة وحباً ، فيعتبرون من العنكبوت ، ويفرحون بالنحل ، ويخشون الزناير والنمل .

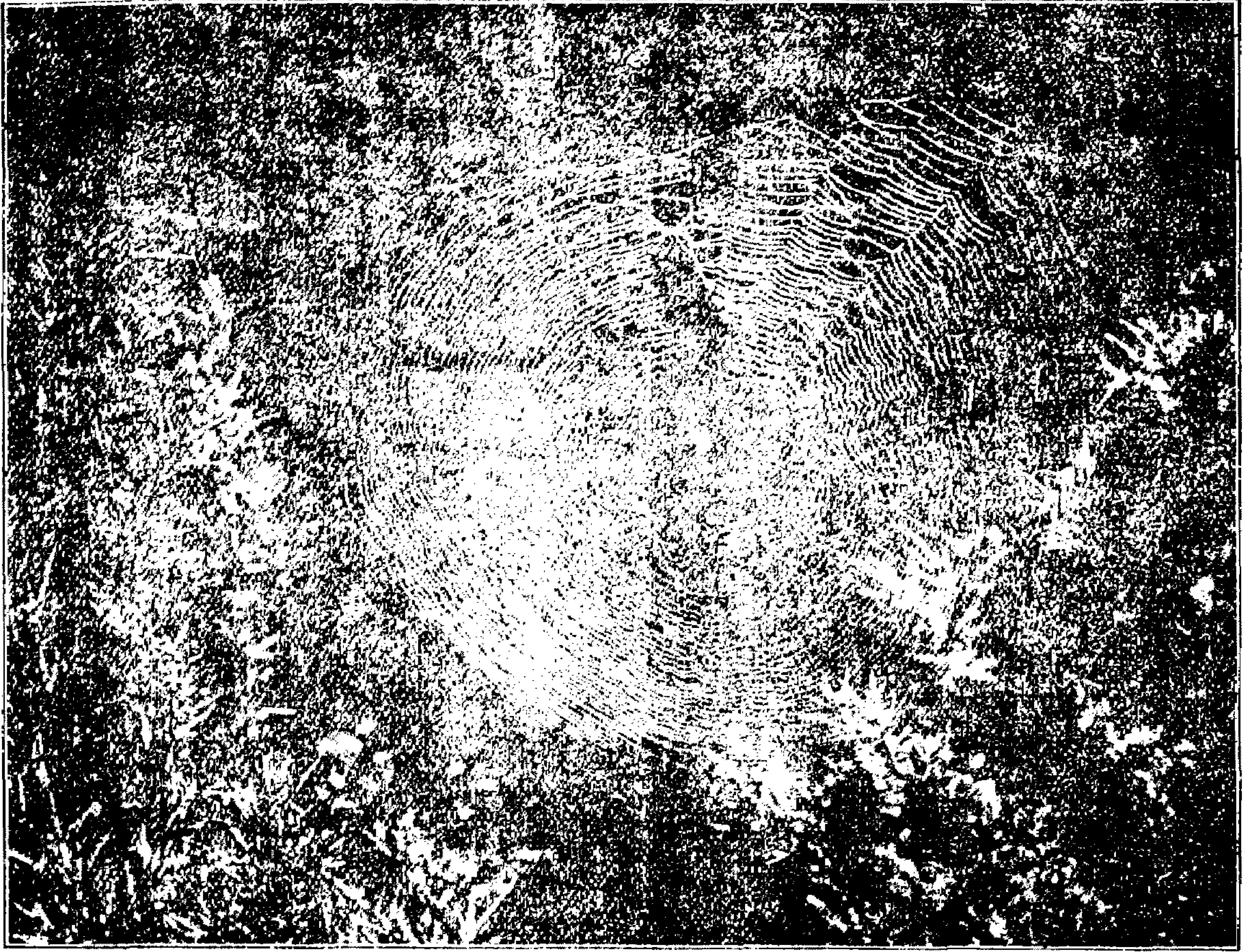
هذه آراء أغلب نوع الانسان في أرضنا ، ويلحق بهمسم أكثر أولئك الذين يتعلمون في مدارس الشرق والغرب علم التاريخ الطبيعي ، فهؤلاء يقرءون هذه العلوم وأكثرهم لا يدرسه إلا كما يدرس علم النحو أو علم الزراعة كأن أرواحهم لا تعرف إلا الامور المحسوسة ، أما التفكير والتذكر بل السعادة الحقيقية فانها هاربة منهم ، بعيدة عنهم ، رحلت من عقولهم ، فهم لا يعقلون ولا يسعدون ، وفريق آخر وهم أقلّ هذا النوع الانساني اذا درسوا أمثال ما سذكروه هنا فانهم يدهشون ويقولون نعم رأينا الابداع في الأحجار الثمينة البلورية وفي النبات وفي السمك وفي الضفادع ، لأن الذي صنع هذا هو صانع العالم فلا غرابة في ذلك ، إنما الأمر المدهش أن صانع النسيج العنكبوت هو نفس العنكبوت ، وصانع خلايا العسل إنما هو النحل ، ويقرب منه الزنبور ، ونرى في النمل والنحل بنائين ونجارين ، وضباطاً وجيوشاً ومربين .

فما هذا الحادث الجديد ؟ فهؤلاء يرون أن هذه العوالم ماهي إلا كتلاميذ تربوا في بيت الحكيم وتحت رعايته فقلدوه ونحووا عمله ، وهل عمله إلا النظام المحكم ؟ مثلاً شكل ٩ وهو رسم بياني لنسيج العنكبوت (انظر الرسم الآتي في الصفحة التالية) :



(شكل ٩)

- (١) أربع خطوط أصلية (٢) أول خط رأسى (هـ و) . (ز) مركز (ح) كيفية صنع الخط الشعاعى .
 (٣) : (ز ب) خط شعاعى . (٤) : (ز د) خط شعاعى آخر .
 (٥) خطوط شعاعية صنعت أولاً فى جانب ثم صنعت بعد ذلك فى جانب آخر ، وليست هذه الخطوط كلها متساوية .
 فهنا أخذت العنكبوت تم نسجها بنقان .
 (٦) الخط الاسود الخرزونى الأولى الملتف بعضه فوق بعض ينتهى عند (ح) وأما الخط الخرزونى المنقط : أعنى الخط الثانوى الخرزونى فانه ينتهى عند (ط) .



(شكل ١٠ - نسيج عنكبوت الحقائق)



هذه صورة شمسية للنسيج عنكبوت الحقائق ترىنا الخط الأعلى الأساسي للنسيج وهولزج ، وهذا الفساج جالس في الوسط ، وربما غادرت العنكبوت ذلك المركز ، وحينئذ يحمل معه خطا بسيطا به يقدر أن يميز أى ذبذبة تعرض في النسيج فكأنها أشبه بآلة التلغراف (البرق) انتهى الكلام على القسم الخامس سادسا : وهذا القسم ليس كافيا لمعرفة الميزان ، فهنا نبدأ في الكلام على النحل فنقول :

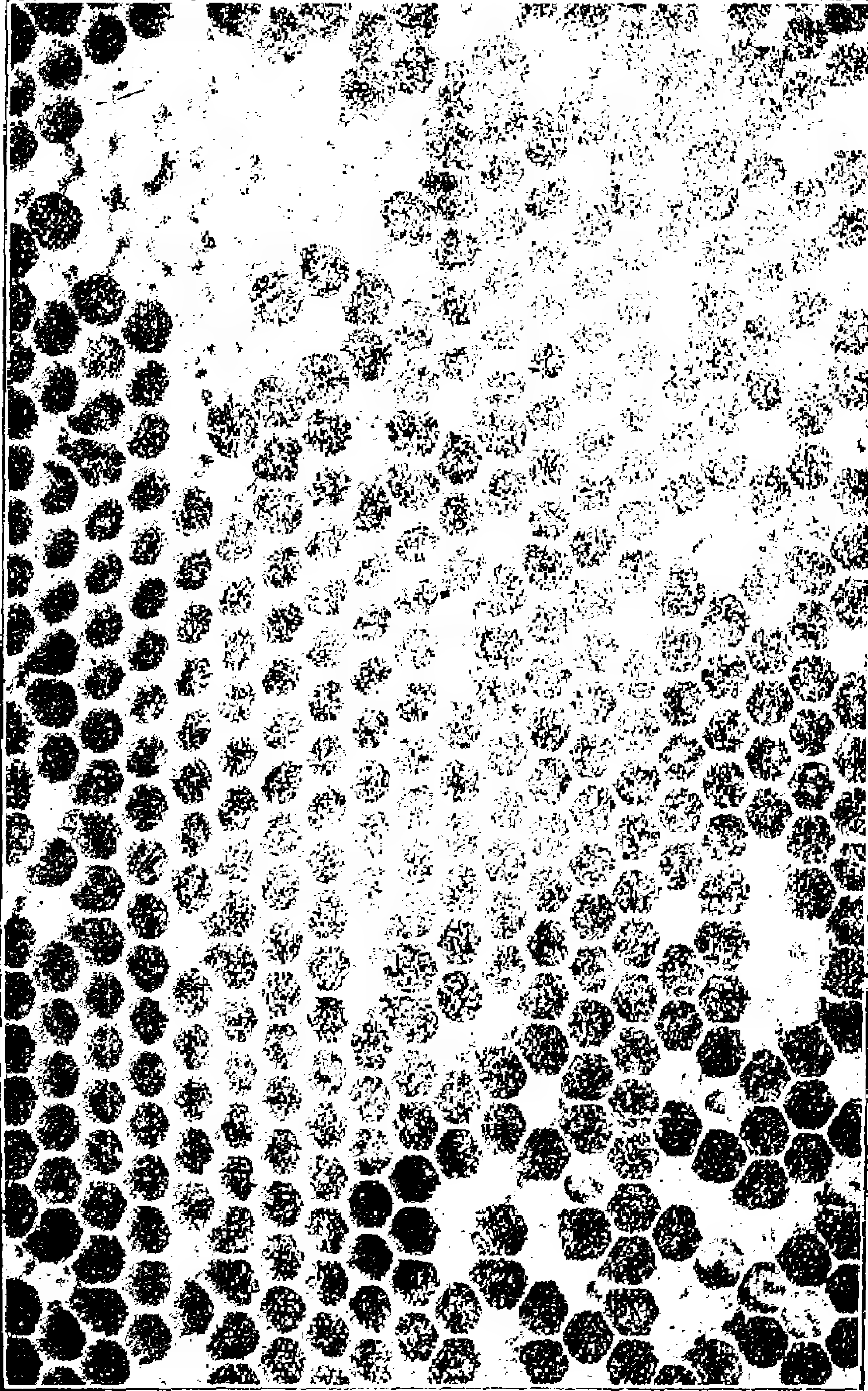
نبتدى بذكر نبات يسمى [سم النمر] يشترك منه النحل العسل وهذه صورته

(انظر شكل ١١)

(شكل ١١ - نحل العسل حاملا حشرات الطلع الصفراء من هذا النبات المسمى « سم النمر »)

هاهوذا نحل العسل حاملا كرات الطاع الصفراء من هذا النبات المسمى [سم النمر] بالفرنجية وهو بالعربية [عابد الشمس] .

إن بعض الأزهار يجمع منها النحل ما يصير في باطنه عسلا ، وبعضها يجمع منه ما يصير غذاء للذرية الصغيرة ، وهي الدود في الخلايا ، وهناك أزهار تصلح للحالين معاً ، ويوضح ذلك (شكل ١١) المتقدم .
ثم انظر شكل ١٢



(شكل ١٢)
قرص عريض ، قرص النحل مع خلايا تحوى دود عاملات النحل
وهي التي تسمى عادة [الشغالة]



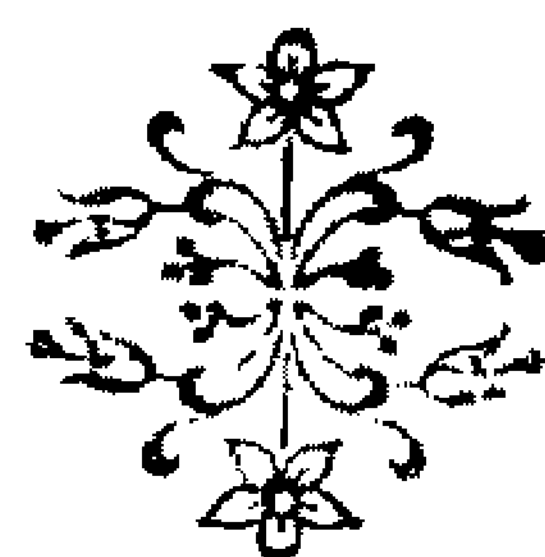
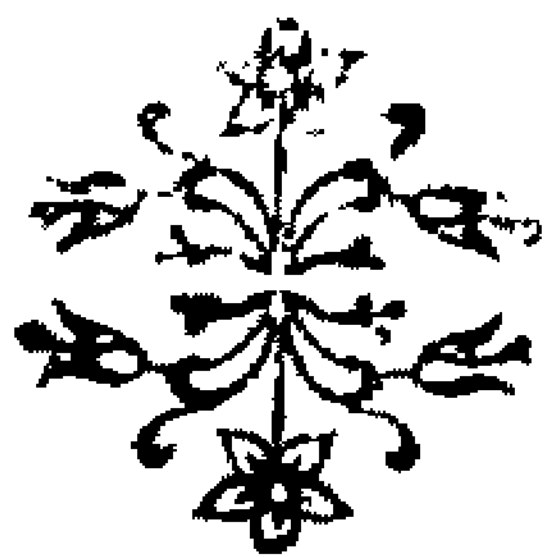


(شكل ١٣ - قرص غسل النحل يشتمل على ذكور النحل وعاملاته والخلايا التي فيها العسل)

إن الخلايا التي تربي فيها العاملات من النحل هي الصغريات ، أما التي ينمو فيها الذكور فأنها أوسع ، وأما التي فيها الملكات فأنها أكثر اتساعاً ، وليس في قفيرة النحل ما يزيد على ست ملكات .
 إن الخلايا الخازنات العسل تساوى في حجمها الخلايا التي تربي فيها ذكور النحل ، هذه القطعة من قرص العسل موضوعة وضعا رأسيا عموديا . ثم انظر شكل ١٤ في الصفحة التالية .



(شكل ١٤ - طائفة من النحل مزودة على شجر التفاح)





(شكل ١٥ - عش النحل الحجري)

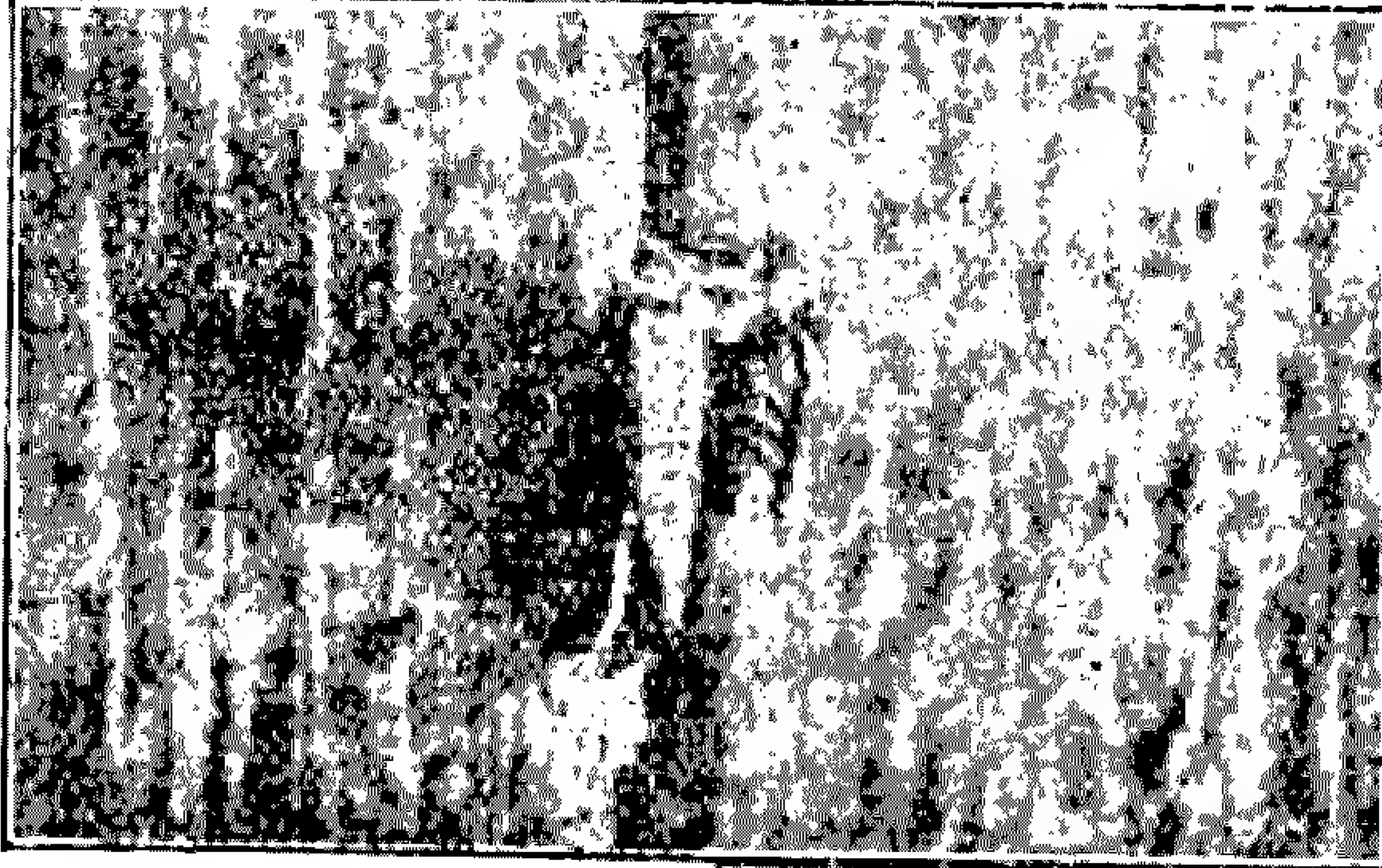
في هذا العش قد نزع القطاء الرقيق من فوقه ليظهر القرص وخلاياه ، وقد كسرت خليتان من أعلاهما الدودات الصغيرة السمينة البيضاء وهي ذرية النحل ، إن هذه النحل تعرف بنقطة جراء في انتهاء ذيل جسمها الاسود ، وهي لا تصنع عشا أبدا إلا تحت الحجر . ثم انظر شكل ١٦ وهذه صورته :



(شكل ١٦ - هذا عش للنحلة المفردة وحدها في هيكل قوقعة الحقائق)



ترى في الشكل المتقدم (شكل ١٦) نوع النحل الذي يعيش في عزلة منفردا عن غيره ، وإن يعيش إلا في مكان مجوف ، والقوقعة الوسطى تريك نحلة حديثة الولادة قد خرجت حالا من شرنقتها ، والصورة اليمنى عبارة عن قوقعة قد كسرت فظهرت فيها الدودة الصغيرة التي تنقلب فيما بعد ذلك شرنقة ، وفي كل قوقعة دودتان دائما إحداهما ذكر والثانية أنثى .



(شكل ١٧)

(المليا) النحل المستقل بنفسه قطاع الورق الذي حجمه بقدر حجم نحل القفير يقطع الورقة ليتخذ منها بهذا القطع خلية انظر النحلة تعمل . وترى في الجزء الأعلى الأيمن من الورقة فجوتين مقوستين مرتبتين منظمتين ، وقد قطع منهما أجزاء من الورقة . والنحلة تراها في إحدى الفجوتين وقد خفيت تحت جسمها



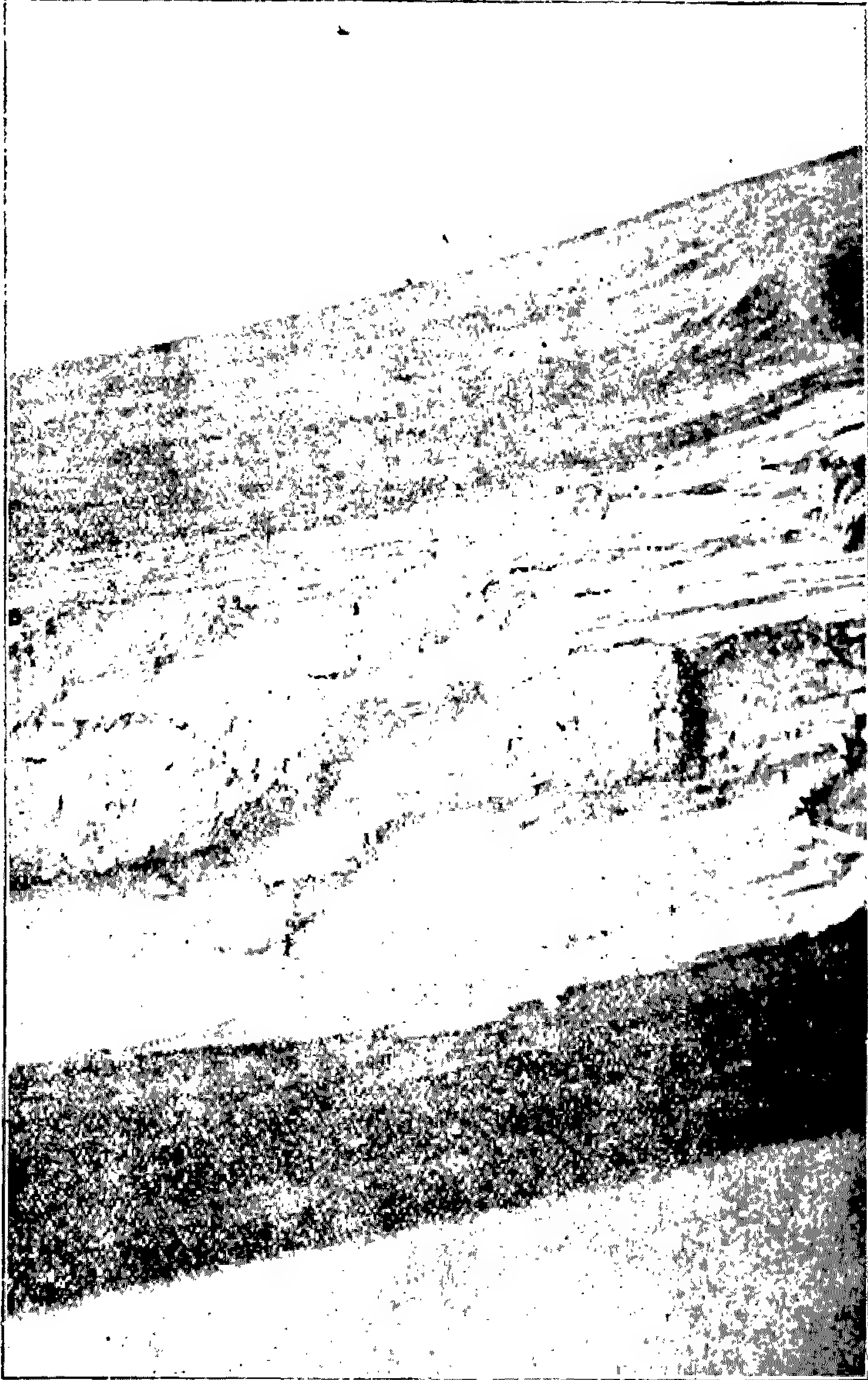
(الوسطى) وهنا النحلة تحمل قطعة من ورقة الورد للخلية ثم الخلايا مركبات من قطع من الورق مقوسة على بعضها . والاعطية مصنوعة من القطع الصغيرة .

الخلايا تامة

(السفلى) الاعشاش مصنوعة في التجاويف والخلايا مرتبة منظمة . آخر كل خلية متصل بالآخر الاخرى يظهر من الشكل . انها لمغتبطة بما صنعت . ان كل خلية مملوءة الى نصفها بالافاح وتحتوى على بيضة مفردة . ثم انظر شكل ١٨ في الصفحة التالية .



(شكل ١٨ - النحل الثاقب الخشب متعلقاً بفكيه في حالة سكون)
 هذا النحل ثاقب الخشب أو النحل النجار يمضى فصل الشتاء في حالة حياة ، وقوفة لأعمل له اللهم الا انه عادة يبحث عن
 زاوية ليتخذها مأوى . ثم انظر الشكل الآتي في الصفحة التالية .



(شكل ١٩ - خلايا النحل ثاقب الخشب)

هذه الخلايا المريضة التي صنعها النحلة القوية المتينة مصنوعة من قطع خشبية قد
اقسقت وانتظمت بواسطة اللعاب الذي يفعل فعل الغراء . ثم انظر شكل ٢٠ الآتى في
الصفحة التالية .



(شكل ٢٠ - النحل الثاقب للخشب وهو خارج من خليته)
 هذه الخلايا التي ينمو فيها جنسين النحلة تكون عادة في أروقة مستطيلة بعريش أساسي مثقوب في
 الخشب ، وهذه التي ترى في أسفل الصورة مفصولة من مركزها الطبيعي والنحل النجار (كما يسمى عادة)
 أدكن اللون ذو شعر وهو معزل مستقل له قوة عضلية ، وهو بها قوى متين . ثم انظر شكل ٢١ وهذه صورته

هذا الشكل أبان

خليتين ونحلتين ، النحل
 البناء المستقل المنفرد قد
 صنع عشا في غاية المتانة
 والقوة من الأرض مخلوطا
 بسائل من ريقه ، وهذا
 الريق يستعمل للصق
 الحصىات المصطفيات
 بحذق ومهارة تامتين ،
 إن الخلايا حينئذ مملوءات
 إلى أنصافهن بنوعين مما
 جنته النحلة وهما الطلع
 والعسل ، وبعد أن توضع
 البيضة تقفل الخلية بمادة
 الأسمنت . انتهى الكلام
 على النحل .



شكل ٢١ - النحل البناء

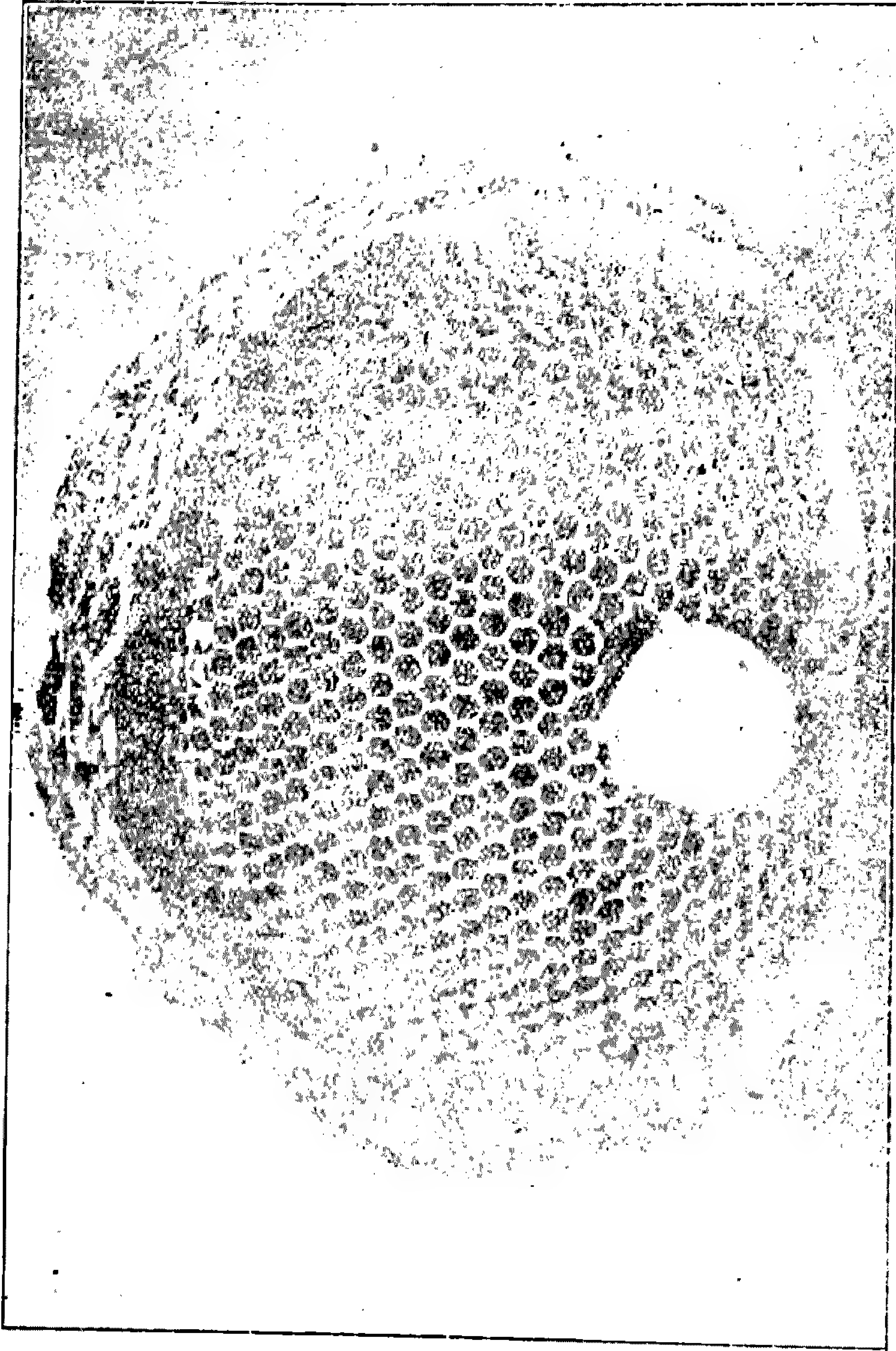


(شكل ٢٢ - عش زبارة الحش)

إن عش هذا الزنبور المعتاد يبنى من أغصان الأشجار ، أو من الأخشاب ، وهذا قرص معلق على آخر

بواسطة

بواسطة حامل عمودي ، والخلايا مغطاة بأغطية مصنوعة أشبه بورق الكتابة عند الانسان (وقد تقدم في سورة طه) أن الزنبور صنع الورق قبل الانسان ، وهذه الأغطية تمنع المطر أن يدخل الخلايا وتحفظ الحرارة في داخلها فتبقى داخلة ، ودرجة الحرارة في داخل الخلايا قد تكون أعلى منها في خارجها ٢٥ درجة بميزان فهرنهايت الخلايا تكون مفتوحة لأجل ادخال الطعام للدود الصغير وهو ذرية الزناير ، فإذا كبر الدود أخذ يفسج شرنقه ويقفل باب الخلية اقفالا من أعلاها إلى أسفلها . ثم انظر شكل ٢٣ وهذه صورته : (١)



(شكل ٢٣ - قطعة من العنكبوت ، أو قرص الزناير من بلاد البرازيل متصلة بنفس من الشجرة)

إن الصورة الشمسية [الفوتوغرافية] ترىنا طبقات بالعش فتحتفظه من الماء والهواء ، وفي داخل خلاياه المسدسة الأشكال ، ينمو البيض فينقب ما في داخله إلى دود ، والدود ينقب شرايق [فيالج] والفياج تصير زناير كبيرة ، والدائرة البيضاء التي تراها عند أسفل العش عبارة عن غصن مقطوع . ثم انظر شكل ٢٤ الآتي في الصفحة التالية .

(١) هذه الصور كلها وما شرحتها به قد ترجمته من مجلة [التاريخ الطبيعي الجديد] الباحثة في عجائب الأرض المدهشة عجائبها الطبيعية لصاحبها الاستاذ البروفسور (ارثور نومسون)



(شكل ٢٤ عش الزنبور البناء)

الزنبور البناء يصنع عشه من الطين في شقوق الحيطان ، ويكون العش غالبا بهيئة طينية خشنة بحيث ترى على وجهه لطح من رشاش الطين غير منتظمة ، وهذه تسكّن سببا لنجاة الزنبور من أن يراه أعداؤه ومع ذلك ترى العش مبنيًا بمهارة فائقة ، حافظا لعناصر بنائه مثبتا لها ، وترى دود الفراش (الذي لسعه الزنبور فلقحه بسمه قد أصبح مشلولا عديم الحركة) مخزونا في الخلايا ليكون قوتا للذرية فيها ، ومتى خزن ذلك الدود المشلول في الخلايا سدها الزنبور ، وهذه الصورة تظهر اثنتين مقفلتين على الذرية وعلى قوتها ، فأما غيرهما فلم يكمل . وإلى هنا تم الكلام على الزنابير والحمد لله رب العالمين .



الكلام على النمل

لقد تقدم الكلام على النمل والنمل والعنكبوت في سورهن ، ولكن ما رسمناه هنا أو كتبناه لم يتقدم نظيره وهو هنا تفسير للميزان العام



(شكل ٢٥ - عش نمل الخشب وهو ثلاثة أقدام ارتفاعا)

ان هذا العش النمل المعتاد المصنوع من الخشب مبنى من إبر الصنوبر وقطع من المعصى ، وهو غالبا فوق القدمين ارتفاعا والمحيط الدائري أربعون قدما ، وترى حجرا لاحصر لعددها وطرقا شتى فى القبة نفسها وفى الارض من تحته ، وطبعا هناك الآلاف من السكان والمداخل الكثيرة الى القبة تقفل عند غروب الشمس ، ولعل ذلك لتدفع الأعداء الصغيرة من الدخول فيها



(شكل ٢٦ - نمل تسوم ماشيتها ، وهى طائر صغير أخضر على غصن من عشب ، وهناك أنواع من النمل تستعمل هذا الطائر الأخضر المسمى [أفيد] كانه قطمان ترى تحت نظرها فى هذا الشجر المسمى [جوز برى])

شكل ٢٧ - الحمل النجار في عمله



التملة التي في جهة اليسار الواقفة في مدخل العش المتخذ في الخشب هاهي ذه تسلم قطعة من الخشب للعامل (العتال) جهة اليمين الذي شرع يحملها ليلقيها بعيدا .





(شكل ٢٨)

هذا البرج الموحش الغريب الخلقة قد شيده النمل الابيض في شرق افريقيا ، ان النمل الابيض ليس من أنواع النمل الحقيقي كـلاء ولكنه يشبهه في أطواره ، فترى فيه أخلاق الملكة والدكور ، والنمل النائم بالعمل ، والمسكر . ان البرج في هذه الصورة الشمسية صنعها النمل من مواد الارض بعد أن مضغها بفكيه وعجنها بريقه ، انتهى ما أردت ذكره في آية « والسماة رفعا ووضع الميزان » والحمد لله رب العالمين .

هذه صفحة من مناظر هذا العالم الذي نعيش فيه ، هذه صفحة جميلة بهجة ، يا الله ما أجل صنعك ، وأبداع اتقانك ، نظمت الأحجار الثمينة الجامدة جعلتها أشبه بالبلور في تسديس أشكالها ، واتقان نظامها ، وجمال هيئاتها ، أرى أننا في هذا الزمان بواطن السمك فدرسنا أعضائه الباطنة مفصلة عضوا عضوا بما أعطيتنا من نعمة التصوير الشمسي وفاء بوعده : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » وذلك لنعرف معنى الميزان ومن أعجب العجب ، وأبداع الخلق ما زادني حيرة ، وأحدث في نفسي نار الشوق العلمي وهو أمر ذرية الضفادع (التي تقدم صورها والكلام عليها في الجزء الأول من الطبعة الثانية من هذا التفسير) . ألا ترى رعاك الله النوع الأول الذي يتربى بيضه في كرات هلامية تلازمه في قاع البرك والمستنقعات ، وهناك يكون الميزان ، فكلما ازداد الماء ثقلا ازدادت الكرات الهلامية انتفاخا حتى تقاوم ذلك الثقل فترتفع ، أليس من عجب أننا نرى رجما موضوعة في الماء خارج الحيوان ، وهذه الرحم فيها قوة تجعلها مناسبة لما يحيط بها فترفعه بقانون مسنون .

وأعجب من هذا أن نفس هذه الكرات الهلامية إن هي إلا سجن سجنت فيه تلك الذرية ، فهي من جهة رحم لها وحفاظ ، ومن جهة أخرى إذا طال عليها الأمد وفقس الحيوان كانت شررا وبلا عليه وعذابا أليما ، وهلاك حاضرا ، فإذا فعلت تلك الحكمة بموازينها ؟ فعلت معها ما فعلته في دول أوروبا بالنسبة لبلاد الاسلام ، ذلك أن أوروبا في هذه السنين أرادت أن تستحوذ على بلاد الشرق وخصوصا بلاد الاسلام ، وهل كان أعدى عدو لهذه الأمم إلا دولة الروس التي بمناواتها لبلاد الصين من جهة وبلاد الترك العثمانيين من جهة أخرى فتحت الباب لفرنسا وانكلترا فأوغلتا في بلاد الاسلام إهلاكا وتديرا وإذلالا ، فإذا فعل الله بأوروبا ؟ أخرج لها أناسا من بلادها ، فأحدثوا الرأي الاشتراكي ثم الباشفي ، وهذه الباشفية اليوم أخذت حقها في بلاد روسيا ، وهذه الدولة الآن هي التي منعت عن بلاد الشرق والاسلام شرها ، وساعدت على استقلال بعض الأمم ، فصارت أوروبا أشبه بجسد قوي أخذ الداء يفتك فيه من نفسه في داخله ، وهذا هو نفس ما حصل في بيض الضفادع ، ذلك الذي أحاطت به كرات هلامية فرقة بمقدار ، ولما انتهى عملها مزقت كل ممزق كتمازق المشيمة عند ولادة الطفل ، وما الذي يمزقها ؟ هي تلك الحشائش الدقيقة التي لا تراها وما يلزمها من حيوانات ذرية ، فهذه كلها تفنك بتلك الكرات فيخرج الجنين سليما معافى من كل شيء يؤذيه . الميزان واحد ، فهو في سياسة الأمم نظيره في سياسة الأفراد ، مزقت كرات أجنة الضفادع بمخلوقات نبقت في باطنها ، هكذا الأمم الظلمة يكون هلاكها بتفريق كلمتها : « الحق الحق » ويبطل الباطل ولو كره الجحرون .

مسامرة

ههنا حضر صاحبي العلامة وقرأ هذا الموضوع فسر أيماء سرور ، وأعجب بالصور الشمسية والتعليق عليها وقال هذه صفحة جميلة أبانت لنا الضار كالزنبور ، والنافع كالنحل ، والأحجار الثمينة ، والحيوانات الجميلة ، وأدركنا كيف تنسج العنكبوت مسكنها وهونفس شبكتها ؟ وكيف تكون لزجة جميلة ؟ وهذه الصورة الشمسية الأولى من صورنا أن عمله في بناء بيته يشبه أعمال النساجين ، إذ يتدثون بالسدى ويقفون بالأحجام ، ثم كيف رأينا الزناير يعوزها دود يكون بجانب ذريتها على شريطة أن يكون في حال شلل ، فأحضر له الأبروان دودا على هذه الشريطة وبقى حتى فقس البيض وخرجت الذرية وعندها غذاؤها ، ولا علم للأبروين بها ، أليس هذا هو الميزان والعجب العجيب ! وكيف كان من تلك الحشرات بناء ، ونساج ، وثاقب خشب ، وقاطع ورق ، ومتخذ من نحو الجبال بيوتا ، ومن القواقع ، وكيف رأينا منه ما يعيش وحده كالعرب في البادية ،

ومنه ما يعيش جماعات ، هذا عجب عجاب ! فقلت نعم لله درك ، إن الميزان يجمعها ، وبالميزان كان الضر في الزبور ، والنفع في النحل واجتماعهما في الأرض عندنا واجتماع كل ضدين من خير وشر يكون استخراجا لقوانا وملكاتنا ، وتد كرة للعقلاء ، وتبصرة للحكماء ، إن غرائز الحيوان وعجائبه جعلت في الأرض تبصرة وتد كبرا ، إن الجسم الانساني يعوزه ملبس ومسكن وغذاء ودواء وهواء وماء ، فهذه كلها قوام لجسمه ، هكذا قوام عقله يكون بدراسة هذه المخلوقات ، فظواهرها لجهانته ، وبواطنها لروحه ، فاذا قصر في أحدهما فهو المستول .

تربية الأمم الاسلامية في مستقبل الزمان

ثم قلت : أيها الأخ الذكي ، إن بناء جسم الانسان تابع لما يتغذى به ، فاذا أكل ما كل رديئة ضارة فالضرر لاحق بجسمه ، وبضدها تميز الأشياء : هكذا غذاء العقل ان كان صالحا صلح والافلا ، والغذاء الصالح لعقول أمم الاسلام في تربيتهم هو هذه العجائب ، فانهم اذا درسوها صارت تلك الدراسة مهيبا لعقولهم ، فبتكرار تلك المباحث وتواردها على العقل شيئا فشيئا يجل العقل ويصلح ، ويكون أشبه بتلميذ عاشر حكما فقلده ، وأى حكيم في العالم يضارع صانعها ، فمن راض عقله من الصغر على هذه المشاهدات أصبح عقله مرناضا على الحقائق ، مفيدا لغيره ، نافعا لنوع الانسان ، إن كتاب الله الجسم دل عليه كتابه المنزل فقال : « ووضع الميزان » .

درجات الحيوان في الادراك ودرجات الانسان

إن هذا الذي يشاهد هذه العجائب وقد مرن عليها ينظر فيجد غرائز الحيوان ترتقي من أدناها إلى أعلاها ثم يرى من الحيوان ما يقبل التعاليم كالسكاب والأنعام وبعض الطيور ، ثم ينظر فيرى منها ما يقلد الانسان بدون أن يعلمه ، فهذا أرق مما قبله وأعظم وهو القرد ، ثم ينظر فيجد نوع الانسان يرتقي من أدناه ، وهم الذين يقربون من القردة إلى أعلاه ، وهم الذين يقلدون صانع هذا العالم في اتقانه البديع .

إن الانسان اليوم بلغ في العلم حد المراهقين ، لأنه أخذ يتلمس الحقائق ، ويدرس الحيوان ، ويقتني أثر صانع العالم اقتفاء ما ، فها هوذا أخذ يطير في الجو ، ويقطع المسافات سريعا ، واخترع وأبدع أيما ابداع ولكنه لا يزال في مبدأ الميدان ، فظار هذا الانسان فلم يكن نظره قاصرا على بناء بيته كالعنكبوت ، ولا على مل خزائنه بالغذاء كالنحل والنمل ، بل فكر في هذا العالم كله ، لأن روحه من عالم فوق هذه المادة ، فإذا فعل ؟ فكر فرأى الصور حوله ثلاثة أقسام ، لأنها إما صور مركبة من مادة محسوسة تحيط به ، وإما صورها الضوء فوصلها إلى العيون ، وإما صور في الهواء بهيئة حروف شكلتها الأصوات فوصلت إلى الآذان هذه صور العالم كله الذي يعيش فيه ، نظر الانسان فرأى محوطا بهذه الصور ، فألفظها الصور الضوئية وأغلفها الصور المادية ، وأوسطها الحروف والكلمات في الهواء ، درس الانسان الجاد والحيوان والنبات والسماء والأرض فكانت علوم وعلوم تقدمت في هذا التفسير كالتى في ﴿سورة الروم﴾ عند آية : « فطرت الله التي فطر الناس عليها » وكالتى في سورة ألم السجدة ، وكالتى في سورة لقمان عند آية : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » .

أوليس من العجب أن الحروف والكلمات التي يحملها الهواء صور تعبر عما فوقها من الصور النورية الواصلة إلى العيون وعما تحتها من صور النبات والحيوان ، درس الانسان علوم التاريخ الطبيعى وعلم طبقات الأرض ونحوها ، وهذه هي الصور الغليظة ، واستخرج لها موازين من الميزان الذي وضعه الله في

العالم ، ودرس الصور في الهواء وهي جميع اللغات ، واستخرج لها موازين كما رفع الفاعل ونادى المفعول في النحو في اللغة العربية ، وكالأبواب الستة في الفعل الثلاثي وهي باب نصر وضرب وفتح وعلم وشرف وحسب وموازن اسم الفاعل واسم المفعول وهكذا في الصرف ، وكالسند والسند إليه ، والتقديم والتأخير ، وأحوال متعلقات الفعل ، والذكر والحذف والحصر ، والفصل والوصل ، والابحاز والالطاب والمساواة في علم المعاني ، وكالتشبيه وأقسامه ، والمجاز وأنواعه ، والكناية وفروعها في علم البيان ، وكالجناس والطباق في علم البديع ، وكما وضع موازين للصور الحرفية الهوائية أخذ يضع موازين للصور العقلية ، وابتدأ بالمنطق كما تراء موضوعا في ﴿ سورة الروم ﴾ بهيئة عامة تسر الناظرين ، وعلم النفس كافي كتابنا [نظام العالم والأهم] وعلم السياسة العامة ، ولكل شأن من شئون الحياة جل أدق ، ومن ذلك أنه حسب الأجرام الفلكية بما انبعث منها من صور ضوئية ، فوصلت إلى شبكية العين ، فأدركها العقل ، فكان علم التقويم ، وعلم النجوم والمجرات والسدم العظيمة ، كل ذلك تعبر عنه الحروف .

الله أكبر : ان للانسان سبع قوى منركات : ثلاث عليا ، وثلاث سفلى ، وواحدة هي واسطة العقد النظيم ، أما الثلاثة العليا فهي البصر والعقل والقوة القدسية التي اختص بها الأنبياء والمهمون ، وأما الثلاثة السفلى فهي اللس والذوق والشم ، وأما الوسطى فهي حاسة السمع وهي التي اختصت بأدراك صور الحروف المعبرات عن الأقسام الست أعلاها وأدناها .

هذا ملخص نظام هذا الانسان ، وهو الذي أدرك أدق الأشياء من الكهربية والمغناطيس والراديو ، وخواص أخرى لا يزال يترقى فيها ، وهو الآن في مبدأ الرقى ، وهناك هناك معال ومدارج هوفها سائر إلى الأمام ، فبالت شعري أية مناسبة بين ما رأيناه في صناعة العنكبوت والنحل والنمل وبين ما عرفناه من صناعة الانسان ؟ .

الله أكبر : ان الانسان لم ينل هذه النعم العظمى إلا بدراسته غرائز أصغر الحيوان ، لأن من لم يفهم الأدنى لا سبيل له أن يدرك الأعلى ، ومن جهل المقدمات حرم النتائج ، فهذه الأهم التي ارتقت في مدارج الحياة العلمية هم هم الذين درسوا أعز المخلوقات الذرية التي هي بعض قوله تعالى : « ووضع الميزان ألا تظفوا في الميزان » .

فانظر إلى أية حد بلغ الانسان في أمانيه وهو مسرع إلى الأمام طار في الجو وفاق الطيور ، وها هو ذا يسارع إلى المعالي ، يقول في نفسه : لماذا لا أصل إلى القمر ؟ لماذا لا أصل للريح ؟ فهل هناك ما يمنعني ؟ وأية عائق يقف في طريق ذلك لي المصاعب وفتحت لي المعقل ، ففصت في قاع البحر وطرقت في الجو ، كل ذلك بمعرفة الميزان ، إن الطيارات التي أطير بها لم تكن في أول الأمر إلا لعبات للصبيان ، إن غريزتي التي غرست في قدسكن فيها كل شيء ، أنا من عالم أعلى ، أوحى الله إلى غريزتي وأنا طفل أن أطير في الجو طيارات لعبا ولها ، لأن نفسي من عالم أعلى فلعبها يشير إلى ما كن فيها ، فأخذت أدرس الطيور ، فاستنتجت منها علم الطيارات ، ثم أرى الناس يطلقون السهام النارية للهو واللعب فلماذا أقف في الارتقاء على الطيارات ؟ ولماذا لا أرتقي أعلى وأعلى ؟ ولماذا لا أجعل هذه الصواريخ حاملة لجسمي ولأمتعتي ، ألسنت أنا الذي كنت أسير في الأرض على قدمي فرأيت الخيل والبغال والخيول خطرت لي أنها تحملني لحملتي ، ثم رأيت الورق وخفيف الخشب يعوم في البحر فصنعت المراكب وسافرت عليها ، ثم رأيت القدر على النار يرتفع فيها البخار ، فإذا كانت القدر مغطاة رأيتها تضطرب وترتفع ، فاستنتجت من ذلك أنها تساعد على الانتقال في البر ، ثم كانت الطيارات كما تقدم فلماذا لا أجعل الصاروخ مركبي وحامل أمتعتي ، أنا فوق الجميع ، الموازين أمانى فلا أدرسها ، أنا هنا في

الأرض خليفة الله استخلفني وركب في العقل وقال لي فكر واعمل ، وهذا هو الذي يجد فيه العلماء اليوم فانظر ماجاء في جريدة الاهرام يوم ١١ اكتوبر سنة ١٩٣١ م ، واعجب كيف يكون هذا في وقت كتابة هذا المقال ، لأجعله بهجة لجلاله ، وحلية بهية في نظامه ، وهذا نصه : —

عصر الاختراع والاكتشاف

السهم أو الصاروخ . معجزة هذا القرن

الصاروخ أحدث استنباط لايزال رهن التجربة ، قد يزبل الوقت ويلاشى الابعاد وينقل البريد بسرعة عشرة أميال في الثانية ، وقد يوصل الناس إلى المريخ ، ويستأصل الحروب أريزها هولا وويلا ، فيدك معالم الحضارة دكا ، فتى بلغ حد الكمال يعدل الناس عن التراسل بالبريد أو البرق ، وعن التخاطب بالهاتفون ويعتمدون على الصاروخ فينقل رسائلهم من أميركا إلى أوروبا في نحو خمس دقائق .

فلا تنجب أيها القارئ الكريم ، ولا تقل ان زمان العجائب قد مضى فان عصر عجائب العلم لايزال في أول عهده ، وقد أرانا في الأعوام القليلة الماضية العجب العجيب ١ ولكن الصاروخ هذا سيكون أعجوبة القرن العشرين بدليل التجارب السريّة التي أجريت في ألمانيا وروسيا وأميركا .

إن هذا الصاروخ لندي كان فيما مضى من السهام النارية التي يطلقها الناس في الفضاء احثلا بعيد ، أو تكريما لبطل فاتح قد أصبح بعد أن تناولته يد العلم ، وأتقنته الهندسة ، وأحكم تركيبه الدماغ المبتدع من أعجب ما استنبطه العقل الانساني ، فالراديو والطيارة ، ونقل الصور بالراديو ، والمدهشات الأخرى التي أنحفنا بها هذا الجيل سوف تصبح من التوافه بالنسبة إلى الصاروخ ، فهو سيحدث انقلابا هائلا في وسائل النقل والطيران والحرب ، وما بدا منه حتى الآن يرسم لنا صورةا للمستقبل كالسفر إلى القمر والمريخ ، والدوران حول الكرة الأرضية في أقل من ساعة ، فإذا خامر القارئ الشك فيما تقدم بيانه (وهو سيشك في انكاره دون ريب) فاني أنقل له ما قرأته عن ذلك ليزول ما به من الارتياح ، فان أعظم الأدمغة في العالم قد برهنت مؤخرا بما لا يقبل الريب على أن تحقيق ما ذكرته ليس بالحادث البعيد ، فان مشاكل هذا الاختراع الأساسية قد انحلت ، وأهمها مشكل الجاذبية لاختراق الفسحة الكائنة بين عالمنا والعوالم الأخرى ، فن مضى أشهر معدودة أطلق سهم هائل في الجو على مقربة من براين فبلغ الطبقات العليا وعاد بعدئذ إلى الأرض ، وكان ارتفاعه عظيما جدا ، مع أنه لم يكن فيه من الوقود سوى جزء من أربعين جزءا مما يسعه ، وقد وافقت الحكومة الألمانية مبتدع هذا السهم على القول أنه لوجهز بكمية وافية من الوقود لاجتاز مسافة ألف ميل في أعماق الجو ، وقد قال الاستاذ [هرمان أوبرت] الألماني انه أطلق واحدا منها مؤخرا وركب فيه آلة تدفعه من ذاتها ، فبقي محلقا في الفضاء أكثر من ساعة ، والصاروخ الاستاذ أوبرت قوة دافعة تضاهي قوة دفع القطار الحديدى الكبير تولدها فيه آلة تماثل زجاجة اللبن الصغيرة ، وهذا يدلنا على القوة الهائلة الممكن توليدها في الصاروخ متى تمّ للقاء بين باقائه أمر وضع مولد كبير للقوة فيه ، ومن التجارب التي أجريت في أميركا التجربة التي قام بها المستر [روبرت جودارد] فقد أطلق واحدا من هذه السهام التي تحاكي الأبايب فعلت على الأرض ستين ميلا ، وقال بعد ذلك انه قد اكتشف السر العظيم الذي يمكنه من ارسال صاروخ إلى القمر ، وجرت مثل هذه التجارب قبل ذلك في روسيا ومبتدعها الاستاذ [فيودوروف] وهو الآن يعمل لاتقانها تحت رعاية حكومة السوفييات في ادارتها الخاصة بالمواصلات الجوية ، ومثله فعل الاستاذ الروسى [زبولوسكى] وهو الآن يجهد الفكر في تحسين الصاروخ التوربيدى على حساب الحكومة الروسية ، وكان الغرض الأول من ابتداع هذه الصواريخ أن تحشى بالبريد وتنقله بسرعة بين أوروبا وأميركا فيكون تخليقها

فوق الاوقيانوس أعلى كثيرا من سكان الأرض حيث لا تلاقى أقل مقاومة من الهواء فتسير عندئذ بسرعة تتراوح بين الخمسة والعشرة أميال في الثانية ، والصواريخ تدار بالراديو بحيث انه اذا حدث خطأ يمكن اصلاحه والصاروخ طائفة ، ويدبر الصاروخ بواسطة الأجهزة اللاسلكية رجل يبق على الأرض محققا على الدوام في لوح أمامه يريه طريق الصاروخ والمكان الذى وصل إليه من حيث المسافة والعلو ، فإذا أراد المدير تخفيض سرعة الصاروخ أو مضاعفتها وضع يده على مفتاح معلوم فتتطبع بذلك على مولد القوة في الصاروخ ارشادات المدير الذى على الأرض ، وتنجم عن ضغطها عليه ما يراه من سرعة أو بطء ، أو تحوّل عن خطة السير ، وهذا من الامور التى يصعب تصديتها ، إلا أن مبتدعى الصواريخ يقولون انها فى منتهى السهولة ، وقد جربوها سرايا فى ألمانيا من بضعة أشهر ، فعند ما يتدأى الصاروخ من المكان الذى يقصده ، فإذا كان ذلك المكان [نيويورك] مثلا فإن مديره فى لندن يضغط زرا فيؤثر بالراديو على لوحة الصاروخ فيفلت كبسا من البريد يهبط إلى الأرض فى شبه مظلة ، ومثل ذلك يفعل اذا أراد انزال الصاروخ فلا تمر أعوام معدودة حتى تضع على الكتاب الذى ترسله عبر الاوقيانوس طابعا خاصا يريد الصاروخ فيصل بعد ساعة إلى صديقك فى أوروبا ، ولا يبعد أن تبلغ هذه الصواريخ حدا من الاتقان تصير معه صالحة لشحن البضائع وتكون نفقات ارسالها نافية إلى العاية ، ذلك لأن نفقة تسييرها معدومة تقريبا ، غير أن التجارب المخفونة بالغموض التى تجرى اليوم فى روسيا وغيرها من البلدان تشير إلى وجه آخر يبعث على القلق ألا وهو استخدامهما فى الحروب فلا ريب فى أن صاروخ [التوربيد] سيكون من أعظم مدمرات العمران هولا ، فإذا عوّق البشر على استخدام هذه الآلة الجهنمية فى الحرب فلا يبقى لإنسان مهرب ولا ملجأ بل يهلك الناس بالالوف ، فهو يضرب بلا انذار ، ويحوّل أعظم العواصم إلى آكام من رماد فى بضع دقائق ، وفى أوروبا اليوم أناس يستطيعون اذا شاءوا توجيه واحد من هذه الصواريخ التوربيدية عبر الاوقيانوس إلى الولايات المتحدة فيحدث فيها من التدمير وإهلاك النفوس ما لا تحدته الحرب الطاحنة فى خلال أشهر كاملة ، ومن المعلوم أن الطائرات الحربية مهما كثر عديدها لا تقوى على صد الصاروخ ، فهو يخترقها بسهولة وبدون أن يصاب بأذى ، واذا وجه إلى الأساطيل الحربية فانه يفتنها قبيل أن يتيسر لها الوقت للفرار ، ولكن الوجه الآخر لهذا الابتداء الجهنمي هو أنه قد يعمل على ابطال الحروب لأنه عند ما تبلغ حد الكمال تقتنى كل دولة منه عددا ، فإذا أرادت دولة بدولة أخرى شرا يكون إقدامها على ذلك من قبيل الانتحار ، وأين هى الدولة التى تسوّى لها النفس خوض غمرات عراك تكون نهايته خرابها المحتم ؟ ومن أجل هذا نقول : إن المساعى الكثيرة التى يبذلها دعاة السلام اليوم لانهاء الحروب سوف يكالها الصاروخ بالنجاح ، ولكن استخدام الصاروخ فى الحروب وفى نقل البريد ليس بالشئ الذى يذكر فى جنب ما يتوقعه منه مبتدعوه وهو القيام باكتشافات مهمة فى القبة السماوية كالتذهب إلى المريخ ، وهذا كان يعد حديث خرافة إلا أن ما أئنه العلم الآن وما قام به رجاله من التجارب بالصاروخ قد أدناه من الحقائق ، فالصاروخ الذى يوجه إلى المريخ يكون بشكل قذبة كبيرة الحجم ، ويكون فيها من الخسین إلى الستين مولدا للقوة يذهب فيها جماعة صغيرة من الرجال الشجعان محصورين فى مكان لا يدخله الهواء ومعهم من ضروريات الحياة ما يستطيعون معه اصطناعيا مدة ١٥٠ يوما وهى المدة اللازمة للوصول إلى المريخ والرجوع منه حسب تعديل الفلكيين ، ومن الطبيعى أن يزور الانسان المريخ قبل غيره من السيارات ، وذلك لوجود دلائل عديدة على أنه مأهول بجنس من المخلوقات التى تحاكي سكان الأرض ، ويعتقد العلماء أن ألمانيا ستكون السابقة إلى اتقان هذا السهم الحبيب كما أنها ستكون السابقة فى كثير غيره ، فقد قرأت لمراسل جريدة أمبركان فى برلين أن كبار علماءها منهمكون

في درس القوى الكامنة في الجواهر الفردة للاستفادة منها، وهزنى الطرب عند ما قرأت أن عالماً صرياً اسمه الدكتور [عدنان] يساعدهم في ذلك اه
وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « روض الميزان » مع قوله : « مرج البحرين يلتقيان » الخ والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية : عجائب الحساب في سورة الرحمن

ابتدأ الله السورة بذكر أنه رحمن ، وأخذ يعد الرحمة مبتدئاً بما هو أشرف وهو العلم ، وأتبعها بخلق من يحمله وهو الإنسان ، ثم أعقبهما بما يجمعهما معا وهو النعيم ، لأنه لا تلبيم إلا حيث يكون متعلم وعلم ، وههنا قص علينا مبدأ العلوم في سياق حديث الشمس والقمر وأنهما بحساب ، وبني على ذلك بناء شامخاً ومجداً رفيعاً من حيث انتظام أنواع النبات والشجر ، فلو لا الحساب في العلويات لم تفتطم السفليات ، وهنا أتى بما يجمع النظم في السموات والأرض وهو الميزان السائد في كل دقيق وجليل وعظيم وحقيق ، ولكن مبدأ ذلك كله الحساب ، فلتبين في هذه المجالة ما فتح الله به في ليالي الأحد والاثنين والثلاثاء في أواخر شهر مارس سنة ١٩٣١ م .

ذلك أن هذا الموضوع أخذ يهتاج قلبي ، ويشير شعوري ، ويحرك وجداني ، اللهم إن أمر الحساب لعجب ! فنه الشفع والوتر ، وبهما أقسم الله فقال : « والشفع والوتر » أفليس من الغريب أن يقسم الله بأمور مكشوفة للعام والخاص والناس لا يهتمون بها ، ولا يولون وجوههم شطرها ، الشفع والوتر عند الجهلاء كأجسامهم ، وكأهلواء والماء ، فهم غالباً لا يذكرون نعمة الله فيهن ، الأعداد حاضرة عند نفوسنا تشاهدها عقولنا كما تشاهد عيوننا الضوء ، ولكن غلب على عقول بني آدم أن الأعداد معدومة لوجود لها ، فأما الضوء والشمس والقمر ، والجبل والجل ، والبحر والبر ، فهن موجودات ، ذلك لما وقر في نفوسنا أن ما تشاهده الحواس موجود ، وما لا تشاهده الحواس وجوده عدم .

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير . فقال : الشفع والوتر والوجود والعدم مادة الفلسفة ، القرآن واضح والتفسير قد طال فإذا تريد بهذه الكلمات ؟ فقلت له : التفسير لم يطل ، ولقد استبان لك الآن أن القرآن إلى الآن لم يفسر حق تفسيره فأين تفسيره أيها الصديق ؟ فقال : الحمد لله قد فسره المفسرون رحيم الله وفسرته أنت . فقلت : أما من جهتي أنا فاني أقول لك : ان ما خطر لي بحق وصدق في تفسير هذه الخمسة الحروف حسابان يعوزه مجلد أو مجلدان . فقال تريد بذلك علم الحساب ؟ قلت : كلا . فعلم الحساب شيء والحكمة المستنتجة منه شيء آخر ، وتلك الحكمة هي التي بها يعرف بعض سر القرآن ، خياك الله يا أخي ، قل لي : أيتدئ الله بالحساب في أول النعم في السورة التي وسمها بسورة الرحمن مصادفة ، أفلا نذكر ما جاء في خطبة الصديق رضي الله عنه ، إذ استدلى بتقديم المهاجرين على الأنصار في القرآن على أن يكون الأمراء من المهاجرين والوزراء من الأنصار . قال بلى . قلت : أفلم تقم بذلك دولة بني أمية ودولة بني العباس اللتان لم تكونا إلا من المهاجرين . قال بلى . قلت : فإذا كان عشرات الملوك والممالك قامت على مجرد أمر اعتباري وهو التقديم والتأخير في كلمتين اثنتين ، فما الذي نفهمه الآن من تقديم الحساب على جل كثيرة في سورة هي عنوان الرحمة ، ولقد أعظم الله أمر الحساب فقال : « إن الله سريع الحساب » ، وقال : « وأحصى كل شيء عدداً » الخ فقال : حقا إن الأمر عظيم ، ولكن أمر الحساب دقيق ، فترجوا أن تلخص حكما منه لتكون نبراساً ونورا بين قراء التفسير . فقلت :

(١) إن الواحد ليس قبله عدد .
 (٢) وهو بعد جميع الأعداد بخلاف الاثنين فإنه بعد نصفها وهكذا .
 (٣) إذا زال الواحد زالت جميع الأعداد ، ولقد تزول الأعداد ولا يزول الواحد ، فهكذا :
 (١) الله ليس قبله شيء .
 (٢) وهو متصرف في كل موجود .
 (٣) ولولا الله لم تكن هذه الموجودات ، وإذا زالت الموجودات لم يزل الله .
 فلما سمع صاحبي ذلك قال هذا حسن ولكنه من باب التشبيه : أى أنك الآن ضربت لنا مثلاً من العوالم المعقولة في نفوسنا ، وهذه المعقولات نظمها الله فصارت ضرب مثل لنا .
 ثم ماذا ؟ قلت : إن هذه الأعداد وحضورها في أذهاننا أمرها عجب ! فقال حضورها في أذهاننا عجب وأى عجب في ذلك الحضور ؟ قلت : إن وجودها حقيقى وثابت بخلاف ما نراه من الشمس والقمر والأرض والانسان . فقال : إذن أنت تعتبر العدد في نفوسنا الذى وجوده ذهنى ثابت وحق ، فأما المحسوسات التى عشنا بها وملاها الله بها القرآن والحكمة ليست ثابتة . فقلت نعم . فقال : إن عقلى لا يحتمل فهم هذا . فقلت له : ريم ثبتت عندك الأرض والسماء وما بينهما ؟ قال بالحواس ، فنحن نراها ونلمسها الخ وهى باقية فالشمس والأرض والجبال بقيت ألوف السنين ، وألوف الألوف ، والآباء والأجداد يرون ذلك ، فأما الأعداد فأنما هى أمر ذهنى لا غير فوجودها عدم . فقلت : أفلا تعتبر العقل له ادراك كالحواس ؟ فقال : له ادراك أقوى من الحواس . فقلت : العقل هو الذى يحفظ الأعداد ويتصورها كما ترى العين الضوء وتلمس اليد الحجر . فقال : ولكن الحجر ثابت . فقلت العدد أثبت من ثلاثة وجوه ، ألم تر أن حاسة البصر قد تخطئ فترى الصغير كبيراً كالدار من بعد ليلاً ، وبالعكس كالشمس بعددها . قال بلى . قلت : حاسة السمع فى المرضى تحس بالخيال . قال بلى . قلت : والناس يختلفون فى الجبال ، فكل له فيه ذوق خاص . قال حق ، قلت ونفس الخيال والبحار تتبدل بعد مئات الألوف من السنين ، لأن الماء يفتت الصخور ، ويحمل الرمال ويقذفها فى البحر والجبال ترى هناك فى عصور وعصور ، ثم تأتي زلزلة فتظهر تلك الجبال التى كانت أجنة فى أرحام البحار . فقال حقاً والله . فقلت : إذن المحسوسات يعثر بها الصغير من طريق نقص فى الحاسة ، أو من طريق اختلاف الأشخاص ، أو من طريق تغير الحواس ، إذن هذه السموات وهذه الأرضون تختلف مناظرها من ثلاثة وجوه فهى إذن ليست ثابتة فوجودها أشبه بالعدم .

ثم قلت : ونضيف إلى ذلك أمراً رابعاً ، وهو أن هذه العوالم المشاهدة ليست شيئاً سوى نتائج حركات ظهرت لحواسنا فأدركتها بحسب ما ظهر لها من عدد الحركات فى الثانية الواحدة ، فإن كانت الحركات فى الأثر فى الثانية الواحدة نحو ٦ آلاف مليون مليون مرة فذلك هو أمثال الحديد والنحاس ، وإن كان عدد الحركات أقل من ذلك بحيث يكون فى الثانية الواحدة من ٤٠٠ مليون مليون مرة إلى ٧٠٠ مليون مليون مرة فى الثانية الواحدة ، فذلك هو النور بألوانه السبعة ، فالأحر أدناه والنفسي أعلى ، ولا جرم أن هذا الأمر الرابع يفيدنا أن هذه المحسوسات فى نفسها غير موجودة ، وإنما هى تظهر لحواسنا بحسب عدد حركاتها فى الثانية منوعة المظاهر بتوابع حركاتها لا غير ، فأين الوجود الحقيقى إذن لهذه الظواهر ؟ (اقرأ هذا المقال واضحافى سورة النور) عند آية : « الله نور السموات والأرض » إذن ما يظنه الناس والحيوان موجوداً وهو المشاهد ليس له حقيقة ، وما جهلته الحواس وأدركه العقل أحق باسم الوجود كالأعداد وجميع الحقائق الثابتة ، فالأعداد لا تعبر فى العقول ، والشمس ستزول ، ولكن العدد هو هو ، فكل عقل وجد تبدوله الأعداد كما بدت لنا ،

٢ و ١ و ٦ مزار بها ٢ و ٣ و ١ وأما ٥ و ٧ فلا مزار بهما، وإنما يقسمان على نفسيهما وعلى الواحد لا غير، فهذا عدد أولى أو أصمّ .

(٣) ثالثا : العدد فيه المتوالية العددية مثل ٢ - ٤ - ٦ ، وهكذا ، والمتوالية الهندسية مثل ٢ - ٤ - ٨ - ١٦ - ٣٢ ، وهكذا ، ومثل ٣ - ٦ - ١٢ - ٢٤ . وهكذا .

(٤) رابعا : العدد فيه الكسر الدائر البسيط مثل $\frac{1}{7}$ فانه يساوى $\frac{142859}{142859}$. فهذا كسر لا ينتهى ،
والكسر الدائر المركب مثل $\frac{1}{6}$ فانه يساوى $\frac{142859}{142859}$. فهذا الكسر
لا ينتهى وهو مركب من ٦ ارقام ، وكسر $\frac{1}{7}$ بسيط لأنه عدد واحد مكرر .

وهذه الصفات الأربع نراها جلية في المعدودات المشاهدات [أولاً] العدد الأصمّ وغير الأصمّ لهما نظير في العوالم المشاهدة ، فانك ترى الماء والهواء كالعدد القابل للقسمة الصحيحة ، أما الحجر والحديد فهو كالعدد الذي لا يقبل القسمة الصحيحة ، فقسمة ٤ على ٣ ليست كقسمة ١١ على أى عدد ماعدا نفسها والواحد فقال صاحي : أريد أن أعرف الأعداد الأولية معرفة اجالية لأبني عليها ذلك ؟ فقلت : انها في الآحاد

٢-٣-٥-٧ وفي العشرات ١١-١٣-١٧-١٩-٢٣-٢٩-٣١-٣٧-٤١-٤٣-٤٧-
٥٣-٥٩-٦١-٦٧-٧١-٧٣-٧٩-٨٣-٨٩-٩٧ فهي في المائة الأولى (٢٥) عدداً، وفي
المائة الثانية ٢١ أولها ١٠١ وآخرها ١٩٩ :

آخرها	أولها	الأعداد الصماء فيها	
٢٩٣	٢١١	١٦	المائة الثالثة
٣٩٧	٣٠٧	١٦	المائة الرابعة
٤٩٩	٤٠١	١٧	المائة الخامسة
٥٩٩	٥٠٣	١٤	المائة السادسة
٦٩١	٦٠١	١٦	المائة السابعة
٧٩٧	٧٠١	١٤	المائة الثامنة
٨٨٧	٨١١	١٤	المائة التاسعة
٩٩٧	٩٠٧	١٤	المائة العاشرة

وهكذا إلى ٩٩٠١ الذى ينتهى إلى ٩٩٧٣ ، وفى هذه المائة الأخيرة ٩ أعداد لاغير ، وفى المائة قبلها ١٢ عدداً ، وهكذا لاتجد مائة فى هذه المئات خالية من الأعداد الأولية :

(١) ولاجرهم أن العوالم المشاهدة أكثرها أشبه بالأعداد التى تقبل القسمة ، وأقلها أشبه بالأعداد الأولية ، فضوء الشمس والقمر وعالم الأثير والهواء والماء أكثر جدًا من الأرض كما أن الأعداد التى تقبل القسمة أكثر من الأعداد الأولية .

(٢) ان كل مائة فيها أعداد أولية كما تقدم قد تكون ٩ وقد تكون ٢٥ وقد تكون عدداً بينهما مثل ١٤ و ١٥ هكذا فى كل قرن أناس يظهرون فى الأمم لهم مبادئ وحكم جديدة لم تكن من قبل ، وناغون فى الحرف والصناعات ، نسج الناس على منوالهم ولكن الأكثرون مقلدون ، فهم أشبه بأعداد ٤ و ٨ و ٩ و ١٢ وغيرها من كل عدد له مضارب ترجع إلى أعداد أولية . فقال : أنا لم أفهم هذا ، فقلت :

(١) اعلم أننا نعدّ هكذا : ١ ٢ ٣ ٤ الخ أو ٢ - ٤ - ٦ - ٨ - ١٠ - ١٢ وهكذا ، أو نقول : ٣ - ٦ - ٩ - ١٢ - ١٥ وهكذا . أو نقول : ٥ - ١٠ - ١٥ - ٢٠ وهكذا : أى أننا نعدّ إما بالواحد وإما بالاثنتين وإما بالثلاثة وهكذا ، فإذا وصلنا إلى عدد أولى من الأعداد الكبرى مثل : ١٠٠٩ و ١٠١٣ و ١٠١٩ و ١٠٢١ و ١٠٣١ وهكذا وأردنا أن نعدّ به فلا بد أن نكرره مرةً ومرةً ثنتين وثلاثاً وهكذا كما نقول ١١ - ٢٢ - ٣٣ ، فهنا لابد لنا أن نعدّ فى تكراره ١ - ٢ - ٣ - ٤ وهكذا أى أننا مع كل عدد أولى بعد ألف أومائة ألف أو غيرها لابد أن نعدّ من أول واحد ونسير كطريقتنا الأولى ، ولاجرهم أن هذا معناه أن النابغين فى كل قرن لابد أنهم يعرفون ما فى التاريخ ، ويدنون مجدهم على مقتضاه بطريقتهم هم كما أن العدد الأصمّ يعدّ من الواحد وما بعده .

(٢) ثم أننا كما نحلل المركبات فى المعامل الكيميائية إلى عناصرها كتحلليل الماء إلى اكسوجين وأودروجين هكذا نحلل الأعداد إلى عواملها الأولية ، فتحليل الأعداد فى نفوسنا له نظير فى الخارج وذلك فى المركبات مثل تحليل عدد ٤٧٢٥ فانا نقسمه على ٥ فيكون الخارج ٩٤٥ وهذا نقسمه على ٣ فالخارج ٥٢٥ وهذا نقسمه على ٥ فالخارج ١٠٥ وهذا نقسمه على ٥ فالخارج ٢١ وهذا نقسمه على ٧ فالخارج ٣ فالتحليل فى المادّة أظهر حقائقها فتصرفت فانا فيها كما أظهر تحليل الحساب عوامله فتصرفت فانا فيها وانتفعنا بها ، هذا هو الفصل الأول من الفصول الأربعة .

الفصل الثانى فى عجائب العدد الكامل والاعداد المتحابّة وحساب الجذر والترييع ونحوها
وفى هذا الفصل مسائل : المسألة الأولى

العدد اما كامل وهو ما يساوى جميع مضاربيه مثل عدد ٦ فان مضاربيه هى ١ - ٢ - ٣ ومجموعها ٦ وكذلك ٢٨ فان مضاربيه هى ١ - ٢ - ٤ - ٧ - ١٤ يساوى ٢٨ فهو عدد كامل ، وان كانت المضارب أقنّ منه فهو ناقص مثل ١٠ فان عواملها ١ و ٢ و ٥ فهى ٨ فهذا عدد ناقص لنقص مجموع مضاربيه عنه ، وعدد ١٢ مضاربيه هى ٢ و ٣ و ٤ و ٦ والجميع ١٦ فهو عدد زائد وأكثر الأعداد ناقصة أوزائدة كما أن أكثر هذا النوع الانسانى غير معتدل ، والكامل قليل ، كما أن الكامل فى الانسان قليل ، فهو هكذا :

٦
٢٨
٤٩٦
٨١٢٨
١٣٠٨١٦
٢٠٩٦١٢٨
٣٣٥٥٠٣٣٦

وهكذا ، فترى أنه من عدد (١) إلى (١٠) لاعدد كامل إلا واحدا ، وكذلك من ١٠ إلى ١٠٠ وهكذا من ١٠٠ إلى ١٠٠٠ ومن ١٠٠٠ إلى ١٠.٠٠٠ ولكنك في هذا الجدول لا تجد في الأعداد من ١٠.٠٠٠ إلى ١٠٠.٠٠٠ عددا واحدا كاملا ، وهكذا لا تجد فيه من مائة ألف إلى مليون إلا عددا واحدا كاملا ، أليس هذا يشابه العالم الخارجي ، فالتناجد الراديوم قليلا والذهب والبلاطين وغيرهما كثيرة ، ونجد الأنبياء والحكماء قليلا .

موازنة بين العدد الكامل والاصم

العدد الأصم يكثر لأنه نظير ذوى الاختراع في الصناعات والنبوغ في مختلف الحرف ، أما العدد الكامل فهو أقرب في ندرته إلى ندرة الأنبياء والحكماء والراديوم وهكذا .

المسألة الثانية

قد وجد العلماء أن عدد ١٢٠ يساوى نصف مجموع مضاريبه ، فهذا أشبه بكونه نصف الكامل ، والمضارب هي : ١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٨ - ١٠ - ١٢ - ١٥ - ٢٠ - ٢٤ - ٣٠ - ٤٠ - ٦٠ - ١٢٠ ونصفه ٦٠ ، ومثله في ذلك عدد ٦٧٢ فإنه يساوى نصف مجموع الأعداد المتدخلة فيه وهو ١٣٤٤ ونصفه ٦٧٢

المسألة الثالثة

الأعداد المتحابية مثل عدد ٢٢٠ وعدد ٢٨٤ وسموهم متحابين لأنهم وجدوا أن كلا منهما مؤلف من مضارب الآخر ، فإن (٢٢٠) يساوى مضارب (٢٨٤) وهى ١ - ٢ - ٤ - ٧١ - ١٤٢ ، و (٢٨٤) يساوى مضارب (٢٢٠) وهى ١ - ٢ - ٤ - ٥ - ١٠ - ١١ - ٢٠ - ٢٢ - ٤٤ - ٥٥ - ١١٠ إذن عندنا عدد لا مضارب له وهى الأعداد الأولية ، وعدد مضاريبه أكثر منه وهو العدد الزائد ، وعدد مضاريبه أقل منه وهو العدد الناقص ، وعدد يساوى هو نصف مضاريبه وقد تقدم ، وعدد يساوى مضاريبه وهو الكامل ، وعدد يساوى مضارب غيره وغيره يساوى مضاريبه وهما العددان المتحابان ، فهذه ستة أنواع .

فلما سمع ذلك صاحبى قل : ما أجل هذا العلم ، وما أبدع قوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان » ، والله إن شأن الحساب لعجب ! فقلت أيها الصديق : إذا سرك هذا فلا أسمك ما هو أعجب وأبهج وأبدع ، قل أحب ذلك ، فقلت : إن هذه الأعداد المتحابية أمكن العلماء البحث عنها واستخراجها . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت : يجعلون عدد ٣ هو الأس . فقال ثم ماذا ؟ فقلت : ثم يأخذون ثلاثة أمثاله وستة أمثاله و٩ أمثاله في مربع العدد وهو ٤ فيحصل عندهم هذه الأعداد بالتوالى ٦ - ١٢ - ٧٢ ، لأن ٢ في ٩ يساوى ١٨ و ١٨ بضربها في ٤ يكون ٧٢ . فقال : هذا واضح ، ثم ماذا ؟ فقلت ينقصون من هذه الأعداد واحدا واحدا فتكون هكذا : ٥ - ١١ - ٧١ ، فإذا ضربنا ٥ في ١١ وضربنا الناتج وهو

٥٥ في ضعف عدد ٢ وهو ٤ كان الحاصل ٢٢٠ وهو أحد العددين المتحابين ، فأما العدد الآخر فكيفية إيجاده أن تضرب عدد ٧١ وهو العدد الثالث في ضعف عدد ٢ وهو ٤ كما فعلنا في العددين السابقين فيكون عندنا عدد ٢٨٤

فلخص ذلك أن عددين ضربا في ضعف ٢ وعدد ٤ ضرب فيه أيضا ، وصار الأمر واضحا ، وأيضا أمكنهم استخراج الأعداد المتحابية من مكعب ٢ بالطريقة المتقدمة ، فيضربون مكعب ٢ وهو ٨ في ٣ ثم في ٦ ثم في ٦٤ وهذا الأخير هو مربع ذلك المكعب الذي هو ٨ فيكون الحاصل بالتوالي ٢٤ و ٤٨ و ١١٥٢ فإذا نقصنا من كل واحد منها عدد ١ كان الباقي هكذا بالتوالي : ٢٣ - ٤٧ - ١١٥١ ، فإذا ضربنا ٢٣ في ٤٧ وهما العددان الأولان ، ثم ضربنا حاصل الضرب في ضعف المكعب المذكور وهو ٨ وهذا الضعف هو ١٦ فإن حاصل الضرب يكون ١٧٢٥٦ فهذا عدد متحاب أول ، والعدد المتحاب الثاني نفعل فيه ما فعلنا هناك ، فنضرب ١١٥١ في ١٦ أيضا فيكون الحاصل ذلك العدد ١٨٤١٦ وهذه القاعدة التي رأيتها أيها الذكي هنا يمكنك بها إيجاد أعداد متحابية لانهاية لها بجعلك قوة عدد ٢ هي الأس ، فالعدد المتقدم بقوتها الثالثة أي بضربها في نفسها ٣ مرات ، فقوتها الرابعة ، وقوتها الخامسة وقوتها السادسة : أي ضربها في نفسها ٤ مرات ، وضربها في نفسها ٥ مرات ، وضربها في نفسها ٦ مرات وهكذا يمكنك بها أن تستخرج أعدادا متحابية إلى ما لا يتناهى على شريطة أن تحافظ على هذا النظام .

ثم قلت : ومن أبدع الحكم وأعجب العلم ما استنبطه العلماء غير ما تقدم لايجاد قاعدة للأعداد المتحابية ذلك أنهم وضعوا صفا أفيا مركبا من متوالية هندسية تصاعدية أسها ٢ وحدتها الأول ٢ أيضا هكذا : ٢ - ٤ - ٨ - ١٦ - ٣٢ - ٦٤ ثم يضعون تحت هذا الصف صفا آخر مركبا من هذا الصف مضروبا في ثلاثة فيكون هكذا : ٦ - ١٢ - ٢٤ - ٤٨ - ٩٦ - ١٩٢ ويضعون فوق الصف الأول صفا تكون أعضاده هي عين أعضاده بشرط أن تنقص ١ فهي هكذا : ٥ - ١١ - ٢٣ - ٤٧ - ٩٥ - ١٩١ إذن تكون الصفوف هكذا :

١٩١	٩٥	٤٧	٢٣	١١	٥
٦٤	٣٢	١٦	٨	٤	٢
١٩٢	٩٦	٤٨	٢٤	١٢	٦
١٨٤٣١	٤٦٠٧	١١٥١	٢٨٧	٧١	٠

وهذا الصف الرابع إنما حدث بضرب ١٢ من الصف الثالث في ٦ قبله فالحاصل ٧٢ وينقص ١ فيكون ٧١ وهكذا يصنعون في الحد الثاني فيضربون الحد الثالث من الصف الثالث في الحد الثاني منه أعني ٢٤ في ١٢ وي طرح من حاصل الضرب ١ وعلى هذه الكيفية يحصل الحد الثالث والرابع وهكذا . وهذا الجدول تؤخذ منه الأعداد المتحابية ، أفلا تعجب أنك إذا أخذت ٧١ وهو الحد الأول من الصف الرابع وضربته في ١١ وهو الحد المقابل له من الصف الأول فانك تحصل على عدد ٢٨٤ ولو ضربت عدد ١١ في العدد الذي تحته وهو عدد ٤ لحصل عندك عدد ٤٤ فيضربه في ٥ الذي على يمين ١١ يكون عندنا ٢٢٠ وهذان العددان هما العددان المتحابان المتقدمان ، وبهذه الطريقة يمكن استخراج أعداد متحابية كما تريد بشرط أن تكون الأعداد المختارة بهذه الطريقة أعدادا أولية لا غير .

فلما سمع ذلك صاحبي قال : إن هذا الموضوع طال ، وكان الأولى أن نقف بنا عند القاعدة المتقدمة

قبل هذا الجدول ، أما هذا الجدول فإن أعمله كثيرة ، وشروطه كثيرة ، وهو صعب على فهمه حتى قرأه هذا التفسير أصعب جداً ، فما كان يلحق ذكره في تفسير آية : « الشمس والقمر بحسبان » . فقلت : أما هذه المعجزة فأنا أعلمها وأنا أكتب هذا قاصدا . فقال : لماذا ؟ قلت : لأن هنا عجبا عجبا ! فقلت : وما هو ؟ قلت لسرّ مصون ، وجوهه مكنون : * ومن خطب الحسنة لم يغلبها مهر *

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله * لا تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

أيها الأخ الذكي : إن أمة الاسلام اليوم يجب أن تلتقي إليها العلم لتفكر في أمرها ، وتبحث في الأرض وفي السماء ، أذكرك أيها الذكي بما مرّ في ﴿ سورة الحجر ﴾ عند قوله تعالى : « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » . فقال أتذكر ذلك . فقلت : ماذا رأيت هناك ؟ فقال : رأيت هناك نظام النبات وهو مرسوم ، وهناك مناسبة عجيبة بين أوراق الأشجار (اقرأ هذا المقام وانظر صوره البديعة هناك إن شئت)

ثم قلت له : إن بين أوراق النباتات المختلفة مناسبات عديدة ، ولكل صف علاقة مع بعض الصفوف الأخرى ، أليس هذا هو نفس الوزن ، وهذا الوزن اشتق منه الميزان المذكور في هذه السورة ، فإذا سمعنا الله يقول هنا : « والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطعوا في الميزان ، راقموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان » . فذلك كله بحسب موزون كوزن النبات . قال نعم . قلت : بجلّ الله وجلّ العلم ، فإذا أنا أيها الأخ الذكي أثبت بالأعداد المتحابة ووضعت الجدول المذكور وهو الصعب فلم أضعه جزافا . كلا . إن المخطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه ، فأنا الآن أريد أن أبين أن الحساب الذي فطرنا عليه وهو حقائق ثابتة لا تحوّل لها ولا تغير ، بل يستحيل تغييره قد قام عليه نظام العالم ، فكما وجدنا الأعداد المنجوبة في نفوسنا ذات نظام ثابت ، هكذا وجدنا الأوراق في الأشجار لها ذلك النظام الثابت ، ووجدنا لها جداول ذات ارتباط وانتظام كالانتظام الذي رأيناه في نفوسنا عند دراسة الأعداد المتحابة .

فواحسرتاه على المسلمين أولا ، وعلى نوع الانسان ثانيا ، جهل هذا الانسان نفسه ، وجهل ربه ، يدرسون الحساب وأكثرهم يعيشون ويموتون وهم لا يفكرون : « قتل الانسان ما أكفره » .

فياليت شعري أيها الأخ الذكي كيف نرى نفوسنا مفعورة على الحساب والنظام البديع ، ثم نجد نفس ذلك النظام أو ما يشبهه في نظام الكواكب ، ونظام النبات ، ونظام الحيوان .

الله أكبر : إن دراسة هذه العجائب هي السعادة ، أليست هذه هي الباب والسلم لمعرفة عجائب نفوسنا ، إن نفوسنا مفعورة على الحساب ، والحساب كامن فيها ، والحساب جيل بديع مشوق لما فيه من البدائع والعجائب ، وهذا الحساب الذي عرفنا طرفا منه ثابت في علم الله عز وجل ، وقد بنى نظام الدنيا عليه ، وبهذا نفهم معنى : « الشمس والقمر بحسبان » ونعرف مئات الآيات من القرآن إذ يقول : « لكل أمة أجل » ويقول : « لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون » ويقول : « وكل شيء عنده بمقدار » ويقول : « إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير » ومن هنا نشعر بمعنى القضاء والقدر ، ومن هنا نعرف كيف يكون تهذيب الأخلاق .

فقال : تهذيب الأخلاق ! لعلّ هذا خروج عن الموضوع ؟ فقلت هو في نفس الموضوع ، بل هو تكميم له . فقال : إن الموضوع هو أن عجائب الحساب تعطينا نموذجا ضئيلا نعرفنا نظام الله وقدره وعجائب صنعه ، وأن هذه العوالم منشآت على حساب فطرت عليه نفوسنا ، وهذه حقائق ثابتة ، والله يقول : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق » وهكذا ، فبهذا عرفنا أن هذه العوالم بنيت على حقائق ونفوسنا تشعر بطرف من هذه الحقائق ، فأما الأخلاق فهي شيء آخر . فقلت : إن تمرين الطلاب

في مدارس العالم قاطبة على مقدار تميزهم في العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية بحيث تصقل نفوسهم بحميد الصفات وجبل الأفعال ، لأن تلك النفوس تشعر بحجمال ونظام ثابت في هذه العوالم فيكسبها صفة الجمال والبهاء والعدل والنظام ، فيظهر ذلك في أفعالها . فقال : هذا مقبول عقلا وتؤيده أفعال الانسان ، لأنني رأيت الخلاق حينما يأتي له صبي ليعلمه يأمره أن يقف زمنا وهو يشاهد منازلة الخلاق ، فيكون ذلك أول باعث له على التقليد وسهولة العمل ، وللمشاهدة أثر فعال ، فهكذا منازلة العلوم الطبيعية والرياضية ، ولكن أنا أريد نصا من القرآن على ما تقول ، لأننا الآن في تفسيره ، وإن يعتقد المسلمون هذا القول إلا بنص من القرآن بشرط أن يكون في هذه السورة . فقلت : إن النص فيها ، ألم يقل الله تعالى : « ووضع الميزان ألا تظفوا في الميزان » يقول : نصبت الموازين في سماءي وفي أرضي ، وخلقتكم فيها لتشهدوا أفعالي بالبحث والتدقيق ، فتتربى ملكاتكم على النظام ، ومن أحب عملا أحب تقليده طبعاً ، فيكون ذلك داعياً لكم أن تزنوا أعمالكم فلا إفراط ولا تفريط . فقال : الحمد لله الذي علم الحكمة وهدى ، وسيكون لهذا القول مابعده ، وستكون في الاسلام أمة لم يحلم بها التاريخ ، فإن تفسير الآية اللفظي من غير تدقيق لا يعطى كمال هذه المعاني التي تقب عقول النوع الانساني وتغيره من حال إلى حال .

انحطاط تعاليم الحساب في بلاد الاسلام

وهل له نظير في المشاهدات الحسية

وكيف عرف الاوروبيون أن الأخلاق تصقلها هذه العلوم ، وإذا كانت أخلاق المتعلمين منهم شريفة فلماذا نراهم يتعلمون في الشرق ؟

ولكني أريد أن أسألك إذا أذنت لي في بعض أمور مرتبة على هذا النظام الحسابي . فقلت : حبا وكرامة فقال : [أولا] اني وأنا مجاور بالجامع الأزهر كنت أطلع على بعض كتب نحو [شمس المعارف الكبرى] للبوني فأجده يذكر هذه الأعداد المتحابة ، ويقول : نمزج أعداد اسم الرجل بأعداد اسم المرأة الخ وله هناك دعوات ونحو ذلك ، إن المطلع على هذه الكتب يظن أن هذا من الدين . فقلت : اعلم أن هذا الموضوع لا يتم فهمه إلا بمثل وهو نهر النيل ، إن نهر النيل يستمد ماءه من المطر النازل من السماء ، وهذا المطر ينزل بعضه فيدرن ثلجا فوق الجبال العالية هناك ، وإن كان ذلك في خط الاستواء لشدة الارتفاع ، وبقية المطر ينزل بعضه في باطن الأرض ، وبعضه يجري على ظاهرها ، والذي يجري على ظاهرها هو الذي ينزل في البحيرات هناك ، ومنه يكون نهر النيل ، والثلج فوق الجبال يمد النهر طول السنة بما ينحل من مائه بحرارة الشمس ، فإذا مرّ الماء في بلادنا إلى البحر الأبيض المتوسط سقى الزرع وأدرّ الضرع ، ولكن بعض الماء ينفرد ولا يتصل بالنهر فيكون في برك ومستنقعات ، فهو منفصل من النيل المتصل بالبحيرات والمطر والجبل ، وهذا الماء المنقطع هو من أفعال الله عز وجل ، ومعلوم أن الله هو الرحمن ، فرحمته تسرى في كل شيء ، فهذه البرك والمستنقعات لا يصلح ماؤها للشرب ، بل تكون ضارة للانسان والحيوان ، فيخاق الله عز وجل فيها الناموس والذباب والحشرات ، ويعطيها من رحمته قوّة وسلاحاً ، ويحفظ نسلها مهما حاربها الانسان وآذاها ، لأنه [أولا] يريد بقاء هذه الحيوانات وتكاثرها لأنها مخلوقاته [وثانياً] يجعلها مطهرات للجوّ [وثالثاً] ليجمعها جنوداً تقتل هذا الانسان الجاهل النظام حتى يرجع عن جهله .

إذا فهمت هذا أيها الأخ الذكي فاعلم أن الأمم جميعها في أول أمرها تكون نشطة مفكرة ذكية ، فإذا حلّ بها الضعف ، وانتابها الخور ، فسكت أوصال علومها ، وانحلت عراها ، واستعملت العلوم في غير ما وضعت له ، وأصبحت تلك العلوم فيها أشبه بالناموس والذباب وبقية الحشرات فلا تزال تؤذي .

والحشرات مژذيات ، ولله فيها أيضا رحمة ، فهو كما خلق الحشرات وجعل حياتها جارية على قوانين ، هكذا اذا جهلت الأمم أصول علومها تبعثت تلك العلوم وتناثرت بعد أن كانت قلادة واحدة ، فترى علم الأعداد مستعملا في غير ما وضع له بحيث ترى الأعداد المنجوبة المتقدمة قد جعلت لا موصداية بعد أن كانت دراستها لمعرفة الحكمة ، ونظام الخليفة ، وحب صانع العالم ، والتمسك من العلوم ، لسعادة الحياة وارتقاء الانسانية و ترى علم النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع لا تتجاوز معرفة أنفاذ القرآن فيضيع العمر فيها ويقف العقل عندها بعد أن كانت مقدمات لمعرفة أمثال هذه الأسرار ، و ترى علم الفقه وأصوله لا يقصد إلا لمعرفة آراء الشافعي وأبي حنيفة أو نحوهما مع بقاء عقل الطالب في قيد ذلك الامام لا يتجاوزه مع ان الاصول ما وضعت إلا للاجتهاد لا للاستعباد ، ثم ان القاضي يتولى القضاء لغرض التبسط في الحياة ، وحوز الدرهم والدينار ، مع ان هذا ترف ، والترف أصل الشقاء في هذه الحياة نفسها ، والقضاء في زماننا هم الذين يطلبون القضاء لأجل المال ، ولأجل الترف والتنعم في الحياة ، كل ذلك لأن هذه العلوم تقرأ والطالب ذاهل عن أصل وضع الدين ، لأن أصل الدين جاء ليجعل في الناس طبقة تسكون سياجا للأمة وقوادها ، والنوادر يكونون أقرب إلى الزهد ، وهكذا الملوك والأمراء كلهم يحرصون على المال لأنفسهم لا للدولة ، وكل ذلك ناشئ من الجهل بأصول الحياة وأصول الدين ، فإن صاحب الشرع ﷺ لم يحز المال لنفسه بل للأمة ، وعمر رضي الله عنه كذلك وبقية الخلفاء ، فخاف من بعدهم خلف جعلوا الامارة مغنا ، فهؤلاء وهؤلاء أشبه بالحشرات العائشات في البرك والمستنقعات ، والتشبيه صحيح لأن الذين يقرءون سورة يس لأجل جلب الرزق ، أو الذين يكتبون وفقا محسوباً بهيئة خاصة لأجل ذلك ، أو الذين يتولون القضاء أو الامارة وهم غافلون عن حقائق ما هم بصدد أولئك يتولون الزعامة لاعطاء العهود ولكن قصدهم جمع المال فقط ، فهؤلاء وهؤلاء لافرق بينهم وبين الحشرات في البرك وفي المستنقعات ، ومثلهم في ذلك الذين يحسبون [بالزارجة] فهؤلاء لهم حساب منظم نظاما بديعا ، وقد يكون وراء هذا الحساب اخبار ببعض الحقائق ، والأكثر منه يتخلف كما حققته أنا معهم ودرسته دراسة تامة ، وهكذا الذين يعرفون علم الرمل وأمثالهم ، ومثلهم من يحضر الأرواح لقصد المنافع الدنيوية ، فكل هؤلاء يجب الاستيقاظ لهم .

على قادة الأمة (وهل القادة إلا المفكرون الذين قرءوا علوما شتى ومنهم قراء هذا التفسير) أن يحذفوا من البلاد الاسلامية تلك الكتب التي فيها اليازرجة والرمل ، وأمثال كتب البوني ، فهذه مضعفات للعزائم ، فإن الانسان يترك العمل ويتسكل على الأمل ، وجميع ذلك يضر الأمم ضررا بليغا ، لأن السحر وأمثاله يريدون أن يعيشوا على حساب الأمة ، وهذا هو الوبال والضلال ، بل يجب أن تحصى الأمة ولا يترك أحد بغير صناعة ، فهذا هو الواجب الآن .

فقال صاحبي : لقد شفيت صدري في هذا السؤال فارجوا الاجابة على السؤال الثاني . فقلت سل ما تشاء :

السؤال الثاني

إن هذا القول أحدث عندي اشكالا واشكالا وحيرة ، إنك أثبت من القرآن في هذه السورة أن العلوم الرياضية والطبيعية تصقل العقول وتهذب الأخلاق : أي تساعد على ذلك ، ولكن يقتضي هذا [أمرين : الأول] ان أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وبقية الخلفاء الراشدين كانوا على سداد في آرائهم وفضل عظيم ، وقد أجمع الناقدون من الأمم المعاصرة لنا أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا أذكي وأعدل من قيصر وكسرى في زمانهما مع ان المدارس في الفرس والرومان كانت مكتظة بالطلاب ، وهؤلاء الملوك تعلموا فيها ، فكيف وجدنا من لم يقرأ رياضيات ولا طبيعيات أعدل وأتم أخلاقا من القارئ المتعلمين [الأمر الثاني] أن بعض الأوروبيين الحاليين الذين يقرءون الرياضيات والطبيعيات هم شر خلق الله على الناس وعلى

أنفسهم . ثم أخذ يقول : وأى دليل أتم وبرهان أعظم على نقض هذه النظرية مما نراه من التوازن بين أخلاق الأوروبيين الذين في زماننا وهم بلاسراء دارسون هذه العلوم ، وبين أخلاق الصحابة الذين لم يدرسوها أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وسرد ماجاء في الجزء الثانى من كتاب « حاضر العالم الإسلامى » من أن الأمم الأوروبية في هذه الحرب الكبرى عاهدوا المسلمين ونقضوا العهود ، فهذه أم ناكثة لا عهد لا يوثق بها . ثم قال : أليس من أقبح الأخلاق نقض العهد ! أولم يقرأ هؤلاء هذه العلوم ؟ ثم لنظر ماجاء في سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه في كتاب « أشهر مشاهير الإسلام » فقد جاء فيه في صفحة ٣٣١ تحت العنوان الآتى مانصه :

خبر جندى سابور ، وأمان عبد أمضاه جيش المسلمين

روى الطبرى أن أبا سيرة لما فرغ من السيرس خرج في جنده حتى نزل على جندى سابور ، وزر بن عبد الله بن كليب محاصره ، فأقاموا عليها يغادونهم ويراحونهم القتال ، فلم يفجأهم يوما إلا وأبواب البلد تفتح ، ثم خرج الناس وخرج الأسواق وانبت أهلها ، فغار المسلمون من ذلك ، وأرسلوا فسألوه أن مالكم قلوا رميتم إيانا بالأمان فقبلناه وقررنا لكم بالجزء على أن تمنعونا ، فقال المسلمون ما فعلنا ، فقال أهل جندى سابور ونحن ما كذبنا ، فسأل المسلمون فيما بينهم ، فإذا عبد يدعى [مكنا] كان أصله منها هو الذى كتب لهم ، فقالوا إنما هو عبد ، فقالوا إنا لانعرف حركم من عبدكم قد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبذل فان شئتم فاغدروا ، فأمسكوا عنهم وكتبوا بذلك إلى عمر فكتب إليهم يقول : إن الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا ، مادتم في شك أجيزوهم وفوا لهم ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم اه



ولما أتم هذا المنال حرق ببصره إلى وأخذ يقول : إن النظرية لاحظ لها من الحقيقة ، فهام أولاء القياصرة والأكسرة قديما ، وهكذا ساسة أهل أوروبا حديثا سقطوا في الميدان الأخلاقى وهم الدارسون لهذه العلوم ، والصحابة وعمر لم يخونوا العهد وصدقوا ما عاهدوا ، وأهل أوروبا اليوم ناكثوا العهود .

جواب هذين الاعتراضين

فقلت أيها الأخ الذكى : إن الأمم لها دوران : دور البداءة ، ودور الحضارة ، فهى في دور البداءة تكون أقرب إلى الخير لأنها لاتزال على الفطرة ، ولا يعوزها إلا أمران : إزالة الخرافات في العقائد ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم فى الأخلاق ، ومتى زال هذان العائقان انبعثت الفطرة إلى الأعمال الصالحة لأنه لا غشاة تحجبها ، ولا غطاء ، ولا ران عليها ، وهذا جوابى على اعتراضك الأول ، فإذا رأيت أبا بكر وعمر وبقية الخلفاء أفضل من ملوك زمانهم ، فذلك ان هؤلاء الملوك قد حجبت عنهم فطرتهم بالحضارة وغشوات الزلات المنسكرة انفاشية فى الأمم التى طال عليها العهد وقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون .

فأما الأمم فى دور الحضارة فإن الشرور والشهوات والطمع والبغى تكزن حجبا على القلوب فلا بد من دراسة العلوم الرياضية والطبيعية لتسقل النفس فتقرب من فطرتها ، وتحب الحق الذى درسته لأنه مخزوء فى النفس وظاهر فى الطبيعة ، ففى شهادته أخذت ترجع إلى فطرتها شيئا فشيئا ، وذلك من غير جدال شأن جميع الطبقة المتعلمة فى الأمم الراقية ، وهم بلا جدال حافظون أسكيا ن دولهم ، وعندهم عدل بقدر ما كانهم . فقال : ما دليلك على هذا ؟ قلت : دليلى اننا نرسل أبناءنا يتعلمون القوانين فى مدارسهم ، وأيضا ان الأمم التى تغير على بلادنا بقضها وقضيضها وتغلبنا ، لن يتم ذلك لها إلا بحفظ بلادها أولا ، لأن الأمم أشبه بالآلات

التي تستخرج الماء من الأرض ، فكل صناعة وعلم جزء من تلك الآلة ، وبني فسدت قطعة منها وقفت حركتها ، فإذا كننا نراهم على هذا النمط فمن المستحيل أن يكون القضاء مجبواً على الظلم والاختلال النظام وبقوا في بلادهم جائعين .

فقال : هذا حق ، ولكني أقول انهم يظلموننا نحن ، وقد وازنت بين إخلافهم وعدنا وبين وفاء الصحابة . فقلت : حقا إن هؤلاء القوم أخلفوا عهودهم معنا ، ولم تنفعهم ثقافتهم بالعلوم ، والصحابة كانوا أقرب إلى العدل مع الأمم منهم ، ذلك لأن هؤلاء أشبه برجل اتبع رأى الأطباء في الطعام والشراب فأكل الفاكية والخضر ولكنه ابتلى بشرب الخمر واتبع الشهوات ، فهؤلاء وإن غذيت عقولهم بالعلوم الطبيعية والرياضية وصلحت كما تصلح الأجسام بالأغذية الصحية انتابتهم أمراض اجتماعية أفسدت فطرتهم بالنسبة للأمم الشرق كما يفسد الجسم المعتدل بالأغذية الطبيعية إذا شرب الخمر أو أكثر من التبغ والقهوة والشاي والمخدرات الأخرى .

إن هذه الأمم يعطون تلاميذهم في جامعاتهم وكتباتهم درسا خاصا بأهم الشرق فيقولون : إياكم أن تعاملوا هذه الشعوب معاملة الأوروبيين لأننا نريد أن نبقىهم على حال أدنى ليكونوا تحت طاعتنا خاضعين ، وهذا جوابي عن اعتراضك الثاني ، ولا فرق بين هؤلاء الأوروبيين الذين يذلون الأمم الشرقية وبين كثير من أسلافنا بعد عصر الخلافة الذين ظلموا الأمم وخرّبوا البلاد (اقرأ في مقدمة ابن خلدون وارجع إليه في سورة النمل عند آية : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، الخ . فقال : شرحت صدرى شرح الله صدرى وبهذا تم الكلام على الإجابة على السؤال الثاني ، والحمد لله رب العالمين .

ملخص ما تقدم

هناك أخذ صديقي العالم يحدّثني في هذا الموضوع قائلا : إني أخاف أن يكون هذا القول خارجا عن الموضوع ، نحن في آية « الشمس والقمر بحسبان » وإلى لما سمعت منك أن دراسة هذه العلوم تعلم العدل خرجت عن الموضوع بذكر السياسة بين الشرق والغرب ، وأردت بذلك اختبار طريقك ، هل مايقوله كثير من الناس حق بالنسبة لك من حيث أنك دائما تخرج عن دائرة التفسير ؟ فقلت : إن مايقوله كنت ألاحظه أثناء كلامك وأعلم أنك تريد اخراجه من الموضوع استدراجا ، ولكني أنا أعلم أن الكلام لم يخرج عن الموضوع فما رأيته أنت نقضا للأسلوب أراه أنا كلالا . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت : اننا قلنا ان للعالم كلها مبنية على الحساب ، والحساب ثابت في النفس ، والعالم على مقتضاه ، وقلنا ان الأعداد الأولية أقل من الأعداد التي تقبل القسمة ، وأن الأولية يعوزها بعض البحث ، والأعداد الكاملة تحتاج إلى بحث أتم ، والأعداد المتحابة العجيبة يعوزها تنقيب أكثر لجملها وقلتها وإبداعها وعجائبها ، وأن هناك المتوالية الهندسية والعددية ، والجذر والتربيع ، والكسر الدائر وغير الدائر ، وأثبت أن هذه العلوم تصقل العقول ولها دخل في تهذيب الأخلاق ، فلما اعترضت أنت على ذلك بأعمال الأكسرة والقيصرة ، وبأعمال أهل أوروبا أجبتك بما أقنعك ، وبعد هذا وذاك أرى أن هذا كله في تفسير الآية ، ألم ترعاك الله أن الشمس والقمر مبنيان على الحساب . قال بلى . قلت : والزروع بأقسامها كلها مبنيات على حساب الشمس والقمر . فقال بلى . قلت : أليست هذه هي العلوم الطبيعية والرياضية ؟ قال بلى . قلت : أوليس قوله تعالى : « ووضع الميزان الأنطغوا في الميزان » راجع لعلم الأخلاق والسياسة معا لأن السياسة أخلاق أيضا في ساحات أعم من الأخلاق الفردية . قال بلى وربى . قلت : إذن ما أوردته أنت لم يخرج بنا عن الموضوع بل هو انعام له وأنت في ذلك من المصلحين . قال الحمد لله والشكر له ، وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في العدد الزائد

والناقص والأعداد المتحابة فلا يبتدىء في :

الفصل الثالث في الجذر والتربيع

والمتوالية العددية والمتوالية والهندسية

ولا أريد أن أطيل الكلام على بقية المواضع هنا ، فمن أراد فليراجع ما تقدم في ﴿ سورة الذاريات ﴾ عند آية : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » في المجلد الثالث والعشرين من هذا التفسير ، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية في عجائب الحساب في سورة الرحمن ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

زيادة إيضاح قوله تعالى : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان

اعلم أن اللائى على ثلاثة أنواع : طبيعية ، ومولدة ، وصناعية ، وهذه سنتكلم عليها من [طريقين : الطريق الأول] تميز كل منها ، وبيان نفعها المادى في التجارة [الطريق الثانى] بيان جلالها العلمى في الحكمة .

الكلام على الطريق الأول وهو تميز أنواع اللائى الثلاثة

اللؤلؤ الطبيعي

لقد تقدم الكلام عليه في [سورة الفاتحة] وهناك بيان أنه يخلق في [المحار] الذى يعيش في البحار ويتكون في باطنه ، وهناك إيضاح كاف لحياة وأوصاف هذا المحار ، ونزيد عليه هنا أن نقول : لقد اختلف العلماء في سبب تكون اللؤلؤ في جوف المحار ، فمن قائل : ان اللؤلؤ يتكون بسبب حيوان حلقى صغير يدخل جسم المحار فتجتمع حوله المادة اللؤلؤية لتقتله ، وقد بحث (هردمان) و (هورتل) في لؤلؤ سيلان فقالا : ان في قلب كل أولوة بحثنا فيها نواة هي بذرة دودة من نوع الدود القرعى ، ووافقهما غيرهما على ذلك .

فهذان العالمان ومن وافقهما عينا نوع ذلك الداخل الغريب في جوف [المحار] الذى اجتمعت حوله مادة اللؤلؤ .

وقال الدكتور [جايموس] قولاً لا يخالف ما تقدم بل يوضحه فقط ، ذلك انه امتحن نوعاً مخصوصاً من محار اللؤلؤ فوجد انه تحل فيه الدودة الحلمية المعروفة بلفظ [جنوفالس] وهذه الدودة يحيط بها كيس من نسيج بشرة المحار الذى يفرز المادة الصدفية ، فاذا ماتت أخرجت من الكيس أخذ الكيس يفرز المادة اللؤلؤية طبقات بعضها فوق بعض فيكون لؤلؤة ، ولا يتكون هذا الكيس حول جسم آخر اذا دخل أنسجة الحيوان سواء أكان هذا الجسم جامداً أو حيواناً حلقياً غير [الجنوفالس] إذن هذه الدودة المخصوصة هي سبب تكون اللؤلؤ في هذا النوع من المحار ، أما غيره فانه يتكون بأى جسم غريب دخل المحار بدليل ماسياتى في اللؤلؤ الصناعى وانه يتكون بادخال أى جسم .

اللؤلؤ المولد

لما عرف الناس ما سبب تكون اللؤلؤ في جوف المحار قلوا لماذا لا نريه كما نرى الدجاج والسمك وسائر الحيوان ؟ فعمدوا إلى المحار ، وأدخلوا في جوف كل واحدة منه [هنة صغيرة] كاهنة التى تدخل في الهيئة الطبيعية فتكون اللؤلؤ ، ولكنه يحتاج إلى زمان طويل كالذى يقضيه في اللؤلؤ الطبيعى ، فأخذوا يدخلون في جوف المحار [هنة كبيرة] فهذه يتكون حولها اللؤلؤ سريعاً على مقدار كبر حجمها ، وقد

كسب القوم بهذا في التجارة مالا كثيرا بسبب العلم ، ولولا العلم بسبب تكون اللؤلؤ ما أمكنهم تربيته ولا تقصير زمنه ولا اكثاره ، ولا يعرف اللؤلؤ الطبيعي من المولد إلا بأشعة [اكس] .

اللؤلؤ الصناعي أو المقلد

جاء في تاريخ اللؤلؤ أن رجلا فرنسيا سنة ١٦٥ م يسمى [جاكون] كان يغسل نوعا من السمك في ماء عذب ، فرأى في غسالته لمعانا كامعانا اللؤلؤ حين يجف ، فخطر له أن يطلى به خرزا من الزجاج بعد مزجه بشيء من الشمع حتى يلصق بالزجاج ، ففعل وصنع أول لؤلؤة صناعية في التاريخ ، فاشتهرت لآله وأقبلت عليها الغواني في ذلك العصر ، وصارت النائية لا تحسب جواهرها كاملة إن لم يكن بينها عقد من هذا الخرز اللامع ، وقد أصبحت هذه صناعة فرنسية أشار لها العالم [زديير] سنة ١٧١٦ ومصدر هذه المادة نوع من السمك يسمى [البينوس لوسيدوس] وفي انكثرا يستخرجونه من قشر سمك [الزنكه] الهرنغ ، فهذه الأسماك تغسل بالماء العذب غسلا لطيفا حتى تنظف من الملح والقذر ، ثم تحك الحراشف التي على بطنها بقفا سمكين فترسب المادة اللؤلؤية في الماء ، وإذا أريد حفظها في الماء أضيف له شيء من [الامونيا] حتى لا يتطرق الفساد إليها سريعا ، وكيفية صنع الخرز الذي يطلى بهذه المادة اللؤلؤية هو ما يأتي :
(١) أن يؤتى بخرز فارغ من الداخل يستحضر بنفخ زجاج عادي غير ملون في قوالب صغيرة بحسب الحجم المطلوب .

(٢) أن يؤتى بكتل صلبة من الزجاج ، فأنوع الأول من الخرز الزجاجي يطلى من الداخل ، ثم يحشى بنوع من الشمع ملون أو غير ملون ، أما النوع الثاني فيطلى من الخارج إذ لا جوف له يطلى ، وهذا يفوق الأول في مشاكته للؤلؤ الحقيقي ، ولكن طلاؤه معرض للتدثر بخلاف الأول ، وثمن العقد الواحد من هذا النوع من ريال إلى جنيه فقط . انتهى الكلام على الطريق الأول وهو تمييز أنواع اللؤلؤ ، والحمد لله رب العالمين .

الطريق الثاني : بيان جمالها العلمي في الحكمة

هذا الطريق الثاني لا يتسنى معرفته إلا بعد فهم الطريق الأول ، لذلك قدمناه ، إن الله عز وجل جعل هذه الدنيا ونظامها مرقاة للعقول الانسانية ترقى بها إلى معارج الحكمة ، فانظر إلى نظام اللؤلؤ ، وما اللؤلؤ إلا طبقات دقيقة (مبلورة) أي مشككة بأشكال منتظمة من كربونات الجير ، ثم إن هذا الذي نشاهده من الألوان الزاهية على سطحها لم يكن شيئا سوى تكسر أشعة النور على هذه الطبقات الدقيقة ، هذا هو اللؤلؤ وهذا هو السبب في جماله ، وهنا يبتدىء العجب في العلم فنقول :

اللؤلؤ إذن جبر مع كربون : أي جبر مع خم ، مادتان اتحدت إحداهما بالأخرى اتحادا خاصا بأجزاء محدودات ، امتصهما الحار من ماء البحر ، فالحار هو الذي يتغذى بهذه المواد الجيرية والمواد الفحمية وغيرها وهذا الغذاء يصطنى منه هاتان المادتان : الجبر والفحم ، ثم بصيران جسم متحدا واحدا ، وهذا الجسم يلمع لماذا يكون هذا الجمال ؟ ذلك الجمال بسبب ضوء الشمس وغيره ، فضوء الشمس الآتي لنا من طبقات بعيدة يقع على هذا الجسم الجبري الفحمي ، فيجد هناك ذرات منظمة تعيط بهذا الجرم صالحة لأن تعكس عنها ذلك النور فيحصل تموج باهر وجليل ، فهذا هو جمال اللؤلؤ ، هو ناشئ من تدبير في باطن الحار ، وتدبير في ضوء الشمس ، وتدبير في هيئة خلق اللؤلؤة ، فهناك مادة من جبر وخم ، وهناك نظام الذرات المنظم ، وهناك شعاع الأنوار كالشمس ، وهذا قوله تعالى : « إن ربي لطيف لما يشاء » فظهر هنا في هذا كما في غيره أطلعه في صنع اللؤلؤ ، إذ استخرجه من مواد معروفة عندنا لا يرق فيها ولا لعان ، فما هو الفحم ؟

إن هو إلا مادة مظلمة تحرقها فتستدفئ بها ، وبها تجري القطرات والسفن في البحار ، وبها ندير آلاتنا ، ونصنع خبزنا وما نريد من الأعمال ، ومنه اشتقت مثاث الألوان في الصباغة ، وهكذا كان الغاز الذي تضاء به شوارع المدن الكبار كإ القاهرة والاسكندرية وغيرهما ، إن الفحم أو الكربون هو نفس الماس على شرط أن يكون نقيا وهو اللؤلؤ على شرط اتحاده ، مع الجير ، إن الله اشتق من هذه المادة لؤلؤا وماسا كما اشتق العقل في الانسان من المادة الجامدة ، إن النجم المظلم قد اشتقت منه الأنوار ، واشتق منه الجبال ، فالأنوار معروفة مشاهدة ، وهكذا أنواع ألوان الصباغة ، وأما الجبال فهو ما نحن بصدده من الآلى الجبلية ، جعل الله الجبال هنا من مادتين مشبوذتين : الفحم والجير ليسين للناس أن كل ما حولكم فيه أسرار لانهاية لها بل كمن في كل مخلوق جمال لا يدركه الناس إلا بالعلم ، وأكثر هذا الانسان مغرورون محجوبون ، والعلم هو الذي يوقظهم لأمرين : رقى دنيوى ، ورقى نفسى ، أما الرقى الدنيوى فمثل ما ظهر في هذا المقام من توليد اللؤلؤ وعدم الاكتفاء بما يكون من المحار بحسب طبيعته كما قل تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » فجعل ذلك من الآلاء أى النعم ، وذكر لفظ رب وأضافه للمخاطبين فقال ربكما أيها الانسان وبأنها الجآن ، وذلك ليدلنا على أمرين : تربيتهم هو سبحانه لهذا اللؤلؤ ، وتربيتنا نحن له ، وهو اللؤلؤ المولد فان الناس يربونه الآن ، ولعمرك ما ذكره الله هنا وعبر بما فيه معنى التربية إلا ليوقظ المسلمين إلى أن في ذلك علما تحب دراسته وجوبا كدائيا لرقى العقول ولرقى الصناعات بالتربية العملية من نوع الانسان لهذا اللؤلؤ ، وكرر الله لفظ « رب » وراء كل نعمة من النعم في هذه السورة إيقاظا لنا أن تفكر في تربية هذه العوالم كلها وتقف على الحقائق ، وهذا هو سر الفاتحة التي يقرأها المسلم صباحا ومساء فيقول « الحمد لله رب العالمين » .

فسورة [الرحمن] التي جمعت ذكر المخلوقات في الدنيا والمخلوقات في الآخرة قد ناطت ذلك كله بالتربية وأفادت إيضاح [سورة الفاتحة] وبينت التربية وأنواعها إجمالا ، فلم تذكر شمسا ولا قمر ولا نجما ولا شجرا ولا سماء ولا أرضا ولا فاكهة ولا نخلا ولا حبا ولا عصفرا ولا نارا ولا جانا ولا انسا ولا جانا ولا شرقا ولا غربا ولا بحرا ولا برزا ولا لؤلؤا ولا مرجانا ولا نارا ولا نجاسا ولا سفينة في بحر ولا جنة ولا حورا عينا ولا غيرها إلا ذكرها معبرا عنه بالنعمة وبالتربية ذكرى للمسلمين بعدنا ، فليقرهون هذا القول وأمثاله ، وبدخلون في بحر جلى من العلم والحكمة وهم محذون .

من عجائب هذا المقام انك ترى أن أنواع اللؤلؤ لم تفارق البحر سواء أكان طبيعيا أم مولدا أم كان صناعيا ، ألم تر أن الصناعى إنما هو عبارة عما يكون من مواد عالقة بحراشف السمك ، وهذه المادة اللامعة يطل بها الزجاج ، فالطبيعى من المحار ، والصناعى مما يرى على حراشف السمك ، وهذا يطل به الزجاج إما من داخل وإما من خارج ، وما هو الزجاج ؟ إن هو إلا رمل متحد مع مغنيسيا وجير ، فرجع الأمر إلى أن الجمال من فحم وجير ورمل ، فأما المادة التي تلمع على حراشف السمك فأنما خلقت فيه لمنفعة نفسه ، ذلك انه ينعكس بسبب تلك المادة بريق فضى وهاج عن بطنها ، فبذلك تخفى عن أعين أعدائها لما تلقى على أعين أولئك الأعداء من النور الذى يهرأبصارها فلا تتمكن من رؤيتها فلا تقتنهها ، فتعجب من مادة جاءت للسمكة وقاية من الأعداء ، وللغادات الحسان جذبا للأحباب والأصدقاء « فتبارك الله أحسن الخالقين » . « وفي الأرض آيات للموقنين » وإلى هنا تم الكلام على قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وبهذا تم تفسير [سورة الرحمن] والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ١٧ من شهر أغسطس سنة ١٩٢٧ م

تفسير سورة الواقعة

هي مكية

الإقوله تعالى : أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ، وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون . فمدنية

آياتها ٩٦ - نزلت بعد طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا * وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُمْسِكِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُودٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ * وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ *

لَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَا كِلُونَ
 مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُومٍ * فَالِثُّونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ
 شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ * نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ
 مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ
 وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ
 النِّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ
 الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ * بَلْ نَحْنُ
 مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ
 الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ *
 ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَفِتْنًا لِلْمُؤْمِنِينَ *
 فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ *
 إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ *
 فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَتٌ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ
 لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا
 إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ *
 فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ
 حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول في تفسير البسملة .

القسم الثاني في ذكر السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة وجرائمهم من أول السورة إلى قوله تعالى « هذا نزله يوم الدين » .

القسم الثالث في ذكر العجائب الكونية والاستدلال بها على وجود الخالق سبحانه وتعالى وقدرته ، واختتام ذلك بإلحاح القسم الأول .

القسم الأول في تفسير البسملة

أكتب هذا في صباح يوم السبت ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٢ م ذا كرا ماشاهدته في مساء يوم الثلاثاء انقائت ١٦ من هذا الشهر ، ذلك اني توجهت إلى مزرعتنا بجهة المرج بالقرب من القاهرة سيرا على قدمي كما ذكرت نظيره سابقا في هذا التفسير ، لأن ذلك أقرب للصحة وأروح للبدن ، وكل مؤلف لا يسير كل يوم أميالا على قدميه لاحظله غالبا في ارتفاع الناس بمواقفه لضعف النشاط في روحه واعتلال صحته ، وبينما أنا سائر إذ رأيت امرأة اعراية ترعى غنمات وشابا معها يساعدها في ذلك ، والمرأة لابسة أهداما قاصة تحمل محلاة على ظهرها فخطر لي ما يأتي :

هذه المرأة في نظر هذا الشاب أجمل امرأة في الدنيا وأشرف ، لأنهم يرون الفلاحين وأهل المدينة أدنى منهم منزلة وأقل سعادة ، ثم وازنت بين هذه المرأة وأختها التي تعيش في القصور بمصر وهي جارتها ، وهذه الأخيرة لا ترى لها سعادة إلا في أن تكون مرفهة البال ، محجوبة في القصر ، قد حرمت من الشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ، وتمتعت بأنواع اللذات في قصرها ، ولاعمل لها غالبا إلا أن تزين صباحا ومساء وإذا ذكرت لها هذه الاعراية حترتها وعدتها من سقط المذاع ، إذن السعادة في هذه الحياة تابعة للعقيدة ، فالبدوية سعيدة بعقيدتها ، والحضرية سعيدة بعقيدتها وان كانت الأولى أقرب للحقيقة لصحة بدنها وارتياضها في الهواء وضوء الشمس ، وههنا ظهرت لي هذه القاعدة : السعادة تتبع العقيدة ، فأهل كل دين في الأرض يرون سعادتهم بدينهم سواء أعبدوا صنما أم فيلا أم شجرا أم حجرا ، وفي الآية : « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ومأواكم النار وما لكم من ناصرين » فالناس جميعا يتبعون ما ألقى لهم من العقائد والآراء ، فأرباب كل حرفة سعاداء بحرفتهم ، بل المصوص يظنون أنفسهم في بحبوحة السعادة والهناء .

الاهم إن رجة كل حي في الأرض رجة جزئية ، وهذه الرجات الجزئية بعالمنا تحيط بها الشمس والاقمار والكواكب ، تلك العوالم التي تدوم قرونا وقرونا . وعشرات آلاف آلاف السنين ، إذن هذه الرجات الجزئية فوقها رجة كلية كأنها دائمة ، تشرق الشمس وتغرب وهكذا القمر والنجوم ، جلّ الله ، جلّ الله ، عجب وعجب ! شروق وغروب للكواكب ، وحياة وموت لمن على الأرض وهم يسعدون سعادات جزئية سواء أكانت تلك السعادات ضالة خاطئة ، أم مهدية صالحة ، عبد الناس الشمس والقمر ، لماذا عبدوهما ؟ لدوامهما ، وما لادوام له لاسعادة فيه ، السعادة الوقتية كلاسعادة ، فليعيش الناس في الأرض وليموتوا وليتمتعوا وليأكلوا ولتأكل أنعامهم ثم ليموتوا ، فهذه سعادات جزئية ، بل الشمس والقمر والنجوم أيضا لادوام لكن فقد ثبت أنهن متغيرات ، وسيأتي يوم تبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات كما أثبت ذلك العلم الحديث الله اكبر : إذن سعادة نفوسنا بعقائدها ، والعقائد المعترضة للتغير لاسعادة بها ، وأهل الأرض غير باقين ، والشمس والاقمار والكواكب ذاهبات من الوجود كأهل الأرضين ، إذن هذه أيضا رجات جزئيات والرجة الكلية مصدر تلك الرجات ، إذن الرجة على ثلاثة أقسام : رجة جزئية سريعة التغير ، ورجة جزئية بطيئة التغير ، ورجة كلية هي مصدر الرجتين السابقتين ولا تتغير ، ولقد أثبتنا أن السعادة تتبع العتيدة ، بل لادوام حتى من العقلاء إلا بفكر يحتمذه ورأى يتبعه ، إن الآراء غذاء العقول كما ان الحبوب وأنواع النبات غذاء الأجسام ، وأكبر العقول من تتغذى بأجل العلوم وأبهاها وأدومها ، وهو ذلك المصدر الذي منه استمد ذلك الجمال والبهاء وأنواع الرجات من شمس واقمار وأغذية وفواكه وأنواع الحيوان والانسان ، يعبد

الناس ربهم ويظن جهالهم أن ذلك أشبه بما يفعله العبيد مع ساداتهم وهو خطأ فاضح ، إن الناس يغرمون باعظام الناس لهم ، ولكن الله هو الذى خلق الناس فلا وزن لهم عنده من هذا القبيل ، لأنهم لا يعمل لهم إلا باعائه هو ، أما السيد والملك فعمل الناس ليس مستمداً منه ، فلذلك يفرح باعظامهم ، إذن قول الله تعالى « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » ليس يقصد منه إلا منفعة العابدين وارتقاؤهم ، وقد قدمنا أن السعادة على مقتضى العقائد والآراء ، فكما ازداد الانسان عبادة أوعلمها بهذه الدنيا وجاها ازدادت النفس اطمئنانا وارتقاء وحكمة بمن هو باقى ، ويتبع بقاءه بقاء الشمس والقمر وكل من على الأرض ، وعلى ذلك تبقى هذه النفوس إلى الأبد حية سعيدة لأنها تحيا وتبقى بحياة وبقاء من تفكر فيه بعبادة وبعلم ، إذن بقاء الناس بعد الموت سعاداً لن يكون وإن يتم إلا بأن نفوسهم تمتلئ علماً بمن هو أجل وأدوم وأرحم الأحياء وهو الذى أبدع هذا الجمال والبهاء والحسن والاشراق ، وهذا معنى [بسم الله الرحمن الرحيم] فى أول سورة [الواقعة] هنا .

فى سورة الواقعة قوم أشقياء وقوم سعداء بالنار وبالجنة ، وأعقب ذلك بعجب وأى عجب ! ذكر الماء والنار والنبات والافسان والمشرقات فى السموات ، فما على الأرض ايس له إلا السعادة الجزئية لقلة دوامه والمشرقات فى السموات أدوم وأبقى ، وقد ذكرت بعد ذلك فى السورة : « فلا أقسم بمواقع النجوم وأنه لقسم لو تعلمون عظيم » ، إذن عظمة النجوم لاتعقل إلا بالعلم ، ذلك انها أدوم من الماء والنار والحيوان والنبات المتقدم فى السورة ، وختم السورة بالسعادة العليا وهو القسم الثالث من أقسام الرحمة ، وهى السعادة الدائمة فقال : « فسبح باسم ربك العظيم » فذكر التسبيح ، وذكر الرب ، وذكر العظمة ، التسبيح تنزيه عن كل مالا يليق لمقام القدس ، فاذا خلق الموت والحياة فى أهل الأرض ، واذا غير الشمس والأقمار فى السموات فذلك لأن العوالم لا يتم نظامها إلا بهذه الدرجات ، فكل ألم وكل شر جزئى لم يكن إلا مقدمة لارحة ، والرحمة الحقيقية امتلاء النفس بمعرفة الربوبية والعظمة الباقيتين : ولولا ذلك لم تخلق هذه النفوس فى الأرضين .

نفحة الرحمت

لما وصلت إلى الضيعة أخذت أطوف بين الحقول ، وأجلس تحت الأشجار ، فحيل لى أن نعمات الأشجار الباسقات ، وحفيف الأوراق ، وغوير الأعشاب ، وتغريد الطيور ، وطنين الحشرات ، وهبوب النسائم فى البطاح ، وأن ضياء الشمس ونور القمر وتلاؤ الكواكب نهارة و ليلا لم يخلقن إلا ليكن أعراساً لهذه الأرواح التى تزف الآن من عالم الحشرات إلى عالم الكمال والجمال ، فالنعمات المذكورات قائمات مقام الدفوف والمزامير فى الأعراس الأرضية ، والمشرقات فى السموات قائمات مقام المشاعل فى الأعراس ، بل أنا حينما جلست فى الحقل تخيلت أن نفسى هى التى تزف إلى ذلك العالم الجليل ، والمشرقات فى السماء تزين الموكب وكأن الرحات العليا تحدثنى بهذه النعمات ، وتؤنسنى بحفيف الأشجار ، وبدائع الأزهار ، وتقول لى : هيا إلى العلا ، قم فبشر أهل الأرض بهذه البشارات ، إن فى الأرض نفوساً امتلأت بهذه المعاني وفهمت هذه الرحات ، وهذه هى التى تزف إلى العوالم الجميلة ، وهذه الأرواح هى الخلائف فى الارض ، وهى التى تفهم آية : « وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات » وإلى هنا تم الكلام على القسم الاول فى تفسير البسملة . كتب صباح يوم السبت فى التاريخ المذكور ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثاني

في ذكر السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة وجزائهم

مقدمة في مناسبة السورة لما قبلها

اعلم أن هذه السورة بينها وبين [سورة الرحمن] مشابهة ، ففي هذه ذكر النعم في القسم الثالث ، وهو خلق الانسان وخلق الزرع والماء والنار ، وفيه الاقسام بمواقع النجوم على عظمة القرآن ، وهذه كلها من آلاء الله كالمذكورة في سورة الرحمن ، وفي القسم الثاني وصف الجنة والنار ، وذلك في سورة الرحمن فبين السورتين تشابه ، وإنما قدم ذكر القيامة وأصحاب الجنة وأصحاب النار ووصف المقامين ليناسب آخر سورة الرحمن ، فإن القسم الثالث منها في وصف أهل النار وأهل الجنة والعذاب والنعيم ، وقد وصف أهل الجنة لمناسبة ذكره في آخر السورة : فكان [سورة الواقعة] من حيث ترتيبها بعكس [سورة الرحمن] ابتداء وانتهاء ، ونشرع في التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(اذا وقعت الواقعة) اذا قامت القيامة سميت واقعة لتحقق وقوعها (ليس لوقعتها كاذبة) أى نفس كاذبة ، فهي حين تقع لا تكون نفس تكذب على الله فتذكره ، ولا على القيامة فتسكرها ، لأنها تحققها بالوقوع والظهور والمعاناة والعذاب ، فأما في الدنيا فما أكثر النفوس الكاذبة على الله بانكاره وانكارها لأنهم لم يعانوا العذاب كما عايناه المعذبون ، هي (خافضة) لقوم (رافعة) لآخرين ، وأيضا تزيل الأجرام من أماكنها فتخفض وترفع ، وهذا بيان لعظمتها ، فإن الوقائع العظام هذا شأنها (إذا رجعت الأرض رجا) يقول تعالى هي خافضة رافعة وقت تحريك الأرض حركة شديدة وزلايتها بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل ، وقوله (وبست الجبال بسا) أى صارت كشيء مهبل وسيرت على وجه الأرض حتى ذهب بها ، يقال بس الغنم اذا ساقها (فسكات هباء منبثا) منتشرا (وكنتم أزواجا) أصنافا (ثلاثة) ومعلوم أن كل صنف يذكر أو يوجد مع صنف آخر يسمى زوجا كالعينين والرجلين واليدين والنعلين فكل منهما يسمى زوجا ، وهما معازوجان ، فهنا أزواج ثلاثة ، لازوجان (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) أى فأصحاب المنزلة السفلى وأصحاب المنزلة الدنيا ، لأن العرب كانوا يقيمون باليمن وينشأون بالشمال ، ويصح أن يقال أصحاب اليمن والشؤم ، وقوله : « ما أصحاب الخ » أى أى شيء هم ، وهو تعجب من حالهم في المقامين ارتفاعا وانحطاطا وهو مبتدأ وخبر أخبر بهما عن المبتدأ الأول في المقامين (والسابقون) مبتدأ : أى السابقون إلى الخبرات في الدنيا خبره (السابقون) إلى الجنات في الآخرة (أولئك المقربون في جنات النعيم) أى هم في جنات النعيم (ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) أى هم ثلة ، والثلة الأمة الكثيرة : أى هم كثير من الأولين ، يعنى الأمم السالفة من آدم عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ (وقليل من الآخرين) أى أمة محمد ﷺ ولا ينافى هذا ما ورد : « ان أمتي يكثرون سائر الأمم » فعسى أن يكون سابقو سائر الأمم أكثر من سابقى هذه الأمة ، ويكون أتباع هذه الأمة أكثر ، ويقول بعضهم : من الأولين متقدمى هذه الأمة ، ومن الآخرين متأخريها ، لما روى مرفوعا أنهما من هذه الأمة . يقول الله : هم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين كائنون (على سرر موضونة) مذكورة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت (متكئين

عليها) على السرر (متقابلين) لا ينظر بعضهم في قفا بعض ، فهم حسنة العشرة في المجالسة ، لاسيما اذا صاروا ارواحا صافية ، فهناك صفاء العيش ، وذهاب الأخلاق المادية من كل ما يوجب الافتراق أو غلبت الروحانية على الجسدية (يطوف عليهم) للخدمة (ولدان مخلدون) مبقون أبدا على هيئة الولدان وطراوتهم (بأكواب وأباريق) الأكواب جمع كوب ، وهي الأقداح المستديرة الأفواه لا آذان لها ولا عرى ، والأباريق جمع ابريق ، وهي ذوات الخراطيم والعري (وكأس) وقدر فيه شراب ، فإن لم يكن فيه شراب فليس بكأس (من معين) من خير تجرى من العيون (لا يصدعون عنها) أي لا يفرقون بسببها كما يحصل في أهل الدنيا ، أولا يصدر صناعهم بسببها كما في خير الدنيا فانها تصدع وتحدث الافتراق حال السكر والعريضة (ولا ينزفون) ولا يسكرون ، يقال نزف الرجل ذهب عقله بالسكر ، وقرى بكسر الزاي أي لا ينفد شرابهم ، يقال أنزف القوم اذا نفى شرابهم (وفاكهة مما يتخبرون) يأخذون خبره وأفضله (ولحم طير مما يشتهون) يتمنون (وحور عين) جمع حوراء عيناء : أي ولهم حور عين ، أي بيض ضخام العيون ، أو معطوف على ولدان ، أي يطوف عليهم ولدان وحور (كأمثال اللؤلؤ المكنون) المصون عما يضر به في الصفاء والنقاء ، يفعل ذلك كله بهم (جزاء بما كانوا يعملون) أي بأعمالهم (لا يسمعون فيها لغوا) باطلا (ولا تأنيا) ولا نسبة إلى الإثم : أي لا يقال لهم أنتم (الإقلا) أي لا قولاً ، ثم أبدل منه (سلاما سلاما) أي لا قولاً ذا سلامة ، وهذا استثناء منقطع أو سلاما مفعول بقبلا : أي لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاما سلاما : أي انهم يفشون السلام بينهم فيسلمون سلاما بعد سلام ، ويسلم الله عليهم ، والملائكة ، فهم آمنون من المكروه أبدا بخلاف أهل الدنيا إذ لا سلام في الأرض ، فالأثم في حرب ومكر دائم ، والأفراد يتعادون ، والله من قوتهم يرسل عليهم صواعق وأنواعا من المكروه ، أما في الجنة فهذا كله لا وجود له ، فهم متحابون ، والله لا يرسل عليهم من المكروه ما تراه الآن في الدنيا (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود) السدر شجر النبق ، والمخضود الذي لا شوك له كأنما خضد شوكه (وطلح منضود) الطلح شجر الموز ، والمضود الذي تضد بالحل من أسفله إلى أعلاه ، فليست له ساق بارزة (وظل ممدود) منبسطة تمتد لا يتقلص ولا يتفاوت ، فهو أشبهه بظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس (وماء مسكوب) مصبوب يسكب لهم كما يشاءون بلا تعب ولا نصب ، فهنا أصحاب اليمين ونعيمهم التام هو أكمل ما يتصور لأهل البوادي ، ونعيم السابقين في تمامه أشبهه بأكمل ما يتصور لأهل المدن وذلك ليظهر التفاوت بين المقامين بما تراه نحن الآن في أهل الدنيا . قال تعالى (وفاكهة كثيرة) كثيرة الأجناس (لامقطوعة) لا تنقطع في وقت (ولامنوعة) ولا تمنع من تناولها (وفرش مرفوعة) أي نساء مرتفعة على الأرائك (إنا أنشأناهن أنشاء) أي ابتدأناهن ابتداء جديدا من غير ولادة ، وورد في الحديث : « هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطا رمضا جعلهن الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد كما أنهن أزواجهن وجدوهن أبكارا » (جعلناهن أبكارا) عذارى (عربا) جمع عرب ، وهي المتحبة إلى زوجها الحسنة التبعيل (أترابا) مستويات في السن بنات ثلاث وثلاثين سنة وأزواجهن كذلك فهؤلاء أنشأناهن (لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين) أي هم ثلة من المؤمنين الذين هم قبل هذه الأمة ، وثلة من الآخرين ، وهم مؤمنو هذه الأمة (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وجيم) في حر نار ينفذ في السم ، وماء متناه في الحرارة (وظل من يحموم) من دخان أسود في جهنم (لا بارد ولا كريم) أي لا بارد الهواء ولا كريم المظر ، فإن فائدة الظل أمران : دفع الحر وحسن المنظر ، وهذا الظل من دخان حار أسود ، فلا يأتى من أذى الحر ولا يستر النظر ، ثم بين سبب ذلك فقال (انهم كانوا قبل ذلك) في الدنيا (مترفين) منعمين فشغلهم ذلك التمتع عن الاعتبار والاذكار كما في آية أخرى :

« أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون » وهذا قاعدة عامة في المنعمين من المؤمنين والكافرين ، فالنعم بصدّة الانسان عن تهذيب نفسه ، بل ان عاقبة النعم في هذه الدنيا الفقر والذلة كما يفعل بعض المسلمين ، إذ يتقرّبون من الفرنجة ويحاربون اخوانهم المسلمين طلبا لحطام الدنيا كما نسمع اليوم في بعض بلاد الاسلام ذلك لأجل النعم فهؤلاء جزاؤهم يبتدىء في هذه الدنيا فيصيرون أذلاء هم وأعقابهم ، وهكذا المسرفون لأجل النعم يصبحون أذلاء ، ثم قال تعالى : (وكانوا يصرون على الحث العظيم) أى الذنب العظيم ، وهو الشرك ، ومن هذا القبيل بلغ الغلام الحث أى الحلم ، وهو وقت المواخذه بالذنب (وكانوا يقولون أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون) كررت الهمزة للدلالة على أن البعث يكون انكاره أشدّ اذا كنا ترابا وعظاما ، ويكون أكثر شدة اذا تعلق بالآباء الأولين لتقدم عهدهم (قل إن الأولين والآخريين لمجوعون الى ميقات يوم معلوم) أى انهم يجتمعون ويحشرون ليوم الحساب (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون) بالبعث ، والخطاب لأهل مكة ومن نحاحوهم (لآكلون من شجر من زقوم) من الثانية للبيان ، والأولى للابتداء (فالتثون منها البطون) لشدة الجوع ، وشجرة الزقوم تنبت في أصل الجحيم (فشاربون عليه من الجيم) لغلبة العطش (فشاربون شرب الهيم) أى الإبل التى أصابها الهيام ، وهو دواء يشبه الاستسقاء جمع أهيم وهيام كأجر وحراء (هذا زقوم يوم الدين) أى ما ذكر من الزقوم والجيم ما أعد لا كرامهم ، وهذا كقول عمرو بن كلثوم :

قريناكم ففعلنا قراكم * قبيل الصبح مرداة طحونا

يكون ثفالها شرقي نجد * وطحونها قضاة أجعينا

يقول قريناكم وقت الفجر بصخرة تطحنكم : أى حاربناكم ففعلناكم ، وهذا هو اكرامكم باعتباركم جئتم ضيوفا في ديارنا ، هكذا ها اكرم الله هؤلاء بالزقوم والجحيم . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث : في ذكر العجائب الكونية

والاستدلال بها على وجود الخالق سبحانه وتعالى وقدرته

قال تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) أى فهلا تصدقون بالبعث ومن قدر على الابتداء بقدر على الاعادة (أفأأنتم ماتمّون) ماتصبون في الأرحام من النطف (أأأنتم تخلقونه) تقدرونه وتصوّرونه وتجعلونه بشرا سويا (أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت) أى جعلناكم في الموت سواء شريفكم ووضيئكم ويكون قدر بمعنى قضى ، أو قسمناه عليكم قسمة الأرزاق على اختلاف وتفاوت فاختلفت أعماركم من يوم إلى سنة إلى مائة ، أو أكثر أو أقل (وإنكم بمسبوقين على أن تبدل أمثالكم) وإنكم بعاجزين عن أن تأتي بخلق مثلكم بدلا منكم في أسرع حين (وننشئكم) ونخلقكم (فيما لا تعلمون) أى نفشئكم النشأة الثانية في وقت لا تعلمونه ولا تعلمون كيفيته كما علمتم النشأة الأولى من جهة التناسل والقصد التعريض على العمل الصالح ، فإن التبديل والانشاء أولهما بالموت ، وثانيهما بالبعث ، وكلاهما لا يعلم وقته ، فلا الموت معلوم ولا البعث وقته محدّد ، فليتخذ الانسان عدته قبل الفوت (واقدر علمتم النشأة الأولى) الخلق الأولى ولم تكونوا شيئا مذكورا (فلولا تذكرون) أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى (أفأأنتم ماتمّون) أى ماتمّون من الأرض وتلقون فيه البذر (أأأنتم تزرعونه) تذبّونه (أم نحن الزارعون) المنتبتون (لأنشاء لجمعا) هشيا (فأنتم تفكّهون) تتعجبون مما نزل في زرعكم ، أو تندمون على اجتهدكم فيه

وقرى فظللتم على الأصل ، وتقولون (إنا لمعرمون) والغرم ذهاب المال بغير عوض (بل نحن) قوم (محرومون) حرمانا رزقنا ، إذ حرمانا الذي كنا نطلبه من الريع في الزرع (أفرايتم الماء الذي تشربون ، أنتم أنزلتموه من المزن) المزن السحاب واحده مزنه ، أو المزن السحاب الأبيض وماؤه أعذب (أم نحن المنزلون) بقدرتنا ، والرؤية وهي بمعنى العلم قد علقت عن العمل بالاستنهاض (لو نشاء لجعلناه أجاجا) ملحا أو مسالا لا يقدر على شربه (فلو لا تشكرون) فهلا تشكرون أمثال هذه الاعم (أفرايتم النار التي تورون) تقدحون من الزند ، يعني التي تقدح منها النار كما تقدم في ﴿ سورة يس ﴾ وهما شجرتان رطبتان : المرخ والعنار ، فأحدهما يعتبر زندا ، والثاني يعتبر زنده ، والماء يقطر منهما ، والنار عند القدح تخرج بينهما ، وليست النار خاصة بهما بل هما ممزجتان ، فقد قلوا في كل شجرة نار واستمجد المرخ والعنار (أنتم أنشأتم شجرنها أم نحن المنشئون) الشجرة التي منها الزناد ، أنار الدنيا فإياها تذكره بنار جهنم . عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ، وقد مضى أن هذا يوافق الكشف الحديث في ﴿ سورة آل عمران ﴾ محققا هناك (نحن جعلناها) جعلنا نار الزناد (تذكرة) تبصرة في أمر البعث وفي الظلام ونموذجا لنار جهنم (ومتاعا) ومنفعة (للمتقين) الذين ينزلون القواء وهو القفر ، أولادهم خات بطونهم أو مزاولهم من الطعام ، يقال : أقوت الدار إذا خات من ساكنها ، فهؤلاء المتقون جعلت النار لهم لانضاج طعامهم فيصلح لأكلهم (فسبح باسم ربك العظيم) أي قل سبحان ربّي العظيم ، ولما نزل قال ﷺ اجعلوها في ركوعكم (فلا أقسم) يقول تعالى : أنا لا أقسم لأن الأمر واضح فلا حاجة لأقسم ، أو فأقسم ولا مزيدة للتأكيد ، وكلا الوجهين دال على شرف النجوم ومواقع النجوم ، وأن الناس ينبغي أن يفكروا فيها ويعتبروا بها ، وقوله (بمواقع النجوم) أي بمساقطها في مغارها أو منازلها ، ولما كان أمر النجوم في مواقعها عظيما شأنه أعجب مما تقدم بحجة معترضة في أخرى معترضة بين القسم والمقسم به إشعارا بعظمتها وآثارها النافعة فقال (وانه أقسم لوتعلمون عظيم) وقوله : (إنه لقرآن كريم) حسن مرضى نفاع جمّ المنافع (في كتاب مكنون) الكتاب المأخوذ المحفوظ ، والممكنون المصون فلا يطلع عليه إلا المقربون ، فقوله (لا يسهه إلا المطهرون) بيان لكونه مكنونا فلا يطلع على المأخوذ المحفوظ إلا المطهرون من المأذة التي تفوق عن إدراك الحقائق ، ولا يكون ذلك إلا في الملائكة ، وإن جعل الكتاب هو القرآن كانت صيانتها أليأتية الباطل ولا يطلبه إلا المطهرون من الكفر ، وقوله (تنزيل من رب العالمين) أي منزل منه وهو صفة رابعة للقرآن (أفبهذا الحديث) القرآن (أنتم مدهنون) متهاونون ، يقال أدهن في الأمر أن جانبه فيه ولم يتصلب تهاونابه (وتعملون رزقكم) أي شكر رزقكم (أنكم تكذبون) بمن منحه فتنسبون الرزق لذؤواء فتقولون مطرنا بنوء كذا ، أو تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون (فلو لا إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ، فلو لا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين) لولا للتحضيض في الآيتين ، والفعل الذي يستلزمه التحضيض هو ترجعونها ، وأولا الثانية مكررة للدلالة على الكيد ، ومدينين مجزيين يوم القيامة ، أو مملوكين مقهورين ، يقال دانه إذا أدله واستعبده ، يقول الله لأهل الميت : هلا ترجعون نفس ميتكم إذا بلغت الحلقوم وهو يماح سكرات الموت إن كنتم غير مملوكين والحال أننا نحن أقرب إليه منكم بقدرتنا وعلمنا وبملائكتنا وأنتم تنظرون إلى المحتضر واسكن لا تعلمون ذلك ، أو لا تبصرون الذين حضروه من الملائكة ، والمعنى أنكم أيها الناس شأنكم عجب ! جحدتم آيات الله ، وكذبتم رسله ، وكتبابه ، وقلتم هو سحر واقتراء ، وجعلتم رزقكم من الأنواء ، فالخص حالكم أنه لا خالق ولا رازق ، وإذا كان الفعل لا بد له من فاعل ، وقد نفيتم الله وكذبتم

رساله ، فاذن الفاعل لهذا كله أنتم لأن الخالق إما الله وأما أنتم ، فإذا نفيتم الله فأنتم الخالقون ، إذن فلماذا لا ترجعون الروح لميتكم وهو يعالج سكرات الموت فإن كنتم صادقين فارجعوها ! الحق انكم لا تعقلون بالبرهان فلما لم تروا الفاعل كذبتم به ، وهذه صفة الحيوان والجهال ، إذ للدليل علوم فليس عدم رؤية الشيء دليلا على عدمه (فأما ان كان) المتوفى (من المقربين فروح) فله استراحة وفرح ورجة (وريجان) ورزق طيب (وجنة نعيم) ذات نعم (وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك) يا صاحب اليمين (من أصحاب اليمين) أى من اخوانك مسلمون عليك : أى فيقال له ذلك ، أوفسلام لك يا محمد : أى سلامة منهم ، أى فلا نهتم لهم فانهم سلموا من عذاب الله (وأما ان كان من المكذبين) بالبعث (الضالين) عن الهدى وهم أصحاب الشمال (فنزل من جيم وتصلية حجيم) إذ يجد في القبر سموم النار ودخانها ، وهو الذى جعل نزلا لمقدمه كما يجعل للضيف كما تقدم على سبيل الإهانة ، والتصلية الإدخال (ان هذا) الذى ذكر فى السورة (لهو حق اليقين) أى حق الخبر اليقين الذى لا شك فيه (فسبح باسم ربك العظيم) أى فنه ربك العظيم عن كل ما لا يليق به ، أوفصل بذكر ربك العظيم وبأمره ، وكان ﷺ يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » وفى سجوده « سبحان ربى الأعلى » انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة (١)

فى هذه السورة لطيفتان

اللطيفة الأولى فى آية : « انهم كانوا قبل ذلك مترفين » وهى رسالة أرسلتها إلى بلاد المغرب الأقصى يوم الأربعاء ٢٣ مارس سنة ١٩٣٢ م ثم نشرت هناك .
اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « نحن قدرنا بينكم الموت » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : انهم كانوا قبل ذلك مترفين

تحذيرا للمسلمين من الخطر فيما يشربون

أيها المسلمون : أحذركم من كل ما يعينكم لذة وقتية ، ويمقبة انحلال فى القوى وضرر عظيم . أيها المسلمون أما لا أقول لكم دعوا الخمر فانها محرمة فانكم بذلك عالمون ، ولكنى أقول لكم فوق ذلك انها جعلت نفا لاصطياد أمة الاسلام واهلاكهم واذلالهم وانها كقواهم فيصبحون صرعى الأوهام فى ديارهم خامدين .
أنا لا أقول لكم ان أمريكا المسيحية حرمت الخمر حفظا لأهل بلادها من عادات الدهر ومصائب المرض وخلل العقول وضعف الأجسام ، أنا لا أقول ذلك لكم لأنكم به عالمون ، فإذا كنتم تعلمون ذلك فاعلموا أنكم أولى بذلك المنع ، لأنكم أولا مسلمون ، ولأن كثيرا منكم تحت دول مستعمرة تنتهز الفرص لاذلال المحكومين .

وهل أنا كم نبا أهل الأندلس قديما ؟ وقد يش بابا روما ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا من اخضاع الأمة العربية إذ ذاك ، وكيف أشار عليهم [براق بن عمار] بأن يعقدوا معاهدة لحرية التجارة والتعليم والدين حتى يتاح لشبانهم شرب الخمر والتمتع بالذات الحية . فتقل الحية والنخوة والمروءة ، وبذلك يخضعون ثم يطردون ، وما وصلت تلك المعاهدة إلى مالك بن عباد بقرطبة وقد فرغ من تحصين مدائنه وقلاعته حتى

(١) يقول المؤلف : هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع .

أرسلها للأمرء فأقرتوها ، ولم يكذب يحنف مدادها حتى أسسوا أربع مدارس كبرى على نفقة [دوق فينيزيا] وصار عدد المبشرين بالأندلس ألفا ، وعدد المعلمين بالمدارس التي أنفق عليها البابا ٤٥ ، وأنفق البابا من خزائنه لترويج الخمر خمسمائة ألف [فلورين] (راجع كتاب غادة الأندلس) .

(١) هنالك شرب الشبان الخمر جهارا نهارا .

(٢) واخلعوا رداء الحياء والحشمة .

(٣) وحرقوا عوائد آبائهم ودولهم .

(٤) ولبسوا الحرير ونبدوا الصوف والشعر .

(٥) وأهمات تعاليم البلاد .

وكانت نتيجة ذلك ما تعرفون أيها الشبان مما فعله فرديناند وزوجته ايزابلا ، وهو طرد العرب من تلك البلاد أجمعين أكتعين ابعين .

أيها المسلمون : حذار أن تظنوا أن الرواية تمت فصولها ، إن للرواية لذيولا ، أتحبون أن أحدثكم بشأنها ؟ اصغوا إلى واسمعوا : تعلمون أن في بعض الروايات أن النبي ﷺ أنذر المسلمين وحذرهم من المسيح الدجال ، وجاء فيها أن معه الجنة ومعه نار ، وأن من اغتر بجنته دخل النار ، ومن اصطلى بناره دخل الجنة ، وأنا أقول رافعا صوتي لكم ، أيها المسلمون الفضلاء : إن هذه الروايات لها آثار في زماننا وأسرار في أحوالنا الحاضرة ، وذلك أن كل أمة فعلت في المسلمين ما فعله [بابا رومه] و [دوق فينيزيا] و [بارونات أوروبا] من بث الفجور والفسق والخلاعة بين المسلمين لاذلالهم واضعافهم ، فهو من أنصار ومن أصحاب ومن أشباه المسيح الدجال ، فهو يعطينا الخمر لسكرنا ثم يدخلنا تحت سيطرته فنصطلي ناره ، نعم هذه الأمم ليست هي نفس المسيح الدجال ولكن الفعل هو نفس الفعل ، فكل من أظهر لنا المودة وأراد اذلالنا فهو لا يشبه المسيح الصادق بل هو المسيح الكذاب الدجال .

فلتحتسروا أيها المسلمون من كل مطعم أو مشرب أو ملبس يغركم بهجته ولذته تكون عاقبته الدمار والهلاك والعار والبوار .

أليس مما يؤلم النفوس أن نقرأ في التاريخ المتقدم أن قسيسا اشترى عنب قرطبة كله ، وعصره عنبا ، وقال : لا أعطيه إلا لأحبابي الشبان المسلمين ، ففدع الأمة وأهل البلاد غافلون ناعمون لا يعقلون ولا يفهمون فطاحوا أجمعين .

أليس من العجب أن نقرأ في كتاب [الكونت هنري دي كاستري] الضابط العظيم الفرنسي في بلاد الجزائر المسمى [خواطر وسوانح في الاسلام] مانصه بالحرف الواحد في السخة المترجمة صفحة ١١١

« أما انقراض الأهالي شيئا فشيئا كما دخل المتمدن الأوروبي بلادهم (الجزائر) فنحن لانصدقه إلا قليلا ، لأن احتكاكهم بالمتمدنين ربما قل من وسائل العيش لديهم ولكنه لا يؤثر في وجودهم ، بل هم لا يزالون يتناسلون أكثر من الأوروبيين ، ونضيف على ذلك أن المسكرات التي استعملها الأوروبيون للتجويل على وجود بعض الأمم المغيرة لهم لا تؤثر عند أهالي الجزائر لكونهم يقتونها مقنا شديدا » انتهى بالحرف الواحد

أيحببكم هذا أيها المسلمون ؟ أيحببكم أن تكون الدروس بالأندلس لا تزال تنلى إلى اليوم ، وأن الخمر ونشرها في البلاد يراد بها القضاء على أبنائكم وخراب البلاد ، أفليس هذا كلام رجل من أعظم الفرنسيين يقول لقومه : « الخمر والتعميم لم يقللا نسل المسلمين فلنظر طريقا آخر للعيش معهم » أليس الدرس مستمرا ورواية الأندلس تمثل والمسلمون ناعمون هائمون ، أتدرون ماذا حصل بعد ذلك أيها المسلمون ؟ لعبت الدول

المستعمرة دورا آخر في إبادة المسلمين ، وعرفوا أن الخيرة إذا نجحت في بلاد لا تبالي بالعقل ولا بالدين ، فإنها لا تؤثر في الأمم التي لاتزال ذات مجد أئبل ، وشرف وفضل مبين ، كالأرا كشيين .
ماذا دهى اخواننا المراكشيين ؟ انتشر الشاي بينهم ، والشاي لابد معه من السكر ، والسكر يباع بأعلى الأثمان .

رجاك اللهم ، رجاك اللهم ، إن أمر الشاي أشد خطرا ، وأبعد أثرا ، لأن الشاي لاتنطق فيه الظنون ولم تذهب الديانات ، ولا الشرائع ، ولا القوانين .

أبها المسلمون : هل تسمعون ما أقول لكم واحسرناه قد قرأت في كتاب اسمه [كتاب اليد في الصحة والعلاج] للاستاذ [كيلوج] الأمريكي الذي نشره قبل تحريم الخمر بعشرين سنة ، فرأيت رتب المضار أربع رتب : الخمر ، ثم الدخان والشاي ، ثم القهوة ، ثم الككايو ، فجعل الخمر أشد ضررا ، ويليهما الدخان والشاي وأتى براهين كثيرة ، وأذكر منها أنهم أتوا بورق الشاي فأكله حصان فمات ، فعدوه إذن سها بطيئا ، وهناك تجارب لا محال لذكرها الآن ، وانما الذي أريد أن أقوله الآن أن السكر الذي يشرب مع الشاي قد عدوه من الأغذية المميتة ، إن أكل الفواكه وما فيها من السكر الطبيعي نافع وجيد للصحة ، ولكن السكر الصناعي مفسد للجسم ومنهكها ، وإن كان في أول الأمر يعطى قوة ، وتظهر الصحة على وجوه الشيوخ والشبان والأطفال ، أنا لست طبيبا فعلى أن أنقل لكم من كلام أطباء أوروبا ما به تقتنعون ، جاء في كتاب [دستور التغذية] لصديقنا الاستاذ محمد فريد وجدي صفحة ٢٦ مانصه :

« قل الدكتور [جاستون دورفيل] : إذا كان الإفراط في الأكل من الأخطار الكبيرة فإن تناول الأغذية المركزة كالسكر واللحم بقصد التقوى ، أو تحسين التغذية أشد خطرا على الصحة .
نعم إن تلك الأغذية القوية توجد لنا قوة فنحس بسعادة جسمية ولكنها سعادة وقتية ، إذ تنقلب إلى ضعف وانحطاط ، فهذه الأغذية التي يخيل للناس أنها مقوية هي كضربة سوط تنزل على الحصان المعنى فتجعله يجرى قليلا ثم ينحط انحطاطا لا قيام له منه ، فمن من الناس ضحايا هذا القرن الذي يقال انه قرن النور لم يتناول الأغذية المركزة ، وههنا عدد أصنافا وذكر منها السكريات والشكولاتات والحلاوات المشبعة بالسكر والكحول ، فإن هذه المواد مهما كان مقدارها صغيرا فإنها تنبج إلى خلايانا مجتمعة فتحدث اضطرابا ، وهذا الاضطراب نتوهم انه قوة بدنية ، ولكنه ليس في الحقيقة إلا خطوة نحو الصدمة الأبدية » انتهى ملخصا وجاء فيه بعد ذلك مانصه : « وقال الدكتور [جاستون دورفيل] أيضا : السكر أحد الأغذية المهلكة لأجسادنا ، فالتناول منه كعادة معاصرنا من أربع قطع إلى ست قطع فوق الغذاء المفرط ينتج أمراضا مميتة لقد كان أبائنا يجهلون السكر الصناعي ، وكانوا أبطأ منا انحطاطا في قواهم ، والأرق الذي يكثر فينا الآن إنما هو من السكر المعروف ، إن السكر إنما ينفع بهيئة علاج ، فهو دواء ، والدواء إذا استعمل شرابا أو غذاء عاديا كان من المهلكات ، فهو نافع إذا وصف للدواء ، ضار إذا تعاطيناه في أكثر الأوقات كالطعام والشراب ومن أراد السكر فليأكل الفاكهة ففيها سكر طبيعي وهو غذاء نافع ، إن السكر الصناعي مهلك الأبدان » انتهى باختصار .

الشاي الذي مع السكر

فلننظر في هذا الشاي الذي يشربه الناس مع السكر ، قد قدمنا أنه من المواد التي تلى الخمر في إهلاك الأمم ، وأزيد عليه الآن أن الشاي يضاف إليه ماء مشبع بالأفيون ، ومتى شرب الإنسان منه فإنه يتعود عليه فلا يأتى موعده إلا وقد انحطت القوى فلا يفيق إلا بشربه ، إذن في الشاي الذي يشرب في أكثر بلاد

الاسلام ثلاث مضار : نفس الشاي بنص علماء الطب ، والأفيون المضاف إليه ، والسكر الصناعي الذي صاحبه :
ولو كان سهما واحدا لاتفقته * ولكنه سهم وثان وثالث

أيها المسلمون عموما ، وأهل شمال افريقيا خصوصا « قتل الانسان مأكفره ، إن الانسان لظالم كفار ،
انه كان ظلوما جهولا » .

الانسان اليوم كثير الدهاء ، كثير المكر ، عرفت أوروبا أن الخمر لا تعاطاها الصالحون من المسلمين ،
فإذا تصنع أوروبا ؟ تجاب الشاي ، وهل جلبه إلا التجار ، هذا أمر سهل ولكن السهم في السم ، والسكر
بحسب الظاهر لا ضرر فيه ، فانظروا كيف أصبح الناس مستعبدين بسبب الشاي والسكر أشد من استعبادهم
بالخمر ، يؤلف العلماء في أوروبا كتباً في ضرر أغذية ثلاثة مميتة ويعتدون منها السكر وأهل الاسلام نائمون .
لا لا أيها المسلمون : من تمكنت عادة الشاي ومعه السكر منه فليعلم أن الأفيون معهما ، وانه أصبح
فريسة ، فيأبها الشاربون للشاي في مراكش ، يامن حكم عليكم أن تكونوا شاربين صباحا ومساء اتقوا
الله في أبنائكم وبناتكم ، حذروهم ، بل اشربوا سراً ولا تعطوهم جرعة واحدة ، واست أقول لكم
اتركوه لأن الذي ينركم منكم أصحاب النفوس الكبيرة أهل العزائم والهمم والمجاهدات .

هذه نصيحتي لأهل مراكش خاصة ، والمسلمين عامة ، أذكركم فتنة أصابت البلاد والعباد ، الله أكبر
استقلال الأمم إنما يكون بعد الامتحنان ، والله قد امتحنكم أيها المسلمون بالملابس الفرنجية وأنواع الخمر
والشاي والسكر وجعلكم لهذه مستعبدين ، فإذا نالتم الاستقلال الشخصى بلبس الملابس الوطنية ونبذ
المهيجات من الخمر والشاي المثلث المضار ، فأنتم إذن أهل للاستقلال السياسى ، لاستقلال الأمة إلا باستقلال
أفرادها من الملاذ الفردية .

يامن تشربون الخمر ، وتمكرعون الشاي والسكر معها أنتم مقيدون بقيود من حديد أذلاء فتخلصوا من
هذه القيود الفردية تنحل عنكم الروابط الاجتماعية ، وتصبحوا سادة في بلادكم ، أحرارا في دياركم ، سعداء
في أوطانكم ، ويخرج إذ ذاك المستعمرون .

أين عزائمكم ؟ أين مجدكم القديم ؟ أين نخوتكم العربية ، أين ملككم العظيم ؟ أعدكم بهذا كله بعد
أن تذروا ما حذرتكم منه ، فقد حذرت وأنذرت وبرهنت لكم ، وأنتم أهل لما أقول ، وستعملون به وأنتم به
موقنون ، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « انهم كانوا قبل ذلك مترفين » وهى
الرسالة التى أرسلتها إلى بلاد مراكش فى التاريخ المذكور ونشرت هناك ، والحمد لله رب العالمين ، كتب فى
صباح الأربعاء ٢٣ مارس سنة ١٩٣٢ م — بحى السيد زينب .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : نحن قدرنا بينكم الموت

نذكر فى هذه اللطيفة ما جاء فى جريدة الأهرام مناسبا لهذه الآية بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م
تحت العنوان الآتى ، وهذا نصه :

الخلود وطول العمر

حوادث مدهشة عن طوال الأعمار

يفكر الفلاسفة والأطباء قديما وحديثا فى حياة الانسان من جهة امكان إطالة العمر عن المتوسط المعروف
أولى أن يكون المتوسط مائة أو مائة وخسين أو مائتين ، ومن جهة ما اذا كان ممكنا أن يعمر الانسان الى الخلود .

ظهر مؤلف حديث المسيو جورج لا كورسكى بعنوان [العلم والسعادة] وله قبل ذلك مؤلفان أحدهما باسم « أصل الحياة » والثاني باسم « سر الحياة » .

في كتاب « العلم والسعادة » يعرض مسيو لا كورسكى لمسألة طول العمر والخلود ، أشار المؤلف إلى كتاب لمسيو خان فينوفيلسوف باسم « فلسفة طول العمر » ، وقال : ان هذا الفيلسوف يطلعنا على أن الأمثلة النادرة جدًا التي يعرفها الناس بشأن طوال الأعمار ليست ندرتها بالدرجة التي يتصورونها ، فن الأسف أن الإحصاءات الصحيحة الدقيقة لم تكن إلا قريبة العهد ، ومن المستحيل علينا مثلاً أن نعتمد على سجل المواليد عن ٩٦٩ سنة عاشها [ماتوسالم] أو الـ ٨٠٢ التي زعم أن ملك جزيرة [لوكبانز] قد عاشها والتي تسكّم عنها [بلين] و [فاليرما كسيم] . وقد ذكر [استرابون] أن بين سكان بنجاب أفراداً قد عاشوا ٢٠٠ سنة ، وقال [بلين] : انه في عهد فيسباسيان عمل إحصاء ظهر فيه أن عدد سكان بلاد المغول سيراالين ٣ ملايين نفس كان فيه ١٧٠ شخصاً يبلغ عمر كل منهم أكثر من ١٠٠ سنة أي بنسبة واحد من ذوى الأكثر من المائة إلى كل ٢٠ ألف من السكان .

ويقول [بلين] : إن ماركوس ابونيوس عاش أكثر من ١٥٠ سنة ، ويقول لوسيان : ان تيريسياس عاش ستة قرون ، وأن سكان جبل آتوس كان يعيش الواحد منهم ١٣٠ سنة . وقال الكسندر كورنيليوس إن أحد الاليريين عاش ٥٠٠ سنة واسمه درودون . وقال انكربون : إن [سنجرين] ملك قبرص عاش ١٦٠ سنة ، وفي حياة القديسين عاش القديس سيمون ١٠٧ سنوات ، والقديس تاكريس ١٦٥ سنة والقديس انطوان ١٠٥ سنوات ، والبوما مطران الحبشة ١٥٠ سنة .

ويقول [هالار] في كتابه « العناصر الطبيعية » : « إن الانسان من الحيوانات التي تعيش زماناً طويلاً ، ويظهر أن الحد الطبيعي لوجوده حياً هو ٢٠٠ سنة ، ويقول بأن اثنين من المعمرين مات كل منهما بحادثة [الأول] توماس بار ، وعمره ١٥٢ سنة وقد مات أثر عسر هضم بعد غداء حفلة أقامها ملك إنجلترا تكريماً له ، وأن الثاني توفي متأثراً ببرودة شديدة ، وكان للأول عند وفاته ابن عمره ١٠٢ سنة وللثاني ولد عمره ١٤٠ سنة .

وظهر من احصاء سنة ١٨٩٧ في بونس ايرس أن عبدا اسمه برنوكوتريم جاوز عمره ١٥٠ سنة ، وفي سربيا بلغ عمر ثلاثة من المعمرين مايتى : [الأول] ١٣٥ سنة [والثاني] ١٢٥ سنة والثالث ٢٩٠ سنة ، وبلغ في الولايات المتحدة عدد المعمرين الذين جاوزوا المائة سنة في سنة ١٨٩٠ م ٣٨٩١ ، وفي لندن ٢١ شخصاً . وفي روسيا يبلغ عدد المعمرين الذين جاوزوا المائة سنة كثيراً ، وبدل احصاء إفريقيا على أن معمرها يبلغ عمره ١٦٨ سنة ، ومات في سنة ١٣٤٦ رجل في لوسرن يبلغ عمره ١٨٦ سنة ، ومات زارع ايقاسى عندما بلغ عمره ١٨٥ سنة .

وما زال يعيش في مصر معمر عمره ١٥٤ سنة مازال يذكر عمله القنصل في عهد نابليون ، وفي تركيا كان يوجد رجل عمره ١٥٦ سنة اسمه زارو ، وقد أرسل إلى أمير بكاليكون مثالا على فوائد منع المسكرات وقد مات أخيراً ، وقد شوهدت صورته في الأفلام السينمائية وصوره الشمسية ، وقد أعجبت بها إذ الناظر إليه لا يقدّر للرجل من العمر أكثر من ٧٠ سنة إذا نظر إلى مشبته .

لكثرة المعمرين في الدنيا وضع بعض العلماء قوانين عامة ، ومنذ القرن التاسع عشر عملت احصاءات

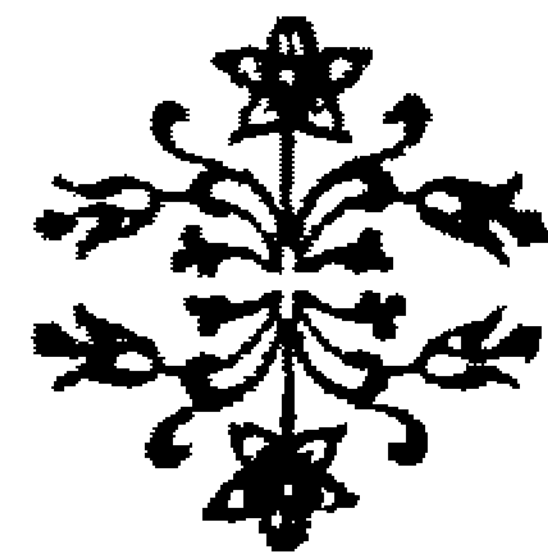
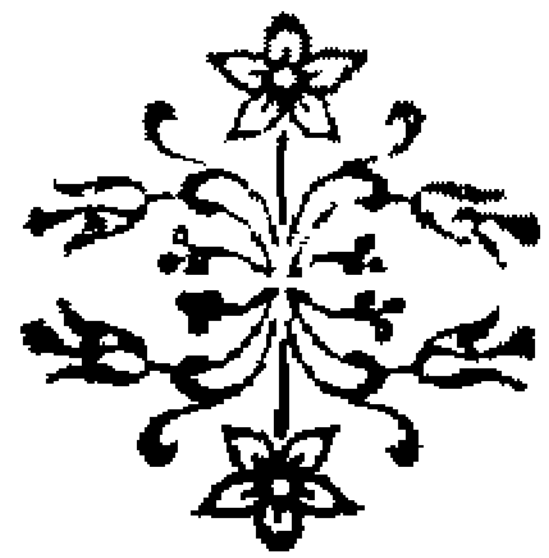
كثيرة بواسطة الذين يشتغلون لمصلحة شركات التأمين ، إذ هي تبين العمر والسنة وعدد المعمرين في جهات مختلفة من أوروبا أو الولايات المتحدة .

ومما يلفت النظر أنه في الاحصاءات الصادرة ببيان المعمرين الذين وصلوا أو تجاوزوا المائة سنة لا تظهر السيدات ، ذلك لأنهن يضعفن بالأمراض المختلفة ، وأن جميع القوى العقلية والحسية تضعف مرة واحدة عندهن ، فقد ظهر أن الرجال المعمرين إلى ما فوق المائة سنة عند ما مروا بسن الشيخوخة فقدوا بعض خاصياتهم ، ولكن بعد ذلك تجددت لهم قوى شباب جديدة .

ويقول [هالار وبلاندين] وأطباء آخرون : انهم لاحظوا ظهور أسنان جديدة ابتداء من ٨٠ سنة ، ويذكر الدكتور جراف انه شاهد أن امرأة عجوز اصاب شعرها أبيض اللون من المشيب عند ما كان عمرها ١١٠ سنين ولكن بعد هذا التاريخ عاد إليها لونها الأول ، وآخرون تجددت أسنانهم عند سن ٩٠ و ١٠٧ سنين ، ومما يذكر أن القوى العقلية والبدنية عند المعمرين كانت سليمة جدًا .

لقد اختلف في تعليل طول العمر عند المعمرين ، ويمكن القول اجالا بأن الحياة الهادئة التي يعيشها المعمر ، وفراغ قلبه من الحسد والبغض والهموم واللؤم والغيرة والطمع من أسباب إطالة العمر ، والمعمرين هم الذين يحفظون النسبة بين قواهم العقلية وقواهم البدنية طول حياتهم ، وعند الباحثين في أمر إطالة العمر يبحث الوسائل التي تؤدي إليها من رياضة وامتناع عن المسكرات ، وحياة هادئة ، لا تغمرها المطامع ، ولا تخفها الشهوات والأحقاد ، ولا يخالجها اليأس ، إن الوصول إلى إطالة العمر ، أو رفع نسبة أعمار الأحياء هو خطوة أولى ولازمة في سبيل تحقيق الخلود ، فهل الخلود ممكن للإنسان ؟ ١

هذا ماجاء في جريدة الاهرام في التاريخ المذكور ، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثانية في قوله تعالى « نحن قدرنا بينكم الموت » والحمد لله رب العالمين . انتهى تفسير سورة الواقعة .



تفسير سورة الحديد

هي مدنية

آياتها ٢٩ - نزلت بعد الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُخْفِي وَيُخَيِّتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى
عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا
وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى
اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخَافِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ
وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَالَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ
وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ
لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَمَالَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ
وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ *
يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ
وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا

نُورًا فَضَرِبَ يَنْتَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ
أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ
الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوْأَكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ
تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ
فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْثِي الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ يَتَنَبَّأُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * إِنَّ الْمُسَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ
وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ
أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ
يَنْبَغُكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ
فَتَرَاهُ مُمْسِرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ
وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ * سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا
تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ
بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا
مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ
لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا
وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَاهُ فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ *
ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَاهُ فِي قُلُوبِ

الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافِقَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ
فَمَنْ رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا
تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى
شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

هذه السورة أربعة أقسام

القسم الأول في تفسير البسملة .

القسم الثاني في صفات الله ، وأسمائه الحسنى ، وظهور آثاره ، في بدائع مخلوقاته ، من أول السورة إلى قوله : « وهو عليم بذات الصدور » .

القسم الثالث في الخوض على الاتفاق من قوله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » إلى قوله : « وله أجر كريم » .

القسم الرابع في عشر جواهر (١) بشرى المؤمنين بالنور يوم القيامة (٢) وحث لهم على الجد وذكر الله (٣) وثواب المنفقين (٤) وذم الدنيا (٥) والترغيب في الآخرة (٦) والتسلية على المصائب (٧) وذم البخل (٨) والحث على العدل (٩) والاعتبار بالأمم السابقة (١٠) والأعمال التي توجب النور المتقدم ذكره ، وذلك من قوله تعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو النور العظيم » إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

تجلت رجة الله في عالمنا هذا ، وما علمنا هذا المادى ، أليس عالمنا عديميا ؟ وكيف لا يكون عديميا وما هو إلا حركات في عالم سموه الأثير ، وما الأثير إلا عالم أشبه بخيالنا نحن ، عالمنا حركات في خيال الفضاء ، وهذه الحركات المذكورات هي التي أجمع عليها علماء زماننا شرقا وغربا في مدارسهم وشرحناها في سور كثيرة في هذا التفسير لاسيما في [سورة النور] عند آية : « الله نور السموات والأرض » وأثبتنا هناك أن الحديد والصلب والهواء والماء والضوء جميعها حركات والاختلاف بينها لن يكون إلا بعدد الحركات ، فإن كان عددها نحو ٦ آلاف مليون مليون في الثانية فهي المواد التي نحس بها بحاسة اللمس والشم والذوق من طعام وشراب وفاكهة وما حولها ، وإن كانت أقل من ذلك فنقصت عن هذا العدد فكانت من نحو ٤٠٠ مليون مليون في الثانية إلى نحو ٧٠٠ مليون في الثانية فهي الأضواء كضوء الشمس ، فلأجر ذو العدد الأقل ، والبنفسجي ذو العدد الأكبر ، وبقية الألوان بينهما كالأخضر والأصفر والبرتقالى والبيلى والأزرق . هذا القول وأمثاله مشروح في هذا التفسير كثيرا ، ولكن المقصود الآن التعجب من هذا العالم ، فما هو إلا أشبه عدم ، هو خيال ، وهذا الخيال فيه حركات ، وهذه الحركات أشبه بحركات أفكارنا في خيالنا فلانجب نحن من ذلك لأن الله يقول : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » فلما أبصرنا أنفسنا ألفينا فيها أمرا موجودا لانشك في وجوده وهو الخيال ، وهذا الخيال نحس بأننا محبسون على أن نجندره ونصفه ونهذهبه ، ونصنع فيه حركات فكرية تفتج لنا علوما ومعارف ، فلانجب إذن إذا رأينا خيال الفضاء فيه حركات أحدثت آثارا

أبصرتها غيرتنا كما أحدثت حركات الأفكار في الخيال آراء شهدت عقولنا ، إن نفوسنا نبراس علومنا ، ومهيج تفكيرنا ، إن نفوسنا في صفاتها وجالها واتساعها تدور العلوم أشبه بما نشاهد في المادة المحسوسة من أنها كما تعطينا غذاء ودواء وفاكهة هي نفسها تكون مجال أفكارنا ومناط علومنا كما أن نفوسنا كما تكون سببا في حياتنا وأعمالنا في الحياة تكون هي مدرسة لنا وكتابا نقرأه ، فكما تفكر في أعراضها المختلفة وخواصها العجيبة تفكر في هيئتها فنجعلها لنا مجال دراسة ، فنحل المشكلات بقراءتها ودراستها ونقول : لقد رأينا فيها خيالا قامت به حركات أفكارنا ، وهذان عالمان موجودان حيث لا مظنة للوجود ، هكذا هذا الفضاء فيه خيال نسمة أثيرا ليس مظنة الوجود ، وفيه حركات لا ندري ماهي ، رتبت فصارت عالما تحس به حواسنا .

الله أكبر : لقد أجمع علماء الطبيعة أن البعد بين الذرة والذرة في المادة كالبعد ما بين الشمس والأرض إن دقائق الماء والهواء والسحاب والأرض والحجر والمدر كلها متباعدات تباعدا يقف العقل دونه ، فلماذا فضلا عن أنها مجرد حركات وتلك الحركات تنقلب أنوارا كهربائية ، وهذه الأنوار تجري سالبها حول موجبها فتكون الأشكال المختلفة عند حواسنا باختلاف أعداد حركاتها وهيئتها ، هي متباعدات تباعدا مدهشا عجيبا ، وبأليت أمرها وقف عند كونها أشبه بالأمور الوهمية من كونها حركات فيما يشبه الخيال ، بل أمرها تعدى ذلك فصار هذا الأمر الشبيه بالوهمي هو نفسه قليل أيضا يشبه المعدوم ، وماذا نقول في عالمنا هذا الذي نعيش فيه ، وقد أثبت ذلك علم الطبيعة الذي يقرؤه أصغر تلميذ في مدارس العالم الانساني فقد قيل فيه : إن المسام الصغيرة وإن تكن لشدة صغرها لا ترى بالمكroskop فهي أكبر من الجواهر بما لا يقاس ، فلو تصورنا أن في المسام حيوانا صغيرا جدا بحيث يعيش على جوهر من الجواهر كما يعيش انسان منا على الأرض وفرضنا أن ذلك الجوهر واقع في وسط حجر لكان الحيوان المشار إليه يرى أقرب الجواهر إليه بعيدة جدا عنه كما نرى نحن الشمس والقمر والنجوم ، ور بما كان يحتاج لمعرفة تلك الجواهر إلى نظارات كبيرة كما نحتاج نحن إليها لمعرفة الأجرام السماوية ، فيظهر من ذلك اتساع المسام بالنسبة إلى الجواهر .

هذاما جاء في كتب الطبيعة في عصرنا الحاضر ودرس للتلاميذ ، اذا كانت هذه صفات المادة ونفس جسمي والفكر الذي أكتب به هذه المقالة والخبر والقرطاس ، وكلها ان هي إلا فضاء واسع كالفضاء بين السماء والأرض والنجوم تتخلله حركات تكون أنوارا كهربائية ، ومما تلك الحركات وأنوارها إلا ذرات أشبه بالمعدوم وسط هذا الخلاء ، فهي أمور أشبه بالخيالية نادرة جدا في وسط جو فسيح تأوهات فيه ومع ذلك نرى جسما وقاما رقرطاسا ونقول نحن موجودون ومادتنا ملتزمة مسدودة الأبواب مقفلة ، إذن هذا العالم الذي نعيش فيه حركات وأنوار لا غير ، وهي مع كونها كذلك نادرة جدا ، فأجسامنا هذه أشبه بفضاء واسع لا مخلوق فيه ، فلوركبنا قطارا في ذلك الخلاء صادفنا في كل بضعة أيام نباتا تراه أبصارنا ثم يختفي بسبب سرعة القطار ، إذن عالمنا مبني على العدد .

يا عجبيا : وهل امتاز الحديد والرصاص والماء والهواء والضياء إلا بالعدد ، حركات وأضواء امتازت بأعدادها إذن العدد كأنه أصل الوجود ، وكيف لا يكون أصل الوجود وبه انتظام الأجسام ، وهل الأجسام إلا حركات في أنير تمتجت عنها أضواء ، وهذه الأضواء والحركات لا امتياز لبعضها عن بعض ولا تفريق إلا بعدد الحركات ، فان قلت كانت لطيفة كالأضواء ، وإن كثرت كانت كثيفة كالأجرام الثقيلة والصلبة .

سبحان الله : إذن العدد به تباينت الأجسام ، والعدد قرأناه في نفوسنا ، هل أحد منا يجهل الأعداد ؟ الأعداد مرتبة ثابتة في نفوسنا ، فهذه الأعداد بها نظمت النفوس العالية أمر الأجسام فباعدت ما بينها بمراتب الأعداد ، إذن مراتب الأعداد في نفوسنا كانت سببا في مراتب ما صنعه في أرضنا ، هكذا هناك نفوس كبيرة نسبتها إلينا كنسبة العوالم المحيطة بنا إلى أعمر لنا الضئيلة الوجودية ، إذن الأعداد كأنها أصل الوجود

لأن الأعداد ثوابت والحركات غير ثوابت ، وما كان غير ثابت لا يصلح أصلاً ، إن الأعداد ثابتة في نفوسنا ، وفيها أنواع الواجب والجائز والمستحيل ، فإن ٦ في ٦ يساوي ٣٦ وهذا واجب ، ومستحيل أن يكون أقل أو أكثر ، و٣٦ كما يكون من ضرب ٦ في ٦ يكون من ضرب ٣ في ١٢ و ٢ في ١٨ و ٤ في ٩ ومن واحد ونصف في ٣٦ ففيه الواجب والجائز والمستحيل ، والعالم كله لم يخرج عن هذه الأقسام المرتبات في عقولنا ، العالم الذي نعيش فيه لا يخرج كله عن عالمين اثنين : رياضي وطبيعي ، فالعالم الرياضي راجع للعدد لأن العدد سار في الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، كل العالم الطبيعي موزون محسوب بحساب مهندس بهندسة ، نظامي بشكله ، راجع للوحدات ، تلك الوحدات المرتبات في نفوسنا ، فالعالم من عرشه أفرشه مقدر موزون محسوب ، والحساب مبدؤه ثابت في نفوسنا .

من هذا البيان يفهم الناس في زماننا قول [فيثاغورس] : أن العدد أصل العالم ، وذلك لأنه لا عالم أن هو إلا حركات في أمر يشبه المعدوم ، والحركات وجودها ضعيف ، وهذا معنى قول علماء عصرنا : إن المادة لا وجود لها ، وإن هي إلا حركات ، وللحركات أضواء ، وإذا كانت معدومة فظاها العدد ، والعدد مرتب في نفوسنا ، لذلك نسمع الله يقول : « والفجر ولبال عشر ، والشفع والوتر » وما الشفع والوتر إلا جميع الأعداد ، وهذا أيضاً يوضح لنا قول القدماء : « إن المادة لم يظهر وجودها إلا بالصورة » وهل هذه الصورة المادية إلا ما حدثت بالعدد أي عدد الحركات .

نتيجة هذا المقام

إن نتيجة هذا المقال أن الأمر كل الأمر أن علمنا ثبت أنه أشبه بالذي ليس بموجود ، وأن ما يشبه الموجود منه ما هو إلا حركات مع كثرتها في نفسها هي معدومة في جانب الخلاء الذي تقع فيه وتضيء في مواضع نادرة منه ، وهذه المظاهر الباهرة كلها أشبه بالوهم ، والوهم أخو العدم ، أليس هذا به تفهم « بسم الله الرحمن الرحيم ، سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » فإذا كان العالم أشبه بالمعدوم ومع ذلك نراه ونسمعه ونتمتع به ، ولم يمتز بعضه عن بعض إلا بالعدد ، إذن الأمر فوق ذلك أن هو إلا تجليات ومظاهر للمحيط علمها بالعالم كلها ، لأن هذه العوالم لا ظهور لها إلا بامتياز أعدادها وأقذارها ، والأعداد أمور معقولة لا محسوسة ، وهذا العالم محسوس مشاهد ، إذن الموجود الحق الذي لا وهم يلحقه هو الموجود الذي يستحق اسم الوجود ، وما هذه الصور والأشكال إلا مظاهر أعماله هو أو آثار معلوماته ، طبعت في هذا الجو الفسيح طبعاً ظهرت لنا أصوله بهيئة حركات وأضواء ، وتجلي لعيوننا بهيئة نبات وحيوان وشمس الخ . فهذا معنى قوله : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » فأما هذه التي ذكرناها فما هي إلا مظاهر رجائه وآثارها .

ضرب مثل

اعلم أيها الذكي المطلع على هذا المقال أن هذا المقام خطر فإن عقولنا لا تقدر أن تجمع بين وجود ولا وجود : أي لا تجمع بين الوجود والعدم ، هما نقيضان ، والنقيضان مستحيل جمعهما ، فنحن الآن موجودون فكيف ساغ لنا أن نقول إن هذا كله وهم كما يقوله علماء الطبيعة أجمعون ، وكيف يقول الله : إن الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن الخ فالعلم والقرآن اتحدا على أمر واحد وهو أن هذا العالم وجود ولا وجود ، فإذا نقول إذن ؟ لا سبيل لنا إلا ضرب الأمثال ، هذه الشمس مشرقة ، وذرات النور مسافرة في الجو الفسيح : أي في العدم باعتبار النظر الظاهري ، أو فيما يشبه العدم وهو الأثير ، وهذه الذرات الضوئية لا يظهر

ضوءها في الجوّ إذ لا تظهر إلا على جسم ، ولا جسم في جو السماء إلا ما طار فيه ، فأنه ضرب مثل الشمس ، وأرواح المخلوقات ضرب مثل للذرات الضوئية وهي تدافر في العدم المحض بحسب الظاهر أوفيهما يشبه العدم وهو عالم الأجسام الذي هو رتبة في مراتب عالم الأثير ، إن الذرات الضوئية مخفية في أثناء سفرها من الشمس إلى الأرض أي في ثمان دقائق و ١٨ ثانية ، وإنما يكون ظهورها إذا وصلت إلى أرضنا لا غير ، حياة أرواحنا في أجسامنا أشبه بظهور ضوء الشمس على الأرض التي أشبهتها أجسامنا في أن كلا منهما مظهر ، فأحدهما مظهر للنور ، وثانيهما مظهر للروح ، فإذا نظرنا لضوء الشمس على الأرض فانا لانجده شيئاً سوى حركات مبدؤها الشمس ظهرت لنا بهيئة نور ، وإذا نظرنا للشمس ونحن في الجوّ لم نجد إلا ظلمات متراكمة تنتهي بوجود مضيء عظيم هي الشمس ولا نرى للذرات الضوئية أثراً في تلك الظلمات التي لاحد لها ، نعم لها وجود مستعار من الشمس يظهر لنا إذا ظهرت على جسم معتم كالأرض ، فن وقف في جو السماء فانه لا يرى إلا الشمس المشرقة بنورها فيقول عجباً ! هي الأول وهي الآخر وهي الظاهر وهي الباطن ، لأن هذه كلها ظلمات وغاية الأمر أن لها آثاراً مستعارة منها على الأرضين ، وهذا ضرب مثل لا غير « والله المثل الأعلى » والله ليس كمثل شيء ، ولكن مرادنا هنا الايضاح لا غير ، فأنه منزّه عن المادّة وعن الشبيه والنظير ، وإياك أن تظن أن ضوء الشمس جزء منها . كلا . بل هو حركات في الأثير لا غير ، وهذه الحركات غير الشمس كما أن الأرواح غير ذات الله ، فالمخلوق غير الخالق .

بهذا نفهم : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ، هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم » أي بعلمه ، ولولا أنه معنا ما علمنا بوجود أنفسنا ، كما أنه لولا أن الشمس مع أضوائها المنبعثات منها ما ظهرت تلك الأضواء على وجه الأرض ، هذا ما فتح الله به في تفسير البسملة في ﴿ سورة الحديد ﴾ والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الثلاثاء ٨ مارس سنة ١٩٣٢ م .

مقدمة في اتصال هذه السورة بما قبلها

(١) إن السورة المتقدمة والسور قبلها سور ترجع إلى العلم ، وهذه السورة أكثرها للأعمال .
(٢) إن آخر السورة السابقة قوله : « فسبح باسم ربك العظيم » الذي هو مرتب على ما قبله من جزاء كل فريق من أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والسابقين كل بما هو أهل له ، وههنا يبين صفات الذي أمر بتسبيحه ، وأن تسبيحه ليس خاصاً بأهل الأرض ، بل هو عام ، وهذا كقوله « فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون » من بعض الوجوه . انتهت المقدمة .

القسم الثاني : في صفات الله ، وأسمائه الحسنى ، وظهور آثاره ، في بدائع مخلوقاته

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

[سبح] ذكر التسبيح بالماضي هنا وبالأمر في السورة قبلها ، وذكر بالماضي أيضاً في الحشر والصف ، وذكر بصيغة المضارع في الجمعة والتغابن للإشارة إلى أنه يسبح في جميع الأوقات ، بل هو مأمور به ، ويقال سبحته وسبحت له كما تقول نصحت له ونصحتته ، وتنزيه الله وتسبيحه من العقلاء هو القول الدال على تنزيهه كما هو معروف ، فأما غير بني آدم والملائكة ، فالتسبيح منها الدلالة على العظمة والتنزيه ، أو الانقياد والتسخير

لله تعالى ، فأشارتك لصاحبك بيدك على هيئة مخصوصة يفهم منها تأن واصبر ، وأشارتك بها على هيئة أخرى خاصة يفهم منها لا تفعل وهكذا ، فهذه الدلالة في الحالين أفهمت صاحبك افهما كما فهم الكلام بل أشد تفهما وأبلغ أثرا ، وكما للإنسان في حركانه من معاني يفهمها الآخرون ، فإذا كان هذا من الإنسان المحدود العلم ، فما بالك بما أطلعنا الله عليه من بدائع العلم والحكمة معاشر بني آدم وفهمنا منه ما لا نفهم بالقول ، ولو أنك وقفت في الخلوات ، وراقبت المزارع والجنات ، والشجر مترنحات ، والحشائش متحرككات ، والأوراق تغنى بموزون الأصوات ، وقد أرنخ الليل سدوله ، وأرسل من الخافقين جحافل جنوده ، وتخلها بريق الكواكب تلمع في السباب ، هناك تتجلى لك العبر ، وتقرأ علوم المبتدأ والخبر ، وتغنى لك السمات ، على أعواد الغابات ، بما يشنف سمعك ، ويقرب أنسك ، ويشرق شمسك ، وهناك هناك تناجيك الذات ، وتشارك الآيات ، وتحيط بك الاشارات ، وتقصر عنها العبارات ، وترى فيها ما لا تراه العيون ، والناس حولك ساهون لاهون ، هنالك الأنس والنور ، وهنالك الجنات والجور ، وهنالك السعادة والحبور ، وهنالك تفهم قوله تعالى (سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز) المنتقم ممن يعيش ويموت وهو لا يعقل ذلك التسبيح الذي نطق به الذرات ، وشهدت به الآيات ، فضلا عن تركه التسبيح هو ، فإذا أمر المسلم أن يسبح في آخر السورة السابقة فإن الله يعاقبه إذا تمكن من إدراك بعض أسرار الكائنات التي يعبر بها عن التسبيح وأقفل عنها عينيه ، وأصم عن سماعها أذنيه ، وقوله (الحكيم) أي في مجازاة من عقل ذلك وسبح لله فيكون عالما عاملا ، ويعم نوره بقية المسلمين من حيث العلم والافتداء به (له ملك السموات والأرض) لأنه الخالق المتصرف حال كونه (يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير) أي يحيي الأموات ويميت الأحياء ، وهو على كل شيء من الإحياء والاماتة وغيرهما قدير (هو الأول) السابق على سائر الموجودات ، لأنه أوجدها (والآخر) الباقي بعد فنائها ، وأبضا منه ابتدأت الأسباب ، واليه انتهت المسببات (والظاهر والباطن) فقد ظهرت دلائل وجوده وتكاثر ، وبطنت ذاته فلم ترها العيون ، واحتجبت عن الظنون ، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله ، باطن بذاته ومشرق جماله وكماله ، قد ظهرت غلبته على المخلوقات وعلم حقائقها ، ولم يخف عليه بواطنها فهو ظاهر بغلبته عليها ، باطن لعلمه بما بطن منها (وهو بكل شيء) من الظاهر والباطن والجلي والخفي (عليم هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام) تقدمت الحكمة في أنها ستة في سورة الفرقان ولماذا اختيرت الستة (ثم استوى على العرش) تقدم الكلام عليه في سورة يونس وفي سورة هود (يعلم ما يلج في الأرض) ما يدخل فيها من الكنوز والبذور والموتى والمعادن ، ومن أهمها الحديد الآتي ذكره ، الذي فيه بأس شديد ومنافع للناس ، فلم يدخل البذر في الأرض إلا للقوت ومنفعة الناس والدواب ، ولم يدخل الناس في الأرض إلا لأخراج أرواحهم من عالم المادة وإسعادهم ، أوتر بيتهم إذا كانوا عاصيين الخ ، ولم يدخل الكنوز في الأرض إلا ليبحث الناس عنها ويستخرجوها ، فهو لم يولج المعادن إلا بعلم يعلم منافعها ، فلذلك دفنها لمن هم مستعدون لاستخراجها (وما يخرج منها) كالمعادن المذكورة والزرع والموتى إذ يخرجون من القبور (وما ينزل من السماء) من الملائكة والمطر ونحوهما (وما يعرج فيها) كالأنجرة والأعمال والدعوات (وهو معكم أينما كنتم) لا ينفك علمه وقدرته عنكم بحال (والله بما تعملون) في أمور دينكم ودنياكم (بصير) فيعطى كل ذي فضل فضله « ولا يظلم ربك أحدا » ثم قال (له ملك السموات والأرض) وإنما كرهه ليرتب عليه ما بعده (وإلى الله ترجع الأمور ، بولج الليل في النهار وبولج النهار في الليل) تقدم شرح ذلك في (سورة البقرة) وغيرها (وهو عليم بذات الصدور) أي بمكنوناتها . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطيفة في قوله تعالى : يعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها

اعلم أن الكلام على هذه الآية قد تقدم في ﴿سورة سبأ﴾ وشرحت لك هناك ما تشير له الآية من الكنوز والآثار والعلوم المدفونة في خرائب بلاد اليمن ، وكيف سخر الله الفرنجة فقاموا بالحفر والتنقيب والمسلمون هم الناعمون لا يدرون ما حولهم كأن البلاد ليست بلادهم ، وكأن هذه الآية ليست من دينهم ، أو كأنها نزلت لمن لا يتفكرون فيها ، لماذا يذكر الله الإيلاج في الأرض في أول سورة ذكر فيها قصة سبأ ، فهكذا هنا بدأ الله هذه السورة بما يفيد أنه يعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها ، ثم رأينا بعد ذلك يقول : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » فعلمنا أنه يرمز إلى نعمة المعادن التي هي من قبيل الحديد والتي هي الآن في قبضة الفرنجة ، وكيف نام المسلمون عنها والله يقول أنه يعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها ، فيعلم منفعتها ، ويعلم الذين ينتفعون بها ، ويعلم متى ينتفعون بها ، ويعلم متى يستخرجونها ، ويعلم من الذي يحرم منها فتكون الدائرة عليه لجهله فلم يذكر الله ذلك لمجرد معرفة الله مجردة من كمال العباد ومنافعهم والا لم يقل في ﴿سورة ق﴾ : « والنخل باستات لها طلع نصيد رزقا للعباد » فهذه المخلوقات بها الاستدلال تارة وبها الرزق أخرى ، فليستخرج المسلمون الحديد والذهب والنحاس وجميع المعادن ، ولا يكونوا عالة على أوروبا .

وما يستخرج من الأرض آثار الأولين كما تقدم في ﴿سورة سبأ﴾ أيضا ، ولن يكون هذا إلا اذا ملكت الدولة رشدها ، وكل نظامها ، وعظم عمرانها ، فهل أنبتك بأمر عجب قرأته في إحدى جرائدنا المصرية يوم الأحد الخامس من شهر مايو سنة ١٩٢٥ عند تفسير هذه الآية : ذلك أن الغواصين الذين يغوصون على [السفنج] ليستخرجوه في البحر الأبيض أمام تونس ، كان أحدهم قد غاص ونزل في البحر على عمق ثلاثين قدما ، وبينما هو يعالج الاسفنج إذ لمح من بعيد امرأة جميلة لم يرَ الرايون مثلها ، معتدلة القوام ، باهرة المحاسن ، باسمحة الحيا ، والحشائش نابتة حول جسمها ، والسمك يغدو ويروح حولها ، فلما رأى هذا المنظر دهش وظن أن عقله ليس في حالة العادية ، فأشار إلى رفاقه في البر إشارة الخطر ، فرفعوه ، فأخبرهم الخبر ، فنزل رفاقه فوجدوا الأمر كما قال ، وأن هناك مدينة ذات شوارع ومنازل والسمك ذاهب آيب فيها ، فأخبروا الحاكم الفرنسي بتلك الأقطار بالجزائر ، فطير الخبر إلى بلاده ، فأرسلوا إلى عالم كبير بالآثار من أمريكا فلما درس الموضوع ، قال : ان هذه المرأة هي صورة آلهة الجبال في قديم الزمان ، وأنه يظن أن تلك المدينة ومدنا أخرى قد ابتلعها البحر منذ ثلاثة آلاف سنة ، وأنه يريد أن ينظر في أمورها هل يبنى سورا حولها ان كان ميسورا ، أم يرفع الأشياء الثمينة منها ويتركها إن لم يتيسر الأول ؟ .

هذا ملخص الخبر في جريدة البلاغ المصرية ، فهذه الحادثة مما يلج البحر ومايخرج منه والله يعلمها ، وذلك ان الله أوجها في البحر الذي هو بمثابة الأرض لعلهم أن قوماسينتفعون بها بعد خروجها ، فان المتأخر اذا اطلع على صناعة المتقدم أدهشه الحسن والجمال والدقة في الصنع فيستمسك بما ليس عنده ، ويبحث في الوصول إلى الكمال ، فان العلم منشؤه التعجب ، ومتى تعجب الناس من جلال صنعة المتقدمين زادهم ذلك نشاطا وجدا ، ولما أن أقول لأمة الاسلام : هذا كلام ربنا وهذه آثاره في الأرض ، وهناك آثار سبأ المتقدمة في سورة سبأ وهي في أرض المسلمين الآن ، وآثار هذه المدينة المجهولة التي أغرقها الله في البحر أمام تونس ، تونس التي هي بلاد اسلامية والمسلمون هم الآن ناعمون ، ملكت فرنسا تونس ، فأصبح أهلها وأهل الجزائر وطرابلس وغيرها من شمال افريقيا لا يعلمون شيئا في بلادهم ولكن الله يقول : « يعلم مايلج في الأرض »

نعم يعلمه ويخبر عباده به ، فانظر لأمة الاسلام التي تركت الدنيا تنعى من بناها ، وتقول لأهمل بشيء ، فلا علم ولا مال ولا دولة ، وقد آن أوان أن تشرق أيامهم ، وتزدان مدنهم ، ويكون منهم في كل جيل طوآفون في الأرض ، وعلماء في كل فن كما هو أوامر شرعنا أن يكون في المسلمين طوائف لكل فن طائفة تنكفي المسلمين الحاجة ، وهذا هو المسمى فرض كفاية بحيث لو ترك لأثم المسلمون جميعا ، فسيعلم المسلمون ذلك ، وسيقولون نظام الأرض كما تولتها أوروبا التي ضيقت الحصار على المسلمين ، وأرغمتهم وهم في كل واد يهيمنون ، وسيأخذ المسلمون حظهم الموعود ، ويومهم المقبل « وللهامن نباءه بعد حين » انتهى الكلام على القسم الثاني من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث : في الخس على الاتفاق

قال تعالى (آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) من الأموال التي هي ملكه في الحقيقة وما أنتم إلا خلفاؤه في التصرف فيها (فالذين آمنوا) بالله ورسوله (منكم) وأنفقوا لهم أجر كبير ، وما لكم لا تؤمنون بالله) أى وأى عذر لكم في ترك الإيمان بالله والرسول يدعوكم اليه ويتلو عليكم كتابه الناطق بالبرهان ، وهذا قوله (والرسول يدعوكم لتؤمنوا ببركم) الجلة حالية (وقد أخذ ميثاقكم) بالإيمان قبل ذلك بنصب الدلائل والتمكين من النظر (ان كنتم مؤمنين) أى إيمان كان لموجب ما ، فان الإيمان لهذا الموجب أعظم وهو أخذ الميثاق (هو الذي ينزل على عبده) محمد ﷺ (آيات بينات) القرآن (ليخرجكم) الله تعالى أونييه بدعوته (من الظلمات إلى النور) من الكفر إلى الإيمان (وان الله بكم لرؤوف رحيم) إذ أنزل عليكم الكتاب ولم يقتصر على نصب الدلائل العقلية (وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض) أى وأى غرض عرض لكم في ترك الاتفاق في سبيل الله والجهاد مع رسوله مع أنكم ستموتون وتتركون أموالكم لغيركم ، فالأولى لكم أن تنفقوها فيما يقربكم إلى الله تعالى وتستحقون به الثواب ، ثم أخذ يبين درجات المنفقين فقال (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) الفتح فتح مكة فن قاتل وأنفق قبله فأجره أعظم ممن أنفق وقاتل بعده مع أن كلا منهما وعد الله المثوبة الحسنى وهي الجنة كما تقدم في [سورة الواقعة] من الفرق بين السابقين وأصحاب اليمين والله يعلم بظواهر أعمالكم وباطنها فيجاري كلا بما فعل ، وأعظم من قاتل وأنفق قبل الفتح أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وأكثر المفسرين يرون أن الآية نزلت فيه ، ولكنها بحسب حكمها أعم (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) أى من ذا الذي ينفق ماله في سبيله رجاء ثوابه ، ففيه استعارة لفظ القرض ليفيد لزوم الجزاء (فيضاعفه له) أى يعطيه أجره أضعافا (وله أجر كريم) أى ان هذا الأجر في نفسه كريم حسن فكيف وقد ضعف أضعافا . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الرابع

قال تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم) وهو ما يوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة من العلم والعمل والعبادات والحكمة (بين أيديهم وبأيمانهم) لامن شمالهم ولامن وراء ظهورهم كالكافرين ، فاختصاص النور بالأمام وبجهة اليمين للاشعار بأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا ، وبصحائفهم البيض أفلحوا فإذا صرنا على الصراط يسعون يسعى بسعيهم ذلك النور وتقول لهم الملائكة (بشراكم اليوم جنات) أى دخول جنات (تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) ثم أبدل من « يوم ترى » قوله

(يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا) أى انتظرونا ، وذلك اذا رأوهم قد أسرعوا كالبرق الخاطف إلى الجنة ، أو انظروا إلينا فانهم اذا أقبلوا عليهم بوجوههم استضاءوا بنورهم ، ان تنظروا (نقتبس من نوركم) نستضي من نوركم (قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) وهذا نهكم بهم وتحيب لآمالهم من المؤمنين والملائكة ، أو قيل ارجعوا وراءكم إلى الدنيا فالتمسوا نورا بتحصيل العلوم والمعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة فلانور إلا منها ، وأما هنا فلاصيل لكم أن تالوا نورا ، إذ لا ينفع المرء إلا عمله ، ومن لم تستعد نفسه للمهادية فلا ينفعه آخر (فضرب بينهم) أى بين المؤمنين والمنافقين (بسور) بحائظ (له باب) يدخل فيه المؤمنون (باطنه) باطن السور أو الباب (فيه الرحمة) لأنه إلى الجنة (وظاهره من قبله العذاب) من جهته لأنه إلى النار (ينادونهم) أى ينادى المنافقون المؤمنين من وراء ذلك السور حين حجز بينهم وبقوا في الظلمة (ألم نكن معكم) فى الدنيا نصلى ونصوم ونزكى ونحج (قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم) أهلكتموها بالنفاق والمعاصي والشهوات ، فهذه كلها فتنة (وتربصتم) بالمؤمنين وبالنبي صلى الله عليه وسلم الدوائر (ولربتم) وشككنتم فى الدين (وغررتكم الأمانى) الأباطيل وما تمنونه كامتداد أعمالكم (حتى جاء أمر الله) وهو الموت (وغرركم بالله الغرور) أى الشيطان أو الدنيا (فالיום لا يؤخذ منكم فدية) فداء (ولا من الذين كفروا) ظاهرا وباطنا (ماؤاكم النار هى مولاكم) أى مصيركم النار هى أولى بكم لما أسلفتم من الذنوب ، وهى مكانكم الذى يقال فيه هو أولى بكم (وبئس المصير) النار : اعلم أن المؤمنين لما قدموا المدينة أصابوا من لين العيش ورفاهيته ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوقبوا ونزل فى ذلك : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » الآية . وقال ابن مسعود ما كان بين اسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين . وقال ابن عباس : ان الله تعالى استبطأ قلوب المؤمنين فعاقبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع) أى ترق وتلين وتخضع (قلوبهم لذكر الله) لمواعظ الله (وما نزل من الحق) أى القرآن ، وقوله « ألم يأن » أى ألم يأت وقته ، يقال أتى الأمر يأتى اذا جاء إناء أى وقته (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل) معطوف على تخشع (فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) أى فطال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم وكثير منهم خارجون عن دينهم ، رافضون لما فى كتابهم ، من فرط قسوة قلوبهم ، والمقصود أن الله نهى المسلمين أن يكونوا فى حجة القرآن كاليهود والنصارى الذين قست قلوبهم لما طال عليهم الدهر . ويروى عن أبى موسى الأشعرى أنه بعث إلى قرءاء البصرة ، فدخل عليه ثلثمائة رجل قد قرءوا القرآن ، فقال أتم خيار أهل البصرة وقرءوهم فاتلوه ، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم .

أقول : ولما كانت الأمة الاسلامية اليوم قد أصابها الوهن بطول المدة التى ليست ثلاث عشرة سنة [كما قال ابن عباس بل مضاعفة مائة مرة ، فقد انتهينا الآن من القرن الثالث عشر] كانت هذه الآية أقرب إلى التعبير عن حالها ، واذا كان الله قد وعظ أصحاب رسول الله ﷺ بأنهم قد ضعفت عزائمهم ، فالمسلمون بعد ذلك بثلاثة عشر قرنا ظهر الوهن فى عزائمهم ظهورا فاضحا أكثر مائة مرة وأفرط الافرنج فى إذلالهم ، واذا كان الله يقول لآبائنا الأولين أيام النبوة (اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها) أى يحيى القلوب القاسية بالذكر والتلاوة والنشاط فى العلم والعمل .

أقول : اذا كان الله يبشرهم بذلك ونبينا ﷺ بينهم فالبشارة لعمري الله اليوم لنا أكثر تحقيقا وأقرب رحمة ، ألا ترى أن الأرض اذا نزل المطر عليها بعد طول الفترة كانت قد استراحت فتعطى ثمرا أعظم بشروط خاصة ، وكلما كان الليل أشد ظلاما كان النهار أبهر إشراقا ، وطول المشقات يعقبه الفوز ، والضد يتبعه ضده

- وتلك الأيام نداؤها بين الناس - واني أنا أبشر المسلمين اليوم بهذه الآية وبأشياء أخرى لا محل لذكرها ،
 أبشر المسلمين وأقول لهم قد جاء يومهم الموعود ، وأقبل اسعادهم المأمول ، وسترون العلم والحكمة ،
 وستكونون أمة لها شأن وأى شأن ، وسيكون قرآء هذا التفسير من أول العالمين لرفعة شأن هذه الأمة
 وليقومن في شمال افريقيا وفي الحجاز والشام وبلاد العراق واليمن وبقي بلاد الاسلام علماء قريبا ، وحكام
 يجتدون الأمر ، ويقتفون أثر أجدادهم ، ويجتدون ما اندرس من العلم ، وستكون الأمة الاسلامية
 بعد هذا الزمان أمة مفكرة ، بحثة ، نافعة لنوع الانسان ، رحمة للعالمين ، قال تعالى (قد بينا لكم الآيات
 لعلكم تعقلون) أى كى تكمل عقولكم (إن المصدقين والمصدقات) أى المتصدقين والمتصدقات ، وقرىء
 بتشديد الدال وحده من التصديق (وأقرضوا الله قرضا حسنا) عطف على المصدقين (يضاعف لهم) يضعف
 لهم (ولهم أجر كريم) هى الجنة (والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) أى
 ان المؤمنين عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء ، وهم الذين سبقوا الى التصديق واستشهدوا في سبيل الله
 (لهم أجرهم ونورهم) أى لهم مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم ، والفرق بين هؤلاء وهؤلاء أن
 نورهم من غير تضعيف ، فأما الآخرون فتواهبهم مضاعف (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب
 الجحيم) والى هنا تم الكلام على بشارة المؤمنين بنورهم يوم القيامة ، وعلى حضهم وحشهم على بذل الجهد
 وترك الغفلة ، وعلى ثواب المتصدقين والمتصدقات ، ثم أخذ يشرح وصف سرعة زوال الدنيا فقال (اعلما
 أنما الحياة الدنيا لعب) كعب الصبيان في الملاعب من غير فائدة (ولهو) يلهو به أنفسهم عما بهمهم
 كلهما الفتيان (وزينة) كالملابس الحسنة ، والمراكب البهية ، والمنازل الرفيعة . وكزينة النساء (وتفاخر
 بينكم) كتفاخر الأقران بالأنساب (وتكاثروا في الأموال والأولاد) مباحاة بكثرة الأموال والأولاد ، ثم
 قرّر ذلك فقال (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) الكفار الزراع لكفرهم : أى سترهم الأرض بالبذر ، والنبات
 ما نبت بذلك الغيث (ثم يهيج) يهيج (فتراه مصفرا) بعد خضرته (ثم يكون حطاما) يتكسر ويتكسر
 بعد يبسه ويفنى (وفي الآخرة عذاب شديد) لمن كانت حياته بهذه الصفة ، فمن انهمك في الدنيا كانت
 عاقبته شدة العذاب ، وقوله (ومغفرة من الله ورضوان) أى لمن جعلها سبيلا للآخرة (وما الحياة الدنيا إلا
 متاع الغرور) لمن عمل لها ولم يعمل للآخرة ، ثم شرع في ترغيب العباد في العمل للجنة فقال (سابقوا
 إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) أى عرضها كعرضيهما ، فإذا كان ذلك عرضها
 فإذا يكون طولها ؟ (أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله) فهى مهية الآن مخلوقة (ذلك) الموعود (فضل
 الله يؤتیه من يشاء) يتفضل به على من يشاء من غير إيجاب (والله ذو الفضل العظيم) فالتفضل منه ممكن
 وان عظم قدره ، ثم أعقبه بتهوين المصائب على المؤمنين تهجيلا للسعادة ، لان هذه المسألة أهم المسائل
 في الحياة الدنيا ، وعليها تكون السعادة ، وبخلافها يكون الشقاء ، ألم تر إلى ما نقلته لك عن الحكيم قابس
 اليونانى ، وكيف شرح جميع أنواع النعم من مال وولد وعلم وصيت ، وانتهى في آخر الأمر إلى أنه لا سعادة
 إلا من حيث الصبر ووصول النفس إلى نهاية كمالها الأخلاقى بحيث يمر المال والولد والقوة والعلم عليها
 فتصيبها تارة وتخطئها أخرى وهى بحالها مطمئنة ، لا يزدهيها الاتصاف بما تقدم ، ولا يحزنها الفوت .

هذا آخر آراء المتقدمين من الفلاسفة في سعادة الأنفس البشرية في هذه الحياة الدنيا ، فكأن الله
 يقول : أيها المؤمنون : الحياة الدنيا غرور فسابقوا إلى الجنات ، وانلحوا أنكم في هذه الحياة التى سمينها
 غرورا واقعون في خيرها وشرها ، فلنعجل لكم السعادة قبل الموت حتى تشموا رائحة الجنة وأنتم أحياء ،
 وذلك بما نصفه فنقول (ما أصاب من مصيبة في الأرض) الأولى كالجذب والفاقة واحتلال الأجانب من

الظالمين ، واستيلاء الحكام الفاسقين من المسلمين (ولافى أنفسكم) كمرض وفقة (إلا في كتاب) الإمكتوبة في اللوح المحفوظ ، مثبتة في علم الله (من قبل أن نبرأها) نخلقها أى المصيبة (إن ذلك) أى إثباته في كتاب (على الله يسير) لاستغنائه تعالى عن العدد والمادة ، انى أثبت ذلك وكتبته وأخبرتكم (الكيلا تأسوا) تحزنوا (على ما فاتكم) من نعيم الدنيا (ولانفرحوا بما آتاكم) بما أعطاكم الله منها ، فانظركيف يقول قابس اليونانى : « إن الصبر مخرج من الشقاء » ويحسب القرآن بما هو أقرب من أول وهلة فيقول : ان كل شيء قدر في الكتاب فكيف نفرح أو نحزن ! قال عكرمة « ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن اجعلوا الفرح شكرا ، والحزن صبرا » . وقال صاحب الكشف : « المراد بالحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء الثواب ، وبالفرح المطفئ للمهي عن الشكر » (والله لا يحب كل مختال) متكبر بما أعطاه الله في الدنيا (غفور) بذلك الذى أوتى على الناس :

ذم البخل

قال تعالى (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) والخبر محذوف مثل فإن الله غنى عنهم محمود وإن لم يحمده ، وهذا الخبر مأخوذ من قوله (ومن يتول) أى يعرض عن الانفاق (فإن الله هو الغنى الجيد) أى الغنى عنه وعن انفاقه ، محمود في ذاته ، لا يضره الاعراض عن شكره .

التحريض على العدل

قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا) الملائكة إلى الأنبياء ، والأنبياء إلى الأمم (بالبينات) بالحجج والمعجزات (وأزلنا معهم الكتاب) المتضمن للأحكام وشرائع الدين (والميزان) أى العدل : أى وأمرنا بالعدل (ليقوم الناس بالقسط) ليتعاملوا بينهم بالعدل ولا يظلم بعضهم بعضا ، ولما كان ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن وكان الناس فريقين : فريقا يقوده العلم والحكمة ، وفريقا يقوده السيف والعصا ، وكان العدل والقانون لا بد له من حام يحميه وهو الدولة والملك وجنوده وأعوانه ، وهؤلاء لابد لهم من عدة يحمونها بها القانون والعدل في داخل البلاد وخارجها أعقبه بأنه أنزل الحديد لتكون منه السيوف والرماح والسفن البحرية وما أشبه ذلك ، وهذا قوله (وأزلنا الحديد) قبل أن نخلق الإنسان والحيوان على الأرض حينما كانت آخذة في التبرّد شيئا فشيئا فإنه كان هو وبقية المعادن سائلا تارة وبخارا أخرى ، يرتفع كالسحب في الجو ، ويمطر على اليابسة ، وينزل في شقوق الأرض عاما بعد عام هو والذهب والفضة ، وباقي المعادن فانها كلها في تلك الدهور القديمة كانت مرتفعة الحرارة جدا ، وكلما بردت الحرارة نوعا ما أخذت تلك المواد تبرد بالتدريج ، ومنها الحديد في دوره الخاص به كما تقدم إيضاحه بالتفصيل في الأجزاء السابقة من هذا التفسير مع بيان الدرجة التي يصير فيها سائلا ، والدرجة التي يصير فيها جامدا صلبا فلا يعيده ، فصيح أن الحديد أنزل من السماء كما ينزل المطر ، وهذا من عجائب القرآن التي أظهرها علم طبقات الأرض الآن في المعادن والحديد الذى قال الله فيه (فيه بأس شديد) قوة شديدة ، فيه يقاتلون ، ومنه يصنعون السفن في هذا العصر للقتال والدروع (و) منه (منافع للناس) في جميع الصناعات ، فهو في قطارات السكك الحديدية في سائر أقطار الأرض كما هو في الابرة وما بينهما ، لافرق بين صنع الكرسي وصنع القصر العظيم ، كلاهما داخل فيه الحديد ، وانما فعلنا ذلك لتجاهدوا في سبيل (وليعلم الله من ينصره) باستعمال الأسلحة في مجاهدة الكفار ، والمحافظة على سلامة الأوطان ، التي هي من أهمّ الجهاد كما قال تعالى : « ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » ومعنى [ليعلم الله] ليرى الله (من ينصره) أى من ينصر دينه (ورسله بالغيب) أى حال كونه

غائبا عنهم : أى ينصرونه ولا يبصرونه (إن الله قوى) يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته (عزيز) يربط بعزته جأش من يتعرض لنصرته . واعلم أن كتاب الله المنزل من السماء ، والعدل الذى أمر الله به والحديد الذى يجعل فى المدافعة عنهما مرتبطان كما شرحته لك .

ذكر بعض الأم السالفة التى أنزل عليها الكتاب والميزان

وأن منهم من اهتدى ، ومنهم من فسق ، ايرقب عليه ما بعده

قال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) فجعلناهم أنبياء وأوحينا إليهم الكتب (فمنهم مهتد) أى من المرسل إليهم مهتد (وكثير منهم فاسقون) خارجون عادلون عن الطريق المستقيم (ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم) وذلك بأن أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى الى عيسى (وآتيناه الانجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة) الرأفة المودّة واللين ، والرحمة التعطف على الاخوان (ورهبانية ابتدعوها) وهى انهم يترهبون فى الجبال ، فارّين من الفتنة فى الدين ، مخلصين أنفسهم للعبادة ، والرهبانية هى الفعلة المنسوبة للرهبان كخشيان من خشى ، والرهبان المبالغ فى الخوف ، ومعنى ابتدعوها أخرجوها من عند أنفسهم ، وذلك بعد المسيح بقرون ، أيام اضطهاد النصرانية بمصر ، فان بعض العلماء ترك البلاد وخرج الى الجبال كما جاء فى كتاب [الخريدة النفيسة ، فى تاريخ الكنيسة] الذى ألفه أحد الرهبان بمصر وطبع سنة ١٨٨٤ م (ما كتبناها عليهم) ما فرضناها عليهم ولكنهم ابتدعوها (إلا ابتغاء رضوان الله فإرعوها حق رعايتها) أى الذين جاءوا بعدهم (فآتيناهم الذين آمنوا منهم أجرهم) أى الذين ابتدعوها ابتغاء رضوان الله (وكثير منهم فاسقون) وهم الذين جاءوا بعدهم فلما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم انحط رجل من صومعته وجاء سائح من سياحته وصاحب دير من ديره فاتمورا به وصدقوه فقال الله (يا أيها الذين آمنوا) بالرسل المتقدمة ومنهم عيسى (اتقوا الله) فيما نهاكم عنه (وآمنوا برسوله) محمد صلى الله عليه وسلم (يؤتكم كفلين) نصيبين (من رحمته) لايمانكم بمحمد وبمن قبله (ويجعل لكم نورا تمشون به) وهو المذكور فى قوله « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » (ويغفر لكم) الكفر والمعاصي (والله غفور رحيم) وانما فعلنا ما ذكر (لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرّون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) أى فعلنا ذلك ليعلم أهل الكتاب أنهم لا ينالون شيئا مما ذكر من فضله ، ولا يتمكنون من الكفلين من رحمته ، ولا من النور والمغفرة اذا لم يؤمنوا برسوله محمد ﷺ فليس ينفعهم إيمانهم بمن قبله وحده ولا يكسبهم فضلا فتكون إذن لازائدة وقوله « وأن الفضل بيد الله » عطف على « ألا يقدرّون » أى ليعلموا عدم قدرتهم على ما ذكره يعلموا أن الفضل المذكور فى ملك الله وتصرفه يؤتيه من يشاء من عباده ، واذا جعلت لا غير مزيدة يكون المعنى لأجل ألا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي والمؤمنون به على شيء من فضل الله ولا ينالونه ان الفضل بيد الله فلذلك أعطاه للنبي والمؤمنين . انتهى التفسير اللفظى للقسم الرابع من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) فى قوله تعالى : « فضرّب بينهم بسور » أى بحائط الخ .
- (٢) وفى قوله : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » .
- (٣) وفى قوله : « ورهبانية ابتدعوها » الخ .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : فضرب بينهم بسور

اعلم أن هذه الآية تفيد أن بين الجنة والنار حائطا له باب ومن دخله دخل الجنة ، ومن هو خارجه فهو في النار ، والمنافقون واقفون خارج هذا السور يقولون لمن كانوا معهم من المؤمنين « انظرونا نقتبس من نوركم » وأولئك لا يجيبونهم إلا بالتقريع والتوبيخ . واعلم أن هذا الوصف له نظير في الدنيا ، بل إن مراتب الناس في الدنيا على هذا المنوال ، بل جميع العوالم النامية من حيوان وإنسان ، ولأضرب لك ثلاثة أمثال : [المثال الأول] كل فاكهة من الفواكه ، أوجب من المأكول ، أزهره في شجرة ، تجدها ذات قشر غليظ من أعلى يليه ماهو أطف منه ، ولا يكون في داخل الجميع إلا الفاكهة المطلوبة ، ولا يكون في المركز إلا ماهو أهم وهو المقصود ، فترى الزهرة يحجبها أولا الورقات المسماة بالكأس ، ولا جرم أنها أغلظ مما بعدها وهي الوريقات الملونة المسميات بالتويج ، وفي داخل هذين تجد أعضاء الذكور وأعضاء الاناث في داخل الزهرة ، إذن ظاهر الزهرة أقرب إلى العالم الخشن ، وباطنها أقرب إلى العالم اللطيف ، وهو المقصود بالذات ، انظر إلى البندق والى الجوز كيف كان القشر الأعلى غليظا ومتحته لطيف ، وفي داخله المادة المأكولة المحفوظ عليها ، وهكذا البطيخ والرمال وجميع الفواكه ، وترى التمرة وجميع النخلة كأنها خوادم لنواة التمر لتكون أصلا لشجرة أخرى ، وهكذا كل نواة فهي محافظ عليها بمثل ذلك .

[المثال الثاني] إن جرائم الأجنة في أرحام الأمهات من كل حيوان برى أو بحرى تمر في أدوار من الخلق ، ثم انها اذا وصلت إلى ماهى أهل له من الخلق وقفت ولم تجاوز ما استعدت له ، فترى الحيوانات النعانية التي هي في آخر مراتب الحيوانية تبقى على حالها لا ترتقى وهي في دور التربية ، وترى أنواع العنكبوت والنمل والنحل اذا خرجت من البيض لاتعدو مرتبة أصلها ، أما الحيوانات الفقرية فانها تجاوز تلك المراتب ولاتتجاوز مرتبتها هي ، والانسان يجاوز المراتب كلها ويرتقى إلى مرتبة الانسانية ، فكأن كل درجة من درجات الحيوانية غلاف يحفظ ماتحته ، وآخرها ارتقاء هو الانسان الذى أحاط الجميع به محافظة عليه كما يحافظ القشر على لب الثمار ، وكما يحافظ الكأس والتويج في الزهرة على أعضاء الالتحاق .

[المثال الثالث] : دراسة العلوم في اللغة العربية ، مثلا : الخط ، الاملاء ، النحو والصرف ، البلاغة القرآن : حكمه وعلومه ، اشراق النفس به . وانظر الى نوع الانسان كيف كان كل لا يتعدى حده الذى حده له استعداده ، والبيئة التي هو فيها .

يكتب الانسان ويقرأ ثم يقف بعد ذلك لا يتعدى القراءة البسيطة ، وهو قد امتاز عن من لم يقرأ ومن لم يكتب . ثم يتجاوز ذلك طائفة علماء النحو ويجاوزهم علماء البلاغة ، ويظن هؤلاء انهم وصلوا إلى قمة العلم ، فيرتقى عنهم قوم إلى قراءة أشعار العرب ونثرها وخطبها في الجاهلية والاسلام ، ويظن هؤلاء انهم أعلى الجميع ، ويزيد عليهم آخرون فيقرءون تاريخ العرب وأنسابهم ولا يتعدون ذلك ، ويتجاوزهم آخرون فيعرفون معاني القرآن وبلاغته ويظنون انهم أرقى ، ويتجاوزهم آخرون فيدركون مقاصده من الأخلاق والعلوم ويقفون ، ويتجاوزهم آخرون فيعملون بذلك ويدرسون هذه الدنيا ونظامها ، ويتخلقون بحمائل الأخلاق ، ويقفون عند هذا الحد ، ويتجاوزهم آخرون فيكونون مخلصين لربهم ، نافعين لأمتهم ، وهؤلاء هم الصديقون والحكماء ، فكل طائفة متقدمة كالقشر لما بعدها ، وكأن كل واحدة تقول لمن تقدم عليها وتجاوزها ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم ظلمتم أنفسكم ، واغتررتم بعلمكم ، ووقفتم عند حد مخصوص ، ولكن نحن عرفنا الحقيقة ووصلنا ، فلا تلوموا إلا أنفسكم ، انك ترى هذه الحقائق مجسمة أمامك في كل آن ، والى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : وجنة عرضها كعرض السماء والأرض

تقدم هذا في سورة ﴿ آل عمران ﴾ فارجع إليه هناك إن شئت .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم

لنشرح هذا المقام من كتاب [الخريدة النفيسة ، في تاريخ الكنيسة] فنقول : جاء في الكتاب المذكور الذي ألفه أحد رهبان دير السيد بزموس في برية انبا مقاريوس الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر القاهرة سنة ١٨٨٣ هدية للأب الكلي الوقار [أنبا يوانس] مطران البحيرة ووكيل الكرازة المرقسية صفحة ١٦٢ وما بعدها مانصه :

« في أنباء القرن الثالث للمسيح أي في أواخره أن [بولس السائح] قد انفرد للوحدة وانقطع للعبادة منذ صغره ، فكان قدوة بفضائله للأولين والآخرين ، وقد ارتشد منه القديس [أنطونيوس] مقتفياً أثره ، ومنتهجاً منهجه الصارم لما كشفه وهو محتف في مغارة ، وبيان ذلك أن القديس أنطونيوس اختلجه فكر العظمة ظانا أنه هو أول من سلك طريق الرهبنة منفرداً للعبادة والفك في البرية ، فتداركته نعمة الله باعلان إلهي بأن في البرية رجلاً أقدم منه زمناً ، وأفضل قداسة ، فأخذ عكازه وخرج يطوف في البرية قاصداً مكان عبده ، وبعد ما سار يوماً بتمامه ولم يجد أثراً يدل عليه قام مصلياً الليل أجمع مستمداً الارشاد من الباري ثم أخذ يطوف في اليوم الثاني ، فرأى غروباً ذئبة صاعدة إلى جبل ، فتعقب أثرها ولم يدعها حتى خيم الظلام ، فتركها ومال إلى مغارة يريد أن يبيت فيها ، وبينما هو سائر في الظلام دنا من النور فشعر به القديس بولس ، فأسرع وأغلق دونه الباب ، فلما وصل إليه جثا على الأرض باكياً وصارخاً ، إني لوائق بأنك تعلم من أنا ، ومن أين جئت ، ولماذا أتيت ؟ ولا يخفى عليك انني لا أخرج من هنا أو أبصرك ، فهل يمكنك ياذا الذي يقبل الحيوانات أن تطرد الانسان ، إني طلبتك وقد وجدت ، وقد قرعت بابك لتفتح لي فان لم تقبل فاني أموت هنا ، فأقبل ما يكون انك تجدني بعد موتي ، ففتح له الباب ، وعانق كل صاحبه مسلماً عليه بقمه ، فقال له القديس بولس : أبصر الآن من قشيت عنه بعناية عظيمة ، فترى أعضائي قد وهنت من الشيخوخة ، وقد ابيضت لحتي كلها ، وجفت جلدي ، فانظر انساناً يرتد إلى الرماد سريعاً قد تكبدت كثيراً بالاستقصاء عني ، فأخبرني عن حال العالم من بعدى ، وهل يوجد من يعبد الشيطان فيه ؟ فأجاب أنطونيوس على ذلك بالتفصيل ، ثم سأله عن السبب الذي أحضره إلى ذلك المكان ، فأجابه القديس بولس قائلاً : انه بينما كان الملك [ديسيوس] يفتك بنصارى مصر والصعيد حيث ولدت مات والدي إذ كان عمري ١٢ سنة ، فدخلت مدارس الفلاسفة ، وحزرت علوماً وافرة ، فلما اشتدت المصائب على المؤمنين انفردت في منزل كان لي بين مزارعي ، فعرض لي خطر عظيم ، وذلك أن زوج أختي قام على ورام أن يختلس أموالى ، أو يشكونى إلى الوالى بأني مسيحي ، وكنت سمعت بأن هذا الوالى أرسل إلى كل مكان رسلاً يفحصون عن المسيحيين ليعذبهم ، أو ينكروا المسيحية فهربت إلى هذه البرية وتخلصت من خبث خصمى ، وبينما كنا تتفاوض طار إلينا غراب حاملاً في منقاره رغيفاً وتركه بين أيدينا وطار ، فقال القديس بولس : مبارك الرب الذي أرسل إلينا ما كلاً ، فاعلم يا أخى أن منذ ٢٠ سنة يأتيني هذا الغراب كل يوم بنصف رغيف ، واليوم أتى برغيف كامل من أجلك ، فشكراً لله الذى يهتم بقديسه ، ثم صرفنا الليل كله في الصلاة ، وفي الغد استدعانى وقال لي : أنا عرفت منذ زمان أنك مستوطن هذه البرية ، وقد وعدنى الله بأنك مزعم أن تزورنى وتوارىنى التراب ، وقد وافى الوقت الذى فيه أفارق هذا الجسد البالى ، وأنطلق إلى الرب ، فأطلب

إليك أن تعود إلى ديرك وتأتيني بالرداء الذي أعطاه لك أنثاسيوس لتكفني به ، فبدأت أذرف الدموع متأسفا ، وطلبت أن لا يفارقتي قبل أن يلمس من المسيح أن أنطلق معه ، فقال لي : يجب أن تمكث مدة من أجل خير اخوانك ، ثم أخبرني عن مستقبل مجد الرهبنة وفضلها ، فودعته وعدت مسرعا إلى ديري ، ولما صادفت اثنين من الرهبان وسألاني عن سبب غيابي لم أجبهما بكلمة ، بل قلت لهما اني رجل خاطيء لا أستحق أن أسمى راهبا (للكلام وقت ، وللصمت وقت) ثم أخذت ذلك الرداء ورجعت إلى حيث القديس راجيا أن أعاينه وهو حي ، فلما لم يبق إلا مسافة قليلة أبصرت جوقا من الملائكة يرتلون وينظمون نفس البار [القديس بولس] فزنت وبكيت بكاء مرثيا ، ولما دخلت المغارة وجدت جسده جالسا جاثيا على ركبتيه ، ورأسه مستقيما ، وبديه مرتفعتين ، فظننت أنه حي ، فجثوت أصلى بقربه ، ولما نظرت انه لم يتهد كعادته في الصلاة ، تفرست فيه جيدا فتأكدت أنه توفي ، فوثبت على جسده أقبله ذارفا الدموع ، ثم كفتته بذلك الرداء ، وفيما أنا مفكر في كيف أنا أدفنه إذ لم يكن معي آلة أحفر بها حفرة ساق الله لي أسدين وبدءا يحفران في الأرض حتى أكلا قبرا ، وجثيا أمامي كأنهما يطلبان إذنا للانصراف ، فأشرت لهما بيدي ، ثم وارتب الجسد في التراب ، وأخذت ثوبه المنسوج من الخوص ، وعدت به إلى ديري ، وكنت ألبسه في الأعياد الإلهية » انتهى .

هذا هو الذي نقلته من ذلك الكتاب ، أنا أكتب هذا وأنا في غاية العجب ، هذا كتاب لم يظهر إلا في هذه الأيام ، والمسيحيون في مصر لم يعلموا به إلا في هذه الأيام ، والسبب في نقل هذه الرواية على علانها أني كنت اطلعت في بعض الجرائد على مقالة لمسيحي مصري يقول : « الرهبانية مبتدعة وليست من أصل الدين » وما كنا نعلم ذلك من قبل ظهور قصة القديس بولس الذي عثر عليه أنطونيوس في كتاب الخريدة المذكور ، فقلت في نفسي عجب ! يقول الله « ورهبانية ابتدعوها » وجميع المسيحيين لم يعلموا أنها مبتدعة إلا في هذه السنة لما عثروا على تاريخ [القديس بولس] الذي ظلمه الملك بمصر ، وقلت في نفسي لابد من البحث على هذا الكتاب ، فاهتديت إليه ، ونقلت منه العبارة بنصها ، وهأنذا قرأتها وعرفتها .

أقول : أني يقظة أنا أم في منام ؟ هذه معجزة تفوق جميع المعجزات النبوية الإسلامية ، هذا الابتداء للرهبانية لا يعلمه المسلمون إلا إيماننا بالقرآن ، أما اليقين فهو محتاج إلى العلم ولا علم عندنا ، وإذا كان المسيحيون أنفسهم لا يعلمون فمن الذي يعلم منا إلا بالسمع من القرآن ، إني أجد الله إذ وفقت لهذه النعمة وهي المعجزة الكبرى للإسلام والقرآن ، وهل لك أن أسمعك ما جاء في الآثار ، فقد ورد عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر أن طائفة لم يستطيعوا القيام مع الملوك الذين ظلموهم لأجل إقامتهم على دين المسيح فساحوا في البلاد ، وترهبوا ، وهم الذين قال الله فيهم : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » .

وقال أيضا : « كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار وذكر نحو هذا ، ومنه : ففترقوا في غيران الجبال وأحدثوا الرهبانية » ثم قال صلى الله عليه وسلم رهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله ، وقال ابن عباس « كانت ملوك بعد عيسى عليه السلام بدلوا التوراة والانجيل ، وأطال في ذلك إلى أن قال : فجعل الرجل يقول نكون في مكان كذا نتعبد كما تعبد فلان ، ونسبح كما ساج فلان ، ونتخذ دورا كما اتخذ فلان ، إلى أن قال : فذلك قول الله « ورهبانية ابتدعوها » أي ابتدعها الصالحون منهم ، والذين جاءوا بعد الصالحين « مارعوها حق رعايتها فآتيننا الذين آمنوا منهم أجرهم » وهم الصالحون المبتدعون « وكثير منهم فاسقون » أي الذين جاءوا بعدهم » انتهى ملخصا .

واني ليأخذني العجب كل مأخذ أن أجد ابن عباس والآثار والأحاديث كلها تنحو منحى قصة بولس

وأنطونيوس ونحوهما ، فذكر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه اضطهاد الملك والسياسة في البرية والمغاور والخوف من الملوك والضلالة من اتباعهم في عدم الرعاية أمر عظيم ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وهذا من أعظم توفيق في هذا التفسير من الله عز وجل ، وإلى هنا تم الكلام على قوله تعالى : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » والحمد لله رب العالمين .

اللطائف العامة في هذه السورة (١)

- (١) في قوله تعالى : « سبح لله » .
- (٢) في قوله تعالى : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها » .
- (٣) في قوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو » .
- (٤) في قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة » .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . الآيات

حضر صديق العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال : نحن نسبح الله ويسبحه ما في السموات والأرض ، فهو منزّه في ذاته وصفاته وأفعاله ، فأذكرك الآن بسؤال وجهته لك في ﴿ سورة النجم ﴾ تحت عنوان [لطيفة في قوله تعالى : وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هو أغنى وأنتى ، وأنه هو رب الشعري ، وأنه أهلك عاد الأولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح من قبل إسمهم كانوا هم أظلم وأطغى ، والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ما غشى ، فبأي آلاء ربك تتمارى] فقد قلت لك مانصه :

الله أضحك وأبكى ، الله أمات وأحيا ، الله أهلك عادا ، الله أهلك ثمودا ، وقوم نوح ، وأهوى المؤتفكة ، وانتهت الآية ان هذه آلاء الله ، والآلاء النعم ، أمن النعم أن يبكي العيون ويهلك الأمم ؟ نعم هذا السؤال ورد كثيرا في هذا التفسير ، وكثرت الإجابة عليه ، ولكن النفس لا تزال تطالب بالمزيد ، فحدثني أليس الله أرحم الراحمين ؟ أليس الله قدوة لنا في أفعاله ؟ الله أهلك أمما وأبكى عيونا ، وإذا قتل أحدا انسانا عمدا دخل جهنم ، الله يهلك أمما ، الله يسلط الميكروب على الأمم فيهلكها ، ويسلط الأمم القوية على الضعيفة فتذللها ، الله يسلط الوحوش على آكلات الحشائش فتأكلها ، كل هذا فعل الله ، لأن هذا نظامه ، ثم تشرىبه لنا على خلاف ذلك ، فنحن بقتلنا انسانا عمدا نعذب في جهنم يوم القيامة ، وتحكم شريعتنا علينا بالقتل ، وإذا كان الله أرحم الراحمين هذا فعليه فكيف بنا نحن الضعاف في الأرض ؟ هذه المعاني تتردد في نفسى صباحا ومساء ، وكل ما جاء في هذا التفسير من الأجوبة فيما مضى فانما هي أجوبة جزئية ، والجزئيات لا تغنى عن الكلليات ، فأنا الساعة يوم الأربعاء ١٢ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية — ٢٠ يناير سنة ١٩٣٢ م أريد إجابة شاملة كاملة حتى لا أحتاج إلى سؤال بعدها في هذا الشأن . فقلت : ماذا تقول في آية : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . فقال : وإذا تقول في آية : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » فنحن الآن في مقام السير في طريق أولى العلم الذين يشهدون ببصائرهم أن صانع العالم قائم

(١) يقول المؤلف : هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه

السورة للطبع .

في عمله بالقسط والعدل ، نريد أن نشهد ونخبر في الأرض كيف كان الله قائما بالقسط في تدبير الخلق ؟ وفوق ذلك نريد أن نفهم كيف يمكن الجمع بين هذا الإهلاك والابكاء والتدمير وابتادة الأمم واذلالها وبين اسمه [الودود] ! ألم يقل الله « وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد » ولا جرم أن الودود يفعل ما يريد ، ولكن هل يلتقي وده إليهم ، ويكون فعله محبوبا ، لأنه أتى على سبيل المحبة ، وهو إهلاك المدن ، وإزالة الدول ، وابتكاء العيون ، أي يكون ذلك وذا ؟ وأيضا جاء في القرآن آيات في سور كثيرة كلها دالة على تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك بصفة التسبيح ، والتسبيح تنزيه ، وهذا المعنى جاء مصدرا وفعلما ماضيا وفعلما مضارعا وأمرا مثل : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا ، وسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » وفي سورة النجم ، وفي آخر السورة قبلها : « ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » وكذلك في (سورة الحديد) « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وذكر الأحياء والاماتة ، وفي آخر (سورة الحشر) « يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ، وفي آخر (سورة المجادلة) « رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

إن رضا العبد عن ربه ، وتنزيهه وجه ووده يعوزه الاطلاع على جلال الأفعال ، والأفعال الإلهية المذكورة مشكلة مع أوصاف الحب والود والرضا الخ فأرجو الاجابة على هذا حتى لا أعود إلى السؤال كرتة أخرى . فقلت : سأوضح الكلام في هذه اللطيفة إن شاء الله تعالى في هذه المعاني ، وهناك تتجلى المعاني التي تريدها وإن كان أكثر ما سأقصه عليك هنا قد مضى كثير منه متفرقا فيما مضى من التفسير ، وسأشرح :

- (١) النظام التكويني .
- (٢) والنظام التشريعي وأنهما متفقان .
- (٣) وأبين درجات التربية الست :
- (٤) تربية الأم لولدها .
- (٥) وتربية الأب له .
- (٦) وتربية المعلم .
- (٧) وتربية الحكومة للأفراد مع ما يتبع ذلك من نظام الجندية .
- (٨) والتربية الإلهية وأنواع الزلازل والحوادث العظيمة .
- (٩) وأن الأم حين تمنع ولدها ما يضره وهو يبيكي لم يمنع ذلك حبه له ، وقد ضربت مثلا لدرجات التربية التي بعدها ، وبمقدار ازدياد العلم تعرف حقائق تلك التربية ويزداد الحب للربي
- (١٠) وبيان أن العلم إما بهيئة سطحية كعلم الشعراء والأدباء ، وإما بهيئة حكيمية فلسفية عالية كعلم الحكماء ، وإيضاح ذلك وتفصيله من كلام [كونفوشيوس] فيلسوف الصين الذي توفي في القرن الرابع قبل الميلاد .

(١١) ثم بيان أن الحب على مقدار العلم .

(١٢) بيان أن الله تبارك وتعالى عنا بحجبه ، ولكنه قذف لنا كرات جميلة لاحصر لعددها وهي الشمس والكواكب ، وهو يقرّبها ويبعدها ليجذبنا إلى حضرته ، وجعل الشطرنج والنرد عند اللاعبين مثلا لذلك كما جعل الجمال والحب الأدنيين مثلين لجماله وحبه الأعلى ، وصنع للناس في الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومنعجات الليالي لذهلت عقولهم ، فمن سرج تجري في سقف مرفوع تدور حولهم ، ومن حدائق وحقول حولهم ومناظر بهجات ، وتارة يرسل لهم شهابا تقترب

من أرضهم ليوظهم إلى العلا ، ونسبة هذه الأعاجيب إلى صانعها كنسبة صفات الكرة والصولجان والنرد والشرنج إلى مخترعها ، والتعجب يكون على مقدار اتقان الصنعة .

هذا ماسأذكره هنا قريبا ان شاء الله مع شذرات في الآيات التي ذكرتها أيها الأخ الذكي ، فلما سمع ذلك قال : إن هذا لعجب ! وإني لفي غاية الشوق إلى ما وصفت ، وهانحن أولاء وصلنا بعناية الله في التفسير إلى المقام الذي وعدتني أن نجيبني فيه . فقلت : ها أناذا أتى بعهدى الآن والله هو الموفق :

أيها الأخ الذكي : مدار سؤالك على أن حب الله وودّه وتنزيهه وعدله متوقفات كلها على ادراك مقاصد أفعاله ، فلا تجعل هذا المقام في اثني عشر فصلا مرتبات على مقتضى السؤال :

الفصل الأول في النظام التكويني

اعلم أيها الأخ الذكي أن نظام التكوين مهما قلنا طرفنا فيه لانجد فيه إلا مقاصد الاصلاح والبقاء ، وكل هدم وتخريب واهلاك فانه موجه إلى الاصلاح ، خذ لك مثلا : هذه العوالم حولنا ، نراها في تغير مستمر ، وهذا التغير منشؤه كله أن المادة لن تقبل إلا صورة وراء صورة فليست كعقولنا التي هي أشرف منها وأرقى ، إن عقولنا تسع ملاحظته من الصور والعلوم في آن واحد ، ولكن هذه المادة التي جعلت لخدمة عقولنا لن تقبل إلا صورة وراء صور ، وصانع العالم يعلم صورا من الوجود لاحد لها ، وهذه الصور بحسب الرحمة العامة لأبد من وجودها ، ولكن وجودها يستحيل أن يكون في آن واحد ، فلا يحصى إذن من شتاء وصيف وموت وحياة ، وهكذا جميع المتناقضات ، ولا مفرّ إذن من زلازل وبراكين لاحداث تربة جديدة ، ولا يحصى من موت الأحياء لتلبس أجسامهم صورا جديدة لأرواح حديثة ترسل إلى الأرض ، وهكذا كل حيوان وكل نبات ، فالعقل بهذا البرهان يقضى أن تتعاقب الصور على هذه المادة ، وأن هذا عدل وخلافه ظلم ، وأيضا الحياة في هذه المادة فيها شقاء ، فلا بد من عروج هذه النفوس إلى عالم الأرواح لتستريح من هذا الشقاء .

فلئن رأينا موتا وحياة فذلك عدل وسواء ظلم بهذا البرهان ، وكل ما تفرع على هذه القاعدة تابع لها فن فروعها عوالم الحيوانات الذرية التي تسمى بالميكروبات ، تلك العوالم التي أعدت لأبادة أمم وأمم من الحيوان والانسان ، ومن فروعها عوالم الطيور السكواسر في الجو ، والوحوش والسباع في الخلاء ، والحرّ والبرد المفرطان ، المهلكان بعض الحيوان ، وعوالم الأمراض القاتلات ، وعوالم الجيوش الانسانية الفاتكة بجيوش أخرى من بني آدم فوق الأرض كما في الحرب الكبرى المبتدئة سنة ١٩١٤ م المنتهية سنة ١٩١٨ م فهذه كلها من النظام التكويني ، وصانع العالم كما ألهم الحيوانات الذرية أن تقتك بالانسان والحيوان ألهم الجيوش الانسانية في الأمم التي تسمى نفسها [متمدنة] باهلاك جيوش أخرى ، وعلمهم اختراع المهلكات والمدمرات لأبادة اخوانهم ، كل هذه أفعال صادرات عن نفوس تلك النفوس مخلوقة لصانع هذا العالم الذي صنعها وصنع نفوس الوحوش والأسود ، فهذه الفروع كلها ترجع للأصل الذي قرّرناه وهو أن المادة لا تسع إلا صورة وراء صورة ، فلا بد من تلاحق هذه الصور ، وكل ما رأيناه من هذه الأعمال تنوّعات ترجع لذلك الأصل ، إذن أيها الصديق نظام التكوين معقول ومقبول . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني في النظام التشريعي

ولا جرم أننا اذا أقررنا النظام التكويني السابق فليس معناه أن نجعل النظام التشريعي على مقتضاه . كلا . بل التشريع شيء والتكوين شيء آخر . فقال صاحبي : أليس الأمران من صانع واحد ؟ فقلت نعم ولكن

الصانع ميز عالم الانسان عن هذه العوالم التي حوله كلها من شمس وكواكب وحيوان ، أعطاه قوة عقلية وقال له : أنا وضعتك هنا بين المتناقضات ، ووهبتك قوة فاستعملها ، وإياك ثم إياك أن تحتج بأني خلقتك ، فلك قوة تميز فاعمل بها ، فإذا قتل الانسان انسانا عمدا وقال لصانع العالم انك أنت تقتل الالوف والالوف ، وتهدم المدن ، وأنا يارب ماقتلت إلا واحدا أومائة ، فأنا أفعل ما تفعله السباع في البرية ، وما تصنعه الكواسر في الجو ، وما تصنعه الحيوانات النمرية من إهلاك الناس ، فهبني يارب ميكروبات ، أوفهني يارب من كواسر الطيور ، أومن أسد البرية ، أوهبني جنديا من جنود أمة من الأمم تغزو أمة أخرى فانك سلطتها على غيرها فتبيد منها جنودا وجنودا ، وقد قضى نظام نكوبيتك أن تلبس المادة صورة وتخلع أخرى ، وأنا من الذين ساعدوا في ذلك ، فهل على من سبيل ؟ .

إذا قال الانسان ذلك لصانع العالم يقول له محييا : أيها الانسان : هذه الكواسر والسباع وحيوان الميكروب القاتلات كلها مسخرات بأمرى ، لها غرائز قضت عليها بذلك ، ولا حياة لها إلا به ، فلم يكن مقصدها الإهلاك والتدمير ، وإنما غرائزها موجّهات لما خلقت له ، فهي أشبه بالحرّ والبرد والزلازل ، فلامقاصد شريرة هنا ، فالحرّ والبرد لا ادراك لهما ، وكذا الزلازل ، وهذه الحيوانات مرغمات على ذلك ، أما أنت وإن كنت مثالا في أنك مساعد على أن تلبس المادة صورة غير الصورة التي تلبسها فتخلع قديما وتلبس حديثا ، فإن عمالك عمل موجه لفكرة جزئية وهي فكرة الانتقام ، إما كراهة في المقتول ، وإما أن تفعل ذلك لتأكل ثمرات كسبه ، والأمور بمقاصدها ، فإذا فعلنا الإهلاك والتدمير في أرضنا فذلك قام عليه البرهان السابق الذي لامناقض ولا مناهض له ، لأننا نريد الإصلاح العام ، فأما أنت فلم ترد بعملك الإصلاح العام ، وإنما أنت أردت شهوة خاصة وهو اشباع قوتك الغضبية انتقاما ، أو اشباع شهوتك البهيمية اغتناما لمال المقتول وفرق بين عملنا وعملك ، فوجود هذه القوة فيك أصبحت بهامسئولا أمامنا ، نعم أنت بقتلك انسانا ، فعلت ما نفعله نحن بحسب الظاهر ، ولكن ليس المدارعلى الفعل بل على الباعث عليه ، وباعثك شهوتك وغضبك وباعث فعلنا رجة عامة موجهة للجموع ، وقد تفرّج عن هذه الرجة كل ماحولكم مما اشتبه عليكم ، ولذلك بهذا تفهم قولنا في الكتاب الكريم « فله الحجة البالغة » فهذه من حججنا البالغة التي ادّخرناها في عوالمنا لتظهر للعقول الكبيرة في أرضكم . انتهى

أقول : هذا هو الجواب الذي خطر لي اليوم ، الموجه من جناب صانع العالم إلى عبد من عباده يسأله السؤال المتقدم ، كتبته اليوم صباح الجمعة ١٦ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية — ٢٢ يناير سنة ١٩٣٢ م وعلى هذا يتفرّج أن قتل الخطأ لاقتل فيه ، وإنما فيه الدية ، وبه يظهر معنى « متعمدا » في الآية . وإلى هنا تمّ الكلام على الفصل الثاني ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث : في ذكر الآلام التي تحيق بالانسان

فقال صاحبي : هذا الجواب جيل وبهيج وحسن ، ولكني أريد أن أتبين وجوه تلك الآلام التي تعترينا وما وجه الحكمة فيها ؟ فقلت : لقد شرحت هذا في التفسير في مواضع كثيرة جدا ، لاسيما في تفسير البسملة التي تكررت هي وتفسيرها في كل سورة . فقال : ولكننا نريد أن نعرف هنا معرفة عامة . فقلت :

الفصل الرابع : أول مثل ضرب به الله لفعله في خلقه هو فعل الأم في طفلها

معلوم مما تقدّم أن الأم أكثر الناس عطفًا على ولدها ، ولكنها قد تجرعه الدواء ، وتلبسه اللباس ، وتفعل جسمه ، وهو كاره وكثير البكاء ، ولكن الأم لا تبالي بذلك كله ، بل تفعل المصلحة ولا تبالي بالآلامه ، ولما كانت

الأم أقل من المربين لولدها ادراكا ، تلقفه بعدها من هو أولى بتدريبه وتعليمه وتهذيبه منها ، وهو الأب المذكور في :

الفصل الخامس

ذلك ان الأب يأخذه إلى الحقل ، أو إلى العمل ، أو إلى المدرسة ، ويحكم عليه بأن يعمل ويجتهد ، والأم غالبا تشفق عليه في ذلك كله ، ولكن الأب لا يبايى بما يقاسيه ولده ، وهناك من هو أوسع علما من الأب ، وهو المذكور في :

الفصل السادس

ألا وهو المعلم ، فيزيد في تثقيفه وتعليمه وتدريبه ، وهذا يسلمه إلى الأمة وإلى الحكومة في :

الفصل السابع

ذلك ان هناك ما هو أوسع مدى من الأم ومن عطف عليها حتى المعلم ، ذلك ان في الأمة حكومة وقضاء والقضاء قد يحكم عليه بالتغريب ، أو بالأشغال الشاقة ، لجرم ارتكبه ، فهنا رجة أوسع من رجة من تقدم ، ذلك ان الرجة هنا شاملة لمجموع الأمة وهذا فرد منها ، وحياة الفرد لا قيمة لها إلا بحياة المجموع ، فإذا ظهر من الفرد ما يخل بحياة المجموع مرض المجتمع ، ويتبعه الأفراد ، وهذا واحد منهم ، فهذه رجة أوسع ، وقد تجمع الأمة الجوع لحرب غيرها ، دفاعا عنها ، أو اغتيالها وظلمها ، فالفرد هنا مسير بقوة المجموع ، ونيته هنا (وان كانت تابعة للمجموع في حال الاغتيال والظلم) موجهة لعموم أمة لاله وحده ، والقاتل لغيره عمدا أكثر اجراما من هذا وان كان كلاهما مجرما ، وهل هناك تربية فوق هذه إلا الآتية في :

الفصل الثامن

في التربية الإلهية التي لا تقف عند ما تقدمها ، فهناك المصلحة العامة ، فلتكن الزلازل ، ولتكن البراكين ولتزل بلاد ، ولتمت أهلها ، وليكن وباء عام ، ولتخسف أرضون ، بل لتزل شمس وأرض من لوح الوجود فهل هذه كلها إلا كموت زبد وولادة عمر ، القاعدة مطردة والفعل في غاية النظام ، والمثل لهذا كله مافى :

الفصل التاسع

وهو ما نشاهده من رجة الأم بولدها مع صبرها على بكائه عند اعطائه الدواء الذي أمرها به الطبيب ، وهل بعد ما بيناه من درجات التربية من أدناها إلى أعلاها إلا أن نذكر في :

الفصل العاشر

التربية العامة في مدارس العالم الانساني قديما وحديثا ، وإلى أى حد وصل هذا الانسان ؟

وهل الأولون والآخرون برموز لغرض واحد ؟ وما هو ذلك الغرض ؟

فاعلم أيها الذكي أن التعليم إما ظاهري سطحي ، وإما بهيئة حكمية عالية ، فالأول كعلم الشعراء والأدباء والخطباء والوعاظ ، ورجال الديانات في الأرض ، والثاني كعلم الحكماء والفلاسفة ، وهما وصلنا إلى أبواب المحبة والجمال والسعادة ، لاجال ولاسعادة إلا بالحكمة ، نعم الأم تربي ، والأب والمعلم ، والمدن تنظم ولكن المقصود من وجود هذه الأرواح الأرضية استنارتها وحبها ومعرفة الجبال ، ثم عروجها إلى أعلى ، وذلك لم يكن ولا يكون ولن يكون إلا بجهد الانسان نفسه ومحبه هو ، إن مباحث الانسان كلها موجهات إلى ادراك حقائق جميع

الأشياء إجمالا ، وذلك من الحب والشغف الموجه للمعرفة ، فلنذكر أولا أوصاف هذا الحب إجمالا ، ثم نقف على آثاره بوصف الشعراء له ، ثم نتبعه بالآثار العالية للحب وهي الفلسفة ، فههنا ثلاث جواهر :

الجوهرة الأولى في وصف الحب

ولقد أعجبنى الموضوع الآتي في وصفه

قال بعض الأدباء : « إن الإنسان الذي يبتغي أن يعيش بالسلام والهناء لابد له من معرفة قواعد الحب كما يعرف قواعد الكيمياء مثلا ، وأنظمة البلاد التي يقيم فيها ، وهي مسألة حياة أو موت ، فليس الحب أعجى كما يزعم بعضهم ، بل هو بعكس ذلك يعرف دون سواء أن يبصر الحقيقة ، ولا يقتصر في ذلك على العلاقات بين البشر ، بل يتناول غير ذلك أيضا ، فلماذا يعتد [أديسن] في مصاف الدهاء حينما يدور الكلام على اختراعاته على اختلاف أنواعها ؟ فقد يجابوب بعضهم على هذا السؤال بقوله : لأنه أوتي دهاء وعلمًا ، لانتفى ما للدهاء والعلم من القدرة ، ولكن الأمر الجوهري الذي مهد له سبيل الوصول إلى أغراضه هو حبه للعمل في مختبره ووقف نفسه عليه .

إن الذي لا يحب الخيل لا يستطيع أبدا قيادة الخيل ، إن الطاهي البارع هو الذي يسر في مزاولة الطبخ إن القصص القدير هو الذي يحب الأشخاص الذين يختلفون بحبة شديدة ، إن الممثل الممتاز هو الشديد الولوع بفنه ، والخطيب المصقع هو الذي يميل ميلا شديدا إلى الفصاحة ، وليس في العالم قوة أعظم من قوة الحب ، وليس فيه رؤيا جليلة أجلى من الحب ، وليس فيه حكمة أسمى من الحب ، وليس فيه فضيلة دينية أفضل من الحب ، ولا يستطيع المعلم أن يعلم التلاميذ شيئا إذا لم يكن يحبهم ، ولا ينشأ عن المال خير دائم ، ولكن القلب المحب ينشأ عنه خير حقيقي أكبر مما ينشأ عن جميع هبات [كارنجي] و [روكفلر] .

الحب يرى الأشياء واضحة أما عدم الاكتراث فبراها قاتمة ، وليس في العالم سوى مأساة واحدة وهي فقد الحب ، والحب دون سواء مبدع أما البرودة ففقيرة ، ويزعم [غوتي] أن [مفيسستوفيليس] روح الشر هو تخيل محض وأنه لم يحب أحدا ، وقد جاء في الانجيل : ان الله محبة ، ولم تصنع الأرض إلا للذين يحبون ، أما الذين لا يحبون فعدودون في جلة الأموات وان كانوا أحياء يرزقون ، وكانوا على سطحها يمحون » انتهى مأرثته من جريدة الاهرام ، وبهذا تم الكلام على الجوهرة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية وهي طبقة الشعراء

فهل لك أن تسمع قصيدة بديعة لشاعر صيني يرثى نفسه قبل موته ، عاش سنة ٢٣٥٠ ق . م جاء في جريدة « الجهاد » يوم الاثنين ١٨ يناير سنة ١٩٣٢ — ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية مانصه بالحرف الواحد :

نشرت « البرلنر تاجيلاط » ترجمة قصيدة بديعة عثر عليها المنقبون حديثا ، وقد كتبها يرثى بها نفسه الشاعر الصيني [تاوياننج] الذي ولد في سنة ٤٢٧ قبل الميلاد وتوفي في سنة ٣٦٥ ق . م والقصيدة تدل على خيال بديع ، وزهد في الحياة ، واحتقار لمتاع الدنيا ، واليك ترجمتها :

« نحن في الشهر الأخير من سنة [تنجماو] والبرد شديد ، والليل طويل ، كأنما لا آخر له ، والريح تعصف بقوة ، وطيور الليل تضرب بأجنحتها ، وترسل صراخها الثاقب . أما الأشجار فقد رأيتها في النهار وقد ذبلت أوراقها ، وجفت غصونها ، ودب فيها الجفاف كما يدب الموت في الحياة ، وهأنذا أنا هب لمغادرة دار الضيافة (الدنيا) التي عشت فيها غريبا وحيدا ، لكي أعود إلى الأبدية التي لانهاية لها ، والتي هي

موطنى الحقيقى ، سيبكى الذين عرفونى ، ويستصدق أهلى بالبيذ النقى ، والفاكهة الناضجة ، وستترقرق الدموع فى عيونهم فما أتعس الحياة ١ .

أنتم يامن ستقرءون مرثيتى لنفسى ، انكم وفرتم لأبدانكم كل أسباب النعمة ، أما أنا فولدت فقيرا ، وعشت فقيرا ، وكنت دائما فى حاجة إلى الطعام ، وكانت شرايبنى تنقصها الدماء ، كنت فى الشتاء أرتدى ملابس الصيف ، ولكنى عشت سعيدا وأموت الآن سعيدا ، ولطالما انحدرت إلى الغدير أملا من مائه آتيتى ، وأعود منه مسرورا أغنى قصائدى ، وأردد مقطوعاتى .

كنت أختبئ تحت كومة من الأوراق الذابلة ، وأواصل الليل بالنهار فى نظم القصائد ، ومتى فرغت من قصيدة أخذت أغنيها كالبلبل الغرد ، أغنيها واشتغل فى حديقتى ، والربيع يقبل وينقضى ، والخريف يأتى تلو الخريف ، وأنا أزرع ، وأحصد ، وأنظم القصائد . كنت أجد فى القراءة ، والعزف على القيثارة سرورا ليس بعده سرور ، وكنت فى الشتاء أبحث عن الشمس ، وفى الصيف أسبح فى ماء الغدير ، وكانت حياتى مجموعة من العمل الشاق ، ولكنى كنت سعيدا مرتاح البال ، أقابل إرادة السماء بنفس طائفة مطمئنة ، وهأنذا أوشك أن أغادر الحياة كما دخلتها .

الناس يحبون الحياة ، ولديهم دائما أعمال ، يشفقون أن يخترمهم الموت قبل أن يفرغوا منها ، فهم عبيد الأيام والساعات وهم محبوبون طالما هم يعيشون ، ومتى طواهم الموت فقل أن يذكركم أحد ، وإن ذكروا فبطيئة أوحيدة ، أما أنا فأغادر الحياة وحيدا ، ولم أخلف فيها ما يشرىنى أو يوصنى ، وليس لى فيها ما أحرص عليه ، فأنا سعيد فى الحياة ، سعيد فى الممات ، وسبيل عندى البقاء والعدم » انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة .

أقول : انما اخترت هذا الشاعر لأنه من الامور الغريبة لتوغله فى القدم ، فلنجر هذه الدرجة إلى ما هو أعلى منها ، وهى الآتية فى :

الجوهرة الثالثة : آثار الحب العالية وهى الفلسفة

فالعجب لحكمة الأمم المتوغلة فى القدم وهى التى ساذكرها لك الآن كيف اصطلحت واتفقت مع الحكم التى عرفتها أم بعدها ، ولامواصلة بين الأولين والآخرين ، فاعجب هنا من قصائد [المهاباراتا] السنسكريتية ومعلوم أن [المهاباراتا] مجموعة علاوات ، أوقصائد حماسية ، تحوى أكثر من مائتى ألف بيت فى وصف الحروب القديمة ، ويقدر أن تضع فى القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل المسيح ، فأصبحت وكأنها دائرة معارف لعلوم الحكمة البرهمانية وتعاليمها ، ومنبع آداب وجمال لا ينضب .

ومن المجموعة الشعرية الأخرى التى تضارعها شهرة وأهمية هى [الرامايانا] فهذان الكتابان فى الهند بمثابة [الإلياذة] و [الأوديسا] فى بلاد اليونان ، ولئن نسب كتابا الاغريق إلى شاعر فرد هو [هوميروس] (رغم قول القائلين اليوم بأن هذا الشاعر لم يوجد أصلا) فان شاعر [الرامايانا] يدعى فليمبى ، أما علاوات [المهاباراتا] فتعرف باسم [فياسا] جامعها فقط . إن المهاباراتا المذكورة تشمل قسما عظيما منها يختص باسم [البهجاوات جيتا] وهذه خاصة ترجمتها إلى الإنجليزية السيدة [انى بيزانت] فاطلع عليها قراء اللغة الإنجليزية فى زماننا . ولقد وصفت [مسز بيزانت] المذكورة هذه القصيدة التى ترجمتها إلى الإنجليزية قائلة ماملخصه : « بين التعاليم الثمينة المودعة فى [المهاباراتا] الكتاب الهندى العظيم ، ليس من تعليم أندر وأثمن من [البهجاوات جيتا] ومعناه « نشيد السيد » فخذ أن أرسلت هذا النشيد الفخيم شفا [كريشنا] الالهتان فى ميدان الوغى ليهدى انفعالات تلميذه وصديقه [ارجونا] . كم من قلب هو طمأن وشدد ، وكم

من روح معذبة قد اقتاد إليه ، إنما الغرض منه رفع طالب الرفعة ، من أدنى دركات التضحية السطحية إلى أعلى المراتب حيث تتضامل الرغبات ، وحيث يملك الحكيم الصميم في تأمل هادئ ، بينما جسده وعقله يقومان في نشاط بالواجبات المنوطة به في الحياة ، فالحكمة الحكيمة حقا لاتعنى العزال الجانب الروحي من الانسان ، بل توجب تحقيق اختبارانه في الأعمال الزمنية اليومية كائنة حقارتها ما كانت ، على أن يفكر المرء في رقبه الخلق والروحي ، وعلى أن يعلم أن الحواجز القائمة دون ذلك الرقي ليست متأية من الخارج ، بل هي منبذقة من داخل النفس ، ولباغ الرفعة الروحية لابد من الحصول على كمية خاصة من التوازن والانسجام النفسى بحيث يصبح المرء غير متأثر بالمسرات والآلام ، بالشوق والنفور وغيره من الانفعالات المتناقضة المتعاقبة فليتعلم القارئ إذن فن ترويض نفسه على أن لاتجذبه الجواذب ، ولا تزجره الزواجر ، بل يستخلص من هذه وتلك دروسا تقوده وتهديه إلى أعلى المبادئ في وسط المحن والغموم ، فيقوم بواجبه كله على أتم وجه ممكن ، لا لأنه ينتظر نتائج عمله بل لأن القيام بالواجب مفروض عليه ، يعمل لأن في العمل شرفا وترويضاً وفائدة ، يعمل ليعمل ، ويزرع البذور دون أن ينتظر لنفسه جنى الثمار . انتهى

أنا اخترت نقل هذه القطعة من كلام هذه الكاتبة المترجمة محجبا بتعاليم صدرت قبل الميلاد بنحو ١٦ قرنا ونارا نبعت من الوجدان الانساني العميق ، ثم ظهرت الآن حديثا ، فأدهشنا والله هذا القول ، أدهشنا لأننا نرى روح الانسان الوثابة لم تفتأ تجدد ، ولن تفتأ حتى تقرب من الحقيقة ، وهل الحقيقة التامة إلا أن أعمل حبا في نفس العمل ؟ نعم هو ذلك ، فههنا يقول الله : « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير » . ان عمل الله موجه للمصالح العامة كما قدمناه ، وكل من كان أقرب إلى نفس المصالح العامة يشوق فهو إلى الخدمة العليا أقرب ولن يبلغ هذه المرتبة أحد بمجرد القراءة ، بل لابد من شعور يفيض من النفس بعد الاطلاع والتعمق ، أما ظواهر العلم فلا تعطى هذا الشعور والادراك الجليل . وقد آن أن أحدثك عن سير علم الحكمة في العالم بعد ذلك التاريخ ، ولقد تقدم في (سورة الحجرات) عند آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » حكمة [كنفوشيوس] حكيم الصين المتوفى سنة ٣٧٨ ق . م وانه جعل نظامها هكذا :

- (١) أولا مشاهدة الأشياء والأفعال المحيطة بنا
 - (٢) ثانيا : متى كملت المعرفة خلصت الأفكار وتنزهت الأغراض .
 - (٣) ومتى تنزهت الأغراض تهذبت الأخلاق وتنقت النفوس .
 - (٤) ومتى تنقت النفوس انتظمت الأسر .
 - (٥) ومتى انتظمت الأسر انتظمت الدول .
 - (٦) ومتى انتظمت الدول أصبحت الأرض كلها ترح في السعادة والحبور .
- هذا ملخص ما تقدم هناك وهو هنا أكثر وضوحا مع الاختصار ، اللهم انك أنت العزيز الحكيم ، سبحت لك الأفلاك ، سبح لك ما في السموات والأرض ، لأن كل ما فيهما يرى لك عزة بها قهرت كل مادة فصارت مصوغة كما تريد ، وهذه الصياغة محكمة ، فأنت عزيز ، وأنت حكيم .
- ينظر العقلاء في سمواتك وأرضك فيرون مادة بلانهاية يرونها ، وحكمة في تلك الصور لاحد لها ، ثم يرجعون إلى الحقائق والعقول فإذا يرون ؟ يرونك جعلت العقول المنقطعة التواصل ، المتباعدة المناهج ، المنفصلة المساكن ، المتطاولة الأزمنة ، ترمى لغرض واحد ، وما هو هذا الغرض ؟ هو تسبيحك وتقديسك بحب وشوق وغرام لك ودلوع .

يارباه : هاهي ذه [المهاباراتا] باللغة السنسكريتية قبل ٣٥ قرنا وهي مائتا ألف بيت ، هذه [الرامايانا] هاتان موسوعتان لعلوم أمم وأمم قبلنا ، وهاهي ذه خلاصة من أولى المجموعتين ، فكانت النتيجة نظرة عامة في الوجود ، وحب الخالق ، وصبر على السراء والضراء ، وذلك كله تابع للحب ، وهاهوذا الشاعر الصيني منذ ٣٤ قرنا نراه يحوم حول هذا المعنى بدون تعمق ، وهاهوذا في نفس ذلك القرن الفيلسوف كنفوشيوس الصيني يلقي لنا درساً في عدة أسطر ، فعزى علم الفلسفة كلها ملخصة فيها ، فقد ذكر ظواهر الطبيعة التي تشمل الرياضيات والطبيعات ، وانتقل إلى تهذيب النفس ، وآداب الأسرة ، ونظام الدولة .

هذا ملخص فلسفة الأمم الحديثة قد ظهرت عند الصين قبل الميلاد ، والترتيب هو نفس الترتيب ، ولما كانت فلسفة اليونان قد نقلت إلى علماء الاسكندرية ، وإلى الفرع الشامي والفرع الأثيني بعد الميلاد وأيام حكم الرومان قرءوا نفس هذه الفلسفة على هذا الاسلوب نفسه ، وانتقلت إلى المسلمين بنفس هذا الترتيب ، وظاهر الأشياء ، ثم معرفة الله ، ثم تهذيب النفس ، ثم الأسرة الخ وهو نفس ما قاله كنفوشيوس الصيني ، ولما وصلت هذه الفلسفة إلى أوروبا وقرأها [سيكون] الانجليزى غير النظام ، ولكن الجوهر واحد ، فقال : أولاً ان جميع العلوم نسميها تواريخ ، والتواريخ ترجع لقوة الذاكرة ، فالذاكرة تذكرنا بالتاريخ البشرى والتاريخ الأثرى الذى جاء فى الديانات والتاريخ العلمى ، فنقول التاريخ الطبيعى والتاريخ الرياضى الخ وههنا يختص أناس بعد هذه العلوم بالبحث فى نظام الطبيعة ومعرفة الله ومعرفة النفس ، فههنا نظام عام فى مقابلة نظام أجسامنا الخاص ، وههنا مديراً لهذا النظام فى مقابلة المدير الخاص لأجسامنا وهى نفوسنا فكان علم النفس التى بها يعرف المنطق فعلم الجلال فنظام الأمة والأسرة والقوانين العامة ، إذن نظام الفلسفة الذى صورته [سيكون] هو نفس النظام القديم المنقول عن اليونان ، وهو هو ذلك الذى أجله [كنفوشيوس] .

الله أكبر : علم واحد ونظام واحد تهتدى به العقول قديماً وحديثاً ، ونسمعك فى كتابك تقول : « سبع لله مافى السموات والأرض » فكان جميع المسلمين على نمط واحد ، وكيف لا يكونون على نمط واحد والمنبع واحد ؟ وكيف لا يكونون على نمط واحد ونحن نرى كنفوشيوس الصينى الذى بهر الصين بحكمته مغرماً بك غرام كتاب [المهاباراتا] وما فيه من [البهجاوات جيتا] الذى اتضح فيه معنى آية هى فى نفس سورة الحديد ، كتاب البهجاوات جيتا الذى ترجم إلى الانجليزية حديثاً ، وقد ترجمته فتاة ، هذا الكتاب نتيجة قد ظهرت فى آية فى نفس هذه السورة ، أى سورة الحديد ، يقول الله : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » .

أفلا تعجب معي أيها الذكى المطالع على هذا التفسير ، فهل كان يدور بخلدى حينما ابتدأت فى كتابة تفسير (سورة الحديد) وأنا أرتب هذا الموضوع أن خلاصة مافى كتاب [البهجاوات جيتا] هى نفسها فى آية من هذه السورة ، إذ يقول تعالى : ان ما يصيبكم أيها الناس قد كان عندى فى كتاب ، وانما أقص عليكم ذلك لأجل ألا تفرحوا ولا تحزنوا ، فإذا كان كل شيء مرتباً منظماً عندى فما شأنكم أنتم ؟ وكيف تفرحون بشيء لا عمل لكم فيه ، أم كيف تحزنون على شيء فاتكم وأنا الذى قضيت بفواته لكم ؟ فلتكن حياتكم حياة تسليم

في كل وقت ، وقد ضربت لكم المثل المحسوس ، وهي الأم تستعذب العذاب في سبيل مرضاة ابنها لأنها تحبه ، فالحب يجعل الصعب سهلا ، احبت الأم ابنها فهي لا يهنأ لها طعام ولا شراب ولا حياة إلا براضائه واسعاده .

هذا مثل مشاهد لآثار الحب ، وليست الفلسفة المتخصصة من تاريخ علوم الأمم قديما وحديثا المعبر عن نتائجها بقوله تعالى : « سبح لله ما في السموات والأرض » الخ إلا نبراسا للحب : أي حب صانع العالم ، وحب نفس العالم من حيث نظامه ، وحب الناس واسعادهم ، وهذا الحب نتائج استعذاب العذاب في سبيل انتهاج الخطة المثلى التي اختطها مبدع العالم من حيث المعرفة العامة وسعادة المجموع ، فإذا كانت الأم مغرمة بابنها ، وهذا الغرام أنساها الآلام ، فهكذا كان حكماء الأمم قديما ، وهكذا سيكون حكماء هذه الأمة الإسلامية في مستقبل الزمان .

يا الله : تقطعت قلوبنا أسي وحسرة على أم الإسلام ، فأثلنا ما نريد فوق ما أثلنا ، يا الله : أنا لا أدري وأنا أكتب هذا الموضوع بأي فكر أكتب ، أ كاد أكون منفذا لفكر ليس لي .

تحدثنا بنعمة الله ، جلست حين أردت الابتداء في هذا الموضوع ، فرأيت موضوعا مشتتا غير منتظم ، وكل ما ليس منتظما فليس بمشوق لقراءته ، لأن الجمال يتبع النظام ، وما ليس منتظما ليس بجميل ، هنالك ودعت القلم والقرطاس وقلت إلى الملتقى ، ثم رأيت الشمس أمامي ضحى ، وقد تقدم في هذا التفسير في أول (سورة يونس) عند الكلام على الشمس وضياؤها كيف نصيح الأطباء بأن يجلس الانسان في الشمس عاريا ماعدا العورة شرعا ، وماعدا الرأس طبا ، ففعلت ذلك ، وبقيت فيها ألتقي أشعتها ، وأجد خالقها ، الذي علمنا علما يجهله أكثر هذا النوع المتمدين الانساني ، الذي حرمت عاداته عليه أن تباشر أشعة الشمس جسمه ، وهي أكبر نعمة حظى بها النبات والحيوان ، وحرماها الانسان لجهالته ، وبذر وأسرف في الملابس جهلا وغرورا ، ورثها عن الآباء تقليدا ، وما أفصح التقليد ، جلست نحو ساعتين ، وفي أثناء ذلك كنت أحس بسعادة ، لأنني تلقيت أشعة الشمس ولو قليلا من ساعات النهار ، وما كدت أقوم من مجلسي حتى رأيت في نفسي عجبا رأيت هذا الموضوع المنتشع قد رتب اثني عشر فصلا منظمة مرتبة ، فلم يسعني إلا أن أقت من فوري وقيدت الفصول التي أسمعتها لك قريبا ، وأخذت أشرحها ، وهذا تمام الفصل العاشر منها .

الفصل الحادي عشر : في بيان أن الحب على مقدار العلم

إن هذا المقام ظاهر في كثير من مواضع هذا التفسير ، ولكن نذكر هنا جملة وجيزة تناسب هذا المقام ، الأم تسبح ربها ، وما في السموات والأرض تسبح لله ، وفلاسفة الصين واليونان والعوالم كلها تسبح له ، والتسبيح ذكر ، والذكر يتبعه الفكر ، ألم تر إلى قول الله تعالى : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض » الخ والتفكير يوجب المعرفة ، والمعرفة يتبعها الحب .

الأعمى لا يحب الصورة الجميلة لأجل جاهلها ، لأنه لم يعرف ، هكذا عمى القلوب لا يعرفون جمال هذه الدنيا ، لأن عيون قلوبهم لم تشاهدها ، وهذا باب واسع لا آخر له ، وانظر آخر حديث في البخاري ، قال حدثني أحمد بن اشكاب حدثنا محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » اهـ

فهاتان الكلمتان الخفيفتان على اللسان هما التسبيح المقرون بالحمد تارة وبعظمة الله أخرى . الله أكبر : نطق اللسان بها وهي سهلة عليه ، ولكن الميزان بها ثقل ، وهل يشغل الميزان إلا بما أودع في التسبيح من العلوم

التي يعقلها الانسان ، وهل لعلوم التسبيح آخر ؟ أليس له ملك السموات والأرض ، أليس يحيى ويميت ، وهو الأول والآخِر والظاهر والباطن الخ . كل هذه مقرونة بالتربية ، وهذه يعوزها علوم وعلوم ، وعلى مقدار الغرام بالعلم والوصول للحقائق يشغل الميزان ، وإذا لم نحس في أنفسنا في الحياة الدنيا بيهجة العلم وارتقاء النفس به والابتهاج بآثاره فلا وزن في الآخرة ، إن الميزان في الآخرة على مقدار ما حصلنا في الدنيا ، فإن كنا من العباد ، فالميزان على مقدار احساسنا بآثارها ، وإن كنا من المفكرين فعلى مقدار علومنا وتأثرنا بها يزداد ميزاننا رجحانا « إن ربي على صراط مستقيم » . انتهى الكلام على الفصل الحادى عشر والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثانى عشر

فى أن الله عز وجل توارى عنا بحجبه ، ولكنه قذف لنا كرات لاحصر لعددتها ، وهى الشمس والكواكب ، وهو يقرّبها ويبعدها ليجذبنا إلى حضرة العلية ، وجعل الشطرنج والغرد عند اللاعبين مثلا لذلك كما جعل الجمال والحب الأدنين مثلين لجماله وحبّه الأعلين وضع الله للناس فى الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزعجات الليالى لذهلت عقولهم ، فن سرج تجرى فى سقف مرفوع تدور حولهم ، ومن حدائق وحقول تحيط بهم ، ومناظر بهجات ، ولم يكف بتلك الكرات البعيدة الجيلة ، بل أرسل لهم شهابا تقترب من أرضهم ليوقظهم إلى العلا ، كأنه يقول : هذه نموذج للشمس والكواكب ، ونسبة هذه إلى صانعها كنسبة صفات الكرة والصولجان والغرد والشطرنج إلى مخترعها ، أو كنسبة آلات النور وآلات الصوت إلى مخترعها ، وهو [أديسون] فى زماننا .

الله أكبر : صنع العبد بالنسبة لصنع صانعه أقرب مما لاحذله من عمل الأطفال وهم يركبون العيdan ويجرون فى الطرقات بالنسبة لأبائهم وهم يركبون الجمال والخيول . جلّ الله : أين نحن من عجائب مدهشات أشار لها الله تبارك وتعالى هنا فى هذه الآيات فقال انه له ملك السموات والأرض وانه يحيى ويميت وانه على كل شىء قدير الخ فما هو هذا الملك ؟ هذا الملك منه شمسنا ، منه مجرتنا ، مجرتنا التى يقول [سيرز] (وهو أحد علماء مرصد جبل ولسن) ان فيها ٣٠ ألف مليون نجم ، ويقول [نتايلى] وهو أحد أساتذة الفلك فى [هارفرد] انها مائة ألف مليون نجم ، ويبلغ قطع المجرة الأطول ٢٢٠.٠٠٠ سنة ضوئية ، وهى المسافة التى يقطعها الضوء فى ٢٢٠.٠٠٠ سنة بسرعة ١٨٦.٠٠٠ ميل فى الثانية الواحدة ، هذه مجرة واحدة ، وهذه جزيرة واحدة من الجزائر التى خلقها الله فى هذا البحر الواسع ، ذلك البحر الذى امتلأ بمادة ليست ماء ولكنها أمر أشبه بخيالنا سموه الأثير ، تبارك الله رب العالمين .

فهذه الجزيرة التى سمينها مجرة فيها شمس كشمسنا أو أعظم بملاحدته ، وعدد الشمس من ٣٠ ألف مليون شمس إلى مائة ألف مليون شمس ، فهذه الجزيرة الواحدة لها أخوات فاعدد هذه الأخوات ياترى ؟ عدد ما يمكن معرفته منها مليونان (كما يقوله هبل أحد علماء مرصد جبل ولسن) على اعتبار أن تلسكوب المرصد المذكور فى الوقت الحاضر ١٠٠ بوصة ، وكل واحد من هذه الجزائر التى سمينها مجرات يبعد عن الآخر مليونى سنة ضوئية ، وأبعدها عنا بعد ١٤٠ مليون سنة ضوئية ، ومتى تم بناء التلسكوب الجديد الذى سيكون قطر مرآته ٢٠٠ بوصة يتمكن الراصدون من الوصول به إلى ١٦ مليون مجرة من هذه المجرات بدلا من مليونين ، والمجرة الواحدة من هذه الستة عشرة مليون فيها مادة تكفى أن يكون منها نحو ألفى مليون نجم .

هذه آراء علماء الفلك في معرفة ملك الله (وبعبارة أخرى) هذا آخر ما يفهمه النوع الانساني في تفسير قوله تعالى : « له ملك السموات والأرض » فيقال :

أولاً : ما الذي عرف الناس من ملك السموات

وثانياً : ماذا عرفوا من ملك الأرض

والاجابة عن الأول أن الناس يظنون اليوم أن هذا الملك يصل إلى ١٦ مليون مجرة تضرب في ألفي مليون شمس كشمسنا ، ماهذه العظمة ؟ ماهذا الملك العظيم ؟ ماهذا الابداع ؟ هذا هو قول المصلي « الله أكبر » وهذا قوله في صلاته « الحمد لله رب العالمين » وهذا قوله « الرحمن الرحيم » وهذا هو التسبيح : « سبح لله ما في السموات والأرض » . يقرأ المسلم : « ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم » في آخر سورة الطور ، ثم يقرأ بعدها « والنجم اذا هوى » . أقسم الله بالنجم وهذا بيت القصيد ، أقسم بالنجم ليفتتنا إليه لعرف سعة ملكه الذي ظهر بعضه في زماننا ، ولذلك يقول في [سورة الواقعة] « فلا أقسم بمواقع النجوم » ، وأنه لقسم لو تعلمون عظيم .

عجب ! يقول « لو تعلمون » ولقد علمنا اليوم بعض تلك العظمة التي بها نفهم أمرنا بالتسبيح في آخر نفس سورة الواقعة ، ونفهم الاخبار بأنه « سبح لله ما في السموات والأرض » في أول الحديد . أيها المسلمون : القرآن لهذا نزل ، أيها المسلمون : أنتم مأمورون أن تسبحوا ، وهذا هو التسبيح ، وهل يكفيننا في هذا المقام : أي في الاجابة عن السؤال الأول ، وهو ملك الله المذكور في آية : « سبح لله ما في السموات والأرض » أن نؤلف صفحات أو كتباً ، إن الاجابة بعرضها آلاف آلاف من العلماء في آلاف الآلاف من السيارات والأرضين وهم بدونون فلا يستطيعون سبيلاً لنهاية الاجابة ، هاهوذا علم الفلك أرانا شذرة من العلم فأدهشنا ، هاهوذا علم الفلك يتحدثنا :

فيا سعد حدثنا بأخبار من مضى * فأنت خير بالأحاديث يا سعد

وقال ابن الفارض :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه * يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

يقول علم الفلك ولو على سبيل الظن إذ هو الممكن لنا ونحن على هذه الأرض : أن ١٦ مليون من المجرات التي قتر علماء الفلك بحسب المرصد الذي يبنى الآن وقطره ٢٠٠ بوصة بضربها في ٢٠٠٠ مليون كوكب يبلغ الحاصل من ذلك كله ٣٢ ألف مليون مليون كوكب (وبعبارة أخرى) أن الشمس التي يقدر وجودها الناس اليوم في ملك الله الذي نسبحه ونعظمه في هذه الآيات ، هي هذه الأعداد التي يذهل العقل في تقديرها بعد أن كان هذا النوع الانساني لا يعرف من عظمة الله إلا شمساً واحدة ، وهي شمسنا هذه التي يذهل العقل حين يرى أن ذوات الأذنان الدائرات حولها كسمك البحر عداً ، وهكذا النيازك والشهب ، فالمجموعة الشمسية تذهلنا عظمتها ، والمجرة التي تشمل المجموعة أشد إذهالاً لنا ، وعدد المجرات أعظم وأعظم . هذا هو الذي به نفهم قوله تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي » وهذا مبدأ تفسيره ، إن تفسير كتاب الله كل علم ظهر وكل علم يظهر ، وإذا كان الاجال هكذا مدهشاً لا حد له فالتفصيل من باب أولى ، فليقل علماء الفلك اليوم اننا نظن أن الشمس الآن قد مضى من عمرها خمسة ملايين مليون سنة ، وأن الأرض قد مضى لها نحو ألفي مليون سنة ، وأن عمر الحياة عليها نحو ٣٠٠ مليون سنة ، وعمر الانسان عليها ٣٠٠ ألف سنة .

وليقولوا كذلك (١) : « إن الشمس ستبقى مدة تتراوح بين ٥٠ مليون مليون سنة و ٥٠٠ مليون مليون سنة ، فليقولوا ذلك ، وسيقول غيرهم كلاما غير هذا : وهكذا ليقولوا ان هناك شمساً أكبر من شمسنا ٢٥ مليون مرة كشمس من شمس الجوزاء ، وضوء شمسنا بالنسبة لضوء ذلك الكوكب كضوء الحباحب بالنسبة لضوء الشمس ، ثم ليقولوا ان هناك شمساً لا تبلغ سوى جزء من عشرة آلاف جزء من تألق شمسنا ، فليقولوا ذلك وليقولوا فالأمر عظيم ومدهش ، فليقولوا فانهم انما يفسرون قوله تعالى هنا : « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض » فهذا هو ملك السموات وهذه هي الاجابة على السؤال الأول .

الاجابة على السؤال الثانى ، وهو ملك الأرض

فما هو ملك الأرض يا ترى ؟ الأرض سيار يتبع الشمس ، إذن هو عدم صرف ، وكيف لا يكون عدما وهذا الملك الذى اطلعت عليه بحسب ما وصل إليه العقل الانسانى لو أن الأرض صغرت فصارت جوهرًا فردا يكون كله ألف مليون أرض كأرضنا بحجمها الحالى : أى ان الملك يصغر بنسبة صغرها هي ، فهي صغرت حتى صارت جوهرًا فردا ، فيكون الملك كله ألف مليون أرض ، كهذا الحجم الحالى ، إذن الأرض عدم والسكان عليها لا معنى لذكرهم أيضا لأنها هي أشبه بالعدم فهي إذن عدم ، ولكن عند البحث نجد ما فوقها من العوالم يدهشنا أيضا ، فهو يفعل فى عقولنا ما فعلته أعداد المجرات اللاتى يظن أنها ربما تبلغ ١٦ مليون مجرة ، وهي الآن مليونان اثنان : أى ما علم منها ، ثم هذه الأعداد بالنسبة لما عرفناه وما لم نعرفه أعظم وأعظم ، والمجرة الواحدة تحوى مادة لا تقل عن أن يصاغ منها نحو ألفى مليون شمس وهكذا إلى آخر ما تقدم ، فنفس هذه الحيرة قد أذهلتنا فى العوالم التى على أرضنا التى تشبه العدم ، حيوان أنواعه تعد بمئات الألوف ، ونبات كذلك ، ومعادن ، وغرائب لا حصر لها ، والذى قلناه فى تلك العوالم نقوله فى هذا العالم الذى يشبه العدم .

عجب حياتنا كلها ! عجب هذا الوجود ! سعادة تفتقر نفوسنا بعد مفارقة هذه الدار ، نور ، بهجة ، جال ، لك الحمد يا الله على العلم وعلى الحكمة ، فلنقتصر فى هذا المقام الذى لا حصر له على زهرات من العلم ، ولنذكر بعض جبال النبات وجبال الحيوان مما تقدم شرحه فى هذا التفسير ، ولنذكر بعض جبال النبات المذكور فى المجلد التاسع عشر :

(١) فنها أن هناك شجرة تسمى [شجرة البقرة] من كرا كاس وهي تعطى لبنا خالصا سائغا للشاربين وأهل كرا كاس يتغذون منه ، ومن العجب أن صفات هذا اللبن هي نفس صفات لبن البقر ويفضل عليه بأن الأحياء لا تؤثر فيه ، ومن عجب أيضا أنه يستخرج منه عطر .

(٢) وشجرة [ذات اليد] يستعمل ورقها لعلاج الصرع ، وهي تنبت فى البرازيل .

(٣) وشجرة الحرير : وهي شجرة باسقة جدا [والسيوبرتران بوكانديه] يقول : ان فى كازاما منسى مراكب طولها ١٥ مترا فى عرض مترين ونصف ، تصنع الواحدة من ساق إحدى هذه الأشجار ، وتزرع الشجرة عند ميلاد الغلام ، فإذا كبر وعقل واستقل أخذ كل ما يلزمه من هذه الشجرة ، فلها فاكهة ولها وبر قطنى حريرى كثير جدا تقذفه على الأرض إلى مسافات بعيدة ، تراها كأن السماء أمطرت لؤلؤا وثلجا ، وهذا الوبر يجعل فى الوسادات والفرش الوثير .

(١) يقول المؤلف : إن أكثر هذه الحقائق من الكتاب السنوى الثانى الذى يحتوى على مجموعة المحاضرات التى ألقىته فى مؤتمر الجمع المصرى للثقافة العلمية لسنة ١٩٣١ .

(٤) وشجرة الدّهن : تزرع في الصين ، يصنع منها شمع كشمع العسل فيضيء ، وهكذا يستخرج منه دهن ونوع من الزيت .

(٥) وشجرة الثعابين : تزرع في البرازيل ، وجذرها يستعمل في الشفاء من لسع الثعابين .

(٦) وشجرة [الكمثرى الياباني] ولها لبن وقشده .

هذا ملخص ما تقدّم هناك ، أنا لست الآن إلا في مقام ذكر ملك الأرض ، وملك الأرض اكتفينا منه ببعض زهرات العلم ، وهذا التفسير فيه كثير من علم النبات في مواضع مختلفة تكفي لليبس فلنقف عند هذا الحد ، اننا ذكرنا ستة أشجار فقط ، فألفينا حريرا وفاكهة ، وشفاء من الصرع ، وشفاء من لدغ الحيات ، ولبننا ، ودهنا ، وعطرا ، ومراكب كبيرة ، وعجائب كثيرة ، فأصبحنا أمام هذه الشجرات الست وما يماثلها مما يعدّ بمئات الألوف من النبات كأتنا في حيرة المجرات والشموس والسيارات والأرضين العظيمة عظمة لأحد لها فيما قلّ وفيما كثر ، إذن فلنفض في الكلام على شذرات من علم الحيوان ، فنقول :

شذرات من علم الحيوان

أنا الآن في مقام التسبيح ، والذي نسبحه وهو صانع العالم له ملك السموات والأرض ، ومن ملك الأرض الحيوان ، وقد قلنا أن في هذا التفسير ما يكفي للثقافة العامة في أم الاسلام ، ولكن لابد من ذكر نبذ من أجل ما تقدّم ، فأذكرك أيها الذكي بما تقدّم في ﴿سورة طه﴾ عند قوله تعالى : « قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » فانظر هناك تجد :

(١) الثعالب ونحوها تعلم منها الانسان حرفة الصيد .

(٢) ومن الفيران تعلم سكنى الكهوف .

(٣) ومن نحو الطباء تعلم أن يعيش في الآجام .

(٤) ومن النمل اتخذ البيوت .

(٥) ومن حيوان يسمى [الكستور] بنى الجسور المتينة لمنع السيل .

(٦) ومن الدب في الأقطار الشمالية تعلم صناعة السفن .

(٧) ومن العنكبوت تعلم الصيد بالشبكة .

(٨) ومن بعض السمك تعلم صناعة النجارة باستعمال البلطة والمنشار .

(٩) ومن السرطان في البحر تعلم صناعة الدروع التي تقي جسمه النبال .

(١٠) ومن أمّ الخلول تعلم أحقاق الفشوق .

(١١) ومن الخنزير تعلم حراثة الأرض .

(١٢) ومن الهرة تعلم الاحتراس من الروائح المتصاعدة من الفحيم .

وهكذا من الصناعات التي تبلغ ٣٩ صناعة مذكورة ، وهذه قلّ من جلّ من تلك الصناعات الحيوانية التي عرفها الحيوان وقلده الانسان فيها ، فملكة الحيوان مملوءة من العجائب كملكة النبات فيما تقدّم ، فاقرا بقية ما ذكر في ﴿سورة طه﴾ .

ثم اعجب مما حفظ به الحيوان من الهلاك ، فهو كما كل بالصناعات العجيبة النافعة فعاش قريبا العين أسبغت عليه نعم أخرى بها حفظ من الهلاك ، فانظر ما تقدم في ﴿سورة المؤمنون﴾ عند آية : « وما كنا عن الخلق غافلين » وتأمل الفيران مثلا كيف كان لونهم السواد ، ذلك لأنها مضطهدة من جميع الناس لأنها مسلمات على زروعهم بأكلها ، وعلى أجسامهم بما تنقل لهم من العدوى ، ولكن الصانع الحكيم الذي برأها هو

الذي يدافع عنها ، بماذا يكون ذلك الدفاع ؟ يكون الدفاع بأمر عدى ، ما هو ذلك العدى ؟ هو عدم اللون ، وهو السواد ، فإنه اذا حرم من الخروج نهارا ، فلا بد له من السعى ليلا ، ولو كان لونه غير السواد لظهر ، فبهذا حفظ .

أيهما المسلمون : لهذا يقول الله : « سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز » عز أى غلب وقهر هذه المواد ولم يبل بالأهواء ، كأن يقال : لماذا لا يكون الفأر كاطاوس جالا وبهجة ؟ فلا يكون هناك جواب غير نفس العلم (الحكيم) ، فهو حكيم فى صنع ، وبحكمته سود الفيران لتجارية للإنسان ، لأنه يريد حياة الخصمين معا لا أحدهما ، وبهذه الخاصمة تتم الحياة ، ولوعاش الإنسان بغير مضاد له لكان أقرب إلى البله ، ولضعف تفكيره ، ومثل ما قلنا فى الفيران نقول فى عشرات الحيوانات المذكورات هناك من الاسود والنمور اللاتى تشبه آجامها ماحولها فى الصحارى والقفار ، ولو أن ألوانها لم تكن كذلك وكانت واضحة لرأينا فرائسها ففرت منها فهلكت تلك الحيوانات المفترسة فى يوم أو بعض يوم ، وهكذا نقول فى نحو الجبال (الإبل) إنما كان لونها كلون ماحولها فى الجبال والوهاد ، لأنها لو لم تكن كذلك لافتستها السباع لظهور ألوانها . الله أكبر : « سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض » .

وهكذا يقال فى طائر ليلي بأمر يكاد كور هناك ، فهو ذو ذيل طويل أبيض يقق ، ولكن هذا البياض ليلا لا يضره لأن له سلاحا يقيه العطب ، وهى الرائحة الكريهة كرائحة الطربان ، كما ان الزناير الملونة ألوانا براقة بالنهار لا تخشى العطب من هجوم أعدائها ، لأن هؤلاء الأعداء يعلمون ما عندها من السلاح والكراع وقس على هذا بقية الحيوانات المذكورة هناك فراجع .

ومثل ذلك يقال فى أنواع الحشرات من أبى دقيق المذكورات فى (سورة الروم) المرسومة صورها هناك كما رسمت صور كثيرة للحيوانات المتقدمة فى (سورة المؤمنون) فى هذه التى فى سورة الروم ترى نوعا من حشرات أبى دقيق لها لون جيل شديد اللعان ، وهذه الحشرات اذا أمسكتها بيدك لونت جسمك وثيابك بمادة قدرة ، عرفت ذلك كل الحيوانات فتحاتها ، ولكن المدهش أن هناك حيوانات أخرى لا سلاح لها تعيش مع هذه فى مكان واحد ، وتلقون كلونها حذو القذة بالقذة فتتحامها أعداؤها فيكثر نسلها (ارجع إلى هذا المقام هناك نجد تفتنا فى أساليب الدفاع بالمشابهة فى الألوان اختصارا فى صور الطبيعة البديعة .

نعم هذا هو الملك ، وهذا هو الابداع ، وحسن الصنع والتزييق ، واطهار الجبال ، تفتن فى المجرات ، تفتن فى الشمس ، تفتن فى السيارات ، تفتن فى النبات ، كل هذه أفانين وأفانين لاحد لها ولا انتهاء .

جمهوريات الحيوانات

ضرب مثل يذكرنا باجتماع الأرواح بعد مفارقة الأجسام

يظهر لنا أن كل ما نتصف به جعل ضرب مثل لنا ، ومن الأمثال المضروبة لنا جال الصور فى كل منازاه ، فانتا نفرح به ثم يزول ، كأنه يقال : هناك جال لا يزول وهذا جال زائل ، فابحث عما لا يزول من الجبال الذى هو السبب فيما يزول ألا وهو جبال الله ، نفرح بملك وبسلطان ثم يزولان ، فيقال هناك ملك وسلطان دائمان فابحثوا عنهما « واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا » .

تنظر النحل والنمل ونحوها نفرح بالملكات التى تحكمها وتكون لها أشبه بالاستاذ للتلاميذ والأم لولدها والأب الرءوف لأبنائه ، ونرى السيارات تدور حول الشمس ، والأقمار تدور حول الأرض ، والأبناء ترجع

مثل محسوس لأمر معقول وهو حب الله أعظاما ، واتحاد النفوس أديبا ونظاما ، وهذا المعقول عبر عنه بالتكبير والسلام ، وهاتان الكامتان وزعت عليهما أقوال الصلاة كلها ، فهنا أمور معقولة وأمر محسوسة بحاسة البصر ، وأمر سموعة بالأذن ، فالشاهد بحاسة البصر نظام الحيوان ، والمسموع بالأذن الصلوات مختصرة بالتكبير والسلام ومطولة بتفصيلها ، والمعروف بالعقل الأرواح وصانعها ، فالمحسوس بالبصر ضرب مثل للمسموع بالأذن مختصرا ، والمسموع بالأذن مختصرا ضرب مثل للصلاة مطولة ، والصلاة خواها توجه الأرواح إلى خالقها ، إذن العوالم كلها متشابهات . فقلت : لقد أحسنت تلخيصا . فقال : كفى هذا البيان في تفسير الآيات في أول (سورة الحديد) . كتب قبل غروب يوم الجمعة ٢١ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية .

بهجة هذا المقام في التسبيح وجماله

يوم الأربعاء ٢٦ من شهر رمضان المعظم سنة ١٣٥٠ هجرية — الثالث من شهر فبراير سنة ١٩٣٢ م حضر صديق العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير ، فأخذ بحادثتي في المقالة السابقة التي تختص بآية « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير » وقال : لقد تجلت معاني هذه الآيات واضحة بحيث يرى المسبح كأنه في روضات الجنات ، وكيف لا يكون في روضات الجنات وهو عند النطق بالتسبيح مستحضرا تلك المعاني ، يشعر كأنه منضم إلى أرواح أخرى تعطف عليه ويعطف عليها ، وهم يتسابقون معا إلى الزاني إلى صانع العالم فتتجدد في نفوسهم السعادة وروح الحياة والبهجة .

سبحان الله : أهذا هو التسبيح وما في معناه من التحميد وأمثالها ، وهذه المعاني كلها مخبوءة فيه ؟ أهذا هو جمالها ؟ إذن التسبيح الذي يخطر لأغلب المصلين والمسيحين تسبيح جاف لا يطنى غله ، ولا يشفي من علة ، فقلت : نعم إن التسبيح مرتبط بحياة النفس وسعادتها وبهجتها ، وهو التغلغل في العلوم والجمال ، هذا سر الآيات في آخر (سورة الحشر) . فقال : وما سرها ؟ فقلت : من سرها الذي ستقرؤه هناك قوله تعالى : « له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض » . إن حسن أسماء الله راجع إلى المدلول ، ومن آثار ذلك المدلول هذا الجلال المشاهد في هذا العالم الذي عبر عنه بقوله : « له ملك السموات والأرض » فوصف الأسماء بذلك فتح باب يلج منه الحكماء العاشقون الممثلون حياة وحكمة المرموز لهم بآية : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا » . إن هذه الأرض خلق فيها أناس لهم طبائع خالفت أهل عصرهم إذ يحسون بدافع قوى في أنفسهم ، ذلك هو الحياة الحقيقية فيكونون بذلك نورا لأنهم ، ذلك النور هو سر خفي في أنفسهم التي أحست بجمال العالم المرموز له بأن أسماء الله حسنة ، فهذه النفوس هي التي بها ترتقي أم وأم في معراج الحياة بحسب درجتها الحسية أو المعنوية ، ولقد تجلّى في نفسى معنى أحب أن أبدية الآن وهو أن في هذه الأرض أناس يشعرون من الآن بأنهم في حضرة ربهم مجذوبين بعواطفهم محبوبون عليها فينطبق عليهم المثل الذي ضربناه في المقال السابق من حيث أنهم مع أنهم مسوقون إلى ربهم ، فهؤلاء يرون في نفوسهم عطايا على أنهم وحبا لربهم ، فنفسهم من الآن تشعر كأنها في حضرة ربها ، وهؤلاء يستوى عندهم الموت والحياة ، والأحوال العارضة عليهم ، فلا الفرح يستخفهم ، ولا الحزن يقعدهم ، وهذا هو الكمال الحقيقي .

ومن أعجب العجب أن هذه المعاني التي تجلت في نفسى من اشراق أنوار التسبيح في آيات أول الحديد يكاد ينطق ببعض نتائجها عالم أمريكى يسمى [ستانلى هول] وهو أكبر علماء النفس في أمريكا ورئيس

إحدى جامعاتها الكبرى ، وقد بلغ ٧٧ سنة من عمره ، هذا العالم لما اطلعت على آرائه دهشت فانها أشبه بأثر من آثار الآبئة والله يقول في القرآن : « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » وقد قررنا مرارا في هذا التفسير أن نتائج مباحث العقلاء كلها وحكمهم التي أدركتها عقولهم يتضمنها القرآن ، وهذا من عجائبه ، بل من معجزاته . فقال صديقي : لقد شوقني لمقاله ، فأريد أن أسمع ملخصا ! فقلت : قرأت في بعض الكتب مانصه :

« كتب [مسترولز] الكاتب الانكليزي المعروف مقالا عن النجاح قال فيه : ان مستر لوي بدجورج ليس من الناجحين بينما هو يعد [ايفشتين] صاحب نظرية النسبية منهم ، وقد ختم مقاله بهذه العبارة : « ليست الثروة ، أو الشهرة ، أو المقام دليلا على النجاح ، فانما يقاس النجاح الحقيقي بنسبة ما عملنا إلى ما كان يمكننا عمله » .

أما [ستانلي هول] وهو أكبر علماء النفس في أمريكا ، ورئيس إحدى جامعاتها الكبرى ، وقد بلغ السابعة والسبعين من عمره ، فاز بذلك الشيخوخة الهنية ، والسمعة الطيبة ، وخدم أمته بجملة تأليف قيمة فانه يرى شروطا أخرى للنجاح ، فقد وضع هذا العالم كتابا حديثا عن تاريخ حياته ، وعقد فصلا عن شروط النجاح الانساني قال فيه : « إن أول شرط لذلك هو الصحة ، فان الأعمال العظيمة التي قام بها عظماء الناس في هذا العالم إنما أدوها وهم في أحسن أيام صحتهم ، وليس من يشك في أن المرضى قد أتوا أحيانا بالمجائب ولكن هذا من الشذوذ فانما القاعدة هي أن الصحة شرط للنجاح حتى ليعبر أن يقول : « لكي تنجح يجب أن تكون حيوانا صحيحا » .

والشرط الثاني هو معرفة القوى الكامنة في أنفسنا ، ففي كل منا قوى كامنة يعرفها الصوفيون عند ما يشعرون بأن فيضا من الذات القدسية اتصل بهم ، وكأن حياة جديدة قد لابت بشرتهم ، فالمؤلف يشعر بها عند ما تملكه الفكرة ، وتندفع في ذهنه تريد أن تتكشف وتوضح .

والشرط الثالث هو كيفية ضبط عواطفنا ، فنحن في أغلب أيامنا نتراوح بين التفاؤل والتشاؤم ، فاذا تعلمنا كيف نضبط عواطفنا ، فلا يستخففنا النجاح ، ولا يثبط عزيمتنا الفشل الطارئ ، واذا وقفنا عند حد الاعتدال دون غلو في السرور والاغتمام كان النجاح أقرب إلى أعمالنا .

والشرط الرابع هو غرس العطف في أخلاقنا ، فان الذين لا يعطفون يفقدون صلتهم بالطفولة بل بطفوليتهم ولانجاح للأديب ، أو الشاعر ، أو السياسي إلا بغرس العطف في نفسه ونشئتها عليه .

والشرط الخامس هو حب الطبيعة ، فيجب على الناس أن يكثرُوا من المشي في الحقول ، لرؤية أحسن المناظر وأسراها ، ويحسن أن يمشي الانسان صحبة آخرين ، وخير الوطنية ما كانت أصولها نابتة من الحقول . والشرط السادس هو رقي فن العواطف ، فعاطفة الغضب ، أو الخوف ، أو الطمع ، اذا تركت في حائها الأولى نتج عنها أضرار كبرى ، فاذا هذبت عادت بالفائدة ، وخير مثال لذلك هو العاطفة الجنسية ، فهي اذا لم تهذب صارت غلظة حيوانية ، واذا لم تضبط أدت إلى خراب العائلات وهدم البيوت ، بينما هي عند رفعها تصير حيا جيلا يعمل على ارتقاء الانسان ، وهي في هذه الحال أصل للأدب وخير ما يحرّك القرائح للشعر وسائر الفنون .

الشرط السابع هو إيجاد توازن بين المزاج العملي والمزاج الذهني ، فن الناس من يكون مزاجهم ذهنيا يحبون البقاء ، وأدعين ، يتأملون ويفكرون ، كما هو شأن أكثر التجار ورجال الأعمال ، وكلاهما لا يمكن أن يعتبر ناجحا راقيا ، لأن الترقى والنجاح إيجاد توازن بين هذين الخلقين .

دوراء ، أو ما يعادل ٣٠٠ مائة من قيمة مجموع ديون بريطانيا العظمى كلها في الحرب للولايات المتحدة ، ومن الغريب أن تكون هذه ثروة الصائفة مدفونة بين مدّ الأمواج وجزرها في مساحة صغيرة هي أوطأ من سطح البحر بـ ١٢٩٢ قدماً .

وعلاوة على المعادن الطبيعية يمكن لفلسطين أن تستفيد من البحار الميت استفادة مهمة ثانية ، فقد قدّم المهندس الألمان تقريراً بكيفية اتصال البحر المتوسط بنهر الأردن الأعلى بواسطة نفق ، وهذه الطريقة لا تحفظ المياه الموجودة في البحر الميت لحسب ، بل تستخرج منها قوّة كهربائية تعادل مليون حصان يمكن توزيعها لإدارة دولاب الأعمال في كل فلسطين وسوريا حتى تركيا .

أما الأتراك فقد كانوا يعيشون في بلدان تدرّ عليهم الذهب أنهاراً ولكنهم كانوا غافلين لا يعرفون كيف يستثمرونها ، ولم تكن الحياة يوماً إلا فريسة للنشاط المجتهد ، وكفى أهـ



ومما يلاحظ هذه الآية أيضاً ما جاء في جريدة الاهرام بتاريخ يوم الاثنين ٢٣ مارس سنة ١٩٣١ م الموافق ٤ ذى القعدة سنة ١٣٤٩ هجرية فقد جاء فيها تحت العنوان التالي مانصه :

كهربة القطر المصري ومشروع القطاره

خلاصة خطبة حسين بك سرى في المجمع العلمي

قال : لقد آن لأصر أن تفكر جدياً في تحويل جهود بلديا نحو الصناعات حتى تتمكن من الزيادة المطردة في عدد سكانها من إيجاد موارد رزق جديدة لهم بجانب الزراعة ، وحتى يمكنها مواجهة الصعوبات الاقتصادية بجمعة متنوعة الموارد ، وهي أن تصبح بلداً صناعياً حتماً حتى يتمكن رجالها الفنيون من إيجاد حلّ موفق لتوليد القوى المحركة من موارد داخل حدود المملكة وبأسعار قابلة تمكن المصنوعات المحلية من منافسة مثيلاتها الأجنبية .

ثم ذكر أن هذه الموارد هي مساقط المياه التي يمكن بواسطتها توليد الكهرباء لإدارة مختلف الآلات ، مبيناً أفضلية هذا النوع من التوليد على غيره ، ثم استعرض الموجود حالياً من القوى في القطر المصري ، وحلّل ما يحتاج إليه القطر من القوى الكهربائية في مدى قرن يبدأ من سنة ١٩٤٥ قاصراً الحساب التفصيلي على الوجه البحري ، وذاكراً في النهاية حساباً اجاليا للوجه القبلي .

وقال : انه يؤمن كل الايمان بأن الصناعات التي يجب أن تزدهر في هذا القطر هي تلك الصناعات التي تكون مواردها الأولية من ناتج الزراعة كالنسيج القطني والسكر والورق والسكران والتي تستخرج موادها الأولية من تربة مصر كالزجاج والأسمدة ، أو تحويل ناتج الزراعة إلى مواد غذائية كالذيق ، وعمل حساباً لتقوى اللازمة لكل ذلك في خلال القرن من ١٩٤٥ — ٢٠٤٥ وعلى حسابه تحتاج مصر سنة ٢٠٤٥ إلى نحو ٣٥٠ ألف كيلو واط .

ثم بين أن هناك موردين للقوّة الكهربائية الأولى منخفض القطارة للوجه البحري ، وخزان اسوان للوجه القبلي ، ثم أخذ يشرح مشروع منخفض القطارة موضحاً ذلك بخرائط مساحية ورسومات هندسية ، مشيراً إلى أن الفض في اكتشاف ذلك المنخفض العظيم يعود إلى الدكتور [بول] مدير مساحة الصحارى . وقد أشاد به سرى بك لما يقوم به من المباحث الجديّة في مشروع الانقاع بالمنخفض لتوليد القوى المحركة . ثم وصف المنخفض وصفاً جغرافياً وجيولوجياً ، وهو كائن في الجزء الشمالي من صحراء ليبيا في منتصف

المسافة بين وادى النيل والحدود الغربية ، ويبلغ متوسط عمقه ٦٠ مترا ، وأوطأ نقطة فيه منخفضة عن سطح البحر ١٣٤ مترا ، وهى أوطأ نقطة اكتشفت حتى الآن فى قارة إفريقيا ، ثم أشار المحاضر الى تبليغه الحكومة خبر هذا الاكتشاف فى سنة ١٩٢٧ وبيانه الفائدة العملية التى تعود على البلاد من استغلال سقوط المياه فيه ، ولخص الأسس التى وضعها لهذا المشروع ، وأهمها :

- (١) حفر نفق تمرّ فيه المياه من البحر إلى هذا المنخفض .
 - (٢) حفظ منسوب المياه ثابتا ، وذلك يقتضى أن الوارد من مياه البحر ، وما يسقط من المطر يساوى ما يتبخر من سطح البحيرة التى تكون فيه أولا وما يتسرّب إلى الأرض .
 - (٣) تقدير منسوب سطح المياه فيه ، وبالتعبية مقدار سقوط المياه ما بين النفق والزيينات .
- ثم فصل هذه الأركان وماتمّ من البحث حتى الآن ، وخصوصا التجارب التى جرّبت فى [بحيرة قارون] لمعرفة مقدار التبخر ، ومقدار ما يتسرّب من الماء إلى الصحراء لحفظ النسبة بين الوارد من المياه من البحر أو من الأمطار ، والفاقد تبخرا فى الجو ، وتسربا فى الأرض .
- ثم ذكر النقطة الجوهرية فى المشروع ، وهى القوة التى يمكن توليدها من سقوط المياه مفصلا جعل منسوب سطح البحيرة خمسين تحت الصفر وهكذا تتولد لدينا قوة مقدارها ١٨٠ ألف كيلو واط عند مخرج المحطة ، ولا يؤثر ذلك على عملية الصرف فى مديرية الفيوم التى تسرّب مياهها الآن من بحيرة قارون إلى القطارة .
- ثم عرض لبناء القناة التى توصل المياه من البحر إلى المنخفض مفضلا أن تكون فى العشرين كيلومترا الأولى المجاورة للشاطئ* ترعة عادية تحفر فى الأرض الجيرية ، ثم تدخل المياه فى نفق طوله ٤٥ كيلومترا وقطره ١٧ مترا حتى تصل إلى المنخفض .

واقترح تنفيذ هذا المشروع على ثلاث درجات ، لأن الوجه البحرى لا يستطيع أن يستعمل ١٨٠ ألف كيلو واط رأسا ، لذلك يقترح جعل النفق ثلاثة أنفاق حقيقية ، فيولد أولا نحو ٦٠ ألف كيلو واط ، فإذا تحققت آماله فى كهربة القطر المصرى فيبدأ سنة ١٩٧٠ ببناء نفق ثان لتوليد نحو ٦٠ ألف كيلو واط أخرى وفى بداية القرن الحادى والعشرين يبنى الثالث وينمّ المشروع .

ثم ردّ على الأسئلة التى وجهت اليه فيما يتعلق بنفقات المشروع ، فقال : ان الجواب تقريبا لا يتحمل مسئوليته لكثرة المباحث الاختبارية التى يجب اجراؤها فى أرض لم تدرس درسا جيولوجيا وافيا ، وانما يقدر النفقات اللازمة لتتيمم الثالث الأول من المشروع وتوليد نحو ٦٠ ألف كيلو واط بنحو ١٧ مليون ونصف مليون من الجنيهات .

ثم وازن فى الختام بين هذا المشروع ومشروع ممائل لتوليد الكهرباء باقامة محطة ترينيات بخارية على النيل ، وبرهن على أن مشروع القطارة من الوجهة المالية وبصرف النظر عن مميزاته الوطنية وفوائده الاقتصادية الأخرى أفضل من المشروع البخارى . انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة .

هذا هو نهاية الكلام على اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو الخ

دخلت أحد المساجد الذي يقرب من منزلنا بشارع زين العابدين يوم الجمعة ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٣٢ فسمعت القارئ يتلو في ﴿سورة الكهف﴾ آية : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء » فما أسرع أن سنع لي ما يأتي : وهو أن تمثيل الحياة بالماء النازل من السماء ظهر بعض سرّه الآن ، ذلك أنه تقدّم في هذا التفسير أن علماء عصرنا يقولون : إن الحياة ليست من هذه الأرض ، بل هي من عالم آخر ، وأقول إذن : كما أن الماء والضوء والحرارة تنزل من السماء هكذا الحياة وهي منزلة من عالم روحى يمثل له بالماء ، ومن أراد فهم هذا الموضوع حقّ فهمه فليقرأ رسالتى المسماة « مرآة الفلسفة » المذكورة في ﴿سورة محمد﴾ صلى الله عليه وسلم عند آية : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » انتهت اللطيفة الثالثة . كتب ليلة أول أكتوبر سنة ١٩٣٢ م

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن

نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم .

والله لا يحب كل مختال فخور »

خطر لي في صلاة العشاء قبيل جريوم الثلاثاء ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م وأنا أقول : « السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » ما يأتى : السلام على قسمين : سلام أدنى ، وسلام أعلى ، فالسلام الأدنى هو السلام العام الذى تنشده أمم الاسلام في الأرض الآن ، وهذا الذى جاء الاسلام مقدّمه له ، أما السلام الأعلى فهو الذى يعمّ الأمم والأفراد ، وهو الذى إليه تشدّ الرحال ، وتعقد الآمال ، وهو أن يدرس هذه الدنيا دراسة صادقة ، ويعرف مادبّ وطار ، ولا يغادر حكمة إلا قرأها ، ولا علما إلا اطلع على عجائبه ، لافرق بين العلويات والسفليات ، حتى تقتنع النفس اقتناعا تاما بحسن النظام وجمال الوضع .

ومنى وصل الانسان الى هذا المقام أصبح في عيشة راضية وهولم يزل في الدنيا ، ودخل فيمن قال الله فيهم « رضى الله عنهم ورضوا عنه » وذلك لأنه يرى أن كل دقيق وجليل قد وضع بحكمة ، ويرى أن كل مصيبة في الحياة أو الموت لا محيص منها لرقينا ، وأنه لولا ذلك لم يكن ارتقاء ، وذلك على سبيل العلم والبحث والاستقراء ، وههنا يفهم العاقل آية : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » وهذه الطائفة في النوع الانسانى قليلة جدا ، بل نادرة وان كانوا يقرءون هذه الآية ويؤمنون بها ، لأن الايمان غير الايقان وان كان مقدمة له ، وهذا هو السرّ في كون أمة الاسلام هم الحادون ، وفي أن ذكر أهل الجنة « سبحانه الله وبحمده » كل ذلك يرجع إلى وصول أقوام إلى ذلك يقينا لا تقليدا . انتهت اللطيفة الرابعة . وبهذا تمّ تفسير ﴿سورة الحديد﴾ والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة المجادلة

هي مدنية

آياتها ٢٢ - نزلت بعد المنافقون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا
 إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا
 اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ
 يُظَاهِرُونَ مِنْ نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكُمْ يُوعْظُونَ
 بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا
 فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
 وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ
 قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا
 فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ
 سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَزَّلْنَا عَنْ النُّجُومِ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا
 نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ
 بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ
 الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ
 وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ

لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا
 قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا
 تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ
 ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ
 يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ
 وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ
 عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ
 النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ
 أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ * اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ
 أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ *
 لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ
 أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ
 مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
 أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول في تفسير بسملة [سورة المجادلة] وما بعدها إلى [سورة تبارك] .

القسم الثاني في أحكام المظاهرة من أول السورة إلى قوله : « وللكافرين عذاب أليم » .

القسم الثالث في أحكام المجالس من النجوى والتفسيح فيها ومناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن ذم

النافقين وما يتبعها من قوله تعالى : « إن الذين يحادون الله ورسوله » إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير بسملة سورة المجادلة

ومابعدھا إلى سورة تبارك

(١) — ملخص السورة

اللهم إنا نحمدك ونشكرک على نعمة العلم وبهجة الحكمة ، لقد أنرت بصائرنا وأسعدتنا بالعرفان ، هذه الرجات المترادفات في أول هذه السور : [المجادلة ، والحشر ، والمتحنة ، والصف ، والجمعة ، وسورة المنافقين ، والتغابن ، والطلاق ، والتحريم ، وسورة الملك] .

هي عشر سور ذكرت الرجات في أوائلها عشرين مرة ، إن هذه الرجة موجهة في هذه السور العشر غالباً لمنهج خاص ، وطريق معبد ، ومهيج طريف بديع ، ذلك أن الأمم يعوزها علم وعمل ، والعمل هنا في هذه السور العشر راجع إلى نظام الأسرة ونظام الدولة ، فلئن رأينا التي تجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم في زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاورهما ، وقد رحم المرأة وجعلها قريرة العين مع زوجها ، فهذا كله من الرجة الإلهية العامة التي يراد بها حفظ الأسرة ، وبقاء الألفة بين الزوجين ، وثبات الأحوال ، وزوال الشقاق ، فهذه رجة وجهت لنظام الأسرة ، وحفظ العشرة ، ودوام الألفة ، فعلى الولاة أن يستيقظوا للمّ شعث الأسرات والأمم أسوة برسول الله ﷺ ، فهذا إنما هو مثل ضربه الله لذلك وليس خاصاً بهذه المرأة ، نعم هي حادثة وقعت أيام النبوة ولكنها مضرب أمثال للولاة والحكام أن يستنبطوا الطرق للمّ الشعث وجع الكلمة ، ويتبع ذلك آداب المعاشرة من ترك النجوى التي بها يحزن الإخوان في المجلس ويسوؤهم فعل المتناجين ، وهكذا التفسح في المجالس ، ثم ترك مضايقة الرسول ﷺ لأن وقته لا يتسع لذلك ، فليقدم الذي يريد مناجاته صدقة ، ثم التخفيف بترك تلك الصدقة ، ثم النهي عن موالاة الأعداء بخيانة الأمة وتفريق الكلمة . إذن [سورة المجادلة] راجعة في جملها إلى :

- (١) ألفة الأزواج في المنازل .
 - (٢) وألفة الأصحاب في المجالس .
 - (٣) والأدب مع الحكام بترك مضايقتهم لكثرة أعمالهم .
 - (٤) ورفق الحكام بالمحكومين إذا رأوا أمراً يثقلهم .
 - (٥) ومجانبة خيانة الأمة بموالاة أعدائها ، وبالنفاق والشقاق ، فإن ذلك يضعفها ويفرق جمعها ويذللها .
- إذن الرجة في [سورة المجادلة] موجهة بنوع أخص إلى حفظ الأسرة وحفظ الدولة .

(٢) — تفسير البسملة وتلخيص سورة الحشر

أما في [سورة الحشر] وهي السورة الثانية فإن الرجة فيها موجهة إلى حفظ الدولة كالشق الأخير من [سورة المجادلة] فكأن السورتين سورة واحدة ، لحفظ الأسرة ، وحفظ نظام المجالس ، وحفظ الدولة في المجادلة تبعها في الحشر ما يفيد ذلك . ويانه أن اليهود هنا تخاذلوا وتباغضوا ، والتخاذل يتبعه انبعاث الرعب في القلوب ، ومتى انبعث الرعب في القلوب زال الأمن ولم تنفع الحصون ، وقطعت الأشجار ، وكان الجلاء عن الوطن ، أو الاستعباد فيه . يقول الله في الموالين لهؤلاء : « لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله » ويقول : « بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » فهؤلاء اليهود المذكورون في هذه السورة تقدم في بعضهم ما يقرب من هذا في [سورة آل عمران] عند آية : « ألم تر إلى الذين أتوا

نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون « فانهم هناك اتكلموا على شفاعة آبائهم وهم مذنبون ، فنبذوا كتاب الله وهو التوراة في الأحكام الشرعية ، فأصابهم التخاذل فتفرقوا شذرا ، وأخذ المسلمون ديارهم ، وذلك مشروح هناك شرحا ضافيا ، وهناك سر [ا ل م] في أول السورة فارجع إليه إن شئت ، فما هنا وما هناك ضرب مثل للأمة كلها ، ومنهم المسلمون ، فإذا سمعت الله يقول : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » فعناه أن كل أمة على هذه الشاكلة فانها لا تعقل ، فأبونا العرب في الجاهلية يصح أن نقول فيهم ذلك ، لأنهم كانوا فريقين : فريق يتبعون الأكاسرة في جهة بلاد الفرس ، وفريق يتبعون القياصرة في جهة بلاد الشام وما والاها ، وإذا رأينا الأمم الإسلامية العربية بعد العصر الأول قد تفرقوا ، وذاق بعضهم بأس بعض ، فلنا الحق أن نحترس مما وقعوا فيه ، وأن نقول : تجب المحبة العامة ، والاحقت علينا كلمة الله إذ يقول : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

وإذا رأينا بلاد العراق قد دخلت في عصبة الأمم في هذه الأيام وأنا أكتب هذا صباح يوم الجمعة ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٢ م — الموافق ٢٨ جمادى الثاني سنة ١٣٥١ هجرية ، وزال عنها احتلال الانجليز وأعلن ذلك في الجرائد شرقا وغربا ، وإذا رأينا أمة الترك استقلت من قبلها ، وأمة الأفغان كذلك ، وأمة الفرس أيضا ، فعنى هذا أن هذه الأمم الإسلامية التي استقلت بعد الحرب الكبرى المنتهية سنة ١٩١٨ م قد نبذت الشقاق ، وخلصت من النفاق ، ولم يصبها ما أصاب الأمم الجاهلة المتخاذلة التي قال الله فيها : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » أى ان هؤلاء قوم لا يعقلون ، وهذه الشفشة وهى الاتحاد طارئة على هذه الأمم بسبب ما أنعم الله عليهم به من رجة التواصى بالحق ، فأصبحوا على نط الذين ذكروا هنا في [سورة الحشر] إذ جاء فيها أن الأنصار يحبون المهاجرين ويؤثرونهم على أنفسهم ، وهؤلاء المتحدون على الضد من الذين نافقوا .

(٣) — تفسير البسملة وتلخيص سورة الممتحنة

ثم أليس من العجب العجيب أن نرى [سورة الممتحنة] تجرى على نفس هذا الأسلوب إذ ابتدئت بالنهي عن اتخاذ الأعداء أولياء كما في سورة الحشر قبلها ، وكما في آخر سورة المجادلة من حيث المعنى ، إذن هذه السور أشبه بسورة واحدة فصل بينها بذكر الرجة لتذكير الناس بنعمة العلم وإيقاظهم للاتحاد ولم الشمل وحفظ الجمع ، ومن أجل الحكم أن يذكر فيها امتحان المهاجرات ، وهل هن مؤمنات حقا ؟ وربما كن منافقات ، ومعنى هذا ألا نذر أحدا من الأمم التي تناوئنا يدخل معنا إلا بعد امتحانه ، سواء أكان ذكرا أم أنثى ، وإن كان الامتحان في السورة خاصا بالاناث ، وإذا احتسنا من المرأة فلا حتراس من الرجل من باب أولى

(٤) — تفسير بسملة سورة الصف

والرجة في [سورة الصف] واضحة متممة لما تقدم ، فأتينا إذا حفظنا الأسرار والمجالس والدولة ، ونبذنا المنافقين ، فتمام ذلك أننا إذا حاربنا الأعداء لا نكون متخاذلين ، بل نكون صفا واحدا كأننا بنيان مرصوص ، ومستحيل أن يكون الناس كالبيان المرصوص في الحرب ، وقتال العدو ، وحفظ الدولة ، والتعارن في الأعمال العامة إلا بعد نيل ذوى النفاق بعد امتحانهم وإخراجهم من صفوف الأمة حتى لا يكونوا سببا في تفريق الصفوف ، ومتى اجتمعت الصفوف كان النصر المذكور في آخر (سورة الصف) نصر من الله وفتح قريب .

(٥) تفسير بسملة سورة الجمعة

ومن أعجب العجب أن يتبع اتحاد الصفوف في الحرب باتحاد النفوس في صلاة الجمعة ، فليس الاتحاد على العدو بمنع عن الاتحاد في العبادات الموجب لتقارب القلوب وانتظام الألفة ، بل لا انتظام لصفوف القتال إلا بعد الانتظام في الأعمال العامة والعبادات كصلاة الجمعة ، ومن عجب أن يذكر فيها أن الذين آتاهم الله كتابه ثم لم يصلوا إلى أمثال هذه النتائج فأولئك مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴿ وبعبارة واضحة ﴾ أن أم الاسلام الحالية ، وأخص بالذكر الأمة العربية التي أنا واحد منها إذا لم يصلوا لهذه الدرجة من المنعة والقوة بترك التخاذل والعمل بكتاب الله في الأعمال العامة فانهم بمسهم نصيب من « مثل الذين جلاوا التوراة » ومن آية : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » لأنهم اجتمعوا في اللغة والدين والعادات والنسب وتجاور الأوطان ، واختلفوا في أمور فرعية في الدين فجعلوها أصلا وتخاذلوا .

وأنا أجد الله إذ رأيت في هذه الأمم من سعدوا بالألفة ، وهن الأمم الأربعة المتقدمة ، وإحداهن عربية والأخرى من تركية ، ومنها أفغانية ، ومنها فارسية ، ولقد رأيت من اهتمام بقية أبناء العرب ما يشرح الصدر في زماننا ، فهذه اليمن ، وهذه نجد ، وهذه الحجاز ، كل هذه الأمم مستقلة ، ولكن بقيت مصر وبقيت بلاد سوريا وفلسطين وبلاد شمال إفريقيا طرابلس وتونس والجزائر ومراكش .

أيتها الأمم العربية المستقلة وغير المستقلة : عار عليكم أن يكون هذا كتاب ربكم وأنتم تتلون ، والحوادث قد أيقظتكم ، ومع ذلك لا تتحدون .

يجب أن يكون السوداني المسلم العربي وغير العربي مع المصري ، وسكان شمال إفريقيا وأهل فلسطين وسوريا والحجاز ونجد واليمن والعراق كلهم أمة واحدة ، إن لم يفعلوا ذلك فإن مثاهم كمثل آبائنا العرب في الجاهلية ، ومثل اليهود إذ قال الله فيهم : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

أيها المسلمون : أيها العرب : هذا هو المقصود الأعظم من هذه السور ، ولهذا أنزل القرآن ، وإذا ظنت هذه الأمم أن اختلاف أوطانها أو ملوكها أو مذاهبها كالشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية والزيدية والوهابية والشيعة وغيرها يوجب تخاذلها وعدم اتحادها ، فإن ذلك يدل على عدم تبصرها وعلى جهلها .

فيا عجباً لأمة الاسلام ! (تلك الأمة التي جاء الدين لها ، وهو يجمع الأمم كلها في دلة واحدة ، يضم تحت رايها كل نخلة وملة ، ويحافظ على عباد الله) كيف تجعل مابه الانفاق عين مابه الشقاق ، ويقول كل أصحاب مذهب نفسى نفسى ، وبقية العرب وبقية المسلمين كفار أوفساق : وربما استحلوا دماءهم وأموالهم وقتلهم قتيلا .

والحق الصراح أن هذا إذا ظهر في هذه الأمم فانه ينطبق عليها قوله تعالى : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » وانى أرى أن أم الاسلام عربية وغير عربية اليوم تسمى جهدها للكمال والاتحاد .

(٦) — تفسير بسملة سورة المنافقين

ولما كانت السور الخمس السابقة مدارها على نظام الألفة المنزلية تارة ، ونظام الأمة ببند النفاق ثانيا أكد الشق الثانى في سورة المنافقين : إن هذه السور وتناسقها وتلاحقها بدعوى البحث والتفكير فيها : كررت السور التي تدعو إلى الوفاق وترك الشقاق ، وهذه السورة سادستها ، وذلك دلالة على أن هذا الدين يسع أمما وأمما ، وليس ديننا ضيق الصدر ، وسع ديننا منافق المدينة ، ووسع صدر رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي

ابن سلول ، وسعه وهو القائل في إحدى الغزوات كما سيأتي : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ، وسعه ولم يكدر صفو ابنه المسلم بقتله لهذا القول ، خيفة أن يقال : ان محمدا يقتل أصحابه ، دين واسع ، ولكن بعض الفرق الإسلامية تبيح قتل المسلمين تدينا لأنهم كفار في نظرهم ، نظريات خاطئة ، ونفوس ضائعة ، وعقول نائمة بالتقليد الأعمى ، وسع ديننا المنافقين فيه ، ووسع جميع الديانات أن تعيش تحت كنف دولة الاسلام ، ولكن الأمم الإسلامية العربية لم تقدر في القرون المتأخرة أن تعيش في دولة واحدة تباعدوا عن الحق وجهلا بالدين :

(٧) تفسير بسملة سورة التغابن

ولما كان مقام حفظ الدولة من النفاق قد جاء فيه ما يكفي لذوى الألباب أتبعه بسورة التغابن يراد بها استراحة القلوب وشرح الصدور بتذكير الناس بعوالم السموات والأرض المسبحات لربها فيها ، وتذكير الناس بالأمم الخالية ، والقرون الماضية ، وانذار بعضهم بالنار ، وتبشير آخرين بالجنات ، ثم إراحة الأفتدة بأن المصائب مقدرة في الأزل ، فعلى الناس أن يرجوا نفوسهم ، ولا يحملوها ما فوق طاقتها من الغم على ما فات ، لأنهم لا يد لهم في وقوعه ، فعلى الانسان إذن أن يصفح عن ذنوب أهله وذريته لأنهم مسخرون ، وقد جعلوا اختبارا له لينظر أيصبر ، فكما صبر رسول الله ﷺ على المنافقين في المدينة يجب على رب الأسرة أن يتحمل ما يصيبه في سبيل حفظ أسرته اقتداء بنبيه صلى الله عليه وسلم ، وليعف وليصفح .

(٨) تفسير بسملة سورة الطلاق

واذا طلق المسلمون أزواجهم ، فعلى المطلق ، وعلى القاضى ، وعلى سائر الحكام أن يكونوا عادلين في المعاملة ، وليلاحظوا النفقة والعدة ، وذلك رجوع الى نظام الأسرة اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ عامل أزواجه أمهات المؤمنين بالرفق واللين والشفقة ، فكما أن الله سمع قول المرأة التى تجادل في زوجها وتشتكى إلى الله .

(٩) تفسير بسملة سورة التحريم

هكذا هو سبحانه ألهم رسوله أن يكون قدوة في حفظ الزوجات والمعاشرة ، فأعرض عن إذاعة بعض الأسرار التى أذاعتها إحدى أمهات المؤمنين ، وضرب الله الأمثال لحسن المعاشرة في الدنيا والصبر على مضض المعاملة فيها بامرأة نوح إذ صبر عليها ، وكذا امرأة لوط ، فهذان مثالان ضربا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اطمئنانا لقلبه فيصبر على الزوجات كما صبر نوح ولوط ، وهكذا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون صبرتا فدخلتا الجنة ، فهذه الأمثال الأربعة المضروبة مثلا لدوام المعاشرة والصبر على المعاشرين وان كانوا كافرين أو منافقين رجالا ونساء ، وهكذا صبره ﷺ وحفظه لأهل بيته ، كل ذلك ليثبت به قواد المسلمين في معاشرة الأهل المذكورة في سورة التغابن : « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » . هذا نموذج لأهم المقصود بهذه السور التسع المتتابعات .

(١٠) تفسير بسملة سورة تبارك

ثم أتبعها بمعاشرتها ، وهى [سورة تبارك الذى بيده الملك] وأشار إلى ما قلناه كله في هذا المقام فقال في أولها « ليلوكم أيكم أحسن عملا » . فكأنه يقول : إن جميع ما تقدم من أحوال الأمم ، ونفاق بعض رجالها ، وشقاق نساءها ، وما يتبع ذلك ، كل هذا إنما جعلته اختبارا لكم وامتحانا ، وهنا أخذ يخرج بعقل المسلم

من ساحات الأرض الضيقة إلى ساحات السموات الواسعة ، ويشرح عالم السموات والأرضين ، والليل والنهار ، والجبال والجنات الواسعات في الدنيا وفي الآخرة ، وكذلك جهنم ترويحاً لفوس الناس ، وارشاداً إلى أن هذا هو المقصود الأتم من الحياة ، وما تقدم إنما هو مقتدمات ، وقد تقدم نظير هذا في (سورة البقرة) عند آيات الطلاق والخلع ونحوها . وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير بسملة سورة المجادلة وما بعدها إلى سورة تبارك ، وإنما فعلنا ذلك لأن الرحمة تقدم الكلام عليها كثيراً في هذا التفسير ، فاكثفنا هنا بذكر ملخص السور العشر مخافة التطويل . كتب صباح يوم الجمعة ٢٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥١ هجرية - الموافق ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٢ م والحمد لله رب العالمين .

القسم الثاني في احكام المظاهرة

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

روى أن خولة بنت ثعلبة ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت يا رسول الله : إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات أهل ومال حتى إذا أكل مالى وأفنى شبابي ، وتفرق أهلي ، وكبرسني ، ظاهرمني وقد ندم ، فهل من شيء تجمعني وإياه وتفتيني به ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : حرمت عليه ، فأعادت الكرة وهو يعاود الجواب حتى قالت : أشكو إلى الله فأقتي ووحدتي ، قد طالت له محبتي ، ونثرت له بطني ، وإن لي صبية صفاراً ، إن ضممتهم إلي جاعوا ، وإن ضممتهم إليه ضاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتستغيث وتشكو إلى الله ، فنزل هذه الآيات الأربع فقال لها صلى الله عليه وسلم : ادعي لي زوجك ، فقلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها) تجادلك : أي تخاصمك وتكلمك في شأن زوجها (وتشتكي إلى الله) تظهر ما بها من المكروه (والله يسمع تحاوركما) مراجعتكما الكلام (إن الله سميع) يسمع شكوى المضطر (بصير) بحاله (الذين يظاهرون منكم من نسائهم) الظهار أن يقول الرجل لامرأته : أنت علي كظهر أمي ، وألحق بالظهار الفقهاء كل جزء من أنثى محرم ، وهذا كان من أيمان الجاهلية (ماهن أمهاتهم) أي ما اللاتي يجعلوهن من زوجاتهم كالأمهات بأمهات : أي لسن بأمهاتهم (إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم) فلا تشبه بهن في الحرمة إلا من حكم الله بالحقن كالمرضعات وأزواج الرسول ﷺ (وانهم ليقولون منكراً من القول) لا يعرف في الشرع (وزورا) كذاباً (وإن الله لعفو غفور) لما سلف إذا تاب الإنسان منه (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) أي يعودون لتحليل ما حرّموا ، أو يعودون لنقض ما قالوا ، أولتداركه ، والعود للنقض أولتداركه أولتتحليل نتيجتها متقاربة ، وذلك إما بالسكوت عن الطلاق بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلقها فيه ، وإما بالندم فيرجع إلى الألفة بعد الظهار ، أو استباحة الوطء والملازمة والنظر بشهوة ، أو مجرد العزم على وطئها أو نفس الوطء ، والأول قول الشافعي ، والثاني قول ابن عباس ، والثالث قول أبي حنيفة ، والرابع قول مالك والخامس للحسن وقتادة وطاوس والزهري ، وهناك وجه سادس : أن الظهار كان في الجاهلية فالتلفظ به نفسه رجوع إلى حال الجاهلية ، ووجه سابع : أنه لا يقع الظهار إلا إذا كرّر لفظ الظهار ، والا لم يكن عود ، فإن لم يكرّر اللفظ فلا كفارة ، وهذا الأخير قول أهل الظاهر .

هذا ملخص الأقوال ، فإذا عاد المظاهر بعدم التلفظ بالطلاق ، أو بالندم ، أو بالعزم على الوطء ، أو بنفس الوطء إلى آخر ما تقدم (فتحرير رقبة) أي فالواجب عليهم إعتاق رقبة (من قبل أن يتماسا) أي أن يستمتع

كل من المظاهر والمظاهر منها بالآخر فيحرم عليه الاستمتاع قبل التكفير فلا جاع ولا اس شهوة ونحو ذلك (ذلكم) أي ذلكم الحكم بالكفارة (توعظون به) أي إن غلط الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا المظاهر ولا تعاودوه (والله بما تعملون) من التكفير وتركه (خير) ثم أخذ يذكركم من لم يقدر على الرقبة فقال (فن لم يجد) الرقبة (فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا) فإن أفطر بغير عذر فليستأنف ، وإن أفطر بعذر ففيه خلاف ، وإن جامع ليل عصى الله ، ولا ينقطع التتابع عند الشافعي ، وعند أبي حنيفة ومالك ينقطع التتابع (فن لم يستطع) الصوم لهم ، أو مرض مزمن ، أو شبق مفطر (فأطعم ستين مسكينا) ستين مقدا ، وهو رطل وثلاث مما يخرج في زكاة الفطر ، ويقول أبو حنيفة : يعطى كل مسكين نصف صاع من بر ، أو صاعا من غيره ، ولم يذكر التماس مع الطعام اكتفاء بذكره مع الآخرين (ذلك) البيان والتعليم للأحكام فرض (لتؤمنوا بالله ورسوله) أي لتصدقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم (ولكن حدود الله) لا يجوز تعديها (وللكافرين) الذين لا يقبلونها (عذاب أليم) في نار جهنم :

مسائل

- (١) من ظاهر من امرأته مرارا ، فالشافعي وأبو حنيفة يوجبان لكل مظاهره كفارة مالم يكن في مجلس واحد وأراد التأكد فتكون كفارة واحدة ، وأما مالك فجعل المظاهر في مجالس متفرقة ليس عليه إلا كفارة واحدة .
- (٢) يقول مالك رحمه الله : إن أراد التكفير بالطعام يجوز له الوطء قبله ، وعند غيره يحمل الطعام على غيره .
- (٣) إذا جامع قبل أن يكفر فعليه كفارة واحدة عند مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وسفيان ، وبعضهم يقول : عليه كفارتان . انتهى القسم الثاني من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث

في أحكام المجالس من النجوى والتفصح فيها ، ومناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ذم المنافقين وما يتبعه

قال تعالى (إن الذين يحادون الله ورسوله) يعادونهما ، أو يختارون حدودا غير حدودهما (كبتوا) أخزوا أو أهلكوا (ككابت الذين من قبلهم) من كفار الأمم الماضية (وقد أنزلنا آيات بينات) تدل على صدق الرسول وما جاء به (وللكافرين عذاب مهين) يذهب تكبرهم وعزتهم (يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا) الظرف متعلق بمهين (أحصاء الله) حفظ الله ما عملوا وأحاط به عددا لم يغيب منه شيء (ونسوه) لأنه كثير ، وهم به متهاونون (والله على كل شيء شهيد) لا يغيب عنه شيء .

الكلام على النجوى وأحكامها

قال تعالى (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض) الكليات والجزئيات (ما يكون من نجوى ثلاثة) ما يقع من أسرار ثلاثة : أي مسارة ومشاورة : أي ما من شيء يناجي به ثلاثة بعضهم بعضا (إلا هو رابعهم) بالعلم يعلم نجواهم كأنه حاضر معهم ومشاهدهم (ولا خمسة إلا هو سادسهم) وإنما خص هذه الأعداد لأن الله وتر يحب الوتر (ولأدنى من ذلك) ولأقرب كالواحد والاثني (ولأكثر) كالسنة فما فوقها (إلا

هو معهم) يعلم ما يجري بينهم (أئمتا كانوا) بالعلم والقدرة (ثم يفتهم بما عملوا يوم القيامة) اظهارا لذنوبهم ليفتضحوا ويحازوا (إن الله بكل شيء عليم) ثم إن اليهود والمنافقين كانوا يتناجون ويتقاضون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين فيظن المؤمنون أنهم يتناجون بما يسوءهم كأن يكون بلغهم خبر عن سرية هزمت أو كثر فيها القتل فيحزنون لذلك ، فنهاهم رسول الله ﷺ ثم عادوا لمثل ما نهوا عنه ، فهذا قوله تعالى (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان) وهو ذلك السر الذي كان بينهم لأنه يكون إما مكرا وإما كيدا بالمسلمين أو شيئا يسوءهم ، وهذان إثم وعدوان ، وقوله (ومعصية الرسول) أي يوصي بعضهم بعضا بمعصيته ﷺ (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) فقد كان اليهود يدخلون على رسول الله ﷺ ويقولون : السام عليك يا محمد ، والسام الموت ، والله يقول : « وسلام على عباده الذين اصطفى » و « يا أيها الرسول » و « يا أيها النبي » (ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله) أي يقولون فيما بينهم : لو كان نبيا لعاقبنا الله (بما تقول) من الاستخفاف به (حسبهم جهنم يصلونها) أي حال كونهم يدخلونها (فبئس المصير) المرجع جهنم .

ورد في حديث البخاري أن رهطاً من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك فقال : وعليكم ، فقالت عائشة : السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش اهـ

ثم خاطب الله المؤمنين فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) كما يفعل المنافقون (وتناجوا بالبر والتقوى) تخير المسلمين وعدم معصية الرسول (واتقوا الله الذي إليه تحشرون) فيما تأتون وتذرون (إنما النجوى من الشيطان) أي إنما النجوى بالإثم والعدوان منه فانه المزين لها والمحرّض عليها (ليحزن الذين آمنوا) أي إنما يزين الشيطان ذلك ليحزن المؤمنين ، وفي البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، فان ذلك يحزنه ، وهذه الجملة الأخيرة لأبي داود (وليس بضارهم شيئا) الضمير في ليس إما للتناجى وإما للشيطان (إلا باذن الله) إلا ما أراد الله تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فليكل المؤمنون أمرهم لله .

الكلام على التفسح في المجالس

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا) أي إذا قيل لكم توسعوا فيها وليفسح بعضكم عن بعض فوسعوا وتوسعوا ، وقد كانوا يتنافسون في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحبون القرب منه ، فكانوا إذا رأوا رجلاً مقبلاً قضاؤوا في مجلسهم ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض بقوله « فافسحوا » (يفسح الله لكم) فيما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق والصدور وفي الجنة . واعلم أنه لا فرق في هذا بين أن يكون المجلس في صلاة الجمعة ، أو في صف القتال ، أو في حلقة العلم ، أو الذكر وفي بعضها وردت أحاديث أسندت السبب إليها ، والآية أعم (وإذا قيل انشروا فانشروا) أي ارتفعوا عن مواضعكم حتى توسعوا لآخوانكم فارتفعوا (يرفع الله الذين آمنوا منكم) بامتنال أو امره (والذين أوتوا العلم) والعالمين منكم خاصة (درجات والله بما تعملون خبير) وهذه الدرجات في الدنيا بالرتبة والشرف ، وفي الآخرة في الجنة ، فكان ابن مسعود إذا قرأها يقول : يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبنكم في العلم ، وقال صلى الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » وعنه صلى الله عليه وسلم أيضاً : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » .

وورد أن سليمان خير بين العلم والمال والملك ، فاختر العلم ، فأعطى المال والملك معه ، وورد أيضاً : أوحى

الله إلى ابراهيم عليه السلام : يا ابراهيم إني عليم أحب كل عليم . ثم ان في قوله « انشروا » تفسيراً آخر : أي اذا قيل لكم انهضوا إلى الصلاة ، وإلى الجهاد ، وإلى كل خير ، فانهضوا ولا تقصروا عنه ، وقوله « والله بما تعملون خير » تهديد لمن لم يمثل الأمر .

حكم مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) أي فتصدقوا قدامها ، شبهت النجوى بمن له يدان على سبيل الاستعارة المكنية ، وذلك فيه [أمران : الأول] اعظام مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فان الانسان اذا وجد الشيء بمشقة استعظمه ، واذا ناله عفوا وبسهولة احتقره [والثاني] نفع الفقراء ، وذلك أن أهل اليسرة منهم كانوا يكثر من المناجاة معه صلى الله عليه وسلم دون الفقراء حتى تأذى بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالصدقة قبل أن يتناجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم (ذلك) أي الصدقة (خير لكم) من الامساك (وأطهر) لقلوبكم من الذنوب ، وأطهر لقلوب الفقراء (فان لم تجدوا) الصدقة يا أهل الفقر فتكلموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما شئتم بعد التصديق (فان الله غفور) متجاوز لذنوبكم (رحيم) لمن ناب منكم ، وهذه تفيد طلب الصدقة من الأغنياء دون الفقراء قبل المناجاة ، قيل انهم يتصدقون لكل كلمة بدرهم ، ومع الاختلاف فيها أهي للندب أو الوجوب نسخت بآية « أأشفقتم » الآية ، وعن علي رضي الله عنه : « ان في كتاب الله آية ما عمل بها أحد غيري ، كان لي دينار فصرفته فكنت اذا ناجيته تصدقت بدرهم » وقوله (أأشفقتم) أي أبخلتم وخفتم العيلة والفاقة ان قدمتم ، وهذا هو قوله (أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فاذ لم تفعلوا) ما أمرتم به (وتاب الله عليكم) تجاوز عنكم ونسخ الصدقة قبل المناجاة بعد عشريال ، وإذ بمعنى ان (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله) فيما امر ونهى (والله خير بما تعملون) فهو محيط بأعمالكم ونياتكم .

الكلام في المنافقين

قال تعالى (ألم تر إلى الذين تولوا والوا) (قوما غضب الله عليهم) وهم اليهود (ما هم منكم ولا منهم) لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك ، ولولا النفاق لم يوالوا اليهود المغضوب عليهم (ويحلفون على الكذب) وهو ادعاء الاسلام (وهم يعلمون) أنهم كاذبون . روى أنه صلى الله عليه وسلم كان في حجرة من حجراته فقال يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار ، وينظر بعين شيطان ، فدخل عبد الله بن نبتل المنافق ، وكان أزرق فقال صلى الله عليه وسلم له : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ خلف بالله ما فعل ، ثم أمر أصحابه خلفوا ، فنزلت (أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون) فتمرتوا على سوء العمل وأصرّوا عليه (اتخذوا أيمانهم جنة) وقاية دون دماءهم وأموالهم (فصدّوا عن سبيل الله) فصدّوا الناس عن الايمان بدين الله بتبسيطهم وتحريشهم (فلهم عذاب مهين) ذكر العذابين : الأول للقبر ، والثاني عذاب الآخرة (لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) تفسيره واضح مما سبق في التفسير (يوم يبعثهم الله جميعا) الظرف متعلق بقوله « لن تغني » (فيحلفون له كما يحلفون لكم) لأن الأخلاق تلازم الانسان في الآخرة كما كانت ملازمة له في الدنيا (ويحسبون أنهم على شيء) في حلفهم الكاذب ، ذلك أنهم لاعتيادهم رواج الأيمان الكاذبة في الدنيا وخدعهم يظنون أن الله كذلك تروج عنده الأيمان الكاذبة (ألا إنهم هم الكاذبون) البالفون غاية الكذب (استحوذ عليهم الشيطان) استولى عليهم ، يقال حذت الإبل وأخذتها اذا استوليت عليها (فأنساهم ذكر الله) لا يذكرونه بقلوبهم ولا بالسنة

(أولئك حزب الشيطان) جنوده وأتباعه (ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) وأي خسر أعظم من أن يموت عليهم النعيم الأبدى (إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلين) أي في جملة من يلحقهم الذل في الدنيا والآخرة ، فإذا كانت عزة الله لانهائية لها فذل أعدائه عظيم (كتب الله) في اللوح المحفوظ وأبرز آثاره في نظام العالم أن يغلب هو ورسله ، وهذا قوله تعالى (لأغلبن أنا ورسلي) ففهم من ألقنه الحجة فيغلب بها ، ومنهم من أعطيه القوة فيغلب بالسيف ، لأنه لا يبقى في الوجود إلا ما هو أصلح له وأنفع (إن الله قوي) فهو ينصر أنبياءه (عزيز) غالب أعدائه (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله) فاذن إيمان المؤمنين يفسد بموادّة الكافرين ، ومن كان مؤمنا حقا لا يوالى كافرا ، لأن من أحبّ أحدا امتنع أن يوالى عدوه . واعلم أنه ليس في مخالطتهم ومعاشرتهم محذور ، إنما المحذور مناصحتهم وإرادة الخير لهم دينا ودنيا مع كفرهم ، قال تعالى مبالغا في زجر موادّتهم (ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) فهو لاء وإن كان الميل لهم أمرا طبيعيا يجب أن يقاوم هذا الميل لكفرهم . ومن ذلك أن حاطب ابن أبي بلتعة كتب إلى أهل مكة كما سيأتي في (سورة المتحنة) بالمناسبة فنهى عن ذلك بهذه الآية هو وأمثاله (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان) أثبتة فيها (وأيدهم روح منه) من عند الله ، وهو نور القلب والنصر والإيمان والقرآن (ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه) ولا جرم أن رضوان الله بعد دخول الجنة أعظم من الجنة (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) أي الفائزون . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما »
- (٢) في قوله تعالى : « أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات » .
- (٣) في قوله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي » .
- (٤) في قوله تعالى : « لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله » .

اللطيفة الأولى والثانية

اعلم أن هذه السورة كالمتمة لسورة الحديد ، وكالفصلة لبعض ما فيها ، ذلك أن الله قال في أواخر سورة الحديد « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » وقد تقدم أن الآية تفيد أن الله تعالى أعطى أنبياءه العدل ، وأعانهم بالقوة المادية ، فيستعملون القهر بالسيف والرح عند الاقتضاء ، فهنا أمران : قانون ونظام نام في الدولة ، وجيش وسلاح يحافظ على ذلك النظام ، فاذن لابد من شريعة وقضاة وحكام ، ثم لابد من جند ودفاع وشرطة يحملون السيوف ليحافظوا على الأمن في الداخل ، ويصدوا العدو من الخارج ، وهذا كل النظام ، ولا ريب أن من يعطى هذه القوة فليس هناك من قوة فوق قوته ، ولا راد لقضائه ، وعلى الناس أن يسمعوا ويطيعوا وليس ذلك للأنبياء وحدهم ، بل إذا ولي عليهم عبد حبشي وخاطبهم بالقانون ورفع السيف فوق رؤوسهم وجب عليهم أن يطيعوه ، فلما كان ذلك مقتضى القانون وقوة السيف جعل الله سورة قد سمع بعد ذلك ليبين أن من الحوادث ما يقبل الأخذ والرد ، ومراعاة الجمهور ، وحفظ القلوب ، ألا ترى أن الله سمع قول امرأة شكت إلى الله ضياع عيالها عند أبيهم وجوعهم عندها فما أسرع أن نزل الوحي بماسر قلبها ، هكذا لما نزلت آية المناجاة وظهر أن ذلك فيه صعوبة عليهم نزلت الآية بعدها لفسخ ذلك الأمر ، والمقصود من هذا

أن الله عز وجل يعلم الحكام كيف ينظرون في أمر رعاياهم ، فإذا أصدروا أمرا فليبحثوا في أمر الرعية فإن وجدوه قد أخرجهم وشق عليهم فلا عار عليهم إذا رجعوا عنه فإن في ذلك المصلحة العامة للحكام والمحكومين ، جاء في آخر ﴿سورة الحديد﴾ : « وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » فأراد أن يعلم حكام المسلمين هذه الرأفة والرحمة ، ويقول : إذا أمرتم بأمر ترون فيه مصلحة الجمهور ، ثم تعسر تنفيذه على الرعية فلا ترهقوهم من أمرهم عسرا ، ولا تجعلوا القوة التي خولتكموها من السيف والجيش الحافظين للقانون عسفا بالناس وظلما لهم ، بل كونوا ذوي رأفة ورحمة كما جاء في آية أخرى : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » فهذا من العفو عنهم ، جاء من طريق الوحي ، أن القرآن إنما نزل ليعلم الناس ، وهذا من أعظم التعاليم ، ولذلك تجد الأمم العظيمة تراعى مصالح الجمهور ، بل انهم زادوا على ذلك أنهم جعلوا البلاد تحت أمر نوابهم المنتخبين من تلك البلاد ، فكان الله يقول : أيها الحكام المسلمون : إذا كنت أنا الذي نسخت آية الصدقة بآية أخرى وليس بينهما إلا عشر ليال ، وأنا العليم بكل شيء ، وأعلم أني سأنزل الآية ، وأنها ستشق عليهم ، وأني سأنسخها ، وأنكم ستقولون : اثبات الاتفاق ونفيه معناه أنه لا فائدة في هذه الآيات التي شغلت بها هذه السورة ، وإذا كان الله يعلم كل شيء فما أجدره أن لا يأمر ولا ينهى توفيراً للزمن ، وهو بكل شيء عليم ؟ وكأنه تعالى يقول : أنا أعلم أنكم تقولون ذلك ، ولكني فعلت ذلك وأثبت الآيتين تعالما لكم حتى تهجوا نهج الكمال وحفظ قلوب الرعية ، ولا تكونوا كالفرنجية الذين يضربون المسلمين بالمدافع في شمال إفريقيا وفي الهند إذا عصوا لهم أمرا ، إن ذلك مما يزيل ملكهم سريعا ، فلذلك علمتكم بهذه الآيات كيف تحفظون القلوب وتحافظون على الدولة . هذا هو السر في جعل هذه السورة بعد سورة الحديد . انتهى الكلام على اللطيفتين ، الأولى : والثانية . والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز

اعلم أن القانون المسنون في هذه الدنيا ، وفي نظام البرية أن من عمل عملا لمصلحة عامة وكان جديرا بها فإن الله يساعده ويحفظه ، ويخلصه من المصائب ، وإذا أصابه مكروه فذلك لرفعة شأنه وزيادة معونته لتقوى روحه على ذلك الأمر العظيم ، فلتجرب ذلك أيها الذكي ، بل ليكن استدلالك على صحة الدين بمثل هذا ، فذلك هو البرهان على صدق النبوة ، ففكر فيما أقول وقم بنصيبك من منفعة الانسانية بشرط أن تكون قادرا عليه ، وثابر بجد على ما تقدر عليه من نفع المسلمين أو بقية النوع الانساني ، فانك تجد الله معك في كل حركة وكلمة ، لا يفوتك ولا يتركك ، فان وجدت الأمر كما ذكرت لك بان لك صدق قوله تعالى : « لأغلبن أنا ورسلي » ، وكلما كان العمل أعم كان نظر الله للعامل أتم ، وكلما كان العمل أضعف كانت المساعدة على مقتضاه .

وكم من مسلم يتصدق على من يقدر على العمل ويظن أنه يفعل حسنا ، وكم من مؤمن يكتب على عمل مبرور كالخج ، أو الصلاة ، أو الصيام ، ويظن أن المبالغة في ذلك العمل هي كل شيء ، والحق أن الاسلام أمر أعم مما يظن هؤلاء ، الاسلام بوجب أن يقوم الناس بالآداب النفسية ، والأعمال الجسمية ، ومساعدة الناس ما استطاعوا لذلك سبيلا ، ومن قصر أو اقتصر على بعض ذلك فهو مذنب متى كان له قدرة على ما هو أعظم وهي المنافع العامة للمسلمين ، أول العالمين ، لأن الله رب كل شيء ، وأقرب الناس إليه من كان خيره أعم هذا معنى : « لأغلبن أنا ورسلي » فهذا فليعرف الناس صدق الأنبياء عملا لاسماعا على شريطة أن يلاحظوا ما كتبناه . وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله الخ
اعلم أن الله كرّر هذه الآيات في سور كثيرة ، وجعل الوعيد شديدا على من والى الأعداء ، وذلك هو
مصيبة الاسلام اليوم ، إن الأمة الاسلامية اليوم أصبحت في أخريات الأمم ، وأبنائها في شمال افريقيا وفي
مصر وغيرها يوالون الفرنجة وينصرونهم على أبناء جنسهم ، ذلك داء عضال قد استحکم ، وقد كررنا أن
هذه الأمة سيزول منها هذا الشر المستطير ، وتأخذ حظها بين الأمم في زمن قريب . انتهت اللطيفة الرابعة .
والى هنا تم الكلام على سورة المجادلة ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الحشر

هي مدنية

آياتها ٢٤ — نزلت بعد البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا وَظَنُّوا
أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ
كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ
تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ * وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ
مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا
آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا
وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ
يَجِبُ أَنْ يَنْصُرُوهُمْ وَلَا يُجَادُوا فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ
بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا
وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ
مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولُنَّ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ * لَأَنْتُمْ
أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَا يِقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا
إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جَدْرٍ بِأَنَّهُمْ يَتَنَبَّهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا أَمْوَالٍ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ * لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ * لَوْ
أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّقًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ
نَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ
الْمُزِيلُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى * يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

هذه السورة ثلاثة اقسام

- (١) في ذكر غلبة الله ورسوله لأعدائه في قوله : « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب » إذ أخرجوا من ديارهم وأخذ منهم الفى وما يتبع ذلك من أول السورة إلى قوله : « ربنا انك رؤوف رحيم »
- (٢) في ذكر أخلاق المنافقين ، وأنهم هم وأهل الكتاب الذين نافقوا لهم مغلوبون على أمرهم كمثل أهل بدر ، أو بنى قينقاع ، وكمثل الشيطان الذي يغتر الإنسان ثم يتبرأ منه من قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون » إلى قوله « وذلك جزاء الظالمين » .
- (٣) في ذكر نصائح للمؤمنين ، واعظام أمر القرآن ، ووصف الله بأوصاف الجلال والجلال ، لأن هذا هو المقصود من هذه الحياة من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خير بما تعملون » إلى آخر السورة .

القسم الأول من السورة

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أن الله لما ذكر سورة المجادلة وكانت ترجع إلى أحكام شرعية ، وتقرع للمنافقين ونحو ذلك ، وأعقبها الله بهذه السورة ، وكانت في جللتها تشبه سابقها ، ولم يكن في ذلك ذكر الله الذي هو المقصود الأعظم ابتداء هذه السورة وختمها بالنسب ، وبذكر أوصافه تعالى حتى يكون القارئ متذكرا أوصافه العالية ، سبحانه ، وهذا قوله (سبح لله ما في السموات وما في الأرض) باللسان وبالقلب من غفلانهم ، فأما غيرهم فلبسان الحال بحيث يدل كل مخلوق على أن صانعه منزّه عن المادة ولواحقها ، وأن كل مخلوق منقاد له ، يتصرف فيه وينفذ فيه أمره كيف يشاء ، فجميع أجزاء السموات والأرض فيها هاتان الدالتان : ترفع فاعلهما وتنزهه ، وانقيادها له وخضوعها (وهو العزيز) القاهر لكل مخلوق ، الغالب من حاد عن الجادة (الحكيم) فيما يصنعه . روى أن هذه السورة نزلت بأسرها في بني النضير ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة صالح بنو النضير رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا عليه ولالة ، فلما ظهر يوم بدر قالوا هذا النبي الذي جاء نعتة في التوراة ، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبا إلى مكة خلف أبا سفيان عند الكعبة ، فأمر صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعبا غيلة ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الجيش إليهم فحاصروهم إحدى وعشرين ليلة ، وأمر بقطع نخيلهم ، فلما قذف الله الرعب في قلوبهم طلبوا الصلح ، فأنى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ماشاءوا من متاعهم فجاءوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعاء ، ثم إن عبد الله بن أبي سؤل قبل ذلك قال لهم هو وأصحابه لا تخرجوا من حصنكم ، فإن قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم ، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم ، فخصنوا الأزقة ، وبعد ذلك أرادوا مكيدة فكشف أمرها ، فخرج إليهم صلى الله عليه وسلم مع الجيش وحاصروهم كما تقدم ، وهذا قوله تعالى (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) أي في أول حشرهم : أي جمعهم من جزيرة العرب ونفيهم إلى الشام ، وآخر ذلك الحشر أجلاء عمر إياهم من

خير إلى الشام ، وكان هؤلاء من سبط لم يصيبهم جلاء قط ، وهم أول من خرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب ، والخشر اخراج جمع من مكان إلى آخر (ما ظنتم أن يخرجوا) لشدة بأسهم ومنعتهم (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) أي أن حصونهم تمنعهم من بأس الله (فأناهم الله) عذابه وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء (من حيث لم يحتسبوا) وهو أن الله أمر نبيه ﷺ بقتلهم واجلائهم ، وكانوا لا يظنون ذلك (وقذف في قلوبهم الرعب) الخوف الشديد بقتل سيدهم كعب بن الأشرف (يخرجون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين) فأنهم كانوا ينظرون إلى الخشب في منازلهم فيهدمونها ، وينزعون ما استصوبوه منها فيحملونه على إبلهم ، ويحرب المؤمنون باقيها ، ويقلمون العمود ، وينقضون السقوف ، وينقبون الجدران ، لئلا يسكنها المؤمنون حسدا منهم وبغضا (فاعتبروا يا أولى الأبصار) أي فاعتظوا بحاطم فلا تغدروا ، ولا تعتمدوا على غير الله ، وهذه الآية استدلت بها على ربح الدين الاسلامي ، وهو القياس ، وأنه حجة من حيث أنه أمر بالمجازاة من حال إلى حال ، وجعلها عليها في حكم لما بينهما من المشاركة المقضية له (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء) الخروج من أوطانهم (لعذبهم في الدنيا) بالقتل والسبي كما فعل بيني قريظة (ولهم في الآخرة عذاب النار) سواء أجاؤا أم قتلوا (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) . ولما نزل صلى الله عليه وسلم بنى النضير وأمر بقطع النخل ، قالوا : قد كنت يا محمد تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ فوجد المسلمون في أنفسهم من قوطم وخشوا أن يكون ذلك فسادا في الأرض فقطع بعضهم ، وقال بعضهم : لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله عليكم ، وقال الآخرون : بل نقيظهم ، فنزلت هذه الآية بتصديق من نهى ، وبتحليل من قطع ، وهي (ما قطعتم من لينة) أي أي شيء قطعتم من لينة ، والليننة النخلة السكرية ، والجمع ألبان (أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) فبأمره : أي فقطعها وتركها بإذن الله ، وإنما أذننا في ذلك و قطعتم بأذننا النخل لنظهر البلاد منهم (وليخزي الفاسقين) على فسقهم بما غاظهم (وما أفاء الله على رسوله) أي ما أعاده عليه ، وصيره إليه ، أورده إليه ، لأنه أولى به ، لأن الصالحين في الأرض أولى الناس بما فيها (منهم) من بنى النضير (فما أوجفتم) أي فما أجريتم على تحصيله ، والوجيف سرعة السير (عليه من خيل ولا ركاب) والركاب ما يركب من الإبل ، غلب فيه كما غلب الراكب على راحته وذلك أن قري بنى النضير كانت على ميلين من المدينة ، فمشوا إليها رجالا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه ركب جلا ، أوجارا ، ولم يكن ليجرى معهم عظيم قتال (ولكن الله يسلط رسوله على من يشاء) بقذف الرعب في قلوبهم (والله على كل شيء قدير) فهو يسلط ظواهر الأسباب تارة وبواطنها أخرى .

ولما تم الكلام على جلاء بنى النضير وعلى فيهم أعقبه بالكلام على مصرف هذا النية فقال سبحانه (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) أي من أموال كفار أهل القرى كقريظة والنضير وفدك وخيبر (فله وللرسول ولذي القربى) وهم بنو هاشم وبنو المطلب (واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) أي إنما حكمنا بذلك وجعلناه لهؤلاء المذكورين لئلا يكون النية الذي حقه أن يعطى للمذكورين ليعيشوا به متداولين بين الأغنياء دائرا بينهم كما كان في الجاهلية يتكاثرون به ، والدولة ما يدول للانسان : أي يدور من الجدة والحظ (وما آتاكم الرسول فخذوه) أي ما أعطاكم من قسمة غنيمة ، أوفىء فاقبلوه (وما نهاكم عنه فانتهوا) أي ما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه ولا تطلبوه (واتقوا الله) أن تخالفوه وتهاونوا في أمره (إن الله شديد العقاب) لمن خالف رسوله ﷺ ، وليست الآية خاصة بالنبي فنعن مأمورون أن يتبعه في كل شيء أمرا ونهيا ، ثم أبدل من « لذي القربى » وما بعده قوله (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم) فان كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم (يبتغون فضلا من الله

ورضوانا وينصرون الله ورسوله (بأنفسهم وأموالهم) أولئك هم الصادقون (الذين ظهر صدقهم ، ثم عطف على المهاجرين قوله (والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم) وهم الأنصار ، فهم لزموا المدينة والايمان وتمكنوا فيهما من قبل هجرة المهاجرين (يحبون من هاجر إليهم) ولا يثقل عليهم (ولا يجدون في صدورهم) في أنفسهم (حاجة) ما تحمل عليه الحاجة من الطلب والحسد والحزاة والغيط (مما أوتوا) مما أعطى المهاجرون من النى وغيره (ويؤثرون على أنفسهم) أى ويقدمون المهاجرين على أنفسهم ، حتى ان من كان عنده امرأتان نزل عن واحدة وزوجها من أحدهم (ولو كان بهم خصاصة) أى فاقة (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) الفائزون بالثناء العاجل ، والثواب الآجل .

روى أن عمر رضى الله عنه قرأ : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى » حتى بلغ « للفقراء المهاجرين » إلى قوله : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » وهى الآية الآتية ، ثم قال هذه قد استوعبت المسلمين عامة ، قال : وما على وجه الأرض مسلم إلا وله في هذا النى حق إلا ما ملكت أيمانكم .

وللشافى قولان : أحدهما أن النى للمقاتلة ، والثانى وهو الأنسب بالآية لمصالح المسلمين ، ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من مصالح المسلمين ، وأكثر العلماء أنه يصرف جميعه لجميع المسلمين كما هو قول عمر ، وأحد القولين عند الشافى ، قال تعالى : (والذين جاءوا من بعدهم) عطف على المهاجرين ، ودخل في هذا النى كل من هو مولود إلى يوم القيامة في الاسلام : أى وذلك من العطف المذكور على المهاجرين كما تقدم عن عمر (يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) أى لاخواننا في الدين السابقين ، وهم المهاجرون والأنصار ، وهذا خبر بمعنى الأمر ، أمر الذين جاءوا بعد الصدر الأول أن يستغفروا لهم ، قالت عائشة رضى الله عنها : أمروا بأن يستغفروا لهم فسبوهم (ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا) أى حقدا لهم (ربنا إنك رؤوف رحيم) ختم بقية بنا أن نجيب دعائنا . انتهى الكلام على القسم الأول من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثانى

في ذكر أخلاق المنافقين ، وأنهم هم وأهل الكتاب الذين نافقوا لهم مغلوبون على أمرهم
كمثل أهل بدر أو بنى قينقاع ، أو كمثل الشيطان الذى يغر الانسان ثم يتبرأ منه

ولما أتم الكلام على بنى النضير وعلى تقسيم النى أعقبه باتمام الكلام على ما حصل من المنافقين قبل الجلاء كما تقدم في التفسير قريبا من مناصحة عبد الله بن أبى سؤل لليهود هو ومن معه ، وقوله لهم : « لئن أخرجتم لنخرجن معكم » الخ فقال (ألم تروا إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) أى الذين بينهم وبينهم اخوة الكفر والصداقة والموالة (لئن أخرجتم) من دياركم (لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم) في قتالكم وخذلانكم (أحدا أبدا) أى من رسول الله والمؤمنين (وإن قوتلتم لننصرنكم) لنعاوننكم (والله يشهد إنهم لكاذبون) لعلهم بأنهم لا يفعلون ذلك ، وهو قوله (لئن أخرجوا لا يخرجون معهم) ولئن قوتلوا لا ينصرونهم) وهذا هو الذى كان ، فانهم أخرجوا من ديارهم وما خرجوا معهم ، وتوجه المسلمون لقتالهم فلم يدافعوا عنهم (ولئن نصروهم) على الفرض والتقدير (ليوان الأدبار) منهزمين (ثم لا ينصرون) أى ينهزم اليهود ثم لا تنفعهم نصرة المنافقين (لأنتم أشد رهبة) أى أشد رهوبة (في صدورهم من الله)

فلذلك يظهرون لكم في العلانية خوف الله وأتم أهيب في صدورهم منه (ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) لا يعلمون الله وعظمته حتى يخشوه حق خشيته (لا يقاتلونكم) أي اليهود والمنافقون (جميعا) مجتمعين (إلا في قرى محصنة) بالدروب والخنادق (أو من وراء جدر) لفرط رهبتهم (بأسهم بينهم شديد) أي أن البأس الشديد الذي يوجفون به إماما هو إذا حارب بعضهم بعضا ، ولو قاتلوكم لم يبق ذلك البأس والشدة ، لأن من حارب الله ورسوله يجبن (تحسبهم جميعا) مجتمعين متفقين (وقلوبهم شتى) متفرقة لا ألفة بينهم لا فراق عقائدهم ، واختلاف مقاصدهم (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) مافيه صلاحهم ، ولا يعلمون أن تشتت القلوب يوهن القوى ويضعفها . ثم قال : مثل اليهود (كمثل الذين من قبلهم) أي كمثل أهل بدر ، أو كمثل بني قينقاع (قريبا) أي في زمان قريب ثم بين ذلك فقال (ذاقوا وبال أمرهم) أي سوء عاقبة كفرهم في الدنيا (ولهم عذاب أليم) في الآخرة ، ومثل المنافقين مع بني قريظة حيث خذلوهم (كمثل الشيطان) مع الإنسان (إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين) فهؤلاء المنافقون فعلاوا مع اليهود كما فعل الشيطان مع الإنسان ، إذ يستغويه بكيد ثم يتبرأ منه ، ومن هذا الاستغواء أنه استغوى قريشا يوم بدر وقال : « لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم » الخ (فكان عاقبتهما) أي عاقبة الإنسان الكافر والشيطان (أنهما في النار خالدن فيها وذلك جزاء الظالمين) وهذا القول يدخل فيه ما ذكر من استغواء الشيطان للكفار يوم بدر . وماروى عن برصيصا الراهب الذي حكى أنه كان كثير العبادة ، ثم أغواه الشيطان أن يتعلم الاسم الأعظم الذي تجاب به الدعوات ، ثم تكاثرت عليه الناس ، وأخيرا أتوا له بأجل فتاة ليقوم بأمرها ، فأبى أولا ، ثم أخذ يدعو الله لها وهي تشفى كلما مرضت بدعائه ، ثم إن الشيطان سؤل له فواقعها ، فحملت منه ، ثم أغواه أن يقتلها ويدفنها ، ثم جاء إلى اخوتها في المنام فأخبرهم ، فوجدوها مدفونة ، فهدتوا صومعة برصيصا وقتل الملك ذلك الراهب ، وانهى الأمر ، وهذه الحكاية وإن كانت من أقاصيص بني إسرائيل فهي ذات مغزى يناسب ما نحن فيه وإن لم تكن حقيقية .

فانظر كيف فعل المنافقون بالمدينة مع اليهود ما شاهدته كل يوم من أعمال الناس يضل بعضهم بعضا ويفترونهم ثم يتركونهم ، وهذا العمل بعينه هو الذي يفعله أمم أوروبا الآن ، ألم تر أنهم فتحو مدارس في بلاد سوريا وأظهروا أنهم خلقوا الرقي الأمم واسعادها وأن الله خلقهم لذلك ، وأذاعوا العلوم والمعارف ، واشتاق الشبان والشيخوخ لذلك الشعب الفرنسي النافع للإنسانية ، وكانت نساؤهم تمنى أن يشاهدوا هؤلاء الرافعين للإنسانية ، فلما كانت الحرب الكبرى أخذوا تلك البلاد ، وأخذوا يذيقونهم سوء العذاب ، ويوقعون بهم النكال .

اللهم إن فعل المنافقين مع اليهود ، وفعل الشيطان مع برصيصا العابد هو الذي نشاهده كل يوم من أوروبا ، إن الله أنزل هذا القرآن ليبين للمسلمين وجوه النفع ، يقرأ بعض المسلمين هذه الآيات فيقولون في أنفسهم « تلك أمة قد خلت » وأي شيء المنافقون ويهود بني النضير ؟ لقد ماتوا ، ومن هو برصيصا الراهب وشيطانه الذي هو من أقاصيص بني إسرائيل ؟ نقول لهم هذا هو الذي ترونه كل يوم ، إن الشيطان الذي ظهر لبرصيصا في تلك الحكاية كان يتظاهر بالصلاة ، فلا يزال يصلي أربعين يوما ولا ينفلت من صلاته ، فظن برصيصا أنه أحسن منه ، فلما لقنه الدعوات قبلها ، وكان قبوله للدعوات سبب وقوع الفتنة عنده .

إن هذه حال أوروبا الآن حرفا بحرف ، يتظاهرون بالمدينة ، ويفتحون المدارس ، ويقولون نمذّن الشعوب ، ونزقي الجنس البشري ، ثم هم في الوقت نفسه يمتصون دماء الشعوب ، ويقتلون الأمم ، وبيتزون المال ، ويجعلون الناس طعمة لهم ، وفاكهة وأبا ، متاعا لهم ، وتقوية لشهواتهم وفسوقهم .

ومن هذا القليل ما قاله [غاندى] الحكيم الهندي في زماننا مامعناه : « إن الشيطان يفلح في إضلال الناس إذا ظهر وفي فقه ذكر الله » .

فهذا كمثل قصة برصيصا الكاهن ، فهذه الآيات يجب على المسلمين أن يتذكروها ، ويؤلفوا رسائل سياسية تناسبها بالفاظ وأمثال يفهمها الناس ، وفي كتاب « كليلة ودمنة » من الأمثال ما فيه مقنع ، لأنه كتاب كله سياسة ، فانظره إن شئت . وإلى هنا تم الكلام على القسم الثاني من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث

في ذكر نصائح للمؤمنين ، واعظام أمر القرآن ، ووصف الله تعالى بأوصاف الجلال والجمال لأن هذا هو المقصود من هذه الحياة

ولما تم الكلام على أخلاق الغالين من المنافقين والضالين ، وحذر من أفعالهم ، شرع ينصح المسلمين بلزوم التقوى فقال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وانتظر نفس ما قدمت لغد) ليوم القيامة ، وانما سماه غدا لدنوه وقربه ، أو اقرب ما يدل عليه من عذاب الدنيا وعذاب القبر (واتقوا الله) تكريره للتأكيد (إن الله خير بما تعملون) وهذا وعيد (ولانكونوا كالذين نسوا الله) نسوا حقه (فأنساهم أنفسهم) أى أنساهم حظوظ أنفسهم فلم يقدموا لها خيرا ينفعها ، ولم يدرسوها ويعرفوا العالم حولها حتى يفتنوا لها (أولئك هم الفاسقون) الكاملون في فسوقهم (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) وهم الذين كملت نفوسهم فدخلوا الجنة ، والذين استمهنوها فاستحقوا النار (أصحاب الجنة هم الفائزون) بالنعيم المقيم .

إن الآيات المتقدمة فيها عبر وأمثال ، ومنها قوله : « كمثل الشيطان » وقوله « كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم » فإن ذلك رمز إلى ما ذكرناه من الخداع النفوس الانسانية بشياطين الإنس تارة وبشياطين الجن تارة أخرى ، ألا ترى أن وعد المنافقين بالمدينة لليهود ، ووعد الشيطان لأهل مكة يوم بدر مثالان ينطبقان على كل ما ابتلى به الناس في هذه الدنيا ، إن الناس لأعذاب عليهم ولاشقاوة إلا من جهة الجهل ، فالجهل هو الباب الواسع الذى فتح لهذا الإنسان فأوقعه في الشقاء . والاضلال والاغواء لا يخرجان عن أمرين : إما أن يكونا بلسان الأحياء من بنى آدم ، وإما أن يكونا بهواجس في نفوسنا ، وآراء داخل قلوبنا ، وهذا منسوب لشياطين الجن :

- (١) فالشره في الطعام الذى يعقبه المرض .
- (٢) والبخل بالمال الذى يعقبه كراهة الناس .
- (٣) والخوف من الموت الذى يورث الجبن فيقبحه قهر الأعداء .
- (٤) والاسراف في المال الذى يقبعه الفقر .

كل ذلك من آراء من داخل النفس ، فهى شيطانية من شياطين الجن أو الهوى أو النفس ، وإما من خارجها فهى من شياطين الإنس ، وأعم الأمور وأهمها فى أيامنا الحاضرة ما ابتلى به المسلمون من ضحك الفرنجة عليهم ، وابتلاهم إياهم بالأنسجة المزخرفة ، والصناعات الجميلة ، والنساء البهيات الطلعة ، واستغواهم إياهم تارة بالماديات ، وتارة بالمعنويات ، كأن يعلموهم فى مدارسهم ، ويفشون على عقولهم ، ويقولون لهم : نحن ننشر المدنية والحرية حتى إذا ما أناموا العقول ، وابتزوا الأموال ، وأصبح الشرقى كأنه منوم [بالفتح] تنوعا مغناطيسيا انقضوا على البلاد فأورثوها النكال والبوار ، وجروا عليها الخراب ، وورثوا أرض المسلمين

وديارهم ، فهذا من الأمثال المضروبة في هذه السورة : « كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين » .

إن الأوروبي لا يقول للشرقي اكفر ولكنه يقول له : دع الامور القديمة ، واعلم أن الديانات أصبحت لاقيمة لها ، ويغضرنه في عادات آياته وأجداده ، ويحقرون ذلك في عينيه ، وهكذا ينقضون عزائمهم حلقة حلقة حتى ينخلع من وطنه ودينه وهولاء يشعر ، فإذا جاء دور الاحتلال ، وأخذ البلاد ، أصبح ذلك المفتون بهم فيمن شملهم الذل « ولات حين مناص » .

ذلك هو الذي صنعه الاسبانويون في بلاد الأندلس ، وهو الذي استمر بعد ذلك في مصر وسوريا وشمال افريقيا ، دخل الفرنجة بلادها وكان دخولهم أشبه بالحكاية المنقولة عن بني اسرائيل التي ابتدعوها كضرب الأمثال من باب الاستعارة التمثيلية ، وقد أشرنا إليها فيما تقدم ، فإن الشيطان المسمى بالأبيض الذي أرسله إبليس لاضلال برصيصا الراهب فيما يزعمون هم العلماء في الكليات في أوروبا ورجال الدين ، ثم إن حضور الأبيض في صوفاة برصيصا واطهاره العبادة والصلاة والصيام حتى صار لا يأكل إلا كل أربعين يوما صرّة أشبه بما يقوله أرائك العلماء الأوروبيون ورجال الدين في المدارس من أنهم جاءوا لترقية أبناء الشرق ، ثم إن قول ذلك الشيطان لبرصيصا : سأعلمك كلمات تدعوبها الله فيستجيب لك ، كقول الأوروبي لأحد الحديويين في مصر سابقا : « قل للعسكر يتركوا الدعوات والعبادات ، لأن المتدينين ضعيف الارادة ، أما حرا العقيدة فانه شجاع » .

وأما دعاء برصيصا بتلك الدعوات واستجابتها وحب الناس له والتفافهم حوله ثم وقوعه أخيرا في الذنب الذي نصبه له ذلك الشيطان إذ أوقع بنت الملك في مرض أشبه بالحنون ، ودلهم على برصيصا فخرت عنده ، وأغراء بالفسق بها ، فحملت ، ثم أمره فقتلها ، ثم أخبر أهلها في المنام ، وعرفتهم محلها الذي دفنت فيه في الجبل فهو بعينه ماتفعله أوروبا الآن ، يتدخلون في كل شيء بصفة الإصلاح ويكتبون الى دولهم حتى إذا حان وقت ابتلاع البلاد أحاطوا بها من كل جانب بسبب مآلديهم من الرسوم ومعرفة الاماكن والعورات ، فيسهل فتح البلاد وتصبح ملكا لهم ، وهذا قتل للأمة كما قتل الملك برصيصا الراهب لوقوعه في جر يمتين : الزنا والقتل ، وهؤلاء الشرقيون وقعوا في جر يمتين : الانحلال من الفضائل ، وهذا بالزنا أشبه ، وترك جبل الامور على غاربها ، وهذا قتل للأمة ، فاذن يستحقون القتل ، وقتلهم استعبادهم .

ألا ترى أن هذا كله في ضمن الآية ، أفلا ترى معي أن جميع ما نخطيء فيه في محنتنا ومآلنا وسياستنا وتجارتنا إنما هو من آراء تكون في أفئدتنا من داخلها أو من الخارج ، أفلا ترى أن قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد » بعد ما تقدم للإشارة إلى أنه يجب الحرص على ما في هذه السورة ونحوها من المعاني ، أفلا ترى أن قوله تعالى بعد ذلك « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » إنما جرى به بعد هذه التشبيهات للإشارة إلى عظم خطرها وأهميتها بالنسبة للمسلمين ، والا فلماذا لم يذكر هذا القول إلا في هذا المقام ؟ ولماذا يمثل الجبل برجل ذي عقل وقد قرئ عليه القرآن فيذكرن خاشعا مشفقا من باب التخجيل ، ثم يعقبه بقوله « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » وذلك كله لأجل تعليم المسلمين التفكير ، وطريق التفكير يكون بمثل ما كتبناه ، فإن القرآن لم ينزل إلا ليتفكر فيه ، وفي هذه السورة فتح أعظم باب للفكر ، ولذلك أعظم أمر القرآن وأمر الأمثال ، وقل : « لعلهم يتفكرون » .

إن جميع بني آدم مسحورون إما بفكر داخلي ، وإما بشيطان انسي ، إن شياطين الانس هم كثير من أهل أوروبا

يختصون بأموال الشرقين لاسيما المسلمين ، ويحدثون في بقاهم جاهلين ، ليكونوا لهم خولا وعبيدا خاضعين .
لعمري لقد أعطيت الآية من العناية ما يليق بهذا التفسير ، فلأتم الكلام على بقية السورة (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة) ما غاب عن الحس من عوالم الملائكة ، وما حضر من الأجرام المادية ،
والسر والعلانية ، والآخرة والدنيا ، والمعدوم والموجود (هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك
القدوس) المنزه عن القبايح ، وعن كل ما يلبس المادة وما فيه نقص (السلام) الذي سلم الخلق من
ظلمه ، إذ جعلهم على نظام يكفل رقيهم ، ولا تعرف هذا حق المعرفة إلا إذا رجعت إلى تفسير قوله تعالى :
« بيدك الخير » في (سورة آل عمران) . وأيضا هو الذي سلم من النقائص وكل آفة تلحق الخلق فيكون
السلام أعم من القدوس (المؤمن) واهب الأمن ، ولذلك نرى كل مخلوق في الأرض يعيش وهو في أمن
نسي ، فالطائر في جوه ، والحية في وكرها ، والسماك في البحر ، والانسان في القرية . ولا يعيش قوم على
الأرض مالم يكن هناك حراس يحرسون قراهم والا هلكوا ، فهذا من معاني « المؤمن » (المهيمن)
الشهيد على عباده بأعمالهم الذي لا يغيب عنه شيء ، أو الرقيب الحافظ لكل شيء ، فهو على الأول راجع للعلم
وعلى الثاني للقدرة (العزيز الجبار) أي الغالب الذي جبر خلقه على ما أَراد ، أو جبر حاله : أي أصلحه ،
وربما دخل المعنى الثاني في عموم الأول ، لأنه يسوقهم إلى ما يريد ، ومن ذلك اصلاح حالهم (المتكبر)
البلوغ الكبرياء والعظمة (سبحان الله عما يشركون) نزّه ذاته عما يصفه به المشركون (هو الله الخالق)
المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة (الباري) الموجد لكل شيء بريئا من التفاوت (المصور) الموجد
لصورها وكيفياتها كما أراد ، ولا جرم أن هذه المعاني يمكن معرفتها من تتبع أجزاء هذا التفسير ، فان آثار
ذلك فيما كتبناه من جلال هذه الدنيا ونظامها وعجائبها (له الأسماء الحسنى) لدلائلها على محاسن المعاني ،
ومحاسن المعاني تظهر في مظاهر هذا الوجود ، فمن جهل نظام هذه الدنيا التي نحن فيها فقد جهل آثار صفات
الله ، ومن جهل أثر الصفة جهل نفس الصفة ، والله لا يعرف بذاته ، وإنما يعرف بصفاته ، فهذا كله حث
على العلوم التي أنزلها الله على قلوب عباده في الشرق والغرب والحكمة في هذا الوجود من الفلك وعلوم
الطبيعة ، ومن ظن أن تلاوة أسماء الله ، أو معرفة معانيها وشرحها كافية فهو جاهل ، وإنما تعرف الأسماء
بالآثار ، فمن جهل الآثار فقد بار ، ولعمري ما أوقع أمة الاسلام في الخبال ، وأضاعها فيما مضى من القرون
والأجيال ، إلا لما اعتراها من الجهالة ، وما أحاط بها من الجهال الذين اكتفوا بالقشور وتركوا العلوم فعميت
الأبصار ، فبالت شعري كيف نعرف المصور إلا بآثاره : أي بالصور التي صورها في المعادن والنبات والحيوان
وكيف نعرف أنه رحمن رحيم إلا اذا درسنا نظام الحيوان فنذكر لطفه ورحمته به ؟ وكيف ندرك حفظه لكل
شيء إلا اذا تتبعنا الأشياء بقدر طاقتنا البشرية ؟ وكيف نفهم قوله : (يسبح له ما في السموات والأرض)
وأنه منزّه عن النقائص كلها إلا اذا شاهدنا كمال صنعه بالدراسة فهتدي بالكمال في الأثر إلى الكمال في المؤثر
وقوله (وهو العزيز) أي الغالب (الحكيم) الجامع للكمالات بأسرها ، فان الحكمة ترجع للكمال في القدرة
والعلم . والى هنا تم الكلام على القسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .



بهجة الحكمة ونور العلم

في قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »

إن أول هذه الآيات ضرب مثل وتخييل ، وهذا التخييل مثل ما جاء في قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » . والمراد من ذلك توبيخ الإنسان على عدم تخشعه عند تلاوة القرآن ، لقساوة قلبه ، وقلة تدبره ، والتصدع التشقق ، إن الجبل مع صلابته ووزاقته لو أعطى تمييزا لأشفق من خشية الله وحذر من ألا يؤدى حق الله تعالى في تعظيم القرآن ، والكافر مستخف بحقه ، معرض عما فيه من العبر والأحكام ، كأنه لم يسمعها ، وصفه بقساوة القلب ، فهو غافل عما يتضمنه القرآن من المواعظ والأمثال ، والوعد والوعيد ، وتمييز الحق من الباطل ، والواجب مما لا يجب ، بأحسن بيان ، وأوضح برهان ، ومن وقف على هذا وفهمه أوجب له الخشوع ، ولقد دل على أن ذلك تمثيل لقوله تعالى بعد ذلك « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » ثم شرع في المقصود الأعظم والمهم الأتم من هذه المقدمة العظيمة ، وهو تبيان أسماء الله الحسنى (وبعبارة أخرى) أن الله عز وجل ابتداء سورة الحشر بقوله : « يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض وهو العزيز الحكيم » فهو منزّه عن كل ما لا يليق بالربوبية في ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك كله مقتضى التسبيح ، فلا يكون من أفعاله ما يشعر بالنقص ، أو الشر ، وكل مافى العالم من الشرور والنقصان ان هي إلا مقدمات للخير والكمال ، وهو الذى عزّ في سلطانه ، وقهر كل مخلوق أن يسير على مقتضى أمره ، وهو حكيم فيما يدبره من النظم الجبّية ، والأفعال البديعة ، وختم السورة بوصف القرآن بأن الجبال تصدع من خشيته ، وجعل هذا مقدمة لما بعدها ، وهو الإشارة إلى أسمائه الحسنى ، تلك الأسماء التى تبلغ ٩٩ اسما ، وقد دخل في معانيها هذا الوجود كله من سموات وأرضين ، ودخل فيها أيضا أفعال المكلفين ، ففيها العلم وفيها العمل ، وهذا عجب والله وألف عجب ! أن يصف القرآن بأن الجبال تخشع من خشية الله لو أنها سمعته ، ثم يتبع ذلك بأسمائه التى وصفها بأنها حسنى ، وهذه الأسماء تتضمن الوجود كله ، والقرآن كله ، لأن معانى القرآن كلها وجميع هذه المخلوقات لا تخرج عن معانى هذه الأسماء .

(١) ألم تر أن الرحمة التى تضمنها اسما [الرحمن الرحيم] تدل على إرادته الخير والنعمة والاحسان إلى خلقه جميعهم ، وأن كل نعمة ، وكل نازلة ، وكل خطب أسود يلم بهم لم تخرج عن كونها مهادت ومعدات لرحمات واسعة تشمل هؤلاء المتكويين الأذلاء ، ولئن يعرف هذا حق المعرفة إلا أناس صفت نفوسهم ودرسوا علوم هذه الدنيا دراسة كاملة ، أو قوم قرءوا هذا التفسير بامعان أو أكثره ، فإنهم لاجرم يوقنون بأن كل نعمة فى هذه العوالم نعمة عظيمة لأنها مقدمة لها ، بل لا تتم تلك النعم العظيمة إلا بتلك النقائص والآلام التى جعلت أساطين لها ودعائم ومقومات .

(٢) ولما كانت الرحمة بدون حكمة فى الفعل تدعو إلى عدم النظام والخلل فى الأحكام أعقبه بما يدل على نظام الأمور وحفظ التوازن فى العوالم كلها ، ولو لم ذلك الأحياء من هذه المخلوقات فقال : « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك » فوصف نفسه أولا بالرحمة حتى يعلم نوع الإنسان أن انفراده بالحكم فى هذه العوالم وسياسته

في نظامها لا يقتضى ظلماً ، فهو منفرد بالملك ، متصرف بالأمر والنهي في جميع خلقه ، وهم تحت ملكه وقهره وإرادته ، ولكن ذلك كله مسبوق بالرحمة ، فليس انفراده بالملك كانفراد ملوك الأرض بملكهم ، لأنهم يظلمون الناس ويسخرونهم لشهواتهم ، وتلك الشهوات تطمس وتغطي تلك الرحمة الكامنة في النفوس ، ذلك أن المستبدّين بالملك يرون أنهم إن لم يكن لهم في ذلك الملك منافع فلافائدة فيه ، والمنافع عندهم خاصة بالشهوات واللذات التي تعرفها البهائم ، وهم في قلوبهم رحمة ، ولكن تلك اللذات تغطي هذه الرحمة وأطمسها كما تطمس تلك اللذات رجاء الناس بالحيوان عند ذبحه ، فهو يعلم أن الحيوان متألم عند ذبحه ، وفي قلبه رحمة له ، ولكن تلك الرحمة قد نامت تحت ذلك الغطاء ، لاسيما أن الشرائع المنزلة أيدت ذلك ، هكذا هؤلاء الملوك والأمم المستبدّون قد نامت الرحمة التي كنت في قلوبهم تلك اللذات العاجلة فلم يحسوا بالآلام تلك الأمم المظلومة ، لاسيما إذا أيد ذلك كتابهم (بتشديد التاء) ورجال سياستهم الذين يشيرون الجشع في أنفسهم ، ويبيحون لهم الفتك والظلم ، وهذه الاباحة من مخلوق لا تدفع إثمها ولا تمنع ذنباً بخلاف الاباحة الدينية فهي مقدسة . هذا كله في أفعال العباد ، فهم إذا ملكوا بطشوا بطش الجبارين ونامت الرحمة ، وليسوا عند الظلم والبطش بمرئيين الخير للمظلومين المبطوش بهم . كلا . بل هم إنما يريدون منافع نفوسهم لا غير ، أما الله عز وجل فانه منفرد بالملك والتصرف ، ولكنه ليس كالملوك والأمم المستبدّة ، بل رحمته كاملة تامة شاملة . هذه هي الحكمة في أنه ذكر انفراده بالألوهية والملك بعد وصفه بالرحمة .

(٣) ويشير إلى ما قرّرناه في هذا المقام أنه ذكر بعد ذلك أنه [القدوس] أي البليغ في النزاهة عما يوجب نقصاناً في ذاته وصفاته وأفعاله . ولذلك يقول الملائكة : « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » . ألا تعجب أيها الأخ معي كيف يكون ذكر انفراده بالألوهية والملك بعد وصفه بالرحمة قد اقتضى أن يخالف من انفردوا بالملك من الخلق في أن هذا الانفراد وسيلة لسلب الرحمة من قلوبهم ، فهم إذ ذن غير منزّهين ولا طاهرين والله يخالف لهم ، فهو منزّه من كل ما لا يليق له ، ثم كيف يصريح بما فهم ضمناً مما تقدّم بقوله [القدوس] (٤) و (٥) ثم أكد ذلك المعنى بقوله بعده [السلام المؤمن] وهو ذو السلامة من كل نقص وآفة ، وهذا مصدر وصف به للبالغ ، وزاده تأكيداً بوصفه بأنه واهب الأمن ، فقد أتمن الخلائق من ظلمه ، وقد أتمن من آمن به من عذابه إذا كان مطيعاً بخلاف المنفرد بالملك من الناس ، فهم ليسوا منزّهين عن الظلم ، ولا سالمين من النقص ، ولا آمنة رعاياهم بوائقهم كما نرى ذلك في الأمم الاورورية التي تحكم بعض بلاد الاسلام فهؤلاء المحكومون أبداً في فزع وجزع من ظلم هؤلاء ومقتهم وشرتهم ، ولكن هذه الاسلامية يجب أن تطمئن ، لأن الله رحيم رحيم ، ملك قدوس ، سلام مؤمن ، وإذا كان هو المتصرف في الخلق بالرحمة فهو لم يسلط هؤلاء على المسلمين تشفياً وانتقاماً . كلا . ثم كلا . فجّل الله وجلّ الله ، ولكنه سلطهم على المسلمين حتى يستيقظوا من غفلتهم ، ويقوموا من رقبتهم ، وهناك يخرج تلك الأمم من ديار الاسلام ، لأنه قدوس ، ولأنه سلام ، ولأنه مؤمن ، فالناس في أمان ورجهم منزّه عن الظلم ولكنه يلهم بعض عباده أن يؤذوا آخرين ليوقظهم هو بذلك الايذاء ، كما أنه سبحانه يلهم الأسود والغور والوحوش أن تهاجم قطعان الماشية ، وتقنص منها ما يكون به قوتها ، فنستفيد الأسود قوتها ، ونستفيد القطعان الاتحاد والوثام والمحبة ، لأن القطيع كله يجري حينئذ عند مهاجمة الأسود والنزوات له ، وهناك لا يقتنص إلا واحدة من مائة أو ألاف ، وهذه الواحدة تكون ضعيفة ولكن بقية أفراد القطيع يحتمى بعضها ببعض ، ويتدخل بعضها في بعض ، وهذا هو الاتحاد الذي لا يتم إلا بالمحبة ، وبهذه المحبة يعيش القطيع بالسعادة والسلام ، فهذه الأمم الهاجرة على ديار الاسلام لن تبقى فيها إلا ريثما تستيقظ تلك الأمم ، ولن تأخذ منها إلا ما تأخذ الآساد من قطعان الماشية ، فخطها شيع بطونها ، ولكن حظ

الأمم المقهورة الإسلامية الاتحاد والوئام وانتشار العلم الذي يوجه توالى الضغط والظلم المنصب على هذه الأمم ،
إن الله قدوس وسلام ومؤمن .

(٦) وهو الرقيب الحافظ لكل شيء ، الشهيد على عباده بأعمالهم فلا يغيب عنه شيء ، والقائم على خلقه
برزقهم ، وذلك معنى اسمه [المهيمن] ، ويقال انه مأخوذ من الأمن فهو [مؤمن] قلبت الهمزة هاء .
(٧) و (٨) و (٩) ثم أتبع ذلك بصفات العزة والغلبة ، فهو [العزيز] الغالب غير المغلوب [الجبار]
الذي جبر خلقه على ما أراد [المتكبر] الذي تكبر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصا ، وهو البليغ الكبرياء
والعظمة ، وهذه الصفات المسبوبات بالرحمة والأمن وبالسلمة متممات لها ، وكيف تكون رحمة وأمن
وسلمة إلا بالاحتياط لها والأخذ بأسبابها ؟ وكيف يداوى الطبيب المريض إذا لم يقطع عضوه الفاسد حفظا
لسلامة جسمه ؟ فلا يبالي بألم المريض ولا أنيه ، لأن رحته بهذا المريض رحمة صادقة بخلاف رحمة الأم المشفقة
على ولدها أن يلاق المصاعب ، فهي رحمة جاهلة ، فذكر الملك أولا والعزة والجبروت والكبرياء ثانيا ، وذكر
القدس والسلام والأمن والهيمنة فيما بين ذلك لإفادة أن الرحمة ليست كرحمة الأمهات ، بل يضرب لها المثل
برحمة الأب ورحمة الحكومات العادلة التي لا تبالي بالآلام القليلة في جانب المنافع الكثيرة ، ولذلك يقتلون
القاتل ، لأن الألم الناجم من قتله يختص بعشيرته ، ولكن المنافع نعم الأمة كلها لأنها تكون في أمان من
الظلم ، ويصبحون في سلام واطمئنان ، فالآلام القليلة إذا أدت إلى منافع كثيرة تكون خيرا لأشرا ، فاذلال
الغرب للشرق الآن من الله عز وجل ، فهو سبحانه قدوس ، منزّه عن العبث في أفعاله : أي انه لم يسلط
هؤلاء على هؤلاء للاذلال أوللا انتقام . كلا والله . وإنما هو سبحانه يريد اليسر ولا يريد العسر ، وإنما فعل
ذلك كما يفعل الطبيب بالمريض ، يؤلمه ساعة ويريمه عشرات السنين ، وليس هناك سبيل للطبيب في نفع
المريض غير ذلك ، هكذا الله عز وجل قد علم سبحانه أن هذه الأمم لا يرفعها إلا هذا الاذلال والاحراج
وتسليط الظالمين عليها ، وتكون فائدة الظالمين مادية حقيرة ، وفائدة المظلومين معنوية دائمة ، ثم هو بعد ذلك
قد يخفف هذه الأمم الظالمة ويرفع المظلومة : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ، ثم رجع إلى التنزيه
ثانيا يؤكد هذه المعاني فقال : [سبحانه الله عما يشركون] .

واعلم أن معاني الرحمة ومأمعها ، والكبرياء وما شاكلها ، تجتمع كلها في نظام هذه المخلوقات ، أليس من
العجب أن نرى العناصر التي تبلغ فوق الثمانين متضادة متنافرة ، فمنها محرق كالأكسوجين والصودا والبوتاسا ،
ومنها مالمس كذلك كالادروجين ، فهو غاز لا يورث احتراقا ، ولكنه هو قهرها وأذلها وصورها ، خلق الماء
من الأكسوجين والادروجين ، وجعل القطن من مواد محرقة ، وأخرى غير محرقة كما تراه موضحافي ﴿ سورة
البقرة ﴾ عند آية الطير وإبراهيم ، أليس هذا معنى قوله بعد ذلك :

(١٠) و (١١) و (١٢) : [هو الله الخالق] المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة [الباري] الموجد
لها بريثا من التفاوت [المصور] الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد ، فهذه الصفات أفادت الأمرين معا : قهر
هذه العناصر واذلالها ، وقد خلع عنها مالبست من صفاتها وألبسها لباسا آخر كما ترى ، أن الصودا والبوتاسا
في القطن قد عريت عن الاحراق وأصبحت ملبسا ، فهنا اجتمعت الكبرياء والعظمة والقهر مع الملك والسلامة
والأمان والهيمنة والرحمة . ومن أعجب العجب أن تصبح هذه المادة المتشاكسة المتنافرة متوادة متحابية
ولم يكن ذلك إلا برحمة وأمان وسلام أولا ، وكبرياء وقهر ثانيا ، وهذا معنى قوله : « سبحانه الله عما يشركون »
ومعنى قوله في أول السورة : « سبح لله ما في السموات والأرض » وهذا هو قوله بعد ذلك : « له الأسماء
الحسنى » لأنها دالة على محاسن المعاني ، وختم ذلك بمجمل ما تقدم كله ، بل بمجمل هذا الوجود ، فذكر انه

يسبح له مافي السموات والأرض ، وأنه عزيز حكيم ، فالتسبيح راجع للتنزه عن قصد الشر ، والعزة راجعة لصفات القهر المتقدمة ، وباجتماعهما معا اتصف بأنه [حكيم] وحكمته ظاهرة واضحة عند الحكماء وحدهم أوائل الذين يشهدون في صور الموجودات كالفواكه والأقوات والملابس عناصر متنافرات ، قهرها وذلها لقسب صفات الشر عنها وتلبس خلع الخير ، فأما سلبها صفات الشر فذلك بصفات السلام والتهم والكبرياء والبطش والعلو والملك ، وأما إلباسها لباس النفع فذلك بصفات الرحمة والسلامة والأمان والهيمنة والقدس والتنزه .

واعلم أيها الذكي أن هذه المعاني جميعها ظاهرة واضحة لذوى البصائر في هذه الدنيا وهم أحياء يرونها بأعينهم في ملابسهم وما كانهم ومشاربهم ، فكأن الماء وهم يشربونه يخاطبهم قائلا : ها أنا ذا مصور مبروء مخلوق من عنصرين متنافرين ، فبالكبرياء والملك كان اجتماعي ، وبالرحمة والرأفة والسلامة والأمان كانت هذه المنافع المزجاة إليكم بشرى ، وهكذا يقول القطن للابس له لو كان يعقل ما يلبس ، أوفهم لغة الجادات الناطقات المتكلمات لذوى البصائر لا الجاهلين الغافلين إذ يقول :

أيها الانسان : أنت تلبسني ولا تعلم أنني مكون من عناصر بعضها نيران محرقة ، ولكن هذه النار أصبحت بردا وسلاما عليك وعلى الناس أجمعين كما كانت النار بردا وسلاما على ابراهيم .

أيها الانسان : إنك لجهلك وقلة عقلك وغفلتك وقف عقلك عند ابراهيم وناره ، وظننت أن آيات الله خاصة بخوارق العادات . كلا . ثم كلا . إن آيات الله تحيط بك من كل جانب ، وها أنا ذا أحيط بجسمك ، وأقبلك حر الشمس ، وأنا نفسي مركب من مواد بعضها محرقة ولم أحترق أنا ولم أحرقك ، فالمجانب تحيط بك أيها الانسان وأنت لا تشعر بما هو ظاهر واضح لك : « قتل الانسان ما أكفره » . « إنه كان ظلوما جهولا » .

هذه لغة الماء ولغة القطن ، ومثلها لغة الذرة والقمح ، وكل ماتراء يحيط بك ، تذهب إلى حقل الذرة فيجبك رونقه ، ولكن ذلك بالنظر الظاهري ، أما هو فانه يخاطبك بلسان حاله الذي هو أفصح من لسان المقال ، ويذكرك بما فيه من العناصر المذكورة في (سورة البقرة) فارجع إليها ، ويريك أن الكبريت الذي يستوقد الناس النار به هو نفسه داخل في ضمن الذرة ، ويقول لك :

أيها الانسان : أنت تأكل المحرق لجسمك وهو الكبريت الداخل ضمن أجزائي ، ولكنك لا تحترق وأنا لا أحترق به ، فأنا معجزة ماثلة أمامك ، الجاهل لا يعرف من آيات الله في هذا المقام إلا نار ابراهيم ، والحكيم العالم يشاهد ابداع الله في المشاهدات أمامه والله يقول اسمك يا بني آدم : « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » . فالجاهلون لا يعرفون إلا خوارق العادات ، والحكماء يرون هذه المعاني تحيط بهم فلا يعوزهم خوارق العادات .

محاورات بيني وبين أحد الأصدقاء

اطلع على هذا بعض الأصدقاء الأعزاء العلماء ، فقال : إن ما تقدم كله حسن ، ولكنني الآن أريد أن أفهم معنى كون أسماء الله حسنى وأفهم هذا الحسن بالمشاهدة والعيان تفصيلا ؟ ، وأما هذا فما هو إلا إجمال ، وأريد أن أقص عليك ما ذكره الغزالي في كتابه الذي جعله شرحا لأسماء الله الحسنى ، وبعد أن أتم مقالة أود أن ترينى هذا الحسن عيانا ؟ لأن الله يقول : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » وأنت طالما قلت لنا ان هذا هو الزمان الذي يرى الله الناس فيه الآيات ؟ فقلت : أنا لا أمتنع أن تذكر مقالة الامام الغزالي في هذا المقام ، وأنا ان شاء الله أريك هذه المعاني عيانا ومشاهدة لتتال اليقين والسعادة في الحياة الدنيا قبل

الموت ، وأسأل الله أن يلهمنا جميعا الخبر ، فذلك إذن [فصلان : الفصل الأول] ما قاله الامام الغزالي في معنى هذه الأسماء [الفصل الثاني] في عجائب ومحاسن أسماء الله الحسنى في العوالم المشاهدات :

الفصل الأول في معاني هذه الأسماء

من كلام الغزالي رحمه الله تعالى

فقلت : أسمعني ما قاله الغزالي رحمه الله في معاني هذه الأسماء . فقال : [الرحمن الرحيم] هما اسمان مشتقان من الرحمة ، وملخص المعنى الذي قاله : أن الرحمة لا تكون تامة إلا اذا شملت المستحق وغيره ، وشملت الضروريات والحاجيات والكليات والدنيا والآخرة ، والرحيم من الناس عادة يحسن بألم في نفسه من رقبته على المرحوم ، وهذا الألم مستحيل في جانب الله ، فتكون الرحمة أتم ، لأن رحمتنا فيها إزالة الألم عن أنفسنا ، وليست كذلك رحمة الله ، والرحمن أخص من الرحيم ، ولذلك لا يسمى به غير الله ، فهو جار مجرى العلم ، فالرحمن للسعادة الآخوية ، وهذه الرحمة خاصة بالله :

(١) هو عطوف على العباد بالايحاد .

(٢) والهداية إلى الايمان وأسباب السعادة .

(٣) والاسعاد في الآخرة .

(٤) والانعام بالنظر إلى وجهه الكريم .

وحظ العبد من اسم الرحمن أن يرحم العبد الغافل فيعظه باللطف ، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة ، وأن تكون معاصي الناس كأنها معاصيه ، فيسعى في إزالتها .

وحظ العبد من اسم [الرحيم] أن يسعى في إزالة فاقة كل محتاج ، فان عجز فبالدعاء واطهار الحزن اه [الملك] هو الذي يستغنى في ذاته وصفاته وأفعاله وبقائه عن كل ماسواه ، ويستمد سواه الوجود وسائر الصفات منه ، والعبد لا يتصور أن يكون ملكا مطلقا بهذا المعنى ، فهو لا يستغنى عن كل شيء ، بل هو مفتقر أبدا ، ولما كان يملك شيئا ويفتقر إلى شيء ، كان له شوب في الملك ، وأعظم ملك في العباد هو المستغنى عن كل ماسوى الله ، وقد أطاعته رعيته الخاصة به قلبه واسانه وقالبه وجنده وشهوته وغضبه وهواه وسائر أعضائه وقواه ، فاذا ملكها ولم تملكه واستغنى عن الناس واحتاج الناس إليه في حياتهم العاجلة والآجلة فهو الملك في العالم الأرضي ، وهذه رتبة الأنبياء ، ويليهم العلماء ، وملكهم على قدر ارشادهم واستغنائهم عن الاسترشاد ، وبهذه الصفات يقرب العبد من الملائكة ، وهذا الملك عطية من الحق .

أوصى بعض العارفين تلميذه فقال : « كن ملكا في الدنيا تكن ملكا في الآخرة » ، ومعناه اقطع طمعك وشهوتك عن الدنيا فان الملك في الحرية والاستغناء .

[القدوس] الله قدوس أى منزّه عن كل صفة من صفات العباد الكاملة كالقدرة والعلم الخ فضلا عن نوافضها وقدرته ، وجميع صفات الكمال فيه ما كان ينبغي أن يعبر عنها بالألفاظ التي تدل على ما يظنه الخلق كمالا فيهم ، ولولا أن الرخصة وردت في الشرع باطلاق ذلك لم يجز ، إن الناس نظروا في أنفسهم فوجدوا نقصا وكالا ، فنفوا عنه النقص وأثبتوا الكمال ولكن الله فوق كمالهم فضلا عن نقصهم .

[تنبيه] حظ العبد من هذا الاسم أن يكون عامه متعلقا بما هو دائم فيكون منزها عن كل ما يشارك فيه البهائم من كل محسوس ومتخيل وكل متغير بحيث لو سلب آلة العلم بقي العلم في نفسه ، وهكذا تكون ارادته قدسية : أى انه لا يلحظ في نفسه إلا لقاء الله والفرح بقربه ولا يكتفى بالجنة ونعيمها ، وبالجملة جميع الادراك الحسية والخيالية يشارك الانسان فيها البهائم فيتعالى عنها في الدنيا والآخرة ، ومن لم تكن همه

إلا في الله فدرجته على قدر همته ، وبالجملة من رقى علمه عن درجة المحسوسات والتخيلات وقدس إرادته عن مقتضى الشهوات فقد نزل بحبوة حظيرة القدس . هذا ملخص كلامه رحمه الله .

أقول : وإياك أيها الذكي أن تظن أن هذا ينافي ما كتبناه في هذا التفسير ، بل هو عينه ، وحب الله وحب لقائه لن يتم لا مريء في هذه الحياة الدنيا إلا بأمر واحد ، وهو عشق العلم والغرام بالطبيعة ودرسها درسا مدققا ، وكتابنا هذا كاف لئيل هذه الدرجة وفتح باب للزبد منها .

[السلام] هو الذي تسلم ذاته عن العيب ، وصفاته عن النقص ، وأفعاله عن الشر . أقول : وقد تقدم في هذا التفسير براهين كثيرة على أنه لا شر في هذا العالم إلا وقد جعل مقدمة لخبر ، حتى أن الموت مقدمة لصفاء الروح وخروجها من سجنها ، وحظ العبد من هذا الاسم أن يسلم قلبه من الحقد والغش وإرادة الشر ، وأن تسلم جوارحه من الآثام والمحظورات ، ومثل هذا العبد يأتي الله بقلب سليم ، فهذا العبد سلام قريب من السلام المطلق الحق ، ولا سلام لمن أصبح عقله أسير شهواته .

[المؤمن] هو الذي يعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه ، وسده طرق المخاوف ، والمؤمن المطلق هو الذي يستمد منه كل أمن وأمان ، وجميع حواس الإنسان تعطيه من الأمن ما يلائمها كالعين تبصر العدو فتتحاشاه ، واليد تبطش به فيكون الأمان من شره ، فالمؤمن هو الذي خلقها ، ولا جرم أن الإنسان في أصل فطرته ضعيف ، وهذه الجنود من العقل والجوارح قوة له بها يتعاطى الطعام والشراب ، ويدافع الأعداء فذلك كله من صنع المؤمن ، ومن جنود الأمن والأمان الدين والعقائد ، والآراء الشريفة التي تجعل الإنسان في أمان في الدنيا والآخرة ، وحظ العبد من هذا الاسم أن يأمن الناس شره ، وأن يكون عضدا لكل خائف ، وأحق الناس بشرف هذا الوصف من يكون سببا في أمان الناس من عذاب الآخرة بتعليمهم وتقويهم ، وأفضل الناس في ذلك الأنبياء ، وليس وصف الله بأنه مؤمن بما نفع أن يكون الله مخوفا ، فانه منه الأمن وأسبابه ، ومنه الخوف وأسبابه ، كما أنه معز ومذل ، وخافض ورافع ، ولا يمنع أحد الوصفين الآخر ، وقد ورد التوقيف بالمؤمن ولم يرد بأنه مخوف .

[المهيمن] أي القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ، فهو مطلع ومستول عليهم وحافظ ، وكل من هو مشرف كنه الأمر مستول عليه حافظ له ، فهو مهيمن عليه ، والاشراف يرجع إلى العلم ، والاستيلاء إلى كمال القدرة ، والحفظ إلى الفعل ، فالجامع لهذه المعاني اسمه المهيمن ، وهل يجمعها على سبيل الإطلاق إلا الله ، وحظ العبد من هذا الاسم أن يهيمن أو يشرف على أغوار أسرارته ، ويستولي على تقويم أحواله وأوصافه ، ويحفظها على الدوام ، فذلك مهيمن على قلبه ، فإن أشرف على عباد الله بتعرف بواطنهم بالاستدلال بظواهرهم والتفريغ فيها كان نصيبه من هذا المعنى أوفر وحظه أتم .

[العزيز] هو الخطير الذي يقل وجود مثله ، وتستد الحاجة إليه ، ويصعب الوصول إليه ، فهذه أربعة معان أن لم تجتمع في الموصوف لا يسمى عزيزا ، فالأرض والشمس نفعهما عظيم ولا نظير لهما (بحسب الظاهر عند أهل الأرض والافكم من شمس وأرضين كما تقدم) والحاجة مستدة إليهما ، ولكن نحن نشاهدنا فلم يصعب الوصول إليهما ، فأين العزة إذن ؟ وحظ العبد من هذا الاسم أن يحتاج إليه العباد في أهم أمورهم في الحياة الدنيا والآخرة ، والأنبياء أولى بهذه الصفة ، ويقرب منهم الخلفاء الراشدون والعلماء الخ .

[الجبار] هو من تنفذ مشيئته في كل أحد على سبيل الاجبار ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، ولا يخرج عن قبضته أحد ، وتقصر الأيدي دون حى حضرته ، والجبار من العباد من ارتفع عن الاتباع ونال درجة الاستقباة بحيث يجبر الخلق بهيئته وصورته على الاقتداء به ومتابعته في سمعته وسيرته فيفيد الخلق ولا يستفيد ولا يشاهده

أحد إلا ويغنى عن ملاحظة نفسه ويصير متشوقاً إليه غير ملتفت إلى ذاته ، ولا يطمع أحد في استدراجه ، وهذه صفة الأنبياء لاسيما خاتمهم صلى الله عليه وسلم .

[التكبر] هو الذى يرى الكل بالنسبة حقيراً بالإضافة إلى ذاته ، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه ، وذلك هو الله ، والمتكبر من العباد على هذا المتوال تكبره باطل ، والمتكبر من العباد هو الزاهد العارف فينزه سره عما يشغله من الخلق ، ويتكبر على كل شيء سوى الحق فيحقر الدنيا والآخرة جميعاً بحيث لا يشغلانه عن الحق تعالى .

أقول : وأنت أيها الذكي خبير أن عجائب العوالم تجعل في النفس قرباً لمبدعها ، وإرشاد الخلق وانقاذ الأمم من ضعفها ، كل هذا لم يخرج عن كونه مقرباً لله تعالى .

[الخالق البارئ المصور] : فالأول راجع للتقدير ، والثاني للإيجاد ، والثالث للتصوير ، إن المهندس يفكر في نظام المنزل ، فهو له مقدر ، يقدر ما لا بد منه من الخشب واللبن والمساحة الخ ، ثم يكون البناء ، ثم يكون الذى ينقش ظاهره ، وهذه بالترتيب : « الخالق البارئ المصور » ولكن الله هو الذى يتولى هذه الأفعال الثلاثة بنفسه .

أقول : ومن نعم الله عز وجل أن هذا التفسير من قرأ أكثر ما فيه أومقداراً كبيراً منه أدرك بحق وصدق ويقين عجائب اسمه تعالى المصور ، فانه يرى الاتقان في كل صغير وكبير كالعين والأذن وتركيبهما وبدائع النظم في أعالي العوالم وأسافلها ، ولقد أطل في ذلك الامام الغزالي ، ولكن زماننا والحمد لله زمان هذه العلوم فذلك فليفرح المسلمون ، فبشرى لهم بنابغين سيظهرون في بلاد الاسلام ، يزرعون ما بذرنا في الأفتدة ، وسيكونون حقا خيرة أمة أخرجت للناس . وحظ العبد من اسمه تعالى المصور أن يحصل في نفسه صورة الوجود كله على هيئته حتى يحيط بالعالم علويه وسفليه من المجرات والشموس والسدم .

أقول : ومن قرأ أكثر هذا التفسير فقد نال هذه الأمانة إن كان من الأذكياء العاشقين للعالم ، وهكذا يشرف على صورة الانسان من حيث بدنه وأعضاؤه الجسمية ، فيعلم مفصلها بالتشريح وترتيب أجزائها ، وعددها والحكمة في خلقها ، ثم يشرف على صفات الانسان المعنوية ومعانيه الشريفة التي بها إدراكه وإراداته ، وكذلك يعرف صور الحيوانات والنباتات ظاهراً وباطناً بقدر وسعه حتى يحصل نفس الجميع وصورته في قلبه ومعرفة الامور الجسمية صورة مصغرة للامور الروحية ، وهما يدخل في عالم الانسكة وهم المتصرفون في عالم السموات والأرضين ، وهم الملهمون بأمر الله لسكل انسان وحيوان ، لحظ العبد من هذا الاسم اكتساب الصور العلمية المطابقة للصورة الوجودية ، فان العلم صورة في النفس مطابقة لصورة المعلوم ، وهذا في الحادث أما علم الله بالصور فهو سبب في وجود الصور في الأعيان ، هذا كله في الاسم [المصور] .

أما الخالق والبارئ فليس للعبد حظ فيهما إلا بطريق المجاز ، إن للعبد علماً وقدره ، وهذان لا ارتباط لهما بالتأثير في عوالم السموات والأرضين ، نعم للانسان أعمال كالصناعات والسياسات والعبادات والمجاهدات ، فإذا هذب العبد نفسه وساسها وانفرد بأمور لم يسبق لها نظير كصنع الطائرات والراديو في زماننا ، فان المخترع يطلق عليه هذا الاسم مجازاً فيقال خالق وبارئ ، فهذا في حق الله حقيقة وفي حق العبد مجاز بخلاف الصبور الشكور ، فهما في حق العبد حقيقة ، وفي حق الله مجاز . وينبغي أن تلاحظ أيها الذكي مع المشاركة في الاسم التفاوت بين المقامين .

هذا ملخص ما كتبه الامام الغزالي مع تغيير يسير كضرب الأمثلة ، فهو قد مثل للمخترعين بالشرطيخ ، وأنا أمثل الآن بما لا حصر له من الأمثلة ، ومن أعجب العجب أن يكون دين الاسلام هذا مقامه ، وأن يكون

المسلم باختراعه قريبا من ربه ، والمسلمون نيام كأنهم لم يقرءوا كلام علماءهم فناموا ففرت العلم والاختراع إلى بلاد أوروبا ، وانتقل إلى أمريكا والشرق الأقصى ، أما بلاد الاسلام فلا ، وأنا أنذر أمة الاسلام قاطبة صاعقة العذاب الهون بما كانوا يجهلون .

اللهم لك المشتكى ، أمة تكون أسماؤك أنفسها أعينها نبراسا لهدايتهم للاختراع ، والاختراع بقرتهم من من حضرتك العلية وهم لا يعلمون ، ولا يدرسون إلا القشور .
اللهم إني أبرأ إليك من السكتان ، وهاتان إذ أنشر لهما ما فتحت به علي وألهمتني حتى ألقاك ، وقد فعلت ما قدرت عليه ، ولا تؤاخذني بنقصي فاني وعزتك قد نشرت مع اعانتك لي بقدر امكاني ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وهو أرحم الراحمين . انتهى الكلام على الفصل الأول ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثاني

في تبيان محاسن أسماء الله الحسنى بالمعانية والمشاهدة

مصدقا لقوله تعالى : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وقوله : « إن علينا للهدى »
وقوله : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

هنالك ابتدأ صاحبي بسألني قائلا : ما معنى كون أسماء الله حسنى ؟ أمحاسنها في ألفاظها أم في معانيها ؟ أم في الآثار المنطبقة على معانيها ؟ وأنا أذكر أنه ورد في بعض الآثار أن من أحصى أسماء الله الحسنى عددا دخل الجنة ، ورأيت للعلماء أقوالا في ذلك ، فمن قائل من حفظها ، ومن قائل من فهم معناها ، ومن قائل من تخلق بها ، وأنا لا أدري ماهو الحق من ذلك ، وأيضا هاهوذا الامام الغزالي يضرب أمثالا في تفسيره لهذه الأسماء بذكر أعضاء الجملة وتركيبها ، وتركيب العين ومعجائب طبقاتها وهكذا مما تقدم شرحه ، فهاتان إذ أريد أن أرى بعين البصر بعض هذه المعجائب على شريطة أن تكون داخلة تحت أسماء الله الحسنى دخولا حقيقيا ؟ فقلت : يا صاح : أنا أجيبك بعون الله في المقامين [المقام الأول] في تبيان ماهو الحق من هذه الأقوال [المقام الثاني] في تبيان محاسن الأسماء الحسنى بالعيان والمشاهدة .

المقام الأول في تبيان ماهو الحق من هذه الأقوال

اعلم أيها الأخ الذكي أن هذه الأقوال لم تكن في أمة الاسلام سدى ، فالقول الأول يناسب الأطفال ليحفظوا هذه الأسماء ، وهذا يناسب عقولهم لأنهم لا يعقلون المعاني ، والقول الثاني يلقى إلى الطفل من عقل فيقال له : إن الجنة ودخولها لن تكون بمجرد اللفظ ، لأن اللفظ يراد به المعنى ، ومتى زاد تعقلا يقال له : أيها الفتى : أنت فهمت المعنى ، وعرفت أن الله رحيم وقيوس الخ فاقرا القرآن وادرس العلوم تجد في الأول محرمات فاجتنبها ، وواجبات فقم بها ، لتبرأ من العيوب الانسانية ، وتتجلى بالصفات الملكية ، فلا بد لك من علم وعمل ، ثم اذا ازداد تعقلا يقال له : أيها الانسان : لاسعادة في هذه الحياة إلا بالوقوف على الحقائق ، ولن يقف الانسان على الحقائق وقلبه مغمى بالردائل ، فذا صفت نفسه قببات الحكمة والعلم ، وظهرت له نفس هذه الدنيا بصورة بهجة جميلة ، وكأنها جنات ، يحسن بها والناس لا يعلمون ، ويكون ذلك مقدمات للجنات الحقيقية ، والسعادة الأبدية ، بمشاهدة صانع هذه العوالم بعد الموت ، ولن يطمع امرؤ عدم عشق هذه المعجائب في الدنيا في أن يرى ربه إلا من وراء حجاب ، وعلى مقدار حجاب المسدول عليه في هذه الحياة الدنيا يسدل عليه الحجاب يوم القيامة وبعد الموت ، لأنه لادرجة هناك مستأنفة ، فالحياة الدنيا هي أس-

السعادة وأسّ الشقاء ، وهنالك يشاق العاقل إلى أن يسمع :

المقام الثاني من الفصل الثاني

فقال صديقي : أريد أن تذكر لي بالمشاهدة معنى [اللطيف ، والنور الهادي] فاني رأيت في شرح الغزالي في معنى اللطيف أنه هو العالم بدقائق المصالح وغوامضها ، ومادقّ منها والطف ، ثم يسلك في ايصالها إلى المستحق سبيل الرفق دون العنف ، فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللفظ في العلم تم معنى اللطف ، ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله تعالى ، فأما إحاطته بال دقائق والخفايا ، فلا يمكن تفصيل ذلك ، بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي من غير فرق ، وأما رفته في الأفعال ولطفه فيها فلا يدخل أيضا تحت الحصر ، إذ لا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله ، وعرف دقائق الرفق فيها ، وبقدرة اتساع المعرفة فيها تنسع المعرفة بمعنى اسم اللطيف ، وشرح ذلك يستدعي تطويلا ، ثم لا يتصور أن يفي بعشر عشره مجلدات كبيرة ، وإنما يمكن التنبيه على بعض جملة ، فمن لطفه خلقه الجنين في بطن الأم في ظلمات ثلاث وحفظه فيها وتغذيته بواسطة السرة إلى أن ينفصل فيستقل بالتناول بالقم ، ثم إلهامه إياه عند الانفصال التقام الثدي وامتصاصه ولو في ظلام الليل من غير تعليم ومشاهدة ، بل فلق البيضة عن القرح ، وقد ألهمه النقاط الحب في الحال ، ثم تأخير خلق السن عن أول الخلقة إلى وقت الحاجة للاستغناء في الاغتذاء باللبن عن السن ، ثم انبائه السن بعد ذلك عند الحاجة إلى طحن الطعام ، ثم تقسيم الأسنان إلى عريضة للطحن ، وإلى أنياب للكسر ، وإلى ثنايا حادة الأطراف للقطع ، ثم استعمال اللسان الذي الغرض الأظهر منه النطق في رد الطعام إلى المطيحن كالمجرفة ، ولو ذكر لطفه في تيسير لقمة يتناولها العبد من غير كلفة يتجشمها ، وقد تعاون على إصلاحها خلق لا يحصى عددهم من مصلح الأرض وزارعها ، وساقبها وحاصدها ، ومنقيها وطاخبها ، وعاجنها وخابزها ، إلى غير ذلك لكان لا يستوفي شرحه . وعلى الجلة فهو من حيث دبر الامور حكم ، ومن حيث أوجدتها جواد ، ومن حيث رتبها مصور ، ومن حيث وضع كل شيء في موضعه عدل ، ومن حيث لم يترك فيها دقائق وجوه الرفق لطيف ، ولن يعرف حقيقة هذه الأسامي من لم يعرف حقيقة هذه الأفعال ، ومن لطفه بعباده أنه أعطاهم فوق الكفاية وكافهم دون الطاقة ، ومن لطفه أنه يسر لهم الوصول إلى سعادة الأبد بسعي خفيف في مدة قصيرة ، وهي العمر ، فانه لانسبة لها بالاضافة إلى الأبد ، ومن لطفه اخراج اللبن الصافي من بين الفرث والدم وخراج الجواهر النفيسة من الأحجار الصلبة ، وخراج العسل من النحل ، والابرسم من البود ، والدر من الصدف . وأعجب من ذلك كله خلقه الانسان من النطفة القذرة ، وجعله مستودعا لمعرفته ، وحاملا لأمانته ، ومشاهدا للمكوث سمواته . وهذا أيضا رفق لا يمكن احصاؤه .

[تنبيه] حظ العبد من هذا الوصف الرفق بعباد الله تعالى والتلطف بهم في الدعوة إلى الله ، والهداية إلى سعادة الآخرة من غير ازدراء وعنف ، ومن غير خصام وتعصب ، وأحسن وجوه اللطف فيه الجذب إلى قبول الحق بالشمالك والسيرة المرضية ، والأعمال الصالحة ، فانها أوقع وألطف من الألفاظ المزينة اه

وقال في معنى [النور الهادي] مانسه : « النور هو الظاهر الذي به كل ظهور ، فان الظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نورا ، ومهما قوبل الوجود بالعدم كان الظهور لاحالة للوجود ، ولا ظلام أظلم من العدم ، فالبريء عن ظلمة العدم ، بل عن امكان العدم والمخرج كل الأشياء من ظلمة العدم الى ظهور الوجود جدير بأن يسمى نورا ، والوجود نور فائض على الأشياء كلها من نور ذاته ، فهو نور السموات والأرض ، وكما أنه لا ذرة من نور الشمس إلا وهي دالة على وجود الشمس المنورة ، فلا ذرة من موجودات السموات والأرض

وما بينهما إلا وهي بجواز وجودها دالة على وجوب وجود موجدتها ، وما ذكرناه في معنى الظاهر يفهمك معنى النور ويفنيك عن التعسف المذكورة في معناه .

[الهادي] هو الذي هدى خواص عباده أولاً إلى معرفة ذاته حتى استشهدوا بها على معرفة مخلوقاته وهدى عوام عباده إلى مخلوقاته حتى استشهدوا بها على ذاته ، وهدى كل مخلوق إلى مآلبد منه في قضاء حاجاته ، فهدى الطفل إلى التقام الثدي عند انفصاله ، والفرخ إلى التقاط الحب وقت خروجه ، والنحل إلى بناء بيته على شكل التسديس لكونه أوفق الأشكال لبدنه ، وأحوالها وأبعدها عن أن يتخللها فرج ضائعة وشرح ذلك مما يطول ، وعنه عبر قوله تعالى : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ، وقوله تعالى : « والذي قدر فهدى » والهداية من العباد الأنبياء والعلماء الذين أرشدوا الخلق إلى السعادة الأخروية ، وهدوهم إلى صراط الله المستقيم ، بل الله الهادي لهم على ألسنتهم ، وهم مسخرون تحت قدرته وتديره . اهـ

هذا ما قاله الامام الغزالي ، وأنا أريد أن أشاهد هذه الأمور عياناً : أي أشاهد هدايته لمخلوقاته بالصور المشاهدة ، وكيف كان لطفه بهم مشاهدة أيضاً ؟ فقلت بإصاح : إن هذا التفسير مفعم بهذه المجائب ، فارجع إلى ﴿ سورة البقرة ﴾ في الطبعة الثانية ، ففيها عجائب كثيرة مثل تدرجه في خلقه طبقاً عن طبق ، فتراه هناك مصوراً بالتصوير الشمسي عند آية الطير وإبراهيم ، والعزير وحاره ، وهكذا في سور كثيرة . فقال نعم ولكنني أريد الآن أمراً آخر ، وهو التلطف في هداية الناس في الأرض ، وكيف يتوصلون إلى أعظم الأمور بأصاغرها ؟ فقلت : ذلك هو علم الهندسة والحساب والجبر والفلك والطبيعة ، فن درس هذه العلوم أدرك ذلك اللطف والهداية والنور ، فإذا كان ذا بصيرة فانه يعرف أنه قد ارتقى في الهندسة من الخط والزاوية والمثلث والمربع إلى الكرات والمكعبات ودراسة الكواكب في السموات ، ذلك مدون في كتب جميع الأمم غاية الأمر أن أكثر هذا النوع الانساني يدرسون ويفهمون ولكنهم لا يعقلون أن هذا لطف بهم وهداية بل يعيشون ويموتون وكأنهم لا يدرسون ولا يعلمون .

فقال نعم ، هذا حسن ، ولكن الأحسن منه أن تريني مثالا واحدا كما وعدت في أول المقال ؟ فقلت : الآن أحدثك حديثاً جديلاً ، ولكن هذا الحديث سأحدثك به إن شاء الله في ﴿ سورة الملك ﴾ عند آية « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » الخ فارتقب ذلك هناك ، إن هذه العلوم السماوية والأضواء كلها مرتبطات بأسماء الله ، وهل الأسماء إلا دالة على الصفات ، وهذه الآثار دالات على الصفات ، وهكذا ستشاهد عجائب النبات والأزهار في ﴿ سورة النبا ﴾ في المجلد الخامس والعشرين من هذا التفسير .

هذا هو نهاية الكلام على قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحانه الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وبهذا تم تفسير سورة الحشر ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الممتحنة

هي مدنية

آياتها ١٣ - نزلت بعد الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتٍ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِنْ يَشَقُّوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يُخَكِّمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهَيْئَتَيْنِ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَفْسُدُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَفْسُدُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ *

هذه السورة فيها مسئلتان

- الأولى ألا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء فيفشون إليهم أسرار المسلمين .
- الثانية مسئلة المؤمنات المهاجرات وامتحانهن ونحو ذلك .

مقدمة

قال المفسرون : ان سارة التي كانت مغنية ونائحة بمكة أنت المدينة تشكو الحاجة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب أن يعطوها ما تحتاج إليه ، فأعطوها نفقة وكسوة ، وحلواها ، جاء لها حاطب ابن أبى بلتعة ، وكتب معها كتابا إلى أهل مكة ، وأعطها عشرة دنانير ، وكساها ، وهذا نصه : « من حاطب ابن أبى بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم نخدوا حذرکم ، فأخبره جبريل ، فبعث صلى الله عليه وسلم عليا وعمارا وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد ، وكانوا فرسانا ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فان بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة نخدوه منها واخلوها ، فان أبت فاضربوا عنقها فأدركوها فجحدت وحلفت ، فهموا بالرجوع ، فقال علي : والله ما كذبنا ، ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسل سيفه ، وقال لها : أخرجى الكتاب أو تضى رأسك ، فأخرجته من عقاص شعرها ، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا ، وقال : ما حملك عليه ؟ فقال يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ، ولم أكن من انفسها ، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم وأموالهم غیری فخشيت على أهلى فأردت أن اتخذ عندهم يدا ، وقد علمت أن الله ينزل عليهم بأسه ، وأن كتابى لا يغنى عنهم شيئا ، فصدقه وقبل عذره ، فقال عمر : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك

يا عمر لعل الله قد اطلع على اهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، ففاضت عينا عمر رضى الله عنه ، فنزل :

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تتقون إليهم بالوادة) تفضون إليهم الموادة بالكاتبة ، والباء زائدة ، أو تلقون إليهم أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب مودتكم لهم (وقد كفروا بما جاءكم من الحق) الجلة حالية (يخرجون الرسول وأياكم) من مكة (أن تؤمنوا بالله ربكم) أى لأن آمنتم : أى يفعلون ذلك لأجل إيمانكم بالله الخ (ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى) فلا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، وأبدل من قوله « تلقون » قوله تعالى (تسرون إليهم بالوادة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) أى منكم (ومن يفعله منكم) أى من يفعل الاتخاذ منكم (فقد ضل سواء السبيل) أخطأه (إن يشفقوكم) يظفروا بكم (يكونوا لكم أعداء) ولا ينفعكم إلقاء الموادة إليهم (ويبدطوا إليكم أيديهم والسيف بال سوء) ما يسوءكم فيقتلون ويشتمون (وودوا لو تكفروا) أى وتمنوا كفركم : أى ارتدادكم فتكونون سواء ، والمقصود أن الاختلاف فى العقائد يجعل التناصح معدوما ، فلا تناصحوهم لأنهم لا يرجونكم اذا ظفروا بكم (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم) أى قراباتكم ولا ذريتكم الذين توالون المشركين لأجلهم (يوم القيامة يفصل بينكم) يفرق بينكم من شدة الهول (والله بما تعملون بصير) فيجازيكم عليه . والى هنا تم الأمر فى اتخاذ الأعداء أولياء ، فلم يبق إلا ما يقوى ذلك بالاقتداء بالأنبياء السابقين كما هى طريقة القرآن ، فلذلك قال (قد كانت لكم أسوة حسنة) قدوة ، وهى اسم لما يؤتى به (فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم) كظريف وظرفاء (ومما تعبدون من دون الله كفرا بكم) أى بدينكم أو بمعبودكم (وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) فإذا تبرأ إبراهيم وأصحابه من قومهم فليتأس حاطب والمؤمنون بهم ، فلكم أن تتأسوا بإبراهيم فى جميع أموره إلا فى الاستغفار لأبيه المشرك فلا تتأسوا به ، فان إبراهيم كان قد قال لأبيه « لأستغفرن لك » فلما تبين له اقامته على الكفر تبرأ منه ، وهذا قوله تعالى (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ) وهذه الجلة ليست مقصودة بالاستثناء إنما المقصود به قوله لأبيه ، ثم أمر الله المؤمنين أن يقولوا تقيما للوصية السابقة قبل الاستثناء (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نتحملة ، أوفيظنوا أنهم على الحق ، ألا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعذاب من عندك ، فيقولوا : لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك . وملخص ذلك أن الفتنة إما عذاب المؤمنين ، وأما ما يترتب عليه من ظن الكافرين أنهم على الحق لنصرتهم عليهم (واغفر لنا) ما فرط منا من مكاتبة الكافرين (ربنا إنك أنت العزيز الحكيم) ومن هذه صفته فهو حقيق أن يجبر من يتوكل عليه ، ويجيب داعيه ، ثم أكد ما تقدم من التأسى فقال (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة) اقتداء حسن ، ثم أبدل من « لكم » (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول) أى يعرض عن الإيمان ويوال الكفار (فإن الله هو الغنى الجيد) أى الغنى عن خلقه المحمود المستحق الحمد من جميع خلقه ، ثم إن هذه الآيات حلت للمسلمين أن يظهروا براعتهم من أقر بأثمهم ، وعداوتهم لهم ، ولما كان ذلك شديدا عليهم أردفه بوعده قد تم فيما بعد فقال (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير) على ذلك (والله غفور) لما فرط من موالائهم (رحيم) بالنوفيق فى المستقبل ، وقد فعل الله ذلك ويسر فتح مكة وأظفرهم الله عليهم ، فألم

قومهم وتم بينهم التحاب ، وعسى من الله وعد على عادات الملوك حيث يقولون : عسى أولعل ، والمحتاج لا يشك في تمام ذلك ، ومن تمام ذلك الوعد أنهم خالطوهم ، وناكحوهم ، وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان ، ولان لهم أبوسفیان ، ثم أسلم أخيرا .

ثم أخذ الله سبحانه يبين من نهى المؤمنين عن موالاتهم ، ومن لم ينهم عنها ، فمن ذلك أن خزاعة صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدا ، فرخص الله في برهم ، ومن ذلك أن أسماء بنت أبي بكر قدمت أمها إلى المدينة بهدايا وهي مشركة ، فقالت أسماء : لا أقبل منك هدية ولا تدخل بي حتى استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن لها ، وفي هذين وأمثالهما قال الله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم) أي لا ينهاكم الله عن برّ الذين لم يقاتلوكم في الدين الخ (وتقسطوا إليهم) وتعبدوا فيهم بالاحسان إليهم والبرّ (إن الله يحبّ المقسطين) العادلين (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم) كمشركي مكة ، فانهم قسمان : قسم سعى في إخراجهم من مكة ، وقسم ساعدتهم على ذلك وأعانهم (ومن يتولم فأولئك هم الظالمون) لأنهم وضعوا الموالاة في غير أهلها ، وهنا أخذ يذكر القسم الثاني من السورة الذي ابتدئ بمسألة المؤمنات المهاجرات . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صالح أهل مكة بالحديبية اشترط سهيل بن عمرو [كما تقدم في سورة الفتح] أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه ، فلم يأته أحد من الرجال إلا رده ، وأولهم أبو جندل بن سهيل المذكور وهم جميعا مسلمون ثم جاءت مؤمنات مهاجرات منهن سبيعة بنت الحارث الأسلمية وهي مسلمة ، فأقبل زوجها مسافر المخزومي طالبا لها ، فنزلت : (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن) فاختبروهن بما يغلب على ظنكم وانظروا هل توافق قلوبهن أسنتهن ، أم هن منافقات ؟ فكان صلى الله عليه وسلم يستحلف المرأة أنها ما خرجت من بغض زوج ، ولا رغبة عن أرض إلى أرض ، ولا حدث أحدثته ، ولا التماس دنيا ، وما خرجت إلا رغبة في الاسلام ، وحبا لله ورسوله ، فإذا حلفت على ذلك لم يردّها ، فاستحلف صلى الله عليه وسلم سبيعة حلفت فلم يردّها ، وأعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها ، فتزوجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقوله (الله أعلم بايمانهن) أي المطلع على مافي قلوبهن ، وإنما أتم تكلفون بالظواهر (فان علمتموهن مؤمنات) أي ان ظننتموهن ظنا غالبا بالحلف وظهور الأمارات (فلا ترجعهن إلى الكفار) أي إلى أزواجهن في الكفر ، وبين سببه في قوله (لاهن حلّ لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا) مادفعوا من مهر إليهن (ولا جناح عليكم أن تنكحوهن) نفى عنهم الجناح في تزوج هؤلاء المهاجرات (إذا آتيتموهن أجورهن) مهورهن (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) العصمة ما يعتصم به من عقد وسبب ، والكافرة مفردة الكوافر هي التي بقيت في دار الحرب ، أو التي لحقت بدار الحرب مرتدة فلا يكن بينكم وبينهن عصمة ، ولا علاقة زوجية ، فمن كانت له امرأة كافرة بمكة فلا تعدّ من نسائه ، لأن اختلاف الدارين قطع العصمة بينهما كما قاله ابن عباس (واسألوا ما أنفقتم) من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار من تزوجهن منهم (وليسألوا ما أنفقوا) من مهور نساءهم المهاجرات ممن تزوجهن منكم (ذلكم حكم الله) أي جميع ما ذكر في هذه حكم الله . ثم استأنف فقال (يحكم بينكم والله عليم حكيم) يشرع ما تقتضيه الحكمة ، وليس في إبقاء النساء نقض للعهد ، لأنه روى عن عليّ أن سهيلا قال : لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته : أي بخلاف المرأة ، فردّ المهر إذن يكون مندوبا لا واجبا ، وقيل إن ردّ النساء واجب كالرجال ، إذن يكون ردّ المهر المذكور واجبا ، وهل الآية منسوخة أو هي غير منسوخة ؟ فلا ردّ المال على الأول ونردّه على الثاني إذا

شرطنا ذلك مع الكفار رأيان . ولما نزلت الآية المتقدمة أني المشركون أن يؤدوا مهر الكوافر فقال تعالى : (وان فاتكم) سبقكم وانفلت منكم (شيء من أزواجكم) أى أحد من أزواجكم (إلى الكفار فعاقبتهم) أى ظهرتم وكانت العاقبة لكم على الكفار بأن أصبتم الغنيمة منهم (فاتوا الذين ذهبوا أزواجهم مثل ما أنفقوا) فاعطوا المسلمين الذين ارتدت زوجاتهم بدار الحرب مهوور زوجاتهم من هذه الغنيمة (واثقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) . ثم بين مبايعة النساء فقال : (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك) الجملة حال (على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن) ، وهو وأد البنات (ولا يأتين بيهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن) ذلك أن المرأة كانت تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدى منك ، فالبهتان مجاز عن الولد إذ تلصقه بزوجها كذبا ، وذلك أن بطنها التى تحمل الولد فيه بين اليدين والفرج الذى هو محل الولادة بين الرجلين ، وقد بايعه صلى الله عليه وسلم نحو ٥٧ امرأة ، ولم يوافق امرأة منهن قط ، ومن بايعه هند ، فلما سمعت هذه الجملة من الآية قالت : إن البهتان لقيبح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق (ولا يصينك فى معروف) أى فى حسنة تأمرهن بها ، ومن كلام هند له صلى الله عليه وسلم لما قال : « على ألا يشركن بالله شيئا » والله انك لتأخذ علينا أمرا مارأيانك أخذته على الرجال ! وكان قد بايع الرجال يومئذ على الاسلام والجهاد فقط ، ولما قال « ولا يسرقن » قالت هند : ان أباسفيان رجل شحيح وانى أصبت من ماله هبات فلا أدري أيجل أم لا ؟ فقال أبوسفيان : ما أصبت من شيء فيها مضى فهو حلال ، فضحك صلى الله عليه وسلم وعرفها وقال لها : وانك لهند بنت عقبة ؟ قالت نعم ، فاعف عما سلف عفا الله عنك ، ولما قال « ولا يزنين » قالت هند : أوتزنى الحرّة ؟ ولما قال « ولا يقتلن أولادهن » قالت هند : ربيناهم صفارا وقتلنهم كبارا ، فأتم وهم أعلم ، وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر ، فضحك عمر حتى استلقى ، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والباقي تقدم ، وجواب الشرط قوله (فبائعهن) على هذا (واستغفرهن الله) عما مضى (إن الله غفور) لما سلف (رحيم) بالتوفيق فى المستقبل ، وهذه البيعة كانت بعد فتح مكة بعد أن فرغ من بيعه الرجال ، وقد كان صلى الله عليه وسلم على الصفا وعمر قاعد أسفل منه يبائعهن عنه بأمره ، ويبلغهن عنه ، وكانت هند متقنعة متسكرة خوفا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرفها لما صنعت بحمزة (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم) وهم اليهود ، إذ كان بعض الفقراء من المسلمين يوالونهم ليصيبوا من ثمارهم (قد يشسوا من الآخرة) أى من حظهم فيها ، لعلمهم بأنهم خالفوا ما فى التوراة التى فيها وصف النبي صلى الله عليه وسلم ، فعاندوه وقاوموه ، فهم يائسون من ذلك الحظ كيأس الكفار من رجوع من ماتوا ودفنوا فى القبور منهم ، وهذا قوله (كما يشس الكفار من أصحاب القبور) انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

خاتمة تفسير هذه السورة

اعلم أن هذه السورة مناسبة لما قبلها من حيث أن السورة المتقدمة فيها ذم المنافقين الذين حرّضوا اليهود على القتال ، وذم اليهود الذين يظنون جميعا وقلوبهم متفرقة ، ووصفهم بعدم العقل ، وذم الذى يتبع الشيطان فى وسوسته وخداعه ، فأما هذه السورة فانها تعليم للمسلمين ، ينهاهم عن موالة الأعداء لئلا يكونوا جميعا وقلوبهم شتى ، ولئلا يوصفوا بعدم العقل ، وإذا فعلوا ذلك ينطبق عليهم « مثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك » ، جاءت هذه السورة بعد المتقدمة إيقاظا للمسلمين أن يكونوا يدا واحدة ، ولا يطلعوا العدو على أسرارهم ، فإذا فعلوا ذلك انطبقت عليهم الأمثال المضروبة فى الكفار فى

السورة السابقة ، علم الله أن المسلمين سيصابون بهذا الداء ، فحذرهم عاقبة سوء فعلهم ، وكرّره في مواضع كثيرة ، وهذا الداء قد استفحل في المسلمين اليوم ، وغلبوا على أمرهم ، أما الفرنجة فانهم متحدون لما بينهم من الاشتراك في اقسام أم الاسلام وظلمهم .

حكاية مصرية

أخبرني رجل من الصالحين ، تركي الأصل : ذكر لي أن ابنه كان ببلاد فرنسا بصحبة أحد أبناء الأمراء ليربته هناك ، قال : وبينما هو يوما جالس في جماعة من عليّة القوم ، إذ قدم له أحدهم طباقا [التبغ] ليشر به ، فقال : لا أدخن اليوم فاني صائم ، فقال له رئيس الكليات : عجا لك ! أتبقى على هذه العقائد العتيقة بعد ما تنوّرت وعظم شأنك ، وارتقى عقلك ، وكان بين الجالسين فيلسوف من علماء الهند البوذيين ، فلما أرادوا الانصراف قال ذلك البوذي للشاب التركي المصري : اذا كان الغد فقابلني في مكان كذا ، فلما قابله توجه به إلى كنيسة تقام فيها الصلوات ، وفيها رئيس تلك الكلية يصلي ، فقال له انظر ماذا ترى ؟ قال أرى رئيس الكلية يصلي ، قال : لهذا طلبتك ، إن هؤلاء يريدون أن يرجعونا عن أدياننا حتى يصطادونا بسهولة فلنحذرهم فانهم لنا مهلكون مخادعون اهـ

وأقول : لقد قرأت في جرائدنا المصرية اليوم أن كثيرا من علماء فرنسا ، ومدرّسي الكليات ، وعلماء الأدب والحكمة قد أرسلوا خطابا إلى العسكر المحاربين ببلاد مصر اكش يحضونهم على مواصلة القتال لاستعباد المسلمين هناك ، فهؤلاء من الذين حذرنا الله منهم ، ووجب على المسلمين أن يفهموا أهل أوروبا فانهم يريدون هلاك المسلمين وابتلاعهم اهـ

لطائف هذه السورة

الأولى في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء » .
الثانية في قوله تعالى : « فاستحذوهم الله أعلم بإيمانهم » .

اللطيفة الأولى

إن آثار هذه الآية اليوم ظاهرة في مصر والشام والهند ، وأظهر حركات اليقظة بادية اليوم في بلاد الهند فقد جاء في جرائدنا المصرية يوم ٢ فبراير سنة ١٩٣٢ م ما ملخصه أن الكتلة الوطنية هناك قائمة بحركة العصيان المدني : أي انهم لا يريدون أن يشتروا شيئا من تجار الانجليز ، والانجليز يذيقونهم العذاب الشديد ولكن هؤلاء لا يبالون بما يصيبهم حفظا لحرّيتهم ، وحبا لبلادهم ، وقد زاد الانجليز عليهم الظلم ، فأمرؤا بالأخذ بمجرّد الشبهة بدون تحقيق ، وبالجلة فإن المقالة قد ختمت بهذه العبارة : « وهذا السلاح الاقتصادي الوحيد هو الذي يشجع الكثيرين على الاعتقاد أن أشدّ الحكومات اربابا و سطوة لابد وأن تحنى رأسها في النهاية أمام الحركة الوطنية الهندية ، حتى ان الذين يعتقدون بأن مذهب غاندي خشن وقديم ، ويرجع إلى عدّة أجيال إزاء التقدّم العصري أصبحوا الآن من الساخطين على أساليب الحكومة الحاضرة » وهذا أشبه بقبس من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء » وبهذا تمّ الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : فامتنحواهنّ الله أعلم بإيمانهنّ

حضر صديق العالم الذي اعتاد مباحثتي في هذا التفسير ، فقال : لقد تقدّم في ﴿ سورة الحجرات ﴾ عند آية : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » أتى سألتك في أمر امتحان النساء والرجال ، وقلت لك ما معناه : إن الله عزّ وجلّ شرع الامتحان ، وامتنحن القلوب كما في ﴿ سورة الحجرات ﴾ وأمرنا أن نمتحن المؤمنات كما في هذه السورة ، فالامتحان إذن مشروع في الجلّة ، ولقد ذكرت أنت قبل صفات الرجل الكامل وما شابه ذلك ، ففزني ذلك أن أسألك في هذا الموضوع ، فهل ما يشاع من أن الحكومات تريد بحث جسم الرجل وجسم المرأة ، أهما قويان ، وهل بهما عاهة أو مرض ؟ وهل هناك عارض عرض لهما يجعل ذريتهما ضعيفة كداء الزهري وغيره ؟ ولكنك أحلتني على هذه السورة ، وأنى أسألك فيها ، فقلت : أتذكر ذلك ، وهاهوذا الجواب :

اعلم أن الله عزّ وجلّ أعطى جميع الناس والحيوان في الأرض قوّة يحكمون بها ، فحكم الحيوان ظاهري بالفرزة ، والمقصود من وجود الأرواح في هذه الأرض كمالها ، ولا كمال إلا بالعقول ، ولا عقول كاملة إلا في أجسام قوية ، ولا منفعة لعقول وأجسام قويين إلا مع حسن الأخلاق التي بها كمال المعاشرة ، وإذا كان الرجل لا يكمل إلا بقوّة بدنه ، وحسن خلقه ، ورجاحة عقله ، وهكذا المرأة ، فوجب أن ينظر في أمر الزواج نظرا محدودا بحيث تسكون الأخلاق والأجسام والعقول صالحة للمشاركة في الحياة ، وهذه يستحيل أن يحددها القانون ، وقد جاء في شريعتنا في مذهب الشافعي أن الجنون والجذام والبرص كلهم مبيحات فسخ العقد وافتراق الزوجين ، والتفصيل في الفقه ، وليس هذا محله ، إذن أيها الصديق شريعتنا المطهرة لم تذر هذا الباب أيضا ، فالجنون مرض في العقل ، والجذام مرض في الجسم ، ولا جرم أن الأخلاق يضعفها ضعف الجسم كما يضعفها أيضا ضعف العقل .

وعليه أقول : إن هذا المقام لا يعوزه كثير عناء ، فعلى العقلاء بعدنا أن يبحثوا هذا الموضوع ، وأن يفكروا في أقوال الأئمة ، ويلخصوها ، ويرجعوا لأصل الدين ومقاصده ، وليبينوا أحكامهم الاجتهادية على ذلك الأصل ، وعلى ما استنتجوه منه ، ولتكن الأحكام على مقتضى ما يصل إليه نظرهم ، وما يفتح الله به عليهم ، فليس لي الآن أن أحكم بما لم أشاهد من أحوال ستكون في المستقبل ، فلكل مقام مقال ، والله جعل ديننا يسرا « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » فديننا يسر ، واليسر والعسر تعرفه العقول في كل زمان بحسبه مع حفظ أصل الدين والمحافظة على أساسه وقوانينه « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » . فقال حسن هذا ، ولكنني أريد ضرب مثل يقرب لي هذا المقال ؟ فقلت له :

اعلم أن الله عزّ وجلّ أودع في الإنسان وفي الحيوان كما قدمت لك قوّة بها يحكم على ما يراه ، أهو موافق أم مباين ؟ والحكم بالفرائض لا يعوزه نصب ولا بحث عميق ، فالخشرات ترى النار فتسرع إليها حبثا ، فتقع فيها فتموت ، وهي إنما قصدت الضوء ولم تقصد الاحتراق ، فهي حفظت شيئا وغابت عنها أشياء ، وما من رجل أو امرأة إلا وهو يفرق بين من يحب ومن لا يحب ممن يريد أن يصاحبه أو يعاشره ، فالرجل يرى المرأة فيعجبها جاهلها فيتزوّجها ، وأصل الوضع الإلهي أن حسن الشكل وصباحة الوجه واعتدال القامة ، كل ذلك منشؤه الصحة ، ومتى كانت المرأة صحيحة الجسم والوالد كذلك كان النسل على مقتضاهما ، فإذا رأينا الشاب يهوى شابة لبهجة جاهلها ، فهما لم يطلبوا إلا قضاء شهوتهما المبنية على بهجة الظواهر ، والحكمة الأصلية بقاء النسل الخبوء تحت تلك المظاهر البراقة المهيجة المنعشة ، يريد الله بقاء النسل بهذه المظاهر ، ويريد الإنسان بها التمتع .

ههنا تقابل المقصدان : المقصد الإلهي ، والمقصد الانساني الحيواني ، الله يريد بالزواج أو أي اقتران الولد وهو الذي سلط الشهوة المنبعثة بسبب نتائج الصحة على الحيوان والانسان ، ههنا تقابل المقصدان ورجعا إلى نقطة واحدة ، صانع يريد أن تكون صناعته في الولد متقنة ، وذو شهوة يريد أن يكون المشتبه مقبولا ، فقبول الصورة للتمتع ، وقبولها لجودة الذرية اتحدا وبهما نال الحيوان شهوته ، وأجاد الله صنعته ، هذا أصل الصنع الإلهي في كل حيوان ومنه الانسان .

الله أكبر : حصل اقتران وتزاوج واختلاط على أي سبيل كان وبأي وسيلة ، ولكن ليس ذلك بكاف لنوع الانسان ، لأن أحواله غير أحوال الحيوان ، فان أحواله مختبطة مختلطة ، مشتتة متشعبة ، لا تجزيه نظرة ، ولا تكفيه لحظة ، وإذا كنا نراه لم يكتف في تعاطي الطعام والشراب بمجرد لذته وحسن ظواهره ، بل رأيناه يبحث في البحث ويقاسي الأمرين في الدقة ، حتى انه في أيامنا هذه أخذت أوضاع الطعام والشراب تتغير ، وصار ما كان خيرا بالأمس شرا اليوم ، وما كان مقبولا أصبح مردولا .

الله أكبر : ألم يصبح الخبز المنخول الذي تصنع منه الفطائر وأنواع الرقاق وأمثالها مردولا مبغضا مكروها يحدث الامساك والمرض ، إذن لذة الطعام ليست بدالة على جودته ، أليس الخبز الذي فيه نخالة بحيث لا يدخل هو الذي أصبح المعول عليه الآن في الصحة ، وبهذه النخالة وماعها مما يسميه الناس [السن] في بلادنا المصرية يصبح الخبز نافعا في الصحة ، لأن ما يرميه الناس هو الذي فيه قوة الأبدان وصحتها ، ويتبع ذلك قوة العقل ، ومتى نخل الدقيق كان الخبز المصنوع منه أقل تغذية ، وهو يوجب الامساك والعكس بالعكس . وإذا كان طبخ الطعام أصبح اليوم في كشف الطب الحديث من مسببات الأمراض ، وكذلك السكر ، بل الأطعمة الطازجة التي لم تدخل النار في انضاجها كالخضر والفواكه هي النافعة في الصحة على شرط النظافة . أقول : اذا كان الأمر كذلك في الطعام وقد تغير الرأي الآن فيه ، ومعلوم أن البدوي الغر الجاهل في البادية أسعد وأصح بدنا من المتعلم المترف المنعم ، والعالم الجليل ، والفيلسوف العظيم ، والملك الكبير ، فكل هؤلاء يأكلون متبعين عادات أسلافهم ، يتغالون في التفتيز في المأكول والمشرب ، ويتبع ذلك ضعف أبدانهم ، وسقم أجسامهم ، وموت احساسهم ، ثم موتهم الأدبي ، ثم الطبيعى ، ويتبع الجليل الجليل ، والملك الملك ، والعالم العالم ، وهم يرون أهل البدو في سعادة لأنهم يقللون البذخ في طعامهم وشرابهم ، فأما هم فانهم لا يذكرون ولا يعقلون ، ويعيشون ويموتون وهم ساهون سامدون لاهون ، جاء العلم الآن ، وقال : أيها النائمون : استيقظوا أتم غافلون ، هذه اللذة معناها أنكم تمرضون وتموتون في عناء .

أقول : اذا كان الأمر كذلك في الطعام والشراب أفلا يكون كذلك في اقتران الرجل بالمرأة ؟ فنقول : اذا كانت لذة الطعام لا يكتفى بها في جودته ، فأحر بنا ألا نحكم ظواهر الجال في صلاحية المرأة للحياة الزوجية وإذا كان الطبيب لا يكتفى في معرفة المرض بما يسمعه من وصف مرضه ، ولا بما يسمعه بواسطة آلة السمع التي يسلطها على دقات قلبه ، ولا بما يراه من لون بوله ، ولا بحس نبضه ، بل نراه يسلط الأشعة على بعض أعضائه لتخترق الأشعة جلده ، وتتغلغل في جسمه ، فتظهر لنا ما خفي عنا ، وحينئذ يحكم على حال المريض ويصف الدواء .

حقيق بنا ألا ندع بابا من أبواب البحث إلا ولجناه ، ولا طريقا من طرق التدقيق إلا سلكناه ، فليبحث الرجل ، ولتبحث المرأة ، ولينظر في أمرهما ، أفى أحدهما مرض معد ؟ أضعف قوة عقلية أو جسمية ؟ وهل ذريتهما اذا حصلت تكون ضارة بالمجتمع لما فيها من المرض المعدي ؟ وإذا لم تكن ضارة من هذه الجهة هل تكون على الأمة لضعف أجسامها ، أو لضعف عقولها ؟ وهل يكون ضررها أكثر من نفعها أم بالعكس ؟

وكل ما كان ضرره أكثر من نفعه يجب الاحتراس من بقاءه ، لأننا نرى الحكمة الالهية والميزان المنصوب في السماء والأرض ألا موجود إلا على هذه الشريطة نفعها أكثر من ضررها .

هذا هو المثل الذي ضربته لك أيها الأخ الذكي ، وعلى العلماء بعدنا البحث والتقيب بكل ما أوتوا من علم ، وما نالوا من حكمة ، والله هو الولي الحميد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاكثفي صاحبي بذلك ، وقال : الحمد لله رب العالمين ، انتهت اللطيفة الثانية ، وبها تم تفسير [سورة المتحنة] .

تفسير سورة الصف

هي مدنية

آياتها ١٤ — نزلت بعد التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنَيَّانُ مَرْصُوصٌ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِمَ تَقُولُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْخِلُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى

تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ
 اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ
 اللَّهِ فَأَمَّا نَتُطَافِقُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ
 فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ *

وهذه السورة فيها لوم وتعنيف على مخالفة الفعل والقول ، فانهم وعدوا الصديق في القتال
 فولوا يوم أحد ، وفيها ذكر ما يحبه الله من القتال ، وفيها ذكر موسى وعيسى عليهما السلام .

تفسير بعض الألفاظ

بسم الله الرحمن الرحيم

(سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم) تفسيره معلوم (لم تقولون مالا تفعلون)
 إذ قلتم لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فأنزل الله : « إن الله يحب الذين
 يقاتلون في سبيله صفا » فوليتم يوم أحد (كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) المقت أشد البغض
 (صفا) مصطفين (كأنهم بنيان مرصوص) في تراصهم من غير فرجة ، والرّص اتصال بعض البناء ببعض
 واستحكامه (وإذا قال موسى) أي واذكر إذ قال الخ (لم تؤذوني) بالعصيان والكذب بما ليس في (وقد
 تعلمون أني رسول الله إليكم) أي بسبب ما جئكم به من المعجزات (فلما زاغوا) عن الحق (أزاغ الله
 قلوبهم) صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب (والله لا يهدي القوم الفاسقين) هداية توصلهم إلى
 معرفة الحق (مصداق لما بين يدي من التوراة ومبشرا) حالان (اسمه أجد) يريد محمدا صلى الله عليه
 وسلم ، يقول عيسى : إن ديني مصدق بالكتب الإلهية السابقة التي أشهرها التوراة وبآخر الرسل وهو محمد
 صلى الله عليه وسلم (ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الاسلام) أي لا أحد أظلم ممن
 يدعى إلى الاسلام فيضع موضع إجابته الافتراء على الله بتكذيب رسوله صلى الله عليه وسلم (يريدون
 ليطفئوا نور الله) أي أن يطفئوا ، واللام مزيدة للتأكيد ، ونور الله دينه ، أو كتابه ، أو حجته (بأفواههم)
 بطعنهم (والله متم نوره) مبلغ غايته بنشره وأعلانه (ولو كره الكافرون) أرغاما لهم (أرسل رسوله
 بالهدى) بالقرآن (ودين الحق) الملة الخفيفة (ليظهره على الدين كله) ليعليه على جميع الأديان (ولو كره
 المشركون) لأنهم لا يحبون إلا الأشرار ، وهو فيه التوحيد المحض ، وقوله (تؤمنون بالله ورسوله) مستأنف
 لبيان التجارة المنجية من عذاب أليم ، وذلك أمران : إيمان مكمل للنفس ، وجهاد مكمل للغير (ذلكم)
 أي ما ذكر من الإيمان والجهاد (إن كنتم تعلمون) أي ان كنتم من أهل العلم ، فان هؤلاء يعلمون أن
 الإنسان عليه أمران تكميل نفسه وإكمال غيره ، ثم قال : ان تؤمنوا وتجاهدوا (يفر لكم ذنوبكم
 ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم) ، ثم قال : ولكم
 إلى هذه النعمة المذكورة نعمة أخرى عاجلة محبوبة ، وهذا قوله (وأخرى تحبونها) ثم أبدل من أخرى
 قوله (نصر من الله وفتح قريب) عاجل أي تنصرون على قريش وتفتح لكم مكة وما بعدها من البلدان

وفي قوله « تحبونها » شيء من التوبيخ على محبة العاجلة (وبشر المؤمنين) معطوف على تؤمنون : أي كأنه يقول : آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون ، وبشرهم يا أيها النبي بما وعدتهم عاجلا وآجلا (من أنصاري إلى الله) أي من جندى متوجها إلى نصرته الله (نحن أنصار الله) أي الذين ينصرون الله ، والحواريون أصفياء محبون ، وهم أول من آمن به ، وكانوا اثني عشر رجلا ، وحواري الرجل صفيه من الحور ، وهو البياض الخالص (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم) بالحجة أو بالحرب بعد رفع عيسى عليه السلام (فأصبحوا ظاهرين) أي فصاروا غاليين . انتهى تفسير بعض الألفاظ .

إيضاح

كأن الله يقول : كيف تعدون أيها المسلمون وتخافون ، وتعاهدون وتنقضون ؟ فما أشد المقت والغضب والعقاب على من اتصف بهذه الخلة الشنعاء ، والطريقة السوءى ، فليكن فعل المؤمن مصدقا لقوله ، وهذا القول يشير إلى ما حصل للمسلمين اليوم من بوار التجارات ، وضياح الأقوات ، وذهاب المجد ، وبيان أن المسلم يستبيح اخلاف الوعد لإقليات من الصادقين ، وكذلك الكذب والخلف . والفرجة بين ظهرانينا قد أصبحت التجارة في أيديهم بأغلى الأثمان ، لأنهم غالبا يحفظون الوعد ، ويتظاهرون بأنهم صادقون مخلصون ، وقلة تخافون . فأما المسلمون : أي الجملة منهم ، فالحلف ذائع شائع ، والكذب واخلاف الوعد كل ذلك مباح في نظرهم ، لذلك تنصرف الناس عنهم ويتوجهون إلى محال الفرجة التي يقولون فيها ان الثمن محدد ، مع أنهم يعاونونه أضعافا مضاعفة ، ولكن صدق القول وعدم اخلاف الوعد هما الخلتان اللتان اتصف بهما الفرجة بيننا مع نظافة محالهم وحسن اللقاء والبشاشة ، وأهم هذه الأوصاف صدق الوعد الذي من خالفه وقع في أشد الغضب ، وهو مقت الله ، وأي مقت أشد مما نحن فيه الآن ؟ أصبحنا لا يأمن بعضنا بعضا إلا قليلا ، فبارت التجارة ، وقلت الأمانة ، هذا من المقت الذي حل بأمة الاسلام اليوم .

يطلب الله منا أن تطابق أفعالنا أقوالنا ، وأن نكون صفا واحدا في قتال العدو ، ومقتضى ذلك أننا نكون صفا واحدا في أمور الحياة كلها ، فلاجهاد إلا مع نظام الأحوال الداخلية ، وجبجج مرافق الحياة ، فالجندى في الحرب محتاج للطرق الحديدية وماقبلها من زراعة وتجارة وصناعة وأمن ومدارس ، وهذا كله لا يكون إلا بحكومة منظمة تحفظ البلاد ، وهناك يكون الاتحاد ، والاتحاد هو الذي عليه نظام هذا العالم ، فهذا هو سر قوله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا » ، ثم أتبع ذلك بفرضين : الغرض الأول أن يوقع اليأس في قلوب الكافرين من محاولتهم اضعاف الاسلام ، وأن الله سيظهره ، وأن يسلي النبي صلى الله عليه وسلم على كفر من كفر ، الغرض الثاني تحريض المسلمين على كمال أنفسهم ، وتكميل غيرهم ، ووعدهم بالنصر ، فقال في الغرض الأول مايفيد أن موسى أرسل لقومه فزاغوا عنادا فغم الله على قلوبهم لأن الأعمال الظاهرة من الأقوال والأفعال لها آثار تقع في القلب فتكسبه نورا تارة وظلمة أخرى ، وهؤلاء زيفهم عن الحق وعنادهم أكسب قلوبهم ظلمة فغم عليها ، وهكذا عيسى عليه السلام جاء مصدقا بالتوراة ، بشرنا بمحمد صلى الله عليه وسلم فكفر به قومه ، فليكن لك يا محمد أسوة بمن سبق من الأنبياء فقد صبروا على إيذاء قومهم وتكذيبهم ، ثم قال : وأن الله قضى أن من قام بالحق منصور ، فهل يتصور هؤلاء أن يمنع الهداية عن عباده ، إن الله حكم أن يرفع منارالحق ويهدم بنيان الباطل ، إذ لا يبقى إلا الأصلح للوجود ، فليس يؤخر الله رقي الانسان لأجل طائفة تكره الفضائل .

والغرض الثاني كأن الله يقول فيه : أيها المسلمون : الإيمان بالله والجهاد هما الخلتان اللتان بهما تفوزون في الدارين ، إذ لا فوز في الدنيا ولا في الآخرة إلا بعلم وعمل ، والإيمان أفضل مافي العلم ، والجهاد أفضل مافي

العمل ، فلتكن فيكم الحصلتان أضمن لكم ثلاث خلال : غفران الذنوب ، ودخول الجنة ، والنصر المصحوب بالفتح قريبا ، واتقنوا بحوار في عيسى إذ قالوا : « نحن أنصار الله » ونصرناهم على أعدائهم فأصبحوا ظاهرين عليهم ، ولا جرم أن النصارى ظاهرون على اليهود إلى الآن ، وإلى يوم القيامة ، هكذا ستكونون أيها المسلمون ظاهرين على أمم العالم قاطبة ، هذا معنى هذه السورة .

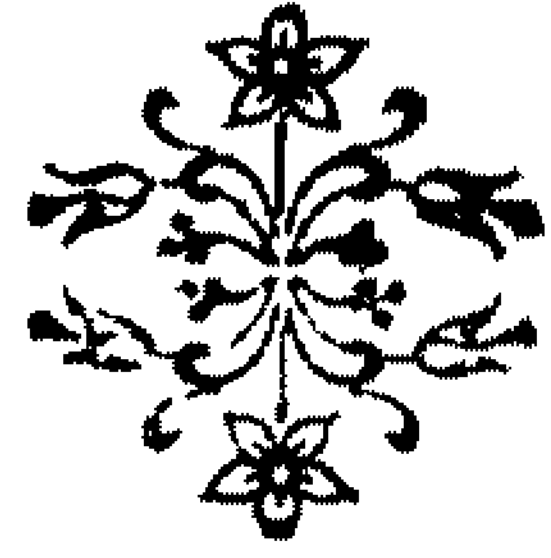
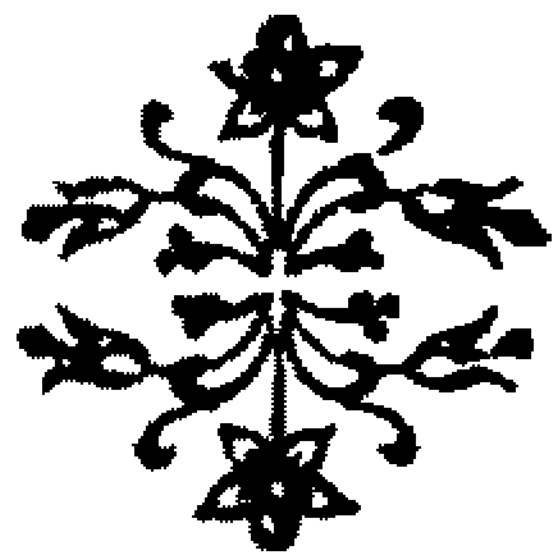
أقول : ولكن في هذا الزمان لا ظهور للمسلمين إلا قليلا ، ذلك لأنهم لم يقوموا بالصدق والجهاد ، والجهاد لا يتم إلا بنظام تام في الدولة كما تفعل الأمم المحيطة بنا .

ثم لتعلم أيها الذكي أنى موقن أن هذا التفسير سيكون من دلائل الرقى الاسلامى المنتظر قريبا ، وأن الله سيؤيد الدين بنشره ، وأنه سيقروؤه الأذكىاء من المسلمين في حياتنا وبعد موتنا ، وستكون لهم آثار حسنة .

إن وعد الله حق ، وقد وعد المجاهدين بالنصر ، والجهاد يبتدىء من تعليم الصبيان في المسكن ، إلى المزارع والحقول ، إلى التجارة ، إلى انشاء الطرق والتلغراف (البرق) إلى صنع الطيارات والمدافع ، إلى علم السياسة والعمران والاقتصاد ، كل ذلك من الجهاد ، وتمامه غلبة العدو وحفظ البلاد ، وقد تضمن هذا التفسير ذلك كله وحض عليه ، فلتكن مجاهدا بما سمعت ، ولتحرّض المسلمين على الأخذ بأسباب العمران والرقى ، فهذا أوائل أسباب الجهاد ، بل لاجهاد إلا بعلم ، فاذا لم يكن علم فلا جهاد كما هو حاصل في الاسلام اليوم .

جهلوا جميع العلوم التى بها الحياة فناموا فأخذتهم الفرنجة ، فأول كل شيء في الجهاد اليوم هو العلم ، هو بث الفكرة ، إن العالم اليوم هو المجاهد الأكبر ، هو الذى يحى ما اندرس من المجد ، فاذا كانت هذه حال العلم أفلا أقول لك بحق أن الله سيدفع هذا التفسير وينشره ، وينشر نظيره من آراء أرباب الأفكار الثاقبة في مصر والهند وجميع بلاد الاسلام ، ويقرؤه ويقرؤها الأذكىاء من المسلمين ، ويخرجون الناس من الظلمات إلى النور ، نعم هذا سيتم حقا كما قال تعالى : « والله متم نوره » وكما قال : « ليظهره على الدين كله » . أقول : ولا أخشى في الحق لومة لائم أن ظهور الاسلام سيكون في الأزمان المقبلة ، وسيظهر فضله ، ويعلو شأنه .

أيها الذكي كن عبدا لربك مخلصا له ، واقصد بالاسلام منفعة الجنس البشرى كله والمسلمين خاصة ، وتعرف هذا من سابق هذا التفسير ، ثم ان قوله تعالى : « وببشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » قد تقدم الكلام عليه في (سورة البقرة) و (آل عمران) وغيرهما نقلا عن انجيل برنابا ، فارجع إليه هناك إن شئت ، وإلى هنا تم الكلام على سورة الصف ، والحمد لله رب العالمين .



تفسير سورة الجمعة

هي مدنية

آياتها ١١ - نزلت بعد الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * هُوَ
الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنِي ضَالِّينَ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَثَلُ الَّذِينَ
حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ
أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ
تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا
نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا
وَتَرَكَوْكَ فَإِنَّمَا قُلُوبُكُمْ مَبْغُضَةٌ إِلَى اللَّهِ فَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ

هذه السورة مناسبة لما قبلها تمام المناسبة ، إن في السورة السابقة الأمر للمؤمنين بالجهاد وأن يكونوا
صفا كأنهم بنيان مرصوص ، وفيها توبيخهم على أنهم وعدوا أن يقدموا في الجهاد أنفسهم وأموالهم فولوا
الأدبار يوم أحد ، فأمر الله المؤمنين في هذه السورة بالسمي إلى ذكر الله وصلاة الجمعة ليكونوا صفوا منظمة
فيها كصفوف الحرب ، وعنف اليهود ووجعهم على أنهم حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار ، وليس ذلك
خاصا باليهود ، بل كل أمة تركت مقاصد دينها ، ولم تعمل فهي كالخير ، فذكرها هنا ليدرك المسلمون كيف يقولون

مالا يفعلون ، فاذا أصبح ذلك خلقا فيهم والعياذ بالله أصبحوا مثل اليهود يحملون الكتب ولا ينتفعون بها ، فلم يواجه الله المسلمين بذلك بل وكأها إلى الفطن والعقول الذكية ، وأيضا ذكر في السورة السابقة التجارة الأخوية الراجحة بالجهاد ، وهنا ذكر التجارة التي هي دنيوية ، وهذه السورة مبدوءة بما يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل للأمينين ولن بعدهم إلى يوم القيامة ، ويلى ذلك ذم اليهود على عدم عملهم بكتبهم ، ويلى وجوب السعى لنداء الجمعة وتوبيخ من لم يسارع إليها . ولنشرع في تفسير السورة فنقول :

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم) فكل شيء في السموات والأرض اذا نظرت إليه ذلك على وحدانية خالقه وعلى تنزيهه ، وجيع الأشياء مسخرة له مقهورة ، فالتسبيح إما دلالة للعقلاء ، وإما حصول الآثار في الأشياء المسخرة لله (هو الذي بعث في الأميين) هم العرب ، والأمي هو الذي يكون على ما خلق عليه كأنه منسوب إلى أمه (رسولا منهم يتلوا عليهم آياته) مع أنه هو نفسه أمي مثلهم (ويزكهم) يطهرهم من دنس الشرك (ويعلمهم الكتاب) أي القرآن (والحكمة) السنة (وإن كانوا من قبل) من قبل ارسال محمد صلى الله عليه وسلم (لفي ضلال مبين ، وآخرين منهم) أي من المؤمنين ، وهم المؤمنون إلى يوم القيامة من جميع الأمم ، ومنهم الفرس .

روى عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : [كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نزلت سورة الجمعة ، فتلاها ، فلما بلغ : « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » قال له رجل يا رسول الله : من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فلم يكلمه حتى سأله ثلاثا ، قال : وسلمان الفارسي فينا ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان وقال : والذي نفسي بيده لو كان الإيمان باثريا لتناوله رجال من هؤلاء] أخرجاه في الصحيحين وقوله (لما يلحقوا بهم) أي لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون (وهو العزيز) في تمكنه من هذا الأمر الخارق للعادة (الحكيم) في اختياره وتعليمه (ذلك فضل الله) أي ذلك الفضل الذي امتاز به على أقرانه فضل الله (يؤتيه من يشاء) تفضلا وعطية (والله ذو الفضل العظيم) الذي يحتقر في جانبه نعيم الدنيا والآخرة ، فاذا كان محمد قد أرسلته إليكم أيها الأميون وإلى من يأتي بعدكم فاني أمرهم أن يعملوا بالكتاب ولا يكونوا كاليهود الذين لم يعملوا بكتبهم ، وهو قوله (مثل الذين حملوا التوراة) أي علموها وكافوا العمل بها (ثم لم يعملوها) لم يعملوا بها ولم ينتفعوا (كمثل الجار يحمل أسفارا) أي كتابا من العلم يتعب في حملها ولا ينتفع بها ، وقوله « يحمل أسفارا » صفة لآمال ، لأن الجار لم يقصد أن يكون معينا (بنس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) وهم اليهود ، والمخصوص بالذم محذوف ، ثم إن شأن من لم يعمل بالكتاب الذي أنزل إليه أن يكون غافلا جاهلا محبا للحياة الدنيا ناركا للآخرة ، فأعقبه بما يدل على ذلك بأوضح سبيل كأنه يقول : أيها الناس : أتم كالجبر ، فلا عقل ولا تفكير ، ولا هدى ولا كتاب منير ، ولو كنتم مهديين ولله حق عارفين لفرحتم بالموت وتمنيتم لقاء الله ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فاشوا في صدوركم ، وانظروا ما نقش في قلوبكم ، وسلوا ضمائركم ، أستم للموت كارهين وللقاء الله مبغضين ، والحياة محبين ؟ ولو كانت الأعمال مرضية ، والنفوس مضيفة قوية ، مشرقة بنور ربها لأعرضت عن الدنيا اعراضا ، وفرحت بلقاء الله ، وتمنت الموت ، والموت باب يدخله الله المحبون ، ويلججه بسرور وفرح الصالحون ، ولكنكم لاتحبون الموت لما ران على قلوبكم من الخبائث ، وماختم عليها ، وهذا قوله تعالى (قل يا أيها الذين هادوا)

نَهَوْدُوا (إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه : أى إن كان قولكم حقا وأنتم على ثقة منه فتمنوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعا لمحضوا بكرامته ، وتفرحوا بإسعاده ، والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم (ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم) بسبب ماقدّموا من الكفر والمعاصي (والله عليم بالظالمين) فيجازيهم (قل إن الموت الذى تفترون منه فإنه ملاقيكم) أى لا ينفعكم الفرار منه ، فما الانسان فى الدنيا إلا كما قال طرفة بن العبد :

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لَكَ الطَّوْلُ الْمُرْخَى وَثَنِيَّاهُ بِالْيَدِ
مَتَى مَا يَشَأْ يَوْمًا يَقْدُهُ لِحَتْفِهِ وَمَنْ يَكُ فِي حَتْفِ الْمَنِيَّةِ يَنْقَدِ

وقوله (ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازيكم عليه (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة) أى إذا أذن لها عند جلوس الامام على المنبر للخطبة (من يوم الجمعة) أى فى يوم الجمعة ، وسمى بذلك لاجتماع الناس فيه للصلاة ، وكانت العرب تسميه العروبة (فاسعوا إلى ذكر الله) فامضوا إليه مسرعين قصدا ، والسعى دون العدو ، والذكر الخطبة ، أو الصلاة (وذروا البيع) واركوا المعاملة (ذلكم) أى السعى إلى ذكر الله (خير لكم) من المعاملة فى ذلك الوقت (إن كنتم تعلمون) مصالح أنفسكم ، أو من أهل العلم (فإذا قضيت الصلاة) أدت وفرغ منها (فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) كعبادة المريض ، وحضور الجنائز ، وزيارة الاخوان فى الله ، وطلب العلم ، والتصرف للتجارة ، وهذا الأخير هو المباح ، وما سواه مندوب أو واجب .

وعن عراك بن مالك : انه كان اذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، وقال : اللهم أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين .
وقوله (واذكروا الله كثيرا) واذكروه فى مجامع أحوالكم ، ولا تخصوا ذكره بالصلاة ، بل اذكروه قايما وقعودا ومضطجعين ، والطاعة أيضا من أنواع الذكر (لعلكم تفلحون) .
روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب للجمعة فرّت غير تحمل الطعام من دقيق وبرّ وزيت وغيرها ، قدم بها دحية بن خليفة الكلبي من الشام بالتجارة ، وكان اذا قدم لم تبق عاتق بالمدينة إلا أته ، ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدمه ، فيخرج إليه الناس ليتناعوا منه ، فخرج الناس إليه إلا اثني عشر ، فنزلت (واذا رآوا تجارة أو طهوا انفضوا إليها) أى اذا رآوا تجارة تفرّقوا إليها ، أو طهوا تفرّقوا إليه ، واللهو هنا الطبل المذكور (وتركوا قائما) على المنبر (قل ما عند الله) من الثواب (خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) إذ لا يفوتهم رزق الله بترك البيع ، فهو خير الرازقين . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

فى هذه السورة لطيفتان

- (١) فى قوله تعالى : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .
- (٢) فى قوله تعالى : « يا أيها الذين اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : فتمنوا الموت إن كنتم صادقين

اعلم أن فى هذه السورة تبيان حقيقة الولاية وشرح أصولها ، وأحوال الأمة الاسلامية ، وبيانه أن الله

ابتدأ السورة بأن الأمة الأتية أرسل الله لها رسولا أميا ليتلو عليهم الكتاب ويعلمهم ، ثم أردف ذلك بذي
اليهود على أنهم أعطوا الكتاب فلم يعملوا به فأصبحوا كالخير ، ولاداعي لذلك في كتابنا المقدس إلا اذا كان
لتهذيبنا ورقينا واسعادنا ، إن القرآن ذكر للعالمين ، وليس مجرد ذم اليهود بدون فائدة لنا ، وانما ذمتهم
بأنهم حير تلميحاتنا اذا خالفنا وتعريضنا بالأمم الاسلامية النائة اليوم الذين ناموا عن العلم والحكمة ، وللأمة
الاسلامية [مراتب ثلاث : الأولى] انها حين أنزل عليها القرآن كانت بدوية ، فكانت تلقن الكتاب تلقينا
[الثانية] أنها بعد اتساع الملك أصبحت دارسة للعلوم ، ملحة بالمعارف الواسعة [الثالث] أن يصطفى الله منها
أناسا يكونون واقفين على أسرار هذا الوجود ، محبين لربهم ، عاشقين له ، مواعين بالآخرة ، متمنين أن
يكونوا معه ناظرين إلى وجهه الكريم بما قدموا من صالح الأعمال ، فأول المراتب رمز لها بأول السورة ،
وهو قوله : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة
وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » والثاني رمز له بذي اليهود على عدم العمل بالكتاب ، فاذن هو يمدح
العالمين بالكتاب العاملين به ، ومعرفة الكتاب تستلزم علوما شتى ، والثالثة رمز لها بقوله لليهود : « قل
يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » .

واعلم أن هذا هو السر المصون ، والجوهر المكنون ، والنور المبين ، والحسن والبهاء ، والاشراق الالهي
الذي أرسله الله للأمة الاسلامية تعلما لهم وتفهيما .

علم الله أن المسلمين سيقعون في هذا الدور الذي أصبحنا فيه ، فأخذ يعلمنا اليوم ما جهلناه ، ويدرس
لنا ما أغفلناه ، ويذكرنا مانسيناه ، يذم اليهود ويقول : انكم أيها اليهود كالخير ، لماذا ؟ لأنكم أعطيتهم
كتابا فلم تعلموا مافيه ، وان علمتم لم تعملوا .

أيها الذكي : قل لي : أليس هذا هو الذي وقعنا فيه الآن ؟ أليست هذه حالنا ؟ أصبحت الأمم كلها في
الشرق والغرب متعلمين ، وأمم المسيحية تلاميذ آبائنا هم العلماء في سائر العلوم ونحن أقل الأمم علما ، وأخسهم
منها حظا .

يا عجب كل العجب ! أمة يأتي نبيها بلا كتابة ولا قراءة ويقول الله « ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم »
ويقول في آية أخرى : « ن ، والقلم وما يسطرون » ، وفي أخرى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق
الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » .

يقول الله : « علم الانسان ما لم يعلم » لعلمه أن كتاب الله يستلزم قراءة جميع العلوم واستيعابها ، أمة
هذا شأنها تصبح أقل الأمم علما وأكثرها جهلا ، أمة ينزل القرآن عليها ويحفظه أبناءها عن ظهر قلب
ويكتفون بذلك في أكثر البلاد الاسلامية ، وهم عن العلم معزولون ، وعن طريق الرشاد ناكبون ، وفي
ميدان الحرب والسياسة مخذولون ، ألساء ما يصنع الجاهلون ، يكتفون بما دون الأئمة رحمه الله من علم
الفقه ، ويظنون أنه لا شيء وراءه كذبوا والله ، القرآن بحاله لم يغير منه شيء ، ولم ينسخ ، وهو باق ، فليدرس
القرآن وليفهم ، لما وقع المسلمون في هذا الداء الويل قرونا وقرونا أصبحوا عبرة الأمم ، ومثلا في الجهالة
والضعف ، ولكن بعد ما بينا في هذا التفسير ، وهكذا كثير من علماء الاسلام شرقا وغربا ستكون أمة لم
ينجب الدهر مثلها . وما مثل الأمم الاسلامية المستقبلية إلا كمثل زرع وضع في أرض خصبة لم تضعف بتكرار
الزراعة فيها ، ثم سقيت وسمدت ، فان زرعها يكون أسرع نباتا ، وأغزر ثمرا ، وأعظم نفعا ، ذلك مستقبل
المسلمين ، فانهم سيجيئون عقب أم نامت نوما عميقا ، والعقول بحالها مهيتة مستعدة للعلم والعمل فينبغون
ويرشدون ، والله هو الولي الحميد .

الكلام على الولاية

علم الله أن المسلمين في القرون التأخرة سيكثر فيهم الكلام في الولاية والأولياء ، فأنزل هذه الآية بشكل لا يكتدر صفوا المسلمين ، فلم يقل : أيها المسلمون : إذا أنتم كرهتم الموت فليستم خواص الله ، لم يقل ذلك وترك الأمر للعقول تفكر فيه ، بل خاطب اليهود وقال لهم : إن كنتم خواص الله حقاً فالكلم لا تحبون الموت بقلوبكم ؟ كلا . أنتم لستم خواص الله ، بل أنتم كعامة الناس تفرّتون من الموت والموت ملائكم . هذا ظاهر القول ، ولكن حقيقته تعليم المسلمين ، فهو من حيث الظاهر ذم لليهود من جهة وتكذيب ومن جهة أخرى تعليم للمسلمين ليعرفهم من هم أولياء الله .

من هو الولي ؟

اعلم أن النوع الانساني وكل أنواع الحيوان يكرهون الموت بالطبع كراهة تامة ، إن في الموت قطع للذات وفراق الأحباب ، والانسان بعد الموت جيفة قدرة ، يأكله الدود ، وتغافه النفس ، فالموت أكبر المصائب في أرضنا ، لذلك فرّ منه الانسان والحيوان ، وهذا الفرار نعمة من الله عليهم ، إن العالم الذي نحن فيه أحيط بالجهالة العمياء من جميع جهاته ، وبعض الجهالة نافع ، فإذا سلط الله على الحيوان وعلى الانسان الجهل بمصيره بعد الموت ، فذلك ليحافظ الحي على حياته ، إذ لو علم أن هناك حياة أخرى في عالم أظلم من هذا لسارع إلى الخروج من هذه الحياة مع أن وجود الانسان في الأرض دروس لا بد منها حتى يهتأ له المقام هناك ، فحياتنا إذن نعمة وجهلنا بالموت نعمة ، وانما كان الجهل بالموت نعمة لأننا لانعرف المصالح لضعف قوانا العاقلة ولو كملت عقولنا لعرفنا مصالحنا ، وأن الحياة في الأرض دروس نحافظ عليها ولو كان هناك عالم أجل من هذا ونقى في سجن الأرض حتى يأتي الوقت الذي فيه تفارقها ، ونحن مزودون بالقوى والأخلاق التي تساعدنا على الرقي هناك ، ولكن علم الله أننا لانقدر على الاطاعة بهذه العلوم ، واننا لأقل مرض أو حزن أو ألم نغادر الأرض ونتركها لعلنا أننا أحياء في عالم آخر ولو في أدنى درجات الحياة ، لذلك ترى الانسان والحيوان كل منهما مجبول على كراهة الموت وحبّ هذه الحياة ، فلافق بين المسلم واليهودي والمجوسي والحيوان في هذه الحياة . ولما كانت حياتنا في الدنيا للدراسة والعلم للارتقاء هنا ، وكان ترك الناس بلامذكريهم على الغفلة ذكروا تارة بالأنبياء ، وأخرى بالحكماء ، وآونة بعلاماء الأرواح ، فيقولون لهم : « إن لكم حياة بعد الموت فخذوا للوصول إليها » وهؤلاء اذا سمعوا هذا القول يعملون كل على قدر جهده وطاقته مع كراهة الموت التي غرست في القلوب ، فترى المسلمين يصلون ويصومون ، وكذا جميع الأمم تعبد على طريقتها ، ولكنهم يكرهون الموت لأنه لا يقين عندهم بأن هناك حياة بعد الموت . اذا فهمت هذا فلتبحث في معنى [الولي] : اعلم أن كل مسلم في الأرض ، أتابع لنبي لم ينسخ دينه ، فهو ولي الله ، قال تعالى : « الله وليّ الذين آمنوا » والولي من تولاه الله برعايته وتولى هو الله بطاعته ، فكل مؤمن في الأرض فهو ولي ، وليس المقام في الولاية العامة إنما نحن الآن في مقام الولاية الخاصة كما قال تعالى : « ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » وهنا يكون الكلام فنقول :

قد علمت نظرية الموت وانها مبغضة عند جميع الناس ، ولكن في كل جيل وفي كل أمة نبغ أناس سارعوا إلى العلم والعمل والدراسة والنظر والفكر ، واطلعوا على أعاجيب الخليفة ، وأسرار الطبيعة ، وأدركوا أن هناك جالا وبهجة وحكمة وعلم ، وأن هذه العوالم تدار بيد لم نرها ، وبحكمة فوق متناولنا فيشتاقون شوقاً حقيقياً ، بل بهيمون هيما ، ويفرطون في العشق : أي عشق تلك الادارة التي أدارت هذا العالم ،

وهؤلاء يحبون النوع البشرى حبا جاف فيفيضون الخير عليه ، ويرسلون من قلوبهم أشعة العرفان إلى أقاصيه وأدانيه ، ويرون أنهم خلفاء الله في أرضه ، وأمامهم بما استكملت نفوسهم من علم ، وبما تحلت جوارحهم من عمل جديرون أن يكونوا آباء للنوع الانساني ، فهم إذن خلفاء الأنبياء والقائمون مقامهم ، وهؤلاء يبعثهم الله آنا فآنا يوقظون النائمين ، وينصحون المستيقظين ، وإذا حرصوا على الحياة قائما يحرسون عليها للغاية المذكورة ، والأعمال المشكورة ، وفي الوقت نفسه يقول الواحد منهم : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت إلهي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين » يقولها لا كما يقال الآن بل يكون هذا القول خارجا من النفس بل هو حاطا وان لم ينطق به ، فترى الرجل منهم يعيش ليكمل نفسه ويكمل غيره ، فإذا علم أنه قد أتم ما عليه ، وأنه لم يبق عنده كمال إلا وقد أخذه عنه تابعوه ، فانه إذ ذاك يحب الموت لعله أن الحياة لم يبق لها قيمة ، وأن روحه قد أصبحت ملائمة لذلك العالم العلوي مناسبة له فتأنف إذ ذاك من البقاء هنا ، وهذه الطائفة القليلة في أرضنا إذا جاءها الموت كانت مستريحة مطمئنة منسريحة الصدر ، وإذ ذاك تموت موتا يسرها .

هذا هو الولي كما تقدم في قوله تعالى : « أنت إلهي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين » لأن روي تناسب تلك الأرواح الشريفة وترتاج لمناجاتها ، هذا هو الولي الخاص ، وهذه الطائفة هي التي قال الله فيها : « وقليل من عبادي الشكور » . وقد قلنا في هذا التفسير مرارا أن الأمم الإسلامية سيذيع فيها التعليم وترتقي وتأخذ حظها في الأمم ، ومماثل الأولياء في المسلمين في العصر الحاضر بالنسبة للأولياء في الأجيال المقبلة إلا كمثل جهل المسلمين اليوم بالنسبة لرقى الأمم الإسلامية المستقبلية ، فالأذكاء في أمة أشبه بالأمم ، وكذلك الحكماء ، فهذا ولي الله الخاص الذي امتاز عن الناس حوله من مسلمين وغيرهم كما قال تعالى : « إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .

هذا هو الولي أوفهم القرآن ، فأما ذلك الذي يفرح بكثرة الأتباع للشهوة أو بتقبيل اليد أو نحو ذلك فانما هو رجل ابتعد عن ولاية الله واقترب من ولاية الشيطان ، فإن القرب من الله يستدعي احتقار الحياة الدنيا ، وقد قلنا ان هذا لا يكون إلا لمن ذكرناه .

ثم اعلم أيها الذكي أن عذاب النوع الانساني في الدنيا والآخرة إنما يكون بالجهل ، فكل عذاب ناشئ من الجهل ، والعلم هو الذي يمنع العذاب ، ومن عذاب الدنيا أن الموت موكل بنا ونحن له كارهون ، فالنظام العام لا يتغير ، ونحن للنظام العام كارهون ، والكمال يقضي أن تكون العقول تحب ما يقتضيه النظام العام ، ولا سبيل إلى ذلك في أرضنا كما قدمنا إلا بصرف النفس إلى الكمال العلمي والكمال الخلقى ، فلا تذرحجرا ولا شجرا إلا ففكرت فيه ، ولا تدع علما إلا اطلعت عليه بقدر الامكان ، وابحث عن الأسباب والتأثير ، وفي هذا التفسير ما يغني اللبيب ، وفكر في كل شيء عام وخاص ، وخذ من كل شيء عبرة ، واجعل هذا ديدنك ، وأحب منفعة الناس بقلبك وبعملك لأن الناس أشبه بنفس واحدة قد تفرقت إلى نفوس كثيرة ، وليكن هذا ديدنك ، فانك إذا فعلت ذلك وواظبت عليه تجدد الله أمامك في كل أمر ، وتجده يعينك ولا يتركك ويأخذ بيدك ، ولا تزال تقترب إليه وهو يلحظك حتى تعرف الحقائق التي ذكر في هذا التفسير بعضها ، واذن تصبح نفسك موافقة للنظام العام ، فلا ترى في الموت إلا خروجا من سجن إلى حرية ، فان لم تجد في نفسك هذا اليوم فستجده غدا ، ومن جد وجد ، فاحرص الحرص كله أن تكون نافعا للناس بعلم أو بعمل أو بهما ، وأن تكون عاشقا للحكمة التي نقشها الله بيده في هذا الوجود ، وأبرزها في كل موجود ، واذن تكون ولي الله حقا فلا تخاف ولا تحزن ، وكيف تحزن على ما خلفت وأنت موقن أن الله يحفظه ، أو تخاف من أمر في المستقبل وأنت عرفت الحقائق ، والله هو الولي الجيد . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة الح

لأنخص تلك أيها الذكي هنا ماجاء في الأخبار وأقوال الفقهاء :

(١) — [مسلم] : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » .

(٢) — [البخارى ومسلم] : « فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه ، وأشار بيده يقللها » .

(٣) — [البخارى ومسلم] : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، وذكر في الثالثة الكبش الأقرن ، وفي الرابعة الدجاجة ، وفي الخامسة البيضة ، فاز أحرم الامام حضرت الملائكة يستمعون الذكر »
(٤) — [مسلم] : « من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة واستمع وأنصت غفر له ما بين الجمعة والجمعة » .

(٥) — [البخارى] : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من الطهور ، ويدهن من دهنه ، ويمس من طيب بيته ، ثم يخرج فلم يفرق بين اثنين ، ثم يصلى ما كتب له ، ثم ينصت اذا تكلم الامام إلا غفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة الأخرى » .

(٦) — [مسلم] قال صلى الله عليه وسلم لقوم يتخلفون عن الجمعة : « هممت أن آمر رجلا أن يصلى بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم » .

(٧) — [الفقهاء] : تجب على كل مسلم حرّ بالغ عاقل ذكر مقيم اذا لم يكن له عذر في تركها ، ولا جمعة على صبي ، ولا مجنون ، ولا على النساء ، ولا العبيد .

(٨) — [الفقهاء] يقول أبو حنيفة : لا جمعة على أهل السواد سواء أكانت قريتهم قريبة أم بعيدة ، وقال الشافعى : يلزمهم اذا سمعوا نداء مؤذن جهورى الصوت ، وحدد الزهرى ذلك بستة أميال ، وربيعة بأربعة أميال ، ومالك والليث بثلاثة أميال .

(٩) — التخلف عنها لعذر جائز اذا كان هناك طين ودحض وزلق أو نحو ذلك .

[١] كان النداء يوم الجمعة أوّله اذا جلس الامام على المنبر على عهد صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثانى على الزوراء ، وهو موضع عند سوق المدينة قريب من المسجد ، ويقال انه مرتفع كالمنارة .

[ب] السعى إلى ذكر الله بالقلب والخشوع ، وقد نهوا أن يأتوا إلى الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، وفي حديث البخارى ومسلم : « اذا سمعتم الاقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فاتموا » .

(١٠) — [الفقهاء] : لا تنعقد بأقل من أربعين رجلا عند الشافعى وأحمد واسحق ، ابن عمر شرط أن يكون فى الأربعين وال ، والشافعى لم يشترط هذا الشرط : على بن أبى طالب شرط أن تكون الجمعة فى مصر جامع ، وأبو حنيفة على هذا رأى :

[١] انعقد عند أبى حنيفة بأربعة ، والوالى شرط عنده .

[ب] الأوزاعى وأبو يوسف قالا تنعقد بثلاثة بشرط أن يكون الوالى فيهم .

[ج] الحسن : تنعقد باثنين كسائر الصلوات

[د] ربيعة : تنعقد باثني عشر رجلا .

[هـ] لا تنعقد إلا في موضع واحد من البلد ، وهو قول الشافعي ، ومالك ، وأبو يوسف .

[و] وقال أحمد : تصح بموضعين إذا كثرت الناس وضاق الجامع ، ورد في البخاري ومسلم أنه صلى

الله عليه وسلم قال : « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والامام يخطب فقد لغوت » .

هذا هو نهاية الكلام على اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم

الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في

الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وإذا رأوا تجارة أو هوا انفضوا إليها

وتركوا قانما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازيين » وبهذا تم تفسير [سورة الجمعة]

يوم الجمعة ١٩ من ذى الحجة الحرام سنة ١٣٤٣ هجرية — الموافق ١ يوليو سنة ١٩٢٥ م .

تفسير سورة المنافقون

هي مدنية

آياتها ١١ — نزلت بعد الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا

رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ يَخْسَبُونَ كُلَّ

صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَتَى يُؤْفَكُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا

يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّارُءٌ وَهُمْ وَمِنْهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ

عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْفَاسِقِينَ * هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَاللَّهُ خَزَائِنُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ

لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا

يَعْلَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ

يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *

في هذه السورة مسألان : وصف المنافقين ، والحض على الانفاق قبل الموت

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(إذا جاءك المنافقون) عبد الله بن أبي وأصحابه (والله يعلم انك لرسوله) كلام مستأنف ليس من كلام المنافقين (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) أى فى قولهم : « نشهد إنك لرسول الله » لأنهم أضمرُوا خلاف ما أظهروا ، وكل من أخبر بشئ وهو يعتقد خلافه فهو كاذب ، فالكذب هنا مخالفة اللسان للجنان (اتخذوا أيمانهم جنة) سترًا يستترون به من القتل ، وقد كانوا يحلفون بالله أنهم لمنكم ويقولون « نشهد إنك لرسول الله » (فصَدُّوا عن سبيل الله) أى منعوا الناس عن الإيمان والجهاد فى السر (ذلك) إشارة للحال المذكورة من النفاق والكذب الخ (بأنهم آمنوا ثم كفروا) أى بسبب أنهم آمنوا ظاهراً ثم كفروا سراً فتمرت نوا على الكفر وصار التلون سجية لهم (فطبع على قلوبهم) ختم عليها واستحكم الكفر فيها (فهم لا يفقهون) حقيقة الإيمان ولا يعرفون صحته .

ثم وصف هياتهم الظاهرة والباطنة ، فهم فى الظاهر ضخام الأجسام صباحها ، ومنطقهم عذب ، وكلامهم عذوبة وحلاوة ، وهم فى الباطن كأنهم خشبات نخر جوفها ، فهى فى الظاهر ضخمة حسنة ، وفى الباطن فارغة مجوفة ، فلذلك تراهم جبناء ، حتى إذا سمعوا منادياً ينادى ، أو انفالت دابة ، أو نشدت ضالة ، ظنوا أنهم هم المقصودون ، وأن أمرهم افتضح ، فهم سيهانون ، لأن المريب يكاد يقول خذونى ، والسارق يكاد إذا رأى القيد أن يقول ضعونى ، نخذ حذرَكَ منهم فإِنَّكَ كافيك أمرهم ولا عنهم ، وهذا قوله تعالى (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) الخشب جمع خشباء ، وهى الخشبة التى نخر جوفها ، شبهوا بها فى حسن المنظر ، وقبح الخبر ، فهم كأشباح بلا أرواح ، أو أجسام بلا أحلام ، ومعنى « مسندة » أى إلى الحائط ، فليست بأشجار مثمرة ينتفع بثمرها وغيره فى المستقبل (يحسبون كل صيحة) واقعة (عليهم هم العدو فاحذرهم) لأنهم متهمون ، وقوله (قاتلهم الله) دعاء عليهم كأنه سبحانه يطلب من ذاته أن يلعنهم (أنى يؤفكون) أى كيف يصرفون عن الحق (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوأروؤسهم) أى أمالوها وأعرضوا بوجوههم رغبة عن الاستغفار ، وقوله (يصعدون) أى يعرضون عما دعوا إليه (وهم مستكبرون) عن الإيمان .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لقي بنى المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتلهم ازدحم على الماء رجلان : رجل يقال له [جهجاه] وهو أجير عمر ، ورجل يقال له [سنان الجهنى] وهو حليف عبد الله بن أبي واقتلا ، فصرخ جهجاه وقال بالمهاجرين ، وسنان قال بالأنصار ، فأعان جهجاه رجل من المهاجرين ولطم سناناً فقال عبد الله للمهاجر : ما صبحنا محمداً إلا للطم ، والله مامثلنا ومثلهم إلا كما قال : [سمن كليك يا كلك] أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل [يريد بالأعز نفسه ، وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم] ، ثم قال لقومه : لوأسكتكم عن هذا وذويه فضل الطعام لم

يركبوا رقابكم ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفقوا من حول محمد ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله ، قال إذن ترعد أنف كثيرة يثرب ، قال فإن كرهت أن يقتله مهاجر فأمر به أنصاريا ، قال : فكيف اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! ثم قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله : أنت صاحب الكلام الذي بلغني ، قال والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك وإن زيدا [يريد زيد بن أرقم المبلغ] الكاذب ، فنزلت هذه الآيات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن أرقم : يا غلام : إن الله صدقك وكذب المنافقين ، فلما بان كذب عبد الله قيل له : قد نزلت عليك آية شداد ، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك ، فلوى رأسه وقال : أمرتموني أن أومن فآمنت ، وأمرتموني أن أزكي فزكيت ، وما بقي إلا أن أسجد لمحمد ، ولم يلبث إلا أياما حتى اشتكى ومات ، وقوله (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) أي سواء عليك الاستغفار وعدمه (لن يغفر الله لهم) لرسوخهم في الكفر (إن الله لا يهدي القوم الفاسقين) الخارجين الذين لا يمكن إصلاحهم (هم الذين يقولون) للأنصار (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفقوا) يريد فقراء المهاجرين (والله خزائن السموات والأرض) فهو الذي بيده الرزق والقسم (ولكن المنافقين لا يفقهون) ذلك لجهلهم (يقولون لن رجعنا إلى المدينة لنخرجن الأعز منها الأذل) والله العزة ورسوله وللمؤمنين (أي والله الغلبة والقوة ولمن أعزته من رسوله والمؤمنين ، وهذا القول قد تقدم شرحه في ذكر السبب (ولكن المنافقين لا يعلمون) افترط جهلهم ثم قال (يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) نهى للمؤمنين أن تشغلهم الأموال وتديرها عن ذكر الله بالقلب واللسان في الصلاة والعبادات وفي سائر الأوقات كما شغلت المنافقين (ومن يفعل ذلك) للهوبها (فأولئك هم الخاسرون) وأي خسر أعظم ممن باع حقيرا فانيا بعظيم باق ! (وأنفقوا مما رزقناكم) أي بعض أموالكم (من قبل أن يأتي أحدكم الموت) أي دلائله (فيقول رب لولا هلا (أخرتني) أمهلتني (إلى أجل قريب) أمد غير بعيد (فأصدق) فأصدق (وأكن من الصالحين) بتدارك ما فات (ولن يؤخر الله نفسا) ولن يمهلهما (اذا جاء أجلها) آخر عمرها (والله خير بما تعملون) فجاز عليه . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

إيضاح

اعلم أن [سورة الجمعة] إنما دعت إلى فهم كتاب الله وحوز العلم والحكمة ، وألا يكون المؤمنون كاليهود الذين جلاوا التوراة ثم لم يحملوها ، واتضح فيها صفة الولي ، وأنه هو الذي سارع إلى الخيرات ، ولم يبال بالموت بل يتمناه ، ثم ذكر الصلاة ، وذكر الله في كل حين لإينماء المحبة الإلهية في النفس حتى تحب لقاء الله ، فلما فرغ منها أتى بهذه السورة التي أماطت اللثام عن الصبر على إيذاء المنافقين ، وعداوة الأصحاب المخادعين ، وبيان أن الإنسان في هذه الدنيا يقوم بما قسم له من الأعمال ، وكلما كان أكثر نفعا وأبعد أثرا كانت العداوة له أعظم خطرا ، وحساده أشد ضررا : وترى الزوج يسمى على زوجته ، والوالد يكسب لأبنائه ، والأستاذ يحث لارتقاء تلاميذه وينصحهم ، ومع ذلك كم من زوجة كانت هي الداء العضال لزوجها ، وكم من ولد كان حسرة ونقمة على والديه ، وكم من تلميذ كان حرا باعوانا على أستاذه ، فأنزل الله في القرآن : « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم » ، وقال : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » وأنزل [سورة التحريم] الآية قريبا ، وذكر فيها إيذاء الزوجات لأزواجهن ، وأنزل هذه السورة بعد [سورة الجمعة] ، كل ذلك ليعلم الصبر على المصائب ، والحق أن في أكثر الناس استعدادا لأعمال الشريعة ، ولكن من يجوز الامتحان وبصبر عليه قليل ، ألا ترى أن كثيرا من الناس يسمى في الأعمال النافعة حتى اذا صدمته صدمة ،

أو أصابته نكبة ، أو آذاه من أحسنوا إليه ، أو واجهوه بالازدراء والسخرية والتهمك ، فانه ينصرف عن نفعهم ويقطع عن نصحتهم ، ويرجع لعقريته مدحورا ، ذلك لأنه لا قدرة له على السير في الامتحان ، وليس من رجال هذا الميدان ، ولا هو من طالبي الجليات الحسان ، فيرجع القهقري ، ويترك الوري ، كأنه لا يسمع ولا يرى ، خائبا وهو كليل ، كأن الله بهذه السورة يقول : أيها المؤمنون : ها هوذا نبي أمددته بالقرآن ، وجعلت الناس يلتفون حوله ويعظمونه ، فليس منكم من يعظمه الناس ويحلقونه مثله ، فالمعلمون منكم والمدرسون لا ينالون من تعظيم تلاميذهم ما ناله ، ولا يؤثر في قلوبهم ما أثره ، ثم انه آذاه المنافقون من أصحابه ، وأوحى الله إليه بما أسروا في أنفسهم ، وما أظهروا بالسننهم ، ومع ذلك لم تنهن عزيمته ، ولم تضعف همته ، بل دام على النصيح والارشاد ، وهذا من خلة الصبر والعزيمة ، فصاحب العزيمة لا يثنيه عن عزيمته الجيوش الجرارة ، ولا السيوف البتارة ، ولا الأصدقاء الخائثون ، ولا الأبناء العاصون ، ولا الزوجات الماكرات ، فالعزيمة والهمة يخضع لها الجبارون ، ويدلها المتكبرون ، ولا يقف في طريقها أعظم الصعاب ، ولا عيب من عاب . يستعظم المعلم أنفة من تلقى علمه ، أفلا يذكر هذا المعلم أن خير الخلق قد آذاه من أسلم على يديه ، ثم ظهر نفاقه وثبت بالقرآن ، والنبي صلى الله عليه وسلم صابر على من آذوه ، ماض في عمله ، مطيع لربه ، والله هو الولي الجيد .

فتكون إذن [سورة الجمعة] للعلم والعمل [والمنافقون] للصبر وقوة الأمل : « والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فلا وصيك بالحق فتم به في هذه الأمة التي خفضها الجهل ، وأزرى بها الكسل ، وستري من تلاميذك وبعض أسرتك من يناوئوك إما سرا وإما جهرا ، فلتسر في طريقك . واعلم أن الرجل اذا سافر فشا كته شوكة فانه لا يضيع الزمن في الكلام عليها ولا في الشكوى منها ، بل يتبع الركب ولا يتوقف فيضيع الزمن لأجل الشوكة وكيف دخلت ، ويأخذ في سبها ، فان ذلك كله ضياع لمصلحه ، فهكذا هنا هؤلاء المنافقون الذين يحيطون بالعامل الصادق من كل جانب لا يفتني أن يصمدوك عن عملك : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين ، إنا كفيناك المستهزئين » . انتهى تفسير سورة المنافقون ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة التغابن

هي مدنية

آياتها ١٨ — نزلت بعد التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَدَّقُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحْحَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفهْ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

مقدمة

هذه السورة مع ما قبلها تتحدان في أمر ، وهو الصبر على القراء ، فسورة المنافقين فيها صبر النبي صلى الله عليه وسلم على نفاق من حوله ، جيء بها لتكون ذكرى للعلماء ، أولحكام أنهم إذا رأوا منافقين من اخوانهم وتلاميذهم ورعاياهم فلا يقعدن ذلك بهمهم عن الجد والتشجيع في خدمة المجموع ، وسورة التغابن ذكر فيها أن من الأزواج والأولاد أعداء ، فيكون الملخص من هذين ألا يبتئس الانسان بما يقاسى من الأصحاب والتلاميذ والرعية والزوجة والولد ، وملخص ذلك أن الانسان في الدنيا وحده ، فلا يطمعن فيها أن يكون واثقا كل الثقة بأحد ، فإذا كانت [سورة الجمعة] للعلم والعمل فسورتا [المنافقين والتغابن] للصبر ، فاذن دينا يحرّض على الأعمال القلبية وهي عنده بالمقام الأول ، فبغير الصبر لا علم ولا عمل ، ثم ان السورتين اشتركتا أيضا في الانفاق والحق عليه في آخرهما ، ولنشرع في التفسير اللفظي فنقول :

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(يسبح لله ما في السموات وما في الأرض) التسبيح بالدلالة على تنزيه الصانع وكماله ، وبأن هذه المخلوقات مسخرة منقادة ، فالانقياد تسبيح ، والدلالة تسبيح ، وقوله (له الملك وله الحمد) فهو يتصرف تصرف اختصاص ، فلا جد إلا له ، لأنه مصدر الخبرات ، ومفيض البركات (وهو على كل شيء قدير) يفعل ما يشاء ، ولا جرم أن عدم تنأهى القدرة على الأشياء مما يوجب جلال الملك واتساع نطاق الحمد (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) فإذا متم وبعثتم رجعتم إليه بصفاتكم التى متم عليها .

وفى حديث مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم » اهـ

وانما كان ذلك لأن كل مخلوق تابع لاستعداده المستمد من النظام العام ، وهذا الاستعداد مخلوق فيه للتربية كما يربى النبات والحيوان ، ولذا أعقبه بقوله (والله بما تعملون بصير) أى عالم وبصير بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم ، وبما كان سبباً لهما من استعدادكم ، وبما يكون نتيجة لهما من جزائكم (خلق السموات والأرض بالحق) بالحكمة البالغة ، ولقد ظهر أثر تلك الحكمة فى تصويركم فكنتم مختلفين فى الصور كما اختلفتم فى العقائد ، فإذا كان فى صوركم السوداء والبيضاء والى بينهما ، فهكذا فى عقائدكم الكفر والإيمان والعصيان ، فالكفر كالسواد ، والإيمان كالبياض ، والوسط بينهما كالصفرة والحرة فى أهل الصين وأهل أمريكا الأصليين ، فإذا كانت هذه حالكم فى صوركم التى اقتضاها النظام ولم يكن هناك تناقض بل النظام محكم ، ولم يقل أحد من الحكماء ولا الفلاسفة أن السواد خطأ ، أو البياض خطأ ، أو الصفرة ، أو الحرة النحاسية ، هكذا سيكون فى العالم الروحى نظام مستفقهونه بعد الموت إذا انكشف عنكم الغطاء ، فانكم سترون أن كفر الكافر من حسن نظامنا كما كان إيمان المؤمن من حسن نظامنا ، فإذا كان الحنظل فى الأرض والبطيخ والعقرب والجراد والذئب والغزال والسم والغذاء والنار والماء ، كل ذلك من مقومات هذا الوجود أو من حسن نظامه ، هكذا ستعرفون فى عالم الأرواح أن اختلاف العقائد لمصالح كصالح اختلاف الأغذية والأدوية والمهلكات فى هذه الحياة ، وسترون أن الأنبياء والعلماء والحكماء أشبه بالزراع يزرعون المزارع لمصالح الإنسان ، وأن العقائد الزائفة كالحشائش التى يتعمد الفلاح اقتلاعها من الأرض بفأسه ، هذه المعانى بعض ما يفهم من قوله (وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير) فليجد المرء منكم أن يكون ممن تأهلوا للقاء الله بقلوب صافية عاقلة ، وليحذر أن تكون صورته القلبية مشوهة فلا يصلح للقاء الله كما لا يصلح المشوه للوجوه للقاء الملوك ، ولا لأنس الأصحاب (يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور) فلا تخفى عليه خافية ، قد استوى فى علمه ظواهر الأمور وبواطنها ، ثم خاطب أهل مكة قائلاً (ألم يأتكم نبي الذين كفروا من قبل) كقوم نوح وهود وصالح (فذاقوا وبال أمرهم) أى ضرر كفرهم فى الدنيا وهو ما لحقهم من العذاب ، وهكذا الأمم العاصية التى كسبت وتركت ما يجب عليها من أمة الاسلام فى القرون الآخرة ذاقوا وبال أمرها فى الدنيا فأصبحوا عبرة الأمم وضرب الأمثال بالجهل والذل ، فهؤلاء يصلحون للاعتبار بهم ، فهم قد وقعوا فى عذاب الاختلال واحتلال أهل أوروبا لعفتهم وجهلهم ، فهؤلاء يصلحون لأن يعتبر بهم المسلمون الخاليون والذين يأتون بعدهم ، بل الاعتبار بهم أقرب ، لأنهم ذاقوا وبال أمرهم ، وفى التعبير بقوله : « ألم يأتكم نبي الذين كفروا من قبل » فتح باب للاعتبار بالتاريخ ، لافرق

بين قوم نوح وقوم من أمم الاسلام كأهل الأندلس الذين أذاقتهم أوروبا كأس الذل ، وأخرجتهم من ديارهم كما أخرج المسلمون اليهود من جزيرة العرب ، بمثل هؤلاء فليعتبر المسلمون ، وقوله (ولهم عذاب أليم) أى فى الآخرة ، وهكذا المسلمون المقصرون فى فروض الكفايات ، وهى جميع العلوم والصناعات سيعذبون بعد الموت عذاب التقصير لعذاب الكفر لأنهم مؤمنون . واعلم أن كثيرا من أهل العلم اليوم فى بلاد الاسلام غافلون نائمون ، فقد بلغنى أن أحدهم اطلع على ما كتب فى ﴿ سورة البقرة ﴾ من قولى : [إن علم الأجنة يحرم تركه على المسلمين] فظن ذلك الغافل أن هذا القول شئ اخترعته ، ففرح بذلك وقال : إن هذا ليس فى الدين ، وقد وهم ، لأن هذا ليس واجبا عينا بل هو فرض كفاية ، وهكذا جميع العلوم والصناعات والأمة كلها تعذب بترك فرض الكفاية ، لأنه نقص لاحق بالأمة كلها (ذلك) المذكور من الوبال والعذاب (بأنه) بسبب أن الشأن (كانت تأنيهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات (فقالوا أبشريهدوتنا) أى أنكروا أن يكون الرسل بشرا ، فهم لا ينكرون أن يكون معبودهم حجرا ، وينكرون أن يكون رسول المعبود انسانا ، كأن الرسول يجب أن يكون أشرف من المرسل الذى أرسله (فكفروا) أى جحدوا وأنكروا (وتولوا) أعرضوا (واستغنى الله) عن إيمانهم وعبادتهم (والله غنى) عن خلقه (جيد) فى أفعاله . هذا تمام الكلام فى كفرهم وتكذيبهم الأنبياء ، ثم أتبعه بذكر انكار البعث فقال : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل) يا محمد لهم (بلى وربى لتبعثن) هذا قسم ليؤكد به الجواب (ثم لتنبؤن بما عملتم) بالمحاسبة والمجازاة (وذلك على الله يسير) أى أمر البعث والحساب يوم القيامة (فآمنوا بالله ورسوله) محمد صلى الله عليه وسلم (والنور الذى أنزلنا) وهو القرآن (والله بما تعملون خبير) فجاز عليه وقوله (يوم يجمعكم ليوم الجمع) متعلق بتنبؤن ، ويوم الجمع هو يوم القيامة ، إذ يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، وأهل السموات وأهل الأرضين (ذلك يوم التغابن) مستعار من تغابن القوم فى التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضا ، كأن يبيع أحدهم الشئ بأقل من قيمته ، فهذا غبن للبائع ، أو يشتريه بأكثر من قيمته ، فهذا غبن للمشتري ، وأى غبن أعظم من أن قوما ينعمون وقوما يعذبون ، وأن قوما مغبونين مظلومين فى الدنيا أصبحوا فى الآخرة غائبين لمن غبنوهم فى الدنيا وظالموهم : إن الكفار غبنوا فى شرائهم ، لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ، فأما المؤمنون فقد ربحت تجارتهم (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا) أى عملا صالحا (يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) وهذا هو التغابن ، فالؤمن الذى عمل الصالحات فى الجنة ، والكافر فى النار ، وهذا هو ملخص التغابن .

وهنا يرد السؤال فيقال : وإم هذا ؟ وكيف خلقتهم ونوعتهم ؟ هلا جعلتهم جميعا سعداء ، مع أنك قادر على كل شئ ؟ وكيف تعذب وأنت أرحم الراحمين ؟ إن العقل هنا لا يستطيع الإجابة على هذا . وبما يؤيد هذا السؤال ويقويه أنه يقول (ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله) أى بقضاء الله وقدره وإرادته ، ولا جواب على هذا السؤال إلا ما جاء فى أول السورة : « هو الذى خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم » وقد تضمن الاختلاف فى الصور ، فالاختلاف هنا كالاختلاف هناك ، ومن الحكماء وأرباب البصائر من يعرفون سر هذا الاختلاف ، وأن وجود الخنظل والبطيخ ، والبقعة والفيل ، والحر والبرد والمطر والخلو مشابهات تمام المشابهة لما فى العقول من كفر وإيمان ، وخير وشر ، وجهل وعلم ، وأن النظام فى الحالين واحد ، ولكنهم لا يريدون أن يذكروا الحقائق التى عرفوها ، لأن جمهور النوع الانسانى غير كفؤ لفهم هذه الحقائق ، فلذلك يكتُمونها ، وهكذا أنت أيها الذكى إذا كنت ممن عرفوا الحقائق ، فأنت مضطر

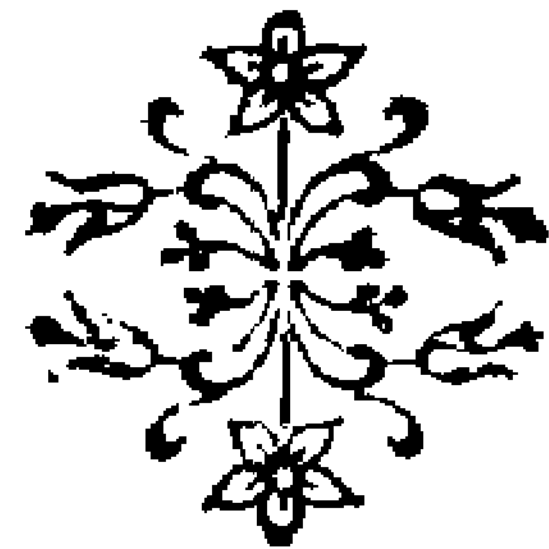
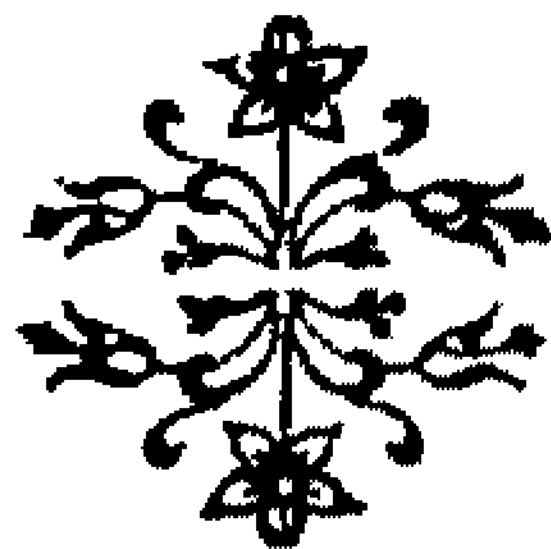
أن تكتمها عن الناس في هذا الموضوع وحده ، لأن عقولهم لاتتحمله ، وهذا المقام فيه مثال واسع في ﴿ سورة الأعراف ﴾ عند قوله تعالى : « ورحمتي وسعت كل شيء » فارجع إليه إن شئت .

هذا في معنى الآية من حيث العلم ، أما مغزاها من حيث العمل فإن سورة المنافقين المتقدمة ، وانهم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يأتي في هذه السورة بعد هذه الآية من إبداء الأزواج والأولاد للبعولة والآباء فإن الله يبين لنا أن هذه المصائب مقدرة ، فإذا عاب المنافقون نبيهم وأنكروا نعمته ، وإذا أنكر التلاميذ نعمة أساتذتهم ، والأبناء نعمة آبائهم ، فلا يحزن النبي ولا الأساتذة ولا الآباء ، وكيف يحزنون على شيء قدر عليهم قبل خلقهم ؟ كما لا ينبغي أن يحزن الناس على الاختلاف في الكفر والإيمان والجنة والنار ، لأن ذلك الاختلاف من جلة النظام الذي وجد عليه العالم ، وليس معنى هذا أن الإنسان لا يعمل ولا يجتهد في هداية الكافرين ، ونصح العاصين ، وتأنيب المنافقين ، وإرشاد وتأديب النساء والبنين كلا : إنما ذلك القول ليستروح به الناس بعد أن يكونوا قد عملوا ما يجب عليهم وأتموه ، فأما إذا لم يتوا ما يجب عليهم من هداية أو تهذيب لأنفسهم ولغيرهم ، رسي في الكسب والعمل لهم ولغيرهم فانهم معذبون بهذا عذابا شديدا ، ويكون ذلك وفق القضاء .

وما يخص هذا أن الإنسان يتم ما يجب عليه له ولغيره ، ثم بعد ذلك لا يبالي بما يأتي به القضاء ، وهذا هو التوكل . ولما كان هذا تمام السعادة في الدنيا والآخرة بحيث يكون الإنسان مجتادا في عمله ، والقيام بأمره ، والسعي لتمام الأمور ، مريحا نفسه من عناء الهم والنهم ، لعله أنه قد فعل كل ما يجب عليه ، وأن ما فوق ذلك ليس في طاقته ، فهما كان من خير أو شر بعد ذلك فلن يهوله أمره ، وإن يحزن عليه ، لذلك أعقبه بقوله (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) بوقه لليقين ، وهذا هو عين اليقين ، وأي نعمة أعظم من هذه النعمة ، جد في عمل ، واستراحة من غم وحزن ، واطمئنان نفس ، ووثوق بفضل ، وعلم بأنه لم يقصر (والله بكل شيء عليم) والقلوب من جلة الأشياء فهو مطلع عليها (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توايتم) فلا بأس عليه (فأنما على رسولنا البلاغ المبين) لأن وظيفته التبليغ وقد بلغ فإذا عليه بعد ذلك ؟ هل يكلف بما فوق طاقته ؟ إذن هو لا يحزن بعد ذلك ، وقد هدى الله قلبه ، وعرف أن للقضاء والقدر أثرا تاما في البرية ، هكذا كل امرئ في الأرض فليفعل ما يجب عليه ، وليس عليه غير ذلك ، ولهذا أشار بقوله (الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أي فليفعلوا غاية جهدهم ، ثم ليكوا إلى الله نتائج أعمالهم ، ولا يحزنوا على ما يصيبهم ، إذ ليس في طاقتهم رده ، وإنما الحزن يكون على التقصير ، ونموذج التوكل مسألة التبليغ ، فقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وليس عليه بأس إذا لم يؤمنوا ، نعم إذا أمر بقتالهم وهو قادر وقصير فانه يؤاخذ على ذلك ، لأن في القتال ضرا قليلا لطائفة من الناس فيدخلون في الإيمان ثم يأتي بعدهم مالا نهاية له من الأمم إلى يوم القيامة فيدخلون في الدين طوعا لا كرها .

ثم أعقبه بمسألة تصيب الناس في داخل منازلهم ، وهي مما ينبغي التوكل فيه بعد التأديب الشديد والقيام بالنظام على أتم وجه فقال (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم) أي أن من الأزواج أزواجا يعادون بعولتهن وبخاصتهن ، ومن الأولاد أولادا يعادون آباءهم ويعقونهم ، وهكذا الأزواج والأولاد يكونون سبب جبنكم عن القتال ، ويحلكم بالمال ، وجهلكم ، لأنهم يشغلونهم بحلب المال لهم ، كما اتفق لعوف بن مالك الأشجعي ، وكان ذا أهل وولد ، فإذا أراد أن يغزو بكوا عليه ورققوه وقالوا إلى من ندعنا ؟ ففريق عليهم فقيم ، وأيضا كان رجال آخرون من أهل مكة أرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه أن يأتوا النبي ﷺ فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا

الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم فنزل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم » (فاحذروهم) ولاتأمنوا غوائلهم (وإن تغفوا) عن ذنوبهم بترك المعاقبة (وتصفحوا) بالأعراض وترك التريب عليها (وتغفروا) باخفائها وتهيد معذرتهم فيها (فإن الله غفور رحيم) يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم ، وهذا العمل هو الذي فعله ﷺ مع المنافقين فإنه لم يعاقبهم وعفا عنهم وحذرهم فالإنسان إذن في منزله أشبه بقائد الجيش في حومة الوغى لا ينفك عن مهاجمة عدوه وصيانة عسكره ، فهو دائما في حذر ، ثم أتى بالنتيجة وأبان أننا اليوم سائرون لله في هذه الحياة ، وليس هؤلاء الأولاد والنساء ولا الأصحاب هم المقصودون ، بل المقصود الأعظم الوصول الى الله ، ولو كان المقصود هؤلاء لكانوا نعمة لا نقمة فيهم ، ونعما لا عذابا ، ولكن الله جعل السم في دسمهم ، والعذاب في نعيمهم ، والشقاء محبوا في الاستراح لهم ، ليكون ذلك دليلا أن هؤلاء ليسوا نهاية الأعمال إنما هم بمن ابتلينا بهم في طريق سفرنا الطويل الشاق ، والنتيجة أننا نكون في دار لا يكون الخير فيها مشوبا بالشر ، وهذا قوله تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) اختبار لكم (والله عنده أجر عظيم) لمن آثر محبة الله وطاعته ، إذن فليكن المقصد الأعظم نهاية الأمر لا الوقوف في أثناء السفر . ولما كانت هذه الامور فيها اختلاط على النفس واختباط فلا يدري الانسان ماذا يعمل وجب عليه صيانة أهله وولده ، ووجب عليه جهاد عدو البلاد والنزال معه للحرب فلا يدري ماذا يصنع ان حارب العدو ترك أهله وان بقي مع أهله دخل العدو البلاد ، وهكذا يعيش الانسان بين المتناقضات وهو في حيرة ، والفؤاد معذب بين الامور العامة والخاصة ، لذلك أعقبه بما يفيد أن الانسان يفسكر فيما فيه المصلحة بقدر طاقته ، وهذا قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) أي ابدلوا في تقوا جهنم وطاقتم (واسمعوا) مواعظه (وأطيعوا) أوامره (وأنفقوا) في وجوه الخير لوجهه وائتوا (خيرا لأنفسكم) أو أنفقوا انفاقا خيرا (ومن يوق شح نفسه) الذي استوجبه الفتن بالأموال والأولاد (فأولئك هم المفلحون) أي هم الفائزون (إن تقرضوا الله) بصرف المال فيما أمر به (قرضا حسنا) مقرونا بالاخلاص وطيب القلب غير مكترنين بما تسمعون من أولادكم وأزواجكم (يضاعفه لكم) عشرا وسبعمئة أو أكثر (ويغفر لكم) بركة الاتفاق (والله شكور) يعطي الجزيل بالقليل (حليم) لا يعاجل بالعقوبة (عالم الغيب والشهادة) ما غاب وما شهود (العزيز الحكيم) تام القدرة والعلم . انتهى تفسير [سورة التغابن] والحمد لله رب العالمين .



تفسير سورة الطلاق

هي مدنية

آياتها ١٢ - نزلت بعد الانسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْضُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا * وَاللَّائِي يَتَسَنَّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنْ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا * ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا * أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا يَدَيْكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمِشْرُوعٌ لَهُ أُخْرَى * لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيِّجَعُلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا *

مقدمة

هذه السورة فيها معاملة الزوجات حال بقائهن في العصمة وحال مفارقتهن من الامساك بالمعروف ، ومن الطلاق والعدّة ، ومن الانفاق في مدتها ، فناسب أن تذكر بعد [سورة التغابن] التي ذكر فيها الصبر والعفو عن الأزواج والأولاد الذين هم فتنة ، فهنا أبان أن من هؤلاء الذين فتنتهم بهم من تقدرهم على مفارقتهم ، فلتكن المفارقة بالمعروف كما يكون الامساك بالمعروف ، أما الأولاد والأصحاب الذين لامفرو من صحبتهم كالأبناء العاقين ، وكل منافقين أزمان النبوة ، فليس هؤلاء حال يتبرأ منهم الانسان إلا حال الكفر ، فاذن تكون البراءة ، أما فيما عدا ذلك فلتكن النصيحة والتأديب تارة والعفو والصفح أخرى ، ثم يتخلل تلك الأحكام الشرعية في هذه السورة ذكر التوكل وارجاع الامور إلى الله كما في [سورة التغابن] إذن هذه السورة كالتممة للتي قبلها والموضحة لبعض ما أجل فيها .

ولما طال الكلام في هذه السور على علوم المعاملة وهذا يجعل الانسان اذا استغرق فيه ناسيا ذكر ربه ختم السورة بأن الله خالق سبع سموات وسبع أرضين ، وأنزل قضاءه وأمره بينهن بنظام حسن ، ليعلمنا علم مبدعانه ، وبرق نفوسنا ببدايع حكمه ، وعظيم آياته ، هذا ملخص هذه السورة اجالا .

ملخص الأحكام في هذه السورة

- (١) إن المطلقة عدتها ثلاثة قروء وهي الاطهار ، أو الحيضات رأيان .
- (٢) ولا تخرج من البيت حتى تنقضي عدتها إلا في أحوال خاصة .
- (٣) فإذا شارفت العدّة أن تنقضي فالرجل الخيار إما أن يراجعها واما أن يفارقها بالمعروف .
- (٤) وإذا راجعها أو فارقها فليشهد على ذلك ذوى عدل .
- (٥) المرأة التي يثبت من الحيض ، والتي لم تحض عدّة كل منهما ثلاثة أشهر .
- (٦) الحامل عدتها بوضع الحمل وينفق على الحامل حتى تضع حملها وتخرج من العدّة .
- (٧) فإذا أرضعت المرأة فلها أجر الارضاع .
- (٨) الانفاق من المعسر ومن الموسر كل بقدره . اهـ

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها النبي) قل لأمتك (إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) أي لزمان عدتهن ، وهو الطهر لأنها تحصل في العدّة عقيب الطلاق فلا يطول عليها زمان العدّة ، وقد كان ابن عمر طلق امرأته وهي حائض فذكر

ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتعظيمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : مره فليراجعها
ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ، ثم تطهر ، فان بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسه ، فتلك العدة التي
أمر الله أن يطلق لها النساء . وفي رواية لمسلم أنه قال : « مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهرا أو حاملا » .
(وأحصوا العدة) واضبطوها وأكملوها ثلاث أفراء كوامل لا نقصان فيها ، وانما خوطب الأزواج لغفلة النساء
(واتقوا الله ربكم) في تطويل العدة والاضرار بهن و (لا تخرجوهن من بيوتهن) أي من مساكنهن التي
يسكنها قبل العدة ، وهي بيوت الأزواج ، فتكون السكنى إذن واجبة ، فلا يخرجهن البعولة غصبا عليهن
وكرهه لمساكنتهن ، أو حاجة لهم إلى المساكن ، وألا يأذنوا لهن في الخروج إذا ظنن ذلك ، إذ لا أثر لذنهم
في دفع الحظر (ولا يخرجن) بأنفسهن ان أردن ذلك (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) كالبداءة على أهل
زوجها فيجعلن أخرجها لسوء خلقها ، ونكرونها قبل انقضاء عدتها (وتلك) الأحكام المذكورة (حدود
الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) بأن عرّضها للعقاب (لا تدرى) أي المطلق (لعل الله يحدث
بعد ذلك أمرا) فربما حصلت لك الرغبة في المطلق فراجعها ، وفي الحديث : « أبغض الحلال إلى الله
الطلاق » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس به حرام عليها
رائحة الجنة » أخرجه أبو داود والترمذي (فإذا بلغن أجلهن) شارفن آخر العدة (فأمسكوهن) فراجعوهن
(بمعروف) بحسن عشرة وانفاق مناسب (أو فارقوهن بمعروف) أي أتركوهن حتى تنقضي عدتهن فتبين
منكم (وأشهدوا ذوي عدل منكم) على الرجعة وعلى الفراق ، وهذا مندوب كالشهاد على التبايع ، وعن
الشافعي أنه واجب في الرجعة (وأقيموا الشهادة لله) أيها الشهود عند الاقتضاء (ذلكم) أي جميع ما في الآية
(يوخطبه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) فإنه الذي ينتفع به . ولما كان هذا المقام فيه الكلام على الطلاق
والعدة وعدم الإخراج من المسكن وتمتد حدود الله وإقامة الشهادة وما يناسب ذلك من القضايا والمشاكل
الكثيرة التي تنغص العيش وتورث الألم أنزل الله فيه هذه الآية (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من
حيث لا يحتسب) فإذا لم يطلق الرجل امرأته في الحيض فتطول مدة عدتها ولم يخرجها من مسكنها ولم يتعد
حدود الله ولم يكتم الشاهد شهادته ، ولم يعص الله المؤمن على وجه العموم في سائر أحواله فإن الله يخرجها
من العموم والوقوع في المضائق ويفرج عنه ويعطيه الخلاص ويرزقه من جهة لا تخاطر بباله ، وبالاختصار
من اتقى الله جعل له مخرجا ومخلصا من غموم الدنيا والآخرة ، ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم
القيامة ، قال صلى الله عليه وسلم : « إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفهم : ومن يتق الله ، فإزال يقرؤها
ويعيدها » . وروى أن عوف بن مالك أسر المشركون ابنا له ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :
أسر ابني ، وشكا إليه الفاقة ، فقال : ما أمسى عند آل محمد إلا ممة ، فاتق الله واصبر ، وأكثر من قول :
لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ، فعاد إلى بيته وقال لامرأته : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني
وإياك أن نستكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ، فقالت نعم ما أمرنا به ، فجعل يقولان ذلك
فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدو فاستاقها فنزلت ، وقوله (ومن
يتوكل على الله فهو حسبه) أي ومن يكل إليه أمره فهو كافيه في الدارين (إن الله بالغ أمره) أي يبلغ
ما يريد لا يفرته مراد ولا يعجزه مطلوب (قد جعل الله لكل شئ قدرا) تقديرا وتوقيتا ، وهذا بيان
لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه ، لأنه إذا علم أن الرزق وغيره لها أوقات ومقادير محدودة لم
يحزن على ما فاتته منها .

دفع وهم

ثم اعلم أيها الذكي أن كثيرا من الناس يقرءون أمثال هذه الآيات ولا يفهمون المقصود منها ، فربما ترك الإنسان الحزم في أمر والتفكير فيه والسعي في طلبه فيفوته فيقول اني توكلت على الله ، وهذا توكل لاقيمة له ، بل التوكل أن تعمل كل ما يمكنك عمله ، وتسكل ماعداء إلى الله ، وكما من مسلم يسمع حديث عوف ابن مالك ويظن أن هذا هو التوكل ، ولم يدرك أن هذا قد انقطعت به الأسباب ، فلم يبق له إلا الالتجاء إلى رب الأرباب ، أما من عنده قدرة وعقل فعليه أن يسخرهما في عمله مجدا ، ولا يترك فرجة ولا خللا في نظامه ويكل أمر النتيجة لربه ، فأما من ليست لديه حيلة فليس له إلا الرجوع بالقلب إلى الله ، فاذن التوكل للقادر علم وعمل وتوجه بالقلب إلى الله ، فأما العاجز فليس له إلا الالتجاء بالقلب ، هذا تحقيق المقام ، فأكثر المسلمين يأخذ الأمور من وجه واحد وينسى ماعداء ، وهذا هو الذي قعد بالهمم ، وأما الأم ، فرجعت القهقري ، قال تعالى (واللاتي ينسن من الحيض من نسائكم) لكبرهن (ان ارتبتم) أي أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف تكون عدتهن (فعدهن ثلاثة أشهر) أي فهذا حكمهن ، وقيل : ان ارتبتم في دم البالغات مبلغ اليأس أهودم حيض أو استحضاضه فعدهن ثلاثة أشهر ، وإذا كانت هذه مدة المراتب بها فغيرها أولى بذلك ، وقد قدر العلماء سن اليأس بستين سنة ، أو بخمسة وخمسين سنة (واللاتي لم يحضن) وهن الصغيرات فعدهن ثلاثة أشهر ، فأما الشابة التي كانت تحيض فارتفع حيضها قبل بلوغ سن الآيسات فهذه تنتظر سن اليأس ثم تعتد بثلاثة أشهر إلا أن يعاودها الدم فتعتد بثلاثة أقراء ، وهذا مذهب أكثر العلماء ، وقال عمر رضي الله عنه : تربعس تسعة أشهر فان لم تحض تعتد بثلاثة أشهر ، وهذا قول مالك وما قبله قول الشافعي وعطاء وعثمان وغيرهم ، وقال الحسن : تربعس سنة فان لم تحض تعتد بثلاثة أشهر ، وهذا كله في الطلاق ، وأما المتوفى عنها زوجها فعدها أربعة أشهر وعشرسواء أكانت ممن تحيض أو لا تحيض ، وأما الحامل فعدها بوضع الحمل سواء أطلقها زوجها أو مات عنها ، وهذا قوله تعالى (وأولات الأحال أجلهن أن يضعن حملهن) مطلقات كن أو متوفى عنهن أزواجهن (ومن يتق الله) في أحكامه فيراعي حقوقها (يجعل له من أمره يسرا) يسهل عليه أمره ويوفقه للخير (ذلك) أي ما ذكر من الأحكام (أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله) في أحكامه فيراعي حقوقه (يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) بالمضاعفة (أسكنوهن من حيث سكنتم) أي بعض مكان سكناكم (من وجدكم) أي من سعتكم وطافتكم ، فالمرء يوسع عليها في المسكن والنفقة ، والفقير يفعل على قدر طاقته (ولا تضاروهن) لا تؤذوهن (لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن) فيخرجن من العدة ، وهذه الآية أوجبت النفقة للحامل مدة الحمل ، والرجعية حكمها أنها لها النفقة والسكنى على الزوج مادامت في العدة ، لأنها في حكم الزوجة فلتبقى في البيت المملوك له والمؤجر ، والا فلها أجرة السكن ، وأما البائن بالطلاق الثلاث ، أو بالخلع ، أو باللعان ، فلها السكنى حاملا وغير حامل ، وقيل لاسكنى لها إلا إذا كانت حاملا ، وهل لها نفقة ؟ قيل لا نفقة لها إلا أن تكون حاملا ، وهو قول الحسن وابن عباس والشافعي وأحمد ، وقيل يجب بكل حال ، وهو قول ابن مسعود والنخعي والثوري وأصحاب الرأي ، فاذن أصحاب الرأي يجعلون السكنى والنفقة عامتين في الجميع ، ثم قال تعالى (فان أرضعن لكم) بعد انقطاع علة النكاح (فآتوهن أجورهن) على الارضاع (وأتمموا بينكم بمعروف) أي ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف ، أوليتراض الأب والأم على أجر مسمى ، فهو أمر للزوجين معا أن يأتوا بالمعروف وما هو الأحسن ، ولا يقصدوا الضرر ، وعلى ذلك لا يقصر الرجل في حق المرأة ونفقتها ، ولا المرأة في حق الولد ورضاعه (وإن تعاسرتم) في حق الولد وأجرة الرضاع فلم يعط الرجل الأم الأجرة ، ولم ترض

الأم بارضاعه فليس له اكرهاها على الارضاع ، إذن فليستأجر للصبي مرضعا غير أمه ، وهذا هو قوله تعالى (فسترضع له أخرى) أى امرأة أخرى (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) فلينفق كل من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه (لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها) فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وهذا القول تطيب قلب المعسرين الذين وعدهم باليسر فقال (سيجعل الله بعد عسر يسرا) عاجلا أو آجلا ، وهذه الآية وهو قوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها » تفتح بابا واسعا لمباحث العلوم والصناعات المذكورة في (سورة البقرة) عند قوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ، فإذا رأيت القضاة يحكمون على زيد بمائة قرش في الشهر للمرأة ، وعلى خالد بألفي قرش على حسب طاقتهم ، هكذا يجب على زيد من العلوم أو الصناعات ما يطيقه ، وعلى خالد بأكثر أو بأقل ، وكما خلق الله في الأمة الأغنياء والفقراء ، هكذا خلق فيها قدرا وطاقات مختلفات في العلوم والصناعات فليمتحن التلاميذ في العلوم التي يجب أن يعمم تعليمها ، وليجعل كل تلميذ في العلم الخاص به وينبغي فيه .

ولما كان هذا المعنى المذكور في : « لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها » ينتقل من الفرد إلى الجماعة ، ومن مسألة الاتفاق على النساء إلى سائر فروع الحياة وكانت الأمة التي تهمل القدر والاستعداد كبعض المسلمين اليوم آيلة للخراب ، لأنها أهملت ما خلقه الله لها من العقول النيرة المحبوة في أجسام أبناء الفقراء وأبناء الأغنياء فلم تستخرج تلك المواهب ولم تستقص القوى والقدر التي خبأها الله في أبنائها ، فضاعت سياستها ، وبارت أرضها ، وقات حاصلاتها ، وضاع الفكر فيها ، وأصبحت طعمة لغيرها من الأمم ككثير من أمم الشرق الآن ، لما كان الأمر كذلك أعقب ما تقدم سبحانه بقوله (وكأين من قرية) أى أهل قرية (عنت عن أمر ربها ورسوله) أى اعرضت عنه اعراض العاتى المعاند فأهملت شئون أرضها وطبقاتها وجباها ومعادنها وحاصلاتها وقوى الشبان فيها (لحاسبنا حسابا شديدا) أثبتنا ذنوبهم جميعها في صحف الحفظة (وعذبنا عذابا نكرا) منكرا في الدنيا بالذل والاستعباد مثلا (فذاقت وبال أمرها) أى عقوبة كفرها ومعاصيها (وكان عاقبة أمرها خسرا) لا يرج فيه أصلا (أعد الله لهم عذابا شديدا) يوم القيامة (فاتقوا الله يا أولى الألباب) يا ذوى العقول ، ثم نعتهم فقال (الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا) هو القرآن ، وأرسل إليكم (رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبینات) صفة لرسول ، ويصح أن يكون رسولا مبسلا من ذكر كأن الرسول نفس الذكر مبالغة (ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) أى ليخرج من علم سبحانه وقدّر أنه يؤمن (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله لهم رزقا) في هذا القول تعظيم لما رزقوا من الثواب ، ثم إن هذه السورة مرجع أحكام شرعية ومناهج دينية ، وأدلة فقهية ، وفتاوى اسلامية ، وضعت لأقامة العدل ونهج الصراط السوى ، وذلك العدل على نهج العدل الذى فى السموات والأرض الجارى بين المشرقين والمغربين ، وما أهل الأرض ولا أحكامهم ولا شرائعهم ولا دياناتهم إلا لمحبة من نور العدل العام ، وقبسة من اشراقه ، وقبضة من نوره ، وزهرة من شجرته فلئن قضى القضاة على كراسى الحكم بين العباد ، وأعطوا زيدا ما يجب على عمرو ، وقالوا للحامل عدتك وضع الحمل ، وللتى تحيض عدتك ثلاثة قروء ، فكم بين السموات والأرض من قضاء فى هذا الفضاء الصامت لفظا الناطق معنى ! فكم من حكم بيننا نرى أثره ولا نسمع النطق بحكمه ، نرى الشمس محكومة عليها أن تطلع من مواضع فى الشرق وتغرب فى أما كن فى الغرب لا تتجاوزها فى دقائق وثوان لا تنفك عنها بحسب النظر الظاهرى وإن كانت الأرض هى الجارية ولكن الحكم لا يتغير ، ونرى الرياح قد حكم عليها والسحب مأمورة والأنهار جارية بالحكم المحتم عليها والمزارع يحكم عليها أن تكون فى زمن خاص ومكان خاص ، فليس للقطن

أن ينبت في البلاد الباردة ، ولا أن يثمر في زمن الشتاء ، ولا للنخل أن ينبت في البلاد الباردة ، ولا أن يثمر إلا بعد عدد من السنين ، وقضى على المزارع أن تكون قصيرات الأعمار ، فيزرع القمح والذرة والشعير والعنبر والفول وتحصد كلها بعد أشهر معدودات ، ولا تنمو إلا في فصول خاصة ، كل ذلك حكم لمصلحة الناس فلأن تلك المزارع لا تثمر إلا بعد سنين كالنخل لضيق الناس ذرعا في الحياة ، ولقل سكان الكرة الأرضية ، هذه أحكام حكم بها الله وتأنجها سعادة الناس وراحتهم ، كما أن حكم القاضي بنفقة الحامل على المذاهب كلها وبنفقة غيرها على بعض المذاهب لمنفعة المطلقة ، فانظر أي الحكيم أكثر منفعة ، أحكام لمصلحة أشخاص مخصوصين متنازعين ، أم حكم لسعادة هؤلاء المتنازعين وغيرهم من كل أهل دين ونحلة ؟ بل كل حيوان ونبات على الأرض ، لذلك أعقب ما تقدم سبحانه بقوله (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) أي وخلق مثلهن في العدد من الأرض ، وهذا العدد ليس يقتضي الحصر ، فإذا قلت عندي جوادان تركب عليهما أنت وأخوك فليس يمنع أن يكون عندك ألف جواد وجواد ، هكذا هنا فقد قل علماء الفلك كما تقدم : « إن أقل عدد يمكن من الأرضين الدائرة حول الشمس العظيمة التي نسميها نجوما لا يقل عن ثلاثمائة مليون أرض » ، هذا فيما عرفه الناس ، وهذا القول من هؤلاء ظني ، فلم يدع أحد أنه رأى أوقف بشيء من ذلك ، اللهم إلا علماء الأرواح ، فانهم لما سألوها قالت : « عندنا كواكب أهلة بالسكان لا يحصى عددها وفيها سكان أتم بالنسبة لهم كالنخل بالنسبة للإنسان ، هذا معنى ما قالوا ، ارجع لما نقلته لك عن الأستاذ [غاليلي] لما أحضرت روحه وسألوها ، وإياك أن تقول اني أجزم بهذا القول ، بل أقول لكم : فكروا وادرسوا فالعلم علمكم والدين دينكم ، ولا يجوز أن تختص أوروبا بالبحث ونحن سنترك لكم الأرض ونغضي عنها ونهاجر إلى الله متى جاء الأجل ، وقوله (ينزل الأمر بينهن) أي يجري أمر الله وقضاؤه بينهن وينفذ حكمه فيهن (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) فالله خلق السموات والأرض وهن ينزل الأمر بينهن لندرس هذه العوالم ونعقلها ، فنعلم عموم القدرة والعلم فيهما ، ولا يتم ذلك إلا إذا كانت دراستنا لتلك العوالم كدراسة الفقهاء لعلم الفقه ، إن الفقيه لا قدرة له على إصدار الأحكام ، والقاضي ليس بقادر أن يصدر حكما ، والمفتي لا يستخرج الأحكام من الدين إلا بعد دراسة تأمة ، هكذا لا يعرف سعة علم الله وقدرته ، ولا يفرح بنظام السموات إلا من أضع العمر في مباحث العلوم الفلكية والطبيعية ، وقد تضمن هذا التفسير حظا عظيما من تلك المباحث . انتهى تفسير سورة الطلاق ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة التحريم

هي مدنية

آياتها ١٢ — نزلت بعد الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *
قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَمَرُ

النَّبِيِّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْمَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّا نَكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَدَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ *

هذه السورة قسمان

القسم الأول في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، وحلف النبي صلى الله عليه وسلم ألا يشرب العسل إرضاء لبعضهن ، وفي اطلاع الله على ما أفشين من سر أمرهن بكتمه وما يتبع ذلك من أول السورة إلى قوله : « ومأواهم جهنم وبئس المصير » .

القسم الثاني ضرب مثل لذلك بامرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام من قوله تعالى : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما » إلى آخر السورة .

مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها

سورة الطلاق كلها في حسن المعاشرة مع النساء والقيام بحقوقهن . وهذه السورة فيما حصل منهن مع النبي صلى الله عليه وسلم تعلما لأقمته ، وأن يحذروا أمر النساء ، وأن يعاملوهن بالسياسة اللطيفة كما عاملهن صلى الله عليه وسلم بذلك وينصحوهن نصحا مؤثرا .

أسباب نزول هذه الآيات ما جاء في البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الخلاء والعسل ، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه ، وكان يمكث عنده زينب بنت جحش ، فيشرب عندها عسلا ، فتواطأت أنا وحفصة أن أيتنا دخل النبي صلى الله عليه وسلم عليهما فلتنقل له إني أجده منك ربح مغاير أكلت مغاير ، فدخل على إحداهما ، فقالت ذلك له ، فقال بل شربت عسلا عنده زينب بنت جحش ولن أعود . والمغاير صفع حلولة رائحة كريهة ينضجه شجر يقال له العرفط يكون بالحجاز .

وقد كانت عائشة وحفصة متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقال ان النبي دخل عليهما النبي صلى الله عليه وسلم وحرم على نفسه العسل أمامهما هي حفصة ، فأخبرت عائشة بذلك مع ان النبي صلى الله عليه وسلم استكتمها الخبير كما استكتمها ما أسرّها به من الحديث الذي يسرّها ويسرّ عائشة إذ قال لها لا تخبري أحدا ، وذلك الحديث انه قل : [إن أبك وأبا عائشة يكونان خائفتين على أمتي من بعدى] ، فصار السر لها بأمرين : بتحريم العمل الذي كان يقيه عنده زينب بنت جحش ، وبأمر الخلافة اهـ

هذا ملخص ما جاء في الأحاديث ، وفي الروايات تناقض يسير ، ولكنني استخلصت الزبد المتفق مع سير الآية ، وهناك روايات أخرى مثل كون النبي شرب عندها العسل هي حفصة ، ومثل كون التحريم إنما كان لما رية القبطية لا للعسل ، لأن مارية القبطية كان صلى الله عليه وسلم دخل معها في بيت حفصة ففضبت حفصة لذلك فأرضاهما بما تقدم ، فلندع ذلك الاختلاف ولنسرف في التفسير على وجه واحد ، لأن قصة مارية لم تأت من طريق صحيح ، وكون التظاهرتين حفصة وعائشة هو من حديث لابن عباس المروي في الصحيحين ، ولنشرع الآن في تفسير السورة فنقول بمر الله التوفيق :

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها النبي لم تحرم) من شرب العسل (ما أحل الله لك فتبتغي مرضاة أزواجك) أي حال كونك تبتغي (والله غفور) لك تحريم ما أحل لك (رحيم) رحمتك حيث لم يؤاخذك (قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم) أي قدر الله لكم ما تخللون به إيمانكم ، وهي الكفارة المذكورة في سورة المائدة ، فيقال ان النبي صلى الله عليه وسلم لما قالت له حفصة أكلت مغاير وقال لها كما قال لعائشة : سقتني زينب شربة عسل قالت : جرت نحلة العرفط : أي أكلته فصار منه العسل ، حينئذ حلف ألا يشربه ، فعوتب على ذلك ، أو شرع الله لكم الاستثناء في إيمانكم ، يقال حلف فلان في يمينه إذا استثنى فيها ، وذلك أن يقول ان شاء الله عقيبها حتى لا ينقض ، ويقال : إن تحريم الحلال يمين عند بعض الأئمة ، فسواء أكان صلى الله عليه وسلم حلف فعلا فكفر ، أو مجرد تحريم الحلال يمين فيكفر عنه فالأمر ظاهر ، لأن الكفارة مشروعة ، وما بعدها أخذ به بعض الأئمة ، والاستثناء في اليمين مشروع ، وقوله (والله مولاكم) متولى أموركم (وهو العليم)

بما يصلحكم (الحكيم) المتقن في أفعاله وأحكامه (وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه) وهي حفصة (حديثاً) تحريم العسل ، ومسئلة الخلافة المذكورتين (فلما نبأت به) فلما أخبرت حفصة عائشة رضي الله عنهما بالحديث (وأظهره الله عليه) وأطلع النبي ﷺ على افشائه الذي يحزن قلب زينب اذا علمته ، إذ ينكسر قلبها لما ترى من أن إحدى أزواجه ﷺ قدرت أن تحتال حتى حاف ألا يشرب العسل في بيتها ، وذلك نكايه لها وألم عظيم ، وفي افشاء أمر الخلافة خلل في سياسة الأمة وتفريق لجامعتها ، إذ يحصل التنافر والشقاق قبل وفات النبي ﷺ على الخلافة كما حصل بعد وفاته ، وفي هذا تعجيل لما لا تحمد عقباه وجواب لما قوله (عرّف بعضه) أي عرّف صلى الله عليه وسلم حفصة بعض ما أفشت من السرّ (وأعرض عن بعض) أي عن إعلام بعض ، كأن يذكر لها افشاء مسألة تحريم العسل ويترك مسألة الخلافة اثلاً تهلع وتحزن على افشائه أشد من الحزن على افشاء مسألة العسل مثلاً أو العكس (فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير) أي العليم بما تكنه الضمائر وبخفيات الأمور ، ثم خاطب حفصة وعائشة فقال (إن تتوبا إلى الله) فقد وجد منكما ما يوجب التوبة ، وهو ميل قلوبكما عن الواجب من امتحان حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم بحب ما يحبه وكراهة ما يكرهه ، وهذا قوله (فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه) أي وإن تظاهرا عليه بما يسوءه (فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) فهو لاء جميعاً ينصرونه (والملائكة بعد ذلك ظهير) متظاهرون ، أوفوج مظاهر له ، وإنما ذكر ذلك كله لعظم أمر افشاء السرّ ، لاسيما في مسألة السياسة ، فانه ربما أزال دولة بتمامها بالثورات والفتن (عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات) منقادات مصدقات (قانتات) مواظبات على الطاعات (تائبات) عن الذنوب (عابدات) متعبدات (سائحات) صائمات : إذ الصام يسبح في النهار بلزاد (ثبات وأبكرا) أي عذارى جمع بكر ، يقال انه ﷺ غضب من افشاء سرّه وجازى حفصة بأن طلقها فجاءه جبريل وأمره بمراجعتها ، وقيل لا بل هم بطلاقها ، فقال له جبريل لا تطلقها فانها صوّامة قوّامة ، وانها من نسائك في الجنة . ولما كان هذا القول خاصاً بأمر النبي ﷺ وأزواجه أردفه بخطاب عام فقال : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم) بترك المعاصي وفعل الطاعات (وأهلكم) بالنصح والتأديب (نارا وقودها الناس والحجارة) أي نارا تتقد بهما انتقاد غيرها بالخطب (عليها ملائكة) تلي أمرها وهم الزبانية (غلاظ شداد) غلاظ الأقوال شداد الأفعال (لا يعصون الله ما أمرهم) فيما مضى (ويفعلون ما يؤمرون) فيما يستقبل ، فليتنق الله الناس ، وليتركوا المعاصي ، وليؤدّبوا نساءهم ، وينهوهن عما لا يحلّ ، فرب امرأة أفشت سرّاً فأهلكت أمة بتمامها ، وأوقدت فيها نار الفتنة ، فحاذروا أن تعطوا سرّكم إليهن ، فإذا كان الله عصمى أن يذيع سرّي وأطلعني عليه فليس يتفق لكم ذلك ، فليكنتم المرء سرّه لئلا تفسد امرأته عليه أمره ، وتنقص عيشه ، وتصبح حياة المرء في قلق ونقص وهكذا لتكن المرأة سالحة ، والا كانت الحياة لاتطاق بين الزوجين ، وتفوت على أهل المنزل المصالح المادية والمعنوية فيكون الموت مم الموت ، فيجد الزوجان أنهما أضاعا حياتهما فلا يكون لهما جزاء إلا جهنم ، لأن الناقص في أخلاقه وأعماله ليس له إلا ذلك « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

واعلم أن الحياة المنزلية هي أسّ الحياة العمرانية ، ومن لم ينظم أهل بيته فهو عن تدبير أمر الدولة أعجز فلم يستعن صلى الله عليه وسلم على امرأتين من نسائه بالله وجبريل والملائكة والمؤمنين إلا لما في أمر تدبير المنزل وحياته من الأهمية ، ولم يذكر جهنم وزبانيته إلا لما في ذلك من سرّ حياة الأمة ، فالأمة مركبة من أسرات ، والأسرات اذا كانت حياتها على غير أساس حياة المجموع كذلك ، لأن الأمة ماهي إلا أفرادها ،

وهي فرد مكرّر، والفرد إذا كانت سياسته في الداخل غير منتظمة فقد ضاعت دولته، هذا هو السرّ في ذكر الله والملائكة، وذكر جهنم ونارها وحجارتها .

أمر الله المسلمين أن يقولوا أنفسهم وأهلهم نارا، فإثر يوم القيامة مما جئنا في الدنيا، وهو في هذا المقام تنقيص العيش، وضباب أمر الأسرة، والشقاق والنزاع المتوالي، وفي قوله: « لا يعصون الله ما أمرهم » إشارة إلى أن الأسرة إذا كانت مفككة الأوصال غير مجتمعة الرأي لا تطيع المرأة زوجها ولا الولد أباه كانت سائرة على نهج يخالف نظام الله الذي نظم السموات والأرض وجعلها مرتبطين، وجعل ملائكته طوع أمراً: « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » وذلك هو الموجب لجهنم، إن نار جهنم في هذا المقام لم تخرج عن كونها نتيجة المناقرات والمشاجرات والأكدار والتنقيص المحرقات للقلوب في الدنيا، فإذا مات الناس دخلوا في جنس ما كانوا فيه في الدنيا، فهل جزاء السيئات إلا السيئات؟ قوم كانوا في نزاع دائم وقلوبهم لم تعرف في الدنيا إلا المشاجرات والشتائم، فأين يذهبون إلا للمدارس التي استعدوا لها في الدنيا، وهي مدارس نارية محرقة، فقد أحرقت القلوب في الحياة بتنقيصهم، فأحرقت الأجساد والقلوب معا بعد الموت جزاء وفاقا، ليكون ذلك طهارة لهم إن كانوا مؤمنين، فأما الذين كفروا فيقال لهم (يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم) وذلك حين يعاينون النار (إنما تجزون ما كنتم تعملون) فإن أعمالكم السيئة ألزمتكم العذاب، فإن الجهالة والعناد وانكار الحق قد وضعت على قلوبكم حجابا في الدنيا فلما متم حجبتكم عن الجلال المطلق كما يعذب المؤمنون بفعل المعاصي كنك تأديب زوجاتهم، وكفساد نظام الأسرات المترتب على ذلك، ولذلك قال تعالى لهم: (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) بالغة، أودات نصح تنصح صاحبها بترك العود إلى الذنب. والتوبة النصوح تجمعها ستة أشياء:

- (١) على الماضي من الذنوب الندامة .
- (٢) وللفرائض الاعادة .
- (٣) ورد المظالم .
- (٤) واستحلال الخصوم .
- (٥) وأن تعزم على ألا تعود .
- (٦) وأن تربي نفسك في طاعة الله كما ربيتها في معصيته .

ثم قال تعالى (عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار) وفي ذكر عسى اطماع جريا على عادة الملوك، وقوله (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه) متعلق بيدخلكم، وفيه تعريض بأن المنافقين لهم يخزون، حال كونهم (نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) على الصراط (يقولون) إذا أطفئ نور المنافقين الذين - مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون - (ربنا أتم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير) ولا جرم أن الأنوار على مقتضى الأعمال فيسألون أتمامها (يا أيها النبي جاهد الكفار) بالسيف (والمنافقين) بالحجة والزجر والوعيد (واغلظ عليهم) واشدد على الفريقين بالقول والفعل (ومأواهم) مصير المنافقين والكافرين (جهنم وبئس المصير) جهنم، ولما كانت هذه السورة مسوقة لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وأعقب ذلك أن أمر المؤمنين أن ينصحوا زوجاتهم ويؤدّبوا أنفسهم وهدّدهم بالنار، ثم أتى بنصائح عامة أعقبه بما يفيد أن الرجل ليس عليه إلا ما أمر به، والمرأة ليس عليها إلا ما أمرت به، فإذا خالفت المرأة الرجل بعد نصيحها وأذنت، أو كان الرجل فاسقا والمرأة سالحة فلا ذنب إلا على المذنب منهما وليس على الآخر من سبيل،

وبين ذلك بمثلين : مثل للمرأة الفاسقة التي صلح زوجها ، ومثل للمرأة الصالحة التي كفر زوجها ، فكلّ عليه وزره ولا يحمل من إثم صاحبه شيئا مادام قائما بما عليه خير قيام ، فقال تعالى (ضرب الله مثلا) بين الله صفة (للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين نفثتاهما فلم ينفيا عنهما) أى لم يدفعها عنهما (من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) فهاتان المرأتان لما خانتا الرسولين أدخلتا النار ولم ينفعهما صلتهم بالنبيين ، بل ذاقتا وبال أمرهما : هكذا هؤلاء الكفار يعاقبون على معاداتهم للمؤمنين بالمحاربة ولا ينفعهم ما بينهم وبين المؤمنين من النسب والمصاهرة ، ولو كان الذى يتصل به الكافر نبيا ، كما لم ينفع المرأتين لما خانتا الرسولين أنهما زوجتاها فعذبتا على خيانتهم وافشائهما أسرارهما ، فدخلت المرأتان النار مع سائر الداخلين ، إذ لا فرق بين الشريف والصعلوك فى العقوبة ، فهى لا تترك أزواج الأنبياء كما لا تترك أزواج العصاة والعصاة جميعا (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) وهى آسية بنت مزاحم ، فقد آمنت لما غلب موسى عليه السلام السحرة ، فلما علم فرعون بإيمانها عذبها فصرفت الله العذاب عنها ، شبه حال المؤمنين فى أن اتصلهم بالكافرين لا يضرهم بحال آسية ، فهى مرضية عند الله مع أنها متصلة بمن ادعى الألوهية ، اذكر (إذ قالت) وهى تعذب (رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة) قريبا من رحمتك ، أوفى أعلى درجات المقرّبين (ونجى من فرعون وعمله) من نفسه الخبيثة وعمله السيئ (ونجى من القوم الظالمين) من القبط التابعين له فى الظلم ، ثم عطف على امرأة فرعون قوله (ومريم ابنت عمران) التى لازوج لها فليتنسّل بها الأرامل ، ففضل الله يسع المتزوجات واللاتى لأزواج طلق ، ثم وصف مريم فقال : (التى أحصنت فرجها) حفظت فرجها من الرجل (فنفخنا فيه) فى فرجها (من روحنا) من روح خلقناه بلا توسط أصل (وصدقت بكلمات ربها) بالشرائع التى شرعها الله لعباده بكلماته المنزلة على أنبيائه (وكتبه) الكتب المنزلة على الأنبياء (وكانت من القانتين) المطيعين ، وهم رهطها وعشيرتها ، لأنهم كانوا أهل بيت وصالح . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .



خاتمة لتفسير هذه السورة

وازن أيها الذكى بين أول السورة وآخرها تجد المعنى متسقا ، فإذا تظاهر على النبى صلى الله عليه وسلم امرأتان فهما امرأتان : امرأة نوح ، وامرأة لوط تظاهرتا على عبدين صالحين وهما زوجها ، فإذا حلّ بهما ؟ أدخلتا النار ، ولم ينفعهما اتصاهما بالنبيين ، وهذا المثل وما بعده لم يجعله للأزواج لحسب ، بل عمم الأمر لكل امرأة عاصية أو كافرة اتصلت بمؤمن ، ولكل امرأة صالحة أو رجل صالح اتصل بكافر ، فهو فى معنى : « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم » ، وبهذا تم الكلام على [سورة التحريم] والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الأحد ٢٣ ذى الحجة سنة ١٣٤٣ هجرية — الموافق ١٤ يوليو سنة ١٩٢٥ م .



تفسير سورة الملك

هي مكية

آياتها ٣٠ — نزلت بعد الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي
خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ
كَرًّا تَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ
وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ * وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ
جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ
الْفَيْضِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ
فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ
أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ *
إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا
بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * هُوَ الَّذِي
جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ * أَمْ أَمِنتُمْ
مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ * وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ
نَكِيرٍ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ * أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ
الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ

وَتُقُورِ * أَفَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *
 قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ *
 قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ
 مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ
 تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ
 يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ *

هذه السورة تشتمل على وصف السموات ، وأن نظام هذا العالم لاجوج فيه ولا اختلاف ، وعلى وصف
 عذاب الكافرين في الدنيا والآخرة ، وتخلل ذلك تذكير الانسان بخلقه ورزقه وما أشبه ذلك .
 إن الكلام على هذه السورة ينحصر في [ثلاثة أقسام : القسم الأول] في تفسير البسملة : أى ما ذكر
 فيها من الرحتين مع جميع الرحات العشرين اللواتي في البسامل التي في السور العشر التابعة لها إلى سورة
 المرسلات [القسم الثانى] في التفسير اللفظى للسورة كلها [القسم الثالث] في اللطائف .

القسم الأول

في الكلام على الرحتين المذكورتين في البسملة هنا مع جميع الرحات في السور العشر التي بعدها
 لما كانت الرحتان المذكورتان في البسملة هنا في [سورة الملك] تقدم الكلام عليها في أول [سورة
 المجادلة] وجب أن نحصر الكلام الآن في الرحات العشرين المذكورات في السور العشر التي تليها من أول
 [سورة القلم] إلى [سورة المرسلات] فنقول :

إن الرحات في هذه السور موجهات إلى تخلية الأمم من الرذائل وتحليتها بالفضائل ، ألا ترى أن العذاب
 الشديد والانذار للناس في هذه السور يقصد به الإقلاع عن الآراء الشريرة ، والأعمال الخبيثة ، فلذلك تجد
 هذه السور مشحونة بالكلام على إهلاك الأمم في الحياة الدنيا ، وعلى عذاب الآخرة ، فهنا وجهت الرحات
 إلى الانذار وبه يتخلى الناس عن رذائلهم ، فلا تخلية بالفضائل إلا بعد التخلية من الرذائل ، فأما التخلية
 بالفضائل فذلك ما جاء في غضون هذه السور من أخلاق نوح وصبره على قومه سنين وسنين ، وما أبدع في
 الدعوة من شرح العوالم العلوية والسفلية ، فهذه فضائل في الأنبياء تحلوا بها ، وهكذا نبينا صلى الله عليه
 وسلم الذى نودى مرة بصفة المدثر في ثيابه والمزمل ، فهذه نفوس كاملة تحلت بصفات الجمال وناجت ربه
 في دياجي الظلمات ، وعرفت أخبار الأرواح الناقصة المسميات بالجن تريد تكميلها كما عرفت النفوس
 الكاملة في ذاتها اللاتى هي ملقيات ذكرا ، فهذه النفوس الكاملة القائمة بذلك ذكرت في مقابلة الناقصة
 المتردية في هاوية الهلاك ، وهؤلاء الكاملون يدعون الناقصين ليحققوا بهم في الكمال ، وهناك نفوس
 متوسطة ، وهى النفوس اللوامة ، ولكن لها فضلها في الجهاد ، وهناك نفوس أخرى كملت أخلاقها فقبل

لهاء : « يوفون بالذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا » ، وهالك نفوس مفارقة للمادة ، وهي التي عبر عنها بالملقيات ذكرا للاعذار وللانذار ، فهذه مجامع ما في هذه السور من الرحمت ، إن الانذار بالهلاك والتدمير والعذاب الأليم رحمة ليتخلى الانسان بذلك عن الرذائل خوفا من نتائجها ، وهكذا معرفة أخلاق النفوس السكاملة (المتوجهة لربها في ظلمات الليالي ، وهي تدعوه وتناجيه وتسهر على إسعاد غيرها) تدعو حثيثا إلى الاقتداء بها ، فتوجه لخالقها ، وتدعوه ليساعدها في ارتقاؤها وفي انتشال غيرها من أحوال المادة ورذائل الأخلاق .

هذه مجمل الرحمت في هذه السور إلى آخر [سورة المرسلات] فلنبدا في تفصيلها سورة سورة فنقول ومن الله التوفيق :

الرحمت في سورة القلم

أقسم الله فيها بالقلم دلالة على شريف منزلته وعظيم قدره ، إن رحمة الله بالأقلام وفق الكتابة ونشر الصحف واتساع نطاق المعارف رحمة عامة تضاهي في عمومها اشراق الكواكب والشموس وإضاءتها الأرجاء ، وإذا أقسم الله بالقلم فقد أقسم بالشمس والقمر والنجم ، ولكن نعمة القلم أعلى منزلة وأشرف وأكمل ، ألا ترى رعاك الله أن العلم هو وحده الذي يرفع الأرواح إلى العلى ، بالعلم الهداية ورقى النفس إلى الكمال ، وبدون العلم الذي لا قيام له إلا بدولة القلم والانشاء لا كمال لهذه النفوس ، تلك النفوس التي أنزات إلى الأرض وعاشت بالأضواء المشرقة من الشمس والقمر والكواكب ، فالكواكب السماوية المشرقات على الأرض كأنهن أظاير بين النفوس الانسانية تربية أولية ، ولكن نفوس الأنبياء والأقلام التي تكتب ما يقولون ، ولأفاويل الحسنة هي المكملات لهذه النفوس ، فالكواكب والأقلام والنجوم مقدمات ، والأنبياء والعلماء نهايات ، جل الله وجل العلم ، سيأتى القسم بالشمس ، وتقدم القسم بالنجم والقمر ، والقسم بالقلم جاء في الوسط بينهما ، إن أمة الاسلام وإن كانت اليوم ضعيفة القوة ، فهي هي الأمة التي كانت سببا في انتشار التعليم بين الأمم كلها في أوروبا وفي الشرق الأقصى ، العلم قد ملأ الأقطار ، ولكنه في القرون الماضية قد تخطى أمة الاسلام ، وأحاط بها من الشرق والغرب ، كأنه يقال لهم : أيتها الأمم الاسلامية : أقسم ربكم بالقلم ، وبالقلم علمتم الأمم ، وبالقلم تعلمت الأمم ، إن هذه الأمة اليوم أخذت تتعلم وستعود الأمم إلى الفلاح ، لأنها أمة وسط ، وهم شهداء على الناس ، وإن يكونوا شهداء على الناس بحق وصدق إلا بتعميم العلم الذي أقسم الله بالقلم الذي يسطره ، إن رحمة الله عز وجل قد ظهرت نتائجها التي لا حصر لها في نشر العلم في العالم كله بالقلم بعد الرسالة المحمدية التي كانت سببا في بث هذه الروح في الأمم ، وأي رحمة أعظم من هذه ! وهي التي لا رحمة توازيها في كوكب ولا شمس ولا قمر وقد ظهرت على يديه صلى الله عليه وسلم ، والأجر سيكون على مقدار ذلك الانتشار ، فإن نعيم الانسان على مقدار آثاره بين الأمم ، وهل يكون الفضل منتشرا لامرئ إلا على مقدار ماله من الفضائل ! رحمة عامة بالعرفان ، ناجية من الاتصاف بأخلاق حسان ، فهل صاحب هذه الفضائل والعوارف ينسب له الجنون ! كلا . بل انه جاء ليكمل النفوس الناقصة اللاتي لا تعرف إلا المداينة ورذائل الأخلاق ، ولذلك أمر بالصبر على تكذيب المكذبين ، وحكم عليه ألا يقف في الفضائل دون الغايات ، فإذا رأى نبيا من الأنبياء كيونس عليه السلام الذي لولا أن تداركه نعمة من ربه لبذ بالعراء وهو مذموم فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ، فإنه يصدع بما أمر به وبصبر لحكم ربه ولا يكون كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ، إذن رحمة الله تعالى تجلت واضحة لرسوله صلى الله عليه وسلم في أخلاقه وعوارفه ، فهو صبور كما أمر الله . ومن الرحمت في هذه السورة تبيان نتائج البخل الخاصل من أصحاب القرية ، وكيف كان هذا

الشح سببا في إبادة أهلها ، وكيف كانت التوبة عليهم نعمة وفيها بيان الفرق بين المتقين والمجرمين اه
[سورة الحاقة] — إن سورة الحاقة أشبه بتفصيل لما أجل في [سورة القلم] فالرحات فيها مفصلة
لبعض ما أجل في تلك ، ففي سورة القلم جعل الناس فريقين : فريق مجرمون ، وفريق مسلمون ، ولكل
جزاؤه ، وفيها أصحاب الجنة وأشجارها الذين لا يرعون الأخوة العامة ، وإنما يريدون اتباع شح نفوسهم ،
فهؤلاء ذاقوا عذاب الدنيا بآبادة أشجارها وأثمارها ، وهذه المناسبة ذكر عذاب الآخرة وأنه أكبر ، فهنا
جاء ذكر العذابين ، فشمود وعاد وفرعون وقوم نوح هلكوا ، وسيهلك العالم كله يوم القيامة ، فهنا تفصيل
أثم للهلاك ، ففي سورة القلم هلكت جنة بشع أهلها ، وهنا ذكر هلاك أمم بل زوال الأرض وما عليها ،
وتبع هذا ذكر ما سيلاقيه الفريقان من عيشة راضية وعيشة ليس فيها طعام إلا من غسلين ، كل هذا من
الرحات الواسعة ، فذكر العذاب في الدارين يوجه النفوس إلى الأعمال الشريفة التي تؤدي إلى النعيم .
[سورة المعارج] — ويقرب من ذلك وصف أوسع في [سورة المعارج] ، أفلا تعجب معي كيف أبان
سبب ذلك كله . الله أكبر : إن الجنة والنار خالقتا لأجل هذه النفوس ، هذه النفوس المسكينة المخلوقة في
أرضنا المحبوسة فيها قد جعلت بهيمة محزنة ، كيف لا وهي التي إذا مسها الشر جزع ، وإذا مسها الخير منعت ،
هذا هو السر الأكبر في هذا الإنسان ، الإنسان في عمومه أشبه بالطفل يبكي لأدنى شيء ، وإذا أعطى المال
بخل به كأنه يظن أنه مخلوق وحده والناس مسخرون جميعا له وقد عمى عن هذا الجلال الرائع في السموات
والأرض والأنهار ، والجلال الذي به ينتفع البار والفاجر ، جهل هذا الإنسان المسكين أنه يشترك مع جميع
نوع الإنسان في المنافع ، فإذا لم يفكر إلا في نفسه ، فهذا هو المبدأ الأول لاذلاله وشقائه ، فأصحاب الجنة
بادت أشجارهم فيها ، لأنهم لم يفكروا في غيرهم من الناس ، فهذا أشبه بذكر السبب الذي به عوقبوا
بذلك ، لأنهم منعوا الخير عن الناس (وبعبارة أخرى) أن الإنسان خلق ليعلم ويعمل ، ومن أجل الأعمال
اتجاه النفس للمنفعة العامة عموم الأنوار وعموم المنافع القلبية العلمية بين الأمم ، ومن أجل الرحات في هذه
السورة تلك الصفات الشريفة التي بها يصل الإنسان نفسه فتضيء وتشرق بعد اظلامها بحب النفس ،
(وبعبارة أخرى أيضا) أن النفس في أول أمرها تميل إلى أن تختص بكل نعمة ولا تفكر في غيرها كما
قدّمنا ، وعليها وحدها باغاثه الله لها أن تصقل بصقال الكمال فتصير مهذبة ، وذلك بالعبادات وانفاق المال
في وجوهه ، فتكون للإنسان في حياته وجهات ثلاث : وجهة إلى نفسه يكملها ، ووجهة إلى ربه ليعبده ،
وجهة إلى الناس فيكون نافعاً لهم . فأما تكميل نفسه فذلك بالأخلاق الفاضلة كحفظ الأمانة ، والصدق في
الوعد والعهد ، وإليه الإشارة بقوله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » . وأما توجهه إلى ربه
فذلك بنحو الصلوات ، وإليه الإشارة بقوله : « إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون » . وأما وجهته إلى
الناس ، فذلك أنه يعتد بالمساعدة لهم ، وإليه الإشارة بقوله : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل
والمحروم » إذن أعظم أسرار هذه السورة أنها كشفت القناع عن سر الأسرار ، وهو هذه النفس ، وأبانت
أنها ناقصة ، ولن يخرجها من هذا النقص إلا تهذيبها باجتهاد الإنسان وجدّه هو بنفسه والمثابرة على الصبر
على الأعمال الشريفة وعن الشهوات ، وذلك تفصيل لما أجل في آخر [سورة القلم] من قوله تعالى :
« فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » والحياة لا كمال فيها إلا بالصبر ، ومن
الصبر ما أسبغ عليه صلى الله عليه وسلم إذ كان الذين كفروا عن يمين وشمال يؤذونه فصبر ففاز ، هكذا كل
أمر في الدنيا لا سعادة ولا فوز له إلا بالصبر على تحمل المشاق في أمر تهذيب نفسه وتكميل غيره ، هذا من
أسرار تسمية هذه السورة بالمعارج ، إذ لا خروج ولا صعود إلا باستخراج ما كمن في النفوس من الكمال والجلال
ولن يتم ذلك إلا بصفاؤها من الأدران والأخلاق الناقصة ، فهي إنما تعرج من حال نقصها المعبر عنه بقوله

تعالى : « إن الإنسان خلق هلوعا » إلى كمالها بالآداب التي شرحناها هنا ، وهي مأخوذة من آيات السورة .
 [سورة نوح] — ويتلو ذلك في وضوح الرحمة انذار نوح عليه السلام لقومه ، وكيف هلكوا بعد أن
 أنذرهم فلم يسمعو ، ولكن في هذه السورة اتضح جلال النفوس وبهاؤها ، ففي التي قبلها شرح الله كيف
 يكون معراج النفس من خستها ، وفي هذه السورة أبان كيف تلبس تاج العرفان . وكمال الإنسان كمالان :
 كمال علمي ، وكمال أدبي ، فالكمال الأدبي تقدم في السورة قبلها إذ يصف قوما بأنهم ينفقون من أموالهم ،
 وبأنهم حافظون فروجهم الخ ، وههنا ذكر الكمال العلمي بطريق شيق ، إذ ذكر خلق السموات والنار
 القمر فيها ، واشراق الشمس ، وذكر النبات بعد أن ذكر التوبة والاستغفار ، فهو لم يطل القول في الكمال
 الأدبي لأنه تقدم في السورة قبلها ، ولكنه فصل القول تفصيلا في الكمال العلمي الذي لا تمام له ولا كمال إلا
 باستيفاء الكمال الأدبي أولا ، ولذلك عوقب القوم أشد عقاب : هلاك في الدنيا وعذاب في الآخرة ، لماذا
 ذلك ؟ لأنهم أعطوا علما جا فاعرضوا عنه .

[سورة الجن] — طال القول في هذه السور في الكفر والإيمان ، والمعاصي والطاعات ، والنعيم والعقاب
 يفصل بعضه بعضا ، ويتبع بعضه بعضا ، ولكن بقيت هناك نقطة لابد من تفصيلها ، وهي قوله تعالى :
 « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » ، فالعالم متشابه ، فهذه الأرض التي نسكنها ظهر اليوم أن العناصر
 فيها هي أنفسها من عناصر الشمس ، واستبان أيضا بالكشف الحديث أن أشعة المعادن في الأرض مثلا
 كأشعة العناصر التي في الشمس ، فهذه العوالم من هذه الجهة لا تفاوت فيها ، وإذا كان ذلك كذلك في
 العالم المادى فهكذا يرى العالم الروحي ، فإذا كان في عالم الإنسان وهو العالم العاقل المنظور فيه مسلمون وفيه
 مجرمون ، هكذا في عالم الجن العاقل الذي لا نراه مسلمون ومجرمون ، فإذا كان هناك تشابه بين عناصر الأرض
 والشمس في العالم المادى ، فهكذا هناك تشابه بين عالم الجن وعالم الإنسان باعتبار أن الجميع من العالم الذي
 يحس ويعقل ، وهذه الدرجات المختلفة في نوع الإنسان يرى نظيرها في عالم الجن الذي لا نراه ، وهذا كله
 طبعا سمعى لا دخل للعقل فيه ، ولذلك جاء في هذه السورة بطريق الوحي ، فكأن السور السابقة على هذه
 السورة كانت أقرب إلى عالم الشهادة ، وهذه السورة صارت أقرب إلى عالم الغيب الذي جاء به الوحي .
 ولما وصلت الحال إلى ذلك العالم الغائب عنا وجاء فيه ذكر الوحي ناسب أن يشرح كيف كان بدء ذلك الوحي
 فأتى بسورتى :

[المزمل والمدثر] — وفيهما صفتان عامتان : صفة الاشراق في النفس ، وصفة هداية النفوس الأخرى ،
 فأما اشراق النفس فلن يكون إلا بالتهجد وقيام الليل ، لأن الروح لا تقوى على تحمل المشاق إلا بأشراقها ،
 والقيام بالليل معين لها على ذلك ، لأن الإنسان إذ ذاك يخاطب ربه كأنه يراه ، وهذه ترفع النفس عن هذا
 العالم المادى ، فإذا كملت بذلك رفعت إلى درجة أعلى ، وذلك بأنها تفيض النور على غيرها ، وأول الأمرين
 واضح في سورة المزمل ، وثانيهما واضح في سورة المدثر ، ففي أولاهما تكميل النفس ، وفي ثانيتهما تكميلها
 لغيرها ، والثاني مرتب على الأول ، ولذلك جاء بعده :

[سورة القيامة] — ولما كانت النفس الكاملة في نفسها تكمل غيرها (والكمال على قسمين : كمال
 مبدئى ، وكمال نهائى ، فالكمال المبدئى أن تصير النفس لقائمة بجاهد للكمال ، والكمال النهائى أن تكون
 النفس كاملة ، وإن لم تصل لدرجة من علمها) جىء بسورة القيامة أولا وفيها ذكر النفس القائمة ، وأتبع
 بسورة [الإنسان] وفيها ذكر النفس الكاملة التي وإن كانت مخلوقة من أمشاج وإبتليت بأنواع من المحن
 فإنها فازت ونجت ، وصارت من الأبرار ، وشربت من كأس كان مزاجها كافورا ، وصارت نفسا مطمئنة
 تعطى لا الجزاء ولا لشكور .

[سورة المرسلات] وهذه الدعوس المتقدمة نهاية سعادتها أن تكون في جوار تتلقى الأمر والنهي عن الله نفسه في العالم الثاني كما يتلقى الملائكة الكرام المذكورون في أول [سورة المرسلات] عند آية « فالملقيات ذكرا » ويتخلل ذلك الإنذار والتبشير ، وذكر العذاب والنعيم .

هذا مجمل الرجات في هذه السور العشر من [سورة القلم] إلى [سورة المرسلات] وإنما فعلنا ذلك هنا مخافة التطويل ، لأن الرجة تقدم الكلام عليها كثيرا في هذا التفسير ، والرجة لاحد لها ولا حرج عليها ، ولنشرع الآن في تفسير السورة فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(تبارك الذي بيده الملك) فله الأمر والنهي والسلطان ، فيعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء (وهو على كل شيء قدير) من الممكنات ، ومن ذلك الانعام والانتقام (الذي خلق الموت والحياة) قدرهما (ليبلوكم) ليعاملكم معاملة المختبرين أيها المكلفون (أأيكم أحسن عملا) أصوبه وأخلصه ، وأحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع في طاعته (وهو العزيز) الغالب المنتقم من عصاه (الغفور) لمن تاب إليه (الذي خلق سبع سموات طباقا) طباقا على طبق بعضها فوق بعض ، يقال : طبقت العمل إذا خصفتها طبقا على طبق ، فهو من باب الوصف بالمصدر ، والكلام على السموات وتحقيقها وكونها سبعة قد سبق في سورة البقرة فلا نعيده (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) وقرئ : من تفاوت ، كالتعهد والتعاهد وهو الاختلاف وعدم التناسب ، فإن كلا من المتفاوتين فأت عنه بعض ما في الآخر ، والجملة صفة ثانية لسبع ، وضع فيها خلق الرحمن موضع الضمير للإشعار بأنه يخلق ذلك بقدرته الباهرة رجة وتفضلا ، وأن الرجة عامّة في هذه العوالم (فارجع البصر هل ترى من فطور) الفطور الشقوق ، والمقصود منها الخلل من فطره إذا شقه فكأن الخلل في نظامه مشقوق متباعد كل شق منه عن الآخر (ثم ارجع البصر كرتين) رجتين أخريين في ارتياد الخلل : أي ارجع البصر مرارا كثيرة كما في ليك وسعديك أن أرجعت البصر تطلب أن ترى ذلك الخلل (ينقلب) ينصرف (إليك البصر خاسئا) صاغرا ذليلا مبعدا لم يرميهوى من الخلل كأنه طرد عنه طردا (وهو حسير) كليل منقطع لم يدرك ما طلب من أن يرى خلا في النظام ، ثم أعقبه بذكر بعض ما يرى من النظام المشاهد وجماله لتكون زينته وحسنه دليلا على جمال ما رآه من حسن النظام والاتقان والاحكام فقال (ولقد زينا السماء الدنيا) القربى من الأرض ، وهي التي يراها الناس (بمصابيح) كواكب مضيئة بالليل ، فكما زين الناس منازلهم ومساجدهم بمصابيح ، وهي السرج التي يوقدون فيها هكذا زين الله سمواته بمصابيح ، ولكن لانسبة بينها وبين مصابيحهم ، والتعبير بمصابيح لينبه الناس إلى المقايسة والموازنة بين السرج والكواكب التي سماها بأسماء السرج في البيوت ليلاحظوا الفرق بين النظامين نظام منازلنا ونظام السموات العام ، فإذا كان الناس ينظمون منازلهم وينتهي نظامها بالسرج ، هكذا نظم الله السموات وزينها بالكواكب والنسبة بين نظامنا ونظامه كالنسبة بين سرجنا في البيوت وبين الكواكب فليس رجع البصر كرتين يجعله ينقلب مقطوعا عن أن يرى خلا في النظام حسب بل الأمر أعظم ، إن النظام يفوق جماله الحصر ، وأي نسبة بين سرج الناس وسرج الله ، فأرضا بالنسبة لبعض الكواكب لا قدر لها فضلا عن جبالها وعن السرج في البيوت ، فكأن قوله : « الذي خلق سبع سموات طباقا » انتقال من الكلام عن اليأس من رؤية الخلل إلى القول بأن النظام لاحد لنهايته ، فهو تنزيه في الوصف ، يقول أولا إن النظام لا خلل فيه ، ثم يقول بل

الأمر أعظم من ذلك ، وضرب مثلا بالسراج والكوكب ، كل هذه المعاني تؤخذ من التعبير بلفظ مصابيح ، ولعمري من هذا تسم بلاغة القرآن ، وبهذا فلتعرف ، عبر بالمصابيح مشيرا إلى عدم تناهي الحسن ودقة النظام ، وليس عند نوع الانسان من قوة يدرك بها علو النظام وغاية الاتقان أكثر من التعبير بمصابيح ، وقوله (وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير) إتمام للكلام على النظام ، يقول : إن النظام المتناهي في الحسن لا يتم إلا بتجمع الأضداد بحيث لا يكون أحد الضدين بدون الآخر ، فهذه المصابيح التي زيننا بها السماء لاتقف عند الزينة بل بأضواء الكواكب والشموس يكون مافي الأرض من رزق وحياة وموت تبعاً للناموس الذي سنناه ، والقدر الذي أمضيناه ، فيكون في العالم الانساني وعالم الأرواح التي فارقت أجسادها نفوس تتقاذفها الأهواء في عالم المادة ، وتظهر بأنواع الذنوب والشهوات في الدنيا ، وتقبح ما نهينا عنه بحيث تفتتها الشهوات . وتجذبها اللذات التي نجمت من العناصر المتفاعلة بسبب الأضواء المشعة النازلة من عالم الكواكب المشرقة في السماء التي هي زينتها ، فهي كما كانت زينة السماء ، وأسبابا لرزق ذوى الصلاح والأنبياء والعلماء والحكماء ، هكذا هي سبب لتكون الأرزاق المهيجة لشهوات شياطين الانس وشياطين الجن وهذا العالم قد اختلط فيه الضر بالنفع بحسب ما يظهر ، وخلق كل على حسب ما استعد له ، فالنفوس التي هي مستعدة للفضائل والنفوس الشريرة كلاهما استمدت من هذه المادة المسخرة المقهورة بالقدرة التي أضاعت الكواكب فأشرقت عليها وبها تكونت صور الحيوانات والنباتات ، فاذن النجوم دارت سببا لعذاب النفوس الخبيثة بما سببت لها بأمر الله غذاءها وشهواتها ، ومن ذلك أن المنجمين تكون لهم فيها رجوم وظنون ، فهم أيضا من شياطين الانس ، فالعصاة شياطين ، والمنجمون شياطين ، والعائدون الجاحدون شياطين ، كل هؤلاء استمدوا شيطنتهم من مظاهر الطبيعة المصورة بواسطة الحرارة والضوء من الكواكب ، وهذا معنى قوله : « وأعتدنا لهم عذاب السعير » أي في الآخرة ، فن كان محترق القلب باللذات في الدنيا وانجذب إلى الشهوات وقالت له نفسه هل من مزيد منها ، وغفل عن جبال هذه العوالم ، ولم يعرف من هذه العوالم إلا شهواته ، أما عقله فانه قد حجب عن الجمال والكمال ، فهذا هو الذي هيء له عذاب السعير على مثال ما عود نفسه في الدنيا ، إن الجمال في العالم الذي لاحظه المدمج في ذكره مصابيح لاتعرفه النفوس المحبوبة ، إن السماء قد أضارت على البر والفاجر ، فالفجار حصرت نقرسهم في شهواتهم فلم ينظروا إلى السماء فوقهم نظر فكر وعقل ، وكأنه قيل : ارجع البصر يا محمد هل ترى من اختلاف في طراز هذا العالم ، بل ليس لهذا النظام نهاية في الحسن ، ولكن ليس يعقل هذا إلا نفوس شريفة لم تنحصر في شهواتها ، بل كان لها إدراك يفوق غيرها من الناس ، فأما الشياطين وهي النفوس الناقصة فليس لها حظ من الحياة إلا ما به قوام الجسم ، وكما أن أنوار الشمس فيها حرارة وضوء ، وبالحرارة تكون الحياة ، والضوء تكون الهداية ، هكذا النفوس الناقصة لم تأخذ من آثار الكواكب والشموس إلا ما به الحياة الناجمة من آثار الحرارة ، أما هداية العاقلة التي رسمها الأضواء للأبصار وتناقلها البصائر بالبحث والتنقيب ، فهؤلاء الشياطين مبعدون عنها ، وهؤلاء هم الذين أعدنا لهم عذاب السعير في الآخرة لأننا نضع كل شيء في موضعه فندخلهم فيما يشاء كل حالم في الدنيا وهم كانوا محبوسين في نيران الغضب ، ونيران الخرص ، ونيران البخل ، ونيران الحقد ، ونيران الطمع وهكذا ، فهذه النيران كلها تطلع على القلوب بعد الموت ويوم القيامة ، ثم تصير نارا مشاهدة بها كل امرئ ملازمة : « إن عذابها كان غراما » .

ولما كان الكفار من شياطين الانسان أوتلاميذهم الذين يغنون لوسوستهم أعقبه بقوله : (وللذين كفروا برهيم عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا) صوتا كصوت الحير (وهي تقور)

تغلي بهم غليان الرجل بما فيه (تكاد تميز من الغيظ) تتفرق غضبا عليهم ، وهذا من باب الاستعارة التمثيلية يمثل شدة اشتغالها بهم (كلما ألقى فيها فوج) جماعة من الكفرة (سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير) يخوفكم هذا العذاب ، وهذا سؤال توبيخ (قلوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مازل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير) والمعنى أفرطنا في التكذيب (وقالوا لو كنا نسمع) كلام الرسل فنتقبله اعتقادا على ملاح من معجزاتهم (أو نعقل) فنتفكر في حكمه ومعانيه ، مستبصرين حتى نوقن بعقولنا (ما كنا في أصحاب السعير) في عذابهم (فاعترفوا بذنبهم) حين لا ينفعهم ، والاعتراف اقرار عن معرفة (فسحقا لأصحاب السعير) أى بعدا : أى أبعدهم الله من رحمته (إن الذين يخشون ربهم بالغيب) يخافون عذابه حال كونه غائبا عنه لم يعاينوه بعد ، أحوال كونهم هم غائبين عنه (لهم مغفرة) لذنوبهم (وأجر كبير) فلان نسبة بينه وبين لذات الدنيا ، ثم أخذ يشرح عموم علم الله بالغيب والشهادة لمناسبة قوله « يخشون ربهم بالغيب » (وأسرّوا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور) أى بالضمائر قبل أن يعبر عنها سرا أو جهرا (ألا يعلم من خلق) ألا يعلم السرّ والجهر من أوجد الأشياء على مقتضى علمه وحكمته ، وكيف يخلقها وهو لا يعلمها ؟ (وهو اللطيف) باستخراج ما في الصدور (الخبير) بما فيها من السرّ والوسوسة ، فهو حقيق إذن أن يخشى بالغيب ، فكأن هذه الآيات لتبيان أن خشية الله بالغيب واجبة (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا) لينة سهلة ليسهل لكم السلوك فيها ولا يمتنع المشى فيها لحزوتها وغلظها وخلق فيها أنواع المعادن والحجارة والطين وسائر المواد التى تصلح لأنواع المختلفة من الصناعات والأعمال ، فن طين خاص للأواني إلى حجارة مختلفة للبناء ، إلى جبال طلقة الهواء ، وأخرى مكسوّة بالأشجار ، إلى أرض صالحة للزراعة ، إلى أخرى لا تصلح ولكن تستخرج منها المعادن ، إلى صحارى واسعة وفيافي قاحلة كالتي بين مصر وطرابلس ، يقل فيها الماء لتصعب سكناها لتكون فاصلة بين الممالك ، ليقل تحرّش بعضها ببعض ، ولينظف فيها الهواء من العفونات ويلطف ويكون بمثابة مرشح الماء ليصلح للشرب إلى جهات ناجية في القطبين تبقى مئات الألوف أو عشراتاتها لتستريح من الأعمال النباتية والحيوانية حتى إذا جاء أجلها أديرت الأرض دورة بحادث فجائى فصار القطب خط استواء وبالعكس وابتدئ دور العمل ، والدليل على ذلك أن جهة القطبين قد وجد بالقرب منها فيسالة عظيمة مطمورة في باطن الأرض مما دلّ على أن هذه الجهات كانت خط استواء فانقلبت فجاءة إلى قطبين ، فالأرض ، بذلة لنا وفيها ما لا يحصى من المنافع فلذلك أعقبه بقوله (فامشوا في مناكبها) فى جوانبها مشيا عقليا ومشيا عمليا ، فاعقلوا بالاستدلال وبالبحث فى منافعها ، والعملي باستخراج ما فيها من المنافع والمعادن (واكلوا من رزقه) واتمسوا من نعم الله (وإليه النشور) المرجع فبسألكم هل شكرتم نعمه ؟ هل قبلتموها واتفّعتم بها حتى تؤدّوا شكره ؟ .

ولما ذكر نعمه أخذ يحذر من عقوبته فقال : (أأنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور) أى أأنتم الله الذى هو فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم : أى أأنتم خسفه بكم الأرض كما خسف بقارون فإذا هي اضطرب أى تحرك الأرض عند الخسف بكم حتى يقلبكم إلى أسفل وتعلو الأرض عليكم وتمور فوقكم وتجيء وتذهب (أم أأنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا) أى ريحا ذات حجارة صغار كما فعل بقوم لوط (فستعلمون كيف نذير) كيف انذارى إذا شاهدتم المنذر به ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ ، وكيف يأمنون من فى السماء أن يصب عليهم العذاب من فوقهم ومن تحتهم ، وقد ذلل لهم الأرض وزين لهم السماء بمصابيح ، فإذا لم يشكروا النعمة بالبحث فيهما والانتفاع والتفكير فهو حرق أن يقلب النعمة نقمة ، فإذا زين السماء وذلل الأرض فهو قادر أن يجعل المزين والمذلل للعذاب لا للإنعام إذا لم يكن للنعمة موضع ، وكيف يأمنون ذلك وقد حصل لمن قبلهم من الأمم (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف

كان نكبر) أى انكارى عليهم بانزال العذاب تارة من تحتهم وتارة من فوقهم ، إن الله كما ذلل الأرض وزين السموات لم يذر ما بينهما بلا نظام ورحمة (أولم يروا إلى الطير فوقهم) فى الهواء (صافات) بإسطات أجنحتهم فى الجوّ عند طيرانها (ويقبضن) أى ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن وقتا بعد وقت للاستظهار بذلك القبض على التحريك ، والمعنى ويصففن ويقبضن ، وذلك أن الطير فى أكثر الأوقات يكون صافا أجنحته ، ثم هو يقبضها وقتا بعد وقت ، فالبسط هو الأصل ، والقبض يكون آنا فآنا (ما يسكنهن) فى الجوّ حال القبض والبسط وهن أجسام كثيفة من طبيعتها أن تقع على الأرض بالجاذبية (إلا الرحمن) الذى خلقهن على شكل خاص أدهش علماء العصر الحاضر حينما شرعوا فى فن الطيران فأدركوا بعض تلك الحكم التى قاومت طبع الجاذبية وجعلت الهواء مسرعا للطير كما تسرح الأنعام فى البرية ، إن هذه الخارقة دقيقة الصنع حتى إن الطائر فى خلقه مختصر من الأنعام فوق الأرض ، فلكل عضو كفيف فى الأنعام عضو يقابله فى الطير غاية فى الخفة أو النصف أو اللطف ، فكيف ترى الجناحين قد خفت جملهما وقد كسبا بالريش الخفيف المكون من أنابيب مجوّفة وشعرات حريرية ، وجعل لها المقارم دبيا كيلا تصادم الهواء فى طيرانها فيعيق جريها بخلاف ذوات الأربع فإن وجوهها عريضة وأرجلها المقدّمة القائمة مقام الجناحين ثقيلة منتهية بما تعتمد عليه عند سيرها فى الأرض من حافر أو خف أو ظلف ، لذلك أعقبه بقوله (إنه بكل شىء بصير) أى يعلم كيف يخلق الغرائب ويدبر العجائب ، وإذا كانت هذه بعض العجائب التى أبرزناها والحكم التى أظهرناها فهل أنتم أن تدبر بحكمته عذابا نصبه عليكم صبا ، فنحن نغير النظم بحكمته ، فقد أبدعنا الطيور فى الجوّ فقويت على مغالبة ثقلها فلم تسقط على الأرض ، هكذا نحن نقدر أن نغير حالكم ونهلككم بقدرتنا وحكمته فن ذا الذى ينصركم منا ؟ ألكم جنود يمنعونكم من عذابنا وقد رأيتم سطوتنا وبطشنا ؟ (أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غور) لا معتمد لهم ، وعبر بلفظ الرحمن فى مقام العذاب اشعارا بأنه برحمة أبقى الناس فى الأرض مع ظلمهم وجهالتهم ، لأن رحمة وسعت كل شىء ، وسعت البراءة والفاجر ، والطير فى السماء ، والأنعام على الأرض (أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه) أم من يشار إليه ويقال هذا الذى يرزقكم ان منع المطر عنكم أو أوقف الهواء فلم تجر الرياح ، أو جعل ماء البحر غورا ، ومحصل ذلك أنكم لاجند لكم ينصرونكم إن عذبكم ، ولا رازق يرزقكم ان حرّمكم ، فلما لم يتعظوا أضرب عن ذلك وقال (بل لجوا) تمادوا (فى عتو ونفور) فى عناد وشراد عن الحق (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم) يقال كيبته فأكب : أى أمن يمشى وهو يتعثر كل ساعة ويختر على وجهه لوعوث طريقه واختلاف أجزائه أهدى أمن يمشى قويا سالما من العثار على طريق مستوى الأجزاء والجهة ، فالكب على وجهه مثل المشرك ، والذى على صراط مستقيم مثل الموحد ، وهذا المكب على وجهه هو الذى يحشر على وجهه فى الناريوم القيامة ، ومن يمشى سويا الآن بالتوحيد هو الذى يحشر على قدميه إلى الجنة .

ولما ذكر فيما تقدّم زينة السماء وتذليل الأرض وامساك الطير فى الهواء أخذ هنا يذكر ما هو أقرب إلينا وهو خلق أنفسنا فقال : (قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار) لتسمعوا المواعظ ولتنظروا صنائعه فتبتهجوا بزينة السماء بالكواكب وتسخير الأرض وتذليلها ، وتعقلوا كيف أمسك الطير فى جوف السماء (والأفئدة) لتفكروا فيما ذكر وتعتبروا وتستفيدوا فوائد مادية وأخرى عقلية (قليل ما تشكرون) باستعمالها ، ثم لخص هذا كله فقال : (قل هو الذى ذرأكم فى الأرض) فقلوه «ذرأكم» أى خلقكم يشمل السمع والبصر والعقل ومنافع الأعضاء ، وقلوه «فى الأرض» يشمل جميع المنافع المذكورة من

تذليلها وتسهيلها واشراق الكواكب عليها الخ وما فوقها من طيور في الجو ، وقوله (وإليه تحشرون) أى للحساب ، هل شكرتم هذه النعم ؟ هل فكركم فيها ؟ هل عقلتكم ذلك ؟ .

ولما أتم الكلام على النعم والحساب عليها أخذ يذكر المنكرين لتلك النتيجة الغائبة عنا ، وهى الحشر والعقاب فقال : (ويقولون متى هذا الوعد) أى الحشر وما يتقدمه من الحسف فى الدنيا وارسال المصاب (إن كنتم صادقين) أيها النبي والمؤمنون (قل إنما العز عند الله) أى علم وقته (وإنما أنا نذير مبين) أئين لكم الشرائع (فلما رأوه) أى العذاب الموعود (زلفة) أى حال كونه قريبا منهم (سيئت وجوه الذين كفروا) أى ساءت رؤية الوعد وجوههم بأن علمها الكآبة والمساءة ، وغشيتها القفرة والسواد (وقيل هذا الذى كنتم به تدعون) أى وقال الزبانية هذا الذى كنتم تسألون تعجيله وتقولون ائتنا بما تعدنا استهزاء فقوله « تدعون » على هذا من الدعاء لامن الدعوى فهو على وزن تفتعلون (قل أرأيتم ان أهلكنى الله) أماتنى (ومن معى) من المؤمنين (أورحنا) بتأخير آجالنا (فن يجر الكافرين من عذاب أليم) وهذا القول لمشركي مكة الذين كانوا يتمنون هلاكه صلى الله عليه وسلم ومن معه ، يقول : إن هلكنا أورحنا فلا يجير لكم من العذاب ، وقد فسرهما ابن عباس بما يأتى :

« أرأيتم ان أهلكنى الله » أى فعذبنى « ومن معى أورحنا » أى ففقرنا فنحن مع إيماننا خائفون أن يهلكنا بذنوبنا ، لأن حكمه نافذ فينا ، فن يجيركم أو يمنعكم من عذاب أليم وأتم كفرون ؟ اه ثم قال (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين) منا ومنكم (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا) غائرا فى الأرض بحيث لا تناله الدلاء (فن يأتيكم بماء معين) جار أوظاهر سهل المأخذ : أى أخبرونى ان صار ماؤكم ذاهبا فى الأرض فن يأتيكم بماء ظاهر تراه العيون ؟ إذن لا بد أن يقولوا هو الله تعالى حينئذ يقال لهم : فلم تجعلون معه من لا يقدر على شيء أصلا شريكا له فى العبادة انتهى تفسير السورة اللفظى ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) فى قوله تعالى : « الذى خلق الموت والحياة » .
- (٢) وفى قوله : « واقدزينا السماء الدنيا بمصابيح الخ »
- (٣) وفى قوله : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات » .
- (٤) وفى قوله : « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار » الخ

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : الذى خلق الموت والحياة

لننظر الآن لم قدم الموت على الحياة ، وكيف يبتدىء السورة بما يفيد أن خبره عام شامل ، ثم يبتدىء بذكر الموت مع ان الموت عدم ، والعدم ليس خيرا لا كشيء ولا قليلا ؟ فنجيب على ذلك فنقول : إن النظر السطحي فى هذه الأرض التى نسكنها والجهل هما اللذان جعلاً أهلها معذبين ، فالجهل سبب العذاب فى الدنيا بالذلة وسبب العذاب فى الآخرة بجهنم وبأنواع الذل والاهانات ، ومن الجهل عدم فهم نعمة الموت ، إن الموت مزرعة الحياة وحققها ، ولولا الموت لم تكن الحياة ، فتقديم الموت أشبه بتقديم السبب على المسبب والأصل على الفرع ، وإيضاحه أن تقول :

إن الحيوان والنبات هما اللذان يعتريهما الموت والحياة ، وقد وضع الله فى طبيعة أكثر النبات وأكثر

الحيوان كثرة الذرية كثرة مفرطة جداً ، وتلك الكثرة الطبيعية لحكمة ، وهي أنها تكون ضماناً لبقاء الأنواع على الأرض ، فلولا هذه الكثرة المفرطة لا تقرض كثير منها ولم يعوض بمثله في الأرض ، فلوتركت تلك الذرية المتعاقبة حيناً من الدهر لامتلاء وجه الأرض بالحيوان فلم تعد الأرض تصلح لحيوان جديد ، ففوت هذه المخلوقات وسرعة فناؤها هي النعمة العظمى لأنها تخلى وجه الأرض لما بعدها ، فانوت أشبه بالتخلية ، والحياة أشبه بالتخلية ، وهذا هو السر في تقديم الموت ، ولأضرب لك مثالا لذلك فأقول :

(١) إذا نظرت إلى مقدار ما في النخل من اقتاح ، وما في الذرة مما ينتشر في الهواء أو يقع على الأرض تجده لو صادف صلاحاً وأثراً لم تسمعه الأرض .

(٢) كأننا نرى السمك وما في بطنه من المقادير الكبيرة من البيض الصغير الدقيق جداً وهو عدد غزير كثير يسمى [البطروخ] يأكله الناس ويبيع في الأسواق ، فلو أن هذا البيض كله صار سمكاً لأصبح البحر المالح قطعة جامدة .

(٣) نرى أن في البيوت من أنواع الحشرات كالبق والبراغيث وأمثالها ما لو تركت ولم يهلكها الناس ولم يسلط عليها البرد فهلكها وغيرها من الحشرات كالجراد وغيره لأصبحت الأرض كلها مغلقة بطبقة منها فامتعت الحياة عليها .

(٤) ذكر العلامة [وولاس] عشباً ينتج من البذر كل سنة ثلاثة أرباع مليون بذرة ، وقدّر أنه لو عاش هذا النسل ثلاث سنين فقط وأعقبت كل بذرة في هذه المدة ما بقي مكان في الأرض غير مغطى بها ، وقال : لو أن كل نبات أتيحت حبتين اثنتين في السنة واستمرّ النسل على الانتاج لبلغ عدد الانتاج في السنة الحادية والعشرين ١٠٤٨٠٥٧٦

(٥) إن بعض الحيوانات الدقيقة المسماة [ميكروبات] إذا استمرت على التوالد مدة خمسة أيام بدون انقطاع لملأ المحيط كله بنسله إلى عمق ميل .

(٦) وميكروب الوباء [الكوليرا] الذي يتضاعف كل عشرين دقيقة لو مضى عليه يوم واحد وهو يسير بهذا المعدل بلا عائق لبلغ وزنه ٧٣٦٦ طناً ، وبلغ عدده رقم ٥ والى يمينه ٢١ صفراً .
(٧) والفيل معلوم أنه أبطأ الحيوان ولادة ، فإن الفيلة لا تلد إلا مرة واحدة في كل عشرين سنة ، وقد حسب أحد العلماء أنه إذا استمرّ التناسل بدون عائق لبلغ نسل الزوجين بعد ٧٥٠ سنة ١٩ مليون فيل .

(٨) الجراد كثيراً ما يهجم على القرى والمزارع وهو كالسحاب فيأكل ما أمامه ، ومتى لم يجد ما يأكله أكل بعضه بعضاً .

(٩) السمك الذي يشرب الناس زيته لتقوية الجسم ، تبيض في العام الواحد الواحدة من أنثاه مليوني بيضة ، فلو أصبحت كل هذه البيضات المستخرجة من سمكة واحدة في سنة واحدة سمكاً لصار البحر كتلة جامدة .

(١٠) بعض الحمار في البحار تبيض الواحدة ستين مليوناً من البيض ، وهذا النسل لو بقي كله ما بين عام وعامين ل زاد على الكرة الأرضية .

(١١) الذباب الذي ينغص عيش الانسان اذا تكاثر أمامه تبيض الأثى منه خمس أربست مرات ، وفي كل مرة تبيض من ١٢٠ بيضة إلى ١٥٠ بيضة ، فلوعاشت كلها لم يعيش شيء على الأرض معها . هذا قل من كل من سرعة تكاثر الحيوان والنبات ، فلولا الموت لم تكن حياة ، هذا هو السر

في تقديم الموت على الحياة .

(١٢) ربما كان حيوان يعيش على آخر ، فإذا انقرض ذلك الآخر مات الحيوان ، مثال ذلك الثعابين تعيش في بعض البلاد على الجرذان ، ويموت الجرذان وانقراضها تموت الثعابين وتنقرض من تلك الجهة ، فإذا كثرت القطط أكلت الجرذان وبفنائها نفى الثعابين ، إذن تكون حياة القطط هلاكا لنوعين الجرذان والثعابين ، وذلك في بعض البلاد ، وهذه رحمة عظيمة .

(١٣) جراثيم المرض المسمى [الملاريا] إنما تعيش في جسم الناموس ، فإذا أزيل الناموس زال معه ذلك الحيوان المهلك .

(١٤) لولا حياة البقر ما ابتلى الإنسان بالدودة الوحيدة ، إنما تعيش أولاً في لحم البقر ، ثم تنتقل إلى جسم الإنسان وتعيش في أمعائه ، فلولا يكن بقر لم تكن دودة وحيدة .

بهذا وأمثاله من الحكمة التي أشرفت بها الأرض وأضاء نورها نعرف نعمة الله في الموت ، ونعرف السر في تقديم الموت على الحياة في هذه السورة .

يا سبحان الله : ظهر أن الموت نعمة على الأحياء ، هو أصل الحياة لمن في الأرض لغير الميت ، ولكن هل هو نعمة للميت ؟ نعم هو نعمة كبرى لسببين : الأول أن ينتقل من هذه الأرض الضيقة التي ضاقت صدورهم وضائق هي بمن فيها فكثير الموت ، الثاني أن يدخل في عالم أوسع منها ، فهذا من سر تقديم الموت على الحياة .

البلاغة في القرآن

أنظر أيها الذكي لكلمتين في هذه السورة : الموت في أولها ، ولفظ مصابيح في وسطها ، وكيف اختير اللفظان فيها ، انظر كيف كان تقديم الموت على الحياة نظرياً في علم الطبيعة والتاريخ الطبيعي ، وكيف كان اختيار لفظ المصابيح لذلك الجمال وللوازنة بين نظامنا في بيوتنا ونظام العالم كله كما تقدم ، وليكون مذكراً بقوله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » فمثل هناك لنظام الله في العالم بنظام مصباحنا حتى نعقل كيف نظم على مقدار عقولنا ، وهنا يشير إلى أن نوازن ما بين الدقة هناك والضعف هنا ، فنرى ما لا يتناهى من المحاسن في ذلك النظام ، مثل هذه المعاني لا يدركها ولا يعقلها من تصدروا بلاغة القرآن على أساليب الكلام ، وقد بينا بعضه في سور كثيرة ووارثا بينه وبين كلام العرب ، فأثنى الثريا وأثنى الثرى ، من أين للبليغ اللفظي أن يستعرض علوم الحيوان والنبات كلها لأجل تقديم لفظة على أخرى ؟ من أين له أن يستعرض نظام الدواكب ونظام البيوت لأجل لفظة جاءت مجازاً ، فالحق والحق قلت أن هذا القرآن يطلب جميع العلوم ، فليدرس المسلمون علوم الطبيعة ، وعلوم الفلك ، وعلوم هذه الدنيا كلها والأفلا رقى لهم ولا قرآن لهم إلا ما تحفظه الأطفال ويعر به النحويون ويستدل به الفقهاء في أحكام القضاء ثم يحرمون من كل نعيم في الحياة بعد ذلك في الدنيا والآخرة ، ولقد نصحت وأفردت جهدي ، وسيتولى الله الأمة برعايته ، ويحيطها بكرامته ، ويجرسها بكلامه . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : ولقد زيننا الدنيا بمصابيح

لقد كتبنا فيها في سور متقدمة ، وفي هذه السورة ، قال الله في [سورة الصافات] : « إنا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظا من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملائكة الأعلى ويذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب » ، وهنا قال فيها : « وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير » فهنا أمران : طرد عن الاستماع ، وعذاب في الآخرة ، إن كل ما في القرآن من عذاب في الآخرة يتقدمه .

عذاب في الدنيا ، فهذه الشياطين في الدنيا محجوبون عن الاستماع ، وفي الآخرة لهم جهنم ، وإن أردت أن تفهم نتائج هذه المعاني بنفسك فانظر في أمتك التي أنت فيها وفي مجالسها وتأمل الناس حولك فاجلس في مجلس عام وخطبهم بجمال النجوم وبهجة هذا العالم ، فانك ستجد قليلا منهم يفرحون والباقي لا يباليون ، فهؤلاء الذين لا يحبون هذه المباحث هم تلاميذ الشياطين الذين هم عن السمع معزولون ، تلك الشياطين عزلت عن السمع لما في العالم الأعلى ، وهؤلاء نظراؤهم عزلوا عن معرفة بهجة العلوم ، وهي من بهجة العالم الأعلى ، فأولئك عن السمع معزولون ، كلاهما غير مستعد لهذه الامور العجيبة ، ثم تأمل أيضا في الناس حولك تجد الجهال منهم قد تلوح منهم التفاتة إلى العلماء فيحزنون على جهلهم ، وقلة علمهم ، وحرمانهم من التمتع بالمباحث العلمية الشريفة ، فهذا مبدأ العذاب في الدنيا ، وسيكون بعد الموت ويوم القيامة أشد ، فينتقل من العذاب النفسي ويرتقى إلى الجسمي ، فهذا أثر من آثار هذه الآيات تراها في الدنيا وأنت حتى ترزق . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ، ويقبضن ما يمسكنهن إلا الرحمن والكلام عليها في مقامين : المقام الأول في علم الطيران الحديث ومناسبته لطيران الطير ، المقام الثاني في بنية الطيور ، وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع

المقام الأول

إن قارئ هذه الآية يمر عليها مرت السكرام ، يقرأ : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن » وقد خرج منها خاوي الوفاض ، بادى الأفاض ، يمر عليها كما يمر الطير في الهواء ، ولكن مسألة طيران الطير ليست سهلة المتناول ، إنها أمر عجب ! لقد مرت العصور والدهور والناس يقصون في حكاياتهم ويتخيلون أنه لو كان لهم أجنحة كأجنحة الطير لطاروا إلى أحبابهم ، وسعدوا كما سعد الطير في طيرانه في الهواء ، ألا ترى أن هذا مذكور في قصة حسن الصائغ البصري ، وفي آداب اليونان ما يشير إلى ذلك الخيال ، ولما أفاق الانسان من سباته العميق أخذ يفكر عسى أن يكون هذا الخيال يوما ما حقيقة ، وعسى أن يتاح له أن يطير كما يطير الطير ، ظن الناس أن الانسان ليس عليه ألا يجعل له ريشا كريش الطائر بحيث تكون نسبته إلى جسمه كنسبة ريش الطائر إلى جسمه ، وتكون أجنحته أيضا على تلك النسبة ، ففكر الناس في ذلك وقاموا بهذه التجربة ، وأذكر لك منهم :

(١) رجلا إيطاليا في بلاط الملك جيمس الرابع الاسكتلندي في بدء القرن السادس عشر .

(٢) وبعد ذلك بنحو قرن قام راهب ألماني بالتجربة أيضا .

(٣) وحاول مركيز فرنسي عاش في أواسط القرن الثامن عشر أن يطير بالأجنحة .

(٤) وعباس بن فرناس صاحب صحاح الجوهري .

فهؤلاء الأربعة نموذج لمن حاولوا الطيران قبل هذا القرن الذي نحن فيه فأخفقوا جميعا ، فأما الأول فانه لما حاول الطيران لعبور بحر المانش ، وقد استعد بجناحين عظيمين مصنوعين من ريش طيور مختلفة ونب عن برج قصر [سترلنغ] فهوى إلى الحضيض فكسر عظمه ورض جسمه ومات ، والثاني سقط فمات كذلك ، والثالث وهو المركيز حاول أن يقطع نهر الرين ، فعمل تجارب ، فبدا له أن يقلع عن العمل فنجأ ، والرابع أراد أن يطير فسقط فمات كما هو معروف ، هذه أول خطوة .

[الخطوة الثانية] : في هذه الخطوة رأى الانسان أن طيران الطير ليس بقوة الأجنحة حسب ، وإنما هناك أمر آخر فليس يكفي الانسان أن يلبس ريشا على النسبة المتقدمة لطيور . كلا . والذي عرف ذلك رجل يسمى [بوري] سنة ١٧١٣ م فدرس حركات الطيور ، وقدر قوة عضلاتها الصدرية ، فبين له عجز الانسان أن يضارع الطير بهذه الوسيلة ، كما ثبت بالاختبار أن الانسان فشل في هذه التجربة ، فيئس الناس من الطيران .

[الخطوة الثالثة : عمل المناطيد ^(١)] في هذه الخطوة وقد يئس الناس من الطيران كالطيور رجعوا إلى مشكلة السفينة في البحر ، إن السفن إنما تسير في البحر لأنها مصنوعة بطريقة خاصة بحيث يكون حجمها أكبر من حجم الماء الذي يماثلها وزنا ، فلو أن حجمها كان أقل من حجم الماء المذكور لفرقت ، هكذا هنا صنعوا المناطيد من مواد خفيفة تكون أخف من الهواء ، كما أن السفينة أخف من الماء ، كما نرى الريش يطير ، وكما نرى طيارات الأطفال في الأعياد ، وكان اختراع المنطاد سنة ١٧٨٢ م فلم يكن غير ثلاث سنين حتى قطع بحر المانش من [دوفر] إلى [كاليه] في المنطاد سنة ١٧٨٥ م والذي قام به [جان بيار بلانشاد] وهو معدود من أكبر الذين جادوا بأنفسهم ، وهو معروف عند جميع المشتغلين بهذا الفن ، ومعنى هذا أن الانسان لا يمكنه أن يطير لأن جسمه أثقل من الهواء ، فالمنطاد شيء وطيران الانسان في الجو شيء آخر ، وبقي الناس في حيص بيص من أجل طيران الانسان كما يطير الطير ، الطير يطير بجسمه أثقل فلم لا يطير الانسان وقد عرفنا أن الأجنحة لا تكفي فأين السر إذن ؟ وهنا جاءت :

[الخطوة الرابعة] وابتدأوها سنة ١٨٩١ م إذ قام [ليلياتال] وراقب الطيور في حركاتها عشرين سنة ، وبنى عدة على شكل طائرة منبسطة الأجنحة ، ووضع آلة للوازنة في طيارته وقوة محركه لاطالة مدة الطيران ، وقال : اني درست من هذه الطيور أن سر الطيران يتم للانسان اذا تسفت له قوة رافعة كافية لأن تدفعه بالسرعة الواجبة للارتفاع عن الأرض ، وحينئذ يمكنه أن يحوم في الفضاء كما يشاء ، ولكنه مع نجاحه المبدئي أيضا سقط فوات سنة ١٨٩٦ م .

ومما كشفه أيضا أن الأجنحة المحدودة فيها قوة للرفع تزيد عنها في الأجنحة المنبسطة ، ولكن كان هناك شابان أمريكيان في تلك الآونة هما الأخوان [ويلبور] و [أورفيل رايت] يشتغلان سرا في بلدهما [دايتن أوهايو] في درس علم الطيران وإجراء الامتحانات الصغيرة الابتدائية من المركبات الهوائية ، وقد كان محركهما إلى ذلك نجاح [ليلياتال] في الامتحانات التي قام بها بما اصطنع من الطيارات المنبسطة الأجنحة والمسيرة بالقوة ، لكنهما لم يعمدا إلى بليان مركبة كبيرة قبل سنة ١٩٠٠ ، ومنذ ذلك العهد أخذتا يمتحنانها ويحسنان فيها ويضيفان إليها حتى كانت سنة ١٩٠٥ م : فطار أحدهما في الهواء مسافة أربعة وعشرين ميلا في مدة ثمان وثلاثين دقيقة فوق حقل بالقرب من بلدهما ، فكان الأخوان أول من توفى إلى النجاح في اكتشاف سر مبدأ الطيران وفتح ملكة الهواء لمساعي الانسان .

وفي سنة ١٩٠٧ م أعلنت حكومة الولايات المتحدة رغبتها في الحصول على طائرة من أوصافها أن تكون أجزاءها سهلة التركيب والتفكيك تسهلا لنقلها في مدة لا تتجاوز الساعة الواحدة ، ومعدة لجل رجلين يبلغ وزنها على الأقل ٣٥٠ بونا ، ويقطع مسافة أربعين ميلا ، بجوابا على هذا الاعلان قدم الأخوان إحدى طيارتهما للامتحان ، وفي سنة ١٩٠٨ جاء [أورفيل رايت] بالطيارة إلى [واشنطن] وفي خلال الامتحانات الابتدائية غير الرسمية طار طيارانا مدهشا استمر فيه ساعة و٢٥ دقيقة و٢٠ ثانية ، ثم

(١) انظر صورة المنطاد والكلام عليه في المجلد الحادي والعشرين من هذا التفسير اهـ

أراد القيام بالامتحان الرسمي فعين الملازم في الجيش [سلفردج] للركوب معه ، خلقت الطائرة في الفضاء ، وكانت في بدء الطيران عند رغائب المراقبين ، ولكن الرصاص الخشبي انكسر من سرعة دورانه فسقطت الطائرة ، وقتل الملازم [سلفردج] ، أما [أورفيل] فأصيب بجراح ورضوض بليغة حالت دون إجراء الامتحانات في تلك السنة ، ولكن في السنة التالية امتحنت طائرة [رايت] مرة أخرى فأتمت شروط الحكومة التي قبلتها واشترتها ودفعت لمخترعيها الأخوين جائزة مالية قدرها ٢٥ ألف دولار .

أما في فرنسا فكان تقدم الطيران سريعاً وعجيباً ، لأنه لم يكن أحد قبل بدء سنة ١٩٠٨ قد طار أكثر من ثمانمائة واثني وأربعين ذراعاً ، ولكن لم تنقُص تلك السنة حتى كان الطيران الفرنسي [فارنهام] قد تمكن من الطيران مسافة ٢٥ ميلاً ونصف ميل ، وحتى كان [ويلبور رايت] الأمريكي في أواخر تلك السنة قد طار مدة ساعة و٥٠ دقيقة و٢٢ ثانية وقطع ٦١ ميلاً .

سنة ١٩٠٩ م ينزل ذكرها في التاريخ بأنها فاتحة العهد الجديد في فن الطيران ، لأن ما تم فيها من الأعمال العجيبة يدل على سرعة تقدم هذا الفن إلى درجة تفوق حد التصديق ، ففي الولايات المتحدة طار [كان كورتس] مدة ٦٧ دقيقة ونصف دقيقة ، وطار [أورفيل رايت] في فورت ماير مدة ساعة و٢١ دقيقة يحمل معه راكباً ، وقد قطع مسافة ٥٠ ميلاً ، وفي فرنسا ربح [كورتس] الجائزة في السباق الذي جرى في [ريمس] وقام [بليريو] بمطيره التاريخي المشهور ، إذ قطع لأول مرة بحر المانش من فرنسا إلى إنجلترا مجتازاً مسافة ٣١ ميلاً في مدة ٣٧ دقيقة ، وقام [فارنهام] بمطير عجيب استمر فيه ٤ ساعات و١٧ دقيقة و٣٥ ثانية قاطعاً مسافة ١٣٧ ميلاً ، وطار كل من [أورفيل رايت] و [لاتام] و [بوهان] خلق إلى أعلى من ألف وخمسمائة قدم ، وطار [بوهان] من لندن إلى مانشستر ، وطار [لورتس] من البني إلى نيويورك ، وطار [هماتون] من نيويورك إلى فيلاديفيا ، وطار القبطان [رولز الانجليزى] من إنجلترا إلى فرنسا ، ثم عاد دون توقف فقطع بحر المانش ذهاباً وإياباً في مطير واحد ، وما زال فن الطيران في ذلك العهد بين تجربة واختبار وإصلاحات وتحسينات وإضافات هامة حتى قام الكونت [زابلين] الألماني المشهور الذي نظر إلى هذا الفن نظرة باحث ، فأنشأ في بلده المعامل الكبيرة ، وكانت فاتحة أعماله الجليلة اجتياز الاوقيانوس الأتلتنكي في الهواء ، وبعدها ابتداء ببناء المناطيد الهوائية التي تنقل الركاب جاعلاً لها أوقافاً محدّدة للسفر على نحو هو الأمر مع البواخر والقطارات الحديدية ، فما فكر فيه [الكونت زابلين] الألماني من عشرات السنين يفكر فيه الآن دول الحلفاء ويقومون بتنفيذه ، كان فن الطيران في عهد طفوليته يوم استلم زمامه الألمان ، وهذا ما وجه له الأنظار والأفكار بمزيد الاهتمام ، ولا سيما من حيث استخدامه في الحرب للاستكشاف والدفاع والهجوم براً وبحراً ، ولقد كان للركبات الهوائية [الأيروبلان] أو بساط الرمح شأن يذكر في الحرب العالمية الماضية من سرعة قضاء المهمات ، أو من حيث قيام رجل أو اثنين في مركبة هوائية بما لا يقدر على القيام به غير كوكبة من الفرسان .

وتستخدم الطائرات في تدمير الأساطيل وتشيت الجيوش وتخريب الحصون برمي القذائف الانفجارية من علوّ لا يناها فيه رصاص البنادق وكرات المدافع .

ها أنا ذا ألخص لك علم الطيران ، فن أجنحة أهلك الطائرين ، ومن بأس قعد بالطائر ، إلى منطاد يطير بخفته ، إلى طيارات تطير كما يطير الطير ، أجسامها ثقيلة ولها محركات وقوات موازنة وترتفع بقوة ثم تحوم إلى أساطيل في الهواء تحمل الجيوش والمدافع ، وأنواع التجارات المختلفة حتى يحو وجه الأرض من الطرق الحديدية .

لعلك تقول : انك قرأت موضوعا فكتبته لمناسبة الآية ، وأى علاقة للآية بهذا التاريخ الطويل العريض ؟ أقول لك : إن الآية بهذا القول يظهر سرها ، أليس من العجب أن [ليلى اتال] أخذ يدرس الطيور في طيرانها عشرين سنة لم هذا كله ؟ ولم كان الطيارون في أول أمرهم اذا طاروا بالأجنحة يموتون ولم لجأوا إلى الأليطير إلا المناطيد ، ونكصوا على أعقابهم فلم يحسروا على طيران الانسان ؟ ثم ما هذا الجهد والجهد والعناء كله ؟ ثم لم يوفق الناس إلا في أيامنا هذه للطيران ، ومعنى هذا كله أن قوله تعالى : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن » لا تعرف بعض حقائقه إلا بهذا العلم ، أى ان طيران الطائر ليس أمرا سهلا كما يتصوره الناس ، فإهو إلا أن يزود بأجنحة ويطير . كلا . فقد سقط الناس وماتوا لما ظنوا ذلك ، واذا قلنا ان السفينة تجري فوق البحر فالطير ليس على هذا النظام ، بل الطير جسمه أثقل من الهواء ، أما السفينة جسمها أخف من الماء الذى على مقدار حجمها ، ولذلك تزيح من البحر ماء على مقدار وزنها ، ولم يعرف الانسان سر الطيران حتى قطع شوطا بعيدا ، فقوله : « ما يمسكهن إلا الرحمن » ليس مما يدرك بسهولة ، بل يدرك بهذا العلم : أى ان هذا العلم هو الذى نعرف منه مقدار الصنائع والدقائق والحكم التى أودعها الطائر حتى طار ، إن كل شيء فى نظر الجاهل سهل ، وفى نظر العالم يحتاج إلى أبحاث ، ياليت شعرى : من كان يظن من أمم الأرض قبل هذا القرن أن طيران الطائر فيه هذه الحكم والأسرار . بهذا نفهم فى هذا العصر وحده معنى قوله تعالى : « إنه بكل شيء بصير » ، هذا العصر هو الذى فيه يظهر سر القرآن وسر الوجود ، فاذا كان العالم يظهر سره الآن فالقرآن يظهر سره الآن ، لأن هذا فعله وهذا قوله وهما متلازمان ، فليقرأ هذا المسلمون وليعلموا « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » وبهذا انتهى الكلام على المقام الأول ، والحمد لله رب العالمين .

المقام الثانى فى بنية الطيور ، وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع

اعلم أن الأصناف الأربعة من الحيوان البرى وهى : الأنعام ، والبهائم ، والسباع ، والوحوش أكل بنية وأتم نظاما من الطيور والجوارح ، وكأن هذين قد جعلتا مختصرين من الأربعة الأول ، ولوانك نظرت إلى الطير صافات فى جو السماء خيل لك أنها صورة مصغرة من البقر والجاموس اذا كنت من الناظرين فى علم الطبيعة بعقولهم لا مختصرين على حواسهم ، فاذا رأيت أبا قردان وهو يأكل الدود فى الأرض المصرية والجاموس يرعى فى مرعاه لرأيت للجاموس أسنانا وآذانا ظاهرة ومعدة وكرشا ومثانة وخزرات ظهر وجلدا ثخيننا وشعرا كما كان للغنم صوف وللابل وبر ، وهو ينزوي ويلد ويرضع أولاده ويربها ، أما أبو قردان مثلا وسائر الطيور فانها مختصرة من الحيوان البرى ، فليس للطير أسنان ولا آذان بينة ولا معدة ولا كرش ولا مثانة ولا خزرات ظهر ولا جلد ثخين على أبدانها ولا شعر ولا صوف ولا وبر ، وهذا جدول ذلك :

فى حيوان البرى	فى الطير
المبدل منه	البديل
الأسنان	المنقار
المعدة	الحوصلة
الكرش	القائصة
الجلد الثخين وما عليه	الريش
الحمل والولادة والارضاع	البيض وتربية الفراخ
رأس عريضة	مناقير مدببة ورءوس صغيرة

ثم إن الريش جعل لباسها وذراراً يقيها الحرّ والبرد ، وهو غطاء ووطاء ووقاية من الآفات العارضة ، وهو فوق ذلك يعينها على النهوض والطيران ، أما المناقير والرؤوس الصغيرة فإنها لو لم تكن كذلك بل كانت كالبهائم لعاقبها ذلك عن سرعة الطيران ، لأنها تصادم الهواء فيعوقها عن سرعة الطيران . انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة الخ
يقول الله أنه أنشأنا ، وأنه خلق لنا السمع والأبصار ، ثم يقول ان شكرنا قليل ، وبأيت شعري : أي شكر لمن يخلق في هذا العالم ثم يغادره وهو غافل عما فيه ، هذه مسألة الطيران يراها أمرا سهلا في بادئ النظر ، ثم يتضح في آخر الأمر أنها احتاجت إلى أعمار وعصور حتى عرفها الإنسان ، وكما في الدنيا عندنا من مجهول ، إن أسماعنا وأبصارنا وعقولنا نحن مسئولون عنها يوم القيامة ، ومسئولون عنها في الدنيا ، أما سؤال الدنيا فواضح ، اتنا لما أهملنا التفكير فيما حولنا حرمنا منافعه ، والآخرة أدهى وأمر .

إن المسلمين اليوم مهملون مواهبهم وعقولهم وأسماعهم وأبصارهم ، أفلا نخجل حينما نرى أن علم الطير وطيرانه في الجوّ لم يقم به إلا قوم ليسوا مسلمين حتى اضطربنا أن ننقل أبحاثهم ونجعلها تفسيراً للقرآن .

إن المسلمين لا تظهر مواهبهم التي أودعت فيهم إلا إذا عجموا التعليم للذكور والاناث تعميما تاما ، ثم اصطفوا منهم طوائف للتعليم العالي ، وقامت مدارسهم بكل ما يطلبه المجتمع من نجارة وحدادة وحياسة وكهرباء وما شابه ذلك بحيث تكون المدارس كلها كأنها مملكة لا تحتاج إلى إبرة من الخارج ولا آلة ، فهم الذين يصنعون الآلات والأدوات ، وهم الذين يحرثون ويزرعون ويطبخون ويخدمون وينظفون الأواني ، وبالجملة يفعلون كل شيء ، ولا يفوتهم علم من العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها إلا خصص له منهم طائفة انظر هذا المقام في سورة آل عمران عند الكلام على قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » .

ذلك كله فرض كفاية باجتماع أئمة الدين ، وفرض الكفاية إذا أهمل أئمة المسلمون جميعا ، فالمسلمون آثمون اليوم ، والعذاب واقع الآن في الدنيا بتسلط الفرنجة ، وفي الآخرة بعذاب أليم ، قال تعالى : « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة ، والحمد لله رب العالمين .

وإذ فرغنا من الكلام على هذه اللطائف الأربع فلنشرع الآن في ذكر اللطائف العامة التي لم يكن لها وجود عند التأليف ، والتي لم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السور للطبع :

اللطائف العامة في هذه السورة

(١) اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » .

(٢) في قوله تعالى : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » .

(٣) في قوله تعالى : « أولم يرد إلى الطير فوقهم صفات ويقبضن ما يمسكن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير » .

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور

اعلم أن هذه الآية فيها من العلوم المنتشرة اليوم عجبتان تعتان معجزتين في القرآن ، وبيانك أنك إذا نظرت في المادة وفي ألوانها لا تجد أبدا فيها شقوقا وفطورا ، فإذا رجعتا البصر ألف مرة وألف مرة إلى الألوان وإلى الأجسام كالخجر والشجر فانتا لا ترى فطورا ، فأعجب ثم اعجب من العلم اليوم في أمر المادة وفي أمر الألوان ، أما المادة فلقد تقدم الكلام عليها في مواطن كثيرة ، ومن أهمها ما جاء في [سورة النور] عند آية : « الله نور السموات والأرض » فان هي إلا ذرات كهربية سالبة جاريات حول أخرى موجبة وعدد حركاتها في الثانية نحو ٦ آلاف مليون مليون مرة ، فزاهها حجرا وشجرا وجبلا وجلا وسحابا وكتابا وذئبا ورحابا ، وبين كل ذرة من ذرات الحجارة والشجر وغيرها فروج وفطور بحيث لو كان على ذرة منها سكان تناسبها لم يكن لأحدهم أن ينظر الذرة التي تليها إلا بمنظار معظم (وبعبارة أخرى) ان الفروج بين كل ذرة من ذرات المادة والأخرى كالمسافة التي بين الأرض وبين النجوم والشمس والقمر ، إذن مع كون المادة عبارة عن حركات ضوئية ترى ذراتها غير متصلة ، إذن كلها فطور وشقوق ، ولكن لشدة الاحكام والاتقان وعدم التفاوت لا ترى شقوقا تخيفنا وتزعجنا ولا فطورا ، فالمادة مع انها مفعمة بالفطور بل هي أولها وآخرها فطور تكاد تكون فراغا كالذي بين السماء والأرض ومع ذلك ترى لافطور فيها ، إذن عالم المادة عجيب فطور ولا فطور كما أن أرضنا دائرة غير دائرة ، نحن نراها ساكنة ولكنها دائرية لاتهدأ وذلك لشدة الاحكام والاتقان ، وازدياد الأمان لمن عليها .

الفطور في الألوان

وكما قلنا في المادة نقول في ألوانها ، ألوانها سبعة : البنفسجية ، والبنية ، والزرقة ، والخضرة ، والصفرة والبرتقالية والحرة ، ولم نرى لون منها فطورا وشقوقا ، فهذا لون الزرقة الذي يراه الانسان في السماء فلننظره فهو أحد الألوان السبعة ، فإذا نظرناه ولم نجد في المادة التي قام بها شقوقا لأنها محكمة مع كونها ذات فروج عظيمة جدا وهوات واسعات كما تقدم ، فهكذا نفس الزرقة لا تجد فيها لونا يداخلها ويقاطعها ، وهذا بحسب الظاهر وما نراه بالعين ، ولكن الحقيقة أن في كل لون من الألوان السابقة خطوطا سوداء مقاطعة كشفها وأبرزها في الرسم العلماء ، فكل معدن من المعادن له ضوء خاص ، وهذا الضوء تقاطعه خطوط سود ، وهذه الخطوط السوداء تختلف في ضوء كل معدن عن الخطوط السوداء في ضوء كل معدن سواء ، وبهذا الاختلاف في الخطوط السوداء : أي الفطور والشقوق اللونية قدر الناس أن يعرفوا ما في الكواكب والشموس من المعادن المختلفة بخطوطها السوداء في أضوائها ، وبهذه الطريقة عرفوا أن عناصر الأرض من عناصر الشمس ، فهاتان معجزتان قرآنيان ظهرتا في الكشف الحديث ، وعسى أن يزيد المقام تبيانا في [سورة النبأ] عند آية : « وبينا فوقكم سباع شدادا » وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » كتب قبيل الفجر يوم الأربعاء ١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٢ م — ١٦ شعبان سنة ١٣٥١ هجرية .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح

مسامرة بيني وبين صديق العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير

حضر اليوم ٣١ مايو سنة ١٩٣٢ م وأخذ يحادثني قائلا : لقد ذكرت في [سورة الذاريات] مجمل الكلام على ضوء الشمس ، وكيف عرف الناس منه عجائب وعجائب ، ووعدت أنك تشرح المقام كله في هذه السورة ، ووعدت أيضا بذلك في آخر [سورة الحشر] كما أنك وعدت أن تشرح عجائب النبات وبدائعه بأوضح مما تقدم في التفسير في [سورة النبأ] فأرجو أن تفي بما وعدت الآن . فقلت : حبا وكرامة : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مشولا » هاأنذا أحدثك حديثا جيلا ، انظر هداك الله إلى ضوء الشمس يأتي من نافذة في مصراع الباب ويدخل في حجرتك ، فأما الجاهل فإنه لا يرى في هذا النور سرّا ولا علما وإنما هو أمر عادي ، ولكن أهل العلم يقولون :

[أولا] — ان هذا النور بدخوله في الحجرة المظلمة قد أعطانا علمين : العلم الأوّل أن النور يسير على خط مستقيم ، العلم الثاني أن هذا النور الذي يسير على خط مستقيم في الحجرة تصحبه حرارة ، فهذان علمان : علم أدركناه بحاسة البصر ، وعلم أدركناه بحاسة اللمس ، فالأوّل هو الخط المستقيم ، والثاني هي الحرارة [ثانيا] — ان هذا النور يدهشنا أمره ونعجب من سرّه ، ذلك أن النور الداخل في الحجرة المستقيم الخط الحارّ اللمس نراه يحمل صور الأبنية والأماكن والأشجار التي مرّت بها ولكنه يعكسها فيكون الأعلى أدنى وبالعكس ، وذلك بسبب سيره على الخطوط المستقيمة كما ستراه واضحا قريبا .

[ثالثا] — ان هذا النور السائر المستقيم الخط الملازم للحرارة الذي يقرب وضع الصور فيجعل عاليها سافلها سريع السير جدا ، فهو يسير في الثانية الواحدة ١٥٧ إلى ١٨٥ ميلا في الثانية ، ويدور حول الأرض في سبع ثمانية واحدة .

[رابعا] — ان هذا النور اذا أخذنا مرآة صغيرة وتلقيناه بها فانا نراه أخذ يعكس على الحائط في الحجرة ، وتكون هناك زاويتان : إحداهما زاوية السقوط ، والأخرى زاوية الانعكاس ، وهذا مشاهد في الأماكن التي فيها ماء وقد سقط ضوء عليه من النوافذ فان الضوء انعكس على الحائط الآخر المقابل لما سقط منه الضوء ، وكلما اضطرب الماء اضطربت صورة الضوء المنعكسة على ذلك الحائط هكذا هذه المرآة كما حركناها تحرك الضوء المنعكس عنها تبعها لها ، فهذا هو المسمى عند علماء الطبيعة انعكاس الضوء .

[خامسا] — وبما تقدم يفهم الناس أولا لماذا يرون صورهم في المرآة كأن المسافة التي بين صورهم وبين المرآة مماثلة للمسافة التي بينهم وبين تلك المرآة ، ثانيا : لماذا تكون أيمانهم في الصورة جهة الشمال ؟ ولماذا تكون شمائلهم جهة اليمين في الصورة .

[سادسا] — يرون أن الماء كالمرآة سواء بسواء ، فهو يعكس الضوء كما تعكسه المرآة كما قدمناه . [سابعا] — اذا وصلوا إلى هذه النقطة : أي مسألة الماء يرون أمرا عجبا ! يرون أن الصور في الماء يحصل لها انكسار ، إذ معلوم أن النور يمشي على خط مستقيم ولكنه في الماء ينكسر ولا يستقيم . فقال صاحبي : الانكسار ليس جالا . فقلت : ستعلم علم اليقين أن هذا الانكسار هو الجلال كله ، فلولا انكسار الضوء الآتي من الشمس السائر في الجوّ الملاقى للهواء الجوّي وما فيه من الذرات والهباء ، تلك اللاتي تجعله يجري على غير استقامة ، فينتشر في الكرة الأرضية ، ويكون عند الناس شفق وجر وصبح .

أقول : لولا ذلك الانكسار لم يكن صبح ولا شفق ولا جلال في المناطق الباردة ، فالانكسار هنا اعتدال ،

اقرأ هذا المقام في أول [سورة الزمر] فهناك ترى العجب العجيب ، وترى علم الطبيعة وعلم الفلك متآخيين ومتصاحبين ومتحابين ومتعاقبين ، وذلك كله موضح بالصور الشمسية هناك . فقال حسن . فقلت :

[ثامنا] — إن العقلاء متى وصلوا إلى هذا المقام أخذوا يبحثون في الزجاج كما بحثوا في الماء من حيث انكسار الضوء ، فهو ينكسر في الزجاج كما انكسر في الماء ، وهناك يستخرجون [قاعدتين : القاعدة الأولى] أن الماء ينكسر إلى جهة من الجهتين عند مروره من جسم لطيف إلى كثيف وينكسر إلى الجهة الأخرى إذا مر من كثيف إلى لطيف .

[ناسعا] — وهناك يدخلون في علم العدسات ، وكل ما تقدم مقدمة له ، وذلك بأن ينظروا أولا في أنواع الزجاج المذكور ، ذلك أن الزجاج طوع أيدي الناس وليس كالماء ، فهم يقدر أن يجعلوا الزجاج محدبة الوجهين فتكون منتفخة من الناحيتين ، ويقدر أن يجعلوها مقعرة الوجهين ، فتكون من وسطها كالخصر النحيل ، وقد وجدوا لها في الحال الأولى خاصة تخاف الحال الثانية ، وإلكن الماء ليس كذلك ، بل هو جسم لا يقدر الإنسان أن يحكمه كما قدمناه ، فالعدسات المحدبة الوجهين تكبر الأجسام وقد تقربها ، والمقعرة الوجهين تصغر الأجسام وتبعداها ، وهناك يدخل الناس في باب العمل بهذا العلم والانتفاع به فيجعلون هذه الزجاجات مقويات لأبصارهم ، مقربات للصورتارة مبعديات لها أخرى على حسب الأبصار طولاً وقصرًا [عاشرا] — وهناك يركبون الزجاجات المكبرة بعضها مع بعض بهيئة مخصوصة فيكون المنظار المعظم والآلة المكبرة التي قد تكبر الجسم عشرين ألف مرة في زماننا هذا .

* *

فقال صاحبي : حسن والله ما تقول ، إذن الناس انتقلوا من ضوء داخل من نافذة في حجرة مظلمة إلى انعكاسه على الحائط وانقلاب صورته ، وهكذا تدرجوا في العلم من انعكاس الضوء إلى انكساره وإلى تكبيره للصورة وتصغيره وقربها وبعداها ، إلى مساعدة العلماء في الأرض بتقوية أبصارهم بالزجاجات البصرية ، إلى تكبير الجسم ٢٠ ألف مرة لازدياد العلم واليقين .

الله أكبر : هذا أحسن جدًا ، وإلكن هذه الهداية والمطاف اللذان تضمنتهما أسماء الله الحسنى كاسمه اللطيف ، واسمه النور ، واسمه الهادي التي كلامنا فيها لا يتم ذلك فيها إلا بالمشاهدة التي عليها بنيت سؤالي فأريد أن أشاهد ذلك عيانا وإن كنت تصوريته بذهني كما تصورت كلام الامام الغزالي رحمه الله تعالى بعقلي فقلت : هذا المقام لخصه الأستاذ [بول برت] الأستاذ بالسربون بفرنسا ، ووزير وزارة المعارف الفرنسية الذي ترجمته من الفرنسية إلى الإنجليزية زوجته [جوسيفيا كليتون] الإنجليزية الاسكتلندية ، وهناك ترجمته من صفحة ١٦٤ من ذلك الكتاب المسمى « العلوم الطبيعية » إلى صفحة ١٧٦ فقد جاء فيه تحت العنوان التالي مانصه :

أشعة الضوء

أخذ الأستاذ [بول برت] يخاطب تلميذه في الفصل قائلا :

(س) جورج : من أين جاءت الحرارة ؟

(ج) من النار يا سيدي .

(س) نعم ولعل هذه النار خارج حجرة الفصل الذي ندرس فيه .

(ج) آه : أمن خارج الحجرة . كلا . بل هي من الشمس .

(س) حسن جدًا ، ولكن أتري النار والشمس ليس لهما إلا الحرارة وحدها ؟
(ج) كلا . انهما يعطيان أيضا نورا .

(س) حقا هذا ، وإذا كانت الحرارة مصاحبة للنور فأننا إذا نظرنا إلى النور نعرف بواسطة رؤيته أن هناك حرارة ، وهذا أسهل من معرفة الحرارة بواسطة الترمومتر [مقياس الحرارة] .



(شكل ٢٩)

وهنا أخذ المؤلف يثبت أن الضوء يجرى على خط مستقيم ، وأن الحرارة تصاحبه ، فقال : اننا أولا نرى النور يتحرك على خط مستقيم ، انظر في هذه الحجرة من حجرات المدرسة ، فانك ترى ضوء الشمس يسطع على مصراعى بابها من الخارج وهما مقفلان (انظر شكل ٢٩)

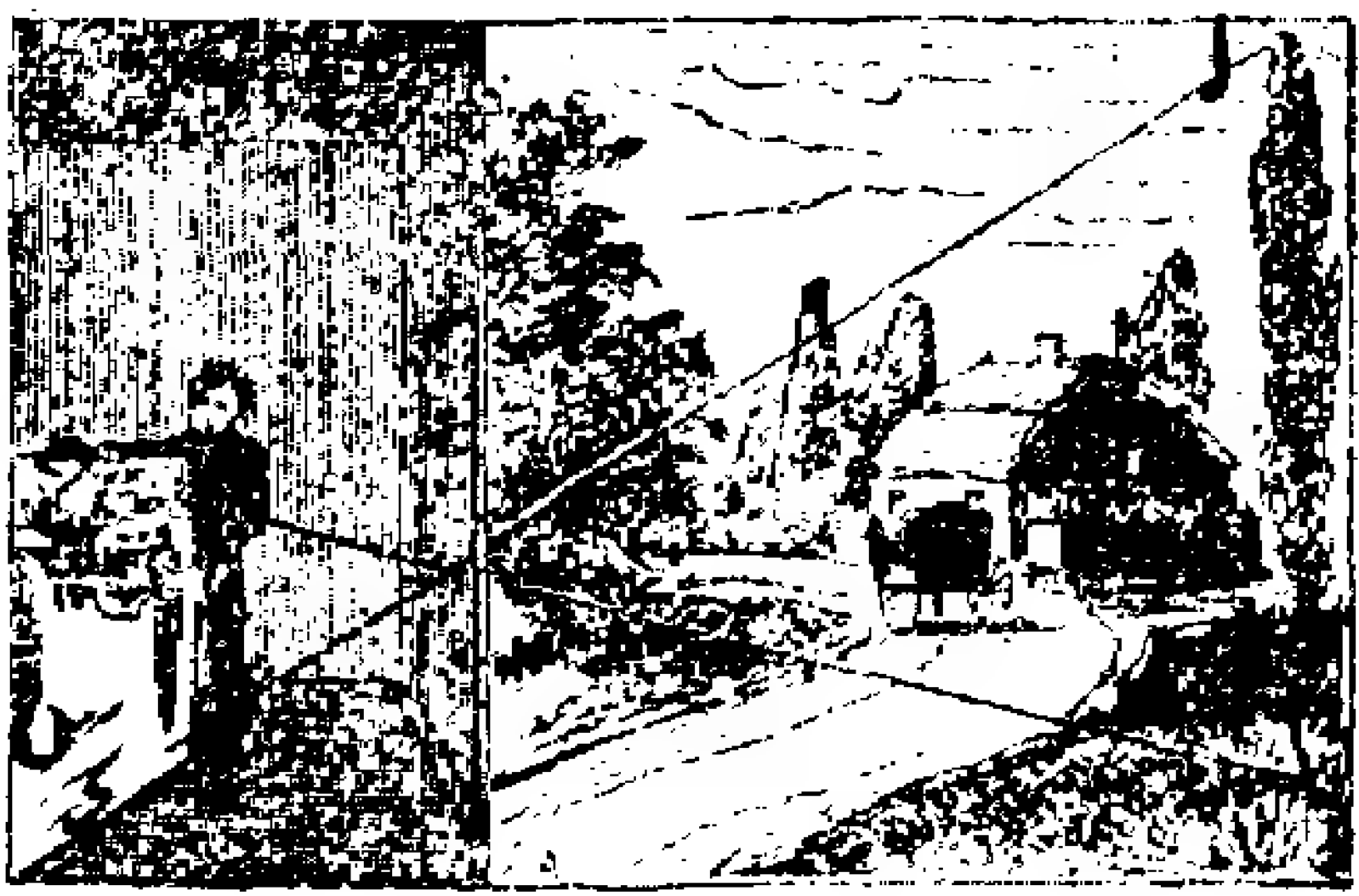
ولكن لما كان في هذين المصراعين ثقب رأينا الأشعة دخلت منها على استقامة في الحجرة مخترقة مالا حصر له من الذرات الصغيرة الترابية الرائعة في جو الحجرة .

ثم قال للتلميذ : ضع يدك في خط من هذه الخطوط الضوئية ، انك ستحس بحاسة اللمس بالحرارة .
ثم قال : لاجرم أن هذا برهان آخر على أن الحرارة مصاحبة للنور .

الحجرة المظلمة

ثم قال الأستاذ : إن هذه المسألة تدعوني أن أريك أمرا عجيبا غريبا بابل اذهب إلى الحجرة المظلمة وضع قطعة ورق مقوى أبيض حرف [س] (انظر شكل ٣٠) تحت خطوط الشعاع الشمسية [ا د] و [ب ج] وهكذا تلك الخطوط اللامعات من خلال مصراعى الباب .

ألا تعجب معي من ذلك ؟ فهذه المناظر وان كانت واضحة متميزة مفصلة على اللوحة (فدونك هذه البركة التي بجانب منزل [جيمس] وهذه الطريق المرتفعة وفيها العربة) تراها منقلبة ، وهذا عجب عجاب ! قد جعلت أعاليها أسافلها وأسافلها أعاليها ، ولكن لتعليل ذلك أمر سهل ، فانك ترى أطراف شجرة الحور عند



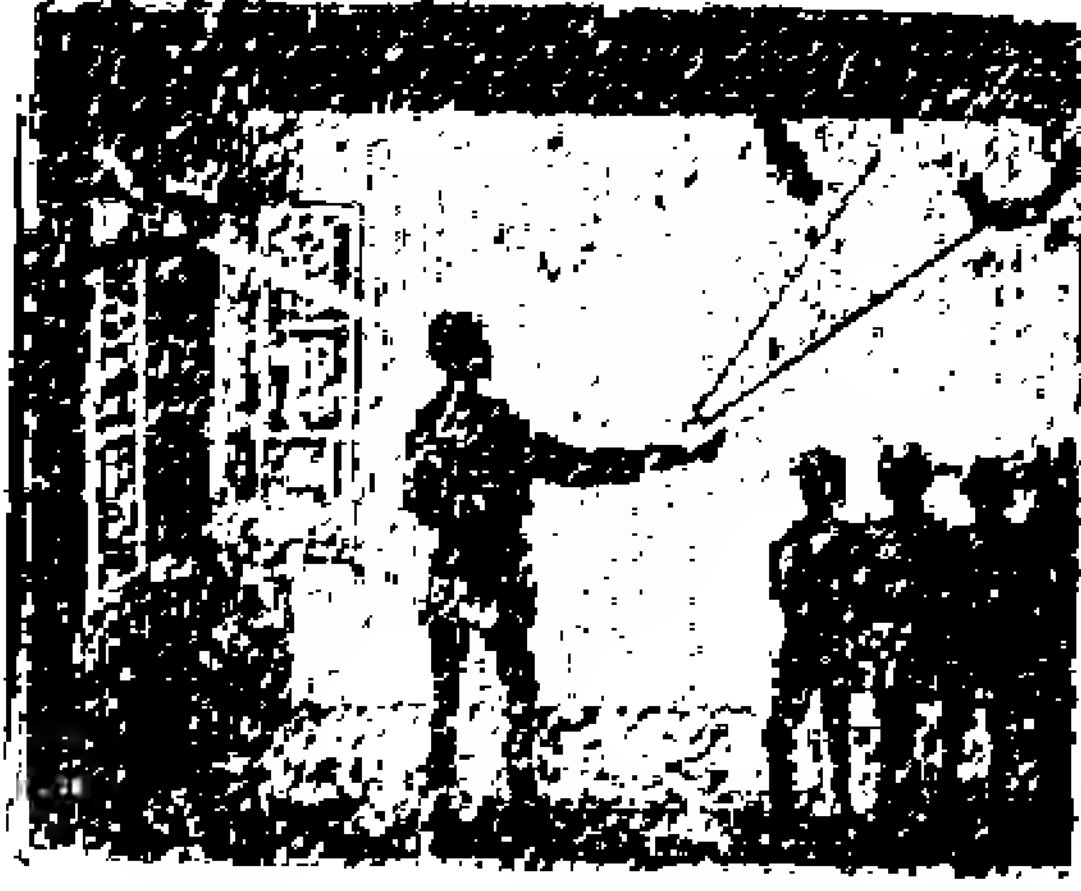
(شكل ٣٠)

الصورة الخارجة ظهرت واضحة مفصلة على لوحة الورق المقوى حرف (س) ولكن جعل أعاليها أسافلها

حرف [ا] مثلا قد جرت الأشعة الشمسية منها على خط مستقيم كما تقدم ، ولكن بعض تلك الأشعة فقط أمكنها أن تدخل من ذلك الثقب حتى وصلت إلى لوحة الورق المقوى عند حرف [د]

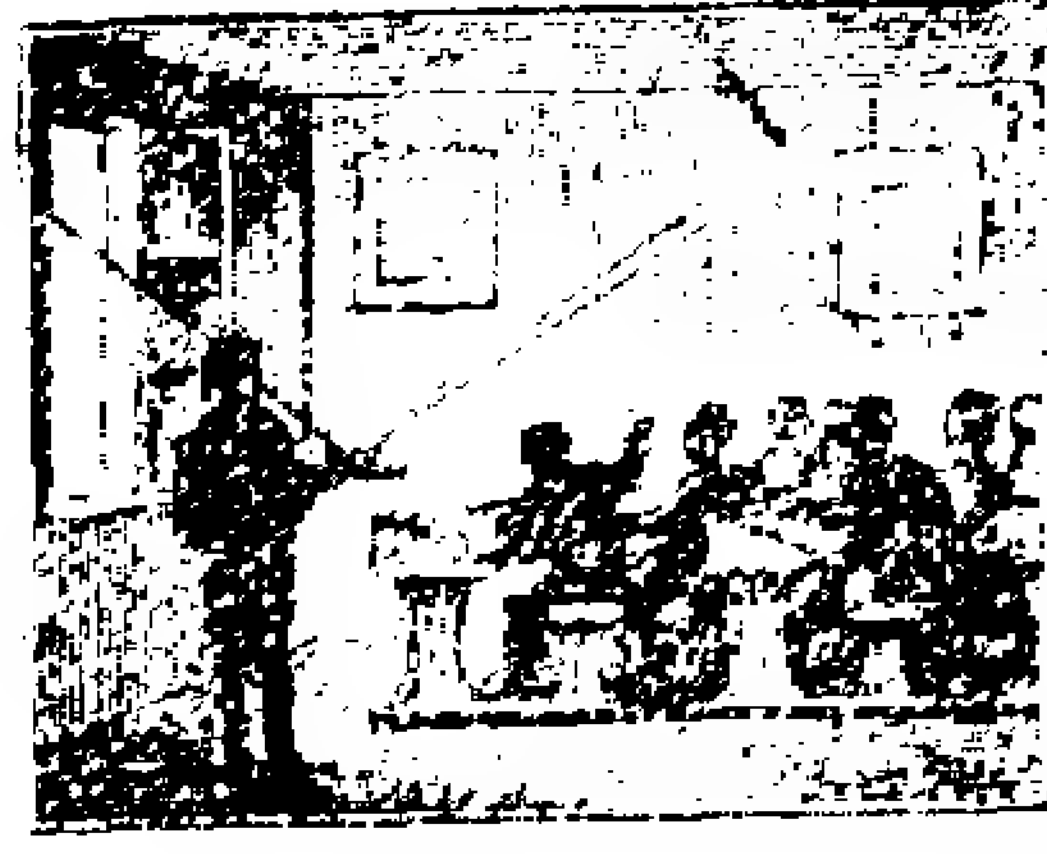
ثم ان بعض أشعة أخرى من تلك الأشعة اللامعة الحاملة لصورة جذع [شجرة الحور] المذكورة أمكنها أيضا أن تخترق الثقب وتدخل الحجرة ، وهي جارية على خط مستقيم فتصل إلى [ج] انظر شكل ٣٠

وكما أمكن ذلك عند الحرفين [د] و [ج] يمكن أيضا فيما بينهما ، وبسبب ذلك ترى أن شجرة الحور أعاليها أسافلها ، ومثل ما قلناه في ذلك نقول بكل وضوح في جميع مناظر النقط الأرضية ، فتكون الأعلى أسافل وبالعكس يجرى النور على خطوط مستقيمة متقاطعة فتكون صور مقلوبة . ثم شرع المؤلف يذكر سرعة ضوء الشمس ، وهذا تقدم ، وأخذ يشرح بعد ذلك انعكاس الضوء فرسم هذين الشكلين :



(شكل ٣٢)

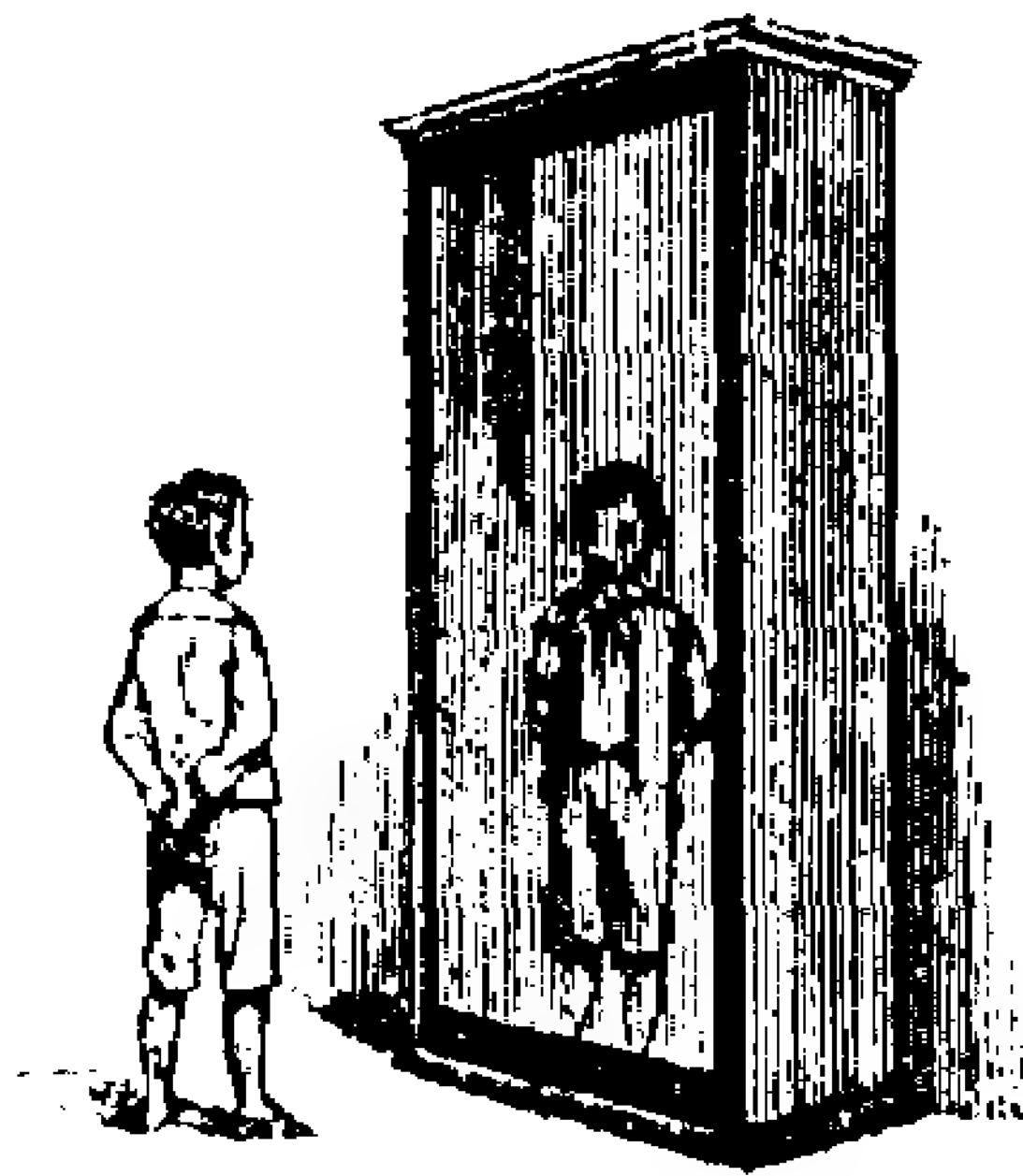
هناك علاقة بين اتجاه الشعاع
الضوئي الواصل للزجاجة والشعاع
الضوئي المنعكس عنها الواصل تارة
الى حرف (أ) وتارة الى حرف
(ب) بحسب اتجاه الشعاع الواصل
الى الزجاجة أولا .



(شكل ٣١)

شعاع الشمس يرى منعكسا
على الحائط عند حرف (أ)
بواسطة الزجاجة العاكسة
الضوء .

وهنا أخذ يوضح ذلك ، فقال : فهأنت ذا ترى على حائط حجرة المدرسة جزءا من الشعاع الشمسي قد ظهر عند نقطة (أ) فتى حركنا المرآة تحرك ذلك الشعاع مثل حركتها في اتجاهها ، إن هذه النقطة الشعاعية صورها ضوء الشمس ثم سقطت على المرآة ، ومن المرآة أخذت تظهر ثانيا ، وهذا يسمى انعكاس الضوء ، ثم أخذ المؤلف يشرح هذا الموضوع فقال : للدخل الحجرة المظلمة (شكل ٣٣ المتقدم) ثم لنضع المرآة في وسط ضوء الشمس الذي يخترق النافذة (ر) التي في مصراع الباب مخترقا ظلام الحجرة ، ومتى وصل إلى المرآة أخذ ينعكس عنها مرتداً إلى الحائط الآخر جاريا في الهواء المفعم بالذرات الهوائية الترابية واصلا إلى نقطة (أ) اذا أنا أمسكت بالمرآة على هيئة استقامة ، فاذا أنا أملت المرآة فان نقطة الشعاع تصل إلى حرف (ب) في الشكل المذكور ، وعلى هذا تكون هناك علاقة تامة بين اتجاه الشعاع الساقط على المرآة واتجاه الشعاع المنعكس عنها .

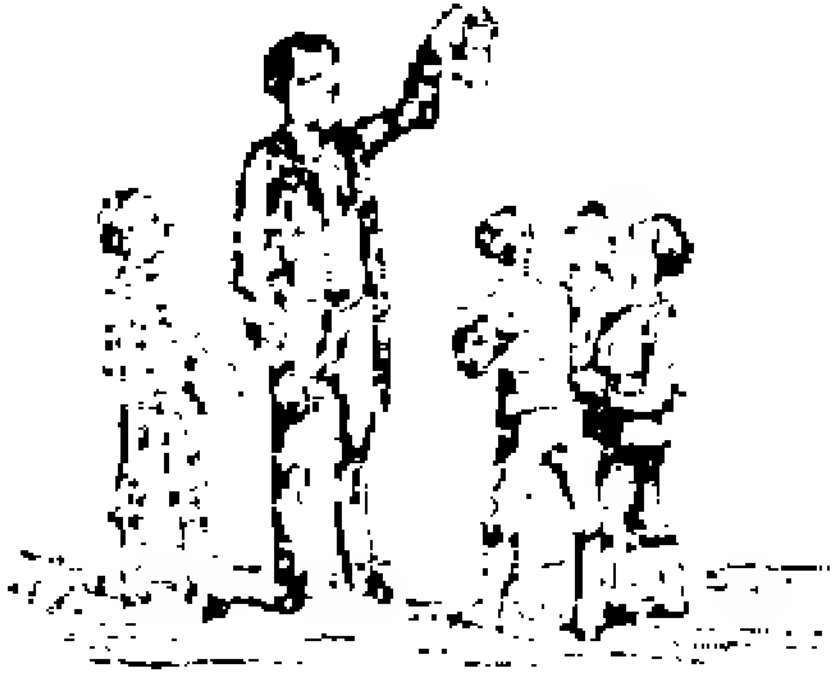


(شكل ٣٣)

المرآة التي انطبعت فيها الصورة

وهانحن أولاء الآن شارعون في معرفة قيمة هذه العلاقة شيئا فشيئا فنقول : فهذه توضح لنا كيف كانت المرآة مظهرة لنا صورنا اذا نحن وقفنا أمامها ، وكيف ترى تلك المرآة أن صورنا تبعد عن المرآة خلفها بمقدار البعد الذي بين أجسامنا وبين تلك المرآة ، ولذلك نرى المتوحشين اذا نظروا وجوههم في المرآة لا يزالون يبحثون وراءها عن ذلك الذي يرونه ماثلا أمامهم من خلفها ، وكيف نرى الصورة في الناحية المخالفة لناحية أجسامنا ، وأيضا نرى الناحية اليمنى من أجسامنا مصورة في الناحية اليسرى والعكس بالعكس .

قال : ولما كان هذا المبحث يعوزه بعض المذكرات الهندسية ليتجلى واضحا وجب تأجيله حتى تعرف تلك المذكرات ، ثم نشرع بعد ذلك في هذا المبحث ، وهنا أخذ يشرح المرآة فقال : هذه المرآة التي استعملتها منذ دقائق لم تكن إلا من زجاج مطلى بالقصدير ، وبعض المرايات تصنع من المعادن بعد أن تصقل صقلا جيدا ، وهكذا كل سطح مصقول لامع يمكننا استعماله مرآة .
فهاك شكل ٣٤ وهو الآتي في الصفحة التالية :



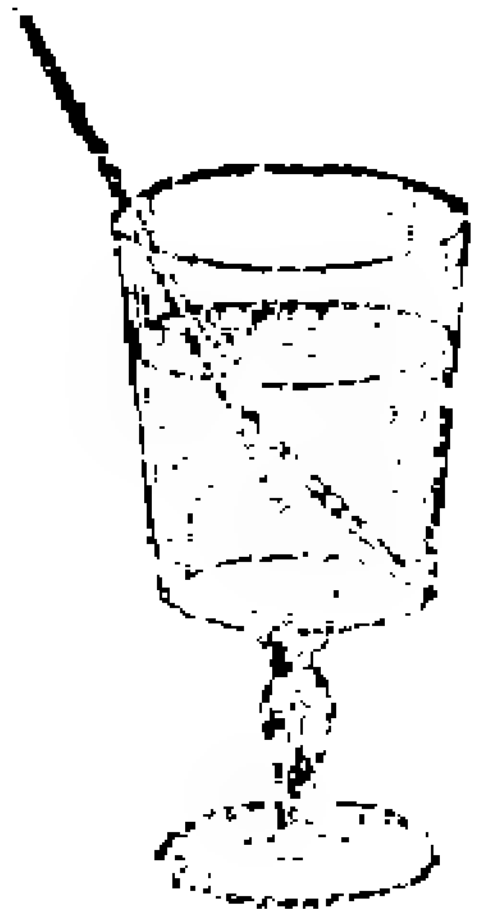
(شكل ٣٤)

سطح الماء قد انعكست
فيه الصور وظهرت كما
ظهرت في وجه المرآة
سواء بسواء .

فهاهى ذه الزجاج المملوء ماء (شكل ٣٤) ، انظر فهاأناذا أرفعها قليلا إلى مسافة أرفع من عيني حتى يمكنها أن تنظر سطح الماء من أسفل الزجاج ، إن هذا السطح قد ظهر لى كأنه فضاء مصقولة صقلا جيدا ، انظر إليها أنت نفسك ، فهاأنت ذا ترى جميع الصور التي حولها قد انعكست عليها واضحة ظاهرة كما تتضح وتظهر على وجه المرآة الحقيقية سواء بسواء . هذا تمام المقال في هذا الموضوع ، والحمد لله رب العالمين .

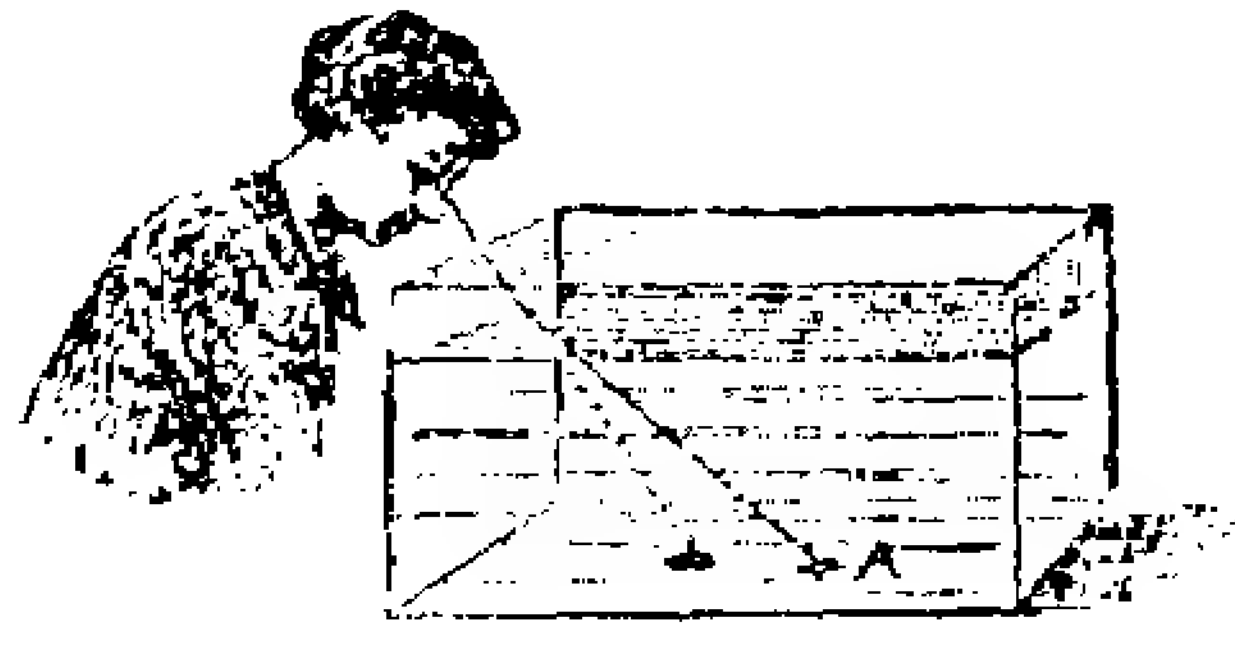
ثم أخذ يشرح انكسار الضوء فقال : فلنذكر الكلام في موضوع انعكاس الضوء ، ولنبتدىء المقال في انكساره فنقول :

انكسار الضوء



(شكل ٣٦)

العصاة من التبن ظهرت
كأنها مكسورة في الماء ،
وهذا هو الانكسار



(شكل ٣٥)

ان الشعاع اللامع هاهوذا
أخذ ينكسر حينما دخل الماء
وهو الذي أظهر أن قطعة النقد
(بني) قد ظهرت عند حرف
(١) في الماء . وهذا
النكسر جاء بدل النقطة
الحقيقية التي كان عنها هذا
الانكسار .

إن لفظ انكسار الضوء قد وضع للحقيقة التي تراه منطبقا عليها ، فانظر رعاك الله هذه الزجاج المملوء ماء (شكل ٣٦) هاأناذا وضعت فيها عصاة من التبن ، والعصاة قد ظهرت لأعيننا وهي مكسورة في الماء ، وهكذا نراها تزداد اقترابا من الوضع الأفقي كلما أوغلت في دخولها في الماء ، هاأنت ذا تعلم علم اليقين أن العصاة ليس بها انكسار ، هذا لا تشك فيه ، ولكنك لن تقدر أن تمنع مخيلتك من تصوورها مكسورة . وهناك تجربة أخرى تثبت نفس النتيجة التي قدّمناها ، وهو ما تراه في (شكل ٣٥) هنا .

ثم أخذ يصف الصندوق في هذا الشكل ، فقال : هذا صندوق من القصدير ، وقد وضعت فيه قطعة [بني] من النقود في قاعه ، وهاأناذا أضع الماء في قاع الصندوق ، تعال هنا يا جيمس وقف بحيث تقدر أن تنظر الحافة البعيدة من البني ، هاأناذا أصب الماء في الصندوق قليلا قليلا مع الاحتراس حتى أتجنب أن يتحرك البني من مكانه ، فقل لي يا جيمس ما الذي تراه ؟ فأجاب : هاأناذا أرى قطعة النقد ترتفع وتتحرك رويدا رويدا نحو النقطة (١) . فقال الأستاذ : نعم ذلك حاصل بسبب أن الشعاع الضوئي اللامع من قطعة

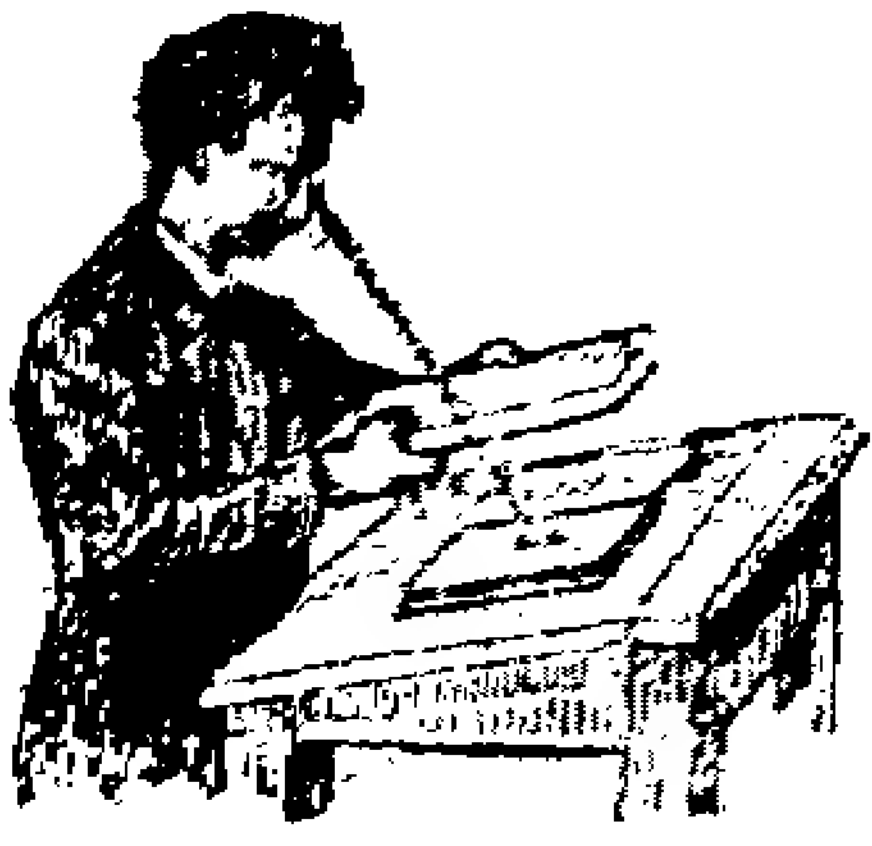


(شكل ٣٧)

ان شعاع الكتاب في مروره
من الزجاج الى الهواء يميل
وهذا انكسار بسيط .

النقد أخذ ينكسر كما انكسر من العصاة المتقدمة قريبا ، هذا هو المسمى « انكسار الضوء » . وههنا قاعدة مطردة ، وهي ان الشعاع متى مرّ من وسط لطيف إلى وسط كثيف فإنه يميل إلى جهة من جهتيه كما رأيت فيما تقدم واذا مرّ من وسط كثيف إلى وسط لطيف مال إلى الجهة الأخرى .

واعلم أن الزجاج المسطح يفعل في الضوء ما يفعله الماء من حيث الانكسار . هاأناذا أضع قطعة من الزجاج سمكة مسطحة (انظر شكل ٣٧) . ويمكنك أن ترى الشعاع الضوئي يميل كما مالت العصاة فيما تقدم ، فاذا



(شكل ٣٨)

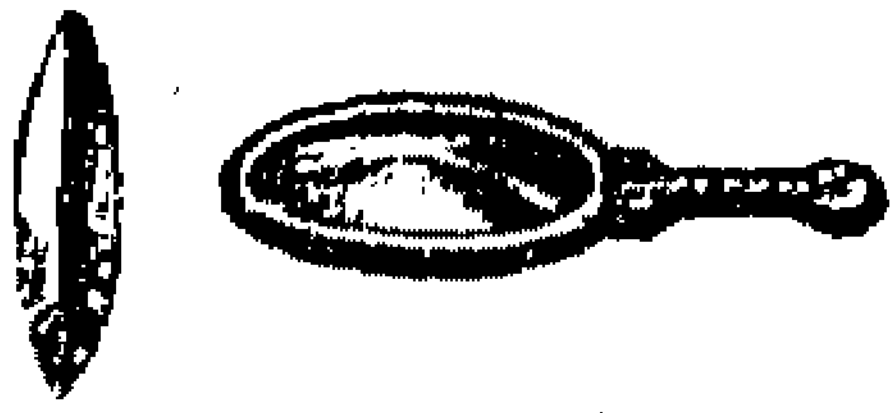
الشـعاع حينما فارق
الكتاب مال في مروره
أولا من الهواء إلى
الزجاج ، ثانيا من
الزجاج إلى الهواء فهذا
انعكس مرتين

أنا وضعت تلك القطعة من الزجاج على بعد مسافة كبعدهما من الكتاب (انظر شكل ٣٨) فان ميل الشعاع في هذه الحال ينكسر انكسارين : الانكسار الأول يكون حينما يسير الشعاع من الكتاب في الهواء إلى القطعة الزجاجية ، ويتخللها . الثاني حينما يخرج الشعاع من قطعة الزجاج إلى الهواء ثانيا .

العدسات : (البوريات)

وهنا أخذ يشرح أحوال الزجاج الذي ليس مسطحا ، بل هو إما محدب وأما مقعر ، والمحدب والمقعر أمرهما عجب ، فلكل منهما عمل خاص في الصور الواردة عليه ، فهذا مكبر وهذا مصغر ، وبيانه أننا إذا وضعنا قطعة من الزجاج غير مسطحة بل هي محدبة الوجهين فان ميل الضوء عنها يكون آتم وأكمل .

(س) — يا بول بماذا تسمى هذه القطعة الزجاجية التي في شكل ٣٩ المعنونة بحرف (ا) التي هي محدبة الوجهين ؟



(شكل ٣٩)

(ج) فأجاب قائلا : أسميها زجاجة معظمة للصورة .
(س) نعم هو كذلك ، ولكن علماء الطبيعة يسمونها [عدسة] أو [بلورية] ان اسمها العادي [الزجاجة المكبرة] يدل على حقيقتها ، لأنها تكبر الأشياء الصغيرة مدورة الناحيتين

خذ هذه في يدك وانظر الى حروف المطبعة الدقيقة في هذا الكتاب (شكل ٤٠) . ثم قال له : حسن ما الذي جعلك متعجبا في دهش ؟ فأجابه التلميذ قائلا : ولم لا أعجب ياسيدي ، انني لم أر شيئا ألبته ، فقال



(شكل ٤٠)

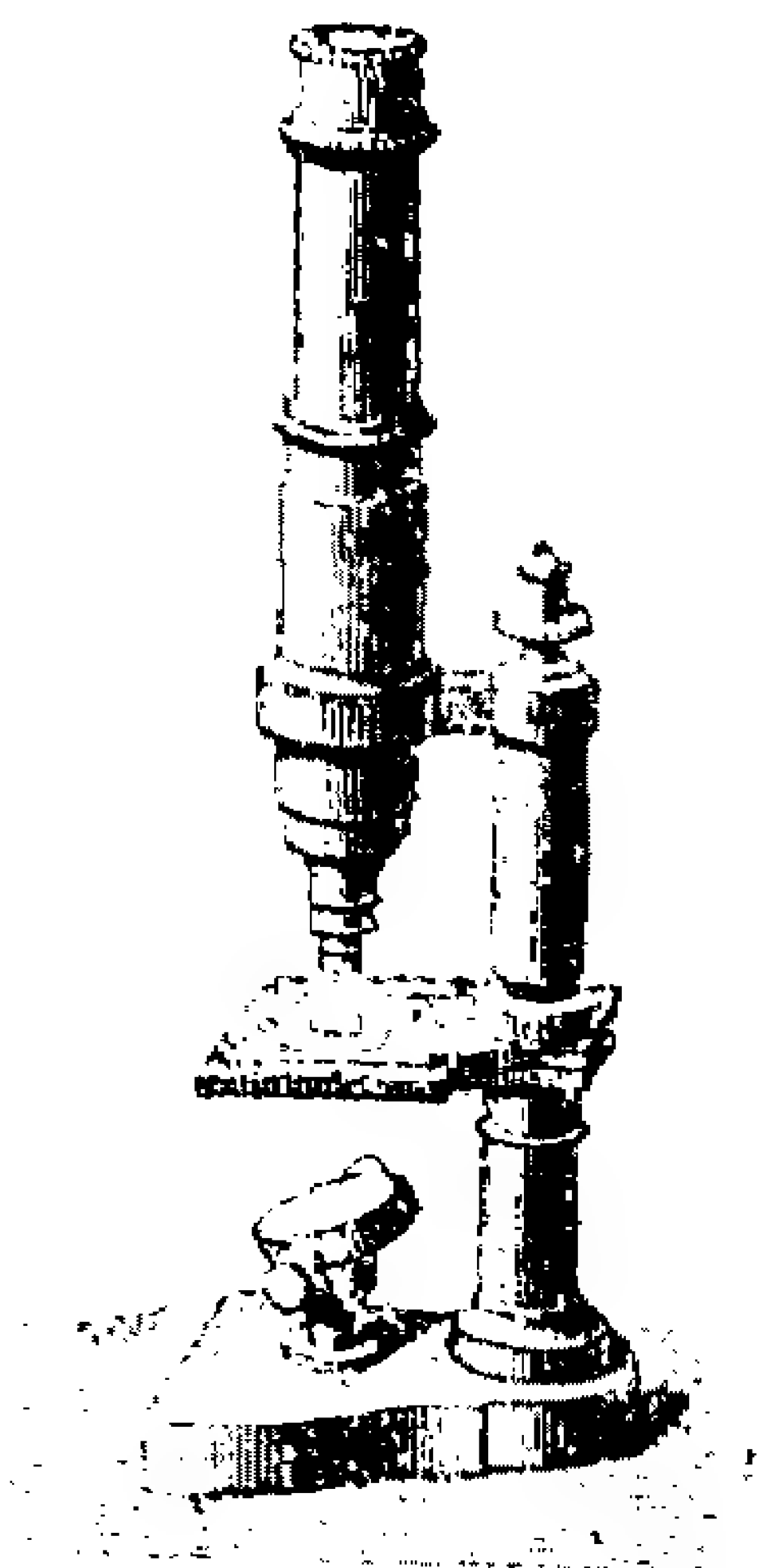
زجاجتان محدبتا
الوجهين مكبرتان

الأستاذ : انتظر رويدا ، لاتضع العدسة على عينك ، ولا تجعل أنفك على الكتاب ، بل انظر كما جرت به عادتك ، ولكن بواسطة الزجاجة المكبرة ، فاجعلها أولا قريبة من الكتاب (انظر شكل ٤٠) ارفعها قليلا قليلا إلى أعلى وأنت لاتزال تنظر بها ، فهأنت ذا ترى الحروف أكبر شيئا فشيئا ، فاستمر في الرفع حتى تراها مفصلة ، ولكن اذا داومت على ذلك واستمرت في رفع الزجاجة المكبرة فانك ترى الحروف تصغر شيئا فشيئا حتى لاتعود ترى ألبته ، إذن البعد المناسب يجب أن يعرف ، وكل ما كان أطول منه أو أقصر يجب أن توضع له عدسة ، وهذه العدسة التي معك الآن تكبر الأشياء بالضعف ، ويجب أن تجعل العدسة قريبة من الجسم المنظور بمقدار بوصة .

الزجاجة المركبة المعظمة : (المكروسكوب)

أولا : اذا وضعنا عدة عدسات معا بهيئة خاصة فانها ترينا الشيء أكبر مما هو عليه من حيث حجمه ١٠ مرات أو ١٢ مرة مثل حجمه الحقيقي وهذه تسمى [الزجاجة المركبة المعظمة]

ثانيا : [المكروسكوب] يصنع من عدسات أكثر نظاما في ترتيبها وأبداع إحكاما في تركيبها (انظر شكل ٤١) .



(شكل ٤١)

المكروسكوب يعظم الصور أكثر

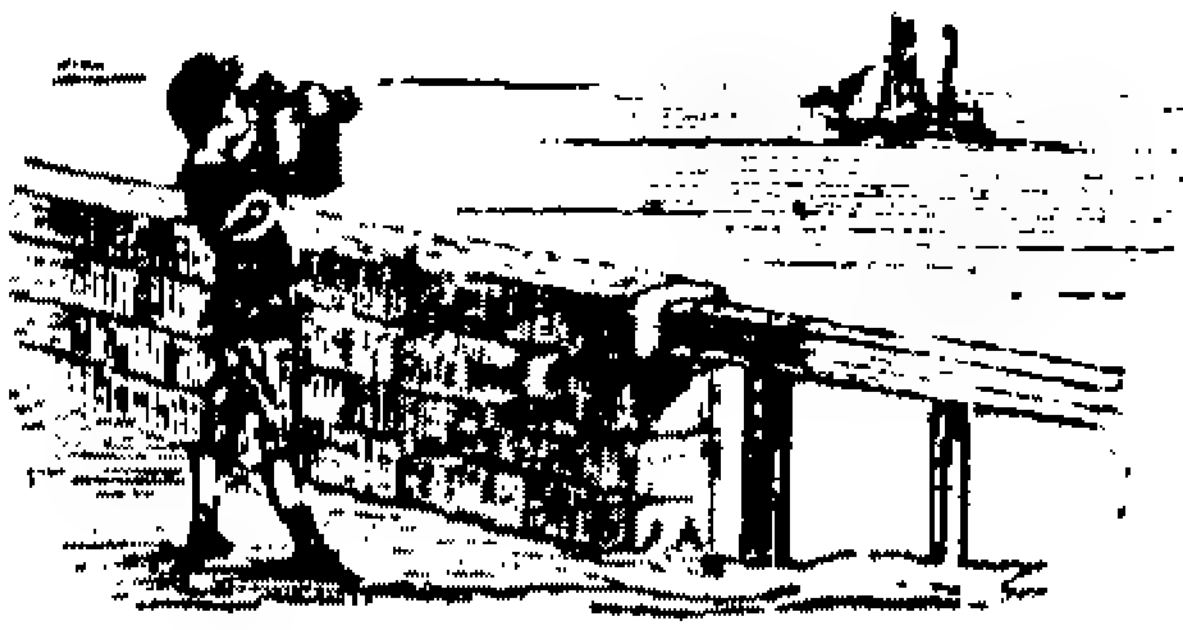
إن [المكروسكوب] (١) فيه قوة عظيمة جدًا على تكبير الصور، فقد يعظم الحجم ١٠٠ مرة، و٢٠٠ مرة، بل ألف مرة أكبر من الحجم الحقيقي .

ثم قال : إن ما أقوله في أمر [المكروسكوب] ربما لا يدهشك ، ولا يحدث عندك غرابة ، لأنك تقول في نفسك : وما قيمة تكبير الشيء عشرة أومائة أوألف ؟ إن الرجل المحترف الدجال ربما يقول لنا : أنا أكبر الشيء ألف ألف مرة ، فإذا كبرت بالمكروسكوب الجسم عشرات أومئات فذلك ليس بدهش ، لأننا سمعناه والجواب على ذلك أن أقول لك : ان طريقة البعد عند الدجال غير طريقتها هنا في المكروسكوب ، لأن طريقتنا هنا أننا إذا قلنا ان المكروسكوب يكبر الشيء عشر مرات فعناه أنه اذا كان طوله عشر البوصة يصبح ذلك الطول بواسطة المكروسكوب طول البوصة بتمامها ، وهذا ليس معناه أنه كبر عشر مرات حسب كلامه . بل اننا اذا قلنا ان هذا الجسم كبر طوله عشر مرات فعناه أنه كما كبر في طوله كبر في عرضه كبر في عمقه ، وبضرب ١٠ في ١٠ في ١٠ يصير ألف ، فقول الدجال : اني أكبره مليون مرة ليس أمرا أكثر من أنه زاد طوله فجعله ١٠٠ ومتى زاد طوله مائة كان عرضه كذلك وعمقه ، فهذا هو المليون بعينه ، إذن تعبيرنا نحن أقرب إلى عدم ضجيج الجهلاء ودهشتهم وتعبيره أدنى إلى ضجيجهم ودهشتهم .

لا أمر أعجب ، ولا منظر أدهش وأدعى إلى سرور نفسك وبهجتها من أن تشهد بنفسك أيها القارئ الكريم بالزجاجة المكبرة عجائب المخلوقات أمامك ، أنا لا أقدر أن أعبر لك عما يحتاج نفسك من الدهشة والغرابة والبهجة والاستحسان والروعة عند امتحانك حشرة ، أو زهرة ، أو أي شيء حولك ، أو نفس جلدك وثوبك وغيرها ، بماذا تدرس هذه العجائب كلها ؟ بزجاجة مكبرة ثمنها شلنان اثنان لا غير .

هل في الوقت سعة لتفصيل مآظفهره هذه الآلة البديعة من العجائب التي تدهش اللب وتحير العقل وتبعث على الحيرة والعجب : آلاف من الأحياء الصغيرة السابحات في قطرة ماء في ستنقع ، وملايين كثيرة من الأجسام الصغيرة الجراء في قطرة من الدم ؟ أنا لا أجد وقتا للتوسع والتفصيل ، فذلك ليس في الامكان .

التلسكوب ، أو (سيكلاس) : الآلة المقرّبة



(شكل ٤٢)

تلسكوب يكبر الجسم من حيث المسافة ، وينتج ذلك أن الجسم يصير قريبا

وهناك نوع من [المكروسكوب] يكبر الأحجام باعتبار قربها (ومعنى هذا أن الأحجام البعيدة صغرها البعد ، فهذا التلسكوب متى كبرها ظهرت قريبة ، فهذا تكبير للبعيد فيصير في النظر قريبا) فهذه مكبرة تكبيرا يظهر أثره في اقتراب الأجسام (انظر شكل ٤٢)

وهذا التلسكوب بواسطة وضع عدسات مختلفات بهيئة أخرى ونظام خاص ، فهذه كما تسمى سيكلاس تسمى تلسكوب (شكل ٤٢) ، بمساعدة هذه الآلة نقدر أن ندرس النجوم وننظر فيها عجائب مفصلة تفصيلا بديعا لا ترى بالعين المجردة .

(١) كلمة مكروسكوب كلمة مركبة من كلمتين يونانيتين : ميكروس صغير ، وسكوبو : تنظر إلى : اهـ

زجاجة العين ، أو المنظار

وهناك نوع آخر من الزجاجات المكبرات للأحجام معلوم للعموم ، وهو المنظار المعتاد ، وهو عبارة عن قطعة من الزجاج صغيرة بيضاوية الشكل يضعها أمام عينه من اعترى نظره ضعف .

قال المؤلف للتلاميذ : وهأنذا ملزم أن أضع هذا المنظار على عيني لأنني كبير السن ، فها أنت ذا ترى أن هاتين عدستان بسيطتان مكبرتان ولكن قليلا ، فذهما



شكل ٤٣

عدستان مقعرتان من الجانبين معا ، فهذه بدل أن تجعل الحجم كبيرا ترىه للعين صغيرا ، وبدل أن تجعله قريبا تجعله بعيدا .

فقرأ بهما ؟ فأجاب هنري وقد حرك رأسه قائلا : آه : هأنذا أرى ، لماذا ؟ أنا لست الوحيد في المدرسة الذي يحتاج إلى منظار يضعه على عينيه ، إن جيمس (وان كان شابا) يهوزه منظار على عينيه ، فلما وضعها هنري على عينيه وجدها على هيئة خلاف ما تقدمه ، فحصلت للتلاميذ حيرة ، لأن هذا المنظار مبعد لا مقرب كالأول .

فقال الأستاذ : أنا أشرح الموضوع لكم تمام الشرح : يجب أن تعلموا أن هناك عدسات أخرى غير المحدبة وهي المقعرة (انظر شكل ٤٣) .

فقال هنا يا جيمس بجانبني ، وأحضر معك منظار يك ولكن لاتضعهما على عينيك وأنا كذلك لألبسهما ، ثم تعال هنا يا هنري ، يامن عيناه قويتان سليمتان ، لا قصر فيهما ولا طول ، تعال معنا أيضا ، فلنقرأ نحن الثلاثة في كتبنا ذات الحروف المتحدة من حيث مطبعتها ، أما أنا فاني ملزم أن أجعل الكتاب بعيدا عن عيني جدا على طول ذراعي حتى أقدر أن أتبين حروف الكتاب ، لأن نظري طويل ، فأما جيمس فانه على العكس مني ملزم أن يجعل الحروف بجانب عينيه ، لأن نظره قصير ، وأما أنت يا هنري فان نظرك معتدل ، لذلك تضع الكتاب في المسافة المعتدلة التي تبعد نحو ثمان بوصات عن عينك (انظر شكل ٤٤) فلنضع مناظرنا على أعيننا أنا وجيمس ، الآن صار النظر تاما ، نحن الثلاثة قد وضعنا كتبنا في مسافة واحدة (انظر شكل ٤٥) .



(شكل ٤٥)

نحن لبسنا مناظرنا أنا وجيمس ، ونظرنا المنحرف قد اعتدل الآن كنظر جيمس



(شكل ٤٤)

هنري سليم النظر ، وأنا طويل النظر ، وجيمس قصير النظر .

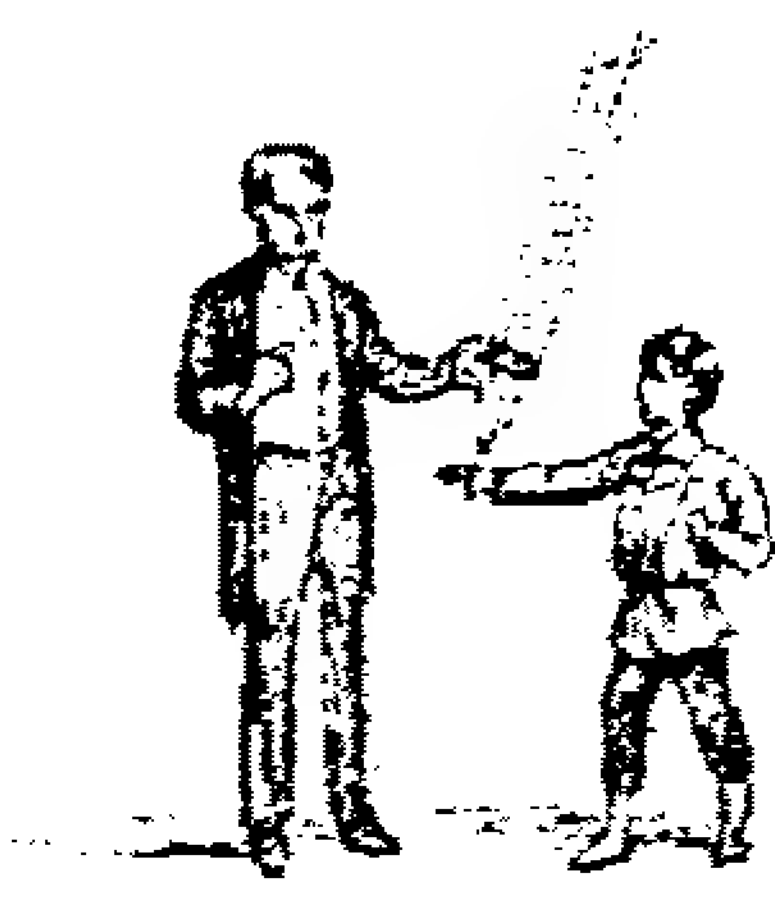


(شكل ٤٦)

إن جميع الأشعة الضوئية قد اجتمعت عند نقطة (أ) المسماة بؤرة .

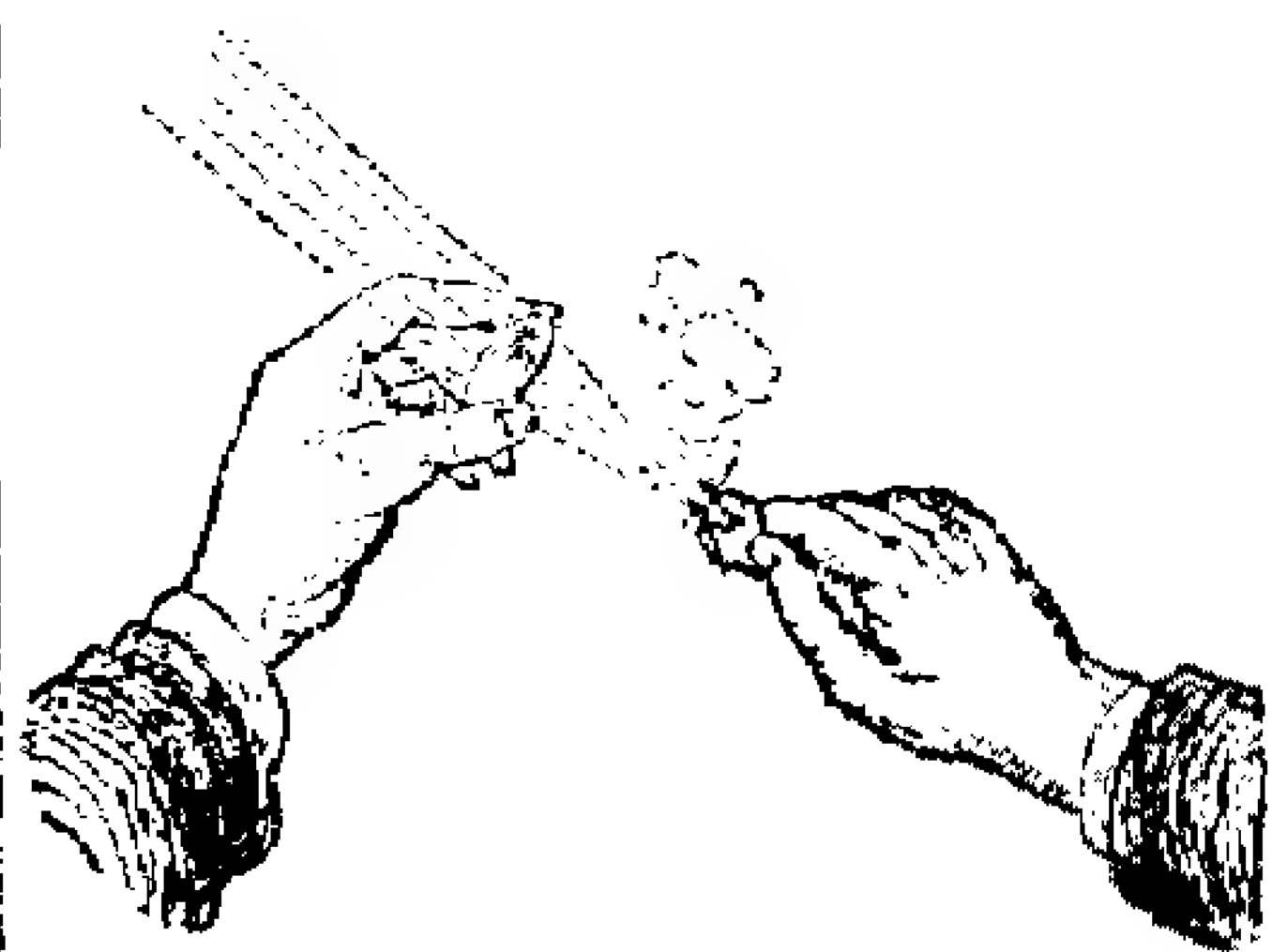
ثم قال الأستاذ : إن سبب هذه العجائب سأوضحه عند قراءة علم التشريح ، والآن نريد أن ندع الكلام على العدسات الصغيرة ، ولنجعل كلامنا خاصا بالعدسات المكبرة ، إننا إلى الآن لم نستعملها إلا في أمر واحد ، وهو أننا نضعها بين أعيننا وبين الأشياء التي نريد أن نبصرها ، ولكننا الآن نريد أن نستعملها استعمالا آخر ، وهو [بؤرة العدسة] ، انظر الآن هذه العدسة قد وضعناها في ضوء الشمس (انظر شكل ٤٦) .

ثم قال : انظر هذه المرة ما يأتي : ها أنذا وضعت العدسة في ضوء الشمس (شكل ٤٦) وقد وضعت وراءه قطعة من الورق ، وهذه الورقة أخذت أوجه نحوها بالتدريج العدسة ، فها أنت ذا [أولا] ترى أن بقعة بيضاء حرف (ا) حاصلة في الورقة في بعد خاص ، ظاهرة على الورقة أمامك ، وهذه البقعة يأخذ شكلها في الصغر شيئا فشيئا كلما اقتربت منها العدسة شيئا فشيئا أيضا ، ولا تزال تصغر حتى تصبح نقطة صغيرة في مقدارها ، ولكنها في أثناء تدرجها في الصغر تتدرج أيضا في ازدياد لمعانها وضياؤها ، ولا عجب في ذلك ، لأن ألوان ضوء الشمس كلها التي سقطت على العدسة قد اجتمعت معا في هذه النقطة [ثانيا] هذه النقطة نسميها [بؤرة العدسة] في الاصطلاح ، ومعناها في اللغة العربية حفرة النار [ثالثا] إذا أردنا أن نستعمل هذه العدسة زجاجة مكبرة وجب علينا إذ ذاك أن نضع الجسم المراد تكبيره بين العدسة وبين بورتها ، إياك أن تنسى ذلك .



(شكل ٤٧)
عند البؤرة (ا)
فوق يدك كل الأشعة
قد اجتمعت معا

ثم قال الأستاذ : تعال هنا يا جيمس وضع يدك فوق قطعة الورق (شكل ٤٧) انظر تجد أن بؤرة العدسة تضيء على يدك ، ولكن لماذا أراك تسحب يدك فترجعها إلى الوراء ؟ فأجاب : ذلك لأنني أحس بأن النقطة شديدة الحرارة .
[رابعا] فأجاب الأستاذ : حسن جدا ، إن هذا يدل على أن الحرارة دائماً تصاحب النور ، وأن البؤرة الجامعة للألوان هي عينها أيضا بؤرة جامعة للاشراق والاضاءة فهي تجمع الألوان والاشراق ، كلما كانت العدسة أوسع وأكبر كانت كميات النور التي تجمعها من الشمس في مركز النور وهي البؤرة أعظم ، وكانت تلك البؤرة أكثر اشراقا وأشد حرارة على مقدار ما جمعت من الأنوار .



(شكل ٤٨)
عند بؤرة عدسك الصغيرة (ا)
كل أشعة الحرارة اجتمعت معا
فأوقدت قطعة الصوفان

[خامسا] اننا بهذه العدسة الصغيرة نقدر على إيقاد النار في الصوفان (شكل ٤٨) ، ولكن ليس من الواجب المحتم علينا للوصول إلى هذه النتيجة المحيية ، وهي إيقاد النار بسبب هذه البؤرة أن تكون العدسة من زجاج . كلا . بل تكون هذه النتيجة ، ولو كانت العدسة من أي جسم شفاف ، مثلا الثلج جسم شفاف ، ولقد نعلم أن قائد السفينة في الأقطار الشمالية القطبية يوقد النور بالأشعة الشمسية الضعيفة في الأقطار القطبية الشمالية المجتمعة في بؤرة عدسة كبيرة جدا متخذة من الكتل الثلجية الكبيرة .

الله أكبر : فكم يتعجب سكان تلك الأقطار ، وهم الأكسيمو من ذلك المنظر البديع ، ولكم يدهش البحارة التابعون لقائد السفينة من ذلك المنظر البديع الذي أبرزه العلم فأخرج الحرارة من البرودة وكأن الضد نشأ من ضده ، ذلك أمر عجيب ١ .



(شكل ٤٩)

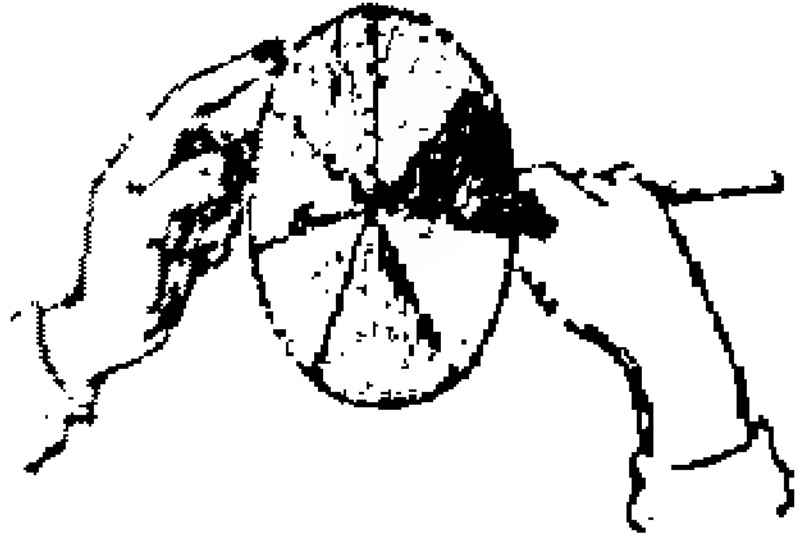
القطعة الزجاجية حلت النور الشمسي إلى سبعة ألوان : البنفسجي والنبلي ، والأزرق . والأخضر والأصفر ، والبرقالي ، والأحمر ، واجتماع هذه السبعة يسمى : سبكتروم .

الألوان

هأنح الآن نريد أن نبحث في تجارب خاصة بأمر أكثر عجبا ، وأجل منظرا ، وأشد بهجة في القلوب ، مظهر تحليل النور وتفرق أشعته والكلام على ألوان الشمس السبعة ، ها هي هذه قطعة بلور ذات ستة وجوه (انظر شكل ٤٩) .

فهاهي ذه أنا أديرها في ضوء الشمس فوق هذه الورقة ، فهنا نحن أولاء نرى أنها في وضع خاص تحدث فوق الورقة نقطة ذات ألوان كثيرة ، فإذا نظرنا بعناية إلى هذه النقطة وتأملناها نجد أن مركزها يشتمل على لونين ، وهما أصفر وأخضر ، وعلى أحد الناحيتين الزرقاء ، وعلى الناحية الأخرى الزرقاء والبنفسجية ، ولا جرم أنكم قد لاحظتم [قوس قزح] ، ومعلوم أن الألوان المجمعة فيه سبع ، فإذا ابتدأنا بالبنفسجي الذي هو أسفل الألوان التي في [قوس قزح] قلنا هكذا : البنفسجي ، النيلي ، الأزرق ، الأخضر ، الأصفر ، البرتقالي ، الأحمر .

هذا بحسب الظاهر ، ولكن في الحقيقة أن هناك أنواعا من الطيف كثيرة يختلط بعضها ببعض ، فتتحد من الأحمر إلى البنفسجي بحيث لا يقدر الإنسان أن يميز أولها من آخرها ، ولا مبدأها من منتهائها . وعلى ذلك تكون دراسة ألوان ضوء الشمس تختص بهذه الألوان السبع المجمعة في صورة [قوس قزح] المعروف ، وهي التي أظهرتها لنا الزجاجاة البلورية المسدسة الأوجه التي بها عرفنا كيف يتفرق النور وينتشر في ألوانا مختلفة .



(شكل ٥٠)

الضوء الأبيض حاصل
بسبب اتحاد الألوان
السبع (ألوان ضوء
الشمس)

إن ما تقدم به نعلم أن الألوان كلها مجمعة في ضوء الشمس وإن كانت بحسب الظاهر بيضاء لا لون لها .

تركيب ضوء الشمس الأبيض

لنبرهن الآن بتجربة بسيطة على ما تقدم فنقول : ها هي هذه قطعة من الورق المقوى مدورة ، إلى لونها بسبعة الألوان الظاهرة في [قوس قزح] (شكل ٥٠) .

إن الورق المقوى المتقدم في مركزه فتحة صغيرة ، وفيها قد أقت عودا ، وعلى ذلك ها أنا ذا أديرها بسرعة على هذا العود كأنها تدور حول محور ، ها أتم أولاء ترون الألوان قد اختفت اختفاء تاما بعد الدوران وكانت ظاهرة قبله ، وأصبحت هذه الورقة الملقاة بيضاء تسر الناظرين .

على أنه ليس من الضروري أن أرسم الورقة بسبعة الألوان حتى تظهر بيضاء عند دورانها السريع ، إنه ليجزئي في ذلك أن أرسم الثلاثة الألوان الرئيسية ، وهي : الأحمر والأصفر والأزرق ، وسبب ذلك أن بقية الألوان مشتقات من هذه الثلاث ، وهي : البرتقالي ، والأخضر ، والبنفسجي (المؤلف : لم يذكر السابعة ، وهو النيلي) .

ثم شرع يبين ذلك فقال : إن هذه الثلاثة تحصل بانحدائين اثنين من هذه الثلاث ، وبيانه أننا ننظر في قطعة أخرى من الورق المقوى ونلون نصفها بالجرة والنصف الآخر بالزرقاء ونفعل فيها ما فعلناه بسابقتها ، فلما فعل ذلك ظهر اللون البنفسجي ، ثم انه لَوْن قطعة أخرى نصفها بالجرة ونصفها الآخر بالصفرة ، فأدارها بسرعة فظهر اللون البرتقالي ، ثم ان لَوْن الصفرة والزرقاء انتجا الخضرة .

ما معنى ألوان المادة المشاهدة ؟

ما الذي نعني بقولنا هذا : الورق المقوى أو غيره أبيض أو ذاك أخضر أو أحمر أو أسود ؟ [الجواب] : إن معنى ان الورق المقوى أبيض ، أو أي شيء آخر أبيض انه قد نشر وأذاع كل ما وصل إليه من الألوان السبعة ولم يمتص منها شيئا ، والأزرق والأحمر قد امتص كل منهما ما وصل إليه من الأشعة ، ولم يمتص الأول الزرقاء ، ولا الثاني الجرة ، أما الأسود فانه قد امتص جميع الأشعة فلم يبق منها شيئا ينكسر عنه وينتشر انتشارا فسأل أحد التلاميذ المؤلف قائلا : ما سبب هذا ؟ فأجاب : أنا الساعة لست على استعداد للإجابة ، فلتقنعوا

مؤقتا بهذه المعرفة .

وعلى هذه الطريقة يكون قولنا : إن الماء أبيض ، وإن الخمر حمراء ، وإن الخمر أسود معناه أن الماء أجاز لجميع الألوان السبعة أن تقاطعه وتمر في طريقها به ، ولم يحبس لونا منها ، ولم يمر لون من الألوان السبعة في الخمر إلا لون الخمر ، والبقية قد امتصها ذلك السائل ، أما الخمر فقد امتص جميع الألوان ولم يسمح بمرور واحد منها به ، ذلك هو المعنى الذى يفهم من هذه الصفات اللونية ، إن التلون يحصل باحدى حالتين : إما بانتشار الضوء ، وأما بمروره من جسم شفاف ، فثال الأول ما تقدم من انتشار الضوء بواسطة الورق المقوى الملون ، ومثال الثانى أن نضع بين أعيننا وبين الضوء أجساما غازية ، أو أجساما سائلة ، أو أجساما صلبة شفافة كالزجاج .

ومن أندر ما عرف من صفات الأجسام وعجائبها أن الجسم الواحد يكون لها لوانان باعتبارين مختلفين : أى بانتشار الضوء عنه ، أو بمروره منه بهيئة جسم شفاف ، ثم أتى بورقة شفافة رقيقة جدا من الذهب وقال : انظروا هذه ، فهى صفراء متى انتشر الضوء عنها : أى أن لونها نفس لون الذهب المعروف ، ولكن اذا نظرناها فى حال وضعها بين أعيننا وبين ضوء الشمس فانها تظهر لنا خضراء ، ومثل هذه الحال فى المواد قليل جدا اه .

ملخص ما تقدم

فقال صاحبي : ما ملخص هذا ؟ فقلت : ملخصه أن هذا العقل الانسانى يستنتج أعظم الأشياء من أصاغرها ، فانه لما رأى الضوء دخل حجرتة على خط مستقيم ومعه الحرارة استخرج منه أمرين : ملازمة الحرارة للضوء ، وذلك بحاسة اللمس ، وكون جريه على خط مستقيم بحاسة البصر ، ثم أخذ يستنتج ما فوق ذلك مثل ان الأجسام ترسم على الأجسام القابلات للضوء على هيئة مقلوبة ، وأن الضوء اذا وقع على جسم شفاف كالماء فانه ينعكس عنه وتكون هناك زاويتان : زاوية للسقوط ، وزاوية للانعكاس ، ومن وضع فى يده مرآة وانعكس عنها النور كان ذلك المنعكس تابعا لحركة المرآة ، ثم انتقل العقل الانسانى من هذه المبادئ إلى ما هو أشرف منها ، فنظر فى أمر الصور المرسومة فى المرآة ، فوجد أن المسافة التى بين الانسان وبين المرآة مساوية للمسافة المقطرة بين نفس المرآة وبين الصورة التى يخيّل له أنها وراء المرآة ، وهذه راجعة إلى المسئلة المشابهة لها هنا ، ثم رأى أن يمينه أصبح فى الصورة يسارا وبالعكس ، فوجد هذه المسئلة راجعة إلى أن الصور ترسم مقلوبة كما تقدم قبل ذلك .

هنالك أخذ يوازن ما بين الماء والزجاج ، فوجدهما يقبلان الصور لأنهما شفافان ، ثم أخذ الانسان يبحث فى انكسار الضوء كما عرف انعكاسه ، وهوى فى حال الانكسار اعتباريه أحوال : مثل ان الجسم فى بعض أحواله يكون حجمه أكبر مما هو عليه اذا غمره الماء ، فبدا لهذا الانسان النشاط أن يتخذ العدسات ، فجعل منها ما هو مكبر لالأجسام الصغيرة ، ومنها ما هو مصغر لها ، ومنها ما هو مقرب لمسافات ، فكانت العدسات المحذبة الوجهين مكبرات للأجسام ، وبوضع عدد منها بهيئة منتظمة أمكنه أن يكبر الحشرات بالآلات المعظمة [مكروسكوب] وبوضع آخر منتظم أمكنه أن يقرب مناظر الأشياء البعيدة [تلسكوب] .

ثم انتقل من هذا إلى أمر طبي ، فاستعمل العدسات على العيون الانسانية ، فان كانت محدبة نفعت طويل النظر ، وان كانت محدبة (وظيفتها تصغير الأجسام) نفعت قصير النظر ، وههنا أخذ الانسان ينظر فى الألوان فوجد أن [قوس قزح] فى السماء شرح له ضوء الشمس شرحا وافيا ، فدهش إذ رأى سبعة ألوان واضحات أمامه مبتدئة من الأسفل إلى الأعلى على هذا النمط : بنفسجى ، نيلى ، أزرق ، أخضر ،

أصفر ، برتقالي ، أحمر . فالأجر أعلى في قوس قزح ، والبنفسجي أقرب إلى الأرض ، هنالك خطر لهذا الانسان أن ينظر جسما شفافا عسى أن يرى هذا المنظر ، فإذا فعل ؟ أخذ صمامة من البلور ، ذلك الجسم الجليل المستخرج من الرمل مع أجسام أخرى مثل البوتاسا أو الصودا ، وجعله مضاعفا ، فرأى هذه الألوان واضحة خلفه ، فكان الأزرق والبنفسجي من جهة ، والأحمر من جهة أخرى ، والأصفر والأخضر في الوسط .

سبحانك اللهم : زوّقت السحاب وجلته بقوس قزح ، وجعلته للناس درسا جيلا ليتمتعوا بالمنظر الجميلة ، عجب ! هذه حدائق وجنات ، الأزهار في الحدائق ذوات ألوان كألوان الطيف ، وهذه البوارة المضاعفة تصنع نفس هذه الألوان البديعة التي تكاد تكون مجردة عن المادة .

اللهم انك لا تحجبك عن الابداع أمر ما ، فهذا السحاب في السماء خلقته لإصلاح حال كل حي على الأرض ، ولكن في أثناء ذلك لم تدع التزيين والابداع وتحسين أشكال السحاب .

فقال صاحبي : هل ما ترجمته من هذا المقال أحدث أثرا غير ما ذكرته الآن في نفسك . فقلت : لقد تقدم ذكر الآلة المكبرة للأجسام فشاقني ذلك أن أقابل الأستاذ شوقي بك بكبير الذي هو أعظم عالم طبيعي في مصر ، وهو يسكن حلوان ، وأراني [المكركوب] الذي عنده ، وأطاعني على رجل الذبابة التي كبرها أربعة آلاف مرة ، وذلك في يوم [شم النسيم] سنة ١٩٣٢ ثم وضع حجرا صغيرا لا يؤبه به استخرجه من جهة تسمى [الخوف] وهو واد يمتد في وسط الجبل الشرقي بالبلاد المصرية ، وما كاد يضع هذا الحجر تحت الآلة حتى ظهرت أنواع من القواقع مختلفات الشكل مما دلّ على أن هذه الأحجار وهذه الصخور وهذه الجبال قد خلقت في البحر ، ثم اعتراها أحوال عظيمة غيرت نظام الأرض وأوضاعها ، فظهرت تلك الجبال على ظهر الأرض كما هو الرأي السائد عند علماء هذا الزمان .

ومما قاله إذ ذاك : إن في وادي الخوف المذكور نباتات تخرج بالفطرة تنفع للدواة ، فإذا زرعتها فقدت خواصها ، وهذا عجب يدل على أن العناية الإلهية رتبت نظام العوالم لثمرات خاصة وأكثر الناس لا يعلمون . هنالك أراني أمرا عجبا ! فقال انظر : فنظرت إذا فوق سقف منزله سلكان مصنوعان من النحاس ، دقيقا صنعهما ، موضوعان بهيئة هندسية بحيث يميل السلك الأول عن خط الشمال إلى الغرب عشرين درجة ويميل الثاني عن الأول نحو ٦٠ درجة ، وهذان السلكان يجتمعان في زاوية عند الحائط ، وقد اتصل بهما سلك نزل إلى أسفل المنزل واتصل بالآلة [الراديو] .

فهذان السلكان فوق سقف المنزل يتلقيان ما يأتي به الجو من الأصوات التي في الجهات الأوروبية وغيرها المحصورة بين هذين السلكين ، فكل موج من الأمواج الواقعة بينهما يلتقطهما هذان السلكان ويتلقاه عنهما السلك النازل إلى الآلة في الدور الأسفل من المنزل : « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

سلوك من النحاس تكون فوق السقف توضع بهيئة خاصة ، تعطى قوة سحرية بأن تسبب من الجوّ حركات الأصوات الجارية في الأثير فتجلبها إلى صوت كالذي صدر هناك في باريس أو لندن أو برلين أو فيينا ، إن هذا الأمر عجيب ! فقال صاحبي : هذا من أعجب العجائب فكفي هذا في الاستطراء ، فهل من رجوع إلى المبحث الذي كنا فيه ، وهو ضياء الشمس ؟ فقلت : نعم .

ضوء الشمس كما يفيد الهداية يفيد الحياة

أيها الصديق : تقدم كلامنا في أن ضوء الشمس منه صنع الناس الأعاجيب ، في الهداية به اهتدوا إلى غرائب وغرائب تقدم وصف بعضها في هذا المقام .

رباه : خلقت الشمس وأرسلت منها ضوءا لأرضنا برحمتك ونعمتك ، وجعلت لها نظاما تاما في سيرها ،

فنظمنا أعمالنا بنظام سيرها ، ثم توعدنا في الانتفاع بذلك النور البديع .
ثم اننا نظرنا نظرا آخر فالفينا هذا النور ليس قاصرا على هدايتنا . كلا . بل هو مفيد لنفس حياتنا ،
فهو حياة كما هو هداية ، إن النور يسطع على الورق في الأشجار والحشائش وسائر النبات ، فيمتزج بالعصارات
الجارية في تلك النباتات ، فيكون التفاعل والامتزاج ، فيتم نمو النبات (تقدم هذا واضحا في سورة يس
مشروحا . مصورا بالتصوير الشمسي عند آية : سبحانه الذي خلق الأزواج كلها) وكيف كان النور ، ساعدا
على تغذية النبات وجلبه من الهواء مواد الكربون السائجة فيه فيقوى النبات ويعيش ، وبه تكون حياة
الحيوان والانسان .

فقال صاحبي : ما أجل هذا القول ، فهلا أفضت فيه كما أفضت في هداية النور . فقلت : أيها الصديق :
أنت تعلم أن هذا تقدم في سور كثيرة . مستوفى موضعا ، ولكن ان شاء الله تعالى سأبحث بحثا مفصلا في
[سورة النبأ] ، وأذكر هناك ان شاء الله تعالى عجائب أبهج مما تقدم عند آية : « لنخرج به حبا ونباتا ،
وجنات ألفافا » وهناك ان شاء الله تعالى ترى بهجة الأشجار والشجرات والنجوم : أي النبات الذي لا ساق
له ، وكيف تنوع الشجر في هيئة أغصانه وأوراقه ، وكيف تكون الأزهار وهي مصورات قد تبدلت أنواع
كأسها وتوجيهها ، وأعضاء ذكورها ، وأعضاء أنثىها بحيث ترى واضحة في الشكل ، وكيف كان من الذكور
والإناث ما جاء في زهرة واحدة كالقطن ، ومنها ما جاء في زهرتين في نبات واحد كالذرة ، ومنها ما جاء في نباتين
وهما إما في جهة واحدة فيحصل اللقاح فالثمر كالنخل ، لأن اللقاح قد يحصل بالهواء ، أو بفعل الانسان ،
وأما أن يكون الذكر في قارة والأنثى في أخرى كما في الصفصاف ، فكل صفصاف أوروبا إناث ، وكل
صفصاف آسيا ذكور ، لذلك لم ير الناس لهذا النوع ثمرا ألبنة ، وهناك ترى عجائب الأزهار ، وكيف حار العلماء
فلم يهتدوا لتنظيم أنواع النبات إلا بواسطة أزهارها ، وما عدا ذلك لم يجدوا له قيمة ، وهناك ترى كيف كان
ماله فلة واحدة كالقمح كالنخل يخالف تركيبه ماله فلةتان كالقول والبطيخ ، وكيف كانت العلاقة بين
الثمرات والحبوب وبين نظام أجزاء النبات محكمة كما ستره هناك ان شاء الله تعالى ، وبهذا انتهى الكلام
على اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح » ، والحمد لله رب العالمين . كتب
يوم الخميس ٥ صفر سنة ١٣٥١ هـ — ٩ يونيو سنة ١٩٣٢ م قبيل الظهر .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يعسكنهن إلا الرحمن الخ

سألني العلامة صديق الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال : ما السر في ذكر : « إنه بكل شيء
بصير » بعد ذكر أن الطير صافات في جوف السماء ، وأن الله هو الممسك لها ؟ ثم ما عجائب الطيور وما تعريفها ،
وما أقسامها ؟ انني أرجو أن تذكر لي هنا جملا من ذلك ليعلم المسلمون في أقطار الأرض أنهم مقصرون في
هذه الآية ، وأنهم عليهم أن يفهموا هذه العجائب ، فلن يشكروا النعمة حتى يعرفوها ، والمعرفة أساس
السعادة في الحياتين . فقلت : لقد ذكرت في هذا التفسير مقالات كثيرة على الطيور وعلى غيرها . فقال :
ولكن المجل في هذا المقام لا بد منه مع بيان صور أهم الطيور ومنافعها بقدر الامكان . فقلت : أما الآن
كتاب الأستاذ [بول بيرت] الوزير الفرنسي الذي ترجمته زوجته الانجليزية [جوسفينا كلايتون] مدام
بول بيرت الاسكوتلاندية ، وفيه المختصر المطرب وصور الطيور ، ولا بد قبل الشروع في مختصر الكلام على
الطيور أن أقدم مقدمة في مجمل علم الحيوان فأقول :

أقسام الحيوان أربعة (١)

القسم الأول : الحيوانات الفقرية

وهي تشمل : الانسان ، وذوات الأربع ، والطيور ، والزواحف ، والسماك

فهذه الخمس هي أقسام الحيوان الذي اشتمل على هيكل عظمي وفقرات ودم ، فالانسان والبهائم من الخيل والبغل والخيول : والأنعام من الإبل والبقر والغنم : والسباع كالذئب والكلب : والطيور الجارحة وغير الجارحة : والزواحف كالحيات والعقارب : والسماك في البحر وهو معروف ، كل هذه لها عظام ودم ، ولكل نوع من هذه أصناف كثيرة .

القسم الثاني : الحيوانات الحلقية

أي التي تركب جسمها من حلقات مجتمعات منضمة يكون منها جسم هذا الحيوان ، وهذا القسم أنواع وهي : الحشرات ، والعناكب ، وذوات الأرجل الكثيرة ، والحيوانات القشرية ، والدود .

أما الحشرات فهي ما كان لها ستة أرجل ، ولها إما جناحان كالذباب ، وإما أربعة أجنحة كأبي دقيق الذي يعيش في بلادنا المصرية ويكون منه الدود الذي يفسد شجر القطن ، وهذا سلبنا قطننا ، فلذلك يدرس الناس الآن في مصر بعض الدراسة ، وهناك حشرات أخرى لها أربعة أجنحة تسمى باللسان الأفرنجي [دراكوفلاي] .

وأما العناكب (جمع عنكبوت) فهي ما لها ثمانية أرجل ضعف ما لذوات الأربع . وأما ذوات الأرجل الكثيرة فهي ما قد تصل أرجلها إلى عشرين زوجا من كل ناحية عشرون رجلا ، ويقال لها في بلادنا المصرية [أم أربعة وأربعين] .

وأما الحيوانات القشرية فهي تشمل قراص الخشب وحيوانا يسمى [كرايفش] باللسان الأفرنجي ، وهو مركب من حلقات مدحجة قوية . وأما الدود فهو يشمل دود الأرض والعلق ، وهذان رؤوسهما متصلتان بجسمهما ، وليس لهما أرجل ، وليس جلد لهما صلبا قشريا كجلد كرايفش .

القسم الثالث

الحيوانات الهلامية التي جسمها أشبه بالفلوذج الذي هو نوع من الأطعمة ، ومن هذا حيوان يسمى [القوقعة] وهذا الحيوان جسمه يكون من هذا الهلام ، وقد أعطى وقاية من المحار تقيه العاديات والمهاككات ، وهي معدة كمنزل تسكن فيه ، ومنه حيوان يسمى باللسان الأفرنجي [ميوزل] وجسمه محفوظ بين صدفتين من المحار ، فهذا القسم وهو الثالث من أقسام الحيوان لا عظم له ، فليس من ذوات الفقرات ، ولا حلقات له فليس من ذوات الحلقات ، فهو إذن حيوان هلامي .

القسم الرابع : الحيوانات الشعاعية

وهذه منها ماهو على شواطئ البحار يسمى [سمك النجم] ومنها ماهو في البحار يعيش كهيئة مستعمرات مكونة من تلك الحيوانات الصغيرة ، ومن اجتماعها تتكون أجسام صخرية ، وقد تتكون منها جزائر ،

(١) انظر تفصيل هذا المقام في المجلد الحادي عشر من هذا التفسير في سورة الحج عند الكلام على آية « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » اهـ

فترى هذين النوعين يختصان بأمرين : الأول أن لهما فمًا مركزيًا يشاهد في الوسط . الثاني أن الحيوانات حول ذلك الفم ترجع إلى حلقات ضوئية تحيط بذلك الفم أو المدخل ، ثم إن مشاهدة صورتها تدخل في النفس عجبًا ! فإن سمك النجم تراه على هيئة بهجة ذات خمسة فروع تحيط بمركزها ، وتلك الفروع كأنها أصابع الإنسان ، وذلك الوسط كال كف ، وكل أصبع من هذه الأصابع محلى بأهداب تقطيه ، وفي أصول تلك الأهداب تشاهد نقاطا مضيئة كأنها مصابيح لامعة على طول تلك الأصابع ، وهناك أيضا الحيوان المسمى باللسان الافرنجى [بوليبيا] فانك ترى الفم المتقدم أو المدخل ليس متسعًا كما في سمك النجم ، بل تراه نقطة صغيرة تحيط بها حيوانات لا حصر لها مجتمعة بهيئة ثمان ورقات جيلا ذات شعاع جيل ، كل هذا تراه موضحا بالصورتوغرافية في سورة الحج عندآية : « يأيتها الناس ضرب مثل فاستمعوا له » الخ فراجعه هناك إن شئت اه .

وقد جاء في الكتاب الانجليزى المذكور في صفحة ٤٤ وما بعدها ما ترجمته : « إن الطيور لها منقار وريش وجناحان ورجلان ، فالمنقار يمكن رؤيته في رأس هذا الطائر الذى أحضرته لأجل الدرس (هذا كلام المؤلف الفرنسى) ، ثم وصف هذا المنقار فقال : انه حجاب عظمى يكون غلافًا وغطاء لافكين ، أما الريش فانه في حال كمال نموه يشتمل على ما يأتى :

(١) أولا : أنبوبة بها ينبت الريش في جلد الطائر .

(٢) وبلى هذه الأنبوبة ساق تحمل فوق كل واحد من جانبيها (دوّارة تدل على جهة الريح) وهذه الدوّارات أيضا تحمل دوّارات أصغر منها ، وهؤلاء أيضا قد يحملن (كما فى الأوز) دوّارات هوائية أقل من الحملات لها ، وكل هذه الدوّارات ملتصقة ببعضها باحكام ومنسوجة نسجا بديعا منتظما .

وليس كل ريش تامّ النظام على هذا المنوال ، وانما وصفنا هذا لما تمّ نماءه كما قدّمناه ، أما الأجنحة فانها عادة قوية متينة ، بها يقدر الطائر أن يطير في الهواء ، وبعض الأجنحة ترى قصيرة جدًا مثل أجنحة النعامة بها تقدر أن ترفع عن الأرض ، وبعض الأجنحة يستعملها الطائر استعمال السمك لزعانفه وبمساعدهتها تعوم تحت الماء ، إن كل طائر يبيض ، ومعظم الطير يبنى عشًا ، إن البيض مركب أولا من قشرة حجرية تحوى في داخلها مادة بيضاء ، وفي داخل هذه مادة أخرى صفراء .

ثم يقول المؤلف : انه أرى التسلايمذ بيضتين : إحداهما نيئة والأخرى منضجة بالنار ، فلما فتح الأولى أمام الطلبة فما كان داخل القشر أسرع إلى الانحدار في الطبق . ثم قال : انظروا ألستم ترون في وسط المادة الصفراء مادة صغيرة بيضاء ، هذا هو أصل الجنين الذى يخلق في البيضة ومنها يخرج فرّوج صغير اذا حافظنا عليه مدة كافية لينمو في البيضة تحت حضن الدجاجة . ثم قال : هاأنذا الآن أنزع قشر البيضة المنضجة بالنار ، وهاأنذا أقسمها بهدوء تام ومحافظة عليها إلى قسمين حتى تميزوا ، وضع المادة البيضاء وموضع المادة الأخرى الصفراء .

كيف تصير البيضة طائرًا صغيراً ؟

إن البيض متى حفظ في مكان دافئ في مدة طويلة معينة من الزمان فان الجرثومة البيضاء التى تلمع وسط المادة الصفراء التى هى أصل الفرّوج تنقلب بالتدرج طائرًا صغيرًا ، ينمو في سجنه وفي أثناء نموه يتمصّ ما حوله من المادة الصفراء والبيضاء حتى يصير كبيرًا يملأ داخل القشرة ، وحينئذ يكسرها هو بمنقاره ، هنالك يخرج أعشى لاهرك له مثل هذه الحامة الصغيرة (انظر شكل ٥١ فى الصفحة التالية) أو كمثل ما يخرج من

البيضة ، وهو نشيط الحركة خفيف عالم كيف يلتقط من الأرض ما يقوته من الطعام ، وكيف يجري على الأرض وذلك كهذا الفروج (شكل ٥٢) ومن صغار الطير ما يخرج وقد استعد لما هو فوق ذلك ، فلا يكتفى بالجرى فى الأرض ، بل يعوم فى البحر أو النهر ، وذلك كالأوز والبط ، وههنا أخذ المؤلف يشرح حضن البيض بالطريق الصناعية بحيث يقوم الإنسان بهذه العملية بدل الأم ، وأبان صورة الصندوق الذى يقوم مقام الأم فى حفظ حياة الجنين ، ودوام الحرارة المماثلة لحرارة الطبيعة للأُم فى عشها المناسب لحال نوع الطير هيئة ومقدارا .



(شكل ٥٢)

فروج خارج من بيضة
السجاجة قادر على
السمى



(شكل ٥١)

حمامة خرجت من
بيضتها وهى عمياء
ولا تقدر على الحركة

الطيور على قسمين : طيور مهاجرة ، وطيور غير مهاجرة

ثم أخذ المؤلف يقول : لست أقتصر معكم فى الطير على ما تقدم ، بل أقول لكم : إن من الطير ما له هجرة كل عام فى أوقات محددة تحديدا تاما ، مثال ذلك : الخطاف والسمانى ^(١) ، وهو [السلوى] والبلبل ، فهذه طيور تعيش فى البلاد الحارة فى زمن الشتاء ، فإذا أقبل فصل الصيف هاجرت إلى بلادنا (يريد المؤلف بلاد أوروبا) فتعيش على الحشرات المخاوقات فيها ، وتبنى أعشاشها ، وتحضن بيضها ، وترى صغارها ، ومتى أقبل فصل الشتاء وقتلت الحشرات قفلن راجعات إلى أقطارهن الحارة فى إفريقيا ، وذلك أبدأ الأبدى ، ودهر الدهر بن . وهنالك طيور أخرى مهاجرة بهيئة مخالفة للسابقة كالأوز والبط الوحشيين ، فإن هذه تعيش فى الأقطار الشمالية الباردة ، فإذا اشتد عليها البرد شتاء أقبلت تسمى إلى بلادنا (يريد أوروبا) . وههنا أخذ يشرح أنواع الطيور وهى :

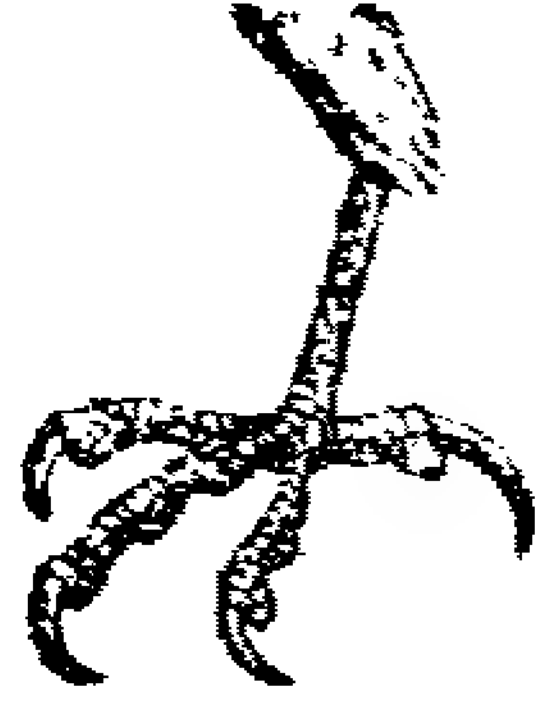
- (١) الجارحة .
- (٢) والطيور المقلدة للإنسان (كالقرود) ذوات المناظر الجميلة ، والأصوات البديعة .
- (٣) والحمام .
- (٤) والطيور السجاجة .
- (٥) والطيور الخائضة .
- (٦) والنعام .
- (٧) والطيور المنسوجة الأرجل .
- (٨) وأنواع العصفور الدورى . وهالك تفصيلها :

أولا — [الطيور الجارحة] : إن من الطيور ما تعيش على لحم الحيوان الحى من طيور أخرى ومن ذوات الأربع ومن الزواحف فلذلك سميت طيوراً جارحة ، ولذلك نراها قد وهبت سلاحا حادا قويا به تحدث تمزيق فرائسها .

(١) ألا ترى إلى هذا المنقار الحاد المصنوع كهيئة الشص والخطاف والكلاب (انظر شكل ٥٣ فى الصفحة التالية) .

(١) بضم أوله وآخره نون مقصورة بوزن حبارى .

(ب) وإلى هذا المخلب الطويل المعد لاختراق أجسام الفرائس والقبض عليها (انظر شكل ٥٤)



(شكل ٥٤)

مخلب الجوارح



(شكل ٥٣)

منقار الطيور الجارحة
الحاد القوس

(ج) وإلى الجناح الطويل المحدد : إنهم يطرن سراعا بخفة ، ومن أمثلة ذلك أن صقرا من النوع المسمى بالفرنجية [فلكون] قر من غابة بلدة في وسط فرنسا تسمى [فونتينبل] عثر عليه في اليوم الثاني بجزيرة مالطه .

الجوارح على قسمين

إن الطيور الجارحة تنقسم إلى قسمين : جارحة ليلية و جارحة نهارية ، فن الثانية النسر (شكل ٥٥) وهو يعيش على لحوم الحيوانات الميتة ، وبعض هذا النوع عظيم الحجم يعيش في أوروبا ، إن النسور لها منفعة عظيمة جدا في الأقطار الحارة ، لأنها تنظف الجو من الرمم التي اذا بقيت أفسدت الهواء ، وأمانت الأحياء ، ومن طيور هذا النوع الحدأة الكبيرة التي تعيش في شمال أمريكا (شكل ٥٦) ، وهي حدأة كبيرة الحجم فقد يصل مقياسها (إذا مدت جناحيها) من طرف إلى طرف ١٢ قدما ، ومنها نسر جبال الألب (شكل ٥٧) وهذا أيضا كبير الحجم كسابقه ، وهو ذولحية ، ومنها الصقر (شكل ٥٨) ، وهذا أقوى أجنحة وأحد مخالب من النسر ، وهذه تعيش على لحم الحيوان الحية ، ومنها الباز ، وهو نوع من الصقور (شكل ٥٩) وهو أشد قوة على مقتضى حجم جسمه رأ كثر جرأة ، وهذا النوع قديما كان الناس في بلادنا (يريد بلاد أوروبا كالانجليز) يربونه ، ولا يزال أهل الجزائر يصيدون به إلى الآن ، وهكذا في بلاد الشرق ، ومن ذلك نوع آخر من الصقور (شكل ٦٠) وهالك صورها بالترتيب :



(شكل ٥٧)

نسر الألب



(شكل ٥٦)

حدأة شمال أمريكا



(شكل ٥٥)

النسر



(شكل ٦٠)

صقر آخر



(شكل ٥٩)

الباز



(شكل ٥٨)

الصقر

ونوع آخر من الصقور أيضا (شكل ٦١) ومنه نوع يسمى صقر العصفور الدوري (شكل ٦٢) ومنه الحدأة (شكل ٦٣) وهاك صورهن .



(شكل ٦٣)
حدأة



(شكل ٦٢)
صقر العصفور الدوري



(شكل ٦١)
صقر آخر ايضا

هذا هو نهاية الكلام على الطيور الجارحة النهارية . ولنشرع الآن في الكلام على الطيور الجارحة الليلية ، فنقول ومن الله التوفيق :

الكلام على الطيور الجارحة الليلية

- (١) هي طيور لها ريش زغبي به تقدر أن تطير فلا يسمع اطيرانها صوت .
- (٢) ولها آذان مفتحة واسعة جدًا .
- (٣) وأعين مدورة متجهة إلى الأمام . وهاك صور بعضها :



(شكل ٦٧)
أصفرالبوم حجباً
كالطائر الاسود



(شكل ٦٦)
بومة الصقر



(شكل ٦٥)
بومة الهري



(شكل ٦٤)
البومة العادية

إن هذه الجوارح الليلية لا تذر فأراً ، ولا حيواناً ضاراً إلا أهلكته ، لأجل ذلك يحافظ عليها الناس لتساعدهم في إبادة المهلكات ، ومن الناس من يجهلون فائدتها فيتلعبون بها ، ويسمرونها في أبواب بيوت مواشيهم حفاة وهم لا يعقلون ، وبهذا تم الكلام على الطيور الجارحة بقسميها ، والحمد لله رب العالمين .

النوع الثاني : الطيور المقلدة للإنسان كالقروود

وهي فصيلة الببغاء



(شكل ٦٨)
الببغاء

والببغاء له منقار غليظ ولسان لحمي به يقدر على تقليد الانسان في النطق ، واثنان من أصابع رجليه متجهتان إلى الأمام ، واثنان إلى الخلف ، وبذلك يسهل له الاستمساك بالأغصان والتسلق عليها ، وعجيب ذكائه وفهمه جعله يسمى [قرد ذوات الريش] كالقرد ، وهذا النوع يسكن الأقطار الحارة ، وبهجة ألوانه وبديع صوته الظريف يسحران قلوب سكان الأقطار الاستوائية في الدنيا الجديدة والقديمة ويستهوون أفئدتهم وهم طربون .

النوع الثالث : الحمام

وهو ظاهر ، فلا حاجة بنا إلى الكلام عليه .

النوع الرابع : الطيور الدجاجية

وتسمى بالفرنجية [كايناسن] و [كاليينا] باللاتينية معناها الدجاجة ، ومن هذا النوع ما يسمى [بيزنت] (شكل ٦٩) والطاودوس (شكل ٧٠) والديك الرومي (شكل ٧١) وهذه الطيور الدجاجية تشبه الدجاج في أنها تأكل الحبوب وهالك صورها :



(شكل ٧١)
ديك رومي



(شكل ٧٠)
طاووس



(شكل ٦٩)
بيزنت

النوع الخامس : الطيور الخائضة

سميت بذلك لأنها ذات أرجل طويلة عارية ، وأكثرها تعيش في المستنقعات ، وتخوض في الوحل والماء ، وقد منحت رقابا طويلة ، ومناقير كذلك فضلا عن أرجلها الطويلة ، بها قدران تقتنص الحيوانات الصغيرة التي عليها مدارحياتها ، وهالك منها البجع (شكل ٧٢) وما يسمى بالفرنجية [هيرون] (شكل ٧٣) والكركي (شكل ٧٤) وطير الماء (شكل ٧٥) وهالك صورها :



(شكل ٧٥)
طير الماء



(شكل ٧٤)
الكركي



(شكل ٧٣)
هيرون



(شكل ٧٢)
البجع

النوع السادس : النعام

وهذا النوع حجمه كبير وأجنحته (وإن كانت قصيرة جدا) تساعد على أن يجري بسرعة عظيمة ، إن هذا النوع يسكن بلاد إفريقيا ، وله أصبعان فقط ، ويبلغ ارتفاعه أكثر من سبعة أقدام ، وترى في (شكل ٧٦) الآتي في الصفحة التالية نعام إفريقيا وارتفاعها ٧ أقدام ، وفي (شكل ٧٧) نعام أمريكا المسماة [رهيا] ، وهي أصغر ، ولها ثلاثة أصابع ، وفي (شكل ٧٨) نعام استراليا وبورنيو المسماة : [كسوري] انظر الأشكال الثلاثة في الصفحة التالية .



(شكل ٧٨)
نعامة استراليا ،
وبورنيو السماء :
كسورى



(شكل ٧٧)
نعامة امريكا السماء
(رهيا) وهى اصغر
لها ثلاثة اصابع



(شكل ٧٦)
نعامة افريقيا ،
وارتفاعها سبعة
اقدام



(شكل ٧٩)

هيكل طير كبير من
الجزيرة الجديدة لم
يبق لها وجود الآن
ارتفاعها ١٠ اقدام

وهذا النوع كبير الحجم ولكنه يتضاءل أمام ما كشفه الكاشفون من نوعه فى
[مديغشقر] و [زيلنده الجديدة] مما لم يبق له وجود الآن من هذا النوع ، وانما
عثر الناس على بعض عظام وبيض له ، وكل بيضة تعادلست بيضات من الكسورى
الحى الآن ، أو تعادل مائة وخمسين بيضة من بيض الدجاج ، وهالك دورتها التى
عثروا عليها (انظر شكل ٧٩) .

النوع السابع : الطيور المنسوجة الأرجل

وهذا النوع ترى أصابعه متحدة مع بعضها بنوع من الجلد أو النسيج لتقدر به
على العوم بسهولة (انظر شكل ٨٠) وهذا يساعد الطير على أن يعوم بسهولة
ويخترق الماء بدون أقل مقاومة ، إن هذا الطائر اذا دفع برجليه إلى خلف ، فإن
ذلك يساعده على السير إلى الأمام ، ومن هذا النوع (شكل ٨١) و (شكل ٨٢) و (شكل ٨٣) وهالك
صورها بالترتيب :



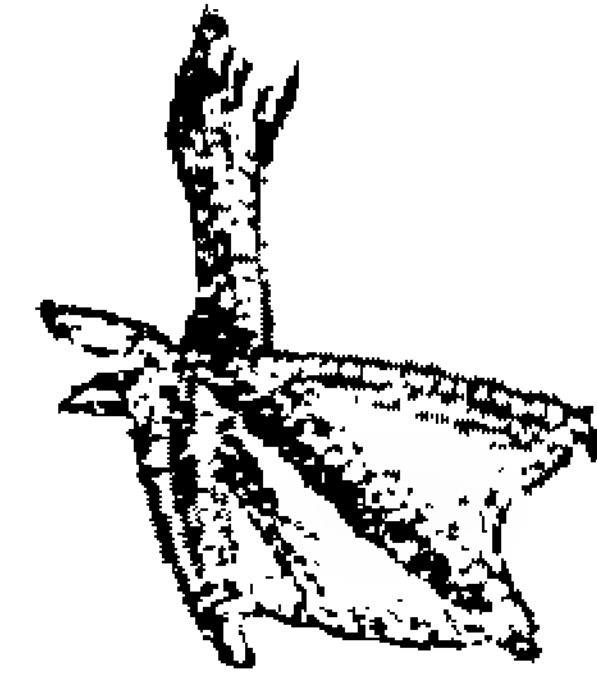
(شكل ٨٣ : نوع من
الأوز يسمى : سوال)



(شكل ٨٢)
الأوز

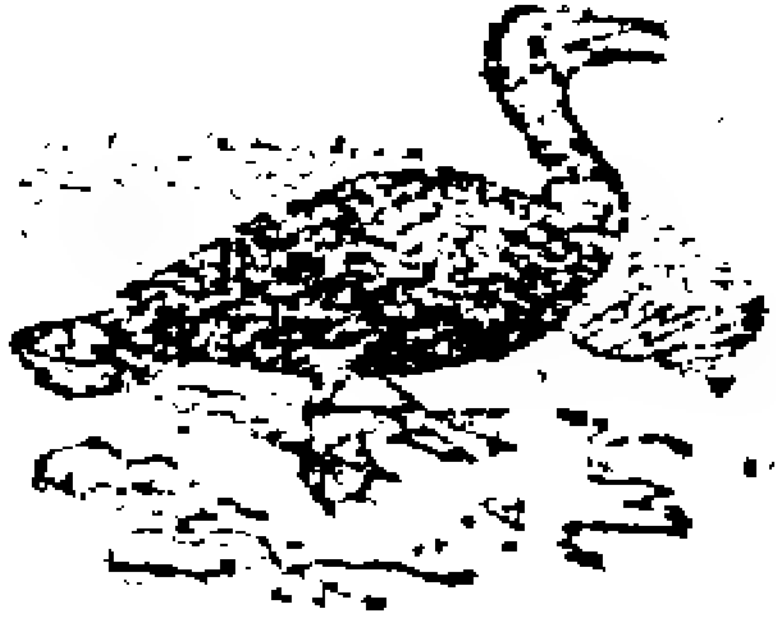


(شكل ٨١)
البط



(شكل ٨٠)

وهذه الثلاثة تتحد فى أنها منسوجة الأكف كما قدمنا فتتحد من العوم وال طيران ، ولكن مشيها ضعيف
جداً ، ولهن مناقير عريضة مساحية بنوع نصل حاد يقوم بما تقوم به الأسنان الابتدائية ، ومن هذا النوع
أيضا طائر الماء (شكل ٨٤ الآتى فى الصفحة التالية) وطائر يسمى بالافرنجية [البتروس] (شكل ٨٥)
وآخر يسمى بالافرنجية أيضا [بلكان] (شكل ٨٦) ومنها الأشر النهم (شكل ٨٧) وسترى هذه
الأشكال الأربعة فى الصفحة التالية ، وبهذا تم الكلام على النوع السابع من الطيور ، والحمد لله
رب العالمين .



(شكل ٨٧)
الاشتر النهم



(شكل ٨٦)
بلكان



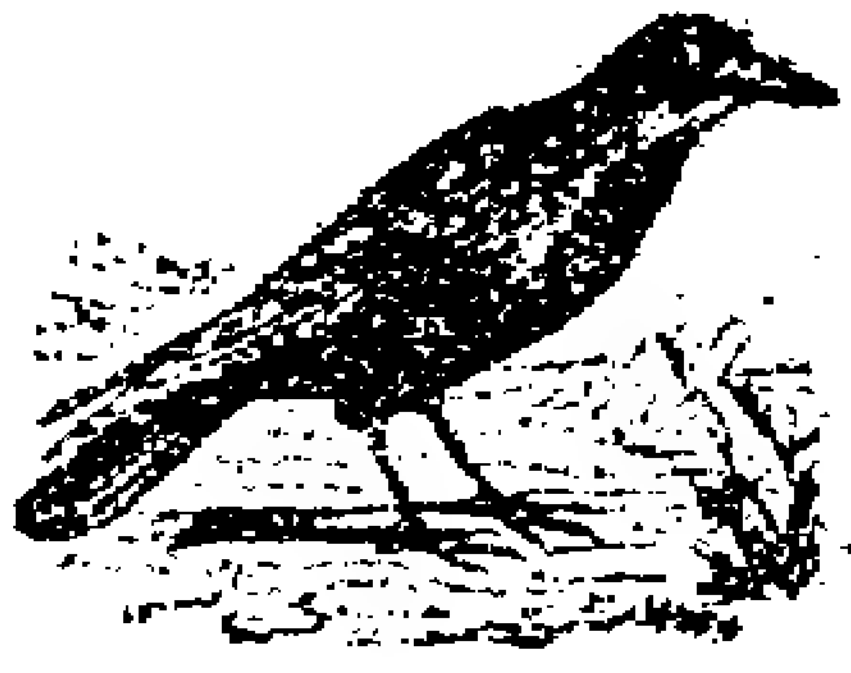
(شكل ٨٥)
البترس



(شكل ٨٤)
طائر الماء

النوع الثامن

من الطيور العصفور الدوري ، فهذا النوع لاهو من الطيور الجارحة ، ولامن المنسوجة الأرجل ولاغيرها وهذا النوع يشمل كثيرا من الطيور الصغيرة ، وبعضها له أصبعان متجهان إلى الأمام وآخران متجهان إلى الخلف ، بها يسهل للطائر أن يتسلق على سوق الأشجار ، ومن هذا النوع [قرّاض الحشب] (شكل ٨٨) الذي يضرب بظلمه وعسفه أشجار غاباتنا (يريد انكاثرا) ضررا بليغا ، وهو انما يبحث في الثقوب التي صنعتها الحشرات من قبله ، وترى في (شكل ٨٩) صورة الغراب وهو معروف ، وهاك صورهن :



(شكل ٨٩)
غراب



(شكل ٨٨)
قرّاض الحشب

وبعض هذا النوع يشبه بعض الشبه الطيور الجارحة ، وبعضه ذو منقار لطيف به يقتنص الحشرات مثل البابل ، ومثل الطير الأسود ، ومثل الطير المستأنس بأمريكا وهو جميل وصغير جدا حتى ان أصغره لا يكون أكبر من ذكر النحل ، وبعضه له

منقار واسع يأكل به الناموس ، والخطاف يفعل ذلك ، ومنه ماله منقار غليظ قصير به يأكل كل نوع من أنواع الحب ، وذلك كالقبرة وخطاف المنازل ، ومنه نوع آخر يستعمل منقاره القوي كما يستعمل الناس الفأس فيقلب به الأرض ليستخرج بعض الجثث الميتة فيها فيأكلها ، ومن ذلك أيضا الغراب المتقدم في (شكل ٨٩) وهو معروف .

يقول مؤلف الكتاب الذي ترجمت منه هذه القطعة : « إن في بلادنا نحو ٢٠٠ مائتي صنف من هذا النوع » ، وهذا آخر ما ترجمته في هذا المقام من الكتاب المذكور ، والحمد لله رب العالمين .

تبصرة في هذه الطيور

أيها المسلمون : يقول الله : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن » ثم يختم الآية بقوله : « إنه بكل شيء بصير » .

الله أكبر ، الله أكبر : جلّ الله ، جلّ الله : قد قدّمنا في [سورة : ق] أن (ال م) التي ابتدئت بها [سورة البقرة] هي مفتاح خزائن العلوم كلها ، وقدّمنا بعض هذا في سورة البقرة عند طبع الجزء الثاني عند آية الطير وإبراهيم وماحولها ، وفي سورة آل عمران ، ولشد ما اتضح لي اليوم وأيقنته حقا وصدا ، أن (ال م) جعلت مفاتيح للعلوم ، ومما يميز بها يساق المسلمون إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

وأقول بأعلى صوتي : أيها المسلمون : هذا السرّ قد ظهر الآن ، يقول المسلم : ما معنى هذه الحروف ؟ فيصل في البحث إلى ما قلناه في سورة البقرة ، ظهر سرّ (ال م) في العفة وفي بدائع الكيمياء ، فأقرأه هناك ، وظهر في سورة آل عمران في عدم اتكال المسلمين على غيرهم من الأولياء والصالحين ، بل عليهم

الجد ، وههنا يورجنا الله على جهلنا بعلوم الطير التي نام عنها المسلمون وعرفه أهل أوروبا وأهل الشرق الأقصى .
رباه : إليك المشتكى . رباه : نام المسلمون . رباه : ناموا وناموا . اللهم أيقظهم انك سميع الدعاء ، وأنا
موقن بسماع الدعاء ، سبحان الله : أليس من عجائب هذه الطيور أن منها النسر الذي ينظف الأقطار الاستوائية
من رمم الحيوان ، ولولاه لم يعش هناك انسان ولا حيوان ، أوليس منها البوم التي تأكل أمثال الفيران
المهلكات لزراع الانسان بأكله ونفس الانسان بالعدوى كما قدمناه في هذا التفسير عن كبار الأطباء في هذا
العصر ، أفليس من هذه الطيور كما قدمنا المهاجرات من الأقطار الحارة إلى الأقطار الباردة فتأكل الحشرات
حياة لها وسعادة لنوع الانسان ، ألسنا نرى الطيور مقسمة على الأقطار ، وعلى الليل والنهار ، وعلى الهواء
وعلى الأشجار ، وعلى الشواطئ والمستنقعات ، وعلى البحار ، لتكون من المنظمات المساعدة على نظام
هذه العوالم العجيبات (١) .

هذا معنى قوله تعالى : « ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير » فهذه الرحمة ، رحمة نفس الطائر
مثلا بأكله الحشرات ، ورحمة الحيوان والانسان ببقاء الزرع لموت المهلكات من تلك الحشرات .
هذا بعض السر في اختصاص المقام بالاسم [الرحمن] وبالاسم [بصير] . وإلى هنا تم الكلام
على ﴿ سورة الملك ﴾ والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م

تفسير سورة القلم

هي مكية

إلا من آية ١٧ إلى آية ٣٣ ، ومن آية ٤٨ إلى آية ٥٠ فمدنية

آياتها ٥٢ — نزلت بعد العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ
تَمْنُونَ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ * إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَذُوا
لَوْ تُذْهِنُ فَيُذْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخِيزِ
مُعْتَدٍ أَيْمٍ * عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا
قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمْهُ عَلَى الْخُرْطُومِ * إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ

(١) مما يناسب الطير مسألة الطيران في الجوّ بالطيارات التي تقدّمت قريبا ، ونريد أن نبين هنا أن
الطيارات قد صوّرت بالتصوير الشمسي في أوائل سورة النحل ، وقد شرحت أيضا في سورة المائدة عند آية
ابن آدم : [المؤلف] .

إِذْ أَقْسَمُوا لَيْصُرْمُنْهَآ مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَنْشُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَأَنطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ * وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْ لَّا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِن لَّكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ * سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ * يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ * فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْ لَّا أَن تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ *

هذه السورة أربعة مقاصد

- (١) حسن الأخلاق النبوية من أول السورة إلى قوله : « وإني لعلى خلق عظيم » .
- (٢) سوء أخلاق بعض الكفار وجراؤهم من قوله « فستبصرو ويبصرون » إلى « سنسمه على الخرطوم »
- (٣) ضرب مثل لهم بأصحاب الجنة البخلاء من قوله « إنا بلوناهم » إلى قوله « لو كانوا يعلمون »
- (٤) تقرير للجرمين ، وأمر بالصبر لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لئلا يكون كصاحب الحوت من قوله « إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » إلى آخر السورة .

المقصد الأول : حسن الأخلاق النبوية

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(ن) النون الدواة . قال الشاعر :

إذا ما الشوق برح بي إليهم * ألفت النون بالدمع السجام
ويطلق على الحوت ، وفي بعض الحيتان مادة تصلح للكتابة (والقلم) وهو كل ما يخط به (وما يسطرون)
وما يكتبون : أي والذي يكتب به من الكتب (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) أقسم الله بالدواة والقلم ،
وبكل ما يكتب من كتب الخير ، انك يا محمد ما أنت مجنوناً حال كونك بمنعم عليك بالنبوة وحصافة الرأي ،
وكيف تكون مجنوناً والكتب والأقلام والمداد قد استعدت للعمل في الشرق والغرب بما ينزل عليك من
الوحي ؟ أهذا هو المجنون ، إن الله أنعم عليك بنعمة العلم والنبوة ، وقد أعدت الأمم للتلقى عنك فلمست بمجنون
وأي شهادة أعظم من نتائج الأعمال ، فهي الشواهد النواطق ، وإدخالها بطريق القسم أبلغ في الشهادة
من قول المتنبي :

الخيال والليل والبيداء تعرفني * والسيف والرحم والفرطاس والقلم

قال المؤلف الانجليزي كارليل في كتابه المسمى [البطولة والأبطال] حينما تسكلم على صاحب شريعتنا
صلى الله عليه وسلم في نحو سنة ١٢٠٠ هجرية مملخصه : « إن البناء الذي لا يحسن البناء لا يدوم بناؤه
طويلاً ، وكلما دام البناء دل على صدق البناء (بتشديد النون) في صناعته والنبي محمد صلى الله عليه وسلم
أخرج أمة إلى الوجود فدامت هذه الأمة ألفاً ومائتي سنة ، إن البناء الدعي لا يدوم بناؤه عشرات السنين
فضلاً عن المئات والألوف ، ولو كان محمد ﷺ غير نبي وبنائه على غير أساس لم يدم هذه الأزمان كلها ،
ثم أخذ يكذب الأوروبيين في دعواهم أنه غير نبي ، وأنه اخترعها حاجة في النفس ، وشنع غاية التشنيع » اهـ
أقسم الله بالدواة والقلم والكتب عالماً أن هذا الدين يبق ، وأنه ستمحرك به الأقلام وتسطار الكتب
وتخط ، وكل ما اتصف بذلك لا يكون باطلاً ، وإذا باطل لا ثبات له ، والحق هو الباقي .

أقسم بهذه الثلاثة مستدلاً بتحققها في الزمان المقبل بعد القسم وهو عالم بذلك على صدق الرسالة لأن
الزبد وهو ما يعلو وجه الماء عند سقي الأرض يذهب ويرى به ولا بقاء له ، والماء الذي تحته هو الذي يبق
في الأرض ويسقى الزرع ، فكل باطل ذاهب ، وكل حق باق ، فبقاء هذا الدين بكتابة الأقلام وتسطير الكتب
دليل على أن محمداً صلى الله عليه وسلم غير مجنون .

أقسم الله بهذه الثلاثة فتحاً لباب التعليم العام بالقلم والكتابة ، إن هذا الدين لم ينزل لأجل ألف وثلثمائة
و ثلاث وأربعين سنة . كلا . ثم كلا . لم ينزل القرآن لأجل جيلنا والأجيال قبله فقط ، إن الله جعل أممتنا
الحالية ومن قبلها مقدمات لأهم ستأتي بعدنا ، وتكون أرقى منا علماً وأخلاقاً ونظاماً ومدنية ، فهؤلاء حينما
يقرعون هذه الآية يفكرون فيها ويقولون : إن الله لا يقسم إلا بأمر عظيم ، فإذا أقسم بالشمس والقمر
والليل والفجر ونحو ذلك فأنما هو اعظمة الخلق وجمال الصنع ، أما الدواة والقلم والكتب فما عظمة صنع الله
فيها كالشمس هي ، أم كالقمر والكواكب ؟ إن الله لم يقسم بها إلا ليعلمنا ويذكرنا بأعمالنا نحن ، فكما
خلق وصور وزوق في سمواته وأرضه فليكن لنا في الكتب والأقلام أعمال نرق بها نفوسنا ومدتنا وأحوالنا
الاجتماعية ، فلنعمم التعليم .

إن الله أقسم بالكتب والأقلام هنا : وأقسم بالرق المنشور في سورة الطور ليدكر المسلمين لاسمها في هذه العصور أن يكون التعليم عاما حتى يكون الرق منشورا ، والأقلام متحركة ، والكتب مسطورة عامة ، ذلك من مضمون هذا القسم فضلا عن نفي الجنون المصرح به في الآية ردًا على قول الكفار : « يأبىها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » .

وكأنه يقال : كيف تسمونه بالجنون وقد استعدت الكتب أن تنشر باسمه والأقلام أن تخط وتشرح ما يقول وسيكون هناك أم وأم تتعاقب بعده ولها نظام عظيم ، ويكون القلم والكتاب في كل مكان .

أقسم الله بهذه الثلاثة ليدكر المسلمين اليوم قائلا : هاأنذا أقسمت بالقلم والكتاب ، ولم تكن أمة من أمم الفرس والروم والصين حين نزول الوحي تعمد التعليم ، ولم يعم التعليم في أوروبا وأمريكا إلا بعد اصطدام الشرق والغرب في الحروب الصليبية ، إن اصطدامهما ولد هذه الحركة القلمية ، وأول ظهورها في الغرب ، وهاهي ذه امتدت إلى الشرق ، وستأخذون حظكم منها موفورا ، إن تعميم التعليم وعصر الكتب والورق لم يكن إلا بعد نزول القرآن بل بفضل القرآن لاسمها بعد التحارب والتصادم ، وكأنما الشرق والغرب كانا زندين قد حتمت العناية الربانية فتولدت بينهما شرارة ، تلك الشرارة هي العلم ، وأول من أثرت فيه هو الغرب ، إن الغرب قد طغى على الشرق ، فتحرك لقتله ، فرجع الغرب بخفي حنين ، ولكنه حل بين جنبيه العلم والنور ، فرقى الأمم في بضع مئات السنين ، ذلك كله سر القرآن .

الله أقسم بهذه الثلاثة علما منه بتحققها وانتشارها في كل بيت في الأمم بعد أزمان النبوة ، فهو رمز وإشارة إلى ما حصل في العالم الآن ، وستكون أمة الاسلام لها القدح المعلى ، وكما كان نبيها آخر الأنبياء فهاهي ذه الآن ستكون آخر الأمم تعميما للتعليم ، وكما كان شرعها ناسخا للشرائع هكذا سيكون تعليمها العام بشكل ينسخ الأشكال الحاضرة الآن في أمريكا وأوروبا ، وسيكون في نظام تعليمنا ما يدهش الشرق والغرب ، ونكون رجة للعالمين ، لأننا سندخل فيه أننا خير الأمم ، وأنا رجة للعالمين ، وأن جيوشنا تكون أقوى الجيوش ، لا لنهدم بل لنصلح الأمم الظالمة ، ولا نبغى وراء ذلك مآربا ، وسيكون في هذه الأمة مجتهدون يأخذون الأحكام من القرآن ، وينظرون بعقولهم نظرا ثاقبا ، وسيكون تعليم جميع العلوم السماوية والأرضية للمستعدين مشوبا بذكر خالقه وحبه ، واذن تكون العلوم كلها مرتبطة بالصانع .

هذا هو الذى سيكون ميزة أم الاسلام ، وهذا المهيح يحدث فيهم حكماء نابغين لا نظير لهم يقودون أمتهم والأمم الأخرى إلى سبيل الفلاح « ليظهره على الدين كله » وسيكون عصر المسلمين المستقبل عصر سلام مع الأمم ، وعصر علم ، وعصر حكمة ، ولذلك أعقبه بقوله (وإن لك لأجرا غير ممنون) أى لثوابا على احتمال ما يتولون والصبر عليه غير مقطوع ، فكون الأجرا غير ممنون فيه رمز إلى عدم انقطاع هذه الأمم التي تتعاقب فيزداد الأجر بازدياد الأمم ودوامها ، وقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) هو المذكور في قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وذلك بالتساهل مع الناس فيأخذ بظواهرهم ولا يبدق على البواطن ، وذلك بالتسامح والتعافل لا الغفلة ، وهذا معنى العفو ، والباقيان مفهومان .

قالت عائشة رضى الله عنها : « كان خلقه القرآن » ، ألت تقرا القرآن : « قد أفلح المؤمنون » ، وإذا رجعت إلى ما في سورة المنافقين وقد ظهر نفاق عبد الله ابن أبي ونزل به الوحي ، وأنه لم يقتله أدركت مكارم أخلاقه صلى الله عليه وسلم وحلمه وصبره . انتهى الكلام على المقصد الأول من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثاني : سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم

قال تعالى (فستبصر ويبصرون ، بأيكم المفتون) أى بأيكم الجنون ، فالفتون كاللعقول والمجلود كلها مصادر (إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله) وهؤلاء هم المجانين على الحقيقة (وهو أعلم بالمهتدين) الفائزين بكمال العقل ، ثم أمره أن يصمم على معاصاتهم ، إذ قالوا : نعبد الله مدة وآلهتنا مدة أخرى ، فقال (فلا تطع المكذبين) وهم مشركو مكة (ودّوا لو تدهن) أى ودّوا لو تلىّن لهم وتوافقهم بترك الطعن في آلهتهم أو توافقهم في شركهم أحيانا (فيدهنون) فهم تمنّوا أن تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم ومداهنة فيفعلوا مثل ذلك ويتركوا بعض ما لا ترضى به فتلىّن لهم ويلينون لك فلا تطعهم (ولا تطع كل حلاف) كثير الحلف في الحق والباطل (مهين) حقير الرأى من المهانة وهى الحقارة (هماز) عياب (مشاء بنميم) قتال للحديث على وجه السعاية (مناع للخير) يمنع الناس عن الخير كالانفاق والايمان والعمل الصالح (معتد) متجاوز الحد في الظلم (أثيم) كثير الآثام (عتل) جاف غليظ ، يقال عتله اذا قاده بعنف وغلظة (بعد ذلك) أى مع ما وصفناه به من الصفات المذمومة (زنيم) وهو الدعى الملقى في القوم وليس منهم فهو دعى قريش وليس منهم ، وهذا وصف الوليد بن المغيرة ، وقد ادّعى أبوه بعد ثمانى عشرة سنة من مولده ، ويقال : الزنيم هو الذى له زئمة كزئمة الشاة ، وكانت له زئمة يعرف بها ، ويعرف أيضا بالشر كما تعرف الشاة بزئمتها ، هذه معان ثلاثة ذكرها المفسرون : فهو ملصق في قريش ، وله زئمة ظاهرة ، وأيضا يعرف بالشر ، فربما كانت هذه الثلاثة كلها أو بعضها فيه ، ولقد وصف بعشرة أوصاف هى سيئات الأخلاق فى مقابلة عظمة خلقه صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ يقرعه على غروره فقال (أن كان ذا مال وبنين) أى كذب باياتنا وهو القرآن لاجل كونه ذا مال وبنين ، وكان ماله تسعة آلاف مثقال من فضة ، وبنوه عشرة ، وانما قدرنا فعل كذب لأنه دلّ عليه بقوله (اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير) أحاديث (الأولين) فى كذبهم (سندسمة على الخراطوم) على أنفه مهانة له وعلمها يعرف به ، وتلك السمة هى المهانة والاذلال كما تقول : جدع أنفه ، ورغم أنفه ، وكفى بسوء سمعته فى الدنيا بهذه الآيات وفى الآخرة بالفضيحة والعذاب مهانة ، وهى سمة ظاهرة على الأنف بدون مجاز فيقال : ان أنفه أصيب بجراحة يوم بدر فبقى أثرها سمة له ، وإذن يكون ذلك من علامات النبوة . انتهى المقصد الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثالث

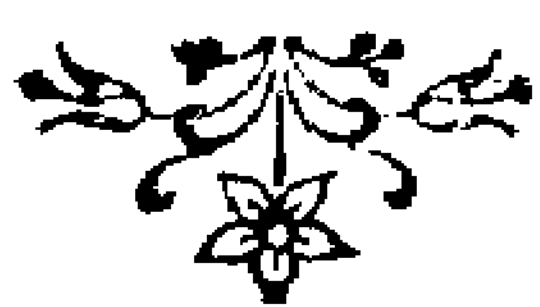
ضرب مثل لأهل مكة ولكل ذى جهالة من أهل الأرض وحرص وطمع

وقصة أصحاب الجنة انهم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم جنة بقرية يقال لها ضرّواز ، وكانت على فرسخين من صنعاء ، وكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدق بالباقي على الفقراء ، فلما مات قال بنوه : إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولوا عيال ، فحففوا ليقطعنها وهم داخلون فى الصباح خيفة من المساكين ولم يستثنوا حصّة المساكين فأحرقها الله ، وهذه هى القصة (إنا بلوناهم) أى بلونا أهل مكة بالقحط (كما بلونا أصحاب الجنة) التى ذكرناها الآن (إذ أقسموا ليصرمنها) ليقطعنها (مصبحين) داخلين فى الصباح (ولا يستثنون) ولا يخرجون حصّة المساكين كما كان يفعل أبوهم (فطاف عليها) على الجنة (طائف) بلاء طائف (من ربك) أى من عذاب ربك ، ولا يكون الطائف إلا ليلا (وهم نائمون فأصبحت كالصريم) كالبيستان الذى صرم قطع ثماره بحيث لم يبق منه شيء (فتنادوا مصبحين ، أن

اغدوا على حركم) أى بأن اخرجوا إليه غدوة (إن كنتم صارمين) قاطعين له (فانطلقوا وهم يتخافتون) يتسارون فيما بينهم لئلا يسمع المساكين يقولون (أن لا يدخلها اليوم عليكم مسكين) أى لا تدخلوه من الدخول فأن مفسرة (وغدوا على حرد قادرين) أى وغدوا على جد في المنع قادرين عند أنفسهم (فلما رأوها) أول ما رآها وهي محترقة بالطائف الرباني (قلوا إنا اضالون) طريق جنتنا فأين الطريق إليها؟ ثم تأملوا فعرفوا أنها هي جنتهم وأنها احترقت ، فقالوا مضرين عما تقدم : (بل نحن محرومون) حرمانا خيرها لجائتنا على أنفسنا (قال أوسطهم) أى أفضلهم في الرأي وفي السن (ألم أقل لكم لولا تسبحون) أى هلا تذكرون الله وتوبون إليه من خبث نيتكم (قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين) بمنعنا المساكين (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) يلوم بعضهم بعضا (قلوا يا ويلنا) دعوا على أنفسهم بالويل (إنا كنا طاغين) في منعنا حق الفقراء والمساكين ولم نشكر نعمة الله بالاتفاق منها (عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها) ببركة التوبة والاعتراف بالذنب ، وروى أنهم أبدلوا جنة خيرا منها (إنا إلى ربنا راغبون) راجون العفو طابون الخير (كذلك العذاب) أى مثل ذلك العذاب الذي ذكرناه من عذاب الدنيا نفعل بمن تعدى حدودنا وخالف أمرنا سواء أكان من أهل مكة مشركي العرب أو من غيرهم من أمم الاسلام أو أمم أوروبا وبلاد الشرق ، فهذه قاعدة عامة مطردة لا يفلت منها فرد ولا مجموع ، ولقد أصبحت هذه القاعدة مشاهدة الأثر في زماننا ، وقد كنا منذ سنين نطلق معاشر المسلمين أن دول أوروبا التي ظلمت الشرق لارادع لها ولا زاجر ، وكنا نقول : أين وعد الله باهلاك الظالمين ، فصلت وقائع غيرت وجه المسكونة ، فإذا حصل ؟ كانت دول أوروبا في بلاد الشرق لها في كل دولة منها امتياز واختصاص وتعظيم ، فيكونون في البلاد ضيوفا في حين أنهم ساداتها بقوانين يصدرونها ، فيقتل الرجل منهم المسلم الوطني أو الشرقي الصيني والهندي ثم يفلت من العقاب إذ لا يحاكم إلا في محاكم دولته ، فلقد قاب الله الآفة ، والدهر قلب ، فطردهم الترك من بلادهم ، فلا اختصاص لهم في البلاد ولا امتياز ، وهكذا دولة إيران ، وفي أثناء كتابة هذا التفسير بل في أثناء تفسير هذه السورة قلمت ضجة وثورة في بلاد الصين ضد أوروبا يطالبون ألا يسود عليهم الأجنبي في بلادهم ، وقد أجابت الأمم إلى ذلك ويمدون المعدات لاجابة الطلب كما أجابوا بلاد الترك من قبل ، ومن قبل هؤلاء فعل أهل اليابان ذلك ، ولقد سلط الله دولة الروس [البلشفية] هؤلاء يساعدون كل من أراد أن يطرد هؤلاء الظالمين من بلاده ، ولهم قواد عند الامير عبد الكريم ببلاد مراكش للمساعدة على اخراج الظالمين .

كل ذلك مبدأ لما سيحصل في الأمم المستقبلية فستكون حرة لاسلطان عليها اظلم أوروبا التي هرمت وشاخت وستقوم دول شابة في الشرق ، وقد ابتدأت تتحرك اليوم وتحل محل هؤلاء الظالمين ، كل ذلك داخل في معنى هذه الآية ، فإن أصحاب الجنة استأثروا بالثمر وحرمو الفقراء ، وهذه الدول ظنت أن الناس مخلوقون لخدمتهم فأرادوا استعبادهم فقلب الله الآية ، وسيدور الفلك دورته ويتم الله نصر المظلومين الذي ابتداء الآن وسيزيد ارتقاؤه في المستقبل القريب .

فهذه الأمم تذوق عذاب الخزي في هذه الحياة الدنيا بالفقر المدقع الذي استولى على بلادها ، وبالبلشفية التي أصبحت كالسوس تنخر في عظامها ، وقريبا يذهب ظلمها المتداعى إلى السقوط (ولعذاب الآخرة أكبر) أعظم منه (لو كانوا يعلمون) لاحتزوا عن الفعل الذي يؤدي إليه . انتهى الكلام على المقصد الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .



المقصد الرابع

تقريع المجرمين : وأمر بالصبر لنبينا صلى الله عليه وسلم لئلا يكون كصاحب الخوت

قال تعالى (إِنَّ لِلتَّقِيْنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ) أى جنات ليس فيها إلا التمتع الخالص ، لا الجنات الدنيوية التى يشوبها العذاب بزوال نعيمها وخلو اليد منها . ثم أخذ يرد على من قال من الكفار : ان صح أننا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يفضلونا بل نكون أحسن حالا منهم ، لأن من أحسن فى الدنيا إلينا فهو محسن إلينا فى الآخرة ، فقال : (أفجعل المسلمين كالمجرمين) ثم خاطبهم على طريق الالتفات فقال : (ما لكم كيف تحكمون) هذا الحكم المعوج وكيف تدعون بين العاصي والمطيع فضلا عن أن تفضلوا العاصي على المطيع . ثم أخذ يقطع عليهم الحججة ويستد عليهم أبوابها فقال : هل تلقيتم كتابا من السماء فقرأتم فيه أنكم تختارون ما تشاءون بحيث تكونون وأنتم مجرمون كالمسلمين الصالحين بل هل أعطيناكم عهدا أكدناها بالآيمان المؤكدة عاهدناكم عليها فاستوثقتكم بها ، فهى ثابتة إلى يوم القيامة فأقسمنا لكم بها أننا حكمناكم وأعطيناكم ما تحكمون لأنفسكم ، بل ألهم أناس يشاركونهم فى هذا القول ويذهبون مذهبهم مع أنه لا يسلم لهم بهذا القول أحد ولا يساعدهم ، ولا كتاب لهم ينطق به ، ولا عهد لهم عند الله ، وإذا زعموا أن لهم أناسا يذهبون مذهبهم فليأتوا بهم يوم شدة الأمر وصعوبة الخطب ويقال لهم اسجدوا وقت تلك الشدة توبيخا لهم على ترك السجود فى الدنيا ، وذلك إما فى النزاع أو بعد الموت فلا يقدر على السجود وأبصارهم خاشعة ، والذلة محيطة بهم ، مع أنهم كانوا يدعون إلى السجود فى الدنيا وهم متمكنون منه . هذا هو قوله تعالى (أم لكم كتاب فيه تدرسون ، إن لكم فيه لما تخيرون ، أم لكم آيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ، سلمهم أيهم بذلك زعيم ، أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم ان كانوا صادقين ، يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) .

فقوله : تدرسون : أى تقرءون ، وتخيرون : أى تختارون ، وآيمان : أى عهد ، وبالغة : أى متناهية فى التوكيد ، وقوله : إلى يوم القيامة : أى ثابتة لكم علينا إلى يومها ، وقوله : سلمهم أيهم بذلك زعيم : أى أيهم بذلك الحكم قائم بدعيه وبصحيحه ، وقوله : يكشف عن ساق : متعلق بآتوا : أى يوم يشتد الأمر ويصعب ، فهو كناية عن الشدة ، وقد كانوا اذا ابتلوا بهتة كشفوا عن الساق ، وذلك كما تقول للأقطع البخیل : يده مغولة مع أنه لا يده ولا غل ، فهكذا هنا لا ساق ولا كشف ، وقوله : خاشعة أبصارهم : أى ذليلة وقوله : وقد كانوا يدعون إلى السجود : أى فى الدنيا ، وقوله : وهم سالمون : أى أصحاء . ثم ان قوله فى أول هذه الآيات : « أم لكم كتاب فيه تدرسون ، إن لكم فيه لما تخيرون » أصله أن بالفتح ، لأنه مدرّس لوقوع الدرس عليه ، وإنما كسرت لوجود اللام فى خبرها .

ثم قال تعالى (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين ، أم تستأجرهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الخوت إذ نادى وهو مكظوم ، لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ، فاجتبه ربه فجعله من الصالحين ، وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين) .

يقول الله سبحانه : خل يا محمد بيني وبين من يكذب بهذا القرآن فأتى عالم بما ينبغي أن يفعل به مطبق

له فلا تشغل قلبك بشأنه ، وتوكل على في الانتقام منه ، انا سندنيهم من العذاب درجة درجة ، ونستزلمهم إليه حتى نورطهم فيه فنوالى النعمة عليهم ونرزقهم الصحة والعافية فتزداد معاصيهم من الجهة التي لا يشعرون أنها استدراج ، فكأما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها وأنا أمهلهم فإن استدراجي لهم وكيدى قوى متين .

ثم كأنه يقول : يا محمد : ماذا ينقمون منك ؟ أنت تسألهم أجرا على تبليغ الرسالة فثقل عليهم فامتنعوا ؟ كلا . بل هل عندهم علم الغيب المكتوب في اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه ما يحكمون به ! فلا هذا ولا ذاك ، إذن القوم معاندون ، لم يبق إلا أن تصبر لحكم ربك فقد حكم بأمهالهم وتأخير نصرتك ، فانهم إن أمهلوا لم يهملوا ، وأخذ يذكره بحادثة يونس عليه السلام ، إذ غضب على قومه وفارقهم ، ونزل إلى السفينة فابتلعه الحوت ، ودعا ربه في بطنه فقال : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » وهو ملؤه غيظا ، وهذا هو قوله تعالى « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث » أى كله إلى « فإني أكفيكه » سنستدرجهم من حيث لا يعلمون « سندنيهم ونقرتهم من العذاب « وأملى لهم » أمهلهم « إن كيدى متين » جعل الاحسان كيدا كما جعله استدراجا لكونه في صورة الكيد « متين » شديد « أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، فاصبر لحكم ربك » وهو أمهلهم « ولا تكن كصاحب الحوت » وهو يونس عليه السلام « إذ نادى وهو مكظوم » ملؤه غيظا ، وقوله « لولا أن تداركه نعمة من ربه » أى رحمة « لتبذ بالعراء » أى ل طرح بالفضاء من بطن الحوت « وهو مذموم » أى مليم مطرود من الرحمة والكرامة « فاجتباه ربه » وذلك بأن ردّ الوحي إليه « فجعله من الصالحين » أى الكاملين في الصلاح بأن عصمه فلم تبق له زلة ، وهذه الآية نزلت لما هم أن يدعوا على تقيف ، أو بأحد حين حلّ بالمسلمين ماحلّ فأراد أن يدعوا على المهزمين « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم » أى انهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شذرا بحيث يكادون يزلون قدمك وبرءونك ، يقال نظرا إلى نظرا يكاد يصرعنى : أى لو أمكنه أن يصرعنى بنظره لفعله ، أو يقال انهم يكادون يصيدونك بالعين ، وذلك أن العين كانت في بنى أسد فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء فيقول فيه : لم أركاليوم مثله إلا هلك ، فطلب من بعض العيانين أن يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، فقال : لم أركاليوم مثله رجلا فعصمه الله من ذلك ، وفي الحديث : « العين حق » وان العين لتدخل الجبل القدر والرجل القبر . وعن الحسن : رمية العين هذه الآية .

وقوله : « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم » ان مخففة من الثقيلة ، فهى للتأكيد واللام واقعة في خبرها ، وقوله « لما سمعوا الذكر » أى حين سمعوا القرآن « ويقولون » حسدا على ما أوتيت من النبوة « إنه لمجنون » ان محمدا لمجنون حيرة في أمره وتنفيرا عنه « وما هو » أى القرآن « إلا ذكر » إلا وعظ « للعالمين » للجن والإنس : أى جننوه لأجل القرآن مع أنه ذكر عام لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أهلا له اهـ

إيضاح

إن هذه الآيات متلاحقة متواصلة المعنى ، فان أصحاب الجنة ضربوا مثلا لمن أعطوا نعمة فبخلوا بها عن الناس ، وحرصوا عليها ، فنزل بهم سوء وأحاط بهم ، فزالت نعمتهم ، وهكذا الاستدراج في النعم ، قال الانسان يعطى النعمة ولا تزال تتوالى عليه وهو غافل ساه ، فيظن أن الله أحبه ، وأن هذا العز يدوم

فاذا نعمته زائلة وهمه حاضر ، هذا الحكم يشمل الأفراد ويشمل الأمم ، الأفراد والأمم مشتركون في هذه القواعد .

واعلم أن هذه القضية مسلحة عند علماء الاجتماع ، فإما من دولة إلاولها زمان ترتقي فيه ، وتكون أشبه بالدابة ترعى في مرعائها ساعة هائلة آمنة مطمئنة ، فلا تلبث أن تأكل ما يضرها فتمرض أو تموت ، وما مثل الأمة وهي في عنفوان عظمتها إلا كمثل ما وصفه علماء الطب الحديث في النمسا وألمانيا إذ قالوا : إن أكثر من نراهم أصحاب الأبدان أقوياء الجسم جر الحدود ، موردى الوجنت ، لما في تغذيتهم من المواد الكثيرة الغذاء كاللحم والبيض واللبن ، فهؤلاء لا يزالون هكذا حتى تتخطفهم المنون وهم لا يشعرون ، وأما ذلك الذى نراه ضعيف الجسم كثير الأمراض فهو الذى نسميه قويا لأن جسمه قدر أن يخرج منه الفضلات الباقيات في جسمه التى لو بقيت لأهلكته : أما الأول الذى يظن الناس أنه قوى ويحسدونه فإنه هو الضعيف في نظرنا ، لأنه دائما أو غالبا يموت فجأة وهو غافل ، وما مثل جسد الأول وجسد الثانى إلا كمثل بيت لم تجعل له مصارف لمافيه من القاذورات ، وبيت قد جعل له ذلك ، فالثانى خير من الأول قالوا : وهذا هو السر في أنا نرى كثيرا من الضعفاء المهزولين يعمرن وكثيرا من الأقوياء يموتون فجأة وهم في عنفوان الشباب .

إذا عرفت هذا فهمت أحوال الدول : فالأمة إذا استبحر عمراتها ، وتكاثر نسلها ، واستعمرت الأرض واستكثرت من الشهوات جرّها ذلك الى البطنة وسوء الحال ، فيقول غيرها من الأمم ما أحسن حالهم وبهايونهم ، ولكنهم يكونون قد أشرفوا على الهرم وقاربوا الهلاك .

وهذه دول أوروبا الحالية أمرها على هذه الحال أصبحوا وهم شرهون متنعمون لم يظهرهم الاتفوقهم في الصناعة ، ولكنهم مشرفون على حال الهرم وضياح المدنية ، كما ذهبت دولة اليونان والرومان وآبائنا العرب القدماء ، وهذه الحال طبيعية في الأمم : فأما الأمم التى هي في حال البداوة فان أخلاقها وعقولها قابلة للرقى ، ومتى جاء دورها ولم شعنها ، وسبقت لحرب الأمم العظيمة أهلكتها وحلت محلها ، فدولة الرومان أزالتها أولئك المتوحشون من الأمم التى نزلت قديما من آسيا ، فأزالوا تلك الدولة وحلوا محلها ، وذلك في نحو القرن الرابع والخامس بعد الميلاد ، وهكذا دولتنا العربية زالت قديما وحلت محلها أمة أخرى كالتار وكالسلاجوقيين وغيرهم ، وأمة أوروبا لاحقة بهم قريبا ، ألا ترى الى بلاد مرا كش في أيامنا الحاضرة كيف اتحدت دولتان عظيمتان على قتالهم ، وتعدادهم رجالا ونساء نحو مليون كما يقال ، وهم جهال ، ومع ذلك دوخوا الدواتين معا ، وفرنسا تستعين بأمة كثيرة من السنغال وتحارب اخواننا مع أنهم جزء قليل من بلاد مرا كش ، فهذه الأمم الاسلامية التى لم يقتل النعيم والبطنة همها ، ولم تدنس الشهوات عقولها ، متى جاء وقتها ، وتسلمت مقاليد المدنية أزالت تلك الأمم من مرا كرها ، فأمة الشرق اليوم أشبه بذلك الرجل النحيف المريض ، وأمة الغرب أشبه بذلك الرجل الضخم الجسم الآكل من المواد الكثيرة التغذية ، فهذا هو الاستدراج والاستنزال ثم يكون الهلاك .

أمر الله الصادقين في أعمالهم أن يصبروا لأن دولة الباطل زائلة ، ودولة الحق غالبة ، فما هو ذا سبحانه يقول للقاتلين بالحق صبرا صبورا ، لا يكن أحدكم مستجلا فان هؤلاء مستدرجون وفي العذاب واقعون .

فاذا قرأت هذا أيها المسلم فاعلم أن يوم الأمم الشرقية آت وإياك أن تقول : لم لم ينصرنا الله ؟ وأذكرك بصاحب الحوت فان أمة الاسلام الحالية تحتاج الى مدة تستكمل قوتها فيها ، فاعمل لها فلك أجر الفاتحين وان لم يكن على يديك ، وان ركبت متن العجلة بؤت بالندامة ، وندمت ندامة الكسبي ، فاعمل لأمتك وانتظر النتيجة ، وأذكرك أيضا بأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر بفتح فارس والروم ، وفتح القسطنطينية ،

وفارس لم تفتح في زمانه ، والقسطنطينية فتحت بعده بنحو تسع قرون ، فاصبر لحكم ربك كما صبر ولانك كن
كصاحب الخوت فتولى هاربا وتدخل كسر بيتك وتقول مالي والمسلمين . كلا . ثم كلا فالتك سائلك لاسما بعد
التبيان في هذا التفسير الذي أنا موقن أن حركة الشرق ستنهض في إبان ظهوره وتشتد بقرائه وقراءة
ما يماثله من كتب العلماء في البلاد الإسلامية ، وبهذا تم الكلام على [سورة القلم] والحمد لله رب العالمين
كتب عصر يوم الخميس ١٦ يوليو سنة ١٩٢٥ م (١)

تفسير سورة الحاقة

هي مكة

آياتها ٥٢ — نزلت بعد سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَبَتْ ثَمُودُ وَعَادُ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا
ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ
سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُفْجَارُ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ * فَمَنْ
تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ * وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ
تَذَكُّرَةً وَتَعْمِيًا أَذُنٌ وَاعِيَةٌ * فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ
وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ
وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ
تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينًا فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا
كِتَابِي * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةٍ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ *
قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِشِمَالٍ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةٍ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةٍ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاصِيَةِ *
مَا أُغْنِي عَنِّي مَالِيَةٍ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ * خَذُوهُ فَعُوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي

(١) [تذكرة] علق ضيق المقام عن أن نبين أنواع القلم مثل : الطومار ومختصره ، وثلثه ، وثلثه ، وقلم
الغبار ، وقلم الرقاع ، فأخونا الكلام على ذلك كله مع صور حروفه إلى سورة العلق إن شاء الله تعالى .

سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُرُ
 عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ لِلْأَمِينِ غَسْلِينَ * لَا يَأْكُلُهُ
 إِلَّا الْخَاطِئُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ *
 وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ
 مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ
 لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذَكُّرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ *
 وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ *
 فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ *

هذه السورة مقصدان

المقصد الأول : هلاك الأمم في الدنيا من أول السورة إلى قوله « أذن واعية » .
 المقصد الثاني في عذاب الآخرة محتوما بإثبات النبوة ودحض مفترياتهم من قوله : « فاذا نفخ في الصور
 نفخة واحدة » إلى آخر السورة .

المقصد الأول : هلاك الأمم في الدنيا

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحاقة) أي القيامة ، الساعة الواجبة الوقوع ، الثابتة المحيية ، التي هي آية لا ريب فيها ، يقال حقّ
 الشيء بحقّ : أي وجب ، وهذه مبتدأ خبره هذه الجملة (ما الحاقة) أي أي شيء هي ؟ (وما أدراك
 ما الحاقة) أي أي شيء أعلمك ماهي ؟ فلا علم لك بكنهها ، فلقد بلغت من الشدة والهول أنه لا يبلغها علم
 المخلوقين (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) أي الحاقة المذكورة التي تفرع قلوب الناس بالخافة والأهوال ، وتفرع
 الأجرام بالانفطار والانتشار فتكون هباء متفرقا في كل مكان (فأما نادم فأهلكوا بالطاغية) وهي الواقعة
 التي تجاوزت الحد في الشدة ، وذلك بالصيحة أو الرجفة ، لأنهم كذبوا بالقارعة (وأما عاد فأهلكوا بريح
 صرصر) شديدة الصوت في الهبوب لها صرصرة ، أو الباردة (عاتية) جاوزت الحد والمقدار (سخرها
 عليهم) سلطها عليهم ، هي جملة مستأنفة لبيان فعلها (سبع ليال وثمانية أيام حسوما) حاسمات حسمت كل
 خير واستأصلته ، وحسمتهم أي قطعتهم بعذاب الاستئصال فلم تدق منهم أحدا ، وهي جمع حاسم ، وهذا من
 شوئها ونحسها ، وهي كانت أيام العجوز من صبيحة الأربعاء إلى شروب الأربعاء الآخر ، وسميت عجوزا
 لأنها عجوز الشتاء (فترى القوم فيها صرعى) موقى جمع صريع (كأنهم أشجار نخل خاوية) أصول نخل متأكدة
 الأجواف (فهل ترى لهم من باقية) أي من بقاء ، أو من نفس باقية (وجاء فرعون ومن قبله) ومن

تقدمه (والمؤتفكات) أى المقلبات ، وهى قرى قوم لوط انقلبت بهم (بالخاطئة) أى بالخطأ ، أو بالأفعال ذات الخطأ العظيم (فعصوا رسول ربهم) لوطا (فأخذهم أخذة رابية) شديدة زائدة فى الشدة بنسبة زيادتهم فى القبح (إنالما طغا الماء) أى ارتفع الماء وقت الطوفان ارتفاعا جاوز الحد (حملناكم) فى أى آباءكم (فى الجارية) وهى سفينة نوح عليه السلام (لنجعلها) أى الفعلة (لكم تذكرة) عبرة (وتعلمها) (أذن واعية) حافظة لما تسمع منتفعة به . انتهى الكلام على المقصد الأول من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثانى : فى عذاب الآخرة واختتامه بإثبات النبوة

فهو لشرح أحوال القيامة بعد ذكر ما حلّ بالكاذبين بها فى الحياة الدنيا وهلاكهم
فيكون العذاب مذكورا على الترتيب الطبيعى

قال تعالى (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة) وهى النفخة الأولى (وحملت الأرض والجبال) أى رفعت عن أماكنها (فدكتا دكة واحدة) أى ضرب بعضها ببعض حتى تندق وترجع كثيبا مهيبا (فيومئذ) أى حينئذ (وقعت الواقعة) نزلت النازلة ، وهى القيامة ، وهذه الجلة جواب اذا ، وقوله (وانشقت السماء) أى فتحت أبوابا (فهى يومئذ واهية) مسترخية ساقطة القوة (والملك على أرجائها) على جوانبها ، وهى جمع رجا بالقصر ، وهذا تمثيل لخراب السماء بخراب البنيان فى الأرض وانطلاق أهله إلى أطرافه وحوله ، فكان الملائكة وهم سكان السموات لجأوا إلى أطرافها بعد خرابها (ويحمل عرش ربك فوقهم) فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء (يومئذ ثمانية) أى ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم ، وهم اليوم أربعة ، وهذا من باب التمثيل لعظمة يوم القيامة بما نشاهد من أحوال الملوك يوم خروجهم على الناس لل قضاء العام (يومئذ تعرضون) للحاسبة تشبيها بعرض السلطان العسكر ليتعرف أحوالهم (لاتخفى منكم خافية) سريرة على الله تعالى ، فاذن ليس العرض للاطلاع عليها ، وإنما المراد افشاء الحال والمبالغة فى العدل . ثم أخذ يفصل أحوال العرض فقال : (فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم) أى خذوا كتابى (اقرءوا كتابيه) وهاء اسم فعل ، والميم تلحق بها عند مخاطبة جمع الذكور ، وهاء كتابيه لاسكت (إني ظننت أنى ملاق حسابه) أى علمت أنى معين حسابى (فهو فى عيشة راضية) ذات رضى يرضى بها صاحبها (فى جنة عالية) مرتفعة المكان لأنها فى السماء والدرجات والأبنية ، والأشجار (قطوفها) ثمارها (دانية) قريبة من مرئديها ، ينالها القاعد والقائم والمتكئ ، ويقال لهم (كلوا واشربوا) أ كلا وشربا (هنيئا بما أسلفتم) بما قدتم من الأعمال الصالحة (فى الأيام الخالية) الماضية من أيام الدنيا (وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول) حين يرى سوء العاقبة ، وقبح عمله ، وشناعة مرآة (ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابه ، ياليتها) ياليت الموتة التى متها (كانت القاضية) القاطعة لأمرى فلم أبعث بعدها (ما أغنى عني ماليه) أى لم ينفعنى ما جمعته فى الدنيا ، والمفعول محذوف لم يغن عني شيئا (هلك عني سلطانيه) تسلطى على الناس ، وبقيت فقيرا ذليلا ، أوخلت عني حاجتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا ، فيقول الله لخزنة جهنم (خذوه فقلوه) أى اجعوا يديه إلى عنقه (ثم الجحيم صلوه) أى لاتدخلوه إلا النار العظمى (ثم فى سلسلة ذرعها) طولها (سبعون ذراعا) أى طويلة (فأسلكوه) فأدخلوه فيها بحيث تنف على جسده فلا يقدر على التحرك ، ثم ذكر سببه فقال (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين) أى ولا يبحث غيره على بذل طعامه ، وعن بعضهم أنه كان يأمر أهله بتكثير المرقعة لأجل المساكين ويقول :

خلعنا نصف السلسلة بالايمن أفلا نخلع النصف الثاني بالطعام (فليس له اليوم ههنا حيم) أى ليس له فى الآخرة قريب ينفعه ويشفع له (ولاطعام إلا من غسلين) أى صديد (لا يأكله إلا الخاطئون) أصحاب الخطايا ، يقال : خطئ الرجل إذا تعدى الخطأ المضاد للصواب (فلا أقسم) أى فأقسم ولفظ لا زائد (بما تبصرون وما لا تبصرون) أى بالمشاهدات والتى لم تشاهد ، وهذا جمع كل شئ من المخلوقات ، وشمل الخالق (إنه) أى القرآن (لقول رسول) يبلغه عن الله (كريم) على الله ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، أوجبريل (وما هو بقول شاعر) كما يزعم بعضهم (قليل ما تؤمنون) أى تصدقون تصديقاً قليلاً لما ظهر لكم صدقه (ولا بقول كاهن) كما يدعى آخرون منكم (قليل ما تذكرون) أى تذكرون تذكراً قليلاً ، هو (تنزيل من رب العالمين) نزل على لسان جبريل عليه السلام (ولو نقول علينا) أى اختلق علينا محمد (بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين) أى بيمينه (ثم لقطعنا منه الوتين) وهو عرق يخرج من القلب ويتصل بالرأس ، وهو تصوير لاهلاكه بأفطع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه ، وهو أن يأخذ المقاتل بيمينه ويضرب عنقه بالسيف ، والمقصود أنه لو كذب علينا وتكف الاخبار عنا لقتلناه إما قتلاً معنوياً وذلك بأن نهى له من يبطل حجته ، وديمت دعوته ، أو نسلبه قوة البيان فلا يتكلم بهذا الكذب ، وإما أن نمنعه ، إذن ليس القصد من الأخذ باليمين وقطع الوتين إلا النتيجة ، وهى ألا ينشر إلا كاذب ، ولا جرم أن كل متكلف القول غير معبر عما امتلأ به فؤاده ، ووعاء صدره ، وجاشت به نفسه ، بحيث يفيض القول منه فيضا ، لا تمتد دعوته ، ولا يسمع قوله ، وهذه عادة الله فى خلقه ، فليس لأمري متكلف من نصيب فى قبول السامعين ، إن المؤلفين والخطباء والشعراء إذا لم يكن تأليفهم وخطابهم جائئة بها صدورهم فإن قولهم مرفوض والسامع ياله ، وقارى كتبهم لا يميل إليها ، ولا يخامر قلبه حبها ، وفى التنزيل : « وما أنا من المتكلفين » . ثم قل تعالى (فما منكم من أحد) أيها الناس (عنه) عن قتل محمد صلى الله عليه وسلم (حاجزين) ولفظ أحد فى معنى الجاعة فلذلك وصف بالجمع (وإنه) أى القرآن (لذكر) لعظة (للتقين) إذ غيرهم لا يفتفع به (وإننا لنعلم أن منكم مكذبين) فنجازيهم عليه (وإنه لحسرة على الكافرين) حينما يرون ثواب المؤمنين (وإنه لحق اليقين) الذى لا ريب فيه (فسبح باسم ربك العظيم) أى نزه ربك العظيم واشكره إذ جعلك أهلاً لأن يوحى إليك ، أو فسبح الله بذكر اسمه العظيم تنزيهاً له عن الرضى بالثقة قول ، وشكراً على ما أوحى إليك . انتهى التفسير اللفظي للمقصد الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

إيضاح

اعلم أن هذه السورة سقت لتبين هلاك الأمم الجاهلة فى الدنيا بخرابها ، وفى الآخرة بعذابها ، إن التكذيب بالقيامة الذى بنى عليه هذان العذابان : عذاب الدنيا بخراب الدول ، وعذاب الآخرة بجهنم إنما هو عنوان على الجاهلة ، فليس خراب تلك الأمم للتكذيب بالقيامة وحده ، فقد جاء فيها أن منهم من طغف المكيال والميزان ، ومنهم من ظلم عباد الله ، ومنهم من استغنى بالذكران عن النسوان ، فاذن يرجع الأمر إلى الجاهلة ، فيصير الأمر هكذا : إن الأمم التى أقفلت عقول أبنائها وغفل رجالها تعذب عذابين : عذاباً فى الدنيا ، وعذاباً فى الآخرة ، وإذا ضرب الله مثلاً بعباد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون فذل هذه الأمم كل أمة غافلة جاهلة العواقب لم تتق ما يطرأ عليها من حوادث الدهر بأعداد المعدات وإحياء أرضها وعقول أبنائها ، ومعرفة ما فى هذه الدنيا من المنافع والعلوم ، وإذا كان جهل الآخرة التى هى غائبة عنا لم نشاهدها بوجوب عذاب جهنم ، فكيف إذن يكون جهل ما أحاط بالناس من مدمرات ومهلكات ! إنه أحرى أن يوجب الخزي فى الدارين .

وايضاحه أن الآخرة أعد فيها عذاب جهنم ونعيم الجنة ، فمن جهل هذه العاقبة دخل جهنم ، ومعلوم أن الآخرة لم يعرفها الناس بعقولهم وإنما عرفوها بكلام أنبيائهم الصادقين المؤيدين بالمعجزات ، فيقال : إذا كانت هذه حال الناس إذا كذبوا أمرا سمعيا لم يروه فكيف تكون حالهم إذا رأوا الأمم حوّلهم قد استخرجت منافع مافي الأرض وملككت منها حظا وافرا الغرضين : إحياء أمتهم وإماتة غيرهم ، فإذا هم أهملوا ما هو يقين عندهم ، وهو أن تلك الأمم المحيطة بهم ستنقض عليهم ورمما أفتتهم كما أفتى أهل أوروبا سكان أمريكا الأصليين ، واستأصل الانجليز سكان استراليا الأصليين إلا قليلا فإن العذاب يلحقهم في الدنيا بانقضاء تلك الأمم عليهم : « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

ثم إن الإيمان بالآخرة لا نتيجة له إلا العلم والعمل في الدنيا ، فأى أمة غفلت عما أحاط بها من العلوم في الأمم حوّلها ، وما دبرت من كيد ودلّ للضعفاء فإن هذه السورة تبين لها مقدار عذابها في الدنيا بذلها وفي الآخرة بجهنم .

ولقد قلنا في هذا التفسير إن المسلم إذا ظن أن العذاب خاص بأهم معلومة في الدنيا والآخرة ، وأنه هو مبرأ منه فليعلم أن هذا غرور اختلقه الوعاظ الكاذبون (انظر هذا الموضوع في سورة آل عمران عند قوله تعالى : « وغرّتهم في دينهم ما كانوا يفترون » وفي سورة البقرة عند مسألة الشفاعة) . إن سنة الله واحدة ، ولن يغيرها لأجل مسلم جاهل مغترّ في دينه . وأما تعال المسلم بأنه غير مخلد في جهنم فليعلم أن العذاب الطويل لا يطاق ، فالمسلم الذي يتكلم بهذا الاتكال يحرم من السعادة في الدنيا والآخرة ، فإذا ذكر الله ثمود وعادا ، أوقوم لوط الخ فلنا أن نذكر أيضا خراب الأندلس التي كان يعمرها المسلمون واحتلال مصر بالانجليز وبلاد شمال أفريقيا يقوم من الفرنجة ، وهكذا العراق والشام ، أليس هذا هو عذاب الدنيا ، ألم يعذب الله المسلمين بجهلهم ، نعم هم يؤمنون بالآخرة ولكنهم لا يؤمنون بالمحسوسات المشاهدة من ظلم الأمم فلا يحافظون على بلادهم ، ولا يكون ذلك إلا بالعلوم والمعارف .

أيها المسلمون : ألسنتم تسدون أن هذا عذاب من الله : أليس هذا تعجيلا للعذاب ؟ ألسنتم ترون أنكم بنومكم عن معرفة جلال الله وعظمته ، والاطلاع على آثاره وحكمته ، وبحرمانكم من خيرات ما خلق من البدائع والمنافع قد استحققتكم غضبه ، لأنكم غير شاكرين ، ولا متقبلين نعمه .
يا عجباً ! أليظن المسلم أن الله يكتفي منه بأن يقول آمنت ؟ عجباً لأمة الاسلام ! ألم يقرأ المسلمون : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » أى وهم لا يختبرون ، فهذا هو الاختبار ، اختبر عقولكم فوجدها غافلة - أحاط بها جلال الله في صنائعه ، أحاط بها أمة الفرنجة بالدفاع والطيارات ، أحاطت بها صناعات الفرنجة تدخل بلادهم فيشترونها بأغلى الأثمان فتفتقر البلاد فتصير ملكا للأجانب ، أليس هذا من الاختبار ؟ ألم يقل الله على لسان قوم ؟ « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » ، ألم يقل الله : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ، ألم يذكر الله آيات كثيرة في الحضر على النظر والتفكير في السموات والأرض ، غفل المسلمون فلم يستيقظوا ، ماتوا فلم ينتبهوا ، فقد جاء دورهم ، أفلم يقرأ المسلمون : « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » .

أفلا يعلم المسلم أن الاقتصار على جمع المال وادخاره يحبس العقل فيظلم ، وتصبح النفس مكبلة به لا انفكاك لها منه ، فيعيش للمال ويموت متحسرا عليه : أى يعيش ولا نظره في حكمة ، ولا علم ، ولا دولة ، ولا منفعة أمة من الأمم ، لأنه حوّل وجهته إلى غرض واحد هو المال ، ومن كان هذا شأنه تكون جميع أحواله راجعة

لهذا المعنى ، حتى ان كثيرا من عشاقه يعتبرهم الوسواس في آخر حياتهم ، فيقول أحدهم : أين سفنى البحرية أين قصورى ؟ أين كنوزى ؟ أين أموالى ؟ .

وإذا مات لا يفارقه هذا الوسواس ، ولا يفارقه هذا الخناس ، فهو كالقيد بالسلاسل لا خلاص له منها ولا انفكاك ، فلاه في الدنيا علم ولا عمل ، ولا فكر في أمته ، وفي الآخرة يكون على منهجه لا يتعداه ، فلا يزال في الجهالة العمياء .

حكاية

وهل لك أن أذكرك بحكاية البخيل الذى مات فى [مدينة أنجوليم] وقد رمز له بحرف (ل) وكان يسكن الطابق السفلى من داره ، فلما مرض لم يعلم أحد بمرضه ، فدخل رجال الحكومة فوجدوه شاخص البصر إلى كمية من النقود الذهبية الملقاة على مائدة أمامه ، فأخرجوه إلى المستشفى فمات ، حينئذ أحضره الجامعة الروحية بعد موته : أى أحضروا روحه ، فقال : إني لم أمت ، وكان ذلك فى ٢٥ أيلول سنة ١٨٦٣ ثم أحضره مرة أخرى ، فقال : ماذا تريدون منى ؟ الأحرى بكم أن تردوا لى مالى الذى سرقوه منى ، ما أقبح عملهم ، أنا الذى تعبت مدة حياتى كلها لأجمع قليلا من النقود أستعين بها عند الحاجة فسرقوها منى وأحلوها لى الدمار ، أرجوكم سادتى أن تأخذوا بنصرتى وتسعوا فى رد ما أخذوه منى ، فلما قيل له أنت ميت ولا تحتاج للمال ؟ قال : ماهذه الوقاحة ، هل الجنيتات فى نظركم لاتعد شيئا ، فلما ذكره بأن الأجدربه أن يبحث عن كنزه فى السماء ، ردت الروح قائلة : ما أبلدكم دلونى على المكان الذى فيه كنزى ، وكفوا عن المزاح ، فقيل له ألا تعرف الله ؟ قال : ليس لى هذا الشرف ، أريد استرجاع مالى . انتهى المقصود منه نقلا عن كتابى [الأرواح] الذى ألفته فى هذا الصدد .

أفليس هذا الغنى الذى كان المال هو المقصود الأكبر من حياته قد كبله المال فصار فى سلسلته التى كبلته فلا يقدر على الانفصال عنها ، أليس قوله تعالى : « فى سلسلة ذرعتها سبعون ذراعا فأسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » يشير لنحو هذه الحكاية وأمثالها مما فى ذلك الكتاب وغيره مما امتلأت به بلاد أوروبا كلها ، وبلاد الاسلام محرومة منه .

ألم يجعل الله وضعه فى السلسلة الطويلة للجهل واللبخل بالمال ، ولا جرم أن العقل متى كان غير منطابق من قيود الجهالة لا يعقل المنافع ، فهذا الفرنسى الذى لم ير بعد الموت أمامه إلا المال هو موضوع فى سلسلة معنوية أعظم من السلسلة الحسية ألف مرة ، إن المحبوس فى سجن قد يعيش فيه عشرات السنين ، ولكن الذى اعتراه عشق فلك قلبه وهو مطلق السراح فى الفضاء قد يموت ، وقد يقتل نفسه ، وكثير من العشاق ماتوا لأنهم حبست عقولهم فى صورة واحدة لم ينالوها ، وربما جعلت لهم سلاسل حسية وإن كانت أقل فى التعذيب من السلاسل المعنوية .

إن عذاب الدنيا والآخرة بالسلاسل والضيق والاستعباد يكون بسببين : جهل بالعقول ، وتقصير فى الأعمال وللاول الإشارة بقوله : « لا يؤمن بالله العظيم » ولثانى بقوله : « ولا يحض على طعام المسكين » . إن للعقول لذة غير لذة المال : لذة العلم ، لذة ارتقاء الأمة ، لذة النصر على أعداء الأمة ، لذة ارتقاء الصناعات الخ فما المال إلا آلة من آلات الحياة .

ايضاح السلسلة والعذاب بها

اعلم أن الناس عليهم واجبان : واجب للخلاق ، وواجب للمخلوق ، فالواجب عليهم لخالقهم أن يعرفوه

(وبعبارة أخرى) أن يدرسوا نظامه في العوالم كلها على قدر الامكان ، فالعالم بالدراسة ، والجاهل بالعبادة ، لأنها تذكر بهذا العالم في أثناء القراءة ، فان قراءة الصلوات فيها الكلام على العالمين وعلى الربوبية الخ وفيها قراءة القرآن ، ولا جرم أن القرآن مذكر لهذا العالم .

وأما الواجب للمخلوق ، فهو المساعدة العامة والمعاشرة الجيدة ، فلن يصل لله إلا بعلم وصولا حقيقيا ، أو بعبادة وصولا ثانويا إجماليا ، ولن تكون روحه في الحياة وبعد الممات فرحة بالأرواح الأخرى إلا اذا كانت تجلب لهم المساعدة ، وتتخذ مودتهم شعارا لها ، فليعاشر الناس بالأخلاق الحسنة إن لم يمكن بالمساعدة العامة لهم ، فاذن الانسان يحظى بربه ويخلق به بالعلم والعبادة أولا ، وبالفع العام والأخلاق ثانيا ، فاذا لم يوفق إلى إحداها أو كليهما فإنه في سلسلة لا تراها العيون ، ولكنها سلسلة أشد ضنكا وتعذيبا من سلسلة الحديد ، وهالك المثل المتقدم في حكاية البخيل الذي أحضر روحه : ألم يقل بعد موته انه محتاج لئله ، ألم يقل انه لا يعرف الله وليس له هذا الشرف ، أليس هذا مصداق : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ، أليس هذا الرجل أعمى في الدنيا وأعمى في الآخرة ، ألم يكن محروما من معرفة الله كما أقر بنفسه ، ومن معرفة الحياة بعد الموت ، ومن محبة الناس ، لأنه بخيل ، أليس هذا هو قوله تعالى : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين » فضلا عن أنه هو نفسه ملزم أن يواسيهم بماله ، ولعلك تقول : أين السلسلة التي في رقبته ؟ أقول لك : السلسلة هنا سلسلتان : حسية ومعنوية ، أما السلسلة المعنوية فانظر :

(١) ألت ترى أن رجلا ارتكبه الديون وهو شهير بالثروة فقام الدائنون عليه فجزوا ما يملك ، فبعض أمثال هذا يفتخرون ؟ لماذا ؟ لأنهم يفتضحون ، فم يتخلص هذا ؟ يتخلص من سلسلة معنوية أشد من السلسلة الحسية .

(٢) ألم يقل الله تعالى على لسان مريم : « يا ليتني اتت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » فاذن مريم تمت الموت وفضلته على الحياة ، لماذا ؟ لأنها وضعت في سلسلة العار التي لا تنفصل عنها .

(٣) العاشق الذي تقدم ذكره يقدم على الموت تخلصا من السلسلة العشقية التي ربطته ربطا محكما ، وكمن امرئ اعتاد شرب الدخان ، أو الخمر : أودعات أخر ، فلازمته فلم تنفك عنه حتى أوردته الهلاك ، وأمثلة هذا المقام كثيرة .

وأما السلسلة الحسية ، فهالك وصفها : انظر : ألت ترى أن القمر يدور حول الأرض ، وهي تدور حول الشمس ، وهي دائرة حول كوكب آخر ، وهكذا سلسلة متناسقة إلى أن تصل إلى الشمس الكبرى في المجرة فهذه شمس متصلة متناسقات كأنها أوراق شجرة كل جماعة في غصن ، فهذه السلسلة المركبة من شمس وسيارات وأرضين باعتبار العلم الحديث متتالية متجاذبة متماسكة تماسك حلقة السلسلة ، والانسان من بنى آدم حتى على الأرض فوق حلقة من حلقات تلك السلسلة المحيطة بها كما رصفها المفسرون ، إذ قالوا : إن السلسلة تلتف عليه وتحيط به ، فالانسان فوق هذه الأرض العائش فوق حلقة من السلسلة مربوط بها وهي محكمة عليه لا يقدر على فراق الأرض لأنه مجذوب إليها ، وهو مع ذلك جاهل بما يحيط به ، لم يخترق حجب الكون حتى يعرف فاعله ، فذلك أحكم عليه رباط السلسلة ، لأنه لا يدرس إلا ما يستجوعه ، وأما هذا الوجود فإنه عنه في غفلة ، فلا يمكنه أن ينفذ منه ويخترق حجبه ليذكر بعقله ما وراءه ، وكيف ينفذ فيعرف إلا بسلطان العلم ، وقوة النفس ، وأجنحة الهمة ، فهو من هذه الوجهة محبوس لا قدرة له على معرفة ما وراء شهواته ، فاذا مات بقي محبوسا كما هو ، لأنه لم يتزود من الأرض معارف تعينه على السير هناك ، ألا ترى قول البخيل

المتقدم : [أنا ليس لي شرف معرفة الله] ، فكأنّ الانسان في الدنيا مربوط في سلسلة عظيمة جدًا طولها آلاف الآلاف من الأميال ، بل لا يعرف مقياسها ، فاذن الواجب أمران : أولهما العلم بنظام العالم ولو بطريق العبادة ، وإليه الإشارة بقوله : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم » فهذه العظمة لا تعرف إلا بدراسة هذا العالم لكل امرئ بمقدار طاقته ، وثانيهما العمل ، وإليه الإشارة بقوله : « ولا يحض على طعام المسكين » ثم ان السلسلة حسية ، وهي هذا الوجود اذا كان مجهولاً للانسان فانه يموت وهو محبوس الفكر عن الصعود إلى ما وراء الحس . وسلسلة معنوية ، وهي مراكز في النفوس من التعلق بأمر مخصوص ، فليس للانسان من دواء إلا بالعلم بالفضائل الخلقية . انتهى تفسير سورة الحاقة يوم الجمعة ١٧ يوليو سنة ١٩٢٥ م

تفسير سورة المعارج

هي مكة

آياتها ٤٤ — نزلت بعد سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ *
تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَأَصْبَرَ صَبْرًا
جَبِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِجِ * وَتَكُونُ
الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حَمِيًّا * يُبْصَرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ
يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ
يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى * تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى *
إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا
الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ
وَالْمَخْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ *
إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَرْوَاحِهِمْ أَوْ
مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ أَتَّبَعَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ
عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ * فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ

مُطْعِمِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * فَذَرَهُمْ يَحْضُونَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ *

هذه السورة ثلاثة مقاصد

وهي أشبه بالتي قبلها ، فلذلك ذكرت عقبها ، فهي مبدوءة بوصف يوم القيامة وأهواله ، والنار وعذابها وذلك من أول السورة إلى قوله : « وجمع فأوعى » وهذا هو مقصدها الأول . ومقصدها الثاني في صفات الانسان التي أوجبت له الجحيم ، وغرائزه الفطرية التي أوجبتها ، وكيف يجتهد لازالة ذلك النقص حتى يرتقى إلى المعارج ، ويخرج من عالم المادّة ، وذلك من قوله « إن الانسان خالق هالوعا » إلى قوله : « أولئك في جنات مكرمون » . ثم المقصد الثالث فيه وعيد لأولئك الكافرين من قوله : « قال الذين كفروا قبلك مهطعين ، عن اليمين وعن الشمال عزين » إلى آخر السورة .

المقصد الأول : وصف يوم القيامة وأهواله والنار وعذابها

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين) كان أهل مكة يقول بعضهم لبعض : إن محمدا يخوفنا بالعذاب فن أهل هذا العذاب ؟ ولأن هو ؟ وكان النضر بن الحرث خاصة ونحوه يقولون : « اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » فنزلت هذه الآيات . يقول الله : دعا داع ، وطلب طالب ، كالنضر بن الحرث عذابا واقعا كائنا للكافرين ، فالباء في بعذاب زائدة ، ويجوز أن يكون كقولك : دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه فلا تكون الباء زائدة ، وقوله (ليس له دافع) أي ان العذاب واقع بهم لا محالة فلماذا يطلبونه استهزاء ؟ فيسكون في الدنيا بالقتل ، وفي الآخرة بالنار ، وقد قتل النضر بن الحرث يوم بدر ، فليس لهذا القتل ولا لعذاب الآخرة دافع يدفعه عنهم (من الله) أي برّده من جهته ، وكيف برّده وقد تعلق به إرادته ؟ (ذى المعارج) أي ذى المصاعد ، وهي الدرجات التي يصعد فيها الكلام الطيب ، وذى النعم التي تكون درجات متفاضلة ، وهي تصل إلى الخلق على مراتب مختلفة ، وذى المراتب التي جعلت حقوق الملائكة فيها ، وذى السموات التي هي درجات بعضها فوق بعض .

يقول الله : إن العذاب الذي طلبه السائلون واستبطئوه واقع بهم لا محالة ، وهو لم يفعل ذلك إلا لحكمة لأنه لم يفعل ذلك إلا ليضعهم في دركاتهم التي أهلوا لها باستعدادهم ، وهو قد نظم العوالم كلها ، فجعل منها مصاعد ، ومنها دركات ، فليكن هؤلاء في الدرجات ، وليكن المؤمنون والملائكة في الدرجات طبقا عن طبق بنظام تام . ثم أخذ يستأنف مبينا ارتفاع تلك الدرجات فقال (نخرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره

خمسین ألف سنة) قتم الملائكة لأنهم في عالم الأرواح : أي العالم المبرأ عن المادة ، وأنبيهم بالروح أي أرواح المؤمنين ، فانها تذهب صاعدة عند الموت إلى مصاعد صعدھا الملائكة ، يقتفون آثارهم على مقدار مراتبهم ، فيصعد هذان الصنفان إلى عرش الله ومهبط أمره في يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سني الدنيا ، وليس ذكر الخمسين ألف سنة ، ولا ذكر ألف سنة لتحديد بالمدة ، بل المقصود أن مقام القدس الإلهي بعيد المدى عن مقام العباد ، فهم في المادة مغموسون ، وفي أحوالها مغمورون ، وهناك عوالم أطف وأطف ، درجات بعضها فوق بعض ، وكل عالم أطف مما قبله ، وكل مالطف العالم العلوي كان أشد قربا وهكذا « وأن إلى ربك المنتهى » .

وتلك الدرجات المتتاليات لاحصر لها ، فعبّر عن هذا كله بخمسين ألف سنة ، والا فهى بعيدة المدى ، والملائكة درجات بعضها فوق بعض ، وهكذا أرواح المؤمنين وكل منهم يعرج إلى الدرجات العلى .

كأنه عز وجل يقول : ان هؤلاء اذا عذبهم فأنما لم أخلق الخلق إلا ليعبدون فيرتقوا إلى درجات القرب ويصعدوا إلى مراتب الكمال ، فأنما ذوالمعارج ، فان عذبت أهل مكة فذلك لنقص في فطرهم والا فأساس خلق العالم الارتقاء ، أنا ذوالمعارج ولست ذا الدرجات ، فالأرواح لا تزال ترتقى إلى طبقا عن طبق في الحياة وبعد الموت في البرزخ ، وبعد دخول الجنة هم يتسابقون في الاستعلاء طبقا عن طبق ، فالارتقاء دائم إلى أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، ولا ارتقاء إلا بالكشف العلمى ، وعلى لانهاية له ، وحكمته لا غاية لها ، فعبادى المخلصون لا يزالون يزدادون منى اقترابا بالعلم في الدنيا وفي البرزخ وفي الجنة ، بل أعلى درجات الجنة أن يكون الناس في عالم روحى خالص من المادة للاستغراق في العلم ، ولا معنى للقرب منى إلا بالعلم ، وشبهه العلماء بقرب الأستاذ من التلميذ ، فكما ازداد علما ازداد من أستاذه قربا ، فهذا هو العروج الذى نعرجه الأرواح ، وهذا العروج لانهاية له ، فليعد بخمسين ألف سنة ، أو فليعد بأضعافها ، فالمقصد المراتب العظيمة ، قال تعالى : اذا سألو استجبال العذاب على سبيل الاستهزاء والتكذيب بالوحى وكان هذا يورث ضجرك يا محمد (فاصبر صبرا جيلا) بلا جزع ولا شكوى ، لأنه أمر محقق وكل آت قريب (إنهم يرونه) أى العذاب (بعيدا) من الامكان ، أو من الوقوع (ونراه قريبا) أى من الامكان ، أو من الوقوع ، وقوله (يوم تكون السماء كالمهل) أى يقع يوم تكون السماء كدردى الزيت ، أو كالفضة المذابة فى تلونها (وتكون الجبال كالعهن) أى كالصوف المصبوغ ألوانا ، فان الجبال حمر وبيض وسود ، فاذا بست وفرقت وطارت فى الجوّ أشبهت العهن المنفوش اذا طيرته الريح (ولا يسأل جيم جيم) أى لا يسأل قريب قريبه لشغله بشأن نفسه ، ولا يكلمه لشدة هول ذلك اليوم حال كونهم (يبصرونهم) أى يرى الأحياء الأحياء ، والجيم فعيل يقع موقع الجمع ، فلا يسأل جيم جيم حال كونهم يشاهدونهم ، وذلك لتشاغلهم فلم يتمكنوا من التساؤل . ثم استأنف فقال : (يودّ المجرم) يتمنى المشرک (لو يفتدى من عذاب يومئذ) أى من عذاب يوم القيامة (بينه وصاحبه وأخيه) أى فلم يقف الأمر عند التشاغل عن سؤال الجيم جيمه ، بل أصبح الوضع مقابوا ، فبعد أن كان فى الدنيا يدافع عنه وربما تقدم للقتل محافظة على جيمه والدفاع عنه صار فى الآخرة يودّ أن يفتدى به ، والصاحبة : الزوجة (وفصيلته) عشيرته (التى تؤويه) تضمه ويأوى إليها (ومن فى الأرض جميعا ثم ينجي) أى يتمنى لو ملك هؤلاء جميعا ثم يفتدى بهم جميعا (كلا) لا ينجي من عذاب الله شيء (انها) الضمير مبهم يفسره (لظى) اللهب الخالص ، أو علم النار (نزاعة للشوى) أى لأطراف الانسان كاليدنين والرجلين ، أو جمع شواة ، وهى جلدة الرأس تنزعها نزعا فتفرقها ثم تعود إلى ما كانت عليه (تدعوا) تجذب وتحضر (من أدبر) عن الحق (وتولى) عن الطاعة (وجمع فأوعى) وجمع المال فجعله فى وعاء وكثره حرصا وتأميلا . وإلى هنا تم الكلام على المقصد الأول من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثاني في غرائز الانسان

ووجوب تهذيبها حتى تنجو من هذه النار التي هي في عالم المادة

وكيف يكون الصعود من الأخلاق الموجبة للنار إلى تلك المعارج ؟

قال تعالى (إن الانسان خلق هلوفا) الهلوع فسرہ الله بما بعده كما قاله ابن عباس (إذا مسه الشرّ جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا) فهو قليل الصبر ، شديد الحرص ، فهو عند مسّ المكروه سريع الجزع ، وعند مسّ الخير سريع المنع والبخل ، فهذا طبع الانسان وقد أمر بمخالفته ، فهو كفعل وقع في وحل كلما تخلص من ورطة وقع في أخرى ، فان تخلص من ضرّ أتاه الخير وبالعكس ، فكأنما الخير والشرّ سلسلة طويلة قد أحاطت به فلا ينجو منها ، فهو لا يخلو من خير أو شرّ مدة حياته يتعاقبان عليه أمد الحياة وهو موثق بهما وبتعاقبهما ، فعند الشرّ يجزع ، وعند الخير يمنع ، فهذان الخلقان يتعاقبان عليه ، فكيف الخلاص من تلك السلاسل إذن ؟ لذلك أعقبه بالخلاص منها ، وذلك بعشر خصال :

- (١) الصلاة .
- (٢) المداومة عليها في أوقاتها المعلومة .
- (٣) والحفاظة عليها إذا ابتدءوا فيها بحضور القلب ، والخشوع ، ومراعاة السنن والفرائض .
- (٤) التصديق بيوم الجزاء فيحاسب المرء نفسه في الدنيا .
- (٥) أن يعطوا من أموالهم الزكوات والصدقات لمن يسأل ولمن لا يسأل وهو فقير فيظنه الناس غنيا .
- (٦) أن يراعوا العهود والمواثيق .
- (٧) أن يؤدّوا الأمانات إلى أهلها .
- (٨) وأن يحفظوا فروجهم عن الحرام .
- (٩) أن يؤدّوا الشهادات على وجهها .
- (١٠) أن يكونوا مع هذا كله خائفين من عذاب ربهم .

فهذه الصفات العشرة هي التي تخلص الانسان من تلك السلاسل التي قيدته بها طبائعه وغرائزه التي فطر عليها وعاداته ، وكلها راجعة إلى شيئين : الحرص والجزع ، وقد لخصتها لك بترتيب غير مآراه في الآية ليسهل عليك تعقله ، فقوله تعالى (إلا المصلين) استثناء للمصلين الموصوفين بما ذكر من نوع الانسان كله كما أقسم بالعصر : أي الدهركاه : « إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فالانسان اذا ترك شأنه في خسر ، ولكنه اذا علم وهذب فهو خارج من الخسر ، وقوله (الذين هم على صلاتهم دائمون) لا يشغلهم شاغل عن أدائها في أوقاتها (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل) الذي يسأل (والمحروم) وهو من لا يسأل فيحسب غنيا فيحرم (والذين يصدقون بيوم الدين) تصديقا موجبا للثمرة المطلوبة ، وهي أن يستخر نفسه وماله في طاعة الله ومنفعة الناس ، وقوله (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) خائفون على أنفسهم (إن عذاب ربهم غير مأمون) أي لا ينبغي لأحد أن يأمن عذاب الله ، ولو أدّى هذه الطاعات كلها وزاد عليها (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين) فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) ارجع إلى تفسير هذه الآيات في سورة المؤمنين (والذين هم بشهاداتهم قائمون) يقومون بها عند الحكام ولا يكتمونها ولا يغيرونها ، والشهادة أمانة ، خصت بالذكر بعد الأمانات لعظم شأنها ، فيها

تكون الأحكام (والذين هم على صلاتهم يحافظون) فيقدمون الوضوء، وستر العورة، والمسكان الطاهر، ويقصدون الجماعة أولاً، ثم يفرغون القلب عن الوسواس والاتفات إلى ماسوى الله تعالى مع الخشوع والخوف واتمام الأركان على ما ينبغي، وأن لا يكون مرآيا، ولا قصدا السعفة (أوائك في جنات مكرمون) فيها بثواب الله تعالى، وإلى هنا تم الكلام على المقصد الثاني من السورة، والحمد لله رب العالمين.

المقصد الثالث في وعيد الكافرين

قال تعالى (فالذين كفروا قبلك) حولك (مهطعين) مسرعين مقببين إليك، مآذى أعناقهم، ومدبجى النظر إليك، متطلعين نحوك، ذلك أن جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبي صلى الله عليه وسلم يستمعون كلامه، ويستزئون به، ويكذبونه، يقول الله تعالى: ما لهم ينظرون إليك وهم جالسون عندك ولا ينتفعون بما يسمعون منك (عن اليمين وعن الشمال عزين) عن يمينك وعن شمالك فرقا شتى حقا حقا، والعزون جمع عزة، وأصلها العزوة: أى الجماعة، يقال عزاه بعزوه إذا نسبته، فكل فرقة تعزى: أى تنسب إلى غير ما تعزى إليه الأخرى (أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم) بلا إيمان، وهذا رد لقولهم: لو صح ما يقوله محمد لكنا أكثر حظا منهم فى الآخرة كما نحن كذلك فى الدنيا (كلا) ردع لهم عن هذا الطمع (إنا خلقناهم مما يعلمون) أى كيف يطعمون أن يدخلوا عالم القدس والأرواح الطاهرة وعن خلقناهم من النطفة التى نقرتها فى الأرحام، ونقلهم حالا بعد حال ولا مناسبة بين هذه الحياة وبين الحال القدسية، فلا بد من الاستكمال بالعلم والعمل (فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا نقدر أن تبدل خبرا منهم) أى نهلكهم ونأتى بخلق أفضل منهم، أو نعطي محمدا صلى الله عليه وسلم بدلهم من هو خير منكم، وقد تم ذلك بالأنصار بعد نكوص أهل مكة وكفرهم به (وما نحن بمسوقين) بمغلوبين إن أردنا أن نفعل ذلك (فذرهم يخوضوا) فى باطلهم (ويلعبوا) فى دنياهم (حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) ثم فسر ذلك فقال (يوم يخرجون من الأجداث) القبور (سراعا) مسرعين جمع سريع (كأنهم إلى نصب يوفضون) النصب كل شئ منصوب كالعلم والراية ونحوها، وكل منصوب للعبادة، ويوفضون يسرعون، والنصب كجنب وكقلب وكقطب قراءات (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) أى ذليلة أبصارهم يغشاهم هوان (ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون) يعنى يوم القيامة الذى كانوا يوعدون به فى الدنيا. انتهى التفسير اللفظى للمقصد الثالث من السورة، والحمد لله رب العالمين.

لطائف هذه السورة

- (١) فى قوله تعالى: «من الله ذى المعارج».
- (٢) وفى قوله تعالى: «إن الإنسان خلق هلوعا. إذا مسه الشر جزوعا. وإذا مسه الخير منوعا».
- (٣) وفى قوله تعالى: «إنا خلقناهم مما يعلمون» الخ.

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى: من الله ذى المعارج

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديق لى من أهل العلم، فقال: هل لك أن أقص عليك حكاية عن آبائنا الأولين تناسب هذا المقام؟ فقلت: إني لذلك واثق:

حكاية الشعبي وملك الروم

قال : قرأت في كتب الأولين أن عبد الملك بن مروان أرسل وفدا إلى ملك الروم وفيه الشعبي العالم المشهور ، فلما دخل الشعبي على ملك الروم قال له : إنكم تقولون ان الله لا أول له ، ولا شيء قبله ، وتقولون ان الانسان يأكل في الجنة ويشرب ولا يبول ولا يتغوط ، وتقولون ان نعيم الجنة لا ينفد ، فهل تقدر أن تضرب لي أمثالا مما نشاهده في الدنيا حتى يقرب ذلك من عقول الناس ؟ .

فقال الشعبي : إن الأعداد أولها الواحد ، وما الأعداد إلا الواحد المكرر ، فبتكرار الواحد حصلت الأعداد أزواجها وأفرادها ولوعدمت الأعداد لم يعدم الواحد ، ولكن لو عدم الواحد عدمت الأعداد أزواجها وأفرادها ، والواحد المذكور لا شيء قبله ، فهذا مثل يكفي لأمرين : ان الله لا شيء قبله ، وأن الموجودات منه استمدت ، وأيضا تفنى الموجودات وهو الباقي .

أما كون الانسان يأكل في الجنة ويشرب ولا يبول ولا يتغوط ، فهذا له نظير في الدنيا ، وهو الجنين في بطن أمه ، فانه لو بال وتغوط لأهلكها ، لذلك جعل الله دم الأم ممتدا إليه من عرق متصل بالسرة يمتد في سائر أطراف الجسم ، فلا بول ولا غائط له ، والأم تقوم مقامه في هذا السبيل .

وأما كون نعيم الجنة لا ينفد فإنا نشاهد السراج في الدنيا يقبس الناس منه ألف سراج ولا ينطفئ : هكذا نعيم الجنة .

فلما سمع ذلك ملك الروم ، قال : عجبت للمسلمين كيف جهلوا فلم يجعلوك ملكا عليهم ، فلما رجع إلى عبد الملك وجد الخبر عنده بتمامه ، فقال له عبد الملك : أقدرى لم قال لك : كيف جهل المسلمون فلم يجعلوك ملكا عليهم ؟ قال لا ، قال حسدني عليك أراد أن أقتلك ، ولكن خاب فأله ، وأعطاه مالا جزيلا .

فلما أتم صاحبى هذه الحكاية قال لى : هكذا هنا يذكر الله المعارج ، ومعارج الآخرة ودرجاتها لم نرها فهل تذكر لنا معارج في الدنيا حتى نقيس عليها معارج الآخرة ، وتكون معارج الدنيا مضرب أمثال لمعارج الآخرة ؟ فقلت : لأضرب لك سبعة أمثال :

[المثال الأول] السلسلة الحيوانية والنباتية والمعدنية المذكورة في هذا التفسير في مواضع كثيرة ، وقد وضحت في ﴿ سورة آل عمران ﴾ فارجع إليها ، فانك ترى هذه المعارج في الدنيا واضحة ظاهرة ، لأنك ترى المعادن درجات بعضها فوق بعض ، أدناه مما يلي التراب كالجص والزاج ، وأعلاه مما يلي النبات كالذهب والياقوت ، فكم فيها من معارج ومساعد ، ثم النبات تبتدىء فيه من خضراء الدمن ، وهى تطلع أول النهار وتببس في وقت الظهيرة ، فهذا أدنى النبات ، ويرتقى درجات إلى مرتبة النخل الذى أشبه الحيوان بأنه اذا قطعت رأسه مات ، وبأن ذكره منفصل عن أنثاه ، وهكذا يكون الحيوان ، فأدناه ما كان أدنى إلى النبات مثل قوقعة تنبت على الصخور فيها دودة على شاطئ البحار ، وليس لها من عالم الحيوان إلا الحس والحركة البسيطة ، ولكنها مغروسة في مكانها لا تبرحه ، وهى قد شاركت النبات في الحس كما هو موضح في محله ، وهكذا يرتقى الحيوان طبقا عن طبق إلى أن يصل إلى القرد فالإنسان كما عرفته مما تقدم في هذا التفسير فهذه سلسلة أدناها الجص والزاج ، وأعلاها الانسان ، ومن ذا يحصى مساعد هذه السلسلة وقد عدت الحيوان بالملايين والنبات بمئات الآلاف ، لا يحصى أحد ولا يقدر على ذلك ، فهذا مثل لمساعد الآخرة أعطاء الله للعلماء في الدنيا ، أما الجهال فأعطاهم مثلا يناسبهم ، جعل الناس درجات غنيا وفقيرا ليظهر لهم بعض تلك الدرجات بمقدار طاقتهم .

[المثال الثانى] الجنين في بطن أمه ينتقل في أطوار كثيرة ، فحين الحلقة الأولى لا يختلف عن كل حيوان

ثم يأخذ في التمايز والارتقاء طبعا عن طبق ، فيكون أولا دودة حقيرة خلزونة فسمكة ، ثم يكون كالديابات ، وهكذا إلى أن يشابه القروء ، ثم يكون انسانا ، كل هذه السلسلة ينتقل فيها وهو في بطن أمه ، وقد تقدم هذا في [سورة آل عمران] .

[المثال الثالث] : درجات الانسان بعد الوضع : يخرج من بطن أمه وهو لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر ثم يسمع ويبصر ويعقل تدريجا حتى يصل إلى انسان يفيض النور والعلم على أهل الأرض كلها باختراع أو علم أو نبوة ، أو بضيء قطعة منها كملك بالملك والسلطنة أو نحو ذلك ، فهذه مصاعد للانسان لا يحصى عددها في الحياة الدنيا ، فهذه أمثلة ثلاثة تريك المعارج في الدنيا .

[المثال الرابع] ارتقاء أحوال الناس في المال فمن صعلوك لا يملك قوته إلى متركبير يملك القناطير المقنطرة فيكون عنده مائة مليون .

[المثال الخامس : الجمال] من الناس من هو مثل في القبح ، ومنهم من هو مضرب الأمثال في الجمال ، وبينهما درجات لا تحصى .

[المثال السادس] الموجودات الحادثة منها ماهي في غاية اللطف ، وهي الأثير الذي فيه تكونت هذه المادة ، ومنها ماهي في غاية الكثافة كالحديد والذهب والحجارة الصلبة ، وبينهما درجات لا تحصى .

[المثال السابع] درجات الانسان الأخلاقية : انه يرتقى مهما كان نوعه ، كافرا أو مؤمنا ، فاسقا أو صالحا في أخلاقه ارتقاء طبيعيا ، فبعد أن كان في مبدأ حياته لا يفكر إلا في شهوته الخاصة وهو طفل ، فلما كبر وتزوج وولد أصبح مشغولا بأبنائه وبناته يسعى عليهم ويربهم ، وينجي ثروتهم ، فهذا هو الترقى في الخلق طبيعة ، لأنه انتقل من تكميل نفسه الجسمي إلى تكميل غيره الذي نسيمه إنا أو بنتا ، وهذا ارتقاء في معارج السكال جاء للناس والحيوان بالطبيعة ، ولكن الله لا يكتفي منا بذلك يريد أن يعلمنا الاستقلال فيكون ارتقاؤنا بإرادتنا وعلمنا وإلبيقنا في عالم الكون والفساد الأعشى ، والارتقاء بإرادتنا هو ماسيجي في اللطيفة الثانية ان شاء الله تعالى .

واعلم ان هذه الدرجات والمعارج الحسية إنما هي سياحات للنفس ومناظر ، بدراستها ترتقى في معارجها المعنوية إلى ربها الذي هو حاضر عندها ليس غائبا ، فبالبحث والعلم تنتقل النفس من حال إلى حال في درجات نفسية حتى إذا وصلت لمتنها لطافتها عاينت ربها ، وليس ذلك بمعارج حسية بل معنوية وما ذكرناه أمثلة لها ومدارس .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : ان الانسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إن هذه السورة كالوضحة للسورة قبلها ، فان قوله تعالى هناك « انه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين » قد وضع هنا كما فسرناه هناك ، وقلنا ما يفيد إن الإيمان يرجع للقوة العلمية ، والحض على طعام المسكين يرجع للقوة العملية ، وأن السلسلة هناك مبدؤها وسببها ما يوصف به الانسان من الجهالة بهذه العوالم فلا يدرس نظام هذه الشموش والكواكب المنتظمة التي أخذ بعضها ببعض وتجاذبت كأنها سلسلة واحدة ، فمن لم يفك نفسه من هذه العوالم إما بدراستها أو بعبادة صادقة بحضور قلب حتى يخلص لربها ، ومن لم يفك عقل نفسه عما أحيط به من اللذات والشهوات والعادات فانه لاجالة مقرون محبوس في سلسلة تلك الشهوات لا يفك عنها ، فإذامات وجد نفسه على ماهي عليه ، فالعوالم مجهولة ، وقد أحيط بها والشهوات لازالت تجاذبه ، فيخلص نفسه منها بالاحسان ، وليتقرب إلى أبناء جنسه ،

وليتفهم حتى يصعدوا معا الى معارج الكمال ، هذا خفى ما ذكر في السورة التي قبل هذه .
 فلما مبدأ السلسلة المذكورة هناك التي أوضحها هنا فانه بعد أن ذكر أن النار تنزع جلود الرموس
 أو الأيدي والأرجل ذكر أن السبب في ذلك أن الانسان مجبول على جبلات غليظة فلا صبر على بلوى
 ولا شكر على نعمة والشكر على النعمة يكون بأن يصرفها الى مصارفها التي خلقت لها ، وبين انخرج
 من ذلك بأمرين : أحدهما تقسى ، وثانيهما عملى ، أما التقسى فهو العلم الرموز له بالتصديق بيوم الدين ،
 والخوف من الله فهذان رضى بهما الى كمال النفس بالعلم والحكمة ، وأما العمل فهو الصلاة والمداومة عليها
 والمحافظة ، والزكاة ، ومراعاة العهود والمواثيق ، وأداء الشهادات على وجهها ، وحفظ الفروج .
 وملخص ما تقدم : ذكر سبب وقوع الانسان فى السلاسل بعد الموت ، وذكر الخلاص من تلك السلاسل
 ولا خلاص منها فى الآخرة إلا اذا خلص منها فى الدنيا ، فالعلم خلاص من الجهل الذى يجعل الانسان حائرا
 فى هذا الوجود ، وأدنى العلم أن يواظب على العبادة حتى يرسخ فى ذهنه أن وراء هذا العالم حالا أخرى
 بالتكرار ، ودفع الصدقات وأداء الأمانات وما أشبه مما تقدم كل ذلك تخلص للنفس من الجزع ومن
 الحرص ، فاعطاء المال مكروه عند النفس ، وأداء الشهادة فيه إغصاب للشهود عليه وجلب عداوة ، وأداء
 الأمانة قطع للطمع فيها ، وكل هذا تقطع تلك السلسلة التي قيدتنا فى هذه المادة ، والى هنا تم الكلام
 على الطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

الطيفة الثالثة فى قوله تعالى : إنا خلقناهم مما يعلمون

أى وقد علموا أنهم خلقوا من نقطة قدرة ، فأنى لهم الوصول إلى جناب القدس مالم يقطعوا مغاور ،
 ويصعدوا مصاعد ، وأنى لهم بالمصاعد والمراتب إلا بالعلم والعمل ، ولونأمل الناس درجات الحياة التي هم فيها
 وأن الطفل إذ كان فى أول حمله دودة فما مضى أربعون سنة حتى كان ذلك الطفل يدبر أمة بتمامها مثلا
 لأدركوا درجات الآخرة وعظمتها ، فإن الروح إذ تخرج من الجسد ترتقى طبقا عن طبق ، فإذا كانت المادة
 التي نحن فيها ارتقت فيها الروح الانسانية من نفس كنفس الدودة إلى نفس حكيم أنبى أو ملك فبالك به
 وقد خرج من الجسم ، فلنسمه هناك دودة فى عالم الأرواح ، وهذه الدودة ترتقى هناك ارتقاء يفوق الوصف
 اذا كانت معها المعدات التي بها تسير هناك ، وإذا كان الارتقاء فى الأرض محدودا لآثنا فى عالم المادة فالارتقاء
 هناك لا حد له يعرف ، ولا آخر يوصف ، لأنه هناك ارتقاء بالعلم ، وعلم الله لا حد له ، فالانسان لا يزال يرتقى
 فيه إلى ما لا ينأهى من الزمن .

هذا هو تفسير هذه الآيات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، فيعدون العدة بالعلم والعمل للسفر
 هناك ، والاقعدت بهم الحال ، وأوثقهم السلاسل فى العذاب ، وبقوا فى عالم المادة الكثيف .

فلما سمع صاحبي هذا البيان ، قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، إن هذا البيان يشلج الصدر
 وأنى لا أزال أقول أنه ضرب أمثال ، وضرب الأمثال ليس برهانا ، وإنما هو تقريب للأذهان ، وبأيت
 الناس يعرفون ذلك ، وأن الأرواح فعلا ترتقى فى ذلك العالم ، ولكن هذا الكلام الذى قلته أنت أشبه
 بكلام الصوفية الذين يقولونه بوجدانهم ، والوجدان ليس بدليل ، بل كثيرا ما يكون الوجدان كاذبا فلا دليل
 عليه ، وغاية الأمر أنك حليته بالعلوم الطبيعية و بعلم الانسان والنبات والحيوان والمعدن ، لأنك لكثرة
 دراستك وتأليفك فى هذه العلوم أصبحت عليك ملكة تضرب بها الأمثال ، فهل من مثال أقرب من هذا ؟
 قلت نعم : أقص عليك مختصر ما قاله روح [غالى] المشهور حين أحضرتها الجمعية النفسية ، فهذه تسم
 منها رائحة تعرفك هذه الدرجات الأخروية ، وقد ذكرتها فيما مضى فى هذا التفسير نقلتها من كتابى

[الأرواح] ، فلندكر ملخص مايناسب هنا ، فذكر :

- (١) كيف تكوّنت مادّة العالم المشاهد ؟ وذكر التجاذب والنظام ودوران الكواكب .
 - (٢) بين أن المجرة هي الأصل ، ومنها اشتقت شمس ، ومن الشمس شمس إلى شمسنا فأرضنا فقمرينا فأقمار زحل وحلقاته النيرة ، والنجوم ذوات الأذنان التي هي أشبه بالمفتشين على الشمس .
 - (٣) ثم ذكر أن هناك ألوفاً من المجرات منتشرة في أقاصي العوالم ، كل مجرة فيها ملايين من الشمس ، وأبان أن شمسنا لها أخوات يدرن معها حول شمس أخرى ، وهذه الأخرى لها أخوات يدرن جميعاً حول شمس أخرى ، وهكذا إلى أن تنقطع الفكر ، فهي كدواليب آلة واحدة . ثم قال : إن المجرات أشبه بالجزائر في بحر الأثير العظيم .
 - (٤) ووصف الفضاء والزمان فقال أنه لا حد له ، وكذب الفلاسفة الذين قالوا ان هناك حداً له ، وسخر منهم ، وقال : اتنا اذا جعنا ألوفاً في ألوف من القرون والأحقاب لا يكون هذا العدد إلا نقطة زهيدة في الأبدية ، واذا مضى من حياتنا الروحية عدد من القرون يوازي قدراً يكتب على طول خط الاستواء فإنه ينقضي هذا العدد الجسيم والنفس كأنها اليوم ولدت ، واذا أضفنا إلى العدد المذكور سلسلة أخرى من الأعداد ممتدة من الأرض إلى الشمس أو أكثر فإنه ينقضي هذا العدد الذي لا يدرك قياسه من القرون والنفس لا تتقدم يوماً واحداً إلى الأبدية فما أهمية عمر الانسان على الأرض .
 - (٥) وذكر أن الملايين من الشمس المخلوقة في المجرة القريبة حولها سيارات كسيارات شمسنا ، وأن منها شمساً كنجم [سريوس] الذي يربو حجمه وجماله ألوفاً من المرات على حجم شمسنا ونورها ، وقال : ان هناك نجومًا توائم تختلف وظائفها عن وظائف شمسنا ، ففي السيارات المحيطة بتلك الشمس المئاة لا تعدّ السنون والأيام كما في أرضنا ، وأحوال الحياة فيها يتعذر على الناس تصوورها ، ومن الشمس مالا سيارات لها ، إنما أحوال سكانها خير الأحوال .
 - (٦) وقال أيضاً : إن البعد الشاسع بيننا وبين الأجرام القاصية لا يقطعها النور إلا في ألوف الألوف من السنين ، وتصل أشعته لكم اليوم مع أنها ربما انبعثت قبل خلق الأرض بأمد مديد . ثم قال : ففي هذه كما في غيرها تظهر حقارة الانسان وعدم دنياءه ، إنما سيأتي يوم فيه يبقى ذكر الأرض في ذهننا كظلّ بخاريّ بعد أن نكون قد تدرّجنا أجيالاً لا عدد لها إلى العوالم العليا ، وحين نتأمل في المستقبل عند بلوغنا هذا الحد لا نرى نصب أعيننا إلا تعاقباً سرمدياً من العوالم وأبدية ثابتة لا انقضاء لها . انتهى خلاصة كلام روح غاليلي .
- فلما سمع ذلك صاحبي قال : يا عجبا ! أهذا كلام الأرواح ؟ لقد أصبحنا في زمان ظهرت فيه عجائب المدهشة ، فقد كان الناس يتمنون لو يسمعون كلام الأموات ويسألونهم ماذا حصل لهم ، فإن صحّ هذا كان من أعجب الأعاجيب وأبدع الحكم ، وكان أقرب إلى تفسير لفظ المعارج ، فهاهوذا أظهر لنا أن العوالم درجات وأن منها مالا نعلم بجماله كمالاً وبهاء ، وأن أرضنا الخيرة في أثناء ارتقائنا بعد الدهور والعصور لا تكون إلا ظلاً في أذهاننا ، وأن هناك حياة أرقى من حياتنا بما لا يتناهى كما كبرت شمسنا عن أرضنا ، وكما كبرت شمس أخرى وفاقت شمسنا حجماً وبهاء آلاف مؤلفة ، فالجمال والعظم لا حدّ له ولا حصر في العوالم طبقة فوق طبقة ، وجمال النظام في الحياة كذلك لا حدّ له ولا نهاية ، فظهرت المعارج في هذا المقام ظهوراً واضحاً . ثم قال صاحبي : ولعلّ هذه المعارج تكون لنا في حال البرزخ ، أما يوم القيامة فانا نخشى ونجتمع في صعيد واحد ، وهناك يكون أمر آخر .

ثم قال : وباليث روح [غاليلي] روح مسلم حتى كنا نصدق ما جاءت به ؟ فقلت له : الأرواح بعد الموت تطلع على مقدار استعدادها ، والعلم مشترك بين الأمم ، وإذا كنا نشك في قول الأرواح الفرنجية فهذه نعمة على أمم الاسلام ليزدادوا علما بالبحث في العوالم ويحضروا الأرواح ، وتكون لهم جمعيات علمية ، وإذن يبحثون بأنفسهم ، ويجتهدون في أعمالهم ، ويعثرون على ما لم يعرفه الفرنجية ، والله هو الولي الحيد ، وبهذا تم تفسير [سورة المعارج] وذلك في يوم السبت ١٨ يونيو سنة ١٩٢٥ م والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة نوح

هي مكة

آياتها ٢٨ — نزلت بعد سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأُصْرُوا نُثَبَّاتِهِمْ وَأَسْتَكْبَرُوا * أَسْتَكْبَرًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أُنْتَبِخَ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا * قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاحِمًا وَلَا يَفُوتَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا * مِمَّا

خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا *

مقاصد هذه السورة اثنان

المقصد الأول : دعوة نوح عليه السلام لقومه ، وذلك من أول السورة إلى قوله « سبلا فجاءا » .
المقصد الثاني : كفرهم وعقابهم في الدنيا والآخرة ، وذلك من قوله تعالى : « قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا » إلى آخر السورة .
أما الدعوة ففيها ثلاثة مباحث [المبحث الأول] ترك الذنوب الإيجابية والذنوب السلبية بالاستغفار منها ، فالذنوب الإيجابية كتعاطي الخمر والزنا والقتل ، والذنوب السلبية كترك العلوم والصناعات ، فإذا تركوا هذه الذنوب كلها أوجلهما أكثر الله لهم المال والبنين والبنات والأمن ، وذلك من أول السورة إلى قوله : « وقد خلقكم أطوارا » .

[المبحث الثاني] : النظر في خلق السموات والأرض والأنوار ، وذلك قوله تعالى : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا » .
[المبحث الثالث] : النظر في خلق الإنسان ، وأنه يخلق من الأرض كما يخلق النبات ، والنظر في أن الأرض مسخرة لنا نتصرف فيها كما نشاء تصرفا نتمكن به من كل ما نحتاج إليه في حياتنا ، وذلك من قوله تعالى : « والله أنبتكم من الأرض نباتا » إلى قوله « سبلا فجاءا » .

المقصد الأول : دعوة نوح لقومه

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك) أى بالإنذار (من قبل أن يأتهم عذاب أليم) الطوفان وعذاب الآخرة (قال يا قوم إني لكم نذير مبين) أى أنذركم وأبين لكم (أن اعبدوا الله) وحده (واتقوه) بأن تفعلوا الطاعات وتتركوا المعاصي (وأطيعون) فيما أمركم به من العبادة والتقوى (يغفر لكم من ذنوبكم) أى بعض ذنوبكم ، وهي السابقة (ويؤخركم إلى أجل مسمى) أى إلى منتهى آجالكم فلا يعاقبكم (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) .

اعلم أن الأنبياء جاءوا لإصلاح الأحوال في الدنيا والآخرة ، فهم يريدون نظام الحياة ونظام المدة . ولما كان نظام الحياة يكون أرقى وأجل فكلما استقامت الأمم وانتظم شملها كانت الأموال فيها أوفر إذا تم نظامها ، والأعمار تكون أطول والصحة أتم والأنهار أجل ، والبنات أكثر على مقتضى النظام الموضوع فعلى مقدار النظام يكون الهناء والسعادة في الحياة ، فمن فرط في صحته بأن أكثر من الماء كل الضارة أو ترك

الغذاء حتى هلك ، ومن قات مزارعهم وتجاراتهم فقلّ غذاؤهم قصرت أعمارهم على تلك النسبة ، ولذلك كلما كثر الجذب في الأمم قلّ التناسل ، وكلما عمّ الخصب كثر النسل ، ولا ريب أن طول الأعمار وقصرها يرجع لأسباب أكثرها مجهولة للناس ، والمعلوم منها المحافظة على الصحة ، ووفرة الغذاء ، والنظافة ، وما أشبه ذلك ، فأما ما لا يعلم فهو عند الله تعالى لا يطلعنا عليه ، فهنا ترتب على التقوى والطاعة أن تغفر ذنوبهم ، وأن تؤخر آجالهم ، ومتى جاءت الآجال التي حددها الله لهم لا تؤخر لحظة ، فالتقوى والطاعة يؤثران هذا الأثر ، وهو طهارة الأرواح وبقاء الأشباح إلى أمد محدود ، لأن التقوى منها حفظ الأمن والمساواة إلى اكتساب الفضائل واستنتاج مافي باطن الأرض من المنافع ، فالتقوى ترك الذنوب ، وذلك يجعل في البلاد أمنا واسعا ، والطاعة تشمل جلب المنافع المادية ، لأن الشكر على النعمة لا يتم إلا بمعرفتها وتقبلها من النعم وصرفها في وجوهها ، ومتى فعلوا ذلك طالت الأعمار إلى الأمد الذي يناسبها بعد انصراف الموانع بالتقوى والطاعات ، ومماثل العمر إلا كمثل جواد يجري في ميدان واسع له نهاية ، وهناك قصبة مركوزة في آخره علامة على نهاية الميدان ، والناس يتسابقون في ذلك الميدان إلى تلك القصبة المغروسة ، فمنهم من يصادفه أثناء الجري فوق جواده الذي عبرنا به عن العمر من يقتله فيختر صريعا في أول الميدان ، ومنهم من يقتل بعد ذلك وهكذا ، ولا يصل إلى آخر الميدان إلا من لم يصادفه في الطريق قاتل له ، أولم يسقط فيموت ، هكذا الناس في الحياة يسبرون إلى النهايات ، فاذا منعتهم الموانع هلكوا ، وهذا مشاهد في الدنيا كالأمّة المصرية فانها في القرن الماضي لم يكن فيها إلا مليونان أو يزيدون ، فلما جاء الحديوي [محمد علي] نظم قناطرها وجسورها ، فبانت مائة سنة ونيف حتى وصلت إلى ١٤ مليونا ، كل ذلك لحسن النظام واقامة الترع والجسور والأمن في البلاد ، فاذا جعل الله غفران الذنوب وطول الأعمار مرتبين على الطاعة فهو من هذا القبيل ، لأن الطاعة فيها الأمن في البلاد وعدم ترك الموانع الجسمية والنفسية والأرضية ، وإياك أن تسمع ما يحتاج به العامة والجهلاء وصغار العلماء إن العمر محدّد ، فتخصيص العمر منهم جهل فاضح ، لأن التحديد ليس خاصا بالعمر بل التحديد يشمل كل شيء في الوجود ، بل حركات الكواكب والأقار والشموس وأنفاس الانسان فكما مقدرة ، فتخصيص التقدير بالعمر غلط وخطأ فاحش ، فأنه قدّر كل شيء فكيف يخصه الجهلاء بالأعمار والله قدرها وقدر غيرها وكتبها عنده لم تطلع عليها وأمرنا بالسعي والطالب ، فمن سعى كما أمره الله فان هذا السعي وافق علم الله القديم فانه ينال نتائج هذا السعي فيطول عمره إلى الأمد المحدّد وتزول الموانع فلا يموت كما قدره في لوحه المحفوظ ، ومماثل النصائح التي جاءت من الديانات والحكماء والعلماء في الأمم إلا كمثل طلع النخل وطلع الأشجار الأخرى ، فانه لا يتناوله الاحصاء ، والذي يصادف الزهرات الاناث جزء قليل جدّا ، وهذا الجزء القليل به ظهرت الثمرات وسعدت الحياة ، هكذا نصائح العلماء والحكماء والديانات كثيرة جدّا ، ولكن الذي يعمل بها قليل ، ومن عمل بها وافق عمله ما كتب له ، والذي لم يعمل عرف بعد ذلك أنه قد كتب له أنه لا يعمل خرم الثمرات والمنافع التي ترتب على ذلك ، فأما من اتكل على القضاء ولم يعمل فذلك هو الخاسر الجهول الذي حكم عليه بالمذلة والهوان .

ثم قال تعالى (قال) نوح (ربّ إني دعوت قومي) إلى الايمان (ليلا ونهارا) أي دائما (فلم يزدتهم دعائي إلا فرارا) عن الايمان والطاعة (واني كلما دعوتهم) إلى الايمان والطاعة (لتغفر لهم) بسببه (جعلوا أصابعهم في آذانهم) أي سدّوا مسامعهم (واستغشوا ثيابهم) تغطوا بها لئلا يروني كراهة النظر إلىّ من فرط كراهة دعوتي (وأصرّوا) على كفرهم (واستكبروا استكبارا) عن اتباعي (ثم إني دعوتهم جهارا . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا) فكنت أعلن بأعلى صوتي ، ثم كرّرت لهم الدعاء معلنا ، فكنت أسرّ الرجل بعد الرجل أدعوه سرّا لعبادتك وتوحيدك ، ثم بين ما كان يقوله فقال

(فقلت استغفروا ربكم) والاستغفار من الذنوب الإيجابية كالقتل ، والسلبية كترك العلوم اللازمة لنظام المجموع التي هي فرض كفاية تكتفي بها الأمة عن غيرها فتعرفون ما يناسب زمانكم من العلوم والصناعات فان تركتم ذلك أئمت الأمة كلها ، وان استغفرتكم يغفر لكم ربكم (إنه كان غفارا) للتائبين (يرسل السماء عليكم مدرارا) يرسل المطر عليكم متتابعا ، واطلاق السماء على المطر جاء في قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم ✽ خلوا حينها نزل السماء

وقول الآخر :

إذا نزل السماء بأرض قوم ✽ رعيناه وان كانوا غضابا

(ويمددكم بأموال وبنين) أي يكثر أموالكم وأولادكم (ويجعل لكم جنات) بساكنين (ويجعل لكم أنهارا) وهذه هي نعم الدنيا التي يميل لها الانسان ، ومن هذا شرع الاستغفار في الاستسقاء ، ويقال : إن الحسن شكا رجلا إليه الجذب ، فقال له : استغفر الله . وشكا آخر الفقر وقلة النسل . وآخر قلة ريع أرضه ، فأمر الجميع بالاستغفار ، فسئل عن ذلك ؟ فتلا هذه الآية ، وأعلّ تكرار الاستغفار كما يحو الذنوب يستمد المستغفر من ذكر الله فيه قوة تعينه على جلب المصالح ودفع المضار ، والله أعلم ، وقد بينت لك الحقيقة آتفا .

وبعد أن أدبهم الأدب العملي من حيث تهذيب النفوس ، ومكارم الأخلاق ، وتحلية النفس بالأعمال الإنسانية والدينية التي أشار إليها الاستغفار شرع يؤدبهم الأدب العلمي بدراسة علم التشریح والنفس والعوالم العلوية والسفلية فقال : (مالكم لا ترجون لله وقارا) أي مالكم لا تخافون لله عظمة ، أو لا تعتقدون له عظمة فتخافوا عصيانه ، فالرجاء إما بمعنى الخوف مجازا ، وإما بمعنى الاعتقاد للنسبة بينهما ، وكيف لا تخافون عظمته (وقد خلقكم أطوارا) أي تارات وكرات ، فكنتم نطفة في الأرحام ، ثم صرتم علقا بعد أيام ، ثم مضى تحيرا لأفهام ، والمضغ قد غيرت إلى عظام ، وعلى العظام اللحم « أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

واعلم أن الأطوار المذكورة قد وضحت في سور كثيرة كسورة آل عمران وسورة المؤمنين وغيرها في التفسير ، وهذا هو النظر في الأنفس ، ثم أتبعه بالنظر في العالم العلو فأسفل فقال : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) فهي كالسراج تزيل ظلمة الليل . واعلم أن كون السموات سبعا طباقا بعضها فوق بعض ، والكلام على القمر والشمس قد مرّ الكلام عليه في سور كثيرة من هذا التفسير ، ففي سورة الفاتحة الاجال ، وفي البقرة وآل عمران تفصيل ، وهكذا سور كثيرة فارجع إليها (والله أنبتكم من الأرض) انباتا فنبتم (نباتا) وذلك أنكم تنمون كما ينمو النبات وتلدون وتموتون ورموسكم المرفوعة إلى أعلى كرأس النبات المعروسة في الطين ، وأيديكم وأرجلكم كأفرع النبات ، والمطلع على عروقكم وتشعبها وجرى الدم فيها وانتشارها في أطراف الجسم يراها مشابهة لما في الشجرة جذورا وفروعا وورقا ، فأتم نبات مقلوب ، وأنتم في أخلاقكم وأحوالكم مشابهون للنبات في اختلافه ، فنكم الحلو والمر ، والطيب والخبيث ، واستعدادكم مختلف كاستعداد النبات ، فلكل امرئ خاصة كما لكل نوع من النبات خاصة ، والعلوم والصناعات مقسمات على قواكم المختلفة كما قسمت المنافع من اللباس والطعام والفاكهة والدواء على أنواع النبات ، وكما أن كل نوع من النبات اذا فقد ذهب خصته على الناس وتعطلت المنافع الناتجة منه ، هكذا لكل جيل ولكل أمة ولكل فرد خاصة ومنفعة ، فاذا عطلت فقد فانت المنفعة على الأمة وعلى النوع الانساني ، وكان نقص الأمة وذوها على مقدار ضياع تلك المنفعة ، فاذا لم يكن في الأرض نبات القطن ، أو لم يكن فيها نبات الحنطة مثلا اضطر الناس ألا يلبسوا إلا من جلود الأنعام وأصوافها ورجعوا إلى العهد الأول فتأخروا في مدنيهم وتقدمهم ، وأيضارجعوا إلى أكل نبات الأرض والذرة وذهبت

منافع القمح عليهم ، وحصل في الناس بعض الضيق بفقد القمح ، هكذا النوع الانساني اذا عطلت طائفة منه فلن تقم بما وجب عليها وما يؤهلها له استعدادها نقص النوع الانساني أو الأمة المقصرة وضعف على مقدار ذلك النقص [مثال ذلك] الأمة الاسلامية اليوم : انها عطلت نصف مجموعها ، وهن النساء ، فلم يعلمن العلم ، وقد علموا أن الناس كلهم يعلمون بناتهم ، وهكذا عطلوا الصناعات فلم يقوموا بها : أي ان الرجال الذين خلقوا على استعداد أتم بفطرتهم في المسلمين لصناعة البارود مثلا ونسج الأقمشة وصهر المعادن قد عطلوا عن عملهم ، لأنهم لم يروه ولم يعرض عليهم ، لذلك أصبح نقص الأمة على مقدار النقص المذكور كما يتأخر النوع الانساني بفقد القطن والحنطة ، فهذا معنى قوله : « والله أنبتكم من الأرض نباتا » فقد جمع هذه المعاني ، ولقد أجمع علماءنا رحمهم الله : ان العلوم والصناعات فرض كفاية ، ومعنى هذا أن الأمة كلها تعاقب على التهاون بها وعدم إبرازها للوجود كعقاب النوع الانساني بفقد القطن والقمح ، ثم يوم القيامة يؤخر المجموع الاسلامي عند الله بقدر تأخره عن تلك الصناعات ، والمسلمون اليوم آثمون باجتماع علمائنا ، والإثم ظهر له أثر في الدنيا بتسلط الفرنجة علينا ، وسيظهر أثره يوم القيامة على هذه النسبة ، واذا قال المسلم لا أنا مسلم فلتقل له انما أنت مغرور : « وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون » ارجع إلى هذا المعنى في سورة [آل عمران] .

وأنت أيها الذكي القارئ لهذا التفسير فلتكن من القائمين بأمر من حولك من الأمة لأنك عرفت الحقيقة ، وإياك أن تقصر والا كان إثمك أشد من الذين لا يعلمون ، وهذا أمر سببهم ويعلموا أمر هذه الأمة علوا عظيما ، فقم واصدع بالأمر واجهر بما عرفت ، وثق بأن الأمر سيكون وسترتقى هذه الأم الاسلامية . هذا هو المستفاد من قوله تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها) مقبورين كما يعيد النبات (ويخرجكم إخراجا) بالحشر ، ثم أخذ يشرح النعم التي أعدها للإنسان في الأرض من سائر وجوه المنافع ، وانها مهياة للإنسان طائعة له مسخرة كتسخير البساط للرجل يتقاب عليه كما يشاء إشارة إلى مقدمتنا من أن عليه أن يظهر مواهبه ، ولا ظهور للواهب في القوى الانسانية إلا بالتسلط على الأرض وخيراتها فقال (والله جعل لكم الأرض بساطا) تتقلبون فيها بخلاف النبات فانه خاضع لما هو فيه قانع بما حوله من غذاء وهو مكثف به ، أما أنتم فلسنم كذلك ، بل جعلت الأرض لكم (لتسلكوا منها سبلا فجاجا) واسعة جمع فجج : أي لتتخذوا منها سبلا فجاجا ، وانما اقتصر على اتخاذ السبل لأنه أظهر أنواع الاتخاذ ، والا فالأرض جعلت لنا لمنافع لا تحصى ولا يزال الناس يجتدون في استخراجها اليوم وبعد اليوم .

وهذه الآيات أرتنا أن نوحا عليه السلام يأمر قومه بعلوم الأنفس وعلوم الآفاق من المعادن والنبات والحيوان والانسان والسموات والشموس والأقمار ، وجميع منافع الأرض .

واعلمك تقول : لماذا تذكر هذا القول عند كل مناسبة ؟ أقول : لست أنا الذي قات وانما الله هو الذي قال ، فلعلمك تقول الله ذكر الاجال فما هذا التفصيل ؟ أقول لك : لماذا يؤلف آباؤنا الأولون علماء برمتهم على آيات الميراث ، لماذا يؤلف آباؤنا كتباً مستقلة في الوقف مع أنه لم يرد إلا في الحديث ؟ لماذا يجعلون للطهارة كتابا يسمونه [كتاب الطهارة] وانما ذلك لأجل آيات محدودات ، ولماذا يقولون [كتاب الحج] مع أن الحج ليس له إلا آيات محدودات ، فلماذا تجيز تأليف كتب ملأت الشرق والغرب ، ومذاهب متشعبة في علم الفقه المبني على مائة وخمسين آية ولا تجيز أن أكتب صفحات معدودات على ما يبلغ ٧٥٠ آية في القرآن ! اللهم إن أمتنا الاسلامية غفلت غفلة عظيمة ، ونامت نوما عميقا ، اللهم إني قد عملت جهدي وأديت الأمانة إلى أهلها ، وأنت أعنتني على تأليف الكتاب ، وأنت الذي نشرته ، فلك الحمد ، وإني أرجو منك أيها

الذي أن ثبت الدعوة في هذه الأمة التي لا نصير لها ولا معين ، ولم نجد من يوضح لنا الأمر ، ولو أن الأمة رأت من يعرفها الحقيقة لكانت أول أمة على سطح هذه الكرة ، وسيكون هذا إن شاء الله تعالى ، وهذا هو نهاية الكلام على المقصد الأول من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثاني

قال تعالى (قال نوح رب إنهم عصوني) فيما أمرتهم به (واتبعوا من لم يرده ماله وولده إلا خسارا) أي واتبعوا رؤساءهم الذين بطروا بأموالهم ، واعتزوا بأولادهم ، فكان ذلك ازديادا لخسارتهم في الآخرة ، وهكذا الذين اتبعوهم خسروا مثلهم ، وعطف على [من] قوله (ونكروا مكرا كبيرا) أي كبيرا عظيما جدا ، فهم يحتالون في نيل الدين بحيل عظيمة ، ويحرفون الناس ويحرفونهم على مقاومة دعوة نوح وإيدائه (وقالوا لا تدرن آلهتكم) أي عبادتها (ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) هذه الأسماء الخمسة كانت أعظم المعبودين عند قوم نوح ، وقد كانوا قوما صالحين في الأركان بين آدم ونوح ، فلما ماتوا كان أتباعهم يثدنون بهم ويأخذون بعدهم بأخذهم في العبادة ، ثم زين لهم الشيطان أن يصوروا صورهم ، ففعلوا ظانين أن هذا أنشط للعبادة وأشوق لها ، ثم لما طال الزمن عبدوا نفس تلك الصور ، فهذا مبدأ عبادة الأوثان ، وإن أردت المزيد فارجع إلى [سورة البقرة] تجد المقال مفصلا فيها ، فترى هناك كيف كانت عبادة العبابيين موجهة أولا لللائكة ، فالكواكب ، فالأصنام في الأرض ، ويقال : إن الأصنام التي عبدها قوم نوح صارت تعبد عند العرب :

الصنم	القبيلة
ود	كلب بدومة الجندل
سواع	هذيل
يغوث	مراد و بنى غطيف بالجرف عند سبأ
يعوق	همدان
نسر	حبر : آل ذى الكلاع

يقول ابن عباس : « هذه أوثان دفنها الطوفان فاستخرجها العرب فعبدوها » وهناك أصنام أخرى هذا بيانها :

الصنم	القبيلة
اللات	ثقيف
العزى	سليم ، و غطفان ، وجشم
مناة	خزاعة ، بقديد
اساف	لأهل مكة
نائلة	» »
هبل	» »

ثم قال تعالى (وقد أضلوا كثيرا) أي أضلّ الرؤساء ، أو الأصنام (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) أي إلا هلاكا ، وقد بينه تعالى فقال (مما خطيئاتهم) أي من أجل خطيئاتهم وما زائدة (أغرقوا) بالطوفان (فأدخلوا نارا) وهو عذاب القبر وعذاب الآخرة (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) وقد كانوا يظنون أن الآلهة

أنصارهم ، غاب فأنهم ، وذلّ سمعهم (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) أى أحدا وهذه الكلمة تستعمل فى النفى العام (إنك ان تذرهم يضاعفوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) ولم يقل ذلك إلا بعد تجر بهم أجيالا (رب اغفرلى ولوالدى ولان دخل بيتى) منزلى أو مسجدى أرسفينتى (مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات) أى يوم القيامة (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) أى هلاكا . انتهى تفسير [سورة نوح] والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الجن

هى مكة

آياتها ٢٨ — نزلت بعد سورة الاعراف

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

قُلْ اَوْحِيَ اِلَىَّ اَنَّهُ اَسْتَمِعْ نَقْرًا مِنْ الْجِنِّ فَقَالُوا اِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِي اِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا اَحَدًا * وَاَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَاَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَاَنَا ظَنَنَّا اَنْ لَنْ تَقُولَ الْاِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَاَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْاِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَاَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ اَنْ لَنْ يَنْعَثَ اللَّهُ اَحَدًا * وَاَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَاَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْاَنَ يَحِذِّ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا * وَاَنَا لَا نَدْرِي اَشْرَأُ اُرِيدَ يَمْنُ فِي الْاَرْضِ اَمْ اُرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَاَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا * وَاَنَا ظَنَنَّا اَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْاَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا * وَاَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُهْدَىءَ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَاَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَنْ لَوْ اُسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا * وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ اَحَدًا * وَاَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا * قُلْ اِنَّمَا اَدْعُوا رَبِّي وَلَا اُشْرِكُ بِهِ اَحَدًا * قُلْ اِنِّى لَا اَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ

لَئِنْ لَمْ يُجِبرْنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أُجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلتَحِداً * إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ
وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا * حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ
فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا * قُلْ إِنْ أُدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ
رَبِّي أَمَدًا * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ
يَسْئَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا
لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا *

مقدمة في ملخص هذه السورة

ذكرت هذه السورة بعد سورة نوح لأن فيها تفصيلا لاجال سبق هناك ، وذلك أن سورة نوح فيها :
« استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات
ويجعل لكم أنهارا » .

فالتوبة والاستقامة ونظام الأمة يعقبه المال والبنون والجنات والأنهار ، فربما ظن الناس أن الله إذا
أعطى هذه النعم فقد رضى على الناس ، فقل في سورة الجن . كلا . ثم كلا . إنما أموالكم وأولادكم وأنهاركم
وبساتينكم فتنة ، فلا فرق عندنا بين الخير والشر في الابتلاء ، فنحن نبلى بالشر ونبتلى بالخير ، وهذا في
قوله تعالى : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه » فكأنه يقول : ليس الجنات
والأنهار والأموال والبنون المذكورة في سورة نوح نعمة من غير قيد بل هي اختبار للناس وامتحان لهم .
هذا ما يقال في المناسبة بين السورتين .

الكلام على تسمية السور

اعلم أن الله عز وجل سمي السور بأسماء تبعث على النظر وتوجب التفكير ، فسمى بالأنعام وبيعضها
كالبقرة وبالحوانات الصغيرة ، وهي الحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت ، وبما هو أطف من ذلك كالنور
كما سمي ببعض الأنبياء كيوسف ويونس وهود ، وبيعض الأخلاق كالنوبة ، وبيعض الكواكب العلوية ،
كالشمس والقمر والنجم ، وبيعض الأوقات كالليل والفجر والضحى ، وبيعض المعادن كالحديد ، وبيعض
الأماكن كالبلد والبروج ، وبيعض النبات كالتين ، وبكل شيء مما نراه وما لا نراه ، فهنا أقسم بعالم غير
هذه العوالم كلها ، وهو عالم لا نراه وهم الجن ، وهذا العالم لم يعرف في دين الإسلام إلا من طريق الوحي ،
وليس للعقل عليه من دليل ، ولقد أصبح العالم المستر عنا اليوم هو الشغل الشاغل لنوع الإنسان ، وظهرت
آيات الله الكبرى في الكرة الأرضية ، وأصبح العلماء في أوروبا يجتهدون في مباحث هذه العوالم ، راجع
ما كتبناه في [سورة البقرة] وقرأ ما هنالك تجد الأمم كلها تدرس عالم الملائكة والجن ، ويطلعون على
غوامض هذه العوالم ، ولقد نقلنا كثيرا في هذا التفسير من عجائب هذه العوالم ، ولقد حدث الناس أرواح
أصحابهم الذين ماتوا ، واتصل العالم الانساني بالعالم الجنى ، وبالعالم الأرواح الطاهرة وهم الملائكة ، فإذا سمي
الله سورة بهذا الاسم فعناه أنه قد أعطى هذا العالم الخفى عنايته وسمى السورة باسمه كما اعتنى بالحديد وهو
نوع من المعادن فسمى باسمه ، وهكذا توجهت عناية عزته وقدرته إلى النور وأنواع الحيوان والنبات

والأوقات المختلفة ، وبكل شيء نراه ولا نراه لنجد في البحث عن المعادن كلها وعن حساب الزمان ، ولا يكون هذا إلا بالعلوم الرياضية ، ولنجد أيضا في علم النبات والحيوان (وبعبارة أخرى) نلمّ بعلوم هذا العالم ، وهكذا فلنجد في علم الأرواح كما جدّ فيه العالم الغربي .

اللهم إنك أنت الذي سميت هذه السور بهذه الأسماء ، سميت لهم أسماء الأشياء المتنوعة على الأرض حيوانا ونباتا ، وفي باطنها من المعادن ، وفي الجو كالرعد ، وفي السماء كالشمس والقمر والنور ، وكالأوقات المختلفة ، ثم أنك تجاوزت علمنا وسميت باسم عالم الجن ، ذلك لتعشنا على البحث في علم الأرواح ، فإذا جرى ؟ نام المسلمون الذين أنزل عليهم الكتاب وحتمهم على هذا ، وقام بهذه الأعمال كلها الذين لا يؤمنون بهذا الدين ، فإليت شعري : أمستيقظ المسلمون أم نيام ؟ إن المسلمين اليوم وقبل اليوم بعد العصر الأول نيام ، تالله ما نزل القرآن لمجرد التلاوة ، نزل القرآن للعلم ، فإذا بحث المسلم عن شروط الصلاة وأركانها وعن فروض الوضوء فما بحث إلا في مقدمات معرفة الله لاني معرفة الله ، لأن الوضوء لأجل الصلاة ، والصلاة لأجل حضور القلب ، وحضور القلب لتذكر الله ، وتذكر الله يعد القلب للعلم ، فالعلم إذن هو الغاية ، فكيف اجتهد المسلمون في المقدمات وغفلوا عن العلوم التي هي أشبه بالغايات ، فعلم الفلك والنبات والمعدن والنور والظلام وعلم الأرواح هي العلوم المرقية للمجتمع ، الهادية للفكر ، المرقية للعقل ، التي تجلو الأنظار ، وتقلل العثار ، وتنفع الأهل والجار ، وتدفع العار ، وتوقظ التوأم ، إن علم الجن وعلم الأرواح يورث اليقين بالله وباليوم الآخر ، ويحدث في النفس أنسا وابتهاجا وانشراحا ، وسرورا وإيقانا ، وراحة وطمأنينة .

سمى الله سورة باسم الجن ليوقظ المسلمين لتعلم علم الأرواح ، وكأن الله ذكرها ليقاظنا نحن في هذا الزمان لاستكناه الحقائق ، ومعرفة الدقائق ، والوقوف على الرقائق ، والايقان بأن الموت إنما هو انتقال من حال إلى حال ، فلا تعظم على المرء سطوته ، ولا تخيفه سكرته ، ولا تزعجه نزعتة ، ولا تضيق به ساحته ، بل يستقبله بقلب مملوء بالأمال ، فارغ البال ، فرح بفك العقال ، ولعلك تقول كيف أدرس هذا العلم ؟ وكيف أخطب عالم الجن وعالم الملائكة ؟ وأين هذا العلم ؟

أقول : قد ألفت فيه كتابا سميت [كتاب الأرواح] وذكرت فيه ماجرّبه القوم في أوروبا ، وكيف أحضروا الأرواح ، وما الشروط ، وما الواجب على الانسان في ذلك ؟ وما فوائد هذا العلم ومضارّه ؟ .

وأنت اذا اطلعت عليه أمكنك استحضار أقاربك وأشياخك اذا راعيت الشروط وكنت صادق النية للعلم لا للمال ، فانك تجاب إلى طلبتك وتخطبك الأرواح كما خاطبت الأوروبيين كما نقلنا بعض العلوم التي ألقتها الأرواح عليهم ، وسأذكر إن شاء الله تعالى ملخص منهج الكتاب في آخر تفسير هذه السورة لتعرف إلى أي حد وصل نوع الانسان فيما قصر فيه المسلمون مما حتم عليه كتاب ديننا المقدس ، وكيف كان غير المسلم هو الذي بحث في مقتضى أسماء هذه السور ، والمسلم هو الذي لم يعن بشيء منها ، وهو النائم قديما المستيقظ الآن ، وسيزيد استيقاظا بنشر العلوم والآراء بين الأمم الاسلامية خصوصا والشرقية عموما .

ثم اعلم أن علماءنا رحمهم الله قد ذكروا أن الجن أجسام عاقلة خفية تغلب عليهم النارية ، ومن قال منهم انهم أرواح مجردة فهو لا ينافي ما تقدم ، لأن الأرواح المجردة منها ما هو أقرب إلى عالم المادة ، وهم هؤلاء الجن ، ومنهم من هو أقرب إلى عالم الروح : أي انه خلص من المادة ، وهم المسمون ملائكة ، ومنهم من قال : انهم هم النفوس البشرية التي ماتت ، وهذا لا ينافي القولين السابقين ، لأن النفوس البشرية من كان منهم أقرب إلى الشرّ وهو عالم المادة وذنوبه وشروره فهذا يسمى جنا ، ومن كان منهم يقرب من عالم الأرواح المجردة تجريدا تاما ، فهو ملحق بالملائكة كما قال تعالى : « يوم يقوم الروح والملائكة صفا » .

فهنا عالمان خفيان : عالم أقرب إلى الجاهلة ، وهم الجن . وعالم أقرب إلى الكمال ، وهم الملائكة ومن يقتربون منهم .

ثم انه قد جاء في علم الأرواح أن الأرواح الجاهلة تحب التقرب من نبي آدم وتستمع أحاديثهم ، وبيانه أن الأرواح التي فارقت أجسادها من نبي آدم قسيمان : قسم ارتقى في الدنيا ، فهو اذا خلص من هذا العالم الأرضي استعد للتلقي من عالم الملائكة ، لأن روحه قد استعدت بالموهب التي نالتها في الدنيا للتلقي عن عالم أرق من عالم الانسان ، وقسم مات جاهلا لا يدري من هذا الوجود إلا ما عسى حاجته ، فهذا لا يمكن أن يعقل عن الملائكة الأعلى ، فهذا يرجع إلى عالم الانسان ، لأنه أقرب إليه ، ويفهم ويعقل ما يقال من الآدميين ، لأنه لا يعرف غيرهم ، فأما العوالم الأخرى فهي محجوبة عنه كما حجبنا نحن عن عالم الملائكة المحيطين بنا الآن ، وهكذا حجبنا عن رؤية الله وهومعنا ، وحجبنا عن أن نعرف أن هنا كهرباء قبل كشفها مع أنها في أجسامنا وتحيط بنا ، هكذا تلك الأرواح التي ماتت ناقصة بسبب الكبرياء أو الطمع أو الشره فانها لا يمكنها أن تقابل الأرواح الكاملة للتلقي عنها فترجع إلى نبي آدم وتقترب منهم كما نرى الطفل يفهم من الطفل ، ونرى المرأة الجاهلة لا تعقل إلا من جاهلة مثلها ، فهكذا الأرواح الناقصة لما كانت محبوسة عن التعلم من العالم الذي هو أعلى منها اضطرت أن تسمع الكلام الذي يقال لأهل الأرض وتعاشرهم وتعقل كلامهم .

فاذا سمعت ابن عباس يقول : إن الشياطين حيل بينهم وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، وانهم رجعوا إلى قومهم وقالوا لهم حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ، وأن قومهم قالوا لهم : ماذا لك إلا من شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فرأى نفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو بنحلة عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم فقالوا : يا قومنا « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فاتمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم « قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا » الخ .

اذا سمعت هذا القول أو نحوه في البخاري ومسلم عن ابن عباس فاعلم أن هذا هو الذي أظهره علم الأرواح الحديث ، لأن الأرواح الناقصة هي التي تأخذ من الانسان لقربها من العالم الأرضي ، وهي بطبيعتها ممنوعة عن عالم الملائكة ، فلا يجوز لها ولا يتسنى أن تفهم عن العوالم العلوية إلا اختلاسا كما نرى أهل الأرض ، فإن العامة ينعون من حضور الدروس مع التلاميذ الذين استعدوا لدروس الهندسة والعلوم الأخرى ، والمنع تارة يكون بطبيعة العامة ، لأنهم لا يعرفون ما يقال فيتنحون ، وتارة بنظام المدارس وطرد من لم يكن من أهل الفن ، والعالم كله على وتيرة واحدة ونظام واحد ، فالأعمى في الدنيا الجاهل لا يناله حظ ما لم يستعد له إما بأنه هو يتركه ولا يقرب من المشتغلين به لأنه لا يفهمهم ، وإما أنهم هم يطردونه عن مجالسهم كأهل الأرض . فهذا القانون عام في الأرض من أول خلق الانسان عليها ، إذ لا يعطى الشيء إلا لمستحقه ، فهذا هو طرد الشياطين عن استراق السمع وذكر الشهب وأنهم يحترقون بها إما حقيقة وإما ضرب مثل لما ذكرناه كما في أحوال أهل الأرض .

ولما أرسل صلى الله عليه وسلم وكان للأرواح الناقصة بعض الوجهة في الاستماع من بعض الملائكة الأعلى ما قد ينتفعون به كالمواعظ التي يتلقونها اختلاسا منعوا من تلك الدروس فعلا ، وذلك لا يقاطهم إلى ما حصل في العالم الانساني الذي هم أقرب إليه فيفهمون منه أكثر مما يفهمون عن الملائكة الأعلى ، ونبينا صلى الله

عليه وسلم وان كان هو نفسه مع الملائة الأعني تعاليمه يقولها لأهل الأرض ، وأهل الأرض يفهمونها ،
فلذلك يفهمها من هم أقرب إليهم ، وهم الأرواح الناقصة ، فهذا تفسير هذا المقام وإيضاحه بحسب ماظهر من
علم الأرواح .

وقد جاء في هذا العلم أن الأرواح بعد الموت تسير في الطريق التي سارتها في الحياة ، فان كانت ناقصة
لازمها النقص ، وان كانت كاملة لازمها الكمال ، وهذه الناقصة قد تتجرد من بعض نقائصها بالنصائح التي
تسمعها من الناس أو من عالم آخر اذا استعدت لذلك ، وهذا من أعجب العجائب أن يأتي القرآن ويكون الكشف
الحديث مطابقا له ، ساريا على نهجه .

بالعجب ١ سورة الجن سورة لاتعرفها العقول ، وتبقى في أمة الاسلام ألفا وثلثمائة سنة وعشرات السنين
تتلقاها أم عن أم ، وأجيال عن أجيال ، ثم يأتي هذا العصر فتظهر الحقائق .

يا عجب ١ إن هذه من السمعيات ، وهي التي لا دليل عليها من العقل ، ثم انها تبقى محفوظة مقروءة حتى
يأتي وقتها وتظهر في أوروبا ، يظهر في أوروبا أن الأرواح الناقصة تسمع كلام الناس وتهتدي به ، وأنها
لاتعرف ما فوق طاقتها فلا تهتدي بهدي الأرواح العالية ، فيكون العالم من أهل الأرض أوالنبي قد ارتقى
في العلم ، والأرواح الناقصة المجردة من الأجسام لم تبلغ مبلغ ذلك العالم أودلك النبي فتتعلّم منه ، وتكون
تلك الأرواح أشبه بالآباء الجهال إذ يسمعون من أبنائهم المتعلمين العلم ، وحال الأرواح الناقصة بعد الموت هي
حالمهم المشاهدة في الدنيا ، فاننا نرى الجهال لا يجلسون في مجالس العلماء إلا قليلا في حال ما اذا تنزل العلماء
لاصلاح حالهم ، وفيما عدا ذلك تجد مجالس التعليم في أماكن خاصة لا يسمعها سواهم ، ولا يظهر من العلم للعامة
إلا شذرات قليلة جدا ، فهم في حياتنا الدنيا ممنوعون من السمع ، وقد يشتد المنع اذا كان في سماعهم للعلم
مفسدة كما نرى في كل دولة أسرار أعمالها الخربية ، وهم يكتمون ما يعلمون في مصالح الحكومة عن الشعب
إلا اذا صار ذلك أمرا نافذا فيظهرونه ، وكما نرى الأمم كلها شرقا وغربا لها خطط سياسية مكتوبة مكتومة
بين أرباب الدولة ، ومن أفشى سراً منها لغبرهم حاكمه ، فهذا منع من السمع في الدنيا ، وبعد الموت له
نظائر ، إذن كل هذا لحفظ الدرجات ونظام المجموع ، بل الملائكة أنفسهم درجات « ومامن إلهة مقام معلوم »
وتلك الدرجات هي المعارج ، فالمنع من السمع لحفظ المعارج لأربابها ، فلنشرع الآن في تلخيص السورة ،
ثم تفسير الألفاظ ، ثم نأتي بشذرات من علم الأرواح فنقول : ان الذي ذكر في معرض أقوال الجن ١٦
حكمة وهذا نصها :

- (١) انهم سمعوا كتابا بديعا ، وهو القرآن يهدي إلى الصواب ، فآمنوا وتركوا الشرك .
- (٢) وأن الرب تعالت عظمتهم لم يتخذ زوجة ولا ولدا كما يقول كفارا الجن والانس .
- (٣) وأن الجهال من الجن كانوا يقولون قولا متجاوزا الحد في البعد عن الصواب بالنسبة لله تعالى ،
إذ ينسبون له صاحبة والولد .
- (٤) وأنهم ما كانوا يظنون أن أحدا يكذب على الله بنسبة صاحبة والولد إليه لاعتقادهم بصدق من
يقولون هذا القول من الجن والانس ، وهذا هو عذرهم في اتباع هؤلاء الكاذبين الذين غشواهم .
- (٥) وأن رجلا من الانس كانوا يستعيذون في القفر برجال من الجن فزاد الجن الانس ضلالا
باستعازتهم بهم لظنهم أنهم يعيذونهم .
- (٦) وأن الجن ظنوا كظنكم أيها الانس أنه لن يبعث الله أحدا .
- (٧) وأن الجن طلبوا خبر العالم العلوي المعبر عنه بالسما فنعوا .

- (٨) وأن الجن كانوا يقعدون مقاعد خالية ليتمكنوا من السمع فنفعوا الآن برجم الشهب .
- (٩) وأن الجن لا يدرون ماذا يحلّ بأهل الأرض أشرّ أم خير ، لأنّ حراسة السماء ومنع السمع لا بدّ أن يكون لأمر هامّ ، فإذا رأينا الحكومة شدّت في تعطيل الجرائد ومنع بيعها في المملكة ، فذلك لا بدّ أن يكون لأمر هامّ في الدولة ، إما لنفعها وإما لضرّها ، وقد كانت الحكومات القديمة والحديثة تجتهد في منع الناس عن الأخبار الخاصة بالدولة في الأمور الهامة ، فتراهم الآن يحكمون أحكاما عرفية أثناء الاضطراب أو الحروب ، ويمنعون الناس من التلطف أو الكتابة في شيء من أسرار الدولة ، أو أحوال الحرب العامة التي تضرّ بسير الحرب ، أو بسير الأمة ، وهذا أمر متعارف في دول الأرض فهكذا دول الأرواح .
- (١٠) وأن الجن منهم الأبرار ومنهم الفجار ، فلهم مذاهب ، وهم مختلفو الأحوال .
- (١١) أن الجن علموا أنهم لن يفرّوا من أمر الله أن أراد بهم أمرا على هذه الأرض ، وأنهم لن يقدروا على الهرب منه إذا طلبهم .
- (١٢) وأنهم لما سمعوا الهدى آمنوا به ، فلو لم يكن لا ينقص ثواب عمله ولا يناله مكروه .
- (١٣) وأنهم فريقان : مسلمون ، وجأثرون عادلون عن الحقّ ، فالمسلم قصد طريق الحقّ وتوخاه ، وأما الجأثرون فانه يكون وقودا للنار يوم القيامة .
- (١٤) وأن الانس والجن إذا استقاموا على الطريقة المثلى وسع الله عليهم رزقهم واختبرهم به ، ومن أعرض عن ذكر ربه يدخله عذابا شاقا .
- (١٥) وأن المساجد لله فعلى من يدخلها أن يخلص لله فيها ولا يشرك به أحدا كما كان المشركون يفعلون
- (١٦) وأنه لما قام النبيّ صلى الله عليه وسلم يعبد الله كاد الجنّ يكونون عليه متراكبين من ازدحامهم عليه تنجبا لما رأوا من عبادته وسمعوا من قراءته .
- ولما انتهى إلى هذا المقام قال الله لنبيه : « قل إنما أدعوربي ولا أشرك به أحدا » ليبين الدعوة المذكورة في آخر أقوال الجن ومباحثهم ، والمقول له صلى الله عليه وسلم أربعة مقاصد ، وهي :
- (١) أنه بدعوربه ولا يشرك به أحدا .
- (٢) وأنه لا يملك دفع الضرّ عن الناس ، ولا يسوق إليهم رشدا ، لأن الضرّ والنافع والمرشد والمفوّى إنما هو الله .
- (٣) أنه لن يمنع أحد من الله أن عصاه ، ولن يجد ملجأ ملجأ إليه دون الله ، وكيف يعصى الله ، ومن يعص الله يدخله نار جهنم مخلدا ، ومتى جاء يوم عذابهم في الدنيا أوفى الآخرة فسيعلمون أننا أضعف ناصرا وأقلّ عددا أهم أم أنا .
- (٤) أنه صلى الله عليه وسلم لا يدري متى يكون وقت تعذيبهم ، أقرب هو أم بعيد ، فالعلم لله وحده ، ولا يطلع على غيبه أحدا ، وكما منعت الشياطين من استراق العلم الذي لا طاقة لها به ، هكذا الملائكة درجات لكل منهم علم لا يتعداه ، والأنبياء أيضا لا ينالون من العلم إلا ما أوجبه المصلحة النبوية ، فإذا علم الأنبياء بعض العلم بالغيب ، فذلك يكون معجزة له ، ثم يحرسه بالملائكة لتحفظ دعوته ، وليقوموا بإلهام الناس حفظ الشريعة بعدهم لينتم إبلاغ الدعوة وسريانها في العالم الانساني .
- هذا هو ملخص السورة إجمالا ، ولنشرع الآن في التفسير اللفظي للسورة كلها فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل) يا محمد (أوحى إلىّ أنه) أن الأمر والشأن (استمع فقر) النفر مابين الثلاثة إلى العشرة (من الجن) قد تقدّم الكلام هنا عليهم (فقالوا إنا سمعنا قرآنا) كتابا (عجبا) بديعا مبينا لكلام الناس في نظمه ودقة معناه ، والعجب مصدر بمعنى العجب (يهدي إلى الرشد) إلى الحق والصواب (فآمنا به) بالقرآن (ولن نشرك ربنا أحدا) من خالقه (وأنه تعالى جد ربنا) أي تعالى جلال ربنا وعظمته . قال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا : أي عظم قدره (ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) أي تعالى عظمة عن أن يتخذ زوجة لأنها إنما تكون للحاجة إليها ، ولا ولدا للاستئناس به (وأنه كان يقول سفيها) جاهلنا (على الله شططا) كذبا وعدوانا (وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا) أي كنا ظننا أن الإنس والجن صادقون في قولهم أن لله صاحبة وولدا ، وأنهم لا يكذبون على الله في ذلك (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) فإن الرجل كان إذا أسمى بققر قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه ، فكأن هذه الاستعاذة تزيد الجن رهقا : أي تكبرا ، وتزيد الإنس رهقا : أي ضلالا ، وأصل الرهق في كلام العرب الائم وغشيان المحرم ، ولا جرم أن الضلال أصل المحرم ، والكبر والعنوّ من المحرم (وأنهم) أي الإنس (ظنوا كما ظننتم) أيها الجن (أن لن يبعث الله أحدا) وهذا أيضا من كلام الجن بعضهم لبعض (وأنا لمسنا السماء) أي طلبنا خبرها (فوجدناها ملئت حوسا) أي حراسا ، وهو اسم جمع كالخدم (شديدا) قويا (وشهبا) جمع شهاب ، وهو المضيء المتولد من النار (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) أي مقاعد خالية عن الحرس والشهب ، أوصالحة للترصد والاستماع (فن بسمع الآن يجد له شهابا رصدا) أي شهابا راصدا له ولأجله يمنعه عن الاستماع بالرجم ، ويصح أن يكون الرصد اسم جمع لرصد : أي ذوى شهاب راصدين (وأنا لاندري أشرّ أريد بمن في الأرض) بحراسة السماء (أم أراد بهم ربهم رشدا) أي لاندري هل المقصود من المنع من الاستراق هو شرّ أريد بأهل الأرض أم أريد بهم الاصلاح ؟ وقد تقدّم إيضاحه في مقدمة تفسير السورة ، وفي التعبير بأريد في باب الشرّ ، وأراد بهم ربهم في باب الخير حسن أدب وتعليم للناس كيف يتأدّبون في القول ، فأُسند الخير لله ولم يسند الشر إليه وإن كان كل من عند الله (وأنا منا الصالحون) المؤمنون (ومنا دون ذلك) أي قوم دون ذلك (كنا طرائق متفرقة مختلفة ، وقد اجتمع قدة من قدّ إذا قطع) (وأنا ظننا) علمنا (أن لن نعجز الله في الأرض) أي لن نعجزه حال كوننا كائنين في الأرض أيها كنا فيها (وإن نعجزه هربا) هاربين منها إلى السماء (وأنا لما سمعنا الهدى) القرآن (آمنا به فن يؤمن بربه فلا يخاف) أي فهو لا يخاف (بخسا ولا رهقا) البخس النقص ، والرهق الظلم أو المكروه الذي يغشى المظالم (وأنا منا المسلمون) وهم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم (ومنا القاسطون) الجائرون العادلون عن الحق (فن أسلم فأولئك تحرّوا رشدا) أي قصدوا طريق الحق (وأما القاسطون فكانوا) في علم الله (لجهنم حطبا) وقودا (وأن لو استقاموا) أي القاسطون (على الطريقة) أي طريقة الاسلام (لأسقيناهم ماء غدقا) كثيرا : أي لو سغنا عليهم الرزق ، فإن الماء الغدق سبب سعة الرزق (لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه) يدخله (عذابا صعدا) شاقا يعاوب المعذب ويغلبه (وأن المساجد لله) مختصة به (فلا تدعوا مع الله أحدا) فلا تعبدوا فيها غيره ، والمراد بالمساجد ما يعبد الله فيها ، وبنيت لذلك

فيدخل فيها الكنائس والبيع . ولما كانت الأرض كلها مسجدا للمسلمين فعليهم ألا يبدؤا فيها غيره (وأنه لما قام عبد الله) محمد صلى الله عليه وسلم (يدعوه) يعنى يعبد الله ويقرأ القرآن ، إذ كان يصلى الفجر بطن نخلة (كادوا) أى الجن (يكونون عليه أبدا) أى يركب بعضهم بعضا من الازدحام عليه حرصا على استماع القرآن (قل إنما أدعوا ربى ولا أشرك به أحدا) فليس ذلك بيدع يوجب تعجبكم واتحادكم على مقضى وقد قالوا : قد جئت بأمر عظيم فارجع عنه فنحن نخبرك ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : [إنما أدعوا ربى ولا أشرك به أحدا] (قل انى لا أملك لكم ضررا ولا رشدا) أى لا أقدر على أن أدفع عنكم ضررا ، ولا أن أسوق إليكم رشدا ، فالله له الأمر (قل إني لن يجيرنى من الله أحد) أى لن يمنعنى منه أحد ان عصيته (وإن أجد من دونه ملتحدا) ملجأ ألتجأ إليه ، وحزرا أحتزبه ، أو مدخلا فى الأرض مثل الدرب أدخل فيه (إلا بلاغا من الله ورسالاته) أى أنا لن أجد ملجأ ألتجئ إليه إلا تبليغ رسالات الله ، فأنا ان لم أبلغها عصيت ربى ، وإن بلغتها نجوت من عذابه ، فهو يقول : لا ملجأ إلى إلا تبليغ الرسالة ، فهو الذى به أنجو من عذاب الله ، فان تركت التبليغ وقعت فى الائم الميين (ومن يعص الله ورسوله) فى الأمر بالتوحيد (فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا حتى إذا رآوا مايوعدون) فى الدنيا كوقعة بدر وما بعدها ، أوفى الآخرة (فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا ، قل إن أدري) أى ما أدري (أقرب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدا) غاية تطول مدتها ، فانهم كانوا يقولون متى هذا الوعد ؟ فكأنه يقول هو كائن لا محالة ولكن لا أدري ماوقته (عالم الغيب) هو عالم الغيب (فلا يظهر على غيبه أحدا) أى لا يطلع أحدا على الغيب المختص به هو (إلا من ارتضى من رسول) لعلمه بعضه حتى يكون معجزة للنبوة (فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) يدخل من بين يدي المرتضى ومن خلفه حراسا من الملائكة يحرسونه من كيد الشياطين وتحاليطهم (ليعلم) الذى الموحى إليه (أن قد أبلغوا رسالات ربهم) أن قد أبلغ جبريل والملائكة النازلون بالوحى ، أولي علم الله أن قد أبلغ الأنبياء رسالات ربهم : أى يظهر ابلاغ الرسالات محروسة من التغيير (وأحاط بما لديهم) بما عند الرسل (وأحصى كل شىء عددا) أى أحصى ما خلق وعرف ما خلق لم يفته شىء حتى مناقيل الذرة والخردل . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

أقوال الناس قديما وحديثا فى الجن ، وبدائع العلم الحديث فيها

وهو معجزة للقرآن ظهرت فى هذا العصر كما قال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم

حتى يتبين لهم أنه الحق »

لقد أفضت الكلام فى سور كثيرة على هذا الموضوع ، فقرأه فى [سورة البقرة] وفى [سورة آل عمران] وفى سور كثيرة ، ولقد ذكرت فى [سورة آل عمران] نبذة من خطبة [السير أوليفر لودج] من أشهر علماء الطبيعة فى هذا العصر ببلاد الانجليز ، إذ أكد على جمع من كبار العلماء فى اجتماع رسمى أنه حادث الأموات ، وأن هناك عقولا أسمى من عقولنا فى عالم الأرواح ، وأنهم يهتمون بنا ، وأن اخوانه من الجمعية الروحية الذين ماتوا كلهم بعد موتهم وبرهنوا له ببراهين قاطعة أنهم هم الذين يكلمونه ، وقال : إن كل ما يقوله الأنبياء عن عالم الأرواح وعن الله فهو حق بلا تأويل ، وقال انه اشغل بهذا الفن ٣٠ سنة فله الحق أن يحكم بما يقول ، وكذلك نقلت عن اخوان الصفاء مما ذكرته فى كتابى [الأرواح] إذ قالوا فى كتابهم المشهور : ان أرواح الأحياء بعد الموت هم الموسوسون ان كانوا أشرارا ، وهم الملهمون الناس الخير ان كانوا أخيارا ، فارجع إليه هناك إن شئت ، وهاك خلاصة ما ذكرته فى كتاب الأرواح المذكور :

(١) قال شيرمحمد في المجلس السابع : لقد جعت بين ما جاء به الدين الاسلامي والكشف الحديث ، ذلك أن القوم يقولون : إن كل علم وكل خبر وشر حاصلات في الأفئدة منشؤها الأرواح الفاضلة والناقصة ، وهو عين قوله صلى الله عليه وسلم : « في القاب لمعان : لمة من الملك ، ولة من الشيطان » وهذا مصداق آية : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » والعجب أن الفرنجة يكشفون هذا ولا يعلمون أنه مصداق دين الاسلام .

(٢) ليس على الأرض كامل ، وظاهر الفضيلة والصالح لا يدل على الكمال التام في الانسان ، ولو كان كاملا لم يسجن في هذه الأرض ، وهذا النقص في الانسان بسبب الذنوب القلبية التي لا يعرفها الناس مثل الحقد والطمع والحسد الخ .

(٣) ليس للانسان من طريقة للتخلص من وسوسة الأرواح الشريرة إلا بالفضائل ، فهي التي تطردها

(٤) الأرواح الشريرة قد تتقرب من الانسان لمقاصد رديئة ، وربما تسمع بعض نصائح الانسان عند استحضارها .

(٥) من الأرواح ما تستولى على جسد الانسان ويحاول الأطباء شفاء ظواهر ذلك الجنون في المارستان بلا طائل ، ولا فائدة إلا بالمعالجة الأدبية التي بها وحدها تخرج الروح من الجسم .

(٦) ليس في مقدور الناس طرد الأرواح من اقترابها من الناس ، لأن ذلك يفيد فوائد كثيرة .

(٧) إن ما تقدم من أن الأرواح الناقصة تهتدي بكلام البشر يناسب ما جاء في هذه السورة من قول الجن : « إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدي إلى الرشدا فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا . وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا . وأنه كان يقول سفيها على الله شططا . وأنا ظننا أن لن نقول الا أنس والجن على الله كذبا . وأنه كان رجال من الانس يعوذون رجال من الجن فزادوهم رهقا . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا » .

(٨) في الأرض أرواح أشبهت الجن في الجهل والشر ، مثل ذلك الغنى البخيل الذي مات وأحضروا روحه وقال : هاتوا لي مالي فيما تقدم في الكتاب (أي كتاب الأرواح) ومثل ذلك الروح الطائش الذي قال : أنا أسلى نفسي الخ .

(٩) وهذا قوله تعالى : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

(١٠) ومن الناس من يصدق كل ما تلقى إليه الأرواح فتسد عليه المسالك فلا يسمع النصائح من غيرها فتغشه تلك الأرواح ، وهذا قوله تعالى : « وأنه كان رجال من الانس يعوذون رجال من الجن فزادوهم رهقا » .

(١١) قول الروح : لا تغترّوا بظاهر الفضيلة فإنها تستركبرا وحقدا الخ وهذا قوله تعالى : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق » .

هذا ملخص هذا المقال ، وعسى أن نوفق في المستقبل لاصدار الملحق لهذا التفسير فنستوفي هذا المقام فيه ، ومن قرأ كتابنا [الأرواح] كفاه ، والحمد لله رب العالمين ، كتب صباح يوم الثلاثاء ٢٠ رمضان سنة ١٣٥١ هجرية — ١٧ يناير سنة ١٩٣٣ م .

ويحسن أن ننقل لك هنا أيها الذكي فهرست كتابنا [الأرواح] الذي ألفته ، لأنك تقف فيه على نجم هذا العلم ، ويظهر لك سرّ القرآن في آخر الزمان ، فليس في طاقتي في هذا التفسير أن نقل أكثر من ذلك

إن ملخص فهرس كتاب الأرواح هو ما يأتي :

قراءة هذا الكتاب تدعو إلى اليقين ، وتصفي النفس ، وتذهب الحزن : أهمّ مذاهب الهند في معرفة الله تعالى ثلاثة : قوم لا يفكرون إلا في معرفة النفس ، وقوم يقولون للعالم إله ، ولكنه مختص بتعليم الناس ، وقوم يقولون انه خالق ومنظم وعالم ومعلم ، وهذا الأخير هو الذي في كتاب القيدا ، تبيان كلام الأمم في إثبات الأرواح وفي نفيها ، بيان ثبوت الأرواح بالآيات القرآنية وبالأحاديث ، قول قدماء الفلاسفة : ان أرواح الأموات هي الملهمة للأحياء ، وهي الموسوسة لهم بأمر الله ، [عذاب القبر] من كلام الغزالي رحمه الله ، وأن الأرواح بعد الموت لها ثلاثة أحوال : أسف على فائت ، وعلى ذنب ، وخرج من الجهل . اخوان الصفاء جاء فيه أن الأرواح كالشياطين والملائكة ، اعتراضات على المؤلف وأجوبة ، استدلال المؤلف على استحضار الأرواح بآية ، وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض نكلمهم ، أسباب تحريك الموائد في استحضار الأرواح ، إحضار زهور وفواكه على أيدي الأرواح في أوروبا ، إحدى وعشرون سؤالاً وجهت إلى الأرواح في تحريك الموائد ، فأجبت بأن المغناطيسية في الانسان تساعد مغناطيسية الروح ، وتقول : إن الأحياء جهال جداً ، في الأرواح جهال كما في الأحياء ، اقرار الروح بالعذاب ، البخيل معذب ، والظالم تعذيبه حسرة ، ومن الأرواح من طلبت المساعدة لتخلص من العذاب ، آيات قرآنية مطابقة لذلك ، روحان يتيمان ضايقا من ظلهما ، الأرواح تنتقم بالوسوسة ، وتعطف على الباكين عليها ، كاهن وسيدة نجوا من الخطر بسماع هاتف ، مطابقة كلام الامام الغزالي لما تقدم . ظهور أشباح ، وسماع ألحان ، ودق آلات طرب في ألمانيا وشهدها كثيرون . الروح المزعجة والحديث معها . آراء العلماء والأحاديث الموافقة لما تقدم . وصف الأرواح للسماوات ، الجاهل في الدنيا جاهل بعد الموت ، مطابقة القرآن لذلك ، الوساطة الروحية المستعملة لأموال الدنيا ضارة ويكون فيها الكذب ، وصف الأرواح لله عز وجل ، روح غالي ووصفها انظام السماوات ، وصفها ينطبق على آية « تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ، تاريخ مناجاة الأرواح وطرق الاستحضار كالمائدة والفضجال واليد وهكذا ومجموعها ست ، أرواح تكتب بالأقلام ، ظهور روح اسمها [كاتي] وقد أعطتهم قطعاً من ثوبها ، آيات قرآنية مطابقات للشريعة الإسلامية ، آداب من يحضرون الأرواح ، التنويم المغناطيسي ، براهين سقراط على بقاء النفس ، وكيف نشأت الفكرة عند المؤلف ، وبراهين ابن مسكويه ، طرق المقلدين في أمر الروح ، كلام الروح في حب الانسانية والفلسفة ، محاوره [أوليفرلودج] مع ابنه الميت في حرب الألمان ، هل تدخن الأرواح ، وهل تشرب الخمر ؟ الأرواح لها ثياب ، فوائد الأنوار عند الأرواح ، تعليم الأرواح لأهل الأرض وموافقته للقرآن ، مناجاة الأرواح في أوروبا والاسلام ، الصوفية ينادون الملائكة بالذكر وترك اللذات ، [براى أودنج] يصف جهنم ومستقبل الأمم والدول وأوروبا ومصر والاسلام ، الميت يدهش من علمه بالموت لامن الموت ، أخلاق الميت أحاطت به بعد موته ، قاعة السكينة ، وصف الروح لجهنم كوصف القرآن . انتهى .

هذا هو ملخص فهرس كتاب الأرواح ، وإن أردت المزيد فاقراء كتباً تعد بمئات الألوف باللغات الافرنجية وتجد كتاب [على أطلال المادة] وكتاب [دائرة المعارف] كلاهما اصدقينا الأستاذ محمد فريد وجدي ، ففيهما غنية في هذا العلم ، ولعلنا ان طالت الحياة تفصل القول تفصيلاً في ملحق نؤلفه بعد تمام طبع التفسير إن شاء الله تعالى اهـ

وقبل ختام تفسير هذه السورة يحسن بنا أن نذكر هنا ما جاء في إحدى المجلات المصرية ، وهي [مجلة اللطائف المصورة] مناسبة لآية : « وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا » فقد جاء فيها تحت العنوان الآتي مانصه :

لطيفة في قوله تعالى : وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا

عدد سكان العالم

أحصى أخيرا عدد سكان الكرة الأرضية فبلغ مليارين من النفوس : أى ألفى مليون ، وقد كان في سنة ١٩١٠ م ألف وستمائة مليون فقط فبلغت الزيادة في عشرين سنة ٤٠٠ مليون نسمة ، وعدد سكان العالم موزع كما يلي :

في آسيا ٩٠٠ مليون ، وفي أوروبا ٥٠٠ مليون ، وفي أمريكا ٢٢٠ مليون ، وفي إفريقيا ١٥٠ مليون ، وفي استراليا ٨ ملايين .

وأما عدد سكان ممالك أوروبا فهو كالآتي : روسيا أوروبا ١١٥ مليون ، ألمانيا ٦٢ مليون ونصف ، وبريطانيا العظمى ٤٢٧ مليون ، إيطاليا ٤١ مليون ، فرنسا ٣٩٥ مليون ، إسبانيا ٢١٣ مليون ، بولونيا ٢٠ مليون ، رومانيا ١٧ مليون ، تشيكوسلوفاكيا ١٣٦ مليون ، المجر ٨ ملايين ، بلجيكا ٧٨ ملايين ، هولندا ٧٦ ملايين ، النمسا ٦٥ ملايين ، أسوج ٦ ملايين ، اليونان ٦ ملايين ، البرتغال ٤٥ ملايين ، بلغاريا ٥٤ ملايين ، أرنسدا ٤٢ ملايين ، استونيا ١٤ ملايين ، سويسرا ٣٩ ملايين ، فنلندا ٣ ملايين ، نروج ٢٧ مليون ، ليتوانيا ٢١ مليون ، تركيا أوروبا ٢ مليون ، ألبانيا ثلاثة أرباع المليون ، دوقية لوكسمبرج ٢٦٠ ألفا . انتهى ماجاء في المجلة المذكورة . وبهذا تم تفسير [سورة الجن] والحمد لله رب العالمين . كتب عصر يوم الأحد ١٩ يوليو سنة ١٩٢٥ — ٢٨ ذى الحجة سنة ١٣٤٣ هجرية .

تفسير سورة المزمل

هى مكة

إلا قوله تعالى : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جيلا . وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا » وقوله : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار » إلى آخر السورة ، فدنية

آياتها ٢٠ — نزلت بعد سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ أَنْ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا * وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا * وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ

هَجْرًا جَبِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا * إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمَ مَا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مَنفُطَرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا * إِنْ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * إِنْ رَبُّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلَاثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ إِنْ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًىٰ وَأَخْرُؤُنَ يَضِرُّونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَعْنُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُؤُنَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

ملخص الأحكام في هذه السورة

- (١) أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يقوم من الليل ثلثه ، أو نصفه ، أو ثلثيه ، فهو مخير بين هذه الثلاثة .
- (٢) وهو في ذلك يقرأ القرآن بتؤدة حرفاً حرفاً يقف على العالمين ، وعلى الرحيم ، وعلى الدين ، فيقطع القراءة آية آية .
- (٣) وأن يذكر ربه ليلاً ونهاراً بالتسبيح والتلهيل والتمجيد والصلاة والقراءة ودراسة العلم .
- (٤) وأن يجرد نفسه إليه عما سواه .
- (٥) وأن يتخذه وكيلاً بكل إليه أموره متى فعل ما يجب عليه فيها .
- (٦) وأن يصبر على ما يقولون فيه وفي ربه : من أنه ساحر ، أو شاعر ، وفي أن ربه له صاحبة أو ولد .
- (٧) وأن يهجرهم هجراً جليلاً ، وذلك بالمجانبة والمداراة وعدم المكافأة .
- (٨) وأن بكل أمرهم إلى الله ، فهو يكافئهم ويكفله .
- (٩) وأن يتمهل زماناً قليلاً فسيروا عاقبته وعاقبتهم .

فهذه الأمور التسعة طلبت من النبي صلى الله عليه وسلم ومن أتباعه ، ولما شق ذلك عليهم ، فقد كان الرجل يصلي الليل كله مخافة ألا يصيب ما أمر الله به من القيام . قال الله : انه يعلم أنه صلى الله عليه وسلم يقوم أقل من ثلثي الليل تارة ، ونصفه تارة أخرى ، وثلثه مرة ، وهكذا أصحابه ، واحصاء الليل شاق عليهم فلا يقدر على ضبطه ، ولا معرفة ساعاته ، فانتفخت أقدامهم من طول القيام ، فسح ذلك وأمرهم بما تيسر

من صلاة الليل ، ثم نسخ ذلك اليسير أيضا من صلاة الليل بالصلوات الخمس ، لأن المسلمين منهم المريض ، ومنهم المسافر للتجارة ، ومنهم المسافر للقتال في سبيل الله ، فهؤلاء لا يتيسر لهم القيام مع هذه الأعمال ، فالصلاة المفروضة كافية للأمة مع إيتاء الزكاة وإدامة استغفار الله في مجامع أحوالهم ، لأن الإنسان لا ينحلو من تفریط .

هذا ملخص أحكام السورة ، وناسخها ومنسوخها ، ولنشرع الآن في تفسير الألفاظ للسورة كلها فنقول ومن الله التوفيق .

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها المزمل) بفتح الميم وكسر ها ، وقرئ المزمل : أى المتلفف في ثيابه ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأنه كان نائما مرثدا مما دهشه من بدء الوحي ، إذ رجع إلى خديجة يرجف فؤاده فغوطب بهذا القول تهيبجا له ، وقد كان متلففا في قطيفة ، والمزمل كما يطلق على هذا المعنى يطلق على من تحمل الجل : أى الذى تحمل أعباء النبوة ، فهذا المعنى يؤخذ من باب الكناية تعريضا ، فهو يقول : يا أيها المتلفف بثيابه معرّضا بأنه يحمل عبئا عظيما فليقم لجل عبئه (قم الليل) أى قم إلى الصلاة وداوم عليها فيه (إلا قليلا نصفه) أى إلا نصفه ، فالنصف بدل من قليلا ، ولا جرم أن النصف قليل بالنسبة للكل (أو انقص منه قليلا) أى انقص من النصف (أوزد عليه) أى إلى الثنتين ، فيكون التخيير بين الثالث والنصف والثنتين ، وبقى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على هذه الحال يصلون بالليل اثني عشر شهرا ، ثم خفف عنهم كما تقدم إيضاحه ، فصار المفروض ما يتيسر من الصلاة بالليل ، ثم نسخ بالصلوات الخمس ، وصار قيام الليل سنة إلى يوم القيامة ، وبقى وجوبه في حق النبي صلى الله عليه وسلم (ورتل القرآن ترتيلا) أى بينه بيانا ، وقرأه على تؤدة ، وتبين حروفه بحيث يتمكن السامع من عدّه مع الوقوف على كل آية كما تقدم ، وذلك ليتمكن المصلى من حضور القلب ، والتأمل والفكر في حقائق الآيات ومعانيها ، فيستشعر العظمة والجلال بقلبه متى ذكر الله ، والرجاء والخوف عند الوعد والوعيد ، والاعتبار بالقصص والأمثال ، فنتيجة الترتيل حضور القلب ، فأما من يقرأ سورا كثيرة في ركعة بحيث يكون هذا كهذا الشعر [اهذه سرعة القطع] أى بسرعة وعجلة فذلك لاصلاة له ، ولقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بآية من القرآن وهي : « ان تعذبهم فأنهم عبادك وان تغفر لهم فأنك أنت العزيز الحكيم » وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بأنه سيأتى قوم يقرءون القرآن يقيمونه كما يقيم السهم ، يتجاولونه ولا يتأجلونه ، لا يجاوز تراقيهم ، وهي جمع ترقوة ، وهو العظم الذى بين نقرة النحر والعاتق . ويقول ابن مسعود : « قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة » (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) أى سنزل عليك القرآن وفيه الأمور الشاقة من الأوامر والنواهي عليك وعلى أتباعك ، وكما أنها تثقل عليكم في العمل فهي في نفسها راجحة الوزن ليست من سفاف الأمور وخفافها ، فهو كلام رصين ، وهو أيضا ثقل في الوحي ، فقد جاء في حديث البخارى ومسلم أن الوحي كان يأتيه صلى الله عليه وسلم أحيانا في مثل صلصلة الجرس ، وهذا أشده عليه فيفصم عنه وقد وهى ما قال ، وأحيانا يتمثل له الملك رجلا فيكلمه فيبى ما يقول ، وكان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا ، ومعنى ينفصم : يفارق ، ومعنى يتفصد عرقا يجرى عرقه كما يجرى الدم من الفصد ، فملخص ثقل القرآن في أربعة أشياء : في التكاليف ، وفي رجحان نفس القرآن من حيث

المتانة والبلاغة والمعنى ، وفي الشدة على المنافقين لما ينالهم من الغم به ، وفي ثقل الوحى وشدة عند نزوله ، فهو راجح الوزن ، ثقل الوحى ، ثقل التكليف ، ثقل على المنافقين بغيظهم (إن ناشئة الليل) أى قيام الليل (هى أشد وطأ) قرئ وطأ كغطاء ، ووطأ كقلب : أى أشد موافقة ومواطأة ، لأن القلب واللسان والسمع والبصر تكون بالليل أكثر مواطأة منها بالنهار على الأول ، وأوطأ للقيام وأسهل على المصلى للعبادة والخلو برب العباد ، فإن الليل أفرغ للقلب من النهار ، ولا يعرض له فى الليل حوائج وموانع مثل النهار ، وأمنع من الشيطان ، وأبعد من الرياء ، وذلك على الثانى وهما متقاربان ، وقوله (وأقوم قیلاً) وأثبت قراءة لأن القلب إذ ذاك حاضر ، والأصوات هادئة ، وأبين قولاً ، ثم إن الناشئة مصدر نشأ إذا قام ونهض كالغافية ، ويجوز أن يقال : النفس الناشئة التى تنهض من مضجعتها للعبادة (إن لك فى النهار سبعا طويلاً) نقاباً فى مهماتك واشتغالاتها ، فعليك بالتهجد ، فإن مناجاة الرب يعوزها الفراغ والتخلى (واذكر اسم ربك) ودم على ذكره ليلاً ونهاراً بالتسبيح والتهليل والتحميد والصلاة وقراءة القرآن (وتبتل إليه تبتيلاً) انقطع إليه بالعبادة ، وجرد إليه نفسك عما سواه ، هو (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذة وكيلاً) لأن اختصاصه بالألوهية يوجب أن توكل الأمور إليه (واصبر على ما يقولون) فيك وفى ربك مما تقدم ذكره (واهجرهم هجراً جيلاً) بالمداواة والمجانبة وعدم المكافأة (وذرنى والمسكين) دعنى وإياهم وكل أمرهم إلى ، فأنا لست فى حاجة إليك فى مكافأتهم ومجازاتهم (أولى النعمة) أرباب النعم ، وهم صناديد قریش (ومهلهم قليلاً) امهالاً أوزماناً قليلاً (إن لدينا أنكالاً) هذا علة لما قبله ، جمع نكل : قيوداً ثقيلة (وجعلنا) ناراً محرقة (وطعاماً ذا غصة) غير سائغ فى الحلق لا ينزل ولا يخرج ، وهو الزقوم وغيره (وعذاباً أليماً) وجيعاً (يوم ترجف الأرض والجبال) يتزلزلان ويتحركان ، وهو يوم القيامة (وكانت الجبال كدثيباً مهيلاً) الدثيب الرمل المجتمع ، يقال : كثبت الشيء إذا جمعه فهو كدثيب : أى مكثوب ، والمهيل هو الذى إذا أخذت منه شيئاً تبعك : أى منشورا (إنا أرسلنا إليكم) يا أهل مكة (رسولا شاهداً عليكم) يشهد عليكم يوم القيامة بالكذب والكفر (كما أرسلنا إلى فرعون رسولا) وهو موسى عليه السلام (فعصى فرعون الرسول) المتقدم (فأخذناه أخذاً وبيلاً) ثقيل (فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل ولدان شيباً) أى فكيف تتقون فى الآخرة عذاب يوم يجعل الولدان شيباً إن كفرتم فى الدنيا ، فهو يجعل الولدان شيباً من شدة هوله ، وهذا تمثيل لشدة ذلك اليوم ، فإن الهموم تضعف القوى وتسرع بالشيب ، ثم وصف اليوم بالشدة أيضاً فقال (السماء) على عظمتها وشدة إحكامها تنفطر به وتنشق فكيف يكون غيرها من الخلائق ، وقوله (منفطر) إنما ذكر على تأويل السماء بالسقف فهو منشق (به) أى يوم القيامة : أى أنها تنفطر بسبب شدة ذلك اليوم وهوله (كان وعده مفعولاً) أى وعد الله كائن (إن هذه) الآيات المشتملة على الوعيد (تذكرة) موعظة (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً) أى فمن شاء اتعظ بها واتخذ سبيلاً إلى الله بالتقوى والخشية (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثنى الليل) أى أقل منه وأكثر من النصف (ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك) أى تقوم أنت وطائفة من المؤمنين (والله يقدر الليل والنهار) إذ لا يعلم مقادير ساعاتهما على الحقيقة إلا هو (علم أن إن تحصوه) أى لن تحصوا تقدير الأوقات ، وإن تستطيعوا ضبط الساعات (فتأب عليكم) بالترخيص فى ترك القيام وعفا عنكم ورفع المشقة عنكم (فاقروا ما تيسر من القرآن) أى فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل ، فصار التهجد على أى وجه كان واجباً غير مقيد بنصف ولا غيره ، ثم نسخ بالصلاة الخمس (علم أن سيكون) أى أنه سيكون (منكم مرضى) فلا يقدر على القيام بالليل (وآخرون يضربون فى الأرض) يسافرون حال كونهم (يبتغون من فضل الله) من رزقه بالتجارة أو طلب العلم (وآخرون يقاتلون فى سبيل الله) فلا فرق فى الإسلام بين الجهاد فى قتال العدو

والجهاد في التجارة لنفع المسلمين وطلب العلم . قال ابن مسعود رضي الله عنه : « أيمار رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن الاسلام صابرا محتسبا فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء ، ثم قرأ عبد الله قوله تعالى : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله » (فاقروا ما ينسر منه) بمعنى ، صلوا وأعادوه للتكرير (وأقيموا الصلاة) المفروضة ، كأنه يقول : صلوا وداوموا على الصلاة وقوموها ، فلا تكون قلوبكم غافلة ، ولا أفعالكم خارجة عن النظام المطلوب لها (وآتوا الزكاة) الواجبة (وأقرضوا الله قرضا حسنا) بالنفقات الأخرى في سبيل الخيرات ، لأن ذلك باق لكم عند الله (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) أي تجدوا ثوابه ، وقوله (هو خيرا) مفعول ثان لتجدوه ، وهو ضمير الفصل (وأعظم أجرا) من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت (واستغفروا الله) في جميع أحوالكم (إن الله غفور رحيم) يستر على أهل الذنوب والتقصير . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

في هذه السورة لطيفتان

- (١) في قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » .
- (٢) في قوله تعالى : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله » الخ .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : ورتل القرآن ترتيلا

مع قوله تعالى : « فاقروا ما ينسر من القرآن »

فهنا أمران : قراءة القرآن ، وترتيله . أما قراءة القرآن فقد فسرها قوله تعالى : « فاقروا ما ينسر منه » أي من القرآن ، وذلك بدراسته وتحصيل حفظه ، وألا يعرض للنسيان ، فيقرأ القرآن عشر آيات في اليوم واللييلة ، أو عشرين فيهما ، أو أربعين ، أو خمسين ، أو مائة ، أو مائتي آية ، أو خمسمائة آية ، وقد ورد في كل ذلك أحاديث ، والمقصود أن الانسان لا يغفل عن قراءته ولو عشر آيات في اليوم واللييلة ، أما اذا زاد كثيرا فليس بمحمود ، ألا ترى إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما في الصحيحين قال « قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة ؟ قلت بلى يا رسول الله ولم أرد بذلك إلا الخير ، قال فصم صوم داود ، وكان أعبد الناس ، واقراء القرآن في كل شهر مرة ، قال قلت يا نبي الله : إني أطيع أفضل من ذلك ، قال فاقراه في كل عشر ، قال قلت يا رسول الله إني أطيع أفضل من ذلك ، قال فاقراه في سبع ولا تزد على ذلك » .

فقد نهى صلى الله عليه وسلم أن يتجاوز سبع القرآن كل يوم ولييلة ، فأنزله بذلك إلى سبع ما كان يقرأ في كل يوم ولييلة ، والقصد من هذا النهي أن يرتله ويقف على معناه .

ولقد ورد في الحسين آية وما قبلها من الأربعين والعشرين والعشرة أن صاحبها لا يكون من الغافلين ، وورد في المائة أنه يكون من القانتين ، وفي المائتين أن القرآن لا يحاجه ، وفي الخمسمائة أنه يكون له قنطار من الأجر ، وهذه الأحاديث وإن لم تكن في الصحاح فإنها تدلنا على ما كان عليه آبؤنا في الصدر الأول . أما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص فهو في الصحيحين .

الكلام على ترتيل القرآن

وأما ترتيله فقد مر بيانه ، وملخصه :

- (١) انها تكون مدا .
 (٢) وأن يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم بمدّ بيسم الله ، ومدّ بالرحمن ، ومدّ بالرحيم .
 (٣) وتتلون القراءة مفسرة حرفا حرفا .
 (٤) ويقول [الحمد لله رب العالمين] ويقف .
 (٥) ويقول [الرحمن الرحيم] ثم يقف ، ويقول [مالك يوم الدين] ثم يقف ، ومعنى هذا أنه يقطع قراءته آية آية ، وبروى أنه صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة كان يقرأ على ناقته سورة الفتح فرجع في قراءته .

هذا ملخص ما جاء في أحاديث البخارى والنسائى والترمذى ومسلم ، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله

هاأنذا نقلت لك كلام ابن مسعود في تفسير هذه الآية : أن التاجر الصالح يكون كالمجاهد ، وأقول لك الآن ما قاله ابن عمر : ما خلق الله مودة أموتها بعد القتل في سبيل الله أحب إلى من أن أموت بين شعبي جبل أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله .

فهذا عبد الله بن مسعود ، وهذا ابن عمر كلاهما يفسر الآية بهذا ، فقد سويا بين السفر اطلب الرزق وبين الجهاد ، وأن الموت في كل منهما شهادة ، وإذا كنا نسمع الأئمة رضى الله عنهم يستدلون بقوله تعالى « فاعتبروا ياأولى الأبصار » على ربح الأحكام الفقهية ، وهو القياس ، لأن أصول الفقه ترجع إلى الأربعة : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس . فإذا كان ربح علم الفقه يرجع إلى القياس المبني على هذه الآية فكيف يكون الأمر بالآية التي نحن فيها ؟ وهى قوله تعالى : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله » ؟

يا ليت شعري : ماذا يكون في هذه الآية للمسلمين الذين هم الآن ثلثمائة وستون مليونا ؟ هؤلاء المسلمون الذين أخنى عليهم الدهر ، لماذا ؟ لأن تعاليمهم ناقصة براء ، إن علماء الاسلام قد دفنت منهم هذه الآية دفنا ، ومعنى هذا أنهم واروها عن العيون ودفنوها بين دفتي المصحف : أى لم يظهروها للأمة الاسلامية مشروحة كما شرحت الصلاة والزكاة .

أيها المسلمون : عجبت لكم ! كيف تكون الصلاة ؟ وكيف تكون الزكاة ؟ فوالله لازكاة ولا صلاة ولا حج ولا علم ولا عمل اذا لم يكن عند الأمة ثروة ، إذن تكون الثروة والقوة مقدمتان على الزكاة وعلى الحج ، ومن أين يزكى الناس إلا اذا كان عندهم مال ، ومن أين يحجون اذا لم يكن عندهم مال ، بل كيف يصلون اذا كانوا جباغا لامال عندهم ، بل كيف يصلون ويصومون ويحجون اذا لم تكن بلادهم آمنة مطمئنة ، ولاتكون البلاد آمنة مطمئنة من لصوصها في الداخل ، ومن أعدائها في الخارج ، إلا اذا كانت الدولة ذات مدافع وطائرات وجيوش جرارة ، وكيف يتم ذلك إلا بعامل ونظام وحكومة ؟ .

يا أمة الاسلام : أليس ذلك كله قبل الزكاة : أى ان وجود المال مقدم على وجود الزكاة والحج والجهاد في سبيل الله .

يا أمة الاسلام : ألم يقل الفقهاء : [إن ملائمتهم الواجب إلا به فهو واجب] وقد استنتجوا من هذه

القاعدة فروعاً كثيرة ، منها أن الانسان اذا غسل يديه إلى المرفقين يجب عليه أن يغسل وراء المرفقين جزءاً من باب ملائمة الواجب إلا به فهو واجب ، بل هم قالوا أيضاً قولاً اجالياً : إن العلوم والصناعات كلها واجبة على الأمة وجوباً كفاً .

فليخصص لكل علم ولكل صناعة طائفة من الأمة يكون استعدادهم أفضل لذلك من غيرهم ، لقد راعى الله ذلك وأراد فذكر المضرب في الأرض والانتقاء من فضله قبل أن يذكر الجهد . فكأنه جعل اكمال الامور المعاشية مقدماً على الجهاد ، فهو إذن كاطهارة التي لا تصح الصلاة إلا بها ، فإذا قل الذمائم : انه يجب على المصلي أن يقدم الطهارة تصح الصلاة فليقل علماء الاسلام الآن بأعلى صوت : ليقدم علوم الصناعة والسياسة والتجارة واستخراج المعادن ، وعلوم طبقات الأرض ، وعلوم نظام الأمم أوروبا ، وعلوم نظام المدارس ، وعلوم نظام الطيران في الجو ، وعلوم السفن في البحر ، وعلوم الريج . وعلوم الكهرباء ، وعلوم المغناطيس ، وعلوم القواصت ، وعلوم الغازات الخائفة ، وعلوم الكواكب الثابتة ، وعلوم الكواكب السيارة ، وعلوم النبات ، وعلوم الحيوان ، وعلوم الطب ، وعلوم البيطرة ، إلى غير ذلك .

ليقل علماء الاسلام : فليقدم هذه العلوم وهذه الصناعات على المدافعة عن الأوطان التي هي بعض أنواع الجهاد . إذا لم تكن المدافعة عن البلاد اليوم إلا بهذه العلوم وبهذه الصناعات ، وإذا كان الجهاد واجباً ، فهذه مقدماته ، وملائمة الواجب إلا به فهو واجب ، وإنما الفرق بين هذه العلوم وبين الوضوء للصلاة أن الوضوء يجب على الفرد وأن هذه العلوم يجب على المجموع . إن المسلمين ناموا عن الواجب الكفائي الذي يعم الأمة كلها غفلة وجهالة ، أو ما علموا أن فرض الكفاية إذا ماتت الأمة . أما فرض العين فإنه إذا مات لم يستصّر به إلا الذي أهمل فيه ، ففرض الكفاية عظيم جداً جليل ثمرته جليلة ، والثواب عليه لا حد له ، وضياح البلاد والعباد مرتب على اهماله ، ولذلك نرى أن أمتنا الاسلامية لما جهلت هذا الفرض تخطفتها أم أوروبا .

أمة الاسلام التي نراها اليوم ساكنة ساكنة وأمم أوروبا تتفق معا تقتل أهل مراکش الذين يحاربون مع الأمير عبد الكريم ، حتى أن أميركا أرسلت طائرات لمساعدة فرنسا وإسبانيا ضده ، وأنا أكتب هذه السطور ، وأمم الاسلام لضعفها وقلة الحكماء فيها لا تبدي حراً كالجملها وخوفها من أوروبا ، ولأن أغلب بلاد الاسلام في أيدي الفرنجة ، ألا قاتل الله الجهالة .

فيأله : كيف غفل العلماء قديماً ؟ استغفروا الله ، انهم ما غفلوا ، ان ماقلته مستمند من كلامهم ، ولكن أقول : أهملوا ، أهملوا ، أهملوا : أي أهمل الأمر صغارهم ، أما حكماؤهم فقد رخصوه ولم يصل لعامة المسلمين . ترك العلماء ملوك الاسلام يجيشون الجيوش ويقهرون الأعداء بقوة السياسة والسيف ، ولم يساعدوا العلماء بما يقوى أركان دولهم ، كان يجب أن يشوا في الشعب ما ذكر في بطن الكتب أن ذلك كانه جهاد ، كان يجب أن ينتشر في البلاد ، كان يجب أن تؤلف له كتب كالألف للصلاة والزكاة والبيوع والفرائض .

فيأليت شعري من أين يكون بيوع أو موارث أو قضايا وعبادات إذا لم تكن البلاد فيها كل ما تحتاج إليه ؟ فكيف أظننا نحن المسلمين في الثمرات ولم نطل في الشجرات ، الثمرات هي الشرائع والأحكام والعبادات كالهبة والميراث والبيع والصلاة والزكاة ، ولم نطل في الأصول : أي في الأشياء نفسها المحلولة كالنبات والحيوان والمعادن والزراعة والتجارة والسياسة والعلوم الحديثة والقديمة ، لم نطل في هذه مع أنه لا دين ولا شرع إلا بعد توافر تلك الأسباب كما جعلت الطهارة قبل الصلاة ، فمن لم يتوضأ للصلاة له ، هكذا في الأمم إذا لم يكن لديها ما تحتاج إليه بمسألة زمانها فلا شرعية لها ولا جهاد ولا عبادات ولا بيوع ، لأن مرافقها تصبح بيد غيرها ، وتكون محبوسة في يد دولة أجنبية تذلها وتفعل بها ما فعل الانسان في الحيوان من ذبح وحل عليه

علم الله أن أمة الاسلام ستدسى هذه الواجبات بغفلة صغار العلماء ، وعلم أننا سنصبح في يد أوروبا فأنزل هذه الآيات لتتفطن لها وتقرأها وتفهم معناها ، فقدم الضرب في الأرض والابتغاء من فضل الله على الجهاد من باب تقديم المقدمات على النتائج ، وتقديم الوضوء على الصلاة ، وقد أخذ الشافعي رضي الله عنه في الوضوء بحديث : « ابدءوا بما بدأ الله به » ولذلك أوجب غسل الوجه قبل غسل اليدين ، وهكذا ما بعدهما مراعاة لهذا الحديث ، وإذا كانت مسألة الوضوء التي لا تخرب دولة إذا قدم الوجه على اليدين أو بالعكس قد تحترى لها الأئمة إلى هذا الحد وقدموا ما قدمه الله ، أفلا يكون ما يقال هناك يقال هنا ، وهو أن نظام الأمة يجب العناية به حتى يتسنى لنا الجهاد ، إذ لا جهاد إلا بما يقيم أمر البلاد من تجارة وصناعة وزراعة وإصلاح طرق وكهرباء وبحار وقطارات حديدية وهكذا مما لا يمكن حصره الآن من العلوم .

ولعلك تقول : هناك أمور واجبة وهنا أمر مباح ، تقول : إن هذا هو الخطأ في الفهم ، هذا المباح الذي ذكرته قد أقررت بأنه فرض كفاية فأصبح واجبا على الأمة ، فلا بد من أن الحكومات الاسلامية تخصص لكل طائفة من الأمة أعمالا مما تجب في الوقت الذي هي فيه ، ولعلك تذكر ما نقلته عن مدارس أمريكا في [سورة آل عمران] وأنهم يعلمون في المدارس من الصناعات التي تبغ نحو سبعة آلاف صنعة نحو مائتي صنعة لتلاميذ المدارس ، وأن الصناعات عامة هناك ، وأن الصانع هناك يعتبر كالهندس وكالطبيب وكالقاضي وما أشبه ذلك .

لعمرك ان هذا هو الحق ، وان هذا هو ديننا ، ديننا الذي يقال فيه : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله » العلم ، يبتغون من فضل الله الصناعة : المعدن من الأرض ، طبقات الأرض ، سياسة الأمم ، علوم الجوّ ، علوم السفن ، وهكذا مما أسلفناه ، كل هذه داخلة في قوله : « يبتغون من فضل الله » وجعل الذين يقاتلون في سبيل الله فريقا ، وهذا الفريق آخره ، وانما آخره لأجلنا نحن الآن لأجل أن أقول في هذا التفسير لكم اقرءوا كلام ابن مسعود ، واقرأوا كلام ابن عمرو بن العاص وانظروا أليس المعنى عندهما هو ما قرأناه ؟ ولأجل أن أقول : قد قدم الله هذه العلوم والصناعات على الجهاد كما قدم الوضوء على الصلاة ليعلم المسلم أنه ان حفر في طبقات الأرض لاستخراج المعادن فهو في سبيل الله ، وان تاجر فهو مجاهد في سبيل الله ، وان قرأ علم البيطرة فهو مجاهد في سبيل الله ، وان قرأ علم النبات فهو مجاهد في سبيل الله ، وان قرأ علم الحيوان فهو مجاهد في سبيل الله ، وان قرأ علم السياسة فهو مجاهد في سبيل الله ، وان قرأ علم الطيارات فهو مجاهد في سبيل الله ، وان قرأ القواصات فهو مجاهد في سبيل الله ، وان قرأ علم الفلك فهو مجاهد في سبيل الله ، بل هو مقدم على من يقاتل الأعداء ، لأنه لا يتم قتال العدو إلا بهذه العلوم ، ومن أصلح الطرق الحديدية وأتى عليها بالقطارات فهو مجاهد في سبيل الله ، وهكذا ، فيا ليت شعري لم لا نؤلف كتب لهذا كثيرة ؟ انتهى .

قاعدة عامة لحياة الأمم

اعلم أن الله عز وجل لما خلقنا في الأرض أعطانا مواهب ، وهي الأعضاء والحواس والعقول ، وأعطانا منحة خارجية ، وهي الأرض وما أقلت ، والسماء وما أظلت ، وأوجب علينا أن نستعمل النعمتين : نعمة أنفسنا ، ونعمة الآفاق ، فيجب علينا أن نقوى الأعضاء كاليدين والرجلين وسائر الأعضاء بالتمرين والحركات العضلية والمشي ، أو الأعمال في الصناعات ، وأن نبحت فيما حولنا ، وفي الأرض والسماء ، لنستخرج ما كمن فيهما من المواهب الطبيعية والفلكية ، وهكذا لنقوى حاسة السمع والبصر فينا ، وهكذا قوة الخيال والذاكرة

والمفكرة والحافظة والواهمة ، وقوة اليد بالكتابة والصناعات ، فاذن يجب علينا تقوية الأعضاء الخارجة والحواس الظاهرة والحواس الباطنة بالطرق العلمية المذكورة في محالها . كل ذلك مأخوذ من قوله تعالى : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاولون في سبيل الله » .

العبادة والأعمال الأخرى

هذه [سورة المزمل] ابتدئت بالعبادة والصلاة بالليل ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يصلون نصف الليل ، أو أكثر أو أقل ، متى كان ذلك ؟ كان ذلك قبل أن يستفحل أمر الاسلام ، وتقوم الدولة على أساس متين ، فلما اتسع نطاق المسلمين هاجروا قوم إلى الحبشة ، وآخرون إلى المدينة ، واتسع نطاق التجارة ، فلما حصل ذلك وسع الله لهم نطاق العمل ، فبعد أن كان صلاته في جوف الليل تستغرق ثلثيه أو نصفه أصبح القوم فرقا شتى : ففرقة شغلها أمر التجارة ، وفرقة شغلها أمر الجهاد وهكذا ، لذلك وسع الله أمر الطاعة وجعلها شاملة كاملة ، وأفاد الناس أن هذه الأعمال هي من طاعات الله ، بل أقول ان الأمر فوق ذلك فانا اذا وجدنا انسانا يصلح لعلوم الزراعة ، أولئفس الزراعة ، أولأى عمل من الأعمال ، ووجدناه اشتغل بالعبادة أو الصوم وجب قهره والضغط عليه وعقابه ليتخذ له عملا لسعادة نفسه وأمة ، فن قدر على علم أو صناعة نافعة للعموم فذلك أفضل ، فان عجز فليعمل عملا نافعا في تجارة ، أو اغانة للمهوف ، أو نحو ذلك ، فان عجز عن هذا كله فليلتزم العبادات ليلا ونهارا ، فان الصحابة لما لم يتسع نطاق أعمالهم كفوا بالعبادات الشاقة ، فلما كثرت عليهم الأعمال وقويت شوكتهم عملوا وعد ذلك من الجهاد ، ولو كان الانهماك في العبادة أفضل لأمر الله بذلك ، ولكن الله صرف الناس عن المشاق في صلاة الليل إلى المشاق في التجارة عند الاقتضاء فذلك هو أفضل من صلوات النوافل ، فلا فرق بين علم وعلم ، ولا بين صناعة وصناعة ، كل ذلك حقا أفضل من العبادة كما قاله علماؤنا ، وكما نص عليه الامام الغزالي في [بداية الهداية] .

فعلى حكام المسلمين أن يقهروا رجال الصوفية جميعا على الأعمال ، وأن يستخرجوا أناسا يصلحون للأعمال من التكايا ليعملوا أوليتعلموا صناعات أو علوما نافعة للأمة ، وحرام أن يترك المسلمون سهوا بدون ضابط ولا قانون .

جلّ الله : يقول الله في أول السورة : « يا أيها المزمل قم الليل لإقليا » أخرجه وأخرج أصحابه من فراشهم إلى الصلاة ، ثم أخرجهم من الصلاة : أي من الاكثار منها إلى الجهاد العام الذي يشمل كل علم وكل صناعة ، كأنه تعالى بهذه الإشارة يقول : اذا كان نبيكم وهو مزمل في ثيابه وهو أكثركم طاعة قد أمرناه بالقيام فهكذا أنتم وأنتم أقل منه طاعة لنخرجكم إلى العبادات وإلى الأعمال وأن تكونوا كالمرسلين ، النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن كاسلا قط ، بل كان مستمرا في طاعة ربه على دين الخليل وقد نزل له الوحي ولما ارتجف فؤاده وزملوه في ثيابه أمره أن يقوم الليل فن باب أولى أمته الذين هم مقصرون في جميع أعمالهم حثهم الله على العمل وعلى العبادات ، وكأنه يقول : اذا كان النبي قد زمل في ثيابه لحظة قد أمرته بالعمل فكيف بكم وأنتم لانهملون وكل الأمم حولكم عاملة ؟ فأنتم كأنكم مزملون في ثيابكم أبدا ، فقوموا للعبادة وقوموا لغيرها من علم وصناعة .

ومن عجب أنه لم يقرن الجهاد وابتغاء الفضل من الأرض والعبادة كلها معا في سورة واحدة إلا هذه ، ولم يظهر في سورة فضل الضرب في الأرض مثل ما ظهر في هذه السورة ، فكأن لفظ المزمل تشير إلى أن كل ما يوجب الانقطاع عن العمل العام والعمل الخاص يجب أن يتخلص منه ، فكأن هذه السورة نزلت لحث الأمة على الأعمال كلها ، بل ان النبي صلى الله عليه وسلم مرسل لنا وقصّ الكلام علينا لارشادنا ، فان

هذا القرآن الآن إنما هولنا نحن الأحياء نفتق به ، إن نزل هذه السورة بهذا الترتيب عجيب يوجب عليهم القيام بالليل ثم ينسخ الوجوب عليهم ويبقى على النبي صلى الله عليه وسلم ويوجههم إلى الأعمال العامة ، لماذا هذا كله ؟ ولماذا يقص علينا ؟ لابد أن يكون المقصد أن ننظر نحن الآن ، فكما اتسعت أعمال الأمة شمرنا عن ساعد الجد وفتحنا أبواباً لأعمال جديدة ولا تقف عند حد ، والله فتح لنا الباب فقال انظروا ها أناذا شغلهم أولاً بالعبادة ثم فرقهم فرقا للعبادة وللعلم وللجهاد وللتجارة ، فهكذا أنتم افعلوا ما فعلته أنا مع الصحابة ، فإن لم يكن إلا العبادة فيها ، وإن كانت لكم دولة وأمة واتسع نطاق الأعمال فلا تدعوها وترجعوا للمساجد ، بل انتشروا في الأرض وابتغوا من فضلي ، وأما صلاة الليل فهي نافذة لكم ، فافعلوا منها ما تقدرون عليه ، وإياكم أن تشغلكم عما يهمكم من أمور الحياة الدنيا .

لقد تدهورت الأمة الإسلامية اليوم بالنسبة لقراءة القرآن ، وخالفت ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح وما أمر الله به في القرآن ، أليس من المحزن أن المسلمين اليوم في مصر وما يماثلها يحفظون القرآن ويقرءونه صباحاً ومساءً يهذونه هذاً : أي يسرعون فيه اسراعاً مع أن القرآن جاء لتفكر فيه ، وانظر كيف يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرأ في شهر ، ولما أطال ابن عمر القول عليه قال لا تزد عن سبعة أيام : أي إن ذلك أقل مما يمكن الفهم فيه .

إن الأمة الإسلامية منيت ورزئت بطائفة من المحدثين أيام العصر الأول اخترعوا أحاديث ودونوها ، وزعموا أنهم بها يتقربون لله تعالى ، وذكروا فيها فضائل وصفات وثواب لمن قرأ سورة كذا ، فظن الناس أن هذا حق فدرجوا عليه وقرءوا القرآن وهذوه هذاً : أي أسرعوا في قراءته ، وهذا واضح في كتاب [الاتقان في علوم القرآن] فأصبحت الأمة اليوم فرقتين : فريق لا يهتم بهذا الدين ولا بالقرآن ، وفريق يقرأ القرآن ولا يتدبره ، ويقرؤه قوم في رمضان مسرعين ، ويقرءون القرآن في كل ثلاثة أيام ، أليس هذا من الجهالة العمياء ، قوم يحفظون القرآن ولا يعقلون ، وقوم لا يؤمنون بهذا الدين ، وهم أكثر من درسوا العلوم بأوروبا ، فالقرءاء والعباد قلوبهم في غطاء وهم عنوان الاسلام ، فالناظر إليهم يقول هؤلاء عنوان الدين ، وما هم بعنوان الدين ، وإنما هم جهال الدين .

مزية الاسلام في مستقبل الزمان

مزية الاسلام أنه سيعمل بهذه السورة وتفرق الأعمال على مجموع الأمة كما ظهر في [سورة البقرة] ووضح هناك فاقراء ، وأن تكون جميع العلوم منظورة فيها جهة الحياة الدنيا وجهة خالقها ، فتكون كل حرفة وكل علم مشوقاً إلى خالق هذا العالم على نحو ما بينا في هذا التفسير فيكون رجال الدين من هذه الأمة ملهمين بأكثر العلوم إجمالاً ، وعليه يبعثون في كل علم هم أربابه إلى استكناه حقائقه مع التشويق لمبدعه من طريق هذا العلم والصناعة التي يكون المرء قائماً بها ، والمتصفح لهذا التفسير يقدر أن يفعل ذلك في كل علم وكل صناعة ، فإن فيه من كل فن طرقاً مطبقة على الدين مذكورة فيه الجهة الإلهية المعشقة للقيام بالأقدس ، وهذه المزية توجب النبوغ في العلوم ، وتكون هذه الأمة أرقى الأمم وأعلاها علوماً وصناعات .

غرور المسلمين اليوم

كم من مسلم سمع حديثاً مروياً في فضل الحج ، أوفى فضل الصلاة ، أوفى فضل قراءة القرآن ، أوفى فضل الصدقة ، أوفى فضل عيادة المريض فها هو له عقله ، وسؤلت له نفسه ، ودله شيخه أن الانقطاع إلى تلك الطاعة والاكتثار منها أفضل ، وحينئذ يصبح ذلك المسلم مغروراً ، إن المغرورين من المسلمين قد أوضحناهم

في سورة [آل عمران] عند قوله تعالى : « وغرّتهم في دينهم ما كانوا يفترون » فقد لخصنا ما قاله الامام الغزالي هناك ، واستبان في ذلك المقام أن المسلمين اليوم مغترون ، وهذا الغرور ورناء عن القرون المتأخرة إذ أصبح المسلمون لامرشدين لهم فتركوا وشأنهم يتخبطون في دياجير الجهالة ، واستنم كل فريق في طاعة من الطاعات ، فكل واحد من صالحى الأمة أصبح مشغولا بعمل من الأعمال الصالحة كقراءة الأوراد التى وضعها الشيوخ ، وكالحج ، وكقراءة القرآن ، ويكثرون من ذلك ، ويتركون الأمة ولا يفكرون فيها ، ولا فى صناعاتها ، ولا فى علومها ، ولا فيما يحفظ كيانها .

كل ذلك ابتلاء من الله للأمة ، وسيقيض من قرأ هذا التفسير ومن غيرهم من يفهمون الأمة أن العلوم كلها والصناعات عبادات وجهاد ، وأن قوله تعالى « يبتغون من فضل الله » بعد قوله « وآخرون يضربون فى الأرض » يشمل كل علم وكل صناعة ، وأن اختيار لفظ « من فضل الله » وعدم ذكر لفظ التجارة التى كانت أهم أغراض الصحابة فى الأعمال الدنيوية قد نظر فيه من جناب القدس الأعلى إلى مانحن فيه الآن ، ففضل الله أعم من العلوم والصناعات وكل ما يحتاج إليه فى هذه الحياة الدنيا .

انظر ما تقدم فى سورة [آل عمران] فهناك تفصيل المغرورين كما ذكرت لك وتفصيل ما يجب على الأمة من تعميم العلوم الخ وكيف يتحد أبناء العرب من مراكش إلى العراق ، وكيف كانوا متفرقين بالجهالة ، فكمن من امرئ قرأ الأحاديث الموضوعة ، أو الضعيفة المروية فى فضل عمل من الأعمال وقوت على نفسه وعلى أمته مزايا نفسه وما أنطوت عليه من شمائل شريفة ، ومزايا منيفة ، وعلوم لطيفة ، وصناعات دقيقة ، وجهل أن هذه المذكورات من أجل ما يبتغى دين الاسلام .

نام العلماء ولم يذيعوا أمثال ما نقله السيوطى رحمه الله فى كتاب الاتقان عن قوم من محدثين ، وكيف كثر فى القرون الأولى وذاع وملا الأصقاع ، تلك الأحاديث الواردة فى فضل السور القرآنية وقراءتها ، وكيف كان أحد التابعين يدهش حينما يسمع تلك الروايات ، فركب ناقته وسافر أياما وأياما وقابل الراوى الذى روى الحديث ، فدلّه على من تلقاه عنه ، فسافر إليه عشرات الأيام ، كل ذلك وهو يضرب فى الأرض يبتغى احقاق الحق وابطال الباطل حتى وصل إلى من أذاع هذا الحديث ، فوجده رجلا زاهدا صالحا ، فقال له : كيف تقول انك رويت كذا عن فلان وأنا لم أرو عنه ؟ فقال ذلك الصالح : اننى أنا الذى زوّرت هذه الأحاديث لوجه الله تعالى ، فقال وكيف ذلك ؟ قال : لأنى وجدت المسلمين قد أكبوا على علم الفقه الذى أذاعه أبو حنيفة النعمان ، خفت أن يترك المسلمون القرآن اذا اشتغلوا بعلم أبى حنيفة ، فقلت هذه الأحاديث ورويتها وأذعتها ليحفظ القرآن ، فأكثر المسلمين اليوم مسحورون بأمثال تلك الأحاديث وهم ناركون لشئون دينهم ، ثم ان القرآن يقرأ لمجرد التلاوة لا للفهم ، وهذه من الطامات الكبرى .

إن الله خلقنا فى الأرض ورزقنا مواهب بدنية ، وانعمأ أرضية ، ومنحنا سماوية ، وقال : يا عبادى : هذه نعمى فاشكروها ، وهذه آياتى فابتغوها ، وهذه أرضى فاضربوا فيها ، وزينوا أنفسكم بالعلوم والصناعات ، واستخرجوا كنوزى ، فانى وعزّتى وجلالى ما خلفتها باطلا ، ولا أودعتها أرضكم لتكون عبثا عليها بل عائدة ، فلم خلقت فيكم الأسماع والأبصار ، ولم علمتكم سبل الاستبصار ، ولم زوّدتكم بنعمة العقل ، ودقة السمع ، وبهجة البصر ، وأعطيتمكم أقوى سلاح من الأضياء الظاهرة والجوارح القوية ، ومكنتكم فى الأرض تمكيننا وسلطتمكم عليها تسليطا ، وقلت لكم : هاهى هذه أرضى فاعمروها ، وهذه حواسكم وجوارحكم فلا تهملوها ، وأنزلت عليكم فى كتابكم وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضلى فيها .

ويقول للمسلمين : لا عقولكم انبعتموها ، ولا آياتى فهمتموها ، ولا حواسكم توليتموها ، ولا

ولاجوارحكم مرتبها ، فهل أعطى نعيم لأجل جهلكم ، أو أبقى أرضي بلا زرع لغفلتكم ؟ كلا . فأنا الحكيم العليم ، فإن توليتكم عن اصلاح حواسكم وجوارحكم وعمارة أرضكم بطشت بكم وسلحتها لغيركم جزاء وفاقا ، الأرض أرضي ، والناس عبادي ، وأنا عالم من هو الذي يصلح لاستخراج ثمراتها والقيام بأمرها ، فهذا هو الذي أسلمه قيادها .

أيها المسلمون : كنتم قديما أولى من غيركم فسلمتكم قياد أرضي ، والآن وجدت تعاليمكم مشوهة ، وعلومكم منحرفة ، ودروسكم مظلمة ، فسابتكموها وأعطيتموها لغيركم ، وهاهوذا الآن الأوان لظهور عالم يظهر من كوامن غرائزكم ، وبواطن أرضكم ، ومزايأ نفوسكم ، واشراق علومكم ، ولذلك بدت طلائع العلم والحكمة في بلاد الاسلام ، وظهر أرباب العقول اليوم في بلاد العرب والترك والفرس ، وسيزداد الأمر وتأخذ الأمم الاسلامية مكانتها : « اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » انتهى تفسير سورة المزمل صباح يوم الثلاثاء ٢١ يوليو سنة ١٩٢٥ م وهو التاسع والعشرون من شهر ذى الحجة الحرام من سنة ١٣٤٣ هجرية ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة المدثر

هى مكة

آياتها ٥٦ - نزلت بعد سورة المزمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ * فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ * ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَاحِةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمُ

مَرْضَى وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ
وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ * كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا
أُدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ * إِنَّهَا لَإِخْدَى الْكَبِيرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَن شَاءَ
مِنْكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ *
فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ
الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نَطْعِمِ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا تَخَوِّضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ
يَوْمَ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ * فَمَالَهُمْ عَنِ
التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ * كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ
أَمْرٍ مِنْهُمْ أَن يُوْتَى صُحُفًا مُنشُورَةً * كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ *
فَمَن شَاءَ ذَكَرْهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمُنْفِرَةِ *

مقاصد هذه السورة

[أولاً] ست أوامر للنبي صلى الله عليه وسلم وهي :

- (١) الانذار .
 - (٢) وتكبير الله .
 - (٣) وتطهير الثياب .
 - (٤) وهجر ما يؤدى إلى العذاب .
 - (٥) والأتمن على أصحابك بما تعلمهم من أمر الدين وتبلغهم من أمر الوحي كالمستكثر بذلك عليهم ،
ولا على الفقراء بما تعطيههم استكثرارا منك لتلك العطايا ، فتعليمك وعطاياك يجب أن تكون موجهة
لجناب الحق مع الاخلاص وعدم المنة على المتعلمين ، ولا على الفقراء ، فان الخلق عباده ، وأنت
جعلت أبا لهم ، هذا فى أمر أصحابك وأتباعك .
 - (٦) فأما الكفار بك والمؤذون لك فاصبر على أذاهم ، ففى فعلت ذلك كنت شاكرا صابرا .
- [ثانيا] تبيان العقاب المنزل على من خالف الدين وعاند الرسول دلالة على أن صبره صلى الله عليه وسلم
عليهم عاقبته النصر له فى الدنيا والآخرة وخذلان المعاندين ، وذكر من هؤلاء أوصاف الوليد بن المغيرة وأنه
أعطى مالا وفيرا وعشرة بنين ورياسة ووجاهة ، فعاقبه الله بعد نزول هذه السورة فنقصت أحواله كلها فى
الدنيا : « ولعذاب الآخرة أخزى » ، وذكر كيف استهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وأدبر واستكبر
وذم القرآن وجعله سحرا ، وأنذر على ذلك بسقر ، ثم وصفها بأنها تسعة عشر صفا من الملائكة إلى آخر
مأسياتى من عظيم أمرها ، وذكر أن كل نفس مرهونة بعملها ، وأن أهم أعمال أهل النار ترك الأعمال
وتعطيل القوى ، فلا عقولهم يفكرون بها إذ يعرضون عن التذكرة كالجبر المستنفر الفارّة من الأسد ،

ولا جوارحهم يستخذمونها في الأعمال كالصلاة وغيرها ، ولأموالهم يشكرون الله عليها فيعطون منها الفقراء .
هذا ملخص السورة إجمالا ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الأول

المدثر هو لباس الدثار فانه تأذى من قر يش فتغطى بثوبه مفكرا ، وكان نائما متدثرا فنزلت ، وفي البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال : جاورت بحراء شهرا ، فلما قضيت جوارى هبطت فتوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئا ، وقال مثل ذلك في الشمال والخلف ووجهة الرأس . ثم قال : فأتيت خديجة فقلت دثروني ، فدثروني وصبوا علي ماء باردا ، فنزلت : « يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر » .
وفي رواية قال ما يفيد أنه رأى الملك الذي جاءه بحراء قاعدا على عرش في الهواء ، فأخذته رجفة شديدة الخ .

مقدمة لتفسير هذه السورة وصلتها بما قبلها

اعلم أن [سورة المزمل] ذكرت بعد [سورة الجن] لأن السورتين مشتركتان في أن كلا منهما تنفيذ الاتصال مع العالم الروحي ، فسورة الجن لعلام الناس أن الجن لهم اتصال بعالم الإنس ، وأنهم سمعوا القرآن فآمنوا به ، وسورة المزمل تشير إلى أن عالم الملائكة ينزل على الأنبياء ، والأنبياء عنه يبلغون ، فيكون ذكر سورة المزمل كذكر السبب وراء السبب ، لأن عالم الجن يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم ، والنبي صلى الله عليه وسلم يتلقى عن عالم الملائكة ، فهو أسمع الجن ما يسمعه من الملائكة ، وأن الإنسان الحي قد يكون واسطة بين عالمين روحانيين ، فإن هؤلاء الجن الذين سمعوا منه صلى الله عليه وسلم ما كان لينسى لهم أن يسمعوا من جبريل ولا أمثاله من الملائكة ، وأنى لهم ذلك وهم عن السمع معزولون ، وإنما يسمعون بالواسطة ، وهذا على حد قول الشاعر :

بكل تداورنا فلم يشف ما بنا * على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع * إذا كان من تهواه ليس بذي ود

فالتجاوران المتنافيان المتضادان لا يجتمعان ولا يتفاهمان ، والمتباعدان المتهدان مشربا يقتربان ويتناجيان وروى « أن لله ملائكة يسوقون الأشكال إلى أشكالها » ، وهذا القرآن بين ظهرائنا فيه الكلام على الجن وعلى الملائكة ، ولكن لما كان المسلمون غير مستعدين لهذه العلوم في الأزمان المتأخرة نقل الله العلم إلى بلاد الغرب وبحثوا فيه هم ، وأتوا بمئات من الغرائب التي نطق بها كتابنا وذكرنا بعضها ، وسيظهر كل ماني القرآن من سر ، وما سبب ذلك إلا الاستعداد ، فلما كانت الأمم الإسلامية قبل اليوم غير أهل لهذه العلوم صرفها الله عنهم إلى غيرهم وإن كان القرآن بين ظهرائهم يقرؤونه صباحا ومساء ، فيكون القرآن مع المسلمين كالملائكة مع الجن ، فهما في عالم واحد روحاني ، فلما لم يأثقا كام الملائكة من تأهل للعلم من الناس وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، والنبي صلى الله عليه وسلم علم الجن وإن لم يعلم به إلا من الوحي كما تقدم ، فالمسلمون كالجن ، والقرآن كالملائكة ، فلما لم يفهموه ولم يفكروا فيما اشتمل عليه جعل علومه تظهر على يد أم أخرى ، وسيعرف أبنائنا علوم الأمم ويتمون البحث .

هذه هي المناسبة بين سورة المزمل وسورة الجن ، وسورة المزمل فيها بعث اللهم على العبادات وقيام الليل لاستخراج ما كن في النفوس من المواهب ، فإن العبادات والذكر وهجر النوم والتوجه لله تبعث في النفوس وجدانا لا تبعثه العلوم ، ولم يقم في الأرض قائم بعمل إلا إذا تحرك إليه وجدانه ، إن أهل الأرض

جميعا لا يقومون لتأسيس دولة ، أرقامه عمل إلا بموقف بوقفهم ، وهذا الموقف المحرك الهمم لاقدرة له على بحث تلك الهمم لما يريد إلا اذا انبعثت همته هو أولا .

هذه قاعدة مطردة ، أما الخطيب ، أو الواعظ ، أو المؤلف الذين خلت نفوسهم من الوجدان ومن الحب لما يقولون فإن السامعين والقارئ لما يقولون وما يكتبون لا يحسون بوجدان في نفوسهم ، إن هناك صلة بين القائل والسامع والكاتب والقارئ ، فعلى مقدار تأثير الكاتبين والقائلين تكون الآثار في نفوس السامعين قلة وكثرة ، هذا أمر لا مرد له ، فكل ذى وجدان مؤثر أثرا ما ، وهذا الأثر بقاؤه في الأمم يكون على مقدار القائم به من حيث وجدانهم وآثارهم ، ففي سورة المزمل أمر بقيام الليل ، وبقى الوجوب في حقه ونسخ في حق الأمة ، وبقى الندب ، فصلاة الليل نافلة ، وبذلك فتح الباب للأمة فليتهجد من يشاء كما تهجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وليعلم كل مطيع ومتهجد أنه بهذه الطاعة تنساق إليه طلائع الفهم وقدمات العلم ، واذن يدخل في باب الحمد ، وقد قدمنا في الفاتحة وغيرها أن الحمد لا يتم إلا بالعلم ، فانهجد إذن مفتاح لاشرار الصدر وقبول العلم ، فاذا تهجدت أيها الذكي فسترى في قلبك آثار الانشراح لا سيما اذا استحضرت معاني القراءة وتوجهت بقلبك إلى الله وخاطبته كأنك تراه ، ومتى انفتح لك باب الفهم وأحييت العلم فها هو ذا باب الحمد ، فانه لا حمد إلا على علوم ، والنعمة انى لا تعلم كيف نحمد عليها ؟ فقام الحمد يستلزم معرفة ما في السموات وما في الأرض ، إذن فادرس ما أمكنك من عالم السموات والأرض ، وقد أودعنا جواهر علومهما في هذا التفسير ، وهذا من مبادئ مقام الحمد ،

فاذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتهجد بالليل فذلك لتعليمنا أن نوجه قلوبنا بذلك إلى الله ، وبه يفتح مغلق الفهم .

هذا ما تقتضيه سورة المزمل ، أما سورة المدثر فهي الانذار والتعليم ، فسورة المزمل انفتح باب الفهم للمصلين ، فاذا انفتح ذلك الباب تعلموا مع الوجدان ، واذن يصلحون لارشاد غيرهم ، وذلك هو أول سورة المزمل ، فهذا الترتيب في السور جعل مقصودا لتعليمنا ، والافلماذا تكون سورة الجن فالزمل فالمدثر ؟ .

ذكر الأوامر الستة التي أمر بها الرسول صلى الله عليه وسلم . وهي جعلت تعليمنا

اعلم أن من يتصدى لتعليم الناس يجب عليه أولا أن يكون موقنا بما يقول كما شرحناه ، بل يكون من وجدانه ، وأعظم شيء في الدعوة النبوية أن يكون القائم بها موقنا أن ربه منزّه عن كل ما هو من صفات الحوادث لا يبلغ وصفه الواصفون ، وأنه أجلّ من أن تعرف غاية كماله ، فانه اذا اعتقد ذلك لاجرم سار في دعوته غير هيب ولا وجل ، لأنه يعلم أنه ينشر دعوة لأعظم موجود ، وهو الفيض الوجود على كل موجود ، فيصبح ويمسى وهو سرور الفؤاد فرح بما يلقي إليه صابر منشراح الصدر متوكل عليه ، لأنه موقن أنه مطلع عليه فلا يخاف من الناس ، واذا تذكر الموت فرح به ، لأنه يعلم أنه قد اصطفى لذلك الأمر من بين الناس ، هذه المعاني يشير لها قوله (يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر) والداعي الناس إلى ربه الكبير لا يتم له ذلك إلا اذا كان متخافا بأخلاقه ، فاذا كان الله منزها بكبريائه عن سمات الحوادث ، أفلا يكون القائم بأمره منزها عن النقائص الانسانية ، وكيف تكون المناسبة هناك ما لم يكن قد تحلى المرء بالصفات الجليلة وتحلى عن الصفات الناقصة ، فعبر عن ذلك كله بقوله (وثيابك فطهر) .

اعلم أن هذه الجملة يعرف نظيرها عند العرب بطهارة النفس كالصدق والوفاء ، يقولون فلان طاهر الثياب اذا كان صادقا رفيا ، واذا كان غادرا يقولون هو دنس الثوب ، ولا تزال هذه المعاني تستعمل إلى الآن في بلادنا المصرية ، يقولون : فلان طاهر الذيل ، يريدون أنه لا يلمس امرأة أجنبية .

وهذا القول من باب الكناية ، والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي ، والكناية أحد الأقسام الثلاثة في علم البيان وهن : التشبيه ، والمجاز ، والكناية ، وهذه كثيرة في القرآن . فإذا سمعت قول الحنفاء :

طويل النجاد رفيع العما * د كثير الرماد اذا ماشتا
فاعلم أنها تريد أنه طويل القامة شريف بين قومه كريم ، هذه هي المعاني المقصودة لها ، فأما كون علاقة السيف طويلة ، أو أن عماد البيت مرتفع ، أو أن رماد وقوده الذي يطبخ به الطعام كثير ، فليست هذه المعاني التي هي موجودة فعلاً أرغبت في موحودة مقصودة لذاتها فربما وجدت وربما لم توجد ، وإذا وجدت فليست هي المقصودة ، وأيضا قولها لما خطبها دريد بن الصمة .

معاذ الله يرضعني حبركي * قصير الشبر من جثم بن بكر
تقول : أنا لا أتزوجه لأنه قصير من قبلة غير مرضية عندي ، ولكن لم تنطق بهذا القول بل قالت أنا لا أرضع ولدا قصيرا بهذه الصفة ، فكنت بارضاع من هذه صفته عن زواج والده ، فإذا منعت الرضاع فقد منعت الزواج ، ولا جرم أن الكناية أبلغ من الحقيقة ، فإذا لم تكن البلاغة في كتاب الله فأين تكون ؟ فإذا سمع العربي قوله تعالى : « وثيابك فطهر » خطر بباله طهارة النفس وشرفها وبعدها عن كل ريبة ، فتكون طهارة النفس بالصفات الجميلة ، والأخلاق الفاضلة ، وبعدها عن الغل والحقد والحسد والمكر والحيل وكراهة الناس ، كل هذه هي المقصودة ، وذكر طهارة الثياب كذكر طول النجاد ، فإن من طال نجاد سيفه فهو طويل لا محالة .

واعلم أن هذه الملازمة : أي بين طهارة الثياب وطهارة القلوب التي جعلت كالملازمة بين طول النجاد وطول القامة قد ظهرت اليوم بأظهر معانيها ، وقد ذكرناها في [سورة البقرة] عند قوله تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » فهناك نقلت عن علماء أوروبا المشتغلين بأصول القوانين أن أكثر الناس قدرا في جسمه وثيابه أكثرهم ذنوبا ، وأظهرهم بدنا وثيابا أبعدهم عن الذنوب ، وبنوا على ذلك أنهم أمروا المسجونين بكثرة الاستحمام ونظافة الثياب فحسنت بذلك الأخلاق ، وخرج المسجونون أقرب إلى الأخلاق الفاضلة منهم إلى الرذائل ، هذا هو قوله تعالى : « وثيابك فطهر » فكلما كان الإنسان أظهر ثوبا وبدنا كان أقرب إلى طهارة النفس ، ولذلك كثرت الطهارة في ديننا وأثنى عليها الأستاذ [بتمام] في كتابه [أصول الشرائع] وقال : « إن كثرة الطهارة في دين الإسلام مما يدعو معتقيه إلى رقى الأخلاق والفضيلة اذا قاموا بأوامره في النظافة خير قيام » .

فإذا عرف الداعي إلى الله ربه واستعد لذلك بطهارة الأخلاق والظواهر من ثوب وبدن فانه يستعد إلى ترك ما يخل بأخلاقه الظاهرة والباطنة فينجو من العذاب ، وهذا قوله (والرجز فاهجر) فالرجز العذاب : أي فترك أسباب العذاب يوم القيامة ، بل سوء الأخلاق هي العذاب في الدنيا والآخرة ، اقرأ ما ذكرته في [سورة البقرة] عن الفيلسوف اليوناني المسمى قابس الذي شرح أخلاق الناس ومواهبهم وجعل أكثر حياة الناس عذابا ، وأصحاب الأخلاق الفاضلة هم المنعمون في هذه الدنيا ، فاذن يكون لفظ الرجز يشمل عذاب الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا يحس الإنسان بمقت الناس وضيق صدره اذا ساءت أخلاقه ، وينقلب ذلك بعد الموت إلى عذاب آخر شديد .

هذا معنى قوله : « والرجز فاهجر » فكأن هجر الرجز من تمام طهارة النفس أو من لوازمها ، ومتى طهرت النفس وسلم الإنسان من الآثام ، هنالك تكون نفسه قد استعدت للأفاضة على الناس وهم يقبلون على الداعي ، وحينئذ لا يبقى أمام الداعي إلا عقبتان : إحداها الغرور والفخر والعظمة ، فيقول : أنا مفيض

المعروف عليكم أيها الناس ، أنا أعظم قدرا ، ويحصل له الغرور العظيم . والعقبة الثانية أنه له أعداء ، وهؤلاء يؤذونه ويترصون به الدوائر ، ويتعقبونه ولا يرحونه ، ويذمونه في كل مكان ، ويتألبون عليه ليلا ونهارا ، وذلك هو المشط لأكبر الدعاة ، فانهم حينما يرون العقبات أمامهم يكرّون راجعين ويقولون : مالنا ولقوم لا يسمعون قولنا ، فلندخل في كسر بيتنا ، ولنبعد عن الناس ، فانهم لا يفهمون ، ولا يعرفون قدر النعم ، ولا يشكرون المنعمين ، فلها تين العقبتين قال الله تعالى (ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر) أي فلاتمن على أصحابك بما علمتهم وبلغتهم من الوحي حال كونك مستكثرا ذلك عليهم ، وقد قرئ تستكثر بالسكون على الابدال من تمن ، ولوجه ربك وأمره فاستعمل الصبر على أذى من خالفك ، وملخصه ألا تمن على تابعيه ولا يجزع من أذى مخالفيه ، فهو أولا ذكر العلم ، ثم العمل ، ثم التبليغ ، وهذه الصفات ان لم تتوفر في الداعي لانتم دعوته .

واعلم أيها الذكي أن الذي أضرت بأمتنا الاسلامية إنما هو الجهل بمقاصد القرآن ، فانهم اذا سمعوا هذه الأوصاف ظنوا أن ذلك لا يعينهم ، وفاتهم أنهم أتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، فليس يبلغ المسلم من سامعيه ما يريد إلا اذا كان متحققا بالعلم الذي يليق به وقد كتبت نفسه ، فان نفوس الناس لها إحساس وشعور تدرك به مافي قلب القائل ، وتحس بأثره ان كان كاملا ، وتحس بالأعراض ان كان ناقصا .

ثم انك بعد التحقق من هذا الكتاب ستجد في نفسك أثرا ما وجبا لنفع الأمة ، فسيقف في طريقك العقبتان اللتان ذكرتا تعلما لك أنت فتقول في نفسك مالى أنفع الناس وهم لا يقومون بما يجب عليهم نحوى وقد علمت أن الشمس والقمر والكواكب لا ينفعها الناس ، وأن الله خلق الناس بفضله وأنت قد أعددت نفسك أن تكون خليفة قائما بالأمر ، فلتخلق بأخلاق الله تابعا نبيك صلى الله عليه وسلم ، فتعطيهم العلم وتواسيهم بالمال ان قدرت ، ولا تطالب جزاء ولا شكورا ، وتصبر على أذية أعدائك .

واياك أن يكون الذم والاحتقار والعداوات مانعات لك عن الجد في عمالك والمضي فيه ، فلتلزم الصبر فان لم تصبر دل ذلك على ضعف في قوتك النفسية فاحذر ، ولتعلم أن مافي هذا القرآن من الوعد بالنصر لبينا صلى الله عليه وسلم هو نفسه وعد لك بالنصر في هذه الحياة وبعدها اه

لقد ذكرت لك أن [سورة الجن] أتى بعدها بسورة المزمل ثم المذثر ، لأن الجن ليس عندهم استعداد لتلقي العلوم عن عالم الملائكة ، وأهم لا يلقون لذلك العالم وان كانوا معهم في عالم الأرواح ، وأن المناسبة هي التي توجب العلم ، وأزيد الآن أن الحيوانات الذرية [المكروب] والكهرباء ومنافع البخار كانت حاضرة معنا ، ولكن كان استعدادنا لمعرفتها غير حاضر عندنا ، فالعلوم حاضر ، ولكن الاستعداد لعلمه غير موجود فنعنا عنه ، فليس منعنا عن الكهرباء لبعد المسافة بيننا وبينها ، ولا الحيوانات الذرية الضارة والنافعة في داخل أجسامنا وخارجها لبعدها عنا بل هي موجودة فعلا في داخل أجسامنا تعد بالآلاف والآلاف وفي طعامنا وفي شرابنا ، ولكن الذي منعنا هو جهلنا وقد طرق الموصلة للمعرفة .

أفلا يحق لنا أن نقول بعد هذه المقدمات التي صارت معلومة ان بعد السعادة عن النوع الانساني في حياته الدنيا وشقاء فيها ، ليس ذلك لبعده السعادة عنه ولكن لجهله بالطرق الموصلة لها ، لقد صدق سقراط إذ يقول : « إن الناس مأشقا هم لإجهلهم ، فلو كان عندنا من العلم ما يكفينا لسكننا في الحياة الدنيا سعداء » . أقول : ولكننا تعلم القليل لنطير به إلى عالم نرتقى فيه هناك بذلك القليل ، ألا يمكننا الآن أن نفهم ما جاء في [سورة الحديد] : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » وأيضا قال تعالى : « وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم

و يعلم ما تكسبون » فليس بعد الله عنا بالمكان ، إذ ليس بجسم حتى نسافر إليه ، ولا بعض الأمكنة يختص به دون الآخر ، بل هو موجود لا يختص به مكان ولا زمان ، وما منعنا من النظر إلى ذاته إلا أننا في عالم لا يسمع بذلك ، فبعد المسكنة وشدة الحجاب هي التي منعنا أن نراه لا بعد المسكن ، وليس ارتقاؤنا في الأحقاب التالية سفرنا في العوالم ، بل السفر بالهمة وقطع العقبات النفسية ، وكشف الحجب ، ولطف النفوس ، وكما لطف النفوس اليوم فعرفت بعض المعرفة أدق الحيوانات وبعض الأرواح معرفة قليلة ، هكذا تترقى بعض النفوس على طول الزمان فتصل بخفة نفوسها واشراق ذواتها إلى النظر لوجه الله ، وهذا في حياة مجهولة لنا لا نتخيلها الآن إلا بما ضربنا من الأمثال ، كان الناس يكذبون بكل حي غير ما عرفناه من الحيوان ، ويكذبون بالملك والجن ، فأصبحوا يتحدثونهم . فهكذا هناك ملائكة علويون لا يمكن لأهل الأرض مخاطبتهم ، وهكذا الله من فوقهم . إن نفوسنا وإن كانت محبوسة في هذه الأجسام نراها لا تطيق الحبس ، فهي تبحث في السموات والأرض وبينهما هي مفكرة في الأرض إذا هي في السماء ، إن نفوسنا قبسة من اشراق النور الإلهي ، ولذلك لم نجد لها سرورا في العالم المادي .

ثم قال تعالى (فاذا نقر في الناقور) أي نفخ في الصور ، وهو القرن الذي ينفخ فيه الملك ، مأخوذ من النقر بمعنى التصويت ، وأصله القرع الذي هو سبب الصوت . يقول الله : ولربك يا محمد فاصبر على أذاهم فإن بين يديهم يوما عسيرا فيذوقون عاقبة كفرهم وأذاهم ، وتال فيه جزاءك الحسن ونعيمك المقيم ، جناب اذا محذوف كما ذكرنا دل عليه قوله (فذلك يومئذ يوم عسير) وأكده بقوله (على الكافرين غير يسير) وإذا كان كل عسر ينقلب في آخر الأمر إلى يسر فهو لاء يومهم عسر لا يسر معه ولا بعده ، كأن الله يقول : فاذا نقر في الناقور عسر الأمر عليهم ، ويومئذ متعلق بالخبر . ثم أخذ يذكر أوصاف الوليد بن المغيرة ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قام في المسجد يصلي والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، وهو يقرأ [حم] تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير] ، فلما فطن النبي صلى الله عليه وسلم إلى استماعه أعاد القراءة ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال : والله لقد سمعت من محمد آفا كلاما ما هو من كلام الانس ، ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وأنه يعلو وما يعلى عليه ، ثم انصرف إلى منزله ، فقالت قريش : صبا والله الوليد ولتصبون قريش كلهم ، فقال أبوجهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزينا ، فقال له الوليد : مالي أراك حزينا يا ابن أخي ؟ فقال : وما يعني أن أحزن وهذه قريش يجتمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون أنك زفت كلام محمد ، وأذاك تدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتتال من فضل طعامهم ، فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أنني من أكثرهم مالا وولدا ، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام ؟ ثم أتى مجلس قومه مع أبي جهل فقال لهم : تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يخفق قط ؟ قالوا اللهم لا ، قال تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تسلم ؟ قالوا اللهم لا ، قال تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا اللهم لا ، قال تزعمون أنه كذاب فهل جرّبتم عليه شيئا من الكذب ؟ قالوا اللهم لا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه ، ثم قال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فهو ساحر ، وما يقوله سحر يؤثر ، فهذا هو ما سبأني من قوله تعالى : « إنه فسكر » أي في أمر محمد والقرآن « وقتتر » في نفسه ماذا يمكنه أن يقول في محمد وفي القرآن .

هذا وقد كان الوليد يسمى الوحيد ، لأنه وحيد في قومه ، فإله كثير جدا فيه الزرع والضرع والجارة ، يقال أنه كان ألف ألف درهم ، وقيل تسعة آلاف مثقال فضة ، وكان له بين مكة والطائف إبل وخيل ونعم

وغنم وعبيد وجوار ، وكان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره شتاء وصيفا ، وكان أبناؤه عشرة يشهدون المحافل والمجامع أسلم منهم ثلاثة وهم : خالد وهشام وعمارة ، ثم ان الوليد قد بسط الله له الرزق وطال عمره مع الجاه العريض والرياسة في قومه ، وكان من أكابر قريش ، ويسمى [ريحانة قريش] ، فهو ريحانة وهو وحيد ، فاذا عرفت هذا أمكنك فهم الآيات الآتية :

قال تعالى (ذرني ومن خلقت وحيدا) أي ذرني معه فاني أكفيكه ، وكيف لأكفيكه وقد كفر بنعمتي ؟ ألم أخلقه وحيدا في قومه حتى نعتوه بذلك ؟ (وجعلت له مالا ممدودا) مبسوطا كثيرا ، أو ممدودا بالثناء (وبنين شهودا) حضورا معه بمكة يتمتع بلباقهم لاحتياجهم إلى سفر لطلب العاش استغناء بنعمته وخدمته وعبيده يقومون مقامهم في ذلك (ومهدت له تمهيدا) بسطت له في العيش وطول العمر بسطا مع الجاه العريض والرياسة في قومه (ثم يطمع) يرجو (أن أزيد) أي أزيد مالا وولدا وتمهيدا (كلا) لأفعل ولا أزيد ، فأخذ ماله في النزول بعد ذلك حتى هلك ، ثم علل ذلك فقال (إنه كان لآياتنا عنيدا) معاندا فلا يؤمن ببعث ، ولا يوحى الله تعالى (سأرهقه صعودا) سأغشيه عقبة شاقة المصعد ، وهذا مجاز يراد به شدة الأمر عليه حتى جاء في الحديث «انه جبل من النار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى» (إنه فكرو قدر) تعليل للوعيد ، يقول الله : اذا أنا لم أزد ماله ونعمته فذلك لأنه معاند لآياتنا ، واذا جشمت العذاب يوم القيامة فذلك لأنه فكر فيما تخيل طعنا في القرآن وقدر في نفسه ما يقول فيه (فقتل كيف قدر) أي لعن كيف قدر ، وهو على طريق التعجيب والانكار والتوبيخ (ثم قتل كيف قدر) تكرير للبالغة (ثم نظر) في أمر القرآن (ثم عبس وبسر) قطب وجهه مما لم يجد فيه طعنا ولم بدر ما يقول (ثم أدبر) عن الحق (واستكبر) عن انبأه (فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) يدرس ويتعلم (إن هذا إلا قول البشر) تأكيد للجملة قبلها (سأصليه سقر) هذه مبدلة من قوله «سأرهقه صعودا» (وما أدراك ما سقر) تفخيم لشأنها حال كونها (لا تبق ولا تذر - لواءة للبشر) البشرجع بشرة ، وهي ظاهر الجلد ، فهي تسود الجلود وتحرقها (عليها تسعة عشر) صنفا من الملائكة ، أوصفا ، وانما جعلوا تسعة عشر لأن الحواس الظاهرة خمس ، والباطنة خمس ، وهي : الحس المشترك ، والخيال ، والمفكرة ، والواهمة ، والذاكرة ، فهذه خمس تضم لما قبلها تكون عشرة ، ويضاف إليها اثنان : الغضب والشهوة ، فهذه ١٢ ويضاف إليها سبعة طبيعية في الإنسان وفي الحيوان ، وهي : الجاذبة والهاضمة والباسكة والدافعة والغاذية والنامية والمصورة ، فهذه سبعة في النبات والحيوان ، والاثنان عشر قبلها في الحيوان والإنسان ، فهذه التسعة عشر نوعا من الصفات الحيوانية جمعت في الإنسان ، فكان عذابه على مقدار ما فرط في هذه المنح (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) فليسوا من جنس المعذنين حتى يرقوا إليهم ويرجوهم . ولما سمع أبو جهل هذه الآية قال لقريش : أبجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم فزلت هذه الآية (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) أي وما جعلنا عددهم إلا العدد الذي اقتضى فتنهم ، وهو التسعة عشر ، فهم قد افتتنوا به واستقلوه ، واستهزؤوا به ، واستبعدوه ، وقالوا : كيف يتولى هذا العدد القليل تعذيب الثقيلين ؟ (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) أي ليكتسبوا اليقين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن ، إذ يرون هذا العدد في كتابهم (وبزاد الذين آمنوا إيمانا) بالإيمان به وتصديق أهل الكتاب (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) في ذلك ، وهذا تأكيد للاستيقان وزيادة الإيمان (وليقول الذين في قلوبهم مرض) شك ونفاق حينما يكونون بالمدينة فيما بعد الهجرة التي لم تكن معلومة لهم عند نزول هذه السورة (والكافرون) الجازمون بالكذب (ماذا أراد الله بهذا مثلا) أي أي شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل ، أرو نفسه مضروب مثلا لشدة استبعاده عندهم (كذلك يضلل الله من يشاء ويهدي من يشاء) أي

مثل ذلك المذكور من الاضلال والهدى بضل الكافرين ويهدى المؤمنين (وما يعلم جنود ربك) أى جوع خافقه على ما هم عليه فى الحقيقة إلا هو، وكيف يقف أحد على حصر الممكنات ومعرفة مستقرها ومستودعها وخواصها؟ انظر ما ذكر فى أول سورة الملك فى أنواع الحيوان وتكاثره، فما يعلم هذه كلها (إلا هو وماهى) أى وما هذه الدورة المشتعلة على سقر وعدة الخزنة (إلا ذكرى للبشر) إلا تذكرة لهم (كلا) ردع لمن أنكرها (والقمر، والليل إذ أدبر) ولما ذاهبا (والصبح إذا أسفر) أى أضاء وتبين، وجواب القسم قوله (إنها لا إحدى الكبر) يعنى ان جهنم إحدى البليات الكبرى والأمور العظام (نذيرا للبشر) أى كبرت سقر حال كونها منذرة للبشر. ثم قال: (لمن شاء منكم أن يتقدم) إلى الخير (أو يتأخر) عنه، فقد علمتم سقر وعذابها وملائكتها، فمن تقدم إلى الخير أطلقناه، ومن تأخر عن الخير سلكناه فيها (كل نفس بما كسبت رهينة) مرهونة عند الله، أو مرتبنة فى النار بكسبها ومأخوذة بعملها، وهذه الكلمة ليست وصفا بل هى مصدر كالشكيمة جعلت بمعنى اسم المفعول، ولو كانت وصفا لقال رهين، لأن فعلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكور وغيره (إلا أصحاب اليمين) فانهم فكوا رقابهم من الرهن بما أحسنوا من أعمالهم، وهكذا الأطفال إذ لا تكليف عليهم ومثاهم الملائكة حال كونهم (فى جنات يتساءلون عن المجرمين) أى يسألون غيرهم عن حالهم، فيقول المسئولون عن المجرمين للسائلين ماجرى بينهم وبين المجرمين من الدوال والجواب، وهذا صورة ما جرى: قلنا لهم (ماسلككم فى سقر) أى أى شئ أدخلكم فيها؟ (قالوا لم نك من المصلين) الصلاة الواجبة (ولم نك نطعم المسكين) ما يجب إعطاؤه (وكنا نخوض مع الخافين) أى نشرع فى الباطل مع الشارعين فيه (وكنا نكذب يوم الدين حتى أتانا اليقين) الموت ومقدماته (فانفعهم شفاعة الشافعين) لو شفعوا لهم جميعا (فألهم عن التذكرة معرضين) أى معرضين عن التذكرة: أى عن القرآن وما فى معناه (كانهم جرم مستنفرة) بالكسر أى نافرة، وبالفصح أى منذرة مذعورة، فهم مثلها فى أعراضهم ونفورهم عن استماع الذكر (فرت من قدورة) أى أسد (بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة) قراطيس تفسر وتقرأ، إذ كانوا يقولون: ان تؤمن لك حتى نأتينا بكتاب من السماء نقرؤه (كلا بل لا يخافون الآخرة، كلا) ردع لهم (إنه تذكرة) أى انه عظة عظيمة (فمن شاء ذكره) أى اتعظ به فيعود نفعه عليه (وما يذكرن إلا أن يشاء الله) أى إلا أن يشاء الله لهم الذكر فيتذكروا ويتعظوا (هو أهل التقوى) حقيق بأن يتقى (وأهل المغفرة) حقيق بأن يغفر للثنتين من عباده. انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها، والحمد لله رب العالمين.

لطيفة فى قوله تعالى: وما يعلم جنود ربك إلا هو وماهى إلا ذكرى للبشر.

كلا والقمر. والليل إذ أدبر. والصبح إذا أسفر.

إن فى ذكر إدبار الليل وأسفار الصبح ما يشير إلى أن الناس فى الحياة الدنيا كأنهم فى ظلمة، فإذا جاء يوم القيامة ظهرت الحقائق كما يظهر الصبح إذا أدبر الليل، إن الحياة فى الدنيا والآخرة وتناسقها ترقى من حال مظلمة إلى حال ظاهرة واضحة، فنحن اليوم فى حال الحياة، وكلما اقتربنا من الحقائق كان ذلك نورا لنا فإذا وصلنا إلى الحقائق ومولا تاما فى عالم غير عالمنا فهناك السعادة، فالعلم بالحقائق هو نهاية السعادة، والجهالة بنهاية الشقاء، بل قال [سقراط]: «إن الناس معذبون فى الأرض بجهالتهم، ولوعرفوا الحقائق كما هى ماشقوا» فكان ذكر الظلام فالضيء بعد ذكر القيامة وحديثها يشير إلى ذلك، وهذا فى الموفقين كما هو معلوم، وقول المصلى: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» يشير إلى حال السلامة التامة، والسلامة

إلا بمعرفة الحقائق معرفة تامة ، إن ظواهر الدنيا كلها ظلمات وأحزان ، ولكن بواطن هذا العالم جلال وسعادة فلقد ضرب بين السعداء والأشقياء بسور من الجهل له باب باطنه فيه الرحمة متى عرفت الحقائق ، وظاهره من قبله العذاب باقتحامها .

ثم إن جنود ربك أعظمهم في عالم السموات ، وهذا من أسباب ذكر الليل وادباره ، والصبح وارتفاعه ، فلا ذكر لك الآن الجنود السماوية ، ثم أتبعها بالجنود الحيوانية ، والجنود النباتية ، لتطلع على صفوف من جنوده ، وأنواع من عجائب جيوشه البديعة المنظمة ، وإنما نبدأ بالجنود السماوية تبركا بالآية ولتظهر العظمة في جلال النجوم فنقول :

عدد النجوم

إن النجوم التي ترى بالعين المجردة محصورة ، وهي نحو ٣٠٠٠ فقط ، والمنظار المقرّب يرى نحو ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ فأما اللوحة الراسمة [الفوتوغرافية] فإنها إذا طال تعرضها للنور ترى ملايين الملايين ، فإنها ترسم في الساعة الواحدة ٣٦٠٠ ضعف ما ترسمه في الثانية الواحدة ، وبهذه الطريقة كشف الفلكيون ما يعجز العين المجردة والمنظار المقرّب .

أبعاد النجوم التي هي من جنود الله وأحجامها

الشعري اليمانية

هي أقل من الشمس جرماً عشرين مرة ، وأضواؤها خسين مرة ، وأبعد منها ألف ألف بعدها عنا ، وتجرى بسرعة ألف ميل في الدقيقة .

بنات نعش

واحدة منهن أضواؤها من الشمس أربع مائة مرة ، والثانية أضواؤها ٤٨٠ ، والثالثة أضواؤها ألف مرة ، وسهيل أضواؤها من الشمس ألفين وخمسمائة مرة .

السماك الرامح

هو أضواؤها من الشمس ثمانية آلاف مرة ، وهو أسرع النجوم سيرا ، وأشدّها تألقاً ، وأكبرها حجماً ، فسرعته ثلاثمائة ميل في الثانية الواحدة ، ونوره ثمانية آلاف ضعف نور الشمس ، وحجمه ثمانون ضعفاً من حجمها ، ونوره يصل لنا في مائتي سنة ، مع العلم بأن نور الشمس يصل إلينا من بعد ٩٢٥٠٠٠٠٠٠٠ ميل في ثمان دقائق وثمان ثوان .

الثريا

تبعد عنا ألفاً وخمسمائة بليون من الأميال ، ولست أطيل في ذكر هذه الأقدار والأبعاد ، وأذكر كما كتبه في [سورة آل عمران] نقلاً عن الأكاديمية الفرنسية ، وبما كتبه في [سورة البقرة] في أوائلها من حيث تعداد النجوم وأضواؤها ، فراجعه هناك إن شئت .

جنود الحيوان

ذكر حيوان البحر

إن في البحار أنواعاً عظيمة من الحيوانات :

[حوت يسمى سيبالد] — يباغ طول هذا النوع من ٨٠ إلى ٩٠ قدماً .

أما الحيوانات الصغيرة في البحر فقد ذكر [سكورسبي] أن الحيوان المسمى [قريص البحر] ربما يبلغ
أميالاً كثيرة من البحر ، والميل الواحد المكعب يشمل من هذا الحيوان ر..... ر..... ر..... ر.....
إن كثيراً من النوتية اجتازوا أميالا وأميالا في البحر فوجدوا ماءها ملوثاً بتلك الحيوانات الدقيقة ، فكـ
يكون عدد الحيوانات في تلك الأميال الكثيرة ؟ « وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكري للبشر » .

إن الحشرات كثيرة ، وقد عدّ العلماء من أنواع الخنافس نحو ٨٠٠٠٠ وأنواع الحشرات المعروفة الآن نحو ٢٠٠٠٠٠ وهم يتوقعون أن يكشفوا من أنواعها ألف ألف .

ولأكتف من الحيوانات وجنودها بما ذكرناه استدلالاً بما ذكر على ما لم يذكر ، ولو أننا فتحنا باب
الحيوانات الذرية التي في أجسامنا كالسكريات الجراء والسكريات البيضاء التي تحارب كل منها الحيوانات الداخلة
عليها كحيوانات الوباء والجدرى الخ .

لو أننا فتحنا هذا الباب لوجدنا مالا يخطر بالبال من أعداد لا نستطيع حصرها ، فالإنسان قد ملئ جسمه منها لحفاظ عليه وتقاتل مالا يحصره من أمثاله الحاجات عليه لأمراضه أولقته مما أصبح اليوم معلوما مشهورا فلا تطيل به . اقرأ هذا المقام في [سورة الفتح] عند تفسير مثل هذه الآية .

ونكتفي من عالم النبات بأدق ما فيه ، وذلك هو الطلع ، فانك اذا عددت حبات اللقاح في زهرة [القادنيا] وهو عود الصليب وجدتها تحتوي على ٣٠٠٠ ر. ٣٠٠٠ ر. أو ٤٠٠٠ ر. ٤٠٠٠ ر. من حبات اللقاح ، وهذا العدد في زهرة واحدة ، فاذن يكون في شجرة واحدة ؟ ثم في بستان واحد ، ثم في الكرة الأرضية كلها ؟ لابد أنك تقول : « وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكري للبشر » ، إذن لا عجب إذا رأيت فوق بعض الغابات غيما عظيما سائرا في الجو وما هو بماء ولا بتراب وانما هو تلك الحبات المتطايرة من الأزهار اجتمعت في الجو وسارت في طرق مختلفة باختلاف الأنواع التي طارت منها وسارت إلى الزهورات في الأقطار البعيدة لتلقحها من غير قصد ، والذي يصيب الزهورات من ذلك السحاب الطلعي قليل جدا ولكنه كاف في نماء الثمرات في أنحاء الكرة الأرضية ، فأما باقى ذلك الغيم الكثيف فانه يتبدد وينتشر بلا فائدة معروفة للإنسان ، وانما جعل هذا كله في الطبيعة ليكون ضمانا لحفظ الأنواع النباتية ، ولولا ذلك لانعدمت هذه الأنواع من الأرض ، وليس يمكن أن يحجب السائل عن هذه الأعداد بغير جواب القرآن : « وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكري للبشر » انتهى تفسير [سورة المدثر] يوم الأربعاء ٢٢ يوليو سنة ١٩٢٥
غرة المحرم الحرام سنة ١٣٤٤ والحمد لله رب العالمين .

ولقد كنت كتبت مقالة مطوّلة تحت عنوان هذه الآية : « وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكري للبشر » بتاريخ ٢٢ يناير سنة ١٩٢٧ م ولما كان المقام لا يسعها أرجأنا درجها للملحق الذي وعدنا بنشره بعد تمام التفسير إن شاء الله وطالت الحياة اهـ

تفسير سورة القيامة

هي مكة

آياتها ٤٠ - نزلت بعد سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ
نَجْمَعُ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ *
يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ * فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ *
يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنْبِئُوا
الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ *
لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنْ عَلَيْنَا جُمُعَةٌ وَقرآنه * فَإِذَا قرآنه فاتبع قرآنه *
ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا نَبَإُهُ * كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
نَاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ * كَلَّا
إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالتَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ *
إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ * فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * ثُمَّ ذَهَبَ
إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ * أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ
يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ
مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ *

هذه السورة كلها في وصف يوم القيامة ، وقد بدئت بالاستدلال بجائز خلق الانسان وتسوية عظامه ،
وختمت بمثل ذلك ، و بقيتها في الحساب وأهوال القيامة .

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة) يقول الله : أقسم بيوم القيامة وأقسم بالنفس التي تلوم نفسها أبداً وان اجتهدت في الطاعة ، أو جنس النفوس ، فان كل نفس يوم القيامة سواء أكانت بارّة أم فاجرة تلوم نفسها ، ان عملت خيراً قالت كيف لم أردد ، وان عملت شراً قالت يا ليتني كنت تركته كما أفاده حديث مروي في ذلك .

أقسم الله بالقيامة وبتلك النفس على بعثنا : أي لتبعثن ، فقد أقسم بعظمة القيامة ، والنفس الطامحة إلى الرقي ، الجانحة إلى العلو ، التي لا ترضى بمربة إلا طلبت سواها ، ولا بحالة إلا أحبّت ما تلاها ، ورامت ما فوقها ، وهذا القسم كأنه استدلال على القيامة ، يقول : إن ما في النفوس من حب الرقي وعدم الوقوف عند حدّ محدود في هذه الحياة ، وفي كل حياة دليل على أن هناك حالاً أخرى ينال فيها الانسان ما كان يرغبه ، إن طبع الانسان يدل على القيامة ، إن طموح الناس للمعالي وجشعهم وحرصهم وازديادهم في المال والعلم وعدم الوقوف على حال واحدة دليل على أن هناك حالاً أخرى ، إن النفوس الانسانية مشغوفة بالاستطلاع ، مجبولة على حب البحث ، مفطورة على حب الغلبة والقهر ، ذلك لتستطيع أن تملك أكثر مما ملكت ، وتحوز أكثر مما حازت ، وتعلم أكثر مما علمت ، انها لا تكتفي بعلم ولا بمال ، وما رأينا ملكاً يحكم أمة إلا طمع أن يأخذ غيرها ، ولا غنيا ورث مالا وزاد عليه إلا طمع فيما سواه ، ولا عبلاً عين ابن آدم إلا التراب ، فهل خلقت هذه الشهوات والرغبات فينا عبثاً ؟ كلا . ثم كلا . إن ذلك لم يكن إلا اسرّ سبتضخ بعد الموت ويوم القيامة ، إن لم يكن للانسان مثل تلك الغاية فالحياة باطلة وكل نظام في الأرض خسران مبین ، لم نجد قوة كامنة فينا وفي الحيوان إلا لغاية ، فبالت شعري ماغاية هذه الأطماع والحروب والتفاني في العلوم ، والتملك والقهر ، وبناء السفن ، واختراع الأسلحة ، وما هذا الجشع ، وما هذا الطمع ؟ أكل هذا الحياة قصيرة لا تساوي كل هذا العناء ؟ يجيبك القرآن قائلاً : أنا أقسم بالنفس التوّاقة إلى المعالي التي لا تقف عند حدّ ، ومعنى هذا أن تلك القوة أودعت في نفوسنا ، لأنها خلقت لتكون في عالم يطالع على كل شيء ولا يحزن على شيء وهو عالم الأرواح في أعلى الجنان ، فإدام لم يصل إلى ذلك العالم فانه يظن أنه خلق لهذه المادّة وتملكها لعدم علمه بالحقائق فيتخطى في الحياة ، إذن هذا القسم ذكر للاستدلال ، فطموح النفوس إلى المعالي برهان على أنها ستكون في عالم آخر تنال فيه بغيته ، فإذا أقسم الله بمخلوقاته على حكمته وعلو شأنه وعظمته استدلالاً على ذلك ، فهكذا هنا يقسم بالنفس اللوامة استدلالاً على أنها واصلّة يوماً ما إلى عالم أكل من هذا العالم لتنال فيه ما تطلبه ، إن في إلهام التحل جمع العسل ، وفي عدم إلهام الجراد والزناير الجمع والادّخار ، وأن الأوّل يعيش في الشتاء والآخرين لا يحتاجان فيه دليلاً عجيباً لحكمة هذا القسم فتفطن .

إن هذا القسم وأمثاله لم يطرق آذان العرب ، أولئك الذين لا يقسمون إلا بأشياء معهودة فيما بينهم ، لا يتجاوزونها فيقسمون بالأب وبالعمر وبالكعبة ، ولكنهم لا يقسمون بهذه الأقسام العجيبة التي فيها دلالات على ما يقصد في جوابها ، وفيها فتح باب للبراهين والحكمة والعلم .

ثم إن [لا] التي ذكرت قبل القسمين زائدة للتأكيد واردة في كلام العرب ، ألا ترى إلى قول امرئ القيس :

لا وأبيك العاصري * لا يدعى القوم أتى أفر

وقول غيره :

تذكرت ليلي فاعتزني صباية * وكاد ضمير القلب لا يتقطع
أقسم الله بالقيامة وبالنفس اللوامة التوافة للعالى أننا سنبعث ، ثم أردفه باستنكار استبعاد ذلك ، إذ روى
أن عدي بن أبي ربيعة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر القيامة ، فأخبره به فقال : لو عاينت
ذلك اليوم لم أصدقك ، أن يجمع الله هذه العظام فقال (يحسب الانسان) أى جنسه ، والمراد به المنكر
للبعث المذكور وغيره (أن لن يجمع عظامه) بعد تفرقتها ورجوعها رفاتا (بلى) أى نجمعها حال كوننا
(قادرين على أن نسوي بنانه) أى نسوي سلامياته على صفرها ودقتها ونؤلف بينها حتى تستوى البنان ،
فن يقدر على جمع العظام الصغار فهو لا محالة على غيرها من الكبار أقدر .
واعلم أن عظام أصابع اليدين ثلاثون ، وعظام أصابع الرجلين ٢٨ فيكون مجموعهما ٥٨ وهذه عظام
دقيقة وضعت لمنافع لولاها ماتمت تلك المنافع كالقبض والبسط واستعمال اليدين في الجذب والدفع وغيرهما
مما لا يحصى ، فلو لا دقة هذه العظام وحسن تركيبها ما انتظمت الأعمال المترتبة على اليدين ، وجميع العظام
في الانسان ٢٤٨ عضوا ، وهالك بيانها :

١٢٦	١٢٢
٦ عظام الرأس .	٢ الزندان الأعلى .
٤ عظام الزوج .	٢ الزندان الأسفلان .
١٤ عظام اللحي الأعلى .	١٦ عظام رسغى الكفين .
١٦ عظام الأسنان العليا .	٨ عظام مشط الكفين .
١ العظم الشبيه بالوتد .	٣٠ عظام أصابع اليدين .
٢ عظام اللحي الأسفل .	٢ عظام الوركين .
١٦ الأسنان السفلى .	٢ عظام الفخذين .
٢٤ فقرات الصلب .	٢ عظام الركبتين .
٣ عظام الهجز .	٤ قصب الساق .
٣ عظام العصعص .	٢ الكعبان .
٢٤ عظام الأضلاع .	٢ العقبان .
٧ عظام القص .	٢ العظام الزورقية .
٢ الكتفان .	٨ عظام رسغى القدمين .
٢ رأسا الكتفين .	١٠ عظام مشطى القدمين .
٢ عضدان .	٢٨ عظام أصابع الرجلين .
	٢ عظم العانة .

المجموع ٢٤٨

وأنت ترى أن أصابع اليدين وحدها فيهما ٣٠ فإذا أضيف الرسغان ١٦ ومشط الكفين ٨ كان
المجموع ٥٤ فيكون لكل يد ٢٧ وحدها من الرسغ إلى أطراف الأصابع ، وهذا العدد هو عين عدد
الجمجمة ٦ مضافا إليها عدد الأسنان ٣٢ والفكين ١٦ .

أيها الذكي : ما أحسن العلم والحكمة ، أنظر تجد عظام الإنسان مجموعة ، وكيف هندمت على هذا

النظام لفوائد نافعة في الحياة ، انظر كيف ركب الرسغان في اليدين من ١٦ عظما ومشطا الكفين من ٨ ثم ركب مشطا كفي الرجلين ورسغاهما من أعظم متعددة لشدة الحاجة إلى العمل والحركة ، أما ججمة الرأس فن ستة أعظم لا غير ، إن أصابع اليدين والرجلين تبلغ عظامهما ٥٨ عظما ، وججمة الرأس لا تزيد عن ستة ، ذلك لأن الججمة لمجرد الوقاية ، أما الأصابع فهي للعمل ، فذلك صنعت بدقة واحكام ، وانظر إلى الفقرات كيف تعددت ولم لم تجعل عظمة واحدة ، ذلك لأنها لو كانت كذلك لعاقبت الحركات ، ولامتعت البركات ، ولم يعيش بالسعادة والخير الانسان ، فجعلت الفقرات متتاليات ليمكنه الحركة والسكون ، ويكون ذلك سهلا عليه أينما كان ، فلو لا الفقرات وتفصيلها لم يقدر على الانحناء للأعمال والحركات المختلفة ، بل يكون منتصبا كالخشبة ، أو كالعمود ، ثم عطف على قوله : « أبحسب الانسان » قوله (بل يريد الانسان ليفجر أمامه) وهذا اضراب عما قبله ، يقول : إن الانسان يريد أن يدوم فجوره فيما يستقبل من الزمان ، لا ينزع عن فجوره ، ولا يتخلى عن شروره ، ولذلك ترى الكافر من نوع الانسان (يسأل أيا يوم القيامة) أى متى يكون يوم القيامة ؟ وهذا استبعاد واستهزاء (فاذا برق البصر) تحير فزعا عند رؤية أهوال القيامة (وخسف القمر) ذهب ضوؤه (وجمع الشمس والقمر) جمعها وصف واحد ، وهو ذهاب الضوء (يقول الانسان يومئذ أين المفر) أى المهرب ، وهذا ظاهر في أحوال القيامة ، ونظيره في الدنيا ما يخص المرء في نفسه فيحار بصره فزعا ، ويذهب ضوء البصر عند الموت ويموت فيجتمع العقل الذي هو شبيه بالقمر مع الأرواح العليا التي كان يستمد منها الشبهة بالشمس ، فيصير معنى العبارة : فاذا قامت القيامة يقول الانسان يومئذ أين المفر ، وهذا كناية عن ساعة الموت : وقد بينت لك فيما تقدم أن هذه الكناية ملى بها القرآن ، فاذا ذكر يوم القيامة فقد ورى بحال الموت ، والحق أن الانسان في حال موته تقوم قيامته الخاصة به ، ففى فزع هو وذهب بصره واجتمع هو بالملأ الأعلى ، فهذا كل ما يخصه من أحوال الآخرة القريبة ، أما يوم القيامة فهو نتائج لما يلقاه في البرزخ ، فيكون ظاهر اللفظ للعموم ، والكناية يفقهها الخواص (كلا) ردع عن طلب المفر (لا وزر) لا ملجأ ولا حوز ولا جبل ، وقد كانوا إذا فرغوا يلجئون إلى الجبال فقبل لهم : لا جبل لكم يومئذ تتحصنون فيه (إلى ربك يومئذ المستقر) مستقر الخلق (ينبا الانسان يومئذ بما قدم وأخر) بما قدم من عمل عمله وبما أخر منه لم يعمل (بل الانسان على نفسه بصيرة) أى بل الانسان على نفسه شاهد ، فتكون الهاء للبالغة ، فالانسان حجة بينة على أعمال نفسه ، لأنه يشاهدها (ولو ألقى معاذيره) ولو جاء بكل ما يمكن أن يعتذربه ، جمع معذار وهو العذر ، فذنوب الانسان إذن ملازمة له لانفارقة ، لأنها أخلاق ملازمة له ، لاصقة به ، تابعة له في حله وترحاله ، ناهيك بما ترى من العادات التي تأخذ بالألباب ، ولا تذر أربابها كثرة الكلام وشرب الخمر والدخان وما أشبه ذلك ، فهذه الأخلاق تؤذى صاحبها وتقوم حجة بينة على نفسه فيقذف به في المهوى البعيدة (لا تحرك) يا محمد (به) بالقرآن (لسانك) قبل أن يتم وحيه (لتجمل به) لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك (إن علينا جمعه) فى صدرك (وقرآنه) وأثبت قراءته فى لسانك ، فالقرآن القراءة (فاذا قرأناه) أى قرأه عليك جبريل ، فجعل قراءة جبريل قراءته (فانبع قرآنه) أى قراءته عليك (ثم ان علينا بيانه) اذا أشكل عليك شيء من معانيه فنحن نبينه لك ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا أشكل عليه شيء سأل جبريل عن معانيه ، لأنه حريص على العلم فقبل له نحن نبينه لك ، وقوله تعالى (كلا) ردع للرسول صلى الله عليه وسلم عن العجلة والكفار عن انكار البعث ، يقول الله : أتم أيها الكفار تريدون العاجلة ، وأنت أيها النبى تجعل عند تلقى الوحي (بل تحبون العاجلة) أى أتم يا بنى آدم تجعلون فى كل شيء لأنكم خلقت من عجل وطبعتم عليه ، ومثال ذلك أنكم تحبون العاجلة الدنيا وشهواتها (وتذرون الآخرة) الدار الآخرة ونعيمها فلا تعملون لها

(وجوه يومئذ ناضرة) حسنة مسرورة بالنعيم ، مسفرة مضيئة بيض ، يعلوها نور وبهاء ، مشرقة بالنعيم (إلى ربها ناظرة) أى تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب فتكون ناضرة ، وهى تنظر إلى الخالق (وجوه يومئذ باسرة) شديدة العبوس كالحمة متغيرة مسودة قد أظلمت ألوانها وعلقت آثار النعمة والسرور منها لما أدركها من اليأس (تظن) تستيقن (أن يفعل بها فاقرة) أى داهية عظيمة تكسر فقار الظاهر وتقصمه ، وأشد أنواع الفاقرة أن يحجب الإنسان عن رؤية الله (كلا) ردع عن إشار الدنيا (إذا بلغت التراقي) أى إذا بلغت النفس أعلى الصدر ، وهى جمع ترقوة ، وهى العظام التى بين ثغرة النحر والعاتق ، وهذا كناية عن إشراف النفس على الموت . قال دريد بن الصمة :

ورب عزيمة دافعت عنها * وقد بلغت نفوسهم التراقي

وقوله (وقيل من راق) أى وقال من حضره : هل من طيب بريقه ويداويه مما نزل به ويخلصه من ذلك بريقته ودوائه ؟ (وظن أنه الفراق) أى وظن المحتضر أن الذى نزل به فراق الدنيا ومحابها (والتفت الساق بالساق) أى والتوت ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكها ، وهذا يكفى به عن التفاف شدة فراق الدنيا بشدة خوف الآخرة (إلى ربك يومئذ المساق) أى سوقه إلى الله تعالى وحكمه (فلا صدق) بالرسول والقرآن ، أو لا صدق ماله : أى زكاه (ولا صلى) ما فرض عليه ، الضمير فى صدق وصلى للإنسان (ولكن كذب وتولى) عن الطاعة (ثم ذهب إلى أهله يتمطى) يتبختر افتخارا بذلك ، من المطا ، فانك ترى المتبختر يتم خطاه ، إذن أصله يتمطط (أولى لك فأولى) أى ويل لك مرة بعد مرة : أى أولاك الله ما تكرهه ، واللام مزيدة ، فيكون الفاعل مضمر والمفعول الثانى محذوف (ثم أولى لك فأولى) أى يتكرر عليه ذلك مرة بعد أخرى (أبحسب الإنسان أن يترك سدى) أى أبحسب الكافر أن يترك مهملا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يبعث ولا يجازى ، وكيف يهمل ؟ (ألم يك نطفة من منى يمنى) أى يراق فى الرحم (ثم كان علقة) أى صار إلى قطعة دم جامد (نخلق فسوى) نخلق الله منه بشرا سويا (فجعل منه) من الإنسان (الزوجين الذكر والأنثى) أى الصنفين (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) أى أليس الفعال لهذه الأشياء بقادر على إعادتها . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطيفة ذات شعبتين

الأولى فى قوله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة

الثانية فى قوله تعالى : ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة نخلق فسوى ،

فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى

فلنبدا الكلام على الشعبة الأولى ، وهى النظر إلى وجه الله ، ونبدأ بما ورد فى الصحيح فنقول ومن الله التوفيق :

جاء فى رواية البخارى ومسلم عن جرير بن عبد الله قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر ، وقال : انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لاتضامون فى رؤيته : أى لا ينضم بعضكم إلى بعض ولا تزدحون وقت النظر إليه ، فان استطعتم ألا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » .

وفى حديث رواه مسلم ، قال : « اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : هل تريدون شيئا

أز يدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ، قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى .

ويروى عن أبي رزين العقيلي . قال « قلت يا رسول الله : أكلنا يرى ربه مخلياً به يوم القيامة ؟ قال نعم ، قلت : وما آية ذلك في خلقه ؟ قال يا أبا رزين : أليس كلكم يرى القمورية البدر مخلياً به ؟ قلت بلى ، قال فآية أعظم ، إنما هو (أى القمر) خلق من خلق الله ، فآية أجل وأعظم . »

هذا ما أردت ذكره من الأحاديث في هذا المقام ، هأنذا إذا اطلعت على كلام النبوة ، وأنه صلى الله عليه وسلم أخبر في الصحيح أن الناس بعد أن ينالوا جزاءهم المادى في الجنة ينقلهم إلى مرتبة أعلى ومقام أجلى ، وهى أن يكشف لهم الحجاب فيرونه .

هذا هو الذى ورد في الصحيح ، ومعنى هذا أن السعادة قسمان : حسية ، وعقلية ، والحسية هى الجنة ونعيمها ، والعقلية النظر إلى وجه الله ، وقد فضل الله النظر إليه عن الجنة وجعلها أفضل منها .

واعلم أن هذا القول ليس يعقله جميع الناس ، وإنما يعقله الخواص ، وهأنذا أبين هذا المقام بعض التبيان فأقول :

اعلم أن نفوس بني آدم متفاوتة في هذه الأرض ، فمنهم من لا يحب ربه إلا لأجل اللذات الحسية ، وليس له منها إلا هذا الحظ ، فإذا قابل ربه فليس يحب لقاءه لذاته بل للفوائد المترتبة عليه ، وبيانه أن الخدم والعبيد وأصحاب النفوس الضعيفة لا يحبون المخدمين ولا السادة ولا العظماء إلا لحب . نفع أولدفع مضرة ، فأما المحبة المبنية على الاخاء والاخلاص وتناسب الأرواح وتمازجها واتفاقها فلا ، وكيف يحب الدليل العزيز والنفسان مفترقتان ؟ وكيف يكون الحب إلا بالاتحاد ، فالتحاد الأنفس في الصفات والأخلاق والعادات هو الموجب للحب ، وعدم الاتحاد هو الموجب للتفرق ، وحب العبد لله لن يكون قط إلا إذا كانت صلة ، وأين الصلة بين الخالق والخلق ، فلا سبيل للصلة بين الذايتين ، ولكن هناك أمر واحد هو العلم .

قد يحب الإنسان ربه لأنه آناه بلذات يشتهيها ، فإذا ذهبت تلك اللذات فآين ذهب الحب ، وإذا مات وقد حرم أهله وماله وتمتع به أعداؤه فآين يكون الحب ؟ إذن ؟ لا يبقى إلا أمر واحد هو العلم ، العلم هو مبدأ الحب الحقيقى ، وكلما ازداد العبد علماً بهذا العالم ازداد من خالقه قرباً ، وقرب العبد من الله بالعلم بما فى هذا العالم من الجمال والحكمة ، وهذا أمر لا يدرك إلا بثمرته الممارسة والنظر والفكر ، فهذا الحب يكون باقياً مابقى العلم ، فالغرمون بالعلم في الدنيا هم الفرحون بالنظر إلى وجهه يوم القيامة : أى بانكشاف الحقائق لنفوسهم ومعرفة ربهم معرفة أرقى من معرفة البصر ، إن البصر لا يرى إلا ظواهر الأجسام ، والعلم يدرك الظواهر والبواطن ، وكل يوم القيامة يعرف من الله على مقدار علمه في الدنيا ، ويرى العابدون ربهم رؤية أقل من رؤية العلماء بما لا يتناهى .

ألا فيجب للمسلمون كيف كانت رؤية الله الواردة في الصحيح أجل من الجنة ، وكيف كانت على مقدار العلم في الدنيا ، ولا معنى للعلم في هذا المقام إلا العلم بصفات الله ، وذلك بدراسة الآثار : أى بدراسة علوم الطبيعة والفلك ، وكل ما ظهر من العلوم في الأرض .

عجبا ! هل يعلم المسلمون ذلك ؟ هل يعلمون أنهم بالعلم في الدنيا ينظرون ربهم في الآخرة ؟ هل يعلم المسلمون أن قراءة العلوم الطبيعية والفلكية من الوجهة الإلهية ترقبهم عند ربهم يوم القيامة كما أن قراءتها من الوجهة الدنيوية ترقبهم في الدنيا ، إذن المسلمون اليوم نائمون عما يرقبهم من ربهم وعما يرقبهم في دنياهم ، إذن رقى دولهم في الدنيا ونبوغهم في علوم الكائنات هو نفسه يفتح لهم باب النصر والسعادة في الدنيا ، ونفس هذا الحب هو الباب للرؤية ، فاذن المسلمون اليوم لاهون عن أمرين : عن رؤية ربهم

يوم القيامة ، وعن الرقى في الدنيا ، أليس هذا من العجب ! جهالة في الدنيا واحتجاب عن الله ، ورقى في الدنيا ورؤية الله ، أحدهما بالجهل ، والثاني بالعلم ، هل يعلم المسلمون ذلك ؟ .
إياك أيها الذكي أن تشك في قولي إن الرؤية في الآخرة رابعة للعلم فقد قررها العلماء ، لا ترى الله بعينيك هاتين ، هاتان العينان ترى بهما الحيوان والإنسان والجماد وأمرأتك وأولادك ، فأما العلم فانه يرى بك المتقدمين والمتأخرين ، ويرى بك علوم الهندسة والحساب ، فأنت توقن أن زوايا المثلث تساوي قائمتين بعقلك لا بعينك ، فهناك رؤية أجل من رؤية العين ، فهذا مثل ضربته لك لتعلم أن الله يرى بعين أخرى غير هذه العين ، بل هي أرقى منها ، ومقدمة تلك العين العلوم في الدنيا ، وأنت اليوم تعرف نفسك فإن رأيت أنك مغرم بمجائب هذه الدنيا وحكمها وبهجتها لذاتها ، ورأيت في قلبك غراما بالصانع ، وكما زدت علما بالعالم الذي نحن فيه زاد قلبك حنينا إلى من صنع هذه الصنعة ، فاعلم أن هذا مبدأ لأساليب الرؤية ، فكما ازددت علما ازددت حبا وغراما وعشقا ، وهكذا يتوالى العلوم يتوالى الحب وتدمحو نفسك ، وترى أنك في عالم غريب عن ذلك الجمال وتمنى لو تكون في خلوة مؤتسما بهذا الجمال ، فاعلم أنك أنت الذي ستلاقي ربك ملاقة أفضل من ملاقة العابد الذي أحبه بالوجدان وحده وهو خال من العلم ، فرؤية القمر في الحديث ضرب مثل لما ذكرناه ، فإذا تمعقت بالعلم على الوجه الذي ذكرته لك رأيت في نفسك عجايب رأيت حبك للناس يزداد ، وترى في نفسك ميلا لرفيقهم ، ثم هم يقبلون منك ، أتدرى لماذا ؟ لأنك أهل للعلم وللتعليم لما بينك وبين الله من صلة ، وهي العلم ، فيمدك وتمتد الناس ، وإذا كثرت من الذكر اللفظي والقلي زاد تلك العلاقة . وهنا نذكر الشعبة الثانية :

الشعبة الثانية

وفيها مقامان : المقام الأول في قوله تعالى : « كلا إذا بلغت التراقي ، وقيل من راق ، وظن أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق ، فلا صدق ولا صلي ، ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى ، أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى ، يحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى ، ثم كان علقة خلق فسوى »

المقام الثاني في قوله تعالى : « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى »

[المقام الأول] يصف الله تعالى حال الإنسان عند الاحتضار بصفات :

- (١) أن تبلغ الروح التراقي صاعدة من الجسم إلى العالم الروحي .
- (٢) ويقول من حول المحتضر : من ذا الذي يرقبه ، ومن المرض يشفيه ؟ وفي ذكر [راق] من البلاغة ما يجز كل لبيب ويقف دونها كل منطيق ، وذلك أن حول المحتضر جاعتين ، أهله الباكون ، والملائكة الموكلون ، فينما أهله يقولون يرقبه من الرقية لبشفي من مرضه يقول الملائكة بعضهم لبعض من يرقى روحه إذا خرجت فيصعد بها إلى ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ، فهي إما للتورية ، وإما للكناية ، فهذه الكلمة لا يحمل غيرها محلها ، وهذه بلاغة تعجز أكار الفصحاء ، فانه لوحظ فيها عمل الملائكة وأعمال الإنسان ، وهذا كقول الشاعر :

خاطلى عمرو قباء * ليت عينيه سواء

وعمر و كان أعور فلا يدري أريد أنه يكون أعشى أو يكون صحيح العينين ، فهكذا هنا لا يدري أهو من رقية الشفاء ، أو من الترقية التي تتبع الموت ، والحقيقة أن ملاحظة المعنيين في هذا المقام من أدق التعبير ، وأعجب الأساليب ، وأبدع الأحكام ، فكأن الله يقول : ان الميت يندبه أهله ، ويكيه خاله وعمه ، ويطلبون

الطبيب لانقاذه من الموت ، والملائكة إذ ذاك يتشاورون في أمر هلاكه : وفوت أملاكه ، ولا يزال الأولون يطيبون والآخرون يقبضون حتى ترهق روحه إلى ذى العزة والجلال .

(٣) وظن المريض أن هذا هو الفراق .

(٤) والتفت الساق بالساق .

(٥) فهناك تصعد الروح إلى ربها .

(٦) ويحاسب على التقدير والقطمير وحب البر ، وحب الشخير ، وهنا قرع الانسان على جهله بما يأتي :

انه كان نطفة ، ثم علقه فقدّر الله خلقه ، ثم سواه ، وهذا المقام يشمل جملة علوم : التشريح ، وعلم الأجنة ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان ، وعلم الطب ، وعلم السياسة والاجتماع ، وعلم الأخلاق ، وعلم التربية ، وعلم المنطق أيضا ، وسيجيء في المقام الثاني علم اصلاح العالم الانساني الآن .

ذكرت لك سابقا أن النظر لوجه الله في الآخرة لن يكون إلا للعاشقين هنا ، ولا عشق إلا بعلم ، ولا علم في هذا المقام إلا بهذه العوالم الجميلة المحيطة بنا ، وقلت أيضا : إن العلوم التي بها نرقى أمتنا هي أنفسها التي بها نحب ربنا ونراه ، وقلت : ان المسلمين عن هذا القول معرضون .

أقول : كنا نود أن نوضح هذا المقام بنبرة من علم التشريح لم يسبق ذكرها في هذا التفسير من كتابي [الفلسفة] الذي ألفته للطبقة المتعلمة في البلاد المصرية وغيرها ، وهي تشمل : وصف القدماء للدماغ والغشاءين الرقيق والغليظ ، وكذلك ما فيه من التقاسيم والرثة والقلب ، وكيف يتفرّع الدم منه إلى كل جزء من أجزاء الجسم ، وهكذا الطحال والكبد ليوازن الأذكياء بين وصف القدماء ووصف علماء العصر الحاضر الذي تقدّم كثيرا في هذا التفسير مشروحا موضحا بالصور الشمسية لاسيما في أمثال [سورة فاطر] ولكن اخترت أن أرجئه لفرصة أخرى في ملحق التفسير ان شاء الله تعالى وطالت الحياة ، والله هو الولي الجيد .

وهذا التشريح في حد ذاته غير مقصود ، وإنما يقصد بجملة علوم :

(١) العلم الأول — علم الطب : إن الطبيب يعتمد كل الاعتماد على علم التشريح الدقيق المستوفى ، فهو يبحث ويعرف كل عضو في الجسد ومستقرّه ، فيعرف الرثة والقلب والطحال والكبد والمعدة والأمعاء الدقاق والغلاظ ، ويدرك العلاقة بين الأعضاء ، وبالجملة يكون الطبيب أعلم الناس بأعضاء الجسم وجميع ما يشتمل عليه .

(٢) العلم الثاني — علم الأجنة : المسمى [بيولوجي] ولست أقول ان علم التشريح يكون سبيلا لهذا العلم ، وإنما علم الأجنة بالنسبة لعلم التشريح أشبه بعلم اللغة بالنسبة لعلم الصرف ، فعلم الأجنة يبين سير الجنين في الرحم في بطن أمه والدرجات التي مرّت عليها أثناء الحمل فيه ، وأما علم التشريح فقد عرفته .

(٣) العلم الثالث — علم النبات ، وليس المقصود أن علم النبات نتيجة لعلم التشريح ، بل هناك اشتراك في بعض خواص ، وهاك بيانها :

إن النبات يتغذى وينمو ويلد ويموت ، وإيضاحه أنك ترى الانسان يزدد الطعام فتلقاه القوة الجاذبة فتتمسكه في المعدة الماسكة لئلا ينحدر قبل الهضم فتحضمه الهاضمة فتدفعه قوة أخرى وهي الدافعة ، ثم تتلقى الخالص النقي منه قوة أخرى وهي الغذائية ، ثم أخرى وهي النامية ، ثم يلد المثل فتكون القوة المصورة ، فهذه سبع قوى : الجاذبة ، الماسكة ، الهاضمة ، الدافعة ، الغذائية ، النامية ، المصورة .

فهذه القوى السبع في الانسان ، وفي الحيوان ، وفي النبات ، فهذا لما درسنا التشريح درسنا معه قوى النبات ، وقوى الحيوان الذي اشترك معه في تلك القوى السبع .

(٤) العلم الرابع — علم الحيوان : وقد علمت أن القوى السبع المذكورة عرفناها في الحيوان مع الانسان ، وهناك قوى أخرى خاصة بالحيوان والانسان ولا تكون في النبات ، وهي الحس والحركة ، والحس عبارة عن خمس حواس ، والحركة إما عن شهوة ، أو غضب ، أو لطلب والدفع ، فإذا درسنا حس الانسان وحركته فقد درسنا معه الوصفين في الحيوان .

(٥) العلم الخامس : من العلوم المناسبة للتشريح علم النفس ، ولقد بينت ما يخص منه في هذا التفسير ، والنفس فصل فيها القوة الشهوية ، والقوة العنصرية ، والقوة العاقلة ، وبينت خصائص تلك القوى وأحوالها

(٦) العلم السادس — علم التربية : وهو [البيداجوجيا] ، وهو الفن الذي به يعلم التلميذ بأسهل الطرق ، وهذا الفن له ارتباط بعلم النفس وعلم النفس مرتبط بالتشريح .

(٧) العلم السابع — علم السياسة : وذلك أن العلامة الفارابي ألف كتابا يسمى [آراء أهل المدينة الفاضلة] وهذا الكتاب مبني كله على علم التشريح ، فانك تراه شرح الرأس ، وفقر الظهر ، وأعصاب الحس وأعصاب الحركة ، وقال : إن النخاع الشوكي متصل بالسماع ، والأوامر تصدر من الدماغ محل الفكر إلى النخاع الشوكي ، والنخاع الشوكي موصل إلى الأعصاب المحيطة بالفقرات ، فتلحق أعصاب الحس الأخيار وتوصلها إلى الأعضاء العاملة ، فتتحرك بأعصاب الحركة بعد انتقال الأوامر من أعصاب الحس ، وجعل الجسم كله ما بين خادم ومخدوم كالقلم والمعدة والأمعاء والكبد والخالين والمثانة ، فكل واحد من هؤلاء خادم لما بعده ، وهكذا إلى آخرها ، فكما أن المنافع موزعة على الأعضاء هكذا أعمال المدينة توزع على الأشخاص كل بحسبه ، فلا توضع المعدة محل الرأس في التفكير ، هكذا نظيرها في نوع الانسان ، وعلى ذلك يوضع كل واحد في مركزه ، والرئيس في مركزه ، وإن لم يوجد رئيس مستوفى الشروط فليكن جمع فيه هذه الشروط ، وقال : إن الأمة كلها يجب أن تكون على هذا الوضع ، والأمم على سطح الأرض يجب أن يكونوا هكذا كأنهم جسم واحد ، وحينئذ تكون أرضنا كرة فاضلة ، هذا ملخص الكتاب الذي بنى على التشريح .

(٨) العلم الثامن — علم ما وراء الطبيعة : هأنت ذا عرفت أن علم التشريح أحاط به علوم سبعة من علم الأجنة إلى علم النبات والحيوان والنفس الخ ، وليس في علم من هذه الثمانية ، وهي التشريح وما اتصل به شيء من معرفة الله ، ولذلك تجد عالم النبات ، والحيوان ، أو النفس ، أو الأجنة ، أو عالم الاجتماع ، أو عالم البيداجوجيا ، أو عالم الطب ، كل هؤلاء ، وكذا عالم التشريح يعيشون ويموتون ولا يدرون ربهم ولا اليوم الآخر ، هذه هي الحقيقة واضحة جليلة .

إن التشريح ومأمعه من العلوم السبعة يتعلمها الناس في الشرق والغرب ولا تدلهم على خالق ولا بعث ، وأكثر الذين تعلموا هذه العلوم يكفرون بالديانات ، فاذن ما معنى قوله تعالى : « خلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » وقوله في أول السورة : « بلى قادرين على أن نسوى بنانه » ؟ الجواب على ذلك أن هذا علم يدرس بنفسه كالعلوم الأخرى ، وهو علم ما وراء الطبيعة : أي العلم الذي لا يختص بفن ، بل ينظر للعلوم كلها كأنها شجرة واحدة لها جذع وأغصان متفرعات عنه ويصبح العالم عند عالم هذا الفن كأنه شجرة واحدة متفرعة إلى فروع ، وكأنما هو جسم واحد له أعضاء متضامة ، فهؤلاء هم الذين يدرسون نظام الكون كله ، ويستخدمون جميع العلوم في علمهم ، فعنى كونه وراء الطبيعة أنه لا يختص بعلم الرياضيات ولا بعلم الطبيعيات ، بل هو علم عام يبحث في العلوم جميعها وتقسيمها ، ويستدل على العالم الذي لم نره وفي الله وفي النبوات وما أشبه ذلك ، ومنه مبدأ العلوم ، وهذا العلم هو طريق القرآن ، فصاحب هذا الفن ينظر من وجهة خاصة ، فليس ينظر من حيث سير الجنين في نموه ، ولا من حيث القوى الحيوانية ، أو النباتية ، أو

المرض والصحة ، وإنما ينظر من حيث حسن الصنعة والاتقان والابداع ، فما أصحاب العلوم السابقة إلا كأصحاب الحقول يزرعونها ولا يعقلون مازرعوا من علم النبات ، هكذا هؤلاء يعرفون علومهم ولكن لا يعينهم حسن النظام والاتقان والاستدلال على الخالق ، ثم حبه ، ثم الغرام ، ثم النظر إلى وجهه ، فينشد قوله تعالى « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » وقوله : « ألم يك نقطة من منى يبنى ، ثم كان علقة خلق فسوي ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » لا يدل على المقصود في هذا المقام إلا إذا نظر له من حيث الاتقان وابداع الصنع ، ثم انك تعلم أن العلوم السبعة المذكورة ضرورية للأمة ، والا كانت ذات نقص مشين ، فهذه العلوم كلها واجبة على الأمة لتحيا ، ولتحفظ ثروتها وقوتها ، وتصح أجسام أهلها ، ولكن ليس معنى هذا أنهم يعرفون الله بها ، بل إنما يعرف الله بالنظر الخاص من وجهة الصنعة والصانع ، فعلمت إذن أن العلوم المذكورة كلها مطلوبة ، لأنها واجبة فرض كفاية ، ومع ذلك لا بد من النظر لها من حيث الوجهة الإلهية حتى تدل على الصانع الحكيم وعلى قدرته .

ضرب مثل بالقصر

واعلم أن الناس في الدنيا أشبه بجماعة يسكنون قصرا بديعا ، فأكثر السكان مشغولون بملذاتهم وأحزانهم وأفراحهم ، وقليل منهم من فكروا في بنائه ، وحسن نظامه ، والاعجاب بالعالم الذي أبدعه ، والنظام الذي أخرجه ، والثروة التي أنتجته ، والغرام بمن بناه وحبه ، ثم الاقتداء به ، والشوق إلى لقائه ، هكذا أهل الأرض يسكنونها ويقرءون علومها ليعيشوا بها ، ومن العلوم التشرع المذكور في هذه الآية ، وما اتصل به من علم الأجنة والنبات والحيوان والطب وعلم النفس وعلم التربة وعلم السياسة العامة ثم علم الأخلاق لأن له اتصالا تاما بعلم النفس ثم علم المنطق ، يقرأ الناس هذه العلوم ليعيشوا بها ، ولكن هناك علم ما وراء الطبيعة ، وهو الباحث عن النظام العام كما شرحناه ، فليس يتقنه إلا قليل ، وهؤلاء عليهم قوام النوع الانساني واجتماع كلمته ، والأنبياء أوحى إليهم ما يؤيد هذا العلم ويتبعهم الحكماء .

فهل عرفت ما قلته لك : ان معرفة الله وارتقاء المدنية يرجعان لهذه العوالم المشاهدة ، فهي من حيث أنها متقنة توصلنا لصانعها ، ومن حيث أنها تنفعنا توصلنا لحياتنا الدنيا ، فهي للعقول مرقية ، ولله موصلة ، وللحياة متممة . انتهى الكلام على المقام الأول ، والحمد لله رب العالمين .

المقام الثاني في قوله تعالى : فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى

لعلك في المقام الأول هالك ماترى من علوم متعددة قد اقتضاها قوله تعالى : « خلق فسوي » وكيف كان علم البحث في النظام غير العلوم العشرة الأخرى ، وأنه لا يلزم من علم الطب أن يعرف الانسان الخالق مالم يدرس الدراسة المطلوبة ، فلئن عجبت من كثرة العلوم فلتعجب ألف مرة كيف يكون قوله تعالى : « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » قد تضمن علما هو معجزة آخر الزمان ، وهو حكمة القرآن ، فانظر وتأمل في الذكور والاناث على سطح الكرة الأرضية ، لقد ثبت يقينا أنك اذا حسبت الصنفين في مواليد الأمم شرقا وغربا أمة أمة ، وقرية قرية ، وبلدة بلدة ، وجموع الأمم وجدت الصنفين متكافئين عددا ، فعدد الذكور كعدد الاناث تقريبا ، وهذا التقريب للعوارض التي تحل بالأمم أحيانا ، ولما تحققت هذه النظرية فعلا ألفت كتابا مبينا عليها وعلى حسن النظام في العالم سميته [أين الانسان] فأين الانسان مرة هذه الآية وأمثالها كقوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » .

هذا الكتاب لما ألفته أرسلته إلى بعض جرائد أوروبا ومجلاها ، وساعدني على ذلك سيدة من علماء

بلاد روسيا ، فقد عرضته في مجتمع علمي ببلاد اليونان ، ومن أخذه الأستاذ [سنتلانه الطلياني] ، وخلص الكتاب تلخيصا ، وقرّظه في مجلته ، وترجمها المرحوم مصطفى بك رياض من التليانية إلى العربية ، والكتاب ألفته قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، وقد كنت أقول في نفسي : [إن أوروبا تريد ظلم بلاد الاسلام فلاؤلفن كتابا يكون حجة عليها في الأجيال المقبلة ، وليكون تذكرة للشبان المسلمين بعدنا . وملخصه يرجع إلى أن نظام هذه الدنيا والأمم والحكومات يجب أن يكون تابعا للنظام الإلهي ، فانا نجده جعل الذكور والاناث متساويين عدّا مما يدل أن هناك عناية بكل مخلوق ، وهكذا نجد العقول متفاوتة ، والأرض مختلفة البقاع والخواص ، ولا بد أن يكون هناك تناسب بين العقول والادراكات والخواص الانسانية وبين هذه الأرض وما عليها ، فليغير نظام الأرض والدول ، ولتكن أهم أرقى من هذه . ولما كان شرح الكتاب هنا يطول اختصرت القول ، وقد نقلت لك ما كتبه الأستاذ سنتلانه المذكور المترجم إلى العربية فيما تقدّم في هذا التفسير عند آية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » في سورة الحجرات ، فقد أثبتت هناك أن هذه الآية تخصّ المسلمين على أن يكون لهم وجهة تتجه إلى جمع العالم كله في هيئة تعارف عام ، فاقراء هناك :

- (١) لتطلع على آراء الاوروبيين وفلاسفتهم في النهضة التي نريدها للمسلمين .
- (٢) ولتعلم أن الاسلام يشير إلى مدينة أرقى من مدينة المسلمين اليوم وقبل اليوم ومدينة أوروبا الآن .
- (٣) وليكون ذلك داعيا أم الاسلام أن يأخذوا بمقاليد العلم والحكمة ويتخذوا لهم أسلوبا لترقية النوع الانساني .
- (٤) ولتعلم أن كتاب [أين الانسان] من أجلّ معجزات القرآن في هذا الزمان .
- (٥) وليعلم المسلمون أن ديننا الى الآن لم تظهر كوامنه ، وأن عجائبه لا تظهر إلا بحكماء وعلماء ومفكرين
- (٦) وليكون ملخص الكتاب الذي ذكرته مشوقا لك ومشجعا على سلوك سبل العلم والتفكير اهـ

تذكرة في قوله تعالى : بلي قادرين على أن نسوي بنانه

كتب يوم الثلاثاء ١٣ شوال سنة ١٣٥١ هجرية

اعلم أن مسألة تسوية البنان من أبدع ما جاء به الذكر الحكيم ، ومن أعجب المعجزات القرآنية ، لقد قدّمت في المجلد التاسع عشر من هذا الكتاب في تفسير [سورة فصلت] تفصيل الكلام على آية : « حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون » وهناك تقرأ تاريخ بصمات الأصابع ، وأنه تاريخ حديث النشأة ابتداء ابتداء حقيقيا في أيام حياتنا نحن سكان الأرض الآن : أي في أواخر القرن التاسع عشر المسيحي ، ودخل الآن في دور التنفيذ الفعلي في الشرق والغرب ، وذلك مبنى على أن كل امرئ في هذه الأرض لا تشابه خطوط أصابعه خطوط أصابع غيره ، وبذلك قامت هذه حجة على السارقين والقاتلين في أوروبا والشرق الأقصى والشرق الأدنى ، ومنها بلادنا المصرية ، فالقضاة في المحاكم الأهلية يعولون على بصمات الأصابع ، وهناك ترى رسوم أنواع الأكف بالتصوير الشمسي ، وأن خطوط الأصابع مهما تنوّعت تنحصر في أربعة أقسام ، وكل قسم تكون له أشكال لانهاية لها .

الله أكبر : إذن ذكر البنان في القرآن لحكمة لم يظهر أثرها في الحياة الدنيا ظهورا واضحا إلا في زماننا

وترى في [سورة يس] أيضا هيئة الشرطة في اليابان ، وكيف عثروا على الشاب الذي قتل معشوقته بطريق بصمات أصابعه .

إن رحمة الله تجلت في القرآن وفي الآفاق معجزات ومعجزات ، إذن لا عجب فيما أخبرني به صديقي محمود بك سالم الذي عاش أكثر حياته بأوروبا لاسيما فرنسا ، فقد قال في مجمع عظيم مصري وهو خطاب : ان عالما ألمانيا منذ بضع عشرات السنين اعتنق الاسلام ف قيل له لماذا ؟ قال الآية : « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » فان الكشف عن أمر بصمات الأنامل لم تعرفه أوروبا فضلا عن العرب إلا في زماننا هذا ، إذن هو كلام الله لا كلام البشر . وبهذا تم الكلام على [سورة القيامة] والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الانسان

هي مدنية

آياتها ٣١ - نزلت بعد سورة الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا
كَفُورًا * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن
كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ
وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا *
إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا
عَبُوسًا قَاطِرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَّاهُمْ بِمَا
صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَكَبِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا *
وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَيْدِيهِمْ تَدْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِن فِضَّةٍ
وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا
كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا
رَأَوْهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَلَيْهِمْ

ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٌ وَخُلُوا أُسُورَ مِنْ فَضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا *
 إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ
 تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ
 بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا * إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ
 وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا * نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أُمُرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا
 أَمْرَهُمْ تَبْدِيلًا * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا نَشَاءُ وَلَا إِلَهُ
 إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ
 عَذَابًا أَلِيمًا *

تتضمن هذه السورة على ثلاثة مقاصد [الأول] كيف خلق الله الانسان ؟ تتبنا لما ذكر في آخر سورة
 القيامة ، وذلك من أول السورة إلى قوله : « سميعا بصيرا » [الثاني] في جزاء الشاكرين والكافرين ،
 ووصف الجنة والنار ، وذلك من قوله : « إنا هديناه السبيل » إلى قوله : « وكان سعيكم مشكورا » .
 [الثالث] أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر ، وذكر الله ، والتهجد بالليل ، وذلك من قوله تعالى : « إنا
 نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا » إلى آخر السورة . وللشرح في تفسير السورة فنقول :

المقصد الأول : كيف خلق الله الانسان ؟

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(هل أتى على الانسان) أى قد مضى عليه (حين من الدهر) طاقة محدودة من الزمان الممتد الذى
 لاحد له حال كونه (لم يكن شيئا مذكورا) أى لا يذكر ولا يعرف ، ولا يدرك ما اسمه ، وما المراد منه ،
 وإنما كان يسمى بأسماء مختلفة ، فأما آدم أبو البشر فانه بقى أربعين سنة طينا ، وأربعين سنة حرا مسنونا ،
 وأربعين سنة صلصالا كالنخل ، فتم خلقه فى مائة وعشرين سنة كما يقال فى الآثار ، وهذه السنين ربما
 كانت رمزا إلى أزمان طويلة مجهولة لنا ، وأما بنو آدم فانهم يسمون قبل خلقهم بهيئة الانسانية نطفة فى
 الأصلاب ، ثم علقا ، ثم مضغا فى الأرحام ، وفى تلك الأيام لم يذكروا بشيء ، ثم أتبعه بذكر تاريخ العناصر
 الداخلة فى الانسان قبل تكونه فى الأصلاب الأرحام فقال (إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج) أى
 أخلاط حال كوننا (نبئناه) أى مرادين اختباره (فجعلناه سميعا بصيرا) ليتمكن من مشاهدة الدلائل ،
 واستماع الآيات ، والتفكير والتفكر ، ذلك أننا خلقناه من النطفة ، وهى تكون فى الرجل وتكون فى المرأة ،
 فهاتان النطقتان باتحادهما يتكون الجنين ، ومن أين هاتان النطقتان ؟ هاتان النطقتان مخلوقتان من عناصر
 مختلفة وتلك العناصر آتية من النبات والحيوان والداخلين فى طعام الآباء والأمهات ، ومن الماء الذى يشربونه ،
 والأملاح التى يتعاطونها ، وجميع المواد التى دخلت فى أصول التغذية من الطعام والشراب عشرة ، وهى :

الأوكسوجين ، والأودروجين ، والكر بون ، والأوزوت ، والكبريت ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، والمغنسيوم ، والكلسيوم ، والحديد .

فهذه هي العشرة التي تدخل في كل نبات ، ومن باب أولى في كل حيوان لأنها طعامه ، وفي كل انسان فالنطفة إذن مكونة من هذه الأمشاج العشرة ، فهي أخلاط كقوت ومزجت وصارت دما فنطفة فعلاقة الخ جعل لها السمع والبصر والعقل ، وهذه من عالم أشرف من عالم المادّة الميّتة التي هي في أسفل درجات النقص والكمال إنما نزل إليها من عالم أرقى منها ، وهو العالم الإلهي الروحي ، فلما أن ترجع إلى حب المادّة والاستكانة لهذه المشاهدات ، وأما أن تجتد وتفتكر فتراجع إلى عالم الكمال والجلال بالعلم والعمل : وهذا هو قوله تعالى : « نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » : أي نعامله معاملة المختبرين ، أيمل لأصله الأرضي من الأمشاج ليكون حيوانيا نباتيا معدنيا شهوانيا ، أم يكون إلهيا معتبرا بالسمع والبصر والعقل التي من طباع أرقى من طباع المادّة التي تكون فيها ، فإذن الانسان مكون من عالمين : عالم فاعل ، وعالم منفعل ، فالعالم الفاعل عالم الروح وهو إلهي ، والعالم المنفعل عالم المادّة ، وهي الأمشاج ، فإذا حكم النفس وقهرها بحيث يتجاوز عن أخلاق المادّة وعن الشهوات فقد صفت نفسه ، وسمت إلى عالم أعلى ، وإن صفت ومالت إلى المادّة فإنها ترجع إلى أخلاقها وتدخل في جهنمها وعذابها في الدنيا بالحيرة والشكوك وتشابه أخلاط المادّة عليها وذهولها من تتبعها « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » ولذلك أعقبه بالمقصد الثاني :

المقصد الثاني : في جزاء الشاكرين والكافرين ، ووصف الجنة والنار

قال تعالى (إنا هديناه السبيل) فأعطيناه السمع والبصر والفؤاد ، وأرنا له المحجة ، ونصبنا له الدلائل في الأنفس والآفاق ، ليتعد عن أصله الأرضي إلى سببه السماوي ، فهناك حواس وعقل له في نفسه ، ويقابلها مخلوقات أرضية وسماوية تكون مسرحا لفكره ، ومغنا لعقله ، فنحن إذن هديناه السبيل حال كونه (إما شاكرا وإما كفورا) فبعض الناس شاكر بالاهتداء ، وبعضهم كفور بسبب الاعراض عنه . ثم شرع يبين حال الفريقين فقال (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل) ليقادوا بها (وأغلالا) بها يقيدون (وسعيرا) بها يحرقون (إن الأبرار) جمع برّ كآرباب جمع رب (يشربون من كأس) الكأس الزجاجية فيها الخمر ، أو يراد بها نفس الخمر مجازا (كان مزاجها كافورا) أي كان ممتزج به كافورا ببرودته وعذوبته وطيب عرقه ولا جرم أن مافي الدنيا ليس فيه مما في الجنة إلا الاسم ، فإذا قال المفسرون انها اسم لعين في الجنة مأوها في بياض الكافور ورائحته وبرده ، فقد قالوا ما يؤخذ من اللفظ ، والافني الجنة ملاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وإنما أخذوه من قوله تعالى (عينا) لأنها بدل من كافورا ، ومعلوم أن الكافور لا لذة فيه ، وشرابه مضر ، فإذن يرجع المعنى إلى الأوصاف المذكورة من البرودة والرائحة الخ (يشرب بها) أي يشرب منها (عباد الله) أي أولياؤه (يفجرونها تفجييرا) يقودونها إلى منازلهم وقصورهم حيث شاءوا سهلا لا يمتنع عليهم ، فهؤلاء يشربون منها على طريق مزاجها بالخمر . ولما كان هذا النعيم له أسباب في الدنيا أعقبه بقوله (يوفون بالنذر) بما أوجبوا على أنفسهم ، ولا جرم أن من وفي بما أوجبه على نفسه فهو على الوفاء بما أوجبه الله عليه أوفى (ويخافون يوما كان شره مستطيرا) أي شدائده منتشرة ، يقال استطار الفجر : انتشر وظهر (ويطعمون الطعام على حبه) أي مع الاشتاء والحاجة إليه ، أو على حب الله (مسكينا) فقيرا عاجزا (ويتبنا) صغيرا لا أب له (وأسيرا) مأسورا من أسارى الكفار ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يؤتى له بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول أحسن إليه ، فهؤلاء يطعمون الطعام حال كونهم يقولون في أنفسهم (إنما نطعمكم لوجه الله) فلا تمنّ عليكم ، أو نتوقع المكافأة فإنها تنقص الأجر ، وقد كانت عائشة

رضى الله عنها تبعت الصدقة إلى أهل بيت من البيوت ، ثم تسأل المبعوث فان ذكر دعاء دعت لهم بمثله ،
 ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند الله ، فنحن نطعمكم حال كوننا (لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) أى
 شكرا (إنا نخاف من ربنا) فلذلك أحسنا إليكم ولم نطالب المكافأة منكم (يوما) عذاب يوم (عبوسا)
 تعبس فيه الوجوه (قطريرا) شديد العبوس ، يقال : اقطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجعت قطريها
 (فوقاهم الله شر ذلك اليوم) لأنهم خافوا وتحفظوا (ولقاهم نضرة وسرورا) بدل عبوس الفجار وحزنهم
 (وجزاهم بما صبروا) على أداء الواجبات ، واجتناب المحرمات ، والايثار على أنفسهم بالأموال (جنة)
 بستانا يأكلون منه (وحريرا) يلبسونه حال كونهم (متسكنين فيها على الأرائك) جمع أريكة ، وهو
 السرير فى الحجلة ، والحجلة هى الناموسية المعروفة ، ولا يسمى السرير أريكة إلا داخلها (لا يرون فيها
 شمساً ولا زمهريرا) أى لا يؤذيتهم حر الشمس ولا برد الزمهرير كما كان يؤذيتهم فى الدنيا ، والزمهرير أشد
 البرد ، فهو أجنة معتدل ، فلا هو حار محم ولا بارد يؤذى . ويقال فى لغة طي : الزمهرير القمر . قال راجزهم :
 ليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير مازهر

فيكون المعنى على هذا أن جنة الجنة مضى بذاته لا يحتاج فيه إلى شمس ولا إلى قر ، وإذا كان الأمر
 كذلك دل هذا على أن الأحوال هناك مخالفة كل المخالفة لعالم أرضنا ، فلا البستان ، ولا الحرير ، ولا السرير ،
 ولا الأريكة كالذى نشاهده فى الدنيا ، بل هى مخالفة كل المخالفة كما قاله ابن عباس . قال تعالى : (ودانية
 عليها ظلالها) أى قريبة منهم ظلال أشجارها : أى وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها ، ويصح أن تكون
 حالا أخرى : أى حال كونهم متكئين وغير راثنين ودانية (وذلت قطوفها تذليلا) أى سخرت للقائم والقاعد
 والمتكئ : أى تدنو ظلالها عليهم فى حال تذليل قطوفها عليهم ، ويصح أن تقول : ودانية عليهم ظلالها
 ومذلة الخ ، والقطوف الثمار ، جمع قطف (ويطاف عليهم بآنية من فضة) أى يدير عليهم خدمهم
 كؤوس الشراب ، والآنية جمع إناء ، وهو كأس الشراب (وأكواب) أى من فضة ، جمع كوب ، وهو
 ابريق لا عروة له (كانت قواريرا ، قوارير من فضة) أى تكونت جامعة بين صفاء الزجاج وشفيفها ،
 وبياض الفضة ولينها : يعنى أن آنية أهل الجنة من فضة بيضاء فى صفاء الزجاج ، فيرى ما فى باطنها من ظاهرها
 وقوارير كل قوم تشاكل أرضهم ، وأرض الجنة أشبه بالفضة ، ولا جرم أن قوارير الدنيا من الرمل وبعض
 العناصر ، وقوارير الجنة من الفضة ولكنها تكون أصفى منها ، وقرى قوارير من فضة بالرفع : أى هى
 قوارير ، وهو على النصب بدل (قدروها تقديرا) أى ان السقاة والخدم الذين يطوفون عليهم قدروها لهم
 على قدر كفايتهم لا تزيد ولا تنقص ، فهى على قدر رى شاربها ، فهى ألد لهم وأخف عليهم ، لا تفيض
 ولا تنقص (ويسقون) أى الأبرار (فيها) فى الجنة (كأسا) خرا (كان مزاجها زنجبيلا ، عينا)
 بدل من زنجبيلا (فيها) فى الجنة (تسمى) تلك العين (سلسبيلا) فى تلك العين طعم الزنجبيل ، ولا
 جرم أن العرب تستلذه وتستطيبه ، وسميت زنجبيلا لذلك ، وسلسبيلا لسلاسة انحدارها فى الخلق ، وسهولة
 مساغها وعدوتها وطيبها ، وإنما جعل العرب الزنجبيل فى شرابهم ، لأنه يحصل فيه ضرب من اللذع . قال
 الأعشى :

كأن القرفل والزنجبيل * بانا بفسها وأريا مشورا

الأرى : العسل ، والمشور المستخرج من بيوت النحل . وقال المسيب بن علس :

فكأن طعم الزنجبيل به * إذ ذقته وسلافة الخمر

فلذلك وصف الله به شراب أهل الجنة ، وشراب أهل الجنة على برد الكافور ، وطعم الزنجبيل ، وريح
 المسك ، ولا جرم أن هذا كله ما هو إلا أسماء لما فى الدنيا ، وهناك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، فالمعاني

غير مانعهم ، والألفاظ مجرد تخيل شيء نراه كما حنقه ابن عباس (ويطوف عليهم ولدان مخلدون) دائمون (إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) من صفاء ألوانهم ، وانبثثهم في مجدهم ، وانعكاس شعاع بعضهم إلى بعض ، واللؤلؤ المنثور أزين في النظر من المنذور (وإذا رأيت ثم) أي في الجنة : أي إذا رأيت بصرك ونظرت به (رأيت نعيما) لا يوصف عظمه (وملك كبير) فأدباهم منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه ، هذا ملك غير العارفين ، أما ملك العارفين فليس يحده ثبات الألوف بسير الضوء لا بسير الناس ، فإن العلوم والمعارف إذا انتشرت في نفس العارف واطمأن على تلك العوالم التي ذكرناها في هذا التفسير في سور مختلفة ورأى أن نظامها متناسق أصبح ينظر إليها نظرا الفرح بما ملك ، وتصبح هذه كلها لجنة له وسرورا لا يفارقه ، فالعلمجنة العارفين (عليهم ثياب سندس) أي يطوف عليهم ولدان حال كون المطوف عليهم عليهم ثياب سندس ، وهو رقيق الديباج (خضر) جمع أخضر (واستبرق) غليظ (وحلوا أساور من فضة) أي وقد حلوا أساور من فضة . قال ابن المسيب : لا أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاث أسورة : واحدة من فضة ، وأخرى من ذهب ، وأخرى من لؤلؤ ، وهذا يجمع بين ما هنا وما في سور أخرى (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) وهذا الشراب غير ما تقدم وأرق منه ، فشراب الله غير شراب السقاة في الجنة ، فشراب السقاة بآنية الفضة والأكواب والسكاس التي مزاجها زنجبيل ، وهذه يطاف عليهم بها ، أما الشراب الطهور فالذي يسقيه لهم ربهم ، ووصف بالظهور لحكمة سأذكرها في أواخر تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى ، ثم يقال لأهل الجنة (إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) مجازي عليه غير مضيع ، وشكر الله لعباده أن يرضى منهم بالقليل ، ويعطيهم الجزيل من الخيرات . انتهى المقصد الثاني .

المقصد الثالث : أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر ، وذكر الله ، والتهجد بالليل

قال تعالى (إنا نحن نزلنا عليك) يا محمد (القرآن تنزيلا) متفرقا آية بعد آية ، ولم نزله جملة واحدة لحكمة بالغة تقتضي تخصيص كل شيء بوقت معين ، فليثبت قلبك وليشرح صدرك (فاصبر لحكم ربك) بتأخير نصرته على كفار مكة وغيره (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) أي لا تطع كل واحد من مرتكب الآثم ومن متجاوز الحد في الكفر ، فأمر بمعنى الواو ، فإذا قال لك الآثم وهو عتية : اترك الصلاة وأنا أزوجه ابنتي وأسوقها إليك بغير مهر ، وإذا قال الكفور ، وهو الوليد بن المغيرة : أنا أعطيك من المال حتى ترضى إذا رجعت عن هذا الأمر ، فلا تطع واحدا منهما ولا غيرهما ، فقد أعدنا لك نصرا في الدنيا وجنة في الآخرة قد عرفت وصفها ، فاستعد للنعم المقيم بالصبر أولا ، وداوم على ذكر ربك لاسيما وقت صلاة الفجر ووقت الظهر والعصر ، وهذا قوله تعالى (وإذا كرا سم ربك بكرة أصيلا) فهو إما بمعنى الدوام ، وإما بمعنى الوقتين المذكورين (ومن الليل فاسجد له) أي وبعض الليل فصل له تعالى كصلاة المغرب والعشاء (وسبحه ليلا طويلا) أي وتهجد له طائفة من الليل طويلة ، فأما هؤلاء فانهم غافلون عن هذه المعالي (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم) أمثالهم (يوما ثقيلا) شديدا ، فالثقل يكون باهظا للحامل ، فلذلك أمرناك بصلاة المغرب والعشاء وصلاة التهجد الطويلة لتسكون في مأمن من هذا اليوم الثقيل ، وكيف يغفلون عنا (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) وأحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب ، فلأسر الأوصال قد شددت بعضها إلى بعض بالأعصاب وامتدت فيها العروق وانصبت وشدت عابها فكيف نتركهم سدى بعد هذا الأحكام والعناية في الخلق (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) فإن عادتنا أن نزيل ما لا يصلح للرقى من خلقنا ، فهلاك هؤلاء ونبدل أمثالهم فنجعلهم مكانهم يكونون أطوع منهم (إن هذه) السورة (تذكرة) كسائر القرآن (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) تقرب إليه بالطاعة (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) أي وما تشاءون ذلك إلا وقت

أن يشاء الله مشيئكم (إن الله كان عليماً) بما استعد له كل أحد (حكيماً) لا يشاء إلا على مقتضى الحكمة والنظام العدل (يدخل من يشاء في رحمة) فيهديه ويوفقه للطاعة على حسب استعداده (والظالمين) الذين لم يستعدوا للهداية (أعد لهم عذاباً أليماً) انتهى التفسير المألف للسرور للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : « إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » .
- (٢) في قوله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً » .
- (٣) في قوله تعالى : « ولقاهم نضرة وسرورا » .
- (٤) في قوله تعالى : « وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً

يقول الله : إن الانسان مخلوق من نطفة ، والنطفة مكونة من أمشاج ، وما الأمشاج في الانسان إلا الأكسوجين ، والأدروجين ، والسكرتون ، والأوزون ، والكبريت ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، والمغنيسيوم ، والحديد .

فهذه هي الأمشاج والأخلاط التي كوّن منها الانسان ، والانسان يتولد فيه النطفة ، والنطفة يتكوّن منها انسان جديد ، فهذا الانسان مبدؤه من الحديد والفوسفور والكبريت الخ .
الانسان مركب من مواد بعضها محرق ، فالفوسفور سريع الاشتعال متى عرض للهواء ، والبوتاسيوم جسم أبيض فضي لامع لين كشمع العسل يصهر على درجة ٩٢٥° ويتطاير على درجة دون الاحرار ، ولون بخاره أخضر جيل ، ومتى لامس الهواء تغير لونه ، ومتى أُلقيت قطعة من البوتاسيوم في الماء فانك ترى كرات البوتاسيوم تحمر بسبب شدة ارتفاع الحرارة الناتجة عن التفاعل ، ويلتهب الادروجين المتصاعد ، وتدور كرات البوتاسيوم بعضها على بعض سابحة على بعد من سطح الماء ، ثم بعد زمن تحوّل إلى بوتاسا وتسقط على الماء فيتكوّن بخار الماء ، وتحصل فرقة بسبب التفاعل . والبوتاسيوم داخل في تركيب ملح البارود ، والبارود يدخل في تركيبه ملح البارود المذكور والكبريت والفحم ، ومعلوم أن الفوسفور داخل في تركيب العظام ، حتى ان الأنوار التي تشاهد من وقت لآخر فوق المقابر إنما نشأت من ملامسة الفوسفور للهواء الجوي فتحصل إضاءة .

فهذه أربعة عناصر من عشرة كلها نارية وثلاثة منها لتركيب البارود ، ثم الحديد يظهر أثره في الكرات السميوية ، فلولا الحديد لم يكن فيها لون الحرة .

انظر أيها الذكي إلى صنع الانسان ، انظر إلى عناصر يدخلها هذه المواد الجهنمية المحرقة ، ألا ترى أن تفاعلها مع بقية العناصر اطفأ حثتها ، ماهو السر الذي أوجب أن تكون هذه المتناقضات ذات حسن وحركة وعقل ، فوسفور وبارود مع مواد أخرى تصبح عاقلة وفكرة حكيمة .

جسم الانسان ذومادة مشتعلة ، لذلك نراه يحب القتال ، نراه يستعمل بعض عناصر جسمه لاهلاك غيره ، يصنع البارود من الفحم وأخويه ويقذف به على أبناء جنسه ، خلق الانسان من صلصال والصلصال هو الفخار ، والفخار طين أُجيت عليه النار ، والانسان دخلت في تركيبه المواد النارية .

الانسان ذو روح غير ساكنة كثيرة الحركة كثيرة الثوب لا تقف تتقلب ، فبينما هي تفكر في الخير اذا

هي انتقلت إلى الشر ، وإذا فكرت في مكان شرقي انتقلت إلى نظيره في الغرب من غير زمان ، وإذا فكرت في الماء الشفاف الجليل تذكرت نجوم السماء بلا زمن ، فنفوسنا لا تدرك لها تقطع الفياض والأبعاد الطويلة بلا زمان .

هذه قدرة هائلة ، لذلك وضعت في قطعة من المادة محترقة ، وكيف تعيش الروح ذات الحركات البعيدة والتنقلات المدهشة إلا في مكان يناسبها ، لا بد من المناسبة بين المكان والسكان ، فالكبريت والفوسفور واليوتاسيوم ، كل هذه أجسام وثابة طيارة فجعلت فيها النفس الطيارة الوثابة « وربك يخاف ما يشاء ويختار » حكم نسجت بيد حكمت ثم انتسجت بالمتسج

لذلك نرى الأجسام الحيوانية والانسانية سريعة الذوبان تموت بلا بطء وتتحلل سريعاً في أزمان مختلفة ، هذا هو السبب في قراءة الحكمة ونزول البيانات تنبيهاً للناس أن حياتهم لا تدوم ، وكيف تدوم والجسم مركب من عناصر سريعة الانفصال ، قليلة الثبات ، متقلبة ، فالجسم ذائب ، والروح بحركتها السريعة ترجع إلى عالمها اللطيف . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً

هذه الآية ترجع إلى الاحسان واذابة المهجة في خدمة النوع الانساني ، إن الآية مدح في السخاء بحيث يكون الانسان نعمة على الفقراء من أمته والضعفاء ، وعلى من هو أجنبي عنه ، بل هو من أعدائه ، فالمسكين واليتيم قد يكونان من أمته ، فأما الأسير فانه من قوم أعداء حاربوهم فأُسروا فربما منهم ، فهؤلاء الأسرى حمد الله الاحسان إليهم ، فليخص الآية أن الانسان يجب أن يكون نورا وناهما لبني وطنه وغيرهم ، فإن جميع الناس عباد الله وأقر بهم إليه أطفهم بعبادته ، وكلما زاد الانسان رافة بهم زاد من الله قرباً . هذا هو الصراط المستقيم ، فليكن الانسان على سنن الله وصراطه المستقيم ، ألا ترى أنه أرسل الشمس والقمر والنجوم ، فأضاءت على البر والفاجر ، والحيث والطيب ، والصحيح والمرضى ، فكما عم نفع الانسان كان إلى ربه أقرب ، ويشاهد ذلك في الالهامات التي تتوالى عليه ، وفي المساعدات الدائمة ، فلتكن فيك خصلتان : حب العلم مع حب الله ، وحب الناس ، ففكر فيهما وتخلق بهما والله يكون معك ، فهذا هو المقصود من الآية .

أما ذكر السبب وتعيينه في نزول الآية كأن يروى أنها نزلت في رجل يسمى أبا الدحداح من الأنصار صام يوماً ، فلما كان وقت الافطار جاء مسكين ویتيم وأسیر ، فأطعمهم ثلاثة أرغفة ، وبقى له ولأهله رغيف واحد ، أو كأن يروى أنها نزلت في سيدنا علي رضي الله عنه ، إذ نذر هو وفاطمة رضي الله عنهما وقضة جاريتيها أن يصوموا ثلاثة أيام إن برئ الحسن والحسين ، فلما برئنا واستقرض علي رضي الله عنه صاعاً وخبز خمسة أقراص ، فوضعوها بين يديهم ليفطروا ، فلما جاء مسكين أعطوه ولم يأكلوا ، وفي الليلة الثانية وقف يتيم فأعطوه ولم يأكلوا ، وفي الليلة الثالثة أسير .

فسواء كان السبب هذا أو ذاك أو غيرهما فلا تضع زمانك في تحقيق الحوادث ، واشتغل بما هو أهم لك ، وهو مقصود الآية أن تكون عوناً لجميع الناس في وطنك وغير وطنك .

وان من شرائط العلق * العطف في البؤس على العدو

فأما العامة فانهم لاحظ لهم إلا أن يتسلوا بتلك الحكايات ويتفككوا بها ، ويرون أنهم لا قبل لهم بشيء من هذا ، فأما العالم فانه يعتبر بذلك ويفكر في إسعاد نفسه ورقبه بأشرف الأخلاق وأجل الأعمال . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : ولقاهم نضرة وسرورا

إن تلك النضرة والسرور هما اللذان يؤخذان من قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » فهذه النضرة والجمال في الوجوه سببهما النظر لوجه الله ، والنظر لوجه الله يرجع إلى العلم والحكمة ، فعلى مقدار العلم بالصنعة يكون اقرب من الصانع ، وهنا يمكن ايضاح هذا المقام في اللطيفة الآتية :

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : وسقاهم ربهم شرابا طهورا

هنا يقف القارئ رقيقة ليعرف أين محل الطهور من الشراب ؟ وأي مناسبة للشراب حتى يوصف بالطهور ؟ إن الطهارة ليست من صفات الشراب التي تجعله لذيذا في الطعم ، بل يقال ماء فرات ، أو شراب لذيذ ، أو شراب ممزوج بالزنجبيل ، وما أشبه ذلك مما تقدم في هذه السورة ونحوها ، فليس الطهور من الصفات التي بها تكون اللذة ، وإنما يحسن هذا الوصف للماء الذي نتطهر به من الحدث والنجس فيقال طهور ، نعم إن الماء الطهور قد يكون صالحا للشرب ، لكن ليس وصف الطهارة هو الذي جعله كذلك بل العذوبة وكونه باردا وما أشبه ذلك من كونه خاليا من المواد الضارة للإنسان ، وأن تكون جراثيمه قد ذهبت منه ، وأن يكون مرققا مصفى ، إذن فلتنبعث عن السبب في ذكر الطهور والا كان هذا مما لا يناسب البلاغة والنصاحة ، وإذا كان اقرآن أفصح كلام وأبلغه فلماذا يكون هذا التعبير ؟ فنجيب على ذلك بما يأتي :

اعلم أن الوصف بالطهارة إنما جاء هنا ليوجه القول إلى المقصود من الجنة ومن النعيم فيها ، وليدلنا على المقصد الذي ترمى إليه تربية الانسان في هذه الدنيا .

إن أحوال الجنة التي ذكرت في هذه السورة وغيرها لا تعدو أمرين اثنين لا ثالث لهما : لذة جسمية ، ولذة روحية ، فاللذة الجسمية واضحة في هذه السورة ، فترى البساتين والولدان والخر الممزوجة والأرائك والجو الممتلئ والحرارة والضوء الجليل البهج بلاشمس ولا قمر والظلال والقطوف الدانية والنعيم والملك الكبير والثياب من سندس أخضر وحرير غليظ ، والتحلى بالأساور الفضية والذهبية والمؤنثة ، والنساء الجيلات ، والخور البديعات المقصورات في الخيام التي لم يطعمهن أنس قبلهم ولا جان .

هذه مجامع النعم الجسمية ، أما النعم الروحية فهي طهارة نفوسهم من عالم المادّة وخلوصها من الطبيعة ، وارتقاؤها إلى عالم القدس والأرواح وقربها من العالم الإلهي البديع ، وكلما كانت أبعد عن المادّة كانت أقرب إلى الله وأكثر اطلاعا على بهجة العوالم ونظام الخليقة العام ، فإذا كانت اللذات الجسمية تعترض بأيدي الخدم ويطوف بها عليهم ولدان ويحظون بالخور ، فاللذات العقلية ينالونها من ربهم مباشرة ، فلذلك قيل : « وسقاهم ربهم » وهل يسقى الله إلا ما كان أقرب إلى الكرامة والعالم الروحي العالى ، فاستناد السقى إلى الله راجع إلى أن الشراب ليس جسميا ، فالولدان يطوفون بالأكواب والأباريق ويسقون الخمر ، والله لا يسقى الخمر ولا يعطى شرابه في أكواب وأباريق ، ولكن شراب الله العلوم والحكمة ، وههنا يفهم ذكر الطهور ، فالطهارة هنا الخلوص من المادّة بجميع أنواعها ، وهذه أعلى اللذات في الجنة ، وإياك أن يهيجس في قلبك أن المفسرين الذين أشاروا إلى هذا كانوا مخدوعين ، أو أنهم قالوه مجرد التقليد ، إياك أن يهيجس في نفسك هذا وأمثله ، وإنما يحظر هذا في بال الذين هم محجوبون لم يتعلموا تعليما كاملا .

اللذات الحسية واللذات العقلية في الحياة الدنيا

اعلم أن الناس في هذه الدنيا يتمتعون باللذتين : الحسية والعقلية وهم لا يشعرون ، وأن رضى اللذات

المذكورين في هذه السورة قد وجدت مقدماتهما في الدنيا ، ولأضرب لك مثلين :

[المثل الأول] : انظر إلى الرجال والنساء في الكرة الأرضية ، انهم في أول حياتهم لا ينظرون من الحياة إلا إلى شهواتهم الجسمية ، فالرجل يريد المرأة والمرأة تريد الرجل للشهوة البدنية ، ويأكلون ويشربون ويستلذون لقضاء ما ترب الأتس وحدها ، فإذا انقضى الدور الأول من الحياة جاء دور آخر فرأينا الرجل والمرأة أخذاً يتركان تلك اللذات ووجدناهما مكبيين على طفل أو طفلة ، فأخذوا يقبلانه معا ، فبعد أن كانت القبل محصورة بينهما أصبحت منصبة على الطفل وعلى الطفلة ، وكلما ازدادا كبرا ازدادا زهدا في أنفسهما وحرصا على أبنائهما ، فلا يزالان يتبعدان عن المادة لأنفسهما ويقتربان من التخلي عنها لأبنائهما ، حتى إذا قرب الرجيل ودعا العالم وفرحا بأن لهما خالفا يقوم مقامهما .

الرجل والمرأة عاشا في أول الحياة باللذة الجسمية ، وفي آخرها باللذة العقلية ، فهذا انتقال طبيعي من حال جسمية إلى حال عقلية ، ألا ترى أن الرجل يفدى ولده بماله إذا وقع في خطر ، مع أن كثيرا من الأبناء لا يرجي منهم نفع لأبائهم ، فإن طبيعة الحياة الحيوانية المحافظة على النسل بدون مقابل ، فأما المنافع المادية التي قد تكون من الأبناء فهي أشبه بالظل للشجر يأتي غير مقصود لذاته . انتهى المثل الأول .

[المثل الثاني] : من المعلوم أن ما يفعل بالطبيعة عاما للناس يجوز فعل مثله بالارادة ، وما كان بالارادة أرقى مما كان بالطبيعة ، نرى الناس جميعا يحرسون على أولادهم ويندبونهم بمالهم ، ويقدمون لهم كل ما يمكن أن يكون لتعليمهم ، بل أننا نرى فوق ذلك أن الأبناء في الأم التي ارتقت يبذل آباؤهم عليهم كثيرا من أموالهم ليكونوا قادة الشعوب ورؤساء في الحكومات ، وقليل من هؤلاء المتعلمين الذين لهم رواتب باهظة في الحكومات من يفضل عن مصرفهم شيء لأبائهم ، فإن مناصبهم ومظاهرهم تحتم عليهم أن يصرفوا كل ما يأتهم ولا يبق شيء إلا لمن كان . قنرا أو كان مرتشيا ، ولا يبق غالبا للأمهات وللآباء شيء ، ومن غير الغالب نجد منهم المواسين المسكرين للأبوين ، فهذا كله جاء من قبيل الفطرة لعمومه سائر الناس . فأما ما يأتي بالارادة فهو الحكمة والعلم وخلوص القلب لهما ، وهما نادا أئينه لك فأقول :

اعلم أننا نرى الناس في الشرق والغرب ينقادون للممتازين بالحكمة والعلم ، أولئك في الدنيا والصالح ، وهذه غريزة في النوع الانساني وفطرة فيه شائعة بحيث تجدها في كل أمة ، فالعامة من كل أمة والخاصة يحترمون الأنبياء ، والعامة وحدهم يخضعون للوعاظ ، والخاصة يعجبون الحكماء ، وترى الفسيس عند النصارى والخاصة عند اليهود ، والشيخ عند المسلمين ، كل هؤلاء معظومون عند العامة الذين حولهم ، لأنهم في نظرهم قد حملوا شريعة نبيهم ، وقد يكون في هؤلاء من لم يحمل تلك الشريعة حقا ، ولكن الغريزة قد تخطى في الأشخاص ولكنها لا تخطى من حيث العموم كما أن غريزة الطعام في الانسان صادقة لحفظ الحياة ولكنها قد تقع في أكل ما يضر بصحتها فذلك لا يمنع كونها صادقة ، هي صادقة من حيث نظامها ، والخطأ في الجزئيات لا ينافي الصدق في الكلليات .

وترى الناس يعظمون الذي يعتقدون أنه حائز صفة العلم ويقدمونه ، وكلما ازداد علما ازداد في نظرهم محبة ورغبة ، وهكذا يحبون الشجعان الذين ذكرت لهم تواريتهم والمحسنين ، أتدري لماذا هذا كله ؟ لأن العلم شيء خارج عن المادة ، والشجاع أقدم على هلاك نفسه لمنفعة غيره ، والمحسن حرم نفسه وأعطى غيره (وبعبارة أخرى) ان الناس يعظمون من تخلص من المادة وسلطانها بالزهد أو ببذل المال واشتهر بذلك ، أو ببذل النفس ، وهذا أقل الكمال ، ويعظمون من تخلى بالعالم ، لأن العلم كمال للروح ، والناس ميالون بفطرتهم لكل ما هو من عالم الأرواح ، الناس ينقادون للأنبياء ويحبونهم لأنهم اتصفوا بالأمسين :

الزهد في المال ، والتجلية بالعلم ، وبعض الحكماء يقدمهم في ذلك ، وليس يعقل أن يبرع الانسان في علم مالم يحبه ، فالمحبة أساس النجاح في العلم .

كثير من الناس من فبدوا المال والأهل وعكفوا على العلم غراما ، وهم ينالون لذة لا يعرفها الناس والا لم يتمكنوا من التبريز فيه ، اذا رأينا في الناس من أضاع ثروته لأجل امرأة غير حسنة السمعة ورفت من وظيفته ، وخرج من كل ما يملك ، فيقال له : أنت عاقل فلماذا رضيت بضياع شرفك ودبتك وعظمة آباءك وثقة الناس بك ؟ أكل هذا لأجل امرأة ، فيجيب : هاتوا لي قبا غير هذا القلب ، أنا أعلم هذا كله ولكن لا أملك نفسي .

هذا النوع من الناس موجود في كل أمة ، ووجد في بلادنا المصرية ، كل ذلك للذة وليس يعرفها إلا الذي هو متلبس بها .

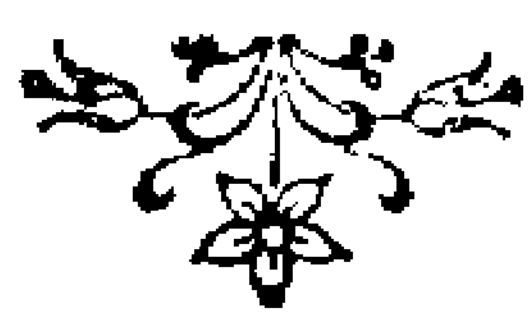
اذا كان هذا في باب اللذات الحسية فهكذا وجد في النوع الانساني في كل أمة من حصلت لهم هذه اللذة في باب العلم والحكمة فعكفوا عليها ولم يباليوا بضياع المال والثروة ولا يريدون إلا الحكمة ، وكما أن الذي عكف على المرأة ينال من الدم والاحتقار مالا حصر له يكون الذي عكف على لذة العلم قد نال مالا حصر له من المدح والثناء والاعظام ، فهو في نفسه في لذة والناس حوله يمدحونه ويثنون عليه .

عجب ! لماذا كلاهما في لذته ! فكيف كره الناس الأول وذموه ، وأحبوا الثاني وعظموه ومدحوه ؟ الجواب على ذلك : أن الأول شرب شراب اللذات من الخلق ، والثاني شربها من الخالق ، الشراب الأول ليس طهورا ، والشراب الثاني طهور طهر النفس من رجس المادّة ، ورجع الروح إلى عالمها المحبوب ، فشراب الأولين غير طهور ، وشراب الآخرين طهور .

فياليت شعري أيرضى ذلك الذي أحب العلم في هذه الحياة الدنيا أن يعكف بعد الحياة الدنيا على غير العلم ، كلا والله ، فاذا كان الله سقاء شراب العلم الذي طهره من المادّة وأدراها فانه بعد الموت لا يشرب إلا من شراب ربه ويزيد فيه ما يشاء ، وهذا قوله : « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » فالنور الذي رآه في الدنيا يراه يوم القيامة ، وهل نور أجل من العلم ! ان الشراب الطهور هو العلم ، وأما بقية أوصاف الجنة وأحوالها فانها تكون لمن لم يعشقوا العلم في الحياة الدنيا ، « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

إن في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، إن من لم يفهم أحوال هذه الدنيا وهو فيها يموت أعمى ، ولا يمكن لامرئ أن يعقل ما في هذه السورة إلا اذا فكر في أحوال أهل الأرض ، وبغير العلم والفكر لا يصل الانسان لسعادة في الدنيا ولا في الآخرة اهـ

هذا هو نهاية الكلام على [سورة الدهر] وقد كتب ذلك يوم الجمعة الثالث من شهر المحرم الحرام سنة ١٣٤٤ هجرية الموافق ٢٤ من شهر يوليو سنة ١٩٢٥ م والحمد لله رب العالمين .



تفسير سورة المرسلات

هي مكية

إلا آية: وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون، فمدنية

آياتها ٥٠ - نزلت بعد سورة الهزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا *
فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ * فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ *
وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ *
لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ يَنْهَكَ
الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُنَبِّهِهُمْ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ *
أَلَمْ يَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا
فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ
وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ * انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ
شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتُ
صَفْرٍ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ *
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَعَلْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ * فَإِنْ كَانَ لَكُمْ
كِيدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاحٍ
مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

لِلْمُكَذِّبِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيَلُومُ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ * قَبَائِلُ
حَدِيث بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ *

هذه السور المتلاحقة متشابهة المقاصد ، ففي هذه السورة وصف المكذبين وعذابهم ، والمتقين ونعيمهم ، ويتخلل ذلك وصف خالق الانسان ، والأرض والجبال ، وعموم القدرة ، وعظمة الخالق جلّ وعلا .

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفاء . والناشرات نشرات . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا) قد علمت ما جاء في [سورة الدهر] وكيف جاء في أواخرها « وسقاهم ربهم شرابا طهورا » وعرفت هناك أن هذا الشراب يطهر شاربه عن الميل إلى اللذات الحسية والركون إلى ماسوى الحق ، فيجرد لمطالعة جلاله ، ملتذا ببقائه ، باقيا ببقائه ، وعلمت أن هذا منتهى درجات الصديقين ، فهنا ابتدأ الله السورة بقوله « والمرسلات عرفا » الخ ، أقسم الله بطوائف من الملائكة ومن الأرواح التي نزلت إلى عالم الأجسام في أرضنا ، ومنهم الأنبياء والحكماء وأكابر العلماء .

أقسم الله بهذه الأرواح المرسلات عرفا : أى لأجل الاحسان والمعروف ، فأما الملائكة فانها تلقى الوحي إلى الأنبياء ، والإلهام إلى العلماء والصالحين ، وأما النفوس الانسانية الكاملة فانها تعلم غيرها ، فكل هؤلاء أرسلوا لأجل الاحسان والمعروف للناس بالأمر والنهي ، وهم يعصفون ماسوى الحق فيبعدونه كما تبعد العواصف التراب والتبن والهباء ، وينشرون آثارهم في الأمم وفي النفوس الحية ، ويفرقون بين الحق والباطل فيلقون ذكرا ، أما الملائكة فلهداية الناس ، وأما الأنبياء فللتبليغ وتكميل النفوس ، وأما الأرواح الكاملة فانها تهذب ولا تذكر إلا الله في القلب واللسان ، فاللائكة والأرواح المرسلات إلى أجسامها في الأرض هي المقسم بها لأنها إما سقاها ربها شرابا طهورا ، وإما لا تزال في طريق الوصول لذلك السقي ، وليس يكمل في نفسه أو يكمل غيره إلا أمثال هذه النفوس من الملائكة والأنبياء والأرواح المستعدة للكمال ، وإنما حملنا المرسلات على هؤلاء لأن إلقاء الذكر لا يكون إلا من عاقل ، أما الرياح فليست تلقى الذكر إلا على حسب التأويل فاخترنا الأول ، وقوله (عذرا أونذرا) أى للاعذار والانداز من الله ، وجواب القسم قوله (إن ماتوعدون) من أمر الساعة ومحيتها (لواقع) أى لسكائن نازل لا محالة ، فان قيل متى يكون ؟ يجاب بقوله تعالى (فاذا النجوم طمست) محقت وذوب نورها (واذا السماء فرجت) فتحت فكانت أبوابا (واذا الجبال نسفت) كالحب ينسف بالمنسف (واذا الرسل أقت) عين لها وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على الأمم بحصوله ، فانهم لا يتعين لهم قبله ، وجواب الشرط معلوم مما قبله : أى وقع الفصل ، ويقال (لأى يوم أجلت) أى آخرت وأمهلته ، فهذا استفهام بمعنى التحويل والتجيب ، كأنه قيل : أى يوم هذا الذي أجل اجتماع الرسل إليه ؟ إنه ليوم عظيم ، ثم بين ذلك اليوم فقال (ليوم الفصل) وهو الذي يفصل فيه بين الخلائق ، فهذا هو اليوم الذي أجل اجتماع الرسل له (وما أدراك ما يوم الفصل) تعجيب ثالث وتعظيم لأمره ، ثم أبان المقصود من هذا التحويل وصرح بالمراد فقال (ويل) أى ثبات الهلاك ودوامه (يومئذ) ظرف أوصفة (للمكذبين) بذلك اليوم ، وهذا خبر (ألم نهلك الأولين) الأمم الخالية المكذبة (ثم ننبههم الآخرين) جملة مستأنفة : أى ثم نفعل بأمتثالهم من الآخرين ما فعلنا بالأولين لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم ، وهذا وعيد

لأهل مكة (كذلك) أى مثل ذلك الفعل الشنيع (نفعل بالمجرمين) بكل من أجرم (ويل يومئذ للكذابين) بما أوعدنا (ألم نخلقكم من ماء مهين) حقير ، وهو النطفة المشروح الكلام عليها فى [سورة الانسان] وفى [سورة القيامة] (فجعلناه فى قرار مكين) مقرّ يمكن فيه ، وهو الرحم حال كونه مؤخرًا (إلى قدر معلوم) أى إلى مقدار من الوقت معلوم قد علمه الله ، وهو تسعة أشهر فأكثر أو أقل (فقدرنا) أى فقدّرنا ذلك تقديرًا ، وفى قراءة بالتشديد (فنعم القادرون) أى فنعم المقدرّون له نحن ، ويجوز أن يكون الفعل واسم الفاعل معًا من القدرة (ويل يومئذ للكذابين) بنعمة الفطرة وحكمة الخلق وحسن التقدير (ألم نجعل الأرض كفانا) أى كافّة : أى جامعة ضامة ، يقال كفت الشيء إذا ضمه وجمعه فهو مصدر وصف به ، وقوله (أحياء وأمواتا) مفعولان لكفانا : أى جامعة أمواتا فى بطنها وأحياء على ظهرها ولذلك تسمى الأرض أما لأنها تضمّ الناس كأنها أمّ تضمّ أولادها (وجعلنا فيها رواسى شاحات) جبالا ثوابت متصلة بالطبقة الصوّانية التى هى أبعد طبقات الأرض عن سطحها ، وتلك الطبقة تضمّ فى جوفها كرة النار المشتعلة العظيمة التى هى باطن الأرض ، وظاهرها هذه القشرة التى نحن عليها ، وهى طبقات أعلاها هى التى نحن عليها ، وأدناها الصوّانية ، والجبال ممتدة إلى هذه الصوّانية ثابتة عليها ، ولولا الطبقة الصوّانية التى امتدت منها الجبال ل هوت القشرة ومن عليها فى النار التى فى باطنها التى هى البحر المسجور المذكور فى [سورة الطور] كما تقدّم ، فهذه الجبال رست فى أبعاد الأعماق ، وشمخت إلى أعلى الجوّ ، فهى طوال ذاهبة علوّا كما ذهبت سفلا ، وهذه الجبال مخازن للمياه التى تنزل من السحب فتشربها فى باطنها وتحفظ فى طبقاتها ثم تخرج للأشجار الجارية تستمدّ بمائها ، والثلج يدوم فوقها أمدًا طويلًا ، ويتنزل فى باطن الجبل شيئًا فشيئًا ليجرى من العيون الجارية تسقى الناس والأنعام والزرع تدريجًا على طول السنة ، وهكذا تكون تلك الجبال كأنها مسنّيات تحفظ الرياح والسحاب الجارية بين تلك الجبال الممتدات إلى بعد عظيم فى اليابسة فتخرج السحاب من فوق البحار وتمتدّ إلى مسافات طويلة لأن الجبال تحفظ الرياح والسحاب من الذهاب يمينا أو يسارا ، بل تبقى إلى أن تصل إلى ما بعد من اليابسة ، فتسقى الزرع ، وتدرّ الضرع ، وهذا هو قوله تعالى (وأسقينا كم ماء فراتا) إما بالسحاب الذى حفظته الجبال بارتفاعها ، وإما بالعيون النابتة منها التى يمتدّها الثلج الذى يذوب شيئًا فشيئًا فوق ظهرها متنزلا إلى بطنها ، ساعيا إلى عيونها الجارية (ويل يومئذ للكذابين) بأمثال هذه النعم ، فهؤلاء المكذبون يقال لهم (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) من العذاب (انطلقوا) كرّر للتوكيد (إلى ظلّ) أى إلى ظل دخان جهنم (ذى ثلاث شعب) يتشعب أشدّة عظمت ، لأننا نرى الدخان العظيم يتشعب ويتفرّق كما تتفرّق الذوائب ، وفى التعبير بالثلاث إما للإشارة إلى أن عالم المادّة فيه الطول والعرض والعمق ، والمادّة محلّ حبس الأنفس ، أو إلى الحسن والخيال والوهم ، فهذه الثلاثة هى التى تسبب العذاب للإنسان ، ثم وصف الظلّ بقوله (لا ظليل) وهذا نهكم بهم : أى لا مظلّ (ولا ينفى) أى وغيره من لهم (من الاله) أى من حرّ الاله : أى غير دافع شيئا منه (إنها) أى النار (ترمى بشرى) وهو ما يتطاير من النار (كالقصر) أى أى كل شرارة كالقصر فى عظمتها ، ويقال هو الغليظ من الشجر ، الواحدة قصر (كأنه) يعنى الشرر (جالات) جمع الجبال (صفر) جمع أصفر : أى لون ذلك الشرر أصفر .

[فائدة] سئل ابن عباس عن قوله تعالى : « ترمى بشرى كالقصر » ؟ فقال : هى الخشب العظيم المقطعة ، وكنا نعد إلى الخشب فنقطعهما ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه ونُدخرها للشتاء ، وكنا نسميها : القصر (ويل يومئذ للكذابين . هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون . ويل يومئذ للكذابين) بهذا اليوم (هذا يوم الفصل) بين الحق والمبطل والحسن والسيئ (جمعناكم) يا مكذبى محمد (و) المكذبين (الأولين)

هذا بيان وتقرير للفصل (فإن كان لكم كيد فكيدون) أى فإن كان لكم حيلة فى دفع العذاب فاحتالوا علىّ بتخليص أنفسكم من العذاب ، يقال كدت فلانا اذا احتلت عليه (ويل يومئذ للكاذبين) بالبعث (إن المتقين فى ظلال) جمع ظلّ (وعيون) جارية فى الجنة (وفوا كه مما يشتهون) لذيذة مشتهاة ، فهم مستقرون فى ظلال حال كونهم مقولا لهم (كأوا واشربوا هنيئا) خالص اللذة لا يشوبه تنغيص (بما كنتم تعملون) فى الدنيا (إنما كذلك نجزي المحسنين) فأحسنوا تجزوا به هذا (ويل يومئذ للكاذبين) بالجنة فإن لهم العذاب المخلد ، ثم خاطب المكذبين مهتدا لهم فى الدنيا فقال (كأوا وتمتعوا قليلا) لأن متاع الدنيا قليل (إنكم مجرمون) كافرون ، فكل مجرم يأكل ويتمتع أيلما قلائل ثم يبقى فى الهلاك الدائم (ويل يومئذ للكاذبين) بالنعم (واذا قيل لهم اركعوا) أطيعوا واخضعوا ، أوصلوا ، أو اركعوا فى الصلاة (لا يركعون) لا يمتثلون ، ولقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقيفا بالصلاة فقالوا لانحى : أى لا نركع فانها مسبة (ويل يومئذ للكاذبين) بالأمر والنهى (فبأى حديث بعده) بعد القرآن (يؤمنون) اذا لم يؤمنوا به ، وهو معجز بذاته مشتمل على الحجج الصحيحة . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) فى قوله تعالى : « ألم نهلك الأولين » الخ .
- (٢) فى قوله تعالى : « ألم نخلقكم من ماء مهين » .
- (٣) فى قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا » الخ .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : ألم نهلك الأولين . ثم ننبئهم الآخرين

ذكر الله إهلاك الأمم السابقة بتقصيرهم فى الإيمان ، وذكر أنه يفعل مع الآخرين ما فعله بالأولين ، فاذا قصرت أمة فى الإيمان بالله وأهلكها فيها مضى فهو هكذا يفعل بالتي تكذب فيها بعد فيهلكها ، والعبرة فى هذا أنه يجب على المسلمين أن يتبصروا ويتذكروا ويقسوا الأشياء بأشباهها ، فافعل بالأولين يفعل بالآخرين ، فلتنظر أمة الاسلام ما حلّ ببلاد الأندلس ، فإن اكبابهم على الملاهى والتنعم والكسل والتقليد الأعمى أضاع بلادهم وأخذتها الفرنجة ، كذلك يفعل الله بالمقصرين من أمم الاسلام ، لأن الله جعل الأولين عبرة للآخرين ، دخل الفرنجة بلاد الجزائر وبلاد تونس ، وعرجوا على مصر وأخذوها ، كل هذا لأنه فعل بالآخرين كما فعل بالأولين ، فقد قصر أهل الأندلس فأزالهم الله ، فلما قصر بقية المسلمين ولم يعمموا التعاليم ولم يفكروا فيه ولم يتهجوا نهج الأمم المفكرة أذاقهم الله الخزي فى الحياة الدنيا ، وسيزول هذا الخزي قريبا ، كل هذا يؤخذ من قوله تعالى : « كذلك نفعل بالمجرمين » ولكن على طريق الاعتبار والقياس ، لا على طريق النص كما قال تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » . واذا قال الله : « ويل يومئذ للكاذبين » بآيات الله وأنبيائه فويل كذلك لمن لم يفهم ما هو حاصل بالأمر الاسلامية من الذلّ والقهر بسبب جهلها ، فالويل للمسلمين من حيث مجموعهم اذا داموا على ما هم عليه من حيث التقصير فى العلوم والصناعات التى هى واجبة على مجموع الأمة وجوبا كفائيا ، فاذن المسلمون اذا لم يفكروا فى ذلك يزيد عذاب الفرنجة عليهم ، فهم وان لم يكونوا مكذبين فهم عاصون والعذاب يقع عليهم فى الدنيا بذهاب دولهم ، وفى الآخرة بعذاب جهنم ، وهذا اجماع من علماء الاسلام ، لأنهم يعتقدون أن العذاب يقع على الأمة كلها فى الدنيا والآخرة بترك فروض

الكفايات ، وفروض الكفايات هي التي بها نظام الدول انعام بحيث يشترك فيه الشعب كله باخلاص . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : ألم نخلقكم من ماء مهين

الكلام في النطفة ، والجنين في الرحم ، ومدة الحمل ، وتقدير الله لذلك ، والنظام المتبع فيه ، كل ذلك يراد به معرفة الأجنة ، وعجائب الخلق ، والتفكير في ذلك ، وهذا يرجع لعلوم كثيرة قد شرحناها في [سورة القيامة] قريبا ، وتقدم في سور أخرى منها سورة [آل عمران] بطريق أوسع ، فراجعه هناك إن شئت .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : ألم نجعل الأرض كفافا أحياء وأمواتا

الأرض تسع الحي والميت ، وفيها الجبال الشاخات ، والماء الذي يسقي الزرع ويدري الضرع ، ذكر الأرض التي نزلنا وتحمّلنا ، واتضمننا في بطنها إذا متنا ، وفيها مخازن الماء ومسكناتها وما يمكسها لئلا تتشت وتزول ، وذلك يوجب تيقظ الانسان للأمر العامة ، فيدرس الأرض وطبقاتها ، ومن على ظهرها وجبالها وهوائها وسحابها ومطرها وغيونها وأنهارها ، والتفرج على عجائبها ، ثم أوعد المعرضين بالعذاب في جهنم ، وكما أن الناس إذا حلت الجيوش في بلادهم على جهلهم وظلمهم ونومهم وخرافاتهم لا ينطقون لانقطاع حججهم فيقول المستعمر لبلادهم افعلا كذا فيفعلون ، ولا تفرعوا من العلم إلا ما به تؤصرون ، ولا تفكروا إلا على قدر ما نحن مريدون ، وإياكم أن تنطقوا بالشكوى فانكم تمزقون ، والمدافع تضربون ، وبالنار تحرقون ، وبالصواعق من الطيارات تهلكون ، أنتم مأمورون لا أمرون ، وسامعون لا متكلمون ، وعبيد لنا مسخرون ، لتخرسن السنة الأهم المغلوبة ، ولتكن الخربة مسلوقة ، والجاهير في أيدينا العوبة ، ونحن القاهرون . وهم المقهورون ، فلارقيب منه نخاف ، ولا من محنة الأيام وغوائلها نضطرب .

أقول : إذا كان هذا هو الحاصل الآن في بلاد الشرق حيث يفعل الأوروبيون معهم ذلك فما بالك يوم القيامة ، إذ تقطع الحجة ويصبح المرء مقطوع الأمل من كل عمل ، مسلوب اللب والمال والولد ، موقوف الأصحاب والأهل ، محروما من كل سند وخل وولد ، هنالك لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

[حكاية] دخل [هولاءكو] التتارى مدينة بغداد وأحضر الخليفة العباسى وهو غافل لا يدري ، فلما أحضرين يديه المائدة نظر فوجد فوقها أواني مملوءة جواهر في كل طبق نوع كالزمرد والياقوت والمرجان والذهب والزبرجد والماس ، فقال له [هولاءكو] كل ، فقال : هذا لا يؤكل ، فقال [هولاءكو] : أتدري من أين هذا ؟ أنه من خزائنك أحضرته جنودى الآن ، إنك قد أهملت الملك فلست تصالح له ، والله سلبه منك ، ثم قتله هو وابنه وذهبت الدولة اهـ

انظر كيف فعل الله بالأولين منا ، فلما لم يعتبر المتأخرون فعل بهم ما فعل بالأولين ، وتقصير المسلمين أنهم كانوا عن التفكير معرضين ، وفي النزاع مجدين ، وعن الاتحاد نائمين .

ذكر الله نعمه على الأولين والآخرين ، وذكر نعمه بالخلق على الناس ، ونعمه بالأرض وجبالها ومائها ، وذكر بعد ذلك الويل للكاذبين بذلك . وإلى هنا تم الكلام على سورة المرسلات ، والحمد لله رب العالمين كتب ليلة السبت ٤ من شهر المحرم الحرام سنة ١٣٣٤ هجرية .

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الرابع والعشرون من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، ويليه الجزء الخامس والعشرون ، وأوله تفسير سورة النبأ)

الخطأ والصواب

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلا تنبيه . وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك ، وها هو ذا :

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	١٠	بسيلا	فتيلا	١٣٥	١١	بعد	بغير
٩	١٩	نصفه	نفسه	١٤٦	٢٣	لما	ما
١١	١٦	من اسم	• • •	١٥٣	٣	التكبر	المتكبر
١٣	٣	أو يوم القيامة أو	• • • •	١٥٣	٣	بالنسبة	بالنسبة له
		جميع ذلك		١٧١	٦	لَكَ الطَّوْلُ	لَكَ الطَّوْلُ
١٣	١٠	بحيث يكون مافي	مصوغة	١٩٧	١٦	عليها	عليهما
		القصص كله		١٩٨	٣٥	القرية	الجنة
١٥	٢٢	لغة	لغة	٢٠١	٣٥	تنزيه	ترق
١٦	٢٣	أبالشجر أم القمر	• • • • •	٢٠٣	٨	عنه	عنهم
		الى آخره		٢٠٩	٢١	المحدوده	المحد
٢٤	٣٥	لان	ان	٢٠٩	٣١	ويقطع	وتقطع
٦٨	١٢	بالجزاء	بالجزية	٢٢٣	٣	الناحيتين الزرقة	الناحيتين الحرة
٧٢	٢١	ذكر	ذكر الله	٢٢٤	٣١	محدبة	مقعرة
٨٠	٢٢	تفوق	تعوق	٢٦٧	٢٢	اقسم	سمى
٨٩	٣٢	أشبه عدم	مشبه عدم	٢٧٣	٣٥	ما ذكرته	مما ذكرته
٩٧	٣٥	الاولى	• • •	٢٧٨	١١	المتزمل	المتزمل
٩٩	٣	مرتبطان	مرتبطات	٢٩٣	٥	فعرفت	عرفت
١٠٩	١٨	فلنحدر	فلنحجز	٣٠٧	٢٥	العشرة	١٠٠
١١٤	٢٣	قدر	قدرها	٣٠٨	٦	مما	وهذا
١١٤	٢٣	(٢٠٠) مليون	(٢) مليون	٣١١	١٣	من تتبعها	منها
١١٧	١٩	آجامها	في آجامها	٣١٢	٣١	مشورا	مشورا
١١٧	٣٤	تنظر	تنظر	٣١٥	٥	ينابها	يناسبها
١٢٨	١٨	جلها	جلتها				

(تمت)



فهرس

الجزء الرابع والعشرين

من كتاب

الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صفحة

- ٢ تفسير [سورة الرحمن] مكتوبة مشكلة .
- ٤ تقسيم السورة إلى ثلاثة أقسام ، تفسير البسملة وتبيان أن مافي السورة كلها كأنه تفسير للرحمة ، ومجمل ذلك كله ثمانية مباحث ، انزال الديانات ومنها القرآن ، وخلق الأجسام والعقول الخ وإلهامها العلم ودراسة هذا الذي قرأ الدين نظام الشمس والقمر الخ ، ودراسة نتائج هذه العوالم ، ودراسة الحساب المتقن الخ ، ودراسة العوالم الأرضية الخ ، ودراسة المشرق والمغرب الخ ، ونتائج ذلك من النعيم والجحيم الخ ، إن مافي هذه السورة أبان الله لنا فيه ألا نكتفى بالمعرفة الاجالية ، بل علينا أن نفصل الجمل ، وهذه طريقة ابن خلدون ، إن المعرفة الاجالية هي علم الأشياء ، والمعرفة التفصيلية هي التي تدرس في المدارس الثانوية .
- ٦ كيف نهج المسلمون في العصور الأولى نهجا صادقا في التعليم ، ثم تدهور التعليم في جميع بلاد الاسلام ، وانتقل العلم إلى أوروبا ، حرمت الفلسفة على المسلمين ، جعلها عقلاؤهم باسم التصوف كالأستاذ عبد الكريم الجيلي ، بيان رسالته [الكهف الرقيم . في شرح فوائد بسم الله الرحمن الرحيم] وأخذ يذكر أن هناك عبارات وإشارات ، وهنا أخذ يقول : إن سرّ البسملة في الباء ، وصرت الباء في النقطة ، وقال : إن سرّ كل شيء راجع للحروف وصورها وأشكالها ، وجعل العلوم كلها . ٤ علما ، مثل الذات الساذج والعماء والأحدية ، وهكذا إلى القيامة والجنة والنار ، ثم بحث عام في هذه ، وتبيان أن ذلك كله إنما وضع للمسلمين في زمن انحطاطهم وذهاب العلوم ليكبوا على العبادة ، والا فهذه ليست أسراراً ، بل هي أشبه بحثالات العلوم ، وما هي بعلوم ، ولكن للقوم إذ ذاك مقصد حسن ، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر ، فعلى المسلمين بعدنا أن يذكروا ذلك ويقرءوا عجائب هذه الدنيا كما هو شأن القرآن وأوامر الله .
- ٩ تبيان أن هذه الامور كانت شائعة في ذلك العهد ، ومنها ما كان يفعله من التعمية على المسلمين محمد بن تومرت ، فهذا أيضا من هذا القبيل ، فالجيلي في العلم ومحمد بن تومرت في السياسة كلاهما اتخذ هذه ذريعة لانتظام شمل المسلمين ، وهما مجتهدان قد أخطأ وللمخطي ثواب واحد .
- ١٢ مقدمة في مناسبة السورة لما قبلها ، وفي هذا المقام ذكر ملخص أكثر السورة وهو ١٥ مبحثا من أولها إلى آية : « يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن » ويتبع ذلك احوال الناس في الآخرة من النعيم والعذاب .
- ١٥ القسم الثاني في عجائب الدنيا التي في هذه السورة .
- التفسير اللفظي لأولها من قوله : « الرحمن علم القرآن » إلى قوله تعالى : « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » .

٢٣ لطيفتان : الأولى في قوله تعالى : « ووضع الميزان » ، الثانية في قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وفي اللطيفة الأولى بيان كيف كانت مساحة القدان من الأرض ، وكيف كان كل مكيل وموزون وغيرهما في البلاد المصرية راجعا لنظام بناء الهرم الذي يرجع في نظامه إلى نسبة عجيبة بين أوضاعه وبين أوضاع مدار الأرض حول الشمس ، وكيف كان ضلع الهرم مساويا لجزء من ربع مليار من محيط الدائرة الشمسية ، والضلع المذكور يساوي ٤٠٠ ذراع بلدى أو ٣٦٠ هنداسة الخ .

٢٥ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .

٢٦ فصل في اللؤلؤ ، تكوين اللؤلؤ .

٢٧ جوهرة في قوله تعالى : « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » .

٢٨ القسم الثالث في عجائب عالم الآخرة من قوله تعالى : « فاذا انشقت السماء » إلى آخر السورة .

٣٠ اللطائف العاتقة في هذه السورة ، وهي ثلاث : اللطيفة الأولى في آية : « ووضع الميزان ألا تظفروا في

الميزان » مع قوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » وبيان أن العناية الإلهية

ساعدت المؤلف على إيضاح نفس هذه الآية بحيث أبدأ بما في الجاد من نظام ، وذلك في الأحجار الثمينة

التي منها ما هو مرسوم هنا ، وهي خمسة أحجار : الزمرد والكوارتز البلورى وهكذا ، وكأها ذات نظام

بديع مصداقا لهذه الآيات ، ثم أقفى بالتذكير بما تقدم من عجائب النبات ، وكيف كان محسوبة أوراقه

بحساب ونظام بديع ، ثم أتبعه بذكر حيوان البحر الذى منه [سمك بلاس] وكيف نشأ في بيضاته

المنظمات ، وكيف تم خلقه حالا بعد حال يشاهد في الرسم شكل ٦ و ٧ و ٨

٣٨ وفي شكل ٩ تظهر هيئة نسج العنكبوت بهيئة بديعة لم تعرف من قبل .

وفي شكل ١٠ نسيج عنكبوت الحدائق .

٣٩ وفي شكل ١١ نحل عسل الخلايا حاملا كرات الطلع الصفراء من هذا النبات المسمى [سم النمر] .

٤٠ وفي شكل ١٢ قرص النحل مع خلاياه .

٤١ وفي شكل ١٣ قرص عسل النحل المشتمل على ذكور النحل وعاملاته والخلايا التي فيها العسل .

٤٢ وفي شكل ١٤ طائفة من النحل مزودة على شجر التفاح .

٤٣ وفي شكل ١٥ عش النحل الحجري ، وفي شكل ١٦ عش للنحلة المنفردة وحدها في هيكل قوقعة الحدائق

٤٤ وفي شكل ١٧ ترى النحل المستقل الذى يعيش في نفس ورق الأشجار أو في تجاويف وخلايا مرتبة منظمة

٤٥ وفي شكل ١٨ النحل الثاقب للخشب متعلقا بفكيه في حال سكون ، وفي شكل ١٩ خلايا النحل

ثاقب الخشب .

٤٧ وفي شكل ٢٠ النحل الثاقب للخشب وهو خارج من خليته ، وفي شكل ٢١ النحل البناء .

٤٨ وفي شكل ٢٢ عش زنبار الخشب .

٤٩ وفي شكل ٢٣ قطعة من العش ، أو قرص الزبابير من بلاد البرازيل متصلة بغصن من الشجرة .

٥٠ وفي شكل ٢٤ عش الزنبور البناء .

٥١ وفي شكل ٢٥ عش نمل الخشب ، وفي شكل ٢٦ جماعة النمل تسوم ماشيتها .

٥٢ وفي شكل ٢٧ النمل النجار في عمله .

٥٣ وفي شكل ٢٨ برجا صنعه النمل الأبيض في شرقي أفريقيا ، وقد صنعه النمل من مواد الأرض بفكيه

بعد أن مضى فيها ، وهي مرتفعة كالقلعة .

- ٥٤ مسامرة في المجانب المتقدمة .
- ٥٥ تربية الأمم الإسلامية في مستقبل الزمان : درجات الحيوان في الإدراك ودرجات الإنسان .
- ٥٧ عصر الاختراع والكشف ، السهم أو الصاروخ ، معجزة هذا القرن : قد أطلق سهم هائل في الجو بالقرب من برلين فبلغ الطبقات العليا وعاد بعد ذلك إلى الأرض ، ويرجى أن يرتفع كثيرا جدا ، وهكذا دولة روسيا تجرب مثل ذلك ، ومما يؤمل من ذلك الصاروخ أن يكون سببا في تسهيل المواصلات تسهيلات مدهشا ، وفوق ذلك تكشف به النجوم نحو المريخ ، فإن العلماء يؤملون الوصول إليه بهذا الصاروخ .
- ٥٩ اللطيفة الثانية : عجائب الحساب في سورة الرحمن ، وبيان مزايا خواص الواحد ووحدة الله تعالى ، وفي كل من الوجدتين خواص متشاكلة .
- ٦١ بيان عجائب الأعداد مثل أن من العدد ما يقبل القسمة وما لا يقبلها ، وفيه الناقص والكامل والزائد والكسر الدائر البسيط والمركب ، والأعداد الأولية وبيانها في كل مائة ، فهي في المائة الأولى ٢٥ وفي المائة الثانية ٢١ وفي الثالثة ١٦ وفي الرابعة ١٦ وفي الخامسة ١٧ ثم ١٤ ثم ١٦ ثم ١٤ ثم ١٤ ثم ١٤ وهكذا إلى ٩٩٠١ ففي هذه المائة الأخيرة ٩ أعداد لاغير ، إن الناس كما يحللون المركبات في المعامل الكمائية إلى عناصرها يحللون الأعداد إلى عواملها الأولية .
- ٦٢ عجائب العدد الكامل والأعداد المتحابة وحساب الجذر والتربيع ونحوها ، وبيان أن الأعداد الكاملة ٦ و ٢٨ في المائة الأولى ثم ٤٩٦ وههنا استبان أن الكامل في الأعداد قليل كالكمال في نوع الإنسان موازنة بين العدد الكامل والأصم فالأصم يكثر ، فهو كرجال الاختراع ، ولكن الكامل نادر كمنيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .
- مزايا عدد ١٢٠ والكلام على الأعداد المتحابة مثل ٢٢٠ ، و ٢٨٤ وأن كلا منهما مؤلف من مضارب الآخر ، ومما يدهش الحكماء أن هذه الأعداد واستخراجها قواعد بحيث يمكن بها استخراج جميع الأعداد المتحابة ، وذلك من متواليه هندسية تصاعدية أسها ٢ وحدتها الأول ٢ ومن المدهش أن النظام في هذه الأعداد يذكر العقول الكبيرة بالحساب والهندسة اللتين وضحتا في [سورة الحجر] وهما مصورتان بالتصوير الشمسي للنبات .
- ٦٦ انحطاط العالم في بلاد الاسلام ، وأن علم الأرفاق الذي ملأ الأقطار الإسلامية ضاربها معطل اقواها فوجب محو جميع هذه العلوم من بلاد الاسلام .
- ٦٧ سؤال ورد على المؤلف ، وهو : كيف نرى الخلفاء الراشدين الذين لم يدرسوا الرياضيات التي يقول العلماء انها تمرن الإنسان على العدل والصدق أعدل (بشهادة علماء أوروبا في زماننا) من ملوك الفرس والروم في زمانهما ، مع أن المدارس في تلك الممالك كانت مكتظة بالطلاب الذين يدرسون تلك العلوم ، والجواب على هذا الاعتراض بأن الناس الذين على الفطرة لا يعوقهم عن العدل إلا الخرافات ، وفي زالت ظهرت فطرتهم صالحة ، فأما الأمم المتحضرة فإن الشرور تكون قد أحاطت بأخلاقهم فلا بد من دراسة علوم تصقل هذه النفوس المنحرفة .
- ٦٩ ملخص ما تقدم : بيان أن الآلى على ثلاثة أنواع : طبيعية ، ومولدة ، وصناعية ، واللؤلؤ الطبيعي ، وبيان سبب تكونه ، واللؤلؤ المولد ، وأن الناس أخذوا يربونه كما يربون السمك ، أما اللؤلؤ الصناعي أو المقلد ، فهو طلاء لماع للسمك يطلى به خرز من الزجاج بعد مزجه بشيء من الشمع ، بيان جلال هذا المقام العلمي في الحكمة .

- ٧٣ [سورة الواقعة] مكتوبة مشكلة ، تفسير البسملة ، التفسير اللفظي لهذه السورة .
- ٨١ لطيفة في قوله تعالى : « انهم كانوا قبل ذلك مترفين » وتبيان الرسالة التي أرسلتها إلى بلاد صراكش تحذيرا لهم من الذي يشربونه ، وقد أصبح لهم عادة ضارة ، وذلك بسبب الأمة التي استعمرت بلادهم وبيان ضرر الشاي والسكر في علم الطب الحديث ، وذكر أن الفرنجة فعلوا مع أهل الأندلس ما فعلونه معنا الآن .
- ٨٤ لطيفة في قوله تعالى : « نحن قدرنا بينكم الموت » ، والكلام على قوم طالت أعمارهم ، وأن أناسا عاشوا مائتي سنة ، وهناك ١٧٠ انسانا كل منهم عاش ١٠٠ سنة الخ .
- ٨٧ [سورة الحديد] آياتها مكتوبة مشكلة ، تفسير البسملة ، مقدمة في اتصال هذه السورة بما قبلها .
- ٩٣ التفسير اللفظي لهذه السورة .
- ٩٤ لطيفة في قوله تعالى : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » .
- ٩٥ الخصة على الاتفاق — آية : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » .
- ذمّ البخل في آية : « الذين يبخلون ويأمررون الناس بالبخل ومن يتولّ فإن الله هو الغنيّ الجيد » التحريض على العدل : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » .
- ١٠٠ لطائف هذه السورة [اللطيفة الأولى] في قوله تعالى : « فضرب بينهم بسور » [الثانية] في قوله تعالى : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » [الثالثة] في قوله تعالى : « ورهبانية ابتدعوها » وتبيان المعجزة القرآنية من كتاب [الخريدة النفيسة ، في تاريخ الكنيسة] وذلك أنه في القرن الثالث انفرد [بولس السامع] في صحراء مصر رهبية وخشية من الحكومة الرومانية التي كانت تفتك بالمسيحيين ، وقد تبعه [انطونيوس] وذهب إليه ، وظهرت هناك خوارق كالغراب الذي كان يحمل رغيفا في منقاره ، وكأخبار ذلك الراهب بموته ، وأن الملائكة كانت تحيط به ، وهناك أسدان حفرا الأرض حتى أكلا القبر ، ودفنه ورجع ، فهذا هو أصل الرهبانية في أمم النصارى .
- ١٠٣ اللطائف العامة للسورة كلها ، وهي أربع : الأولى في آية : « سبح لله ما في السموات والأرض » الخ وبيان أنها تشتمل على ١٢ مبحثا : كالنظام التكويني والتشريعي ، وتربية الأم لولدها ، وتربية الأب له وهكذا ، وأن الحب على مقدار العلم ، وأن الله قد توارى عنا ، ولكنه قد ذف لنا كرات جيلة لاحصر لعددتها .
- ١٠٥ النظام التكويني والنظام التشريعي وآلام الأم الخ ، وههنا ٣ جواهر : في وصف الحب ، وفي طبقة الشعراء ، وآثار الحب العالية ، وهي الفلسفة .
- ١١٠ تعاليم كنفوشيوس حكيم الصين ، وأنها مرتبة هكذا : مشاهدة الأشياء ، فصول الأفكار ، فتزده الأغراض ، فتقاوة النفوس ، فانتظام الأسر ، ثم انتظام الدول ، فالسعادة العامة .
- ١١١ [المهراباتا] باللغة السنسكريتية قبل ٣٥ قرنا ، وهي مائتا ألف بيت ، وهكذا [الرامايانا] : هما موسوعتان علميتان ، وهما ترجعان إلى نظرة عامة في الوجود وحب الخالق وصبر على البأساء والضراء والحب كل المحب أن كتاب [البهجاوات جيتا] هي نفسها في آية من هذه السورة .
- ١١٢ الفصل الحادي عشر في بيان أن الحب على مقدار العلم .

- ١١٣ الفصل الثاني عشر في أن الله نواري عنا وقذف لنا كرات لاعدد لحصرها .
- ١١٤ ما الذي عرف الناس من ملك السموات اليوم ؟ وأنهم اليوم ينتظرون قريبا أن يكون المعلوم للناس ٣٣ ألف مليون مليون كوكب .
- ١١٥ ما الذي عرفه الناس من ملك الأرض ؟ وههنا بعض بدائع الأشجار و١٢ عجيبة من عجائب الحيوان
- ١١٧ جمهوريات الحيوانات : ضرب مثل يذكرنا باجتماع الأرواح بعد مفارقة الأجسام .
- النحل حول العسوب : ضرب مثل لرجوع الناس لربهم ، ومقدمة ذلك الصلاة إلى القبلة توجهها إلى الله حول الكرة الأرضية .
- ١٢٠ بهجة هذا المقام في التسبيح وجماله .
- ١٢٢ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » مع قوله : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .
- ثروة البحر الميت : كنوز لم يستفد منها المسلمون لجهلهم واستفاد منها الأوروبيون لعلمهم .
- ١٢٣ كهربة القطر المصري ومشروع القطارة ، خلاصة خطبة سرى بك في ذلك .
- ١٢٥ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو » .
- اللطيفة الرابعة في قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب » .
- ١٢٦ [تفسير سورة المجادلة] مكتوبة مشكلة ، هذه السورة ثلاثة أقسام .
- ١٢٨ تفسير البسملة وتلخيص [سورة الحشر] وتفسير البسملة في هذه السورة متبوع بتفسير كل بسملة في أول السور إلى أول [سورة الملك] مع الإشارة في كل بسملة إلى الرجات التي في سورتها .
- ١٣٢ القسم الثاني في أحكام المظاهرة ، التفسير اللفظي ، وههنا ثلاث مسائل في المظاهرة .
- الكلام على التجوى والتفصح في المجالس .
- ١٣٥ حكم مناجاة الرسول ، الكلام على المنافقين ، أربع لطائف في هذه السورة .
- ١٣٨ [تفسير سورة الحشر] مكتوبة مشكلة .
- ١٤٠ هي ثلاثة أقسام ، تفسيرها اللفظي .
- ١٤٢ القسم الثاني في ذكر أخلاق المنافقين ، وهونابع التفسير اللفظي .
- ١٤٤ القسم الثالث في ذكر نصائح للمؤمنين واعظام أمر القرآن ، التفسير اللفظي .
- ١٤٧ بهجة الحكمة ونور العلم في قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل » وههنا تفسير لكثير من أسماء الله الحسنى .
- ١٥٠ محاورات بيني وبين أحد الأصدقاء ، وفيها فصلان : الفصل الأول في معاني أسماء الله الحسنى من كلام الامام الغزالي رحمه الله تعالى .
- ١٥٤ الفصل الثاني في بيان محاسن أسماء الله الحسنى بالمعانية ، وفي هذا الفصل مقامان : المقام الأول في تبيان الحق من الأقوال الأربعة في أن من حفظ هذه الأسماء دخل الجنة .
- المقام الثاني في معنى : اللطيف والنور والهادي إلى آخره ، وهل هذه المعاني مشاهدة لنا ؟
- ١٥٧ [سورة الممتحنة] مكتوبة مشكلة ، تفسير السورة اللفظي .
- ١٦٢ حكاية مصرية استبان بها أن أوروبا تريد أن يترك الشرقيون دياناتهم ليحتلوا بلادهم .
- في هذه السورة لطيفتان : الأولى في قوله : « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوكم أولياء »

- ١٦٣ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن » وهل يكشف على الزوج والزوجة قبل الزواج كما تفعله بعض الممالك ، خيفة أن يكون هناك نسل ضعيف يشل حركة الأمة ونموها .
- ١٦٥ [تفسير سورة الصف] مكتوبة مشكلة ، تفسيرها ، إيضاح لما تقدم .
- ١٦٩ [تفسير سورة الجمعة] السورة مكتوبة مشكلة ، مناسبة لما قبلها .
- ١٧٠ التفسير اللفظي لهذه السورة .
- ١٧١ في هذه السورة لطيفتان : اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » وبيان أنه لا معنى للولي الذي يكره الموت ، لأنه لقربه من ربه لا يحب الحياة إلا ليكمل ماوجب عليه لأتمته والا فالموت . الكلام على الولاية : من هو الولي ؟ .
- ١٧٥ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة » وبيان الأحاديث الواردة فيها ، والأحكام الفقهية ، واختلاف الفقهاء في عدد من تنعقد بهم الجمعة .
- ١٧٦ [تفسير سورة المنافقين] مكتوبة مشكلة ، التفسير اللفظي لسورة المنافقين .
- ١٧٨ إيضاح أن سورة الجمعة للعلم والعمل ، وسورة المنافقين للصبر وقوة الأمل .
- ١٧٩ [تفسير سورة التغابن] : السورة مكتوبة مشكلة ، مقدمة في تفسيرها ، تفسيرها اللفظي .
- ١٨٥ [تفسير سورة الطلاق] : السورة مكتوبة مشكلة ، مقدمة في تفسيرها ، ملخص أحكام السورة ثمانية أحكام : عدة المطلقة ثلاثة قروء ، لا تخرج من البيت حتى تنقضي عدتها ، وهكذا إلى آخرها ، وهو الانفاق من المعسر ومن الموسر كل بقدره ، التفسير اللفظي .
- ١٩٠ [تفسير سورة التحريم] مكتوبة مشكلة : هذه السورة قسمان : الأول في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، القسم الثاني في ضرب مثل بامرأة نوح وامرأة لوط .
- ١٩٢ مقدمة في مناسبة السورة لما قبلها ، التفسير اللفظي لهذه السورة ، خاتمة لتفسير هذه السورة .
- ١٩٦ [تفسير سورة الملك] مكتوبة مشكلة .
- ١٩٧ الكلام على هذه السورة ينحصر في ثلاثة أقسام : البسملة ، التفسير اللفظي ، اللطائف .
- الكلام على الرجتين المذكورتين في هذه السورة مع جميع الرجات في السور العشر بعدها .
- ١٩٨ الرجات في سورة القلم ، وفي الحاقة ، وفي المعارج ، وفي نوح ، وفي الجن ، والمزمل ، والمدثر ، والقيامة والمرسلات .
- ٢٠١ التفسير اللفظي لسورة الملك .
- ٢٠٥ لطائف هذه السورة ثلاث : الأولى في خلق الموت والحياة ، وبيان أن الموت أشبه بالتخلية ، وأن الحياة أشبه بالتخلية ، فهذه الكلام على مقدار ما في النخل من لقاح ، وكيف يكون بيض السمك لا عدد له يأكله الناس ، والبقي والبراغيث التي تموت لاحصر لها ، ولولا موتها لهلك كل حي في الأرض ، من الأعشاب ما ينبت كل سنة ثلاثة أرباع مليون بذرة ، ولوعاش نسله ثلاث سنين فقط لغطى وجه الأرض ، وبيان تسائر الميكروبات ، وميكروب الكوايرا ، بل الفيل المعلوم أنه قليل الولادة لوبقى نسله عشرين سنة لأهلك الحرث والنسل ، وهكذا الجراد والسمك والمحار والذباب والدودة الوحيدة وهكذا .
- ٢٠٧ البلاغة في القرآن ، وكيف كان ذكر الموت ولفظ مصاييح ، وكيف كان ذكر الأول روعى فيه علم

الطبيعة والتاريخ الطبيعي ، وذكر مصابيح روعى فيه الموازنة بين نظامنا في بيوتنا ونظام العالم كله .
٢٠٨ اللطيفة الثالثة في آية : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات » وفيها مقامان : مقام علم الطيران ، ومقام أن الطيور مختصرة من أجسام ذوات الأربع .

المقام الأول : كيف عرف الناس يطيرون في الجو ؟ وأن ذلك مبنى على محاولة تقليد الطير ، فأول من قام بذلك أربعة فأخفقوا جميعا ، فرجل إيطالي ، وراهب ألماني ، ومركيز فرنسي ، وصاحب الصحاح وهو الجوهري ، هذه هي الخطوة الأولى .

٢٠٩ أما الخطوة الثانية : أخذ الأستاذ [بورلي] يدرس حركات الطيور ، فتبين له أن الإنسان عاجز حق المجز عن تقليده .

والخطوة الثالثة : عمل المناطيد : لأن الناس يثسوا من الطيران كالطير ، فلم يبق لهم إلا أن يستعينوا بالغاز الخفيف ، ولكن الخطوة الرابعة كانت مبتدئة سنة ١٨٩١ م إذ راقب [ليلياتال] حركات الطيور عشرين سنة ، ولكنه سقط قتلا ، وبعده قام الشابان الأمريكيان سنة ١٩٠٠ م فنجحوا ، وأعلنت الولايات المتحدة ذلك سنة ١٩٠٧ م .

٢١٠ سنة ١٩٠٩ ينزل ذكرها في التاريخ بأنها فاتحة عهد جديد للطيران ، وأخذ يرتقى إلى وقت كتابة هذه الأسطر في هذا الفهرست ، وهي سنة ١٩٣٣ م فهذه هي هذه الطائرات تستخدم في تدمير الأساطيل وتشيت الجيوش ، وتخريب الحصون .

٢١١ المقام الثاني في بنية الطيور ، وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع ، مثلا : مناقرها في مقابل الأسنان ، والحوصلة في مقابل المعدة ، والقنصة في مقابل الكرش ، والريش في مقابل الجلد النخين وما عليه ، وهكذا .

٢١٢ اللطيفة الرابعة في قوله : « هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » اللطائف العامة في هذه السورة .

٢١٣ اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » الفطور في الألوان ، والفطور في المادة لا يراهم الناس ، وهما فعلا موجودان ، ولكن عجائب الحكمة أكلت النظام مع وجودهما ،

٢١٤ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » وههنا عجائب الانوار وبدائنها ، فترى النور الداخل في حجرتك ، فالجاهل لا يعقل منه شيئا ، ولكن العالم يستخرج من هذا الأمر المعتاد ما لا يخطر ببال الجاهل ، فهو يرى أنه على خط مستقيم بحاسة البصر ، وأنه حار باللس ، ثم ينتقل من ذلك إلى أن وضعه مقاب داخل الحجرة ، وهناك زاوية السقوط وزاوية الانعكاس ، وهناك تتجلى للعالم كيف يرى الإنسان صورته في المرآة مقلوبة ، ثم ينتقل من ذلك إلى انكسار الضوء ، ثم يلي ذلك البحث في الزجاج ، وأن الضوء فيه انكسار كانكساره في الماء إلى جهة من الجهتين على حسب الكثافة واللطافة ، ثم يلي ذلك الكلام على العدسة المحدبة الوجهين التي تكبر الأجسام وقد تقرّبها ، والمقعرة الوجهين التي تصغر الأجسام وقد تبعدّها ، وهناك تكون الزجاجات مقويات للأبصار مقربات للصور أو مبعديات وهكذا .

٢١٥ شكل ٢٩ صورة الضوء ، وهو على خط مستقيم في الحجرة المظلمة ، وفي شكل ٣٠ الصور الخارجة ظهرت واضحة مفصلة على لوحة الورق ، فظهر عليها سافلها فيه .

٢١٧ وفي شكل ٣١ شعاع الشمس يرى منعكسا على الخائط ، وفي شكل ٣٢ ظهور علاقة بين اتجاه الضوء الشمسي الواصل للزجاجة وبين اتجاه ضوء الشعاع المنعكس عنها ، وفي شكل ٣٣ المرآة التي انطبعت فيها الصورة .

٢١٨ شكل ٣٤ ظهرت فيه صورة سطح الماء قد انعكست فيه الصور ، وشكل ٣٥ ظهر فيه انكسار ضوء قطعة النقد ، وشكل ٣٦ أيضا فيه انكسار للشعاع ، وشكل ٣٧ فيه شعاع الكتاب يمر من الزجاجة إلى الهواء وفيه انكسار .

٢١٩ وفي شكل ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٤١ الشعاع فارق الكتاب ومرت من الهواء إلى الزجاجة ، ثم منها إلى الهواء ، والعدسة المحدبة الوجهين ، وزجاجتان محدبتا الوجهين ، والمكرو سكوب .

٢٢٠ وفي شكل ٤٢ تلسكوب يكبر الجسم .

٢٢١ وفي شكل ٤٣ عدستان مقعرتان من الجانبين ، وفي شكل ٤٤ ظهور اختلاف الأنظار قصرا وطولا ، وفي شكل ٤٥ اعتدالها بعد لبس المناظير المناسبة . وفي شكل ٤٦ هيئة اجتماع الأشعة في بؤرة .

٢٢٢ وفي شكل ٤٧ هيئة تبين كيف تكون هذه الأشعة محرقة ، وفي شكل ٤٨ هيئة حرق الصوفان بتلك الأشعة ، وفي شكل ٤٩ هيئة تحليل الضوء الشمسي إلى ألوانه السبعة بمروره بالزجاجة .

٢٢٣ وفي شكل ٥٠ هيئة الضوء الأبيض بانحدار الألوان السبعة . مامعنى ألوان المادة المشاهدة ؟

٢٢٤ ملخص ما تقدم كله .

٢٢٥ ضوء الشمس كما يفيد المادة يفيد الحياة .

٢٢٦ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات » الخ .

٢٢٧ أقسام الحيوان أربعة : الحيوانات الفقرية ، والحلقية ، والهلالية ، والشعاعية .

٢٢٨ كيف تكون البيضة طائرا صغيرا ؟

٢٢٩ شكل ٥١ حامة خرجت من بيضتها وهي عمياء .

شكل ٥٢ فروج خرج قادرا على المشي .

٢٣٠ شكل ٥٣ منقار الطيور الجارحة ، وشكل ٥٤ مخالب الجوارح ، وشكل ٥٥ النسر ، وشكل ٥٦ حداة شمال أمريكا ، وشكل ٥٧ نسر الألب ، وشكل ٥٨ الصقر ، وشكل ٥٩ الباز ، وشكل ٦٠ صقر آخر .

٢٣١ هنا ٧ صور لصقر ، وعصفور دوري ، وحداة ، وأنواع أربعة من البوم ، وههنا الكلام على الطيور المقلدة للإنسان ، ومنها البيغاء شكل ٦٨ .

٢٣٢ النوع الثالث : الحمام ، والرابع : الطيور البجائية ، وفيها صور كالطاووس ، والديك الرومي .

والنوع الخامس : الطيور الخائضة ، ولها أربع صور كالبعج والكركي وطير الماء ثم النعام .

٢٣٣ وله ثلاثة أشكال ، وهنا هيكل طير كبير لم يبق له وجود الآن ، شكله كبير جدا عثروا على بقاياها في الجزيرة الجديدة ، والطيور المنسوجة الأرجل ، ولها أشكال من شكل ٨٠ إلى شكل ٨٣ .

٢٣٤ وفي شكل ٨٤ وما بعده طائر الماء والبتروس وبلكان ، والطائر النهم ، ثم قرأض الخشب ، والغراب ، تبصرة في هذه الطيور .

٢٣٥ [سورة القلم] وكتابتها مشككة .

٢٣٦ التفسير اللفظي لهذه السورة .

- ٢٣٩ سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم ، ضرب مثل لأهل مكة الخ .
- ٢٤١ تفسير : « إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » إلى آخر السورة .
- ٢٤٢ إيضاح لما تقدم .
- ٢٤٤ [سورة الحاقة] مكتوبة مشككة . تفسيرها اللفظي .
- ٢٤٩ إيضاح تفسير الآيات بعلم الأرواح في عصرنا ، وكيف قال الميت الفرنسي : « هاتوا لي ذهبي ومالي » ليس معنى ذلك أنه كالموضوع في السلسلة ، إيضاح السلسلة والعذاب بها .
- ٢٥١ [سورة المعارج] مكتوبة مشككة ، تفسيرها اللفظي .
- ٢٥٤ غرائز الانسان ووجوب تهذيبها حتى تنجو من هذه النار .
- ٢٥٥ تفسير : « قال الذين كفروا قبلك مهطعين » إلى آخر السورة . لطائف هذه السورة .
- ٢٥٦ حكاية الشعبي وملك الروم .
- ٢٥٧ لطيفة في قوله تعالى : « إن الانسان خلق هلوعا » الخ .
- ٢٥٨ لطيفة في آية : « إنا خلقناهم مما يعلمون » : تبيان درجات صعود الروح بعد الموت في حال البرزخ من كلام [غاليلي] حين أحضره روحه بعد ماضربنا الأمثال بدرجات الارتقاء في سلسلة الحيوان وفي الجنين ، ودرجات الانسان بعد الولادة ، ودرجاتهم في الغنى والجمال والأخلاق ، فهنا [غاليلي] يصف ارتقاء الأرواح في البرزخ ، وكيف تصل إلى عوالم وعوالم كبيرة جدًا بديعة .
- ٢٦٠ [سورة نوح] مكتوبة مشككة ، تفسيرها اللفظي .
- ٢٦٥ أنواع الأصنام عند العرب وعند قوم نوح مثل : ودة ، وسواع ، ويعوق ، ونسرا ، واللوات والعزى الخ ، وكيف كان كل منها تابع لقبيلة .
- ٢٦٦ [سورة الجن] مكتوبة مشككة . تفسيرها اللفظي .
- ٢٧٠ ملخص مافي هذه السورة ، وهي ١٦ حكمة من أقوال الجن ، ثم يلها أوامر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم .
- ٢٧٢ تفسير السورة اللفظي .
- ٢٧٣ أقوال الناس قديما وحديثا في الجن وبدائع العلم الحديث فيها .
- ٢٧٤ وههنا محادثات الأرواح ، وهي مصداق لآيات هذه السورة التي لم تظهر آثارها ظهورا واضحا إلا في هذا الزمان ، وكيف ظهر أن الأرواح الناقصة المسميات بالجن تتلقى العلم عن الناس ، لأنهم أقرب إليها
- ٢٧٥ ملخص فهرس كتاب الأرواح الذي متى قرئ كله كان تفسيراً لهذه السورة .
- ٢٧٦ [سورة المزمل] مكتوبة مشككة ، ملخص الأحكام في هذه السورة . التفسير اللفظي لهذه السورة .
- ٢٨١ لطيفة في آية : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله » الخ .
- ٢٨٥ قاعدة حياة الأمم ، منزلة الاسلام في مستقبل الزمان ، غرور المسلمين اليوم .
- ٢٨٧ [سورة المدثر وتفسيرها] : ذكر الأوامر الستة التي أمر بها صلى الله عليه وسلم ، وهي جعلت تعلمنا لنا .
- ٢٩٥ لطيفة في آية : « وما يعلم جنود ربك إلا هو وماهى إلا ذكرى للبشر » ، وبيان عدد النجوم ، والكلام على الشعري الجمانية ، والسمك الرابع ، والتريا ، ثم تعداد عجائب لبعض حيوان البحر مثل الأخطبوط وغيره ، ثم الحشرات والنبات وكثرته ، فإن حبات اللقاح في زهرة عود الصليب تبلغ نحو

أربعة ملايين حبة وهكذا .

٣٩٨ [سورة القيامة] وتفسيرها اللفظي .

٣٠٠ بيان تفصيل عظام الانسان ، وهي ٢٤٨ .

٣٠٢ لطيفة في آية : « وجوه يومئذ ناضرة » وفي آية : « ألم يك نطفة من منى يعني » الخ .

٣٠٥ التشریح يقصد لعلوم كثيرة : الطب ، علم الأجنة ، علم النبات ، علم الحيوان ، علم النفس ، علم الیجادوجیا ، علم السياسة ، كل هذه العلوم لها اتصال بعلم التشریح من وجه ، وهكذا علم ماوراء الطبيعة .

٣٠٧ ضرب مثل بالقصر .

المقام الثاني في آية : « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » وأن هذه الآية تحتوى على عناصر اسعاد

الأم ، وعلى مقتضاها ألفت كتابي [أين الانسان] .

٣٠٨ تذكرة في آية : « بلى قادرين على أن نسوى بنانه » .

٣٠٩ [تفسير سورة الانسان] مكتوبة مشكلة .

٣١٠ تفسيرها اللفظي .

٣١٣ التفسير اللفظي من قوله تعالى : « ويطوف عليهم ولدان مخلدون » إلى آخر السورة .

٣١٤ لطيفة في آية : « إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » : وبيان أن هذه

الأمشاج عشرة : الأكسوجين والادروجين إلى آخرها ، ومنها ما هو محرق مثل : الفوسفور

والبوتاسيوم والكبريت ، فهذه محرقة ، وهي تناسب الروح من حيث سرعة حركتها .

٣١٥ لطيفة في آية : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » وبيان أن المقصود من هذه

الآية الاحسان لكل من على ظهر الأرض .

٣١٦ لطيفة في قوله تعالى : « وسقاهم ربهم شرابا طهورا » وأن سقيا الله للناس معناها تجريدهم من

المادة فيطهرون منها ، بخلاف ما يسقيه الولدان المخلدون لهم .

الذات الحسية والذات العقلية ، وضرب أمثال لذلك .

٣١٩ [سورة المرسلات] مكتوبة مشكلة .

٣٢٠ التفسير اللفظي لهذه السورة .

٣٢٢ لطائف هذه السورة : اللطيفة الأولى في قوله تعالى : « ألم نهلك الأولين ، ثم نجيبهم الآخرين » .

٣٢٣ اللطيفة الثانية في قوله تعالى : « ألم نخلقكم من ماء مهين » .

٣٢٣ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض كفاتا ، أحياء وأمواتا » .

(تمت الفهرست)



يطلب من

شركته كنبز ومطبعة على الباني الحلبى ولادة بصرة

جمهرة

خطبة العرب

في عصور العرب الزاهرة

العصر الجاهلي العصر الإسلامي العصر الأموي العصر العباسي الأول

جمعه وضبطه وشرحه

أحمد زكي صفوت

أستاذ اللغة العربية بمدرسة دار العلوم

أول كتاب استقصى بين صحائفه جميع ما قيل من الخطب والورايا في أزهى العصور العربية .
وقد اعتنى المؤلف الذي يتولى التدريس في أكبر مدرسة عالية بوزارة المعارف المصرية
بجمع أشتاتها : منقبا في بطون الأسفار العدة ، عدا ما تجشده من مجهود في ردّ ألفاظ المنهم
معناها والمستغلق فهمها إلى أصولها الصحيحة وتخايمها من شوائب التشويه الشائن الفاشي في
كتب الأدب والتاريخ .

وقد عقب كل خطبة ووصية بذكر مصدرها الذي نقله منه وذاياها بشرح يفسر غريب
ألفاظها ويحلّ عسير كلماتها ، وأورد فيها كل ما يحتاج إليه في فهمها من نبد تاريخية توضح
الظروف والمناسبات التي قيلت فيها .

فأصبح ديوانا ناما ومرجعا عاما يهد السبيل لقننيه ، وقطوفا ثمارها دانية لطالبيه ، يوفر
على المعلم وقته الثمين ويذلل ما يعترضه من عقبات ، ويكون للطالب خيرا معين .

[مطبوع على ورق عال بحرف مضبوط بالشكل]